



الْحَلَالُ الْحَاجُّ

لولى النعم الحاج عبا من سليم باشا الثاني خديو مصر

تقلم

محمد البنيوني

وردت نظاره المعارف هذا الكتاب للطباعة بمدارسها

في الطبعة الثانية

(تمت طباعتها في دار الكتب المصرية بمصر)

(سنة ١٣٢٩ هـ)

حقوق الطبع والارحام محفوظة للمؤلف

طبع بمطبعة الجليلية - بمصر

(الكاتبة نخارة الروم بطلقة التري)

(لاستادها محمد أمين - الحى - مصر - وأحد مدرسيها)

(فهرست)

— المقدمة والتمهيد —

صحيفة

- تقديم الكتاب الى الجنب العالى الخديوى .
كتاب عطوفة رئيس النظر الى المؤلف .
مقدمة الكتاب . ٥
- تمهيد — الامة العربية . العمالق . عرب الرعاة . الخط المسبارى . دولة عاد الاولى
المعينيون . طسم وجديس . تمود . ٨
- القحطانية — دولة سبأ الاولى . سد مأرب . ملوك حمير والتبابعة . أصحاب
الاخدود . استيلاء الحبشة على اليمن . دخول اليمن فى حكم المسلمين . دولة كنده .
دولة تنوخ بالعراق . دولة اللخمين بالعراق . جدول بملوك اللخمين بالحيرة . الفسانية
العدنانية — ملوك العدنانية قبل الاسلام . دول العرب بالاندلس . دولة العرب
بدمشق . الدول الاسلامية التى قامت بمصر . دولة الديلم . دولة بنى حمدان . الدولة
السامانية . القرامطة . دولة الغزنوية . الدولة الغورية . الغز . التتار . دولة فارس .
قيام دولة بنى عثمان وانتقال الخلافة العربية اليهم . طرابلس . بلاد الجزائر . تونس .
مراكش . شجرة القبائل القحطانية والعدنانية .
- صفة جزيرة العرب — أقسام الجزيرة . بلاد الحجاز . نظام الحكومة بها .
اليمن . طبيعة أرضها . محاصيلها . الدول التى قامت باليمن بعد الاسلام . استيلاء الدولة
العلية على اليمن . حرب الامام يحيى مع الدولة . فتنة عسير والادريسى . مدينة عدن .
السلطنات التى فى جنوب اليمن . عمان . استيلاء البرتغاليون على عمان . استيلاء
السلطان أحمد بن سعيد عليها . تقسيم بلاد عمان بين بنى سعيد . جزائر البحرين .
نجد . شعر . العارض . الحسا . أخلاق العرب . جدول بالقبائل العربية الموجودة
بجزيرة العرب . خريطة بلاد العرب . ٣٧

﴿ فهرست كتاب الرحلة ﴾

- صحيفة
- ١ سفر الحجاب العالى من مصر الى جدة - مدينة جدة . علة تسمية البحر الاحمر . قبر
أمناحواء . البرهان على أن طول الموميات ليس بدليل على وحدة طول الانسان فى
جميع أدوار حياته .
- ١٦ وصول الحجاب العالى الى جدة وقيامه معها الى محرة - وصف الطريق من جدة الى مكة
- ٢١ دخول الحجاب العالى مكة وإيامه بها قبل عرفة - صلاة الجمعة بالحرم . زيارته البيت
العتيق وشعور الانسان وهو فى داخله .
- ٢٧ الطريق القديم والحديث من مصر الى الحرمين - قبائل الباجه وعدم تعريف
الاسلام فى المعامله بين المسلمين وأهل الدمة . الطريق من فناء الى القصير فى
عاره وحاصره . الكلام على العمبه (أيله) .
- ٣٧ مكة المكرمة - أهل مكة وأجاسمهم . اعتهم . عدم دخول الحجاب الى مكة .
عوايد أهل مكة . مولد النبى . دار خديجة المشهورة بمولد فاطمة . دار الارهم
المحزومى . عارحراء . مزارات مكة . مدارسها . المطوفون وخرافاتهم - ونحريهم
ألفاظ القرآن الشريف . اليهود فى مكة . أسواقها . جوها . آثار مكة . عين زبيده .
نصيحة للعبايه أمر ماء الشرب . التكايا والاديره والدارس باله دس الشريف .
- ٦٩ تاريخ مكة - وصول ابراهيم واسماعيل عليهما السلام اليها . قریش وتقسيم
الامتيازات الدينية والاجتماعية بينها قبل الاسلام .
- ٧٣ حكم الاشراف بمكة . جدول تأمرامكة .
- ٨٧ الوهايه ومحمد على بالحجاز . آل سعود . آل الرشيد .
- ٩٤ الحرم المكى والزياذة التى حصلت فيه . حرقه . عماراته . الآثار التى فى داخله .
مستخدميه .
- ١٠١ الكعبة المعظمة و بناء ابراهيم لها - بناء الكعبة قبل الاسلام . عمل قریش برأى
الرسول عليه السلام قبل البعثة فى وضع الحجر الاسود . هدم الحجاج للكعبة و بناءه
لها . شكل الكعبة . الكعبة من الداخل . أصل كلمة شادر وان . الايام التى نفتح فيها
الكعبة . الاحتفال بنفسيل الكعبة .

- ١٠٩ الكعبة قبل الاسلام و بعده - الصائنة وهيا كلها . فكرة في أصل الطواف واستمداد الشرائع من الشرائع التي قبلها . علم النجوم عند العرب . أسواق العرب وسوق عكاظ .
- أندية العرب في الاسلام . السمعات واحترامها . احترام اليهود والنصارى وغيرهم للكعبة قبل الاسلام . الحرم ومسافته من الكعبة . أشهر الحج والاشهر الحرم .
- سبى الشهور . علّة تحريم شهر رجب . الطواف . المطوفون . أثر قدم ابراهيم . آثار الاقدام المحترمة . مقام ابراهيم . ثزمزم . فشل الامراء والملوك في تحويل الناس عن الكعبة . أرهة والكعبة . مرض الحدرى والزمن الذى وجد فيه .
- ١٣٣ هدايا البيت الحرام . كسوة الكعبة واصليها ومصاريفها . الكسوة القديمة . الحمل وأصله ومرتاته وخدمته .
- ١٤٦ حمام الحمى - احترام الحمام من زمن عبيد حمام الرسائل . الحج عند الامم المختلفة .
- ١٥٠ الحج عند العرب جاهلية واسلاما . احترام الاحجار من قديم الزمان . علّة احترام الحجر الاسود عند المسلمين . نفيس اليهود لقطعها من حائط سور المسجد الاقصى .
- لاميه أنى طالب في مناسك الحج في الجاهلية تأثر الحج على الاخلاق .
- ١٦٢ المسجد الاقصى - الصحرة الشريفة . الآثار التي حولها . اصطبلات سليمان . مدينة القدس وتاريخها . المزارات التي فيها . مدينة الخلد . مات لحم .
- ١٧٢ كيف تحج أيها المسلم - الادعية المأثورة من الابتداء في الحج الى النهاية منه .
- ١٧٦ محرمات الاحرام . جدول مناسك الحج على المذاهب الاربعة .
- ١٧٩ الاحرام . لباس الاحرام واسمعه من قدم الزمان .
- ١٨٦ الوقوف بعرفة - وكرة في تسميم بحراء عرفة بين أصناف الحجيج وقت الوقوف . شعور الانسان وقت الخطبة على جبل الرحمة .
- ١٩٠ الرجم وأصله عند اليهود والنصارى - المبور المرجوم .
- ١٩٣ المربان . تاريخه عند جميع الامم .
- ١٩٦ الآثار في منى - أيام الجنازات العالى في منى . الرهان على أن عائلا لا شراف أقدم أسرة في العالم . الاحتمال تلاوة فرمان الشرف معنى . مواكب الشرف .
- ٢٠٦ سهر الحجيج من مكة - الجمل وفسلوحيته . الشمعدن والسحلية . الحمير الحساوى .
- ٢٠٩ الطريق الى المدينة - الطريق المرمى . طريق الغاير . الطريق الشرقى
- ٢١٣ نظام المواويل - أخلاق الجمال . أعنية الحجاج . الحداء وأصله . الخطر في ابتعاد الحاج عن القافلة . ما يجب أن تكون عليه القافلة وقت سيرها .

صحيفة .

- ٢٢١ سفر الجناب العالى من مكة الى الوجه - الوجه والطريق منه الى البدايع . ركوب السكة الحديد الى المدينة . قطع السيول لسكة الحديد الحجازيه . مكتوب للجناب الخديوى يوم عيد الجلوس غرابة الانسان وهو فى صحراء بلاد العرب من انها مصدر مدنية الاسلام . شعور الانسان عندما يرى أعلام المدينة .
- ٢٣٦ الجناب الخديوى بالمدينة المنورة - الخدمة بالحجرة الشريفة . شعور الانسان وهو فى داخلها .
- ٢٣٩ الحرم المدينى - أصل الحرم المدينى والزيادة فيه . الروضة الشريفة . المقصورة الشريفة . الذخائر التى بها . بحث فى بيته صلى الله عليه وسلم بالمدينة .
- ٢٥٢ المدينة المنورة - حارات المدينة . كتب خاناتها . مزاراتها . مسجد حمزة . البقيع . مسجد قباء . آبار المدينة . العين الزرقاء . وديان المدينة . أهل المدينة وعاداتهم . المدينة فى صدر الاسلام .
- ٢٦٥ النبى عليه الصلاة والسلام - صفته . حكم من أقواله . هجرته . سيرته . غزواته .
- ٢٧٠ أبو بكر - صفته . تغلبه على أهل الردة . بعوثه الى فارس والشام . أولاده
- ٢٧٤ عمر - صفته . اتساع الاسلام فى مدته . فتح فارس والعراق والشام والقدس ومصر . بعض مكاتيب عمر لعماله . حياته فى شخصه . أولاده وعماله .
- ٢٨٣ عثمان - صفته . فتح أفريقيا . اتساع ملك الاسلام فى أيامه . كتابته للمصاحف وتوزيعها على الأمصار . تغير الناس عليه . قتله . أولاده وعماله .
- ٢٨٩ على - صفته . واقعة الحمل . واقعة صفين . الحكيم . حربه للخوارج . قتله . تنازل الحسن عن الامارة الى معاوية .
- ٢٩٦ الانصار . جدول أمراء المدينة .
- ٣١٢ سفر الحجيج من المدينة الى مصر - جدول أسماء محطات السكة الحديد الحجازيه
- ٣٠٥ الحاجر والكورنيتين .
- ٣٠٩ الطريق الى الحرمين فى عاره وحاضره . عوائد المصريين عند نزولهم من الحج .
- ٣١١ سفر الجناب العالى من المدينة الى مصر - مدائن صالح . الكلام على ثمود مدينة بطره (الرقم) الآثار التى بالشام . السراب . وصول الجناب العالى الى حيفاء . وصول الجناب العالى الى الاسكندرية ومنها الى مصر . تقاريط .



الى سمو ولي النعم الافخم

اقدر شرفي مولاي حفظه الله بخدمة ركابه العالي في حجه المبرور .
لذلك رأيت قياما بواجب شكر آلائه ، وحمد نعمائه ، أن أمثل صورة هذه
الرحلة الميمونة في هذا السفر ، وأن أكتب معها كلمة عمافي هاتيك الارحاء
الشريفة من المواقع المقدسة ، يرى المطلع عليها كل ماتهمه معرفته منها .
وقد رأيت ان أضيف اليها في هذه الطبعة من تاريخ الدول العربية
وجغرافية جزيرة العرب ماتكون به الفائدة أعم . والمنفعة أعظم .
وها أنا يا مولاي أرفعها لاعتنا بكم السنية بيد الا جلال والاعظام ، هدية
للاسلام والمسلمين ، وخدمة للعلم والتاريخ .

العبد المخلص

وغاية المأمول اسعادها بالقبول مـ

محمد تيتي البنوني



BOEHME & ANDERER, CAIRO

الحاج عباس حلمي الثاني خديو مصر

ولد بمطه الله في عمرة جمادى الثانية سنة ١٢٩١ (يوليو سنة ١٨٧٤) وجلس على عرش الخديوية في جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ (يناير سنة ١٨٩٢)

﴿ كتاب صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار الى المؤلف ﴾

تفضل صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار فأرسل الى صاحب كتاب الرحلة
المجاز به نكتات ثناء على مؤلفه ، يرى المطلع من خلال كلماته ذلك النور الذي يضي للناس
لمحجة التي تسلكها هذه الحكومة السعيدة السعيدة لترقية الامة ، بتنشيط المعارف ، وتربية
المدارك ، والنهوض بالهمم الى الدرجة التي تناسب مع الحياة الصحيحة . فهو اذا شكر
الكاتبين ، وحمد المحمدين ، فاعما يشكر نفسه ويحمداهتمامه بصلحة السداد ، من الطريق
الانفع والسبيل الاصلح . جزاه الله عن الامة خيرا جزاء .

وانا نتشرف بان يذكر هنا هذا الكتاب الكريم بكل اجلال وتعظيم ، ووجود ما كله
شكر لعطوفته على هذه العناية الكرى والرعاية العظمى :

القاهرة في ٢٦ دى الحجة سنة ١٣٢٨ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٠

عز زى لبيب بك

أمعت النظر في كتابكم الجديد الموسوم بالرحلة المجازية ، ورأيت فيه آيات البراعة في
التحرير والتحرير ، وأعجبت منكم التعويل على التحديق والتدقيق ، وأملى وطيد في أن ينسج
الكاتبون على منوالكم المفيد ، حتى يكون القارى مشاركا لكاتب في عواطفه ، مرافقا له في
حله ورحاله ، وتلك عدى أفضل وسيلة لترقية الملكات وترقية المدارك . أما ما زينتم به
صفائف الكتاب من الرسوم فقد زادت في قيمته الثمينة ، وقد تحلت بها تلك المعاهد المقدمة
للانظار ، وتمثلت تلك المشاهد المباركة للعيان . هذا فضلا عن المباحث العمرانية في فلسفة
الحج ، فقد أفصحت فيها بكم السيل ، وجردتم هذا الموضوع الخليل مما اعتوره من الشوائب
على طول الزمان ، وأر زعموه في حلقته الاولى وبهجته الصحيحة ، وفقكم الله للقيام بأمثال هذه
الخدمة للامة والسلام .

رئيس مجلس النظار

محمد سعيد .

﴿مقدمة الكتاب﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسل رحمة للعالمين . أما بعد فندشرفني
مولاي الحديو الاعظم بتعييني مندو بأخصوصياً في خدمة ركابه العالی مدة سفره الى
الافطار المحازيه . و بعد عودة سموه بسلامة الله أسعدني بصدور أمره الكريم إلى هذا
العاجر بوضع شئ عن هذه الرحلة المباركة .

ولما كانت هذه البلاد غربة للآن كما يحلدوى المصيرة والعرفان، مع أنه يقصدها
سنوياً أكثر من مائتي ألف نفس من المسلمين، وكل ما كتب عن رحله الحاج الهال لا يخرج
عن بعض المناسك التي يصل المطلاع في كثرة شعاعها ووعوره طرقها ومحاهلها، مما يزيد ارتباك
وجهاله، رأيت أن أضيف إلى الرحلة الحديويه كلمة عن المشاعر الدينية المقدسة، مبتعداً عن
الترهات التي ألحمتها بمبالغة الوهم أو مغالبة الغرض، مما اتخذته أعداء المسلمين وسيلة إلى
الطعن عليهم في دينهم الذي جل ما تعرفوا به منه إنما أخذوه عن أولئك الجهلاء الذين رزى
هم الإسلام، فيكيلون لهم الكلام جزافاً من غير ما يشعرون بأنهم به ينتحرون !!
لذلك سلكت في هذا الطريق مسالك التحميق والتدقيق، حتى جاءت كلمتي فيه
والحمد لله مسفرة عن حميفة الحج، صبيحة الغرض منه، شارحة مناسكه بعبارة هيينة آئنة
سهلة على كل مسترشد وصروريه لكل من قصد سمرأ إليه أو معرفته .

وإني قياماً بهذا الواجب الاقدس لم أقتصر على الكلام في النقط الدينية ، بل تناول بحثي ما يهم القارئ من المسائل العمرانية ، والاجتماعية ، والجغرافية ، والتاريخية ، مما لم يسبقني اليه أحد من الذين كتبوا عن هذه الديار ، راجياً بذلك الخدمة العامة للعلم والاسلام . وتيمناً للفائدة قد وضعت في هذا السفر المبارك كثيراً من الخريط الجغرافية ، والرسوم النظرية التي وضعتها بنفسى ، والصور الفوطوغرافية التي أخذت بمعرفة بعض من كان في معية الجنب العالى الخديوى وسواهم من أفاضل المصوّرين الذين سبق لهم السفر الى تلك الارضاء من مصريين وغيرهم ، ووضعت للحرمين الشريفين رسماً نظرياً معتقداً على الابعاد التي وضعها لهما المرحوم محمد صادق باشا المصرى وغيره من مهندسى الانراك . و رسمت كروكى مكة ، ومنى ، وعرفة ، والمدينة ، مستمداً من بعض الرسوم القديمة المأخوذة عن الكروكيات التي وضعها بوركارت في أوائل القرن الماضى لهذه الجهات التي لم تختلف كثيراً في هيئتها ونظام أبنيتها وعمارتها عما كانت عليه من قرون مضت .

هذا وإني أشرف بتكرار عبارات الشكر ان إلى صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار على تنشيطه للعاملين بأعلان رضاه عن هذا العمل ونثائه عليه ، رافعاً واجب الامتنان الى نظارة معارفنا الجليلة وخصوصاً الى ناظرها صاحب السعادة حشمت باشا على تقرير هذا الكتاب للمطالعة بمدارس الحكومة ، مسدياً آيات الحمد الى من اسعدونى بتقريره من أهل الفضل والعرفان : أخص بالذكر منهم صاحبى الدولة والفقامة الرس حسين كامل باشا ، والبرس فؤاد باشا رئيس الجامعة المصرية ، ومولانا الاستاد الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الازهر ، والاستاد الشيخ عبد الكريم سلمان ، وجناب المستشرق الكبير والعالم الجليل الالماني المسيوشو ينفورت ، والعلامة الفرساوى المسيود فليز ، وجناب المسيوما سبيرو مدير الانتكخانه المصرية ، وغيرهم من أكابر العلماء والكتاب لاسيما حضرات أصحاب الجرائد المصرية عربية وأفريقية ، سواء الذين استقبلوه بالمنة أو انتقدوه باخلاص .

وهنا أقدم عاطرتنا إلى السادة الأفاضل الذين بهوتني إلى ماجرتني إليه السهو أو السرعة في العمل، مما أصابته في هذه الطبعة التي عنت بها وأكملت فيها الكلام على ما أهملته في بعض مواضع الكتاب في الطبعة الأولى، وأخص بشكراني حضرة صديقي الفاضل محمد كمال الذي ساعدني شيء كثير من معلوماته الثابتة عن جزيرة العرب التي أقام فيها زمناً .

ولقد أضفت إلى الكتاب في هذه المرة بعض الصور الفوتوغرافية التي تزيد في فائدته، كما أضفت إليه أبواباً مهمة جداً مثل: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وباريخ الخلفاء الراشدين، وعمدت به بابا لبنت المقدس . وآخر للتقراين وأصولها في جميع الديانات، وبعد كمال طبع الكتاب وجدت أن أضيف إليه تمهيداً عن وصف جزيرة العرب الحالية وتاريخ جميع الدول العربية التي قامت قبل وبعد الإسلام، استرسل القلم فيه بما لم يمكنني إيقافه إلى الحد الذي يناسب مع كتاب الرحلة . وقد أضفت إلى ذلك جداً أولاً مهمة جداً بملوك بعض هذه الدول، وبأشراف مكة والمدينة، وقبائل العرب الموجودة الآن، وعملت شجرة لأمهات القبائل العربية من قحطانية وعدنانية وفرشية، مما لم يسبقني لملها أحد من المؤرخين، والله المسؤول أن يرفع به عنه وكرمه .

محمد بن أبي بكر

تهيد

لما كانت بلاد العرب يقصدها سنويا نحو ربع مليون من المسلمين لتأدية فريضة الحج ، رأيت أن أكتب عنها كلمة تمحضها مما ألصقت بها الاوهام ، وشوّهته الرواة على مدى الايام . وقد رأيت أن أقسم الكلام فيها إلى قسمين : قسم نتكلم فيه عن أمة العرب وأصلها وقبائلها وبطونها ودولها قبل الاسلام وبعده ، باختصار جمع اليه ما تشنت من الخفائق في كتب التاريخ ، وقسم نتكلم فيه عن صفة جريزة العرب الحاضرة وعشائرها وحكوماتها مما تغمض معرفته على كثير من الناس ، فنقول وبالله التوفيق .

الامة العربية

الامة العربية من أعدل الامم وجوداً ، وأطولها عمراً ، وأوسعها سلطاناً ، بل من أقدم الامم مدنية وعمراناً . ولقد كان لها قبل الاسلام من الدول ما يتحلى جيد التاريخ بذكره ، كما كان لها بعده ذلك الملك الشاسع الاطراف ، البعيد الاكناف ، الذي كان له الشأن الاول في سياسة العالم بأسره مدّة من الزمن طويلة . وقد رأيت أن أقسم الامة العربية بالنسبة لاصولها الى ثلاثة أقسام : القسم الاول العماليق أو العرب البائدة ، الثاني العرب القحطانية ، الثالث العرب العدنانية :

العماليق

العماليق هم أولاد عمليق بن لاو ذبن سام وأوّل ما وصلنا من أمرهم أنهم كانوا يسكنون على حاله بداهة في الصحراء التي بين العراق والعمّة . وكانوا يهيمون الى فصائل صغيرة تنفل من جهة الى أخرى وراء الكلا ، وكانت لهذه الفصائل مشيخات منها تقوم بطبيعة الحال بتدبير أمورهم ، وكان ذوو العصبية منهم يشتغلون بنفل العجّارة بين نابل ومصر . وما زالوا على هذه

البداءة حتى كبرت عصبيتهم، وتغلبوا على بابل، وقامت بهامتهم في القرن الخامس والعشرين قبل المسيح دولة يسمونها دولة الساموآيين من (بنى سام بن نوح). وماز الوابها حتى ظهر منهم في القرن الثالث والعشرين قبل المسيح ملك اسمه حمورابي، فتغلب على مملكة آشور وما حولها، وأصبحت له مملكة واسعة، بلغت في زمنها أسمى ما وصلت إليه أية دولة لذلك العهد في الرقي الأدبي والمادي، وسميت بمملكة حمورابي. واستمرت هذه الدولة حاكمة إلى أواخر القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد: يعني مدة أربعة قرون تقريباً. وقد عثر النقبون الذين يعملون في آشور وبابل لهذه الدولة على كثير من الآثار التي تدل على رفيتهم في مدنييتهم، مكتوبة بالخط المسماري^(١)، مما حكوا معه أنهم أبعد الأمم رقياً في حضارتهم.

ولما وصلت هذه الدولة إلى سن الشيخوخة بطبيعة الحال، ضعف أمرها وانفصلت عنها أطرافها، واستقلت آشور. ولم تقف هذه المملكة الأخيرة عندهذا الاستملال، بل نهضت بحكومتها حتى استوائت على بابل في سنة ١٢٨٠ ق م مدة الملك تغلاب بلسر. وأخذ الآشوريون يعاملون العرب معاملة قاسية، فلم يقبلوا الناء على الضيم، كما هي شيتهم في كل زمان، وهاجر قسم كبير منهم إلى جنوب جزيرة العرب وإلى غربها.

.. الشاسو (الهكسوس) وهم عرب الشرق أو عرب الرعاة -

بينما كانت الدولة الحمورابية قائمة في بابل، دخلت الهكسوس إلى مصر من برزح السويس في القرن الثالث والعشرين قبل المسيح، واستولوا على الوجه البحري وكونوا لهم به دولة كان مركزها في مدينة صان. وأول ملوكهم يسمى سسلاطيس وهو رأس العائلة السابعة عشرة المصرية. ومكث عرب الرعاة بمصر إلى أن أجلاهم عنها الملك تحتمس ملك طيبة في (الوجه القبلي)، حوالي سنة ١٧٠٠ ق م. وإيست لهم بها آثار تدكر، اللهم إلا بعض

(١) الخط المسماري أخذه العماليق عن السومريين الذين كان لهم الملك فلمع على بابل. واما تسمى بذلك لانهم كانوا يكتبونه أو لا يرؤوس المسماريين فتشأ على الطين. وكثيراً ما كانوا يحرقونه بعد ذلك حفظاً له على كروور المصور. ولقد أدخل العرب على هذا الخط تحجمات كثيرة. بدت بها اشكاله وكلماته، وكان لا يزال يقرأ قبل الاسلام في اليمن ولكنه لا شيء أمره. فابشار الخط السطحي الذي كان يكتب به الحجار يون.

تمائيل لمعبوداتهم وخصوصاً لمعبودهم سوبيخ . و يقال ان منهم فرعون ابراهيم ، والعرب
يسمونه سنان بن الاشيل ، وفرعون يوسف وسمونه الريان بن الوليد ، وفرعون موسى
و اسمونه الوليد بن مصعب . و يؤكدهم ان هذا الاخير مصرى الخنس و دليلهم على
ذلك ان الاولان كانا يعطمان على الاحاب ، أما الثالث فكان يعم عليهم .

دوله عاد الأولى —

لما نزع عرب الشمال بعد سقوط الدولة الحمرانية الى جنوب جريده العرب ، في القرن
العتريين قبل المسيح كما قلنا ، كثر نوادوله عاد الأولى . وكانت مواطنهم بأحفاف الرمال بين
النين و عمان . ومؤرخو العرب يعمون أن عاداً أقدم الأمم . ولذلك فاهم بطلعون وصف
« عادى » على كل شئ قديم لا يعلم لهم تاريخه . ويدكرون لهم أموراً من الغرابه بمكان : كم قولهم
ان عاداً عاش ١٢٠٠ سنة و ولد له . . . و ولد له . . . و غير ذلك مما يمكن مراجعته
في توارخهم . وذكروا أن عاداً لما مات ملك بعده سوده : شديد ، ثم شداد ، ثم إرم . وقالوا ان
شداد أهو الذي بنى مدينته إرم داب العماد ، وقالوا في وصفها ما نفى الغرابه نفسها باهتة
أمامه : « على أن بعض المفسرين قالوا في تفسير قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك عاد إرم
دات العماد » إهدات الرفعة ، وان إرم اسم جسد هم : و به تكون دات العماد وصفاً لعاد .
و يؤيد ذلك نسبتهم الى إرم : فيقولون عاد إرم و نمود إرم . ولا يبعد أن كان لعاد من
شمال مخر المينان في ملكهم هدمه ، كان لهم في ذلك الوقت في ممالك الشام ومصر والهند
وسواها ، يدل على ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء خطابهم : « أنذون بكل ريع (مرقع) أنه
(فسروها بالساء الفحيم) نعثون و يحدون مصابيح لعلكم تحذون » ؛

و في مدد شداد نفع عادوا أكثر وامن الظلم وامتداد ، فأرسل الله تعالى اليهم هوداً .
فدعاهم الى ترك الاوثان وعبادة الرحمن ، فكذبوه و عادوا في ضلالهم . فاقطع عنهم المطر مدة ،
فأرسلوا و قد منهم الى مكة يستسمنون ، ولكنهم استقروا في طغيانهم . ولما رأى هود أن
سخط الله نازل بهم لا محالة ، اعزلهم واعد عنهم مع من آمن به . وسحر الله عليهم رحاحمده سبع
ليال وثمانية أيام حسوما (متاعات) وأهلكهم .

وفد ذهب بمضى المؤرخين الى أن عاداً الاولى اعماهم من قبل عرب الرعاه بعد طردهم من مصر: وعليه يكون ابتداء حكمهم بالاحقاف في العصر السابع أو السادس عشر قبل الميلاد. ولما هلك عاد بقي هود ومن آمن معه. وانضم اليهم لعمان بن عاد الذي كان ذهب بوفدهم الى مكة^(١)، ولحق بهم خلق كثير قاموا بدولة جديدة يسمونها عاد الثانية، دام ملكها ألف سنة، ثم تغلب عليهم الفتحطانيون فانمحت دولتهم وانقطع ذكرهم.

وعلى كل حال فإن المقامين لم يكشفوا لنا إلا شيئاً من أخبارهم، وعايه ما ذكره أنهم اعثروا في تلك الاحقاف على مغائر محفورة في الصخور التي تراكت عليها طمته كثيفة من الرمال. ولعلمهم يبدون لنا قريباً هذه المحب التي اختفت من ورائها أخبار دولة كبرى لا يعداها خدمت الاساسية خدمة نذكرها لها مع الشكر.

.. المعبيون ..

المعبيون أو بنو معين قوم كانوا يسكنون شرق بلاد اليمن فوق حضرموت، وكانت لهم بها دولة كبيرة. ومؤرخو العرب لم يحدثوا بكلمة عن هذه الامة. والذي أحسبنا أمرهم اعماهم أولئك المستشرقون، وعلى الخصوص هاليو المراساوى، الذي أوفدته بلاده الى اليمن سنة ١٨٦٩م، واكتشف كثيراً من آثارها أهمها مدينة معين. وسار على أثره علاذر الالماني وعسره، وحدثوا شيئاً من أخبار هذه الدولة. وقالوا ان بنى معين كانوا دوى مدينة وكان اشتغالهم بالزراعة في سهوح جمال اليمن وسهول حضرموت. وأهم أقاموا هناك السدود وفتحوا الخللجان وسيروا الماء الى مزارعهم. وقد اختلفوا في تقدير عمر هذه الآثار: فبعضهم ذهب الى أنها من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وذهب آخرون الى أنها من القرن

(١) اذا اعتبرنا ان عاداً لم ترح الى بلاد اليمن إلا في القرن العشرين عنى أمد ما ذكره المؤرخون العصريون، كان وفدهم الى مكة للاستسقاء إنما كان بعد الاستسقاء بالكعبة بعد بناء إبراهيم لها، لا كما قال بعض مؤرخي العرب من ان وفدهم كان قبل ذلك.

الثامن أو السابع . وقد كتب الاستاذ هومل بالالمانية كتاباً في لغتهم ولغة سبأ . ولما كانت الخطوط التي على تلك الآثار مسمارية ولغتها بابلية ، كان المعينيون من غير شك من عمالة الشمال . ولا يبعد أنهم هم عاد الثانية ، ان لم يكونوا نزحوا الى هذه البلاد في تيار قدوم عاد الاولى اليها ، وربما كانت لهذه الغلبة عليهم ، ولهذا لم يذكر اسمهم معها . وعلى كل حال فإدام المسميون لا يفترقون عن البحث عن آثارهم ، ولا يبعد أن ينكشف لنا أمرهم في الفريب العاجل ان شاء الله .

— طسم وجدبس —

هما أمتان يذكرهما مؤرخو العرب ، انهما من العرب البائدة . وقد كانتا تسكنان في اليمامة شرق بلاد العرب . وكانت لطسم الكلمة السائدة لكثرة عصيتها . وكان سر كرمكها في مدينة تسمى المريه وهي مدينة الحجر ، ولا تزال بها آثارهم الى الآن . ويوجد في مدينة جمعه قصر يعبرون عنه بالعمادي (ويعنون أنه قديم جداً) . وربما كانت لهذه الصفة نسبة صحيحة ، وان هاتين الامتين اقدمتا الى هذه البلاد مع عاد أو بعدها بزمان قليل . وربما كان لعاد الحكم عليهم ، فلما هالكت هيتا في عرلة حتى دخلتا في حكم التباينة . ومازالتا حتى تملك من طسم رجل ظالم فاجر . فغضى بأن لا يرف فتاة من جدبس الى نعلها قبل دخولها عليه . فانفت لذلك جدبس وتعالى على قتله : فدبوا سلاحهم في الرمل ودعوه الى وليمة عندهم ، فحضر في حاصة فومه . فهجموا عليهم وقتلوه عن آخرهم . وذهب نفر من طسم واستنصرخوا تبع حسان أبي ساعد . فساق جنده على جدبس . وقالت لدطسم ان بالتمامة امرأه تسمى الرقاء تنظر من بعد ثلاث ليال ، فخشى ان هي أبصر ما أخبرت فومها فيستعدون لها . فأمر كل واحد من رجاله أن يأخذ فرعاً من شجره ويحمله أمامه . فلما فعلوا وأبصرتهم الرقاء قالت لفومها :

انى أرى شجراً من حلقه بشر * فكيف نجمع الاشجار والبشر

نوروا نأجمعكم في وجه أولهم * فان ذلك منكم فاعلموا ظفر

فاستخفوا علمها ولم يصدقوا قولها ، فدبهم خيل بيع فافنؤهم عن آخرهم . ثم أصاب

ما بقي من طسم ما تشنت به شملهم ، ونفروا الى جرائر المحرين وغيرها ، وبه قضى على ذكرهم . وكان ذلك في أوائل القرن الخامس للمسيح .

تمود

ومن أهم العمالمة تمود . نزحت من اليمن الى الشمال فنزلوا مدائن صالح ، ثم كانت لهم بها دولة كبيرة ، وآثارهم فيها الى الآن ، وأهمها ما يسمونه قصر البت ، الذي لا تزال توجد عليه نقوش يصعد تاريخها الى قبيل ميلاد المسيح . ولقد اختلف المؤرخون في اسمهم كانوا أصحاب السلطان على النبطيين الذين كانوا يسكنون في بطره ، أو اسمهم كانوا تابعين لحكم عرب الاساط ، مما هو مشروح في آخر باب من هذا الكتاب عند الكلام على مدائن صالح .

— القحطانية —

القحطانيون هم سوفحطان بن سبأ الاكبر بن سام بن نوح . وكانوا يسكنون في شمال جريرد العرب ، ونزحوا الى بلاد اليمن في القرن الثامن قبل المسيح في من نزع اليها بعد تحكم الآشوريين فيهم . وربما كانوا معاصرين للمعبيين ، وانتهى أمرهم بالغلب عليهم ، وقاموا في اليمن بدولة جديدة يسميها مؤرخو العرب سبأ الاولى .

ولقد ذكرها أعلمهم عرضاً عند الكلام على سد مأرب . والحمداني أول من شرحه لنا شرحاً وافياً . وأتى من بعده أرنؤ ، وهاليقي ، وغلادر ، في القرن الماضي فأيدوا قوله ورادوا عليه مما أخذوه من الآثار التي نقلوا شيئاً كثيراً منها الى مناحف أور وبا بعضها منقوش على أحجار وبعضها على برز .

و يفهم من مجموع ما قالوه ان مياه الامطار كانت تكون في بلاد اليمن مجبالها المرتفعة ، ثم تنزل على هيئة سيول كبيرة في وديان الى الشرق والغرب . والوديان التي كانت تنزل الى شرق مدينة مأرب كانت تجتمع في وادي يسمونه الميزاب ، يرتفع عن سطح البحر بالف ومائة متر ، ويحيط به جبال من كل جهاته . وهذا الوادي يصيق من جهته الشرقية الشمالية وينحصر بين

جبلين يسمونهما تلق الايمن و تلق الايسر في مسافة ذكر الهمدانى انها . ٦٠ خطوة، أى ٤٠٠ مترتفر يبا ، وهالك يسمى وادى أدينة، و بعده يتفرج الوادى انقرا جاعظيا وتضييع فيه هذه السيول بلا فائدة . فاقام السبثيون على مسافة قليلة من مضيق هذا الوادى سد امان الحجر، طوله ٨٠٠ دراع وعرضه ١٥٠ ذراعا كوّن مع جانبي البلقين الخارجين مجرى عموديا على مضيق أدينة يحوّل الماء عن محراه الاصل الى دات اليمين وذات اليسار . وجعلوا الفتحتيه من جهتيه سدوداً ، فيما وراءها محار يسير فيها الماء الى الجهة التى يراد سوقه اليها على حسب ارتفاعها أو انخفاضها . وهذا السد هو ما يسمونه سد العرم . وأول من بناه يشعمر ملك سبأ فى القرن السادس قبل المسيح . ووجدوا اسمه أخيراً منقوشاً على جبل تلق فيما يقابل السد المذكور . وزاد فيه خلفاؤه بما كان يزيد فى فائدته . ولقد حصل من وراء هذا السد وترتيب المياه بواسطته ، تنظم الزراعة فى تلك الصحراء بما أنى بالحير الحسيم لبلاد اليمن الشرقية : لانه حولها من فخر نلمع الى رياض وجنان ، حتى كانوا يعبرون عن الارض التى كانت فى يمانه بالحمة اليمنى ، والتى فى يسر ادا بالحمة اليسرى .

وما زال هذا السد^(١) حتى انكسر محصل منه خراب جسيم قضى على دولة سبأ ، واشتمت أهلها فى جزيرة العرب : ونزلت خزاعة مكة ، ونزلت الاوس والخزرج يثرب (المدينة) ، ونزلت الازد عمان واليمامة ، وسار مزيميا الى الشام فسكان منهم العسايون ، ونزحت نخم الى العراق وكان منهم المنادرة . و بذلك انتهى أمر سبأ الاولى وفى المثل : تفرقوا أيدي سبأ . وقد ورد تاريخ سبأ بالتفصيل فى القرآن الكريم قال تعالى « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حط^(٢) وأثل وشئ من سدر

(١) بعد كسر هذا السد ماء ملوك حير وكانوا يعمدونه بالعمارة ويقيمون ما على . . . وآخر ما وصلنا من أمره أثر لا رهة الاشرى محفور على بعض جهانه نقوش مرأها علادر : وفيها كنيته دخول اليمن فى ملك الاحاش ، وقد ذكر فيها ان سد مأرب كسر ففناه ابرهة (انظر كتاب العرب قبل الاسلام لجورجى زيدان) ثم كسر قبل الاسلام وهمل ، ولا تزال آثاره موجودة وخصوصاً العربية منها . (٢) حط حامت وقيل هو الاراك أو العصا .

فليل . ذلك جز بناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سير وافيها ليالى وأياما آمنين . وقالوا ربنا أعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » .

دولة سبأ الثانية أو حمير

لما انهدم سبأ دولة سبأ الاولى ، وتلاشت مديسة مأرب عاصمة ملكهم ، صارت السلطة ببلاد اليمن متفرقة في أيدي من تبقى فيها . وكان لكل كفر أو قرية أو مديسة أو قصر رئيس منها . وهؤلاء الرؤساء كانوا يسمونهم الألداء : وكانوا يعرفون في الغالب بإضافة اسم الله اليهم (بلفظ دو) فيقال ذونا عيط ، ودور يدا ، ودوظفار مثلاً يعنى صاحب ناعط وصاحب ظفار الخ . وأشهر ما وصلنا من أسماء هذه المصور و باله شعراء العرب ومؤرخوهم في وصفها وخصوصاً الهمداني : قصر ناعط ، وقصر سلحين ، وقصر كوكبان ، وقصر غمدان ، وقصر بينون الخ .

وكان الموى من هؤلاء الألداء يتغلب بطبيعة الحال على بعض البلاد التي في جواره ويكون له الحكم فيها ، وهما لك يسمى مجموع مملكته محمداً ، وصاحبه يسمى فيلاً . وربما اجتمعت جملة محافد في حكم شخص واحد فيسمونها مخالفاً وحاكماً يسمى ملكاً : وعلى هذا كان شأن الدولة في حمير في صغرها وضمخامتها .

وما زالت الحال في هذه البلاد على هذا النظام حتى قام صاحب ريدان (ظفار) واسمه علمان ، في نهاية القرن الاول قبل المسيح ، وتغلب على حملة محاليف ومحافد تكونت منها مملكة حمير الثانية (١) . وما زالت هذه المملكة تكرر في زمن خلفائه حتى دخل في دائرتها

(١) ذكر حمير الاصفهاني ان ملوك حمير ستة وعشرون ملكاً ، مدة حكمهم ١٧٠٠ سنة . وهم : الحارث الرايش ومدة حكمه ١٢٥ سنة . أبرهة دالمار وحكمه ١٨٣ سنة . افرقش بن ابرهة وحكمه ١٦٤ سنة . المددو الادعر وحكمه ٢٥ سنة . هيدهاد بن شرحبيل وحكمه ٧٥ سنة . بلقيش بنت هدهاد وحكمها ٢٠ سنة . اشتر يعمر وحكمه ٨٥ سنة . شعير يعمر وحكمه ٣٧ سنة . أبو مالك وحكمه ٥٥ سنة .

حضر موت وما والاها من البلاد شر قادمة حكم شمر برعش، في نهاية القرن الثالث للميلاد، وبها قامت دوله التبابعة (واحدتها تنع) ومعناه ملك الملوك، وهو في قوة لفظ امراطور عند الرومان. واستمر الحكم فيها لخملائه الى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد، أي مدة ٦٣٠ سنة، تولى الحكم فيها جملة ملوك منهم ^(١).

وأشهر ملوك التبابعة الهدداد، وكان يحكم من سنة ٣٤٥ الى سنة ٣٧٢ بعد الميلاد. ثم أبو كرب أسعد كان يحكم من سنة ٣٨٥ الى سنة ٤٢٠ بعد الميلاد. وحسان بن أسعد وحكمه من سنة ٤٢٠ الى سنة ٤٥٥. وذو نواس وحكمه من سنة ٥١٥ الى سنة ٥٢٥.

وافد كانت حكومة التبابعة في غاية الرقي، وكانت بلادهم تسمى عند الرومان ببلاد العرب السعيدة، والعرب يسمونها اليمن الخضراء وكانت حضارتهم لا تقل عن حضارة الآشوريين وغربهم من الممالك التي كانت في شمال جزيرة العرب ان لم تزد عنها: وذلك لاحكامهم بتجارة

تبع من الاقرن وحكمه ٥٣ سنة. دوحيشان وحكمه ٧٠ سنة. الاقرن من أتي. الملك وحكمه ١٦٣ سنة. كايكرب وحكمه ٣٥ سنة. أسعد أبو كرب وحكمه ١٢٠ سنة. حسان بن تبع وحكمه ٧٠ سنة. عمرو بن تبع وحكمه ٦٣ سنة. عبيد كلال وحكمه ٧٤ سنة. تبع بن حسان وحكمه ٧٨ سنة. مرثد بن عبيد وحكمه ٤١ سنة. ولاية بن مرثد وحكمه ٧٣ سنة. ابرهه بن الصياح وحكمه ٠٠٠. صهان بن بحرث وحكمه ١٥ سنة. حسان بن عمرو بن تبع وحكمه ٥٧ سنة. دوشاتر وحكمه ٢٧ سنة. ذو نواس وحكمه ٢٠ سنة. دوحدن وحكمه ٨٠ سنة. عليه كوا وأولهم وهو الحارث الراش كان يحكم في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد سار المؤرخ بويل دي فرجيه على نحو في كتابه تاريخ العرب، ويخالفهما في ذلك أبو الهداء وغيره من مؤرخي العرب.

(١) في عدد ملوك التبابعة وأسمائهم ومدة حكمهم خلاف بني مؤرخي العرب والمؤرخين العصريين الذين دوا حكمهم على ما عثر وأعليه من آثارهم. وملوك التبابعة على ما جاء في كتاب العرب قبل الاسلام هم: شمر برعش وحكمه من سنة ٢٧٥ ميلادية الى سنة ٣٠٠. ثم دواقر بن الصعب (افريقش) وحكمه من سنة ٣٠٠ الى ٣٢٠. وعمرو روح بلفيس وحكمه من ٣٢٠ الى ٣٣٠. بلفيس وحكمها من ٣٣٠ الى ٣٤٥ (وهي غير بلفيس سليمان لان هذه كانت في العصر العاشر في م). الهدداد أخو بلفيس وحكمه من ٣٤٥ الى سنة ٣٧٤. أياكرب يعم وحكمه من ٣٧٤ الى ٣٨٥. أبو كرب أسعد وحكمه من ٣٨٥ الى ٤٢٠. حسان بن أسعد وحكمه من ٤٢٠ الى سنة ٤٢٥. شرحبيل يعمر بن أسعد وحكمه من سنة ٤٢٥ الى سنة ٤٥٥. شرحبيل يوف وحكمه من سنة ٤٢٥ الى سنة ٤٧٠. معد يكر يعم وابيه لحيه (لعله لحيه) وحكمهما من سنة ٤٧٠ الى سنة ٤٩٥. مرثد اللات يوف وحكمه من سنة ٤٩٥ الى سنة ٥١٥. دونواس (دميانوس) وحكمه من سنة ٥١٥ الى سنة ٥٢٥. دوحدن وحكمه من سنة ٥٢٥ الى سنة ٥٣٣.

الهنود والفرس والاحباش والمصريين والسوريين . وكانت الزراعة متقدمة في بلادهم التي كانت لذلك العصر كلها مزارع وساتين ورياضا وغياضاً . وكانوا يستخرجون من جبالهم المعادن المختلفة كالذهب والفضة والاحجار الكريمة كالياقوت والزمرد والعقيق . و بذلك كان السبئيون والحميريون من أغنى أهل الارض وأكثرهم حضارة ورفاهية : فكانت لهم القصور الفاخرة ، والرياض الزاهرة ، والرياش الباهرة ، وحسبك ما قاله الشعراء ودكره المؤرخون في وصف قصورهم ، ذكرك بعض ما قاله الهمداني في وصف قصر كوكبان : « كان مؤزر الحارح بالفضة ، وما فوقها حجاره بيض ، وداخله ممرد العرعر والفسيفساء والخرع^(١) وصنوف الجوهر » . وقيل في وصف قصر بينون :

واسأل بينون وحيطانها * قد نظمت بالدر والجوهر

ولم يقتصر حكم التبابعة على اليمن بل امتد الى بلاد الحجاز واليمامة وما بينهما من قبائل العرب العدنانية وغيرها ، بل تعدت فوجاتهم في زمن أسعد أبوكرب وولده حسان الى الشام وبلاد الفرس والهند . وكانوا يفيمون على العرب حكما منهم يسمونهم ملوكا : كزهير بن حباب السكبي وغيره . وكانت وفود العرب تقدم عليهم من جميع أطراف الجزيرة ، يشئون اليهم شكواهم ، أو يستمطرون من جدواهم . وما زال حكم التبابعة قائما في اليمن حتى نفم دونواس على بصارى نجران ، فأساء معاملتهم ، وأحدقتل فيهم ظلمالانهم على غير ملته ، وكان هوديا . ثم بالغ في نعمته عليهم فحدث (حقر) لهم أخذودا (حقره) وأصرم فيه النار ، وكان يرمى فيه كل من لم يرجع عن المصراية . وقد وردت قصة أصحاب الاخدود اشمزارا أما أصابهم من الاعتساف في سورة البروج : قال تعالى « قل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود الخ » . واستجد أهل نجران ببجاشي الحبشة وكان بصراييا فأرسل الى اليمن جيشا عليه أرياط ، وكان من ضباطه رجل يقال له أبرهة الاشرم . فلما علم دونواس بهم قائلهم وقائلهم فتالا شديدا ، ولكنه انهزم وحاف من سقوطه في يد عدوه فأغرق نفسه . و بذلك تم الاحباش الاستيلاء على أغلب بلاد اليمن . ومات أرياط بعد أن حكم البلاد عشرين سنة ، فتولى

(١) حجر يمانى يشبه العقيق وهو ما يسمونه عين الهر .

عليها أبرهة ، وجعل عاصمته صنعاء . وكان منه ما كان في حملته على مكة ورجوعه الى اليمن مقهوراً ، فرض ومات بعد أن حكم ٤٣ سنة . وتولى الملك بعده ابنه يكسوم وكان حكمه عشرين سنة كلها ظلم وجور . ثم ملك بعده أخوه مسروق بن أبرهة وكان أكثر ظلماً من أخيه . ولما هلك ذونواس قام أمير من قرابته اسمه ذوزن (جدن) واستولى على بعض البلاد واستمر ملكه فيها نحو عشرين سنين . ثم تغلب عليه الحبشة فقتل نفسه ، وفر ابنه سيف الى قيصر الروم يستنجد به ، وأقام مائة سبع سنين ، فأبى أن ينجده . فسار الى كسرى أنوشروان فوعده بمساعدته ، ووجه معه رجال اسمه وهرز في جيش من المسيحيين وقال « انهم فتحوا كان لنا وانهم هلكوا كان لنا » . وركب وهرز ومن معه البحر فلما وصلوا الى اليمن انعموا بكسوم وراحاله ، فكادت الدائرة على الاحباش : وقتل يكسوم في الواقعة واهزم جيشه . وتبعهم الفرس فانحنوا فيهم وقتلوا منهم خلفاً كثيراً . وبذلك دانت لهم البلاد ، وجلس سيف بن ذي يزن على كرسيها . وأنته وفود العرب تهتهه بالملك ، وأتاه عبد المطلب سيد قريش في نفر من قومه فأكرم وفادتهم . وبعد مدة من حكمه قتله حجاجه وكانوا من الحبشة . وبه كان آخر حكم التبابعة في اليمن التي صارت بعد ذلك تابعة لملك الفرس . حتى اذا كانت السنة التاسعة للهجرة أسلم أهل اليمن ، وأرسلوا وفد أمهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . فأرسل اليهم معاد بن جبل وجعل له الامارة عليهم ، وأوصاهم خيراً . وكان عامل كسرى عليهم اسمه نازان فأسلم وبه صار حكم اليمن الى المسلمين .

دوله كندة

كندة بطن من كهلان ، كانت نزحت من النجاة في أوائل القرن الخامس من الميلاد وسكنت في شمال حضرموت في بلاد مسميت باسمهم . وكان سيدهم حجر بن عمرو المشهور بأكل المرار ، له علاقة بحسان بن تمع ملك حمير ، لانه كان من أعوانه في فتوحاته بشمال جزيرة العرب ، فولاه ملكاً على قومه . وكان حجر ذا قوة وشجاعة ودراية . فاستنجدت به بكر بن وائل على الحميين ملوك العراق ، وكانوا غلبوهم على بلادهم وأجلوهم عنها . فسار مع بكر اليهم وحاربهم واستفد منهم أرض بكر . فولاه حسان ملكاً على العرب . فسار الى نجد وجعل مقامه

بها في بطن عاقل، وما زال به حتى مات . وتولى بعده ابنه عمرو، ويسمونه المقصور لاقتصاره على ملك أبيه . ثم خلفه ابنه الحارث . واتفق ان قباز ملك الفرس نقم على المنذر بن ماء السماء فطرده عن الحيرة، وأقام الحارث مكانه على ملكها . فلما ملك أنوشروان، أعاد المنذر وطرده الحارث فهرب الى ديار كلب ومات بها . وكان للحارث ولد اسمه ثجر كان ولاه على أسد، فتنكروا له وقتلوه في ديمون باليمن فاستنجد عليهم ابنه امرؤ القيس الشاعر المشهور ببكرو تغلب، فساروا لنجدته وهربت أسد من وجهه . ولما علم به المنذر بن ماء السماء سار في طلبه فتفرقت جموعه . فاستنجد امرؤ القيس بابن ذى جدن ملك حمير وسار الى المنذر في جمع من العرب . وكانت الدائرة على ابن حجر، فاهزم وسار يتنقل من قبيلة الى أخرى حتى قصدا المموأل بن عادياء، وترك عنده قوسه ودرعه، ثم سار الى فيصر الروم يستنجد به فلم يستجده . فرجع من عنده خائباً ومات من الحزن في سنة ٥٦٠ للميلاد، وهو آخر ملوك كندة .

— دولة تنوخ بالعراق —

اختلف السابون في أصل تنوخ: فبعضهم من يجعلهم قحطانيين ومنهم من يجعلهم عدنانيين . ومع أننا أخذنا بالقول الثاني في شجرة القبائل العربية، فاما إذا كروهم هنا لانهم هم الذين شادوا الدولة العربية في العراق، وخلفهم عليها اللخميون فلا فاصل بين الدولتين: وذلك ان تنوخ (١) لما نزلت بالعراق كونوا فيها لهم دولة عظيمة في أوائل القرن الثالث للمسيح . وأول من قام بها مالك بن فهم أول ملوكهم . ثم خلفه عليها ابنه جذيمة الابرش، المشهور بدهائه وقوته وشجاعته وحسن رأيه . وكانت له حروب مع ملك من العمالقة اسمه عمرو بن الظرب، كان ملكه في مشارف الشام، وبعضهم ذهب الى أن عاصمة ملكه كانت مدينة تدمر، فقتله جذيمة . وكانت لعمرو ست اسماء الزباء (واليومان يسمونه رينوبى ولعله محرف عن زنوبه) فاحتالت على جذيمة فقتلته في نار أبيها . وكان جذيمة لم يعقب نسلاً . وكان زوج أخته رقاش

(١) كان لتنوخ فرع تولى الحكم في مشارف الشام للرومانيين ولم تطل مدتهم حتى تملك عليها بوسليح وهم بطى أخرى من قصاعه . وما زال هؤلاء حتى عليهم عليها العساية .

برجل من لحم اسمه عدى وكان من ندمانه، فولدت له ولداً نحيباً اسمه عمرو، وكفله خاله وورثه
أحسن تربية. فلما قتل جذيمة تولى عمرو بن عدى الحكم بعده على الحيرة. وبه انتقل
الملك من تنوخ الى لحم.

وأراد عمرو أن يأخذ شارحاله فاحتال هو أيضاً على الزباء بواسطة عبد له اسمه قصير :
فجدع قصيراً نفسه، وسار الى الزباء يشكو اليها ابن عدى. وأرسل عمرو بالرجال اليه في
صناديق، وقصير يوم أمها أمواله. فلما كان الليل خرجت الرجال ووضعوا السيف في قوم
الزباء فهرت ولحق بها ابن عدى. فلما تحققت فتكها بها، كان بيدها سم فتناولته قائلة
« يدي لا بيد عمرو ».

- دولة اللخمين بالعراق -

كانت ملوك الحيرة تابعة لدولة الفرس. وكانوا يستعملونهم في الوقوف في وجه من يقصدهم
من الرومان من جهة الغرب، كما كان الرومان يستعملون الغسانية لصدهم هجمات من يقصدهم
من جهة الشرق. وكان للخمين (ويسمونهم بنى نصر) دالة كبيرة على الملوك الساسانيين،
ولهم عندهم مكانة اجلال واحترام، وكانوا يلقبونهم بملوك العرب: فعظم جاههم واشتهر
أمرهم بين قبائل العرب، وقدمت عليهم وفودها، وقصدهم شعراؤها وانقطع لمدحهم
جملة منهم النافعة الديار، وطرفة، والمتلمس، وحسان وغيرهم.

وأغلب ملوك اللخمين من دوى الهمة والعزة والسلطان. وأشهرهم ذكر عند العرب
النعمان بن المنذر لقرب عهده بالعصر الاسلامي. وحكت هذه الدولة العربية الزاهرة من
سنة ٢٦٨ الى سنة ٦٢٨ ميلادية.

وهاك جدولاً بملوكهم وتواريخ حكمهم مع ما اشتهر وابنه من الاعمال :

﴿ جدول ملوك اللخمين بالحيرة ﴾

﴿ اسم الملك ﴾	مدة الحكم من سنة الى سنة	﴿ أعماله ومناقبه ﴾
عمرو بن عدى بن نصر	٢٦٨ ٢٨٨	هو الذي كون دولة اللخمين في العراق .
امرؤ القيس بن عمرو	٢٨٨ ٣٢٨	اتسع سلطانه وامتد على قبائل العرب غربا وجنوبا، ودخل في حكمه قبائل مذحج وربيعة ومضر، وحارب شمر ملك حمير . وقد وجدوا اسمه مكتوبا بالعربية على قبر في حوران ولعله كان ذهب اليها في غزوة فأتى ودفن بها .
عمرو بن امرئ القيس	٣٢٨ ٣٧٧	ملك نحو نصف قرن وكان معاصراً لسابور دى الاكتاف، وكانت مدته كلها خير ورخاء .
أوس بن قلام	٣٧٧ ٣٨٢	ليس من اللخمين ولكنه تغلب عليهم واستقر على ملك الحيرة حتى قتله رجل من بنى نصر فرجعت الدولة اليهم .
امرؤ القيس بن عمرو الثاني	٣٨٢ ٤٠٣	ليس له عمل يذكر .
النعمان الاعور بن امرئ القيس	٤٠٣ ٤٣١	كان مهيباً حازماً كثير الحروب، غزا الشام مراراً . وكان يغزو كل قبيلة من العرب لا تدين له . واجتمع له من الاموال، لم يجتمع لاحد من سلفه . وهو صاحب قصر الخوراق، بناه له سمنار، فلما أعجبه قطع يده حتى لا يبني لغيره مثله وكان بينه وبين زهير بن قيس العبسي صلة نسب . وفي آخر أيامه زهد الملك وهام على وجهه في الفجار ولم يعلم من أمره شيء بعد ذلك .
المذر بن النعمان بن امرئ القيس	٤٣١ ٤٧٣	كان من أعوان ملوك الفرس . وكان معاصراً لزدجرد (يزدگرد) وبهرام، وحارب جيوش الروم الذين كانوا يقصدون فارس وانتصر عليهم انتصاراً باهراً .
الاسود بن المذر بن النعمان	٤٧٣ ٤٩٣	استصرخ به عمرو بن أذينة في أخذ ثار خال له قتله الغسانيون فسار اليهم وحاربهم .

جدول ملوك اللخمين بالحيرة

﴿ اسم الملك ﴾	مدة الحكم	﴿ أعماله ومناقبه ﴾
	من سنة م إلى سنة م	
المنذر بن المنذر بن النعمان	٤٩٣ ٥٠٠	وأسر كثيرا من وجوههم وقتلهم فيه . ليس له ما يستحق الذكر .
النعمان بن الاسود	٥٠٠ ٥٠٤	أمضى مدة حكمه في حرب الروم بالشام وغيرها من غير آل بصر وليس له ما يذكر .
علقمة أبو يعفر	٥٠٤ ٥٠٧	ليس له ما يذكر .
امرؤ القيس بن النعمان	٥٠٧ ٥١٤	هو أشهر ملوك اللخمين . وقد حصل بينه وبين قباد ملك الفرس خلاف أفضى إلى تولية قباد للحارث السكندى على الحيرة .
المنذر بن امرؤ القيس بن	٥١٤ ٥٦٣	فهرب المنذر وما زال محتفيا حتى مات قباد وتملك ولده أبوشروان . فقدم عليه المنذر فرحب به وولاه الحيرة ثانيا . وكان له يومان (١) يوم يؤس ويوم نعيم : فمن وفد عليه في يؤسه قتله ، ومن وفد في يوم نعيمه أهال عليه عطايه . وحارب المنذر كرك بن وائل في يوم أواره ثم قتل في حرب بينه وبين الحارث بن جبلة الغساني في واقعة يسمونها ذات الحيار أو يوم اباغ . كان ذا همة علياء وشجاعة شماء ، وكان صاحب خيلاء وكبرياء . دعا كراء العرب يوما فوفدوا عليه ، ووفد عليه عمرو بن كلثوم التغلبى مع أمه بدعوة منه . فلما دخلت أم كلثوم على هند ، أرادت هند أن تستخدمها فقالت واذلاه !! فسمعها ابنها فاستل سيف بن هند وهو معلق في السراقد وقتله به ، ثم خرج مع من كان معه من تغلب .
عمرو بن هند مضط الحجارة	٥٦٣ ٥٧٨	
ابن المنذر بن ماء السماء		
قابوس بن المنذر	٥٧٨ ٥٨١	كان ضعيفا وله يوم طخفة مع بني يربوع .
المنذر بن المنذر بن ماء السماء	٥٨١ ٥٨٥	قتل يوم حلجة في حرب بينه وبين الغسانية .

(١) ذكر بعض المؤرخين ان الذي كان له هذان اليومان هو النعمان بن المنذر أبو قابوس .

جدول بملوك الاخميين بالحيرة

﴿ اسم الملك ﴾	مدة الحكم من سنة م الى سنة م	﴿ أعماله ومناقبه ﴾
النعمان بن المنذر أبوقابوس	٥٨٥ ٦١٣	بلغت الدولة في أيامه منتهى الشرف . ونعم عليه كسرى وطلبه فهرب الى طي وطلب منها أن تمنعه فأت . فنزل على هاني بن مسعود سيد بني شيبان . وكان هاني عزيزاً ، فأودعه أهله وسار الى كسرى فأمر به فسيجن حتى مات في طاعون سنة ٦١٣ م . وهو صاحب يوم السلان بينه وبين بني عامر بن صعصعة .
إياس بن قبيصة الطائي	٦١٣ ٦١٨	لما سيجن أبوقابوس استعمل كسرى إياساً سيد طي على العراق . فأرسل الى هاني بن مسعود وطلب منه ما استودعه النعمان فأت . فأخبر كسرى وسار اليه بجمع كبير . فثبت لهم بنو شيبان وانتصروا على الفرس انتصاراً بينا بدى قار . وكان ذلك سنة ٧ قبل الهجرة . ليس له ما يدكر .
زاديه (زادويه)	٦١٨ ٦٢٨	وهو آخر ملوك الحيرة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة ٦ للهجرة ، أرسل العلاء الحضرمي الى البحرين ليدعو أهلها الى الاسلام أو الى الحرب . وأرسل معه كتاباً الى المنذر يدعوه الى الاسلام فأسلم ، وأسلم معه جميع من هناك من العرب . وولى رسول الله العلاء على البحرين ومكث بها حتى كانت خلافة أبي بكر فارتدت العرب . فاستنجد أهل البحرين بالمنذر فغضراهم وحاصروا العلاء في حصن الجوئاء ، وما زال محصوراً حتى غافلهم وخرج عليهم ليلاً وأوقع بهم وقتل المنذر في هذه الواقعة وكان ذلك سنة ١٢ للهجرة وفيها انتهى حكم المناذرة باستيلاء المسلمين على العراق .
المنذر بن النعمان المعروف	٦٢٨ ٦٣٢	

الغسانية

كانت الروم تستعمل العرب الدين كانوا يسكنون بادية الشام للاستعانة بهم على عرب العراق الذين كانوا يستعملهم ملوك الفرس في مناوأة الرومان . فاستعملوا أولاً بطناً من تنوخ، ثم استعملوا أسليحا، ثم الضجاعة، وكلهم من قضاة . حتى اذا نزع الغسانيون الى بلاد الشام تغلبوا على بني ضجعم وأقاموا في البلقاء، وصارت لهم الكلمة في تلك البادية بحكم العصبية، فأقامهم الرومانيون على المحافظة على حدودهم وعلى حروبهم مع الفرس وغيرهم . وقد اختلف مؤرخو العرب في عدد ملوك الغسانية : فقال حمزة الاصفهاني انهم ٣٢ ملكا حكموا من سنة ٢٢٠ للميلاد، وقال آخرون غير ذلك . وذهب المؤرخ نولدكي الى أنهم عشرة فقط، وأن ملكهم يبتدىء من أواخر القرن الخامس للمسيح كما هو مبين في الجدول الآتي :

سنة الوفاة	﴿ إسم الملك ﴾	سنة الوفاة	﴿ إسم الملك ﴾
٥٠٠	جبله أبوشمر .	٥٨٢	المنذر أبوكرب بن الحارث .
٥٦٩	الحارث بن جبله .	٥٨٣	النعمان بن المنذر الغساني .
٥٨٢	المنذر أبوكرب بن الحارث .		
٥٨٣	النعمان بن المنذر الغساني .		

ولما كان التاريخ الذي حكم فيه جبله أبوشمر يقرب من الزمن الذي وضعه له حمزة وغيره من مؤرخي اليونان ، كان اختلافهم في تاريخ مبدأ هذه الدولة مبنيّاً على الوقت الذي ابتدأت فيه ضخامتها في عهد جبله المنذر .

وأشهر هؤلاء الملوك هو الحارث بن جبله، وكانت له منزلة كبيرة عند الروم لشجاعته وشدة بأسه وعظيم سلطانه على العرب . ولما مات تولى ابنه المنذر مكانه فخارب قابوس

ملك الحيرة وانتصر عليه . وذهب المنذر الى القسطنطينية فألبسه الامبراطور طيار يوس التاج ولم يلبسه أحد قبله من الغسانيين . واستقرت سوريافي يد الغسانيين حتى حمل الفرس عليها وافتتحوها سنة ٦١٣ م ، فذهبت دولة العرب منها ، وكان عليها حجر بن عمرو . فلما نهض هيرقل لاسترجاع سوريا من الفرس ظهر من الغسانية جيلة بن الايهم . وهو الذي وفد على عمر بن الخطاب في أشراف قومه وأسلم معهم ، وبينما هو يطوف حول الكعبة وطىء إزاره أعرابي فلطمه جيلة . فاشتكى الاعرابي الى عمر . فاستدعاه وخيره بين القصاص أو استرضاء الاعرابي حتى ينزل عن حقه . فاستمهل جيلة حتى يرى رأيه وفر ليلالى فلسطين وركب البحر الى القسطنطينية وأقام بها حتى مات .

وللغسانية كثير من آثار العماراة في بلاد الشام : خصوصاً في أذرح ، ونجران ، ومعان . ومن أسماء قصورهم : صرح الغدير ، والقصر الابيض ، وقصر المشتى ، والقلعة الزرقاء ، وقصر منار . وقد عثروا أخيراً على بعض آثار هذه القصور في حوران .

العدنانية

لما أتى اسماعيل عليه السلام الى مكة تزوج بها وولد له اثنا عشر ولداً ، وما زال نسله يتكاثر ، وكانوا يسمونهم بالاسماعيلية ، حتى أصبح بعد نحو عشرين بطناً حفيداً عدنان . فولد له معد . وولد لمعد نزار فاجب أعماراً ، ومضر ، وقضاة ، وربيعة ، وأياداً . وبارك الله تعالى في نسله فكان منهم العرب العدنانية . وكانت منازل هذه البطون الخمسة حول مكة في مبدأ أمرها . ثم اضطرتهم الحاله المعاشية الى طلب الرزق في جهات جزيرة العرب فنزحت قضاة الى نجد ، وتفرعت الى بطون كثيرة منها : تيم اللات وقد نزحت الى البحرين ، وتزيد نزلت عتقر بأرض الجزيرة ، وسليم نزلت مسارح الشام وفلسطين ، وأسلم نزلت الحنجر شمال المدينة ، وتفرغت في جهاته أنفاذها الاربعة : عذرة ، ونهد ، والحواتكة ، وجهينة . ثم تنوخ وقد نزلت الى أرض الحيرة . وربان بن حلوان نزحوا الى بادية الشام . وبنى أقامت جنوب العقبة . وبهر او قد لحقت باليمن . ولقد تفرعت من هذه البطون أنفاذ كثيرة كانت أمهات لقبائل كبيرة مشهورة .

وأما انمار فاهل انزحت الى جبال السروات فملكوها وكان منها بطنان : بجيلة وخثعم .
 وقد تفرقت أفرادهما في جهات الجزيرة . ورات اياد العراق ، وكانوا يغيرون على بلاد
 الفرس فأجلاهم أنوشروان عنها ، ففرقوا في أرض الروم وبلاد الشام .

ولم يعم من العدنانية قبل الاسلام دول تستحق الذكر ، ولكن كانت ملوك اليمن
 تعطى لهب ملك لبعض سادات العرب وتوليهم الرعامة على القبائل : ومن هؤلاء الملوك زهير
 ابن جناب السكبي ، ولده أرهة الاشرم على قبائل العرب ، فخرجت عليه بكر وتغلب ، فسار
 اليهم وغرهم وأسروهم وجوهمهم ومهمهم وائل بن ربيعة المشهور بكليب وأخوه مهلهل ، وعاد بهم
 الى بلاده . ومكث كليب وأخوه عند مدة حتى هب قومهما وأتقذوهم من الاسر . وكان
 زهير فدأسن وعمر وتولى بعده عبد الله بن أخيه حكيم . ولما رجع كليب الى قومه أخذ يستميل
 اليه العرب و يعمل فيهم بكمال درايته وحسن ادارته وكثير كرمه وجوده ، وجمع اليه معدا
 وأفهمهم مقدار ما يصيبهم من تبعيتهم للملوك اليمن . وسارهم وحارب ابن حكيم ، فانتصر عليه في
 واقعة عظيمة يسميها العرب يوم خزاز ، وكان ذلك في أواخر القرن الخامس للميلاد : وبذلك
 خرج العدنانية من تبعيتهم للملوك اليمن ، ونادوا بكليب ملكا على العرب . وما زال أمر
 كليب يكثر حتى قتل باقة لامرأه اسمها البسوس ، كانت تزيله على ابن عمه جساس ، فقتله بها
 غيرة على جواره ، وقامت لذلك حروب هائلة بين بكر وتغلب مكثت أربعين سنة ويسمونها
 حرب البسوس .

ومن ملوك العرب أيضاً قيس بن زهير العبسي وله حروب مشهورة . وفي آخر أيامه
 اعتزل الملك وذهب الى عمان ، وترهب فيها ومات بها . وكان له ولد اسمه فضاله وقد على
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد له على من معه من قومه .

وأما قر يش فقد كانت لهم في جزيرة العرب الزعامة الدينية العامة لاستيلائهم على الكعبة
 وكان لهم بذلك في العرب كلهم منزلة اجلال واعظام لا تقل عن منازل الملوك ان لم تزد عنها .
 وما زالت القبائل العدنانية على بداوتها حتى ظهر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من
 قر يش ، ونشر دين الاسلام في قومه ، ثم هاجر الى المدينة ، ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر في

قبائل بلاد العرب كلها، ومالبت أن تحاو زهاشروا شمالا وغربا، واستولى العرب في حكم الراشدين الذين كان مركزهم المدينة، على بلاد فارس والشام وأرمينيا والقوقاز ومصر وبلاد المغرب . وفي مدة الامويين انتقل مركز الخلافة الى دمشق . ووصلت فتوحاتهم الى المحيط الاطلسي، ودخلت جنودهم الى أوروبا من بوغاز جبل طارق، وما زالت تفتح في بلادها حتى وصلت الى قلب فرنسا . بل نفذت سراياهم الى قلب أوروبا لتوطيد عرش من كان يطلب حمايتهم من ملوكها . وفي ذلك العهد كنت ترى تحار المسلمين يسرون بتجارهم من بغداد الى القسطنطينية ، ومنها الى شمال أوروبا . وهناك كانوا يتقابلون مع اخوانهم من التجار الاندلسيين ، فيتبادلون تجارة بعضهم البعض ثم يعودون في أمان الله وحماية حكوماتهم الى بلادهم . و بقيت العرب في الاندلس أربعة قرون ، وكانت لهم بها دولة راقية جدا ، كانت سببا في رقي المدنية الأوروبية و ريسة الحالية في أخلاقها وعلومها وصناعاتها .

وحكم العرب في الاندلس يبتدىء من سنة ٩٢ بعد الهجرة وهي التي دخل فيها طارق الى بلادها من مضيق الزقاق (بوغاز جبل طارق) ، ثم تبعه سيده موسى بن نصير . ومازالا يفتحان في البلاد حتى خافهما الوليد بن عبد الملك فاستدعاهما وبكبهما . وما زالت الاندلس تابعة للدولة الاموية ، وكانوا يولون عليها ولاية بلقب أمير الى سنة ١٣٨ هـ . وفيها استولى عليها عبد الرحمن بن معاوية الاموي واستقل بها . والسبب في ذلك أنه لما سقطت دولة الامويين بدمشق . وقامت دولة العباسيين على يد السفاح أخذوا يتعقبون الامويين بالقتل ولم يفلت منهم الا القليل ومنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . فدخل الى الاندلس ولذلك يسمونه بالداخل ، فاجتمع عليه الناس وبايعه أهل أشبيلية وقرطبة وغيرهما . وتم استيلاؤه على الاندلس في سنة ١٤١ ، فجعل عاصمته قرطبة، وقطع الخطبة عن العباسيين، وبنى بها القصر والمسجد الجامع . ومازال بنوه عليها حتى اذا ربح ثامنهم عبد الرحمن الناصر في دست الامارة سنة ٣٠٠ هـ، لقبوه بأمر المؤمنين، وبه ابتدأت الخلافة العربية بالاندلس . وحكم الناصر خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بهذه البلاد، وارتقت فيها العلوم والاداب والصناعات وخصوصا قرطبة التي صارت تناظر بغداد في

نخامتها وضخامتها . و بنى عبد الرحمن مدينة الزهراء ، وأنشأ بها من القصور ما لا يصل اليه الوصف . وبالجملة فقد كانت مدته كلها نورا وعرفا وعزة وسعادة . وتولى بعده ابنه الحكم سنة ٣٥٠ ، وكان محبا للعلوم : ولقد شيد دارا للكتب لم يشيد مثلها أحد من الملوك ، وقالوا ان عدد كتبها نيف وأربعمائة ألف مجلد ، وكان لها أربعون فهرستا . وخلفه ابنه هشام سنة ٣٦٦ ، وما زالت الخلافة تنتمل في بيته حتى تولاها أمية بن عبد الرحمن في سنة ٤٢٢ . وكانت الفتنة قد كثرت في البلاد واشتدت في مدته ، فهرب ومات في هربه ، وهو آخر خلفاء بني أمية في الاندلس وعدد هم ١٦ خليفة : كانت دولتهم من أحسن الدول شأنا ، وأضخمها سلطانا ، وأعلاها ذكرا ، وأكثرها ثروة . ولا يزال من آثارهم قصر الحمراء في غرناطة ، والقصر المشهور بالكازار ومجايبه المدارة التي كانوا يرصدون عليها الكواكب في أشبيلية ، والمسجد الجامع في قرطبة : وكلها آثار حية تفوق حد الاقتان في صناعتها وزخرفها وفخامتها مما لا تصل الى تصويره مقدرة الواصفين ، ويقف أمامه الحاضر باهتا لقدرة الانسان الغابر في ذلك الزمن الزاهر ! وسيمحان من بيده الملك .

وقامت بعدها بالاندلس دولة العلويين في سنة ٤٠٧ ، واستقرت الى سنة ٤٦٠ . وأول ملوكها على بن حمود الادريسي . ولما ناب عنه تلب بالناصر لدين الله . وضعفت الخلافة في مدتهم حتى صارت لا هيبة لها . وكان ذلك سببلا في مسام ملك الاندلس بين ملوك الطوائف : فقام أشبيلية محمد بن عباد وبنوه من بعده . وقام ببطليوس محمد بن عبد الله المعروف بالافطس وأولاده من بعده . وقام بطليطل ابن يعيش ، ثم اسماعيل بن دى النون . وقام سرقسطة سليمان بن هود الجذامي . وقام بطرطوشة لبديب العامري . وقام في طليسية المنصور المغامري . وقام بسهله عبود بن زير بن البربري . وقام بدانية الموفق العامري . وقام بمرسية بنوطاهر ، ثم استولى عليها ابن عباد . وقام بالمرية خيران العامري . وقام بمالقة بنو حمود . وقام بغرناطة حبوس الصنهاجي . الا أن الافرنج ابتدأوا يستعملون هؤلاء الرؤساء أسلحة بعضهم في محو البعض الآخر . ثم أخذوا بعدهم هذا الا شفاق يستولون على الاندلس لدا لدا ، حتى استولوا على أشبيلية في سنة ٦٤٥ . فأنحازت العرب الى غرناطة

والمرية ومالفة وضاق الملك بهم بعد اتساعه .

وكانت هذه البقية الباقية يدافع عليها ابن هود مع محمد بن الأحمر ، وفي أثناء ذلك كان عدوهم ينقض على أطرافها شيئاً فشيئاً ، حتى أخرجهم الى سيف البحر . وهناك اجتمع عليهم جموع من المسلمين ، وزحف اليهم رجال من البربر ، فاستولوا على بعض النواحي . ولكنهم ما لبثوا أن استولى الاسبانيون على غرناطة عاصمة ملكهم صلحاً في سنة ٨٩٧ ، بعد أن أمنوا المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم . ولكنهم أخفروا عهدهم وأذاقوهم صنوف العذاب ، خصوصاً بعد أن تشككت محكمة المسوس المسماة بمحكمة التفتيش (الابن سبيون) ، فقتلوا النفوس ، وسلبوا الاموال ، وهدموا الاثار ، وأحرقوا القصور والمساجد ، التي لم يبق منها الا ما وارته عن أعينهم بد الزمن !!! وتشنت المسلمون الى بلاد المغرب ، ولم يبق في الاندلس منهم الا المستضعفون الذين وعدت بهم حالهم عن الهجرة ، وما زالوا يسامون سوء العذاب حتى دابوا دين البلاد . وللا ترى بعض الاسماء بأسبانيا عربية محصنة مثل : الفارس ، والفائد ، ورمانيه ، وريدان ، وفران ، ورتان ، وبصار ، وميمون الخ .

هداما كان من أمر الدولة العربية الغربية . أمادواتهم الشرفية ، فقد كانت في صدر الخلافة العباسية في أعراياها ، وأرفع أعلامها ، وخصوصاً في مدة الرشيد وولده المأمون ، اللذين قاما بكل ما فيه رقي الافكار ، وبشر العرف ، وتنشيط الصناعات : حتى صارت الدولة الاسلامية في مدتهم مشكاة يستنير بها العالم الشرقي ، في حين ما كانت الدولة الغربية الاسلامية بالاندلس ترأسا يضيء ماحوله من الكائنات .

فلما كانت خلافة المعتصم العباسي في سنة ٢١٨ جمع كثير آمن المماليك الى خدمته : حتى ان عدده من التركمان والجر كس ما يزيد عن خمسين ألفاً واتخذ منهم حراسا لنفسه ، وولاهم محافظة الثغور . فاخذت شوكتهم تزداد يوماً فوما حتى تعلموا على الدولة ، وصارت الخلفاء ألعبوبة في أيديهم ، يولون من يشاءون ، ويعزلون من يريدون ، حتى اذا كانت خلافة المعز بالله استولى أحمد بن طولون^(١) على مصر سنة ٢٥٤ م ثم أخذت عمال الدواحي تتغلب على أطراف الدولة

(١) هو الذي كون الدولة الطولونية بمصر ومكنت قائمة بها من سنة (٥٢٥٤) الى سنة (٥٢٩٢) وفيها

شيئا فشيئا حتى اذا كانت سنة ٣٢٢ ضعف أمر الخلافة العباسية بالمرة : فكانت فارس في يد بني نويه ^(١) ، والموصل وديار بكر في يد بني حمدان ^(٢) ، ومصر والشام في يد الاخشيديين ، والاندلس في يد بني أمية ، والمغرب وافريقية في يد الفاطميين ، والبصرة في يد ابن رائق ، وما وراء النهر في يد بني سامان ^(٣) ، وطبرستان وجرجان في يد الديلم ^(٤) ، وجهة البحرين واليمامة في يد القرامطة ^(٥) ، ولم يبق في يد الخليفة الا بغداد وضواحيها .
و بذلك أصبحت الخلافة كأن لا وجود لها بالمرة .

قامت الدولة الاخشيدية الى سنة ٣٥٨ هـ وفيها تطلبت عليها الدولة الفاطمية الى سنة ٥٦٧ هـ . وفيها اسولى عليها الدولة الايوبية الى سنة ٦٤٨ هـ . ثم قامت بها دولة المماليك البحرية الى سنة ٧٨٤ هـ . ثم دولة المماليك البحرية (دولة الجراكسة) الى سنة ٩٢٢ هـ . وفيها اسولى عليها الدولة العلية العثمانية . وفي سنة ١٢٢٠ تولاها محمد علي باشا حاكم العائلة الخديوية وصار اربابا تاما لعه من بعده .

(١) هم من الديلم فموايد دولة ملك العراقيين ودرس والاهوار على يد عماد الدولة بن نويه سنة ٣٢٢ هـ . فساسها أحسن سياسة وأدارها بمقل وحكمة حتى عظم شأنه واسولى على بغداد سنة ٣٣٤ هـ . ثم اسولى على كثير من الجهات ومنها حران واصهان وخورسان ، وخط له على المار في بغداد وغيرها ، وكان وزيره صاحب بن عباد ، وما زال الملك في بيته الى سنة ٤٤٧ حيث برعه مهم طمرل السلجوقي . واستمرت الدولة السلجوقية الى سنة ٥٩٠ هـ . وفيها طهرت الدولة الخوارزمية ، وأول من قام بها محمد خوارزم شاه الذي بعد ان تطلبت على سلاجقة ايران اسولى على بغداد وما زال خلفاؤه بها حتى تطلبت عليها السار .

(٢) ظهرت دولة بني حمدان في الموصل سنة ٢٩٣ هـ . ولقد عظم شأن هذه الدولة حتى امتد سلطانها على الجزيرة والشام ، وبله من أمر ملوكها . هم استبدوا بالدولة العباسية وصارت لهم فيها الكلمة البائدة . وأشهر ملوكها سيف الدولة الذي كان حكمه من سنة ٣٣٠ الى سنة ٣٥٦ هـ . وفيها مات . ولكن مقامه بقيت منشورة على صفحات شعر المنى الذي قصرحياته على مدائحه . ومن أشهر من بني حمدان أبو فراس الشاعر المشهور .

(٣) بنو سامان كانوا ولادة من المعجم على ما وراء النهر للعباسيين ، فلما ضعف الخلافة العباسية استقلوا بها حتى علمهم عليها الدولة الغزنوية في سنة ٩٩٩ هـ .

(٤) بعد تطلبت الديلم على حران وطبرستان اسلولوا على بغداد حتى علمهم عليها الغزنوية .

(٥) القرامطة سنة الى رجل يقال له قرمط عام بالبحرين ودع دوما من أهل البادية الى دين جديد ذهب فيه الى ان عيسى المسيح انما هو أحمد بن محمد بن الحنفية ، وكاتب الصلاة عندهم أربع ركعات : ركعت قبل طلوع الشمس ، وركعت قبل غروبها . وكاتب كلمة توحيدهم أشهد أن لا اله الا الله وأن ابراهيم رسول الله ، وأن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله ، وأن الصلاة الى بيت المقدس ، وأن الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شيء ، وأن يصام يومان في السنة يوم المرحان

وفي خلافة الطائع لله ظهرت الدولة الغزنوية^(١) سنة ٣٦٦ هـ وفي خلافة المقتدى لامر الله قامت الدولة الغورية^(٢) سنة ٥٤٣ هـ ثم ظهر أمر الغز^(٣) سنة ٥٤٨ هـ .

وفي سنة ٦٥٦ استولى التتار^(٤) على بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم العباسي ، ومن ثم انقطعت الخلافة العباسية ثلاث سنوات ، وفي سنة ٦٤٦ وصل من فر من العباسيين الى مصر فاستقبلهم الملك الظاهر بيبرس أحسن استقبال وأقام بها الخلافة باسمهم . ومات هولاكو سنة ٦٦٢ بعد أن ملك الشام والعراق وفارس وماوراءالنهر . وانقسمت مملكته بين بنيه وبين اخوته ومازلوا حتى افرض حكم ملكهم بتغلب تيمورلك التتري على بغداد في سنة

ويوم الدورور ، وان المريد حرام والجر حلال ، ولا غسل من حنافة ، وان الوضوء كوضوء الصلاة وان يؤكل كل ديباب ودي علب . وظهر أمر القرامطة سنة ٢٧٨ هـ ثم اسحق ملكهم حي اسولوا على مكة والبصرة والكوفة وهاجوا الخليفة في بغداد . وفي سنة ٣٢٩ ضعف شوكتهم وانحصرت سلطتهم في بلاد هجر حي تلاشى أمرهم .

(١) الروية أسسوا دولة في شرق بلاد العجم سنة ١٦٦ هـ على يد محمود بن سبكتكين علام اسحاق صاحب جيش عرنة لاسامانية ، واتحد عرنة عصبه له ، وفتح بلاداً كثيرة في الهند واسمر الملك في بيه الى سنة ٥٧٨ هـ . ومات بالملك بعدها الدولة الغورية .

(٢) الدولة الغورية قامت بالملك بعد الدولة الغورية وامد ملكهم الى الهند والسند واسمر حكمهم الى سنة ٦٠٤ هـ ومن أحسن ملوكها عاب الدين الغوري الذي كان يلقب بقسيم أمير المؤمنين . (٣) المرطائنة من الترك كانوا فيما وراء النهر ثم رحلوا الى خراسان وكانوا كثيرًا ومن أسلم منهم كان ترجحاً بآبائهم ومن المسلمين . فلما أسلموا اسموا بالترك . وخارجهم السلطان سحر السلجوقي فكسروه وهرموه شر هزيمة واسولوا على خراسان سنة ٥٥١ هـ .

(٤) السار لبط يطلق على مجموع قبائل كثيرة في أواسط آسيا واشهر أمرهم في القرن السابع والثامن والتاسع للهجرة . وأول من اشهر من ملوكهم حكيم بن في أول القرن الحادي عشر للهجرة . وكان يدخل في ملكه حوارزم وخراسان وكرمان وخراسان وأذربيجان والعراق العربي والعجمي والحريرة . وبعد وفاته انقسمت مملكته بين بنيه ، وفي مدة ملكهم سار هولاكو أخذهم الى بغداد بواطية مع مؤيد الدين التقي وزير المستنصر بالله العباسي ، وحصل بينه وبين حوود المستنصر واقعة اسبب ناهرام حوود الخليفة سنة ٦٥٦ هـ ودخل السار بغداد وسبواها وقتلوا الخليفة المستنصر العباسي مع من فيها من الاشراف ، وسبوا ساءها وفكوا بأهلها ، وكان حرائر بغداد عامرة بالسكب الفيسة فحدها هولاكو وعمل بها حرائر الدخلة مرت عليه حووده ! واسمرت دولة السار فئمة الى سنة ٧٩٧ هـ وفيها اسولى تيمورلك (تيمور الاعرج) المغولي عليها . ودخل بغداد وفك بأهلها فكاً دريماً .

٧٩٨ . ولما مات سنة ٨٠٨ اقسّم بنوه مملكته : فاستقلت بلاد فارس ^(١) والتركستان ^(٢) ، وأخذ ملوك بني عثمان ^(٣) الذين كان لهم الحكم في آسيا الصغرى كلها في التغلب على مادونها شيئاً فشيئاً ، حتى اذا دخلت الشام في حكم السلطان سليم سنة ٩٢٢ هـ ، سار الى مصر من سنته ودخلها فاتحاً ، ومكث بها حتى رتب أمورها ونظم حكومتها ثم سافر الى بلاده ، وأخذ معه محمد المتوكل على الله الخليفة الثامن عشر العباسي . ثم تنازل له المتوكل عن الخلافة الاسلامية . ومن هذا الوقت وهي في أيدي ملوك بني عثمان . ومن ثم انحصر ملك العرب في بلاد المغرب . ولهذا رأينا أن نقول كلمة صغيرة عن كل قسم من أقسامها لتكمل به الفائدة .

(١) درس كانت في يد الخلفاء الى أن قامت بها الدولة العروبية من سنة ٣٨٧ هـ الى سنة ٥٤٥ هـ . ثم وقعت في يد السلجوقيين الى سنة ٥٧٤٥ هـ . ومن ثم نجراً حكمها الى حملة حانات ثم اسولي عليها التركمان في سنة ٨١٠ هـ الى سنة ٩٠٧ هـ ثم ظهرت بها الدولة الصوية الى سنة ١١٣٥ هـ ثم تداولها حملة أمراء . وفي سنة ١١١٢ هـ اسول عليها عائلة وحار الخالية ، وانصلت بها في مدتهم بلاد الافغانستان سنة ١١٦٠ هـ . (٢) بلاد تركستان التي من أهم مدنها بخارى لم يتم فتحها الا لعينية بن مسلم الخراساني في سنة ٨٧ هـ ثم دخلت في ولاية بني سامان حكام خراسان من سنة ٢٠٤ الى سنة ٤٣٨٩ هـ ثم تولي عليها ايلك التركي . ثم دخلت في حكم السلجوقية . ثم اسولي عليها حاكم بخارى . ثم طلب عليها حكومة اربك التركية مدة قرن ونصف . ثم انقسمت الى حايات مستقلة منها حاوية بخارى ، وحاوية سمرقند ، وناشقند ، وخيوه . ودخلت هذه الحايات في حكومة الروسية واحدة واحدة في نحو نصف القرن التاسع عشر من الميلاد . (٣) أول ظهور هذه الدولة انه لما اصمحت دولة السلجوقيين في سنة ٦٩٩ هـ طلبت على ملكها دول كثيرة صغيرة . وكان من ضمنها دولة الترك ، وفي سنة ٦٩٩ هـ ظهر أمر السلطان عثمان التركي في الاماصول واشهر بصله وعدله وبلغت فوجاهته الى بحر الروم عربا والدردييل واليوسفور شمالاً ثم فتح بورصة سنة ٧٢٦ هـ . ولما مات استولي على مملكته ابنه أورخان فقطع البحر الى أوروبا واسولي على مدينة عاليولى وتولى بعده ولده مراد الاول فسار الى أوروبا وأوغل في بلاد الصرب والبلغار والبايا . وخلفه ابنه بايزيد وكسر ملوك فرنسا والمجر والمالبايا الذين تحالفوا عليه ، ثم صدّ فتح القسطنطينية فلمعه ان يعمور لك . تلك الممول قصد بلاده فسار اليه وحاربه فوقع في أسره ومارال به حتى مات . وقام بالملك بعده ولده السلطان محمد بن بايزيد فاسترد ملك أبيه ومات سنة ٨٢٣ هـ وتولي بعده أحفاده وما زال ملكهم حتى افسح السلطان محمد القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ ثم افسح اليوسه والهرسك وطربرون واستولي على كثير من حررا لارخيل . وما زال ملك بني عثمان حتى تملك السلطان سليم الاول واستولي على ديار بكر وكرديستان وحارب البرس وانتصر عليهم ثم تركها الى حرب مصر فاستولي عليها سنة ٩٢٢ هـ . وما زال خلفاؤه يتوارثون عرش الدولة العلية حتى آل أمرها الى سلطانها الدستوري (محمد الخامس) في ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٣٢٧ هـ الموافق ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ هـ حفظه الله وحمل أيامه كلها خيراً وبركة .

— طرابلس —

كانت طرابلس أولاً في يد البربر، ثم دخلت تحت الحكم الروماني حتى افتتحها العرب سنة ٢٢ هـ : وتولاها الاغالبه ثم العبيديون ثم الصنهاجيون، ثم استولى عليها صاحب صقلية واستردها منه الموحدون . ثم استولى عليها الاسبانيون ، وفي سنة ٩٥٠ هـ حضرت الاساطيل العثمانية وطردهم منها واستولوا على البلاد وهي في قبضتهم الى الآن .

ومما نذكره مع الاسف الشديد أن دولة ايطاليا التي تمنى نفسها من زمن بعيد باحتلال هذه البلاد ، قد اعتدت بلاسبب على الدولة العلية، وأشهرت عليها الحرب على غرة منها وسيرت أساطيلها الى طرابلس، وكانت الدولة في شغل بحروبها الداخلية عن تقوية ثغورها . وطلب الطليان من حاكم طرابلس أن يسلمهم المدينة فلم يقبل . فأطلقوا يراهم على قلاعها في يومى ٨ و ٩ شوال سنة ١٣٢٩ هـ، فاستحيت الحامية الى داخلية البلاد استعداداً للحرب ونزل الطليان الى البرواحتلوا المدينة في يوم ١٥ منه الذى يكتب فيه كملتنا هذه . ولا يعلم الا الله مصير هذه البلاد من بعد ذلك ، ولعل الدائرة تدور على الباغي . ولا حول ولا قوة الا بالله .

— بلاد الجزائر —

أصل هذه البلاد من قبائل زناته وصنهاجه من البربر . وفتحها الرومان في سنة ٥٣٤ م، ثم فتحها المسلمون في خلافة سيدنا عثمان بن عفان . وفي مدة العباسيين قامت بها الدولة الزيرية من سنة ٣٦١ الى سنة ٥٤٣ هـ، ثم استظهر عليها صاحب صقلية روجير الثانى النورماندى . وفي سنة ٥٥٤ هـ استولت عليها دولة الموحدين المرابطين الى سنة ٦٦٩ هـ، حيث تغلب عليها بنو زيان من الصنهاجيين ، وجعلوا تلمسان عاصمة للملكم . ثم استولى عليها الاسبانيون سنة ٩١٥ هـ، وطردهم منها أهل البلاد سنة ٩٢٢ هـ بمساعدة القرصان الذين كانت مراكبهم تغدو وتروح فى البحر الابيض المتوسط متعقبه مراكب الاسبانيين، موقعة بهم كلما عثرت على شئ منهم . وكان رئيس القرصان يسمى بارباروس وكان على جانب عظيم

من الشجاعة، فظهر أمره وهابته دول الفرنجة، وما زال حتى مات سنة ٩١٩ وتولى عمله أخوه خير الدين بارباروس . وكانت مدينة الجزائر في يد الأفرنج مع بعض السواحل الغربية، فخار بهم خير الدين وأجلاهم عنها، وصارت له الكلمة في كل بلاد الجزائر. وكثرت فتوحاته واتسع ملكه الى داخل افريقية .

وفي هذا الوقت كانت الدولة العثمانية قد استولت على الشام ومصر و بلاد الحرمين . فبادر خير الدين وأرسل بالهدايا الفاخرة مع مفاتيح البلاد الى السلطان سليم ، فأقره عليها . ومن ذلك العهد أخذت تزداد مكانته ويعظم سلطانه . وسافر خير الدين الى الاستانة في مدة السلطان سليمان ، فأكرمه كل الأكرام وأعم عليه بلقب باشا . وفي مدة اقامته بها قام شارالكان ملك فرنسا بجيش عظيم ومعه كثير من أهل أسبانيا وهم على بلاد الجزائر . فقام لهم حسن أعان نائب خير الدين على البلاد بجاش رابط ، وحاربهم وهزمهم شر هزيمة . ونزلوا الى المحرمهم زمين الى بلادهم بعد أن غرق أغلب سفنهم . وفي تلك الاثناء صدرت الارادة السنية بتعيين خير الدين باشا رئيسا للحرية العثمانية . ومن ثم أخذت الدولة العلية تعين ولائها على الجزائر . وما زالت في يدها حتى استولى عليها الفرنسيون سنة ١٢٢٧ هـ (سنة ١٨٣١ م) وهي في أيديهم الى الآن .

تونس

هذه الولاية كانت قديما في يد الررواستولى عليها الفينيقيون وأسسوا فيها مدينة قرطاجنة في القرن التاسع ق م، ولا تزال تشهد آثارها قرب مدينة تونس . وكانت لهم بهادولة رافية استمرت الى منتصف القرن الثامن ق م . ثم استولى عليها الرومانيون الى أن فتحها العرب سنة ٢٧ هـ . وكانت هذه البلاد أولا في ادارتها تابعة لولاية مصر ، حتى قامت بهادولة بني الاغلب في سنة ١٨٤ هـ ، فاستغلوا بها واستمرت في يدهم الى سنة ٢٩٦ هـ . وفيها قامت دولة العبيدين (العلويين) ، ومارالوا بها حتى استولوا على مصر سنة ٣٥٥ في مدة المعز لدين الله . وسار المعز اليها سنة ٣٦١ وجعلها ممره ، ونزل بالماهرة التي اختطها جوهر سنة

٣٥٨ ، وجعل على افر يقية يوسف بلكين بن زيرى الصنهاجى . واستقرت في يد الصنهاجين الى سنة ٥٤٢ . وفيها استولى ملك صفلية على أغلب ثغور تونس . فسار اليها الامير يوسف ابن عبد المؤمن صاحب مرّاكش بجيوش الموحدين ، فطردهم منها واستولى على تونس في سنة ٥٥٥ . وما زالت في يد خلفائه الى سنة ٦٠٣ . وفيها قامت بهادولة الحفصيين وما زالوا عليها الى سنة ٥٩٨٢ . وفيها استولت عليها أساطيل الدولة العلية وما زالت تولى عليها ولايتها باسم دايات (مفردة داي) حتى صارت الولاية لمولاي حسن ابن علي باشا رأس الدولة الحسينية الحالية سنة ١١١٧ . وما زالت في بنيه حتى تولى عليها منهم الباي محمد الصادق باشا سنة ١٢٧٦ . وفي مدته أخذت فرنسا تعمل لضم بلاده الى حكومة الجزائر واستعملت لهذا الغرض وزيره مصطفى بن اسماعيل ، وكانت أمّته ان هو سعى جهده في وضع تونس تحت الحماية الفرنسية و به اقامته بايا عليها . فاخذ هذا الدين في خلق العلاقات وبذر بذور الفتى في البلاد . وما زال يحيف الصادق من الدولة العلية من جهة ، ومن أهل البلاد من اخرى ، حتى طلب حمايه فرنسا وعملت بينه وبينها معاهدة برديو أمضاها في ١٢ مايو سنة ١٨٨١ . وفي ١٢٨ أكتوبر سنة ١٨٨٢ مات محمد الصادق وتعين مكانه ولي عهده مولانا على باي الموجود الآن على منصتها ، ساعده الله على ما فيه خير بلاده وصلاحها .

مرّاكش .

مرّاكش سموها بالمغرب الاقصى ، وأهلها من قبائل صنهاجة والبربر . استولى عليها الرومانيون سنة ٥٣٤ م ، وكل فتحها للمسلمين سنة ٨٨ هـ ، وتم اسلام البربر سنة ١٠٠ هـ . وفي سنة ١٧٢ وصل الى هذه البلاد ادريس بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي كرم الله وجهه فارأى من وجه العباسيين . فالتف عليه أهل المغرب من البربر وقاموا بالدعوة له وجعل مقره مدينة ويلي . ولما تمكن بها قدمه كوّن فيها دولة الادارسة ، وما زال الملك في يده الى سنة ٣٧٥ . وبعدها دخل المغرب الاقصى في حكم العبيديين الى ان

قامت به دولة المُلْكُثَمِين أو المرابطيين من صنهاجة سنة ٤٦٢ على يد يوسف بن تاشفين . ولما اتسع ملكه وعظمت شوكته اشترى مكان مدينة مراكش وبنها قاعداً له . وبنى فيها القصور الرفيعة والدور الواسعة وجعلها مقر سلطانة . وبعد أن مكن دعائم سلطنته في المغرب ، زحف الى الاندلس بدعوة من أهلها . وقعت بينه وبين الفونس السادس (الاذِفونس) ملك فشتاله حرب نصر الله فيها ابن تاشفين في واقعة الزلاقة ، وهي أكبر واقعة حصلت في الاندلس ، واستولى بعدها على غرناطة ، ثم تغلب على ملوك الطوائف ، وصار له ملك الاندلس والمغرب جميعاً الى أن توفي سنة ٥٠٠ ، وتولى بعده بنوه بالاندلس الى سنة ٥٤٢ . وكانت قامت بالمغرب الاقصى في سنة ٥١٤ دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت الملقب بالمهدي . وبعد موته في سنة ٥٢٤ ، خلفه بعهد منه وزيره عبد المؤمن بن علي . ولما ظهر أمره وتمكن سلطانه سرجنوده الى الاندلس ، فاستولى عليها تماماً في سنة ٥٤٥ . وهو الذي بنى مدينة جبل طارق سنة ٥٥٥ ، ثم تقدم بحموشه فافتتح الجزائر وتونس والمهدية ، وما زال يتوسع سلطانه حتى مات سنة ٥٥٨ ، واستقر خلفاؤه الى سنة ٦٧٤ . ثم تولى المغرب الاقصى دولة بني مُرِين الى سنة ٨٩٠ . ثم دولة بني طائوس الى سنة ٩٦١ . ثم دولة الاشراف السعديين الى سنة ١٠٦٩ . ثم دولة الاشراف السجلماسيين وهم الحاكون الى الآن .

وقد كانت البلاد على تمام الاستقلال في مدتهم حتى كان ما كان من تداخل الاجاب في بلادهم ، وكثرة الثورات الاهلية بها ، ثم عقد مؤتمر الجزيرة ، وعزل السلطان مولاي عبد العزيز ، وتعيين مولاي السلطان عبد الحفيظ ، ثم ظهور فرسان الكمة في بلاده بمظاهرة الاكبر لها ، ووقوف ألمانيا في طريقها للحصول على نصيبها هي الاخرى من هذه الغنيمة التي لم يذق حرارتها غير الفرنسيين . والدولتان لا تزالان الى يوم كتابتنا هذه الكلمات بين وعد ووعيد وصلاح وتهديد وتراخ وتشديد وتقريب وتباعد . وعلى كل حال فقد قضى على استقلال هذه البلاد الاسلامية التي بقيت حافظة له مدة ثلاثة عشر قرناً ، وهي آخر الدول العربية والله يرث الارض ومن عليها ، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

صفة جزيرة العرب

بلاد العرب يحدها شمالا بادية الشام الكبرى، وشرقا البحر الاحمر، وغربا بادية العراق وخليج فارس وبحر عمان، وجنوبا المحيط الهندي .

وأرض هذه البلاد في الغالب رمليّة وخصوصاً في وسطها فيما بين نجد وحضرموت والحجاز وعسير و بلاد عمان، حيث توجد الصحراء الكبرى التي يسمونها بالدهناء . وطولها اكثر من درجتين جغرافيتين وعرضها نحو درجة ونصف، وهي ما يسمونه بالربع الخالي : وهي قفر بلقع لا نبات فيها ولا ماء، اللهم الا بحار من تلك الرمال الناعمة التي تنقلها الرياح على الدوام من جهة الى أخرى، واد اصادفت حركتها مرور بعض القوافل التي تخاطر نفسها في السير على حافاتها التهمتهم وأغرقتهم في جوفها وقبرتهم فيه كأنهم ما كانوا . ويمتد من شمال هذه الصحراء لسان يسيرين بلاد الحسا والقصيم ، ثم يميل نحو الغرب حتى يمر ببلاد الجوف ويتصل ببادية الشام التي يسمونها بالنفود الصغرى .

أما سواحل البلاد فهي عامرة بالسكان وفيها كثير من المزارع . ويقطع بلاد العرب من الشمال الى الجنوب جبال السروات، وفيها العيون والانهار والبساتين النضرة والمزارع الكثيرة . وفي سفوح جبال اليمن يزرع ابن الذي هو أحسن أنواعه في جميع العالم . وأشهر جبال الحجاز جبل الهدى وكرا بالطائف، وأشهر جبال معان الجبل الاخضر، وفي نجد جبل العارض وجبل طويق، وفي شمّر جبل سامي : وكل هذه الجبال عامرة بالسكان كثيرة الخير والبركة .

وتنقسم بلاد العرب الى ستة أقسام : الحجاز . اليمن ويتبعها عسير . حضرموت . عمان . البحرين . نجد ويتبعها الحسا .

أما الحجاز فهو اقليم مستطيل يحده غربا البحر الاحمر ، وشرقا البادية الكبرى، وجنوبا بلاد عسير . وشمالا بادية الشام، وطوله من الشمال الى الجنوب يبلغ ١٥٠٠ كيلومتر، وعرضه من الغرب الى الشرق يبلغ ثلثائة كيلومتر . ويقطعه من الشمال الى الجنوب جبال السراة و يبلغ

ارتفاع بعضها ٨٠٠٠ قدماً . وفيها مياه كثيرة وغابات وبساتين وقرى أهلة بالسكان من الأعراب . ومنحدرات هذه الجبال يتصل بها سهل إلى البحر يسمونه تهامة ، وأرضه رملية وبعضها صالح للزراعة ، ويزرع فيها الحبوب وغيرها من الخضر .

و بلاد الحجاز ولاية عثمانية منذ سنة ٩٢٢ هجرية . وكانت قبل الإسلام تتبع في الغالب الحكومة مكة لآسيا بعد ظهور قریش ، وكانت تتداولها بعده ولاية مكة والمدينة إلى أن دخلت البلاد في يد الدولة العلية : فصارت تعين الولاية من قبلها ، وتكون أمور البلاد المالية والإدارية في أيديهم ، وتعين على أمارة مكة أميراً من الأشراف لينظر في أمور العرب . وكان مركز الوالي أولاً جدة فانتقل إلى مكة سنة ١٢٨٧ . وللولاية مجلس ينظر في أمورها الهامة : يتركب من قاضي مكة ، والدفتر دار ، ومدير الحرم ، والمكتوب بجى (كاتب أسرار الولاية) ، ومن نقيب الأشراف ، ونائب الحرم ، وصاحب سدان البيت المعظم ، ومفتى الحنفية ، وقائم مقام الشريف في مكة ، ومدير الصحة ، ونقيب السادة الحسينية . ويوجد بمكة ديوان تميز أى محكمة نظامية تنظر في الدعاوى المدنية والجنايية في الدرجة الابتدائية ، وأحكامها تستأنف في محاكم الاستئناف . وتتركب هذه المحكمة من نائب الشرع الشريف ، وثلاثة أعضاء منتخبين من أهالى مكة ، وقائم مقام الشريف . وقاضى مكة يعين من قبل الدولة لسنة واحدة قمرية ، أما نائب الشرع فيعين لسنتين . ولهذه الولاية نواح وأخطاط يسمى متولياها مدير ناحية ، وحاكمها يلقب بقائم مقام : ومنها الطائف ، ورابغ . ولكل قائم مقامية مجلس يتركب من القائم مقام ومن نائب الشرع الشريف ومأمور المالية (ويسمونه مال مديرى) ومن بعض الأهلالي الذين ينتخبهم الشريف مكة . وإيرادات الولاية تنحصر في رسوم المحاكم النظامية وبيع ورق البول (وهى أوراق مثل طوابع البريد تلصق على الأوراق الرسمية بدل التمتع في مصر) .

أما القبائل فلم يحال لهم مجالس عُرِفَية تنظر في أمورهم ابتدائية واستئنافية ، وتتألف من القاضي وبعض الشيوخ ورؤساء القبائل مع من يختاره الطرفان للاشتراك معهم في الحكم .

ولاصحاب القضايا حق رفض أحكام هذه المجالس واستئنافها عند الشريف ، وهو ما يؤيد أحكامها أو يُعَدِّلُها ويكون حكمه نافذاً للمفعول ، ولهم الحق أيضاً في انابة من يدافع عنهم امام هذه المحاكم .

وأهل الحجاز يقدرون باثنين مليون ونصف من النفوس ، وكلهم الا أهل مكة وجدة مدو يعيشون من ماشيتهم في الجبال ، اما أهل السواحل فهم يعيشون من صيدهم وزوارفهم .
وهم في الغالب شوافع المذهب .

— اليمن —

اليمن ولاية عثمانية واقعة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب ، وطوله من الشمال الى الجنوب نحو ٧٥٥ كيلومتر ، ومن الغرب الى الشرق نحو ٤٠٠ كيلومتر . ويمدرون أهله بأربعة مليون من النفوس ، كلهم مسلمون على مذهب الزيدية الا القليل منهم من اليهود ، أما أهل عسير فهم وهابيون . وأرض اليمن تنقسم الى قسمين قسم السهول وتسمى تهامة وهي الى البحر ، وقسم الجبال وهي سلسلة من جبال السروات متصلة ببعضها من الشمال الى الجنوب ، وأعلىها جبل كوكبان و يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٣٠٠٠ متراً ، وجميع هذه الجبال عامرة بالسكان وفيها عيون كثيرة تتكون منها أنهار تسير في وديان خصبة : منها ما يسير الى الغرب وتصب في البحر الاحمر وأكبرها وادي مشرف ، ووادي كانون جنوب العنقذة ، ووادي عاشور عند ثغر حلي ، ووادي السهام قرب الحديدة ، ووادي هندان الذي يمر بمدينة تعز ، والوادي الكبير قرب مُحَا أما الانهار التي تصب في المحيط الهندي فهي وادي الميدان ويصب قرب ميناء عدن ، ووادي داماء ، ووادي الشارد اللذان يجران قرب صنعاء وينحدرا الى الصحراء أحدهما ماراً بخرائب مأرب والثاني بخرائب معين ، ثم وادي نجران ، ووادي بيشة وغيرها .
وبعض هذه الانهار تنعدم مياهه في الصحراء ولا تصل الى البحر الا في زمن شدة الامطار التي تكاد لا تنقطع في هذه البلاد مدة الشتاء والربيعين ، وبعضها يسير الى جهة الشمال والشرق ولا يلبث ان تتلاشى في جوف الرمال .

وقد عمل اليمنيون في جميع الازمان لهذه الانهار وفروعها سدوداً كثيرة على حسب ما تسمح به نظاماتهم الزراعية، وكان أكبرها في الزمن السابق سدمأرب الذي تقدم الكلام عليه: لهذا ترى ان هذا الاقليم زراعي، وكلما صعدت فيه الى أعالي الجبال وجدت ما مكسوة ببساط أخضر مما يوجد عليها من المزروعات المختلفة، التي ترى الى جوارها عابات من الاشجار المثمرة أو غير المثمرة كالساج والعرو وغيرهما.

وحاصلات اليمن الزراعية هي الدخن، ويزرعونه في الجهات العالية وعليه مدار حياة الاهالي، والقمح، والشعير، والعدس، والسمسم، والدرة، والقول، والقطن، والنيلة، والتبغ، والخضر بجميع أنواعها، والفاكهة الكثيرة: ومنها الامبا (المانجو) واللوز والرفوق ويسمونه نخاري والتين الشوكي ويسمونه الرشومي أو الصابور، وأهم حاصلات اليمن البن. وتنقسم اليمن في ادارتها الى أربع لواءات: لواء صنعاء، ولواء تعز، ولواء الحديدة، ولواء عسير. وفيها نحو ١٩٠٠ قرية.

وحيث اننا تكلمنا على تاريخ الدول التي قامت في هذه البلاد قبل الاسلام، فيجدر بنا ان نقول كلمة على الدول التي قامت بها بعده فنقول:

لما أسلمت اليمن في السنة العاشرة من الهجرة وسار بذلك وفد هم الى المدينة: ولى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل. وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم صارت اليمن تابعة للخلافة الاسلامية الى سنة ٢٠٤. وفيها أعلن محمد بن زياد عامل العباسيين عليها استقلاله، وسميت دولته بالدولة الزيدية وكان مركزها زبيد. واستقر حكم بنيها عليها الى سنة ٤٠٩ هـ. وفي أثناء ذلك قامت دولة اليعافرة في صنعاء من سنة ٢٤٧ الى سنة ٣٨٧. ثم قامت الدولة النجاشية في زبيد من سنة ٤١٢ الى سنة ٥٥٣. ثم الدولة الصليبية في صنعاء من سنة ٤٢٩ الى سنة ٤٩٢. وكانت قامت في صعدة الدولة الرسية في سنة ٢٤٦، واستمرت الى سنة ٦٨٠ وكان أمراءها من الزيدية، وينسبون الى الهادي يحيى حفيد قاسم الرسي أحد غلاة الشيعة في زمن المأمون. ثم قامت في عدن الدولة الزيدية من سنة ٤٧٦ الى سنة ٥٦٩. وفي هذه السنة دخلت اليمن برمتها في حكم الايوبيين الى سنة ٦٢٥، وفيها

قامت الدولة الرسولية الى سنة ٨٥٠ . وفيها قامت الدولة الطاهرية الى سنة ٩٠٦ ، وفيها استولى عليها قانصوه الغورى . وما زالت تابعة لحكم المماليك حتى دخلت في حكم العثمانيين في عهد السلطان سليمان القانونى حوالى سنة ٩٥٠ . ولكنها اسحبت منها سنة ١٠٤٣ لكثرة الثورات الداخلية التى كانت تقوم بها . فعادت حكومتها الى الائمة ، وكانوا نقلوا مركزهم الى صنعاء . وحوالى سنة ١٢٦٠ هـ زحف الامام محمد ابن يحيى على تهامة (اليمن) وكانت في سلطة شريف مكة واستولى عليها ، ودخلت زبيد والحديدة في سلطته . فانتهمز الباب العالى هذه الفرصة وبعث حملة تحت قيادة توفيق باشا الى اليمن ، فتخلى الشريف له عنها ، ونجا برتوفيق باشا مع الامام وانفعا على صلح فحواه : اعتراف الامام بسيادة الدولة ، وأن يرتب له ٣٧ ألف ريال شهر يأتأخذها من ايرادات اليمن والباقي يقسم مناصفة بينه وبين الدولة ، وأن تقام في صنعاء قوة عثمانية مركبة من ألف جندي . فلما علم اليمنيون بذلك ثاروا وقتلوا الحامية العثمانية ، وانسحب توفيق باشا مجروح الى الحديدة ومات فيها من جراحه . و بقيت سلطة العثمانيين في هذه البلاد على الساحل الغربى لليمن أكثر من عشرين سنة . وبعدها جردت الدولة حملة على صنعاء مدة السلطان عبد الحميد الخلع فاحتلتها ، وحجزت الامام في صنعاء وربت له مرتبات شهرية وما زال بها حتى مات ، وتولى بعده رجل من أقارب اسمه السيد حميد الدين ثم تولى بعده ولده الامام يحيى الحالى ، وفي مدته كثرت المحاصمات بينه وبين الدولة وقامت من أجلها حروب كثيرة بين اليمنيين والجنود العثمانيين كانت صنعاء تقع أثناءها في يدهؤلاء تارة ، وفي يد أولئك أخرى .

وبعد الدستور العثمانى قامت فتنتان باليمن : واحدة بزعمامة الامام يحيى ، وأخرى بعسير بزعمامة الادريسى . فأرسلت الجنود العثمانية تلوا الجنود الى اليمن لمحاربة الامام ، والى العسير لمحاربة الادريسى . فسارت فرقة اليمن من الحديدة الى صنعاء التى استولت عليها بعد وقائع شديدة . واستعصم الامام برجاله فى الجبال وأقام فى مدينة شهار ، ومن ثم لم يصل اليها شئ من اخبار اليمن يعول عليه ، اللهم الا ما ورد فى التلغرافات العمومية من أن الدولة فرضت لقائد الحملة

التيمنية المخابرة مع الامام في الصلح ولم يعلم شئ مما آل اليه أمر ذلك الى الان . اللهم الا ما ورد في
تلفعات ر و تربتاريخ ١٦ شوال سنة ١٣٢٩ من ان الامام عرض على الدولة العلية
بمناسبة حربها مع الطليان لاعتدائهم على طرابلس ، مساعدته لها بمائة ألف معادل من العين :
وهو أكبر دليل على انضمام أطراف الدولة الى جسامها في الشدائد التي يجب ان تُنسى معها
الاختلافات التي أوجدتها بعض الظروف بحق أو بغير حق ، ويد الله مع الجماعة .

• أما فتنة عسيرة فقد سار اليها الشريف حسين باشا من مكة في أوائل ربيع الثاني سنة
١٣٢٩ ، بعد أن استنفر معه قبائل عرب الحجاز . ولما وصل الى قنفذه أتهروا وس قبائل
عسيرة وقدمت له الطاعة فأمهم ، الا قبيلة خرشان فانها أتت ان تدعن لامره . فأرسل الامير
اليهم ينذرهم سوء العاقبة انهم أصروا على عنادهم وعصيانهم ، فلم يسمعوا له . فجهز عليهم
جيشاً بقيادة ولده الشريف عبدالله بك ، فهرمهم بعد قتال شديد وأسر كثير من وجوههم ،
وكان ذلك في ١٩ حمادى الاولى من السنة المذكورة . ثم سار الشريف مع عسكر الدولة فدخل
مدينة أبها عاصمة عسيرة يوم ١٩ رجب ، ومعه شأت ناشا قائد الجنود العثمانية بعسيرة ، وبعد
أن أقام بها خمسة عشر يوما رتب فيها أمورها ووكدها نظاماتها ، نارحها عائدا الى مصيفه
بالطائف على طريق عامد . ولكن بعد سفره وردت أخبار بمحاصرة العرب لها من جديد .
ثم أعادتها أخبار تعرض الادريسي للدولة مساعدته في حربها مع الطليان ، والله يلهم ولاة أمور
المسلمين ما فيه مصاحبتهم وبه تكون حياتهم .

وأكثر شعور الدولة باليمن الحديدة وسكانها . ٢ ألفا من أجاس مختلفة منهم الحبشى
والسومالى والهندي والجاوى والعرسى والسودانى . وهو اؤها ردى لكثرة رطوبتها
وحمايتها . والطريق منها الى صنعاء بين جبال عالية يصعب السير فيها جدا ، وأشهر البلاد
التي في هذا الطريق مناخية وتبعد بمسافة ١٥٠ كيلومترا عن الحديدة ، وبمسافة ١٠٠
كيلومترا عن صنعاء التي بها مركز الولايد والتي ترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٥٠٠ متر .
وعدد أهالى صنعاء ٢٥ ألفا منهم ٢٠ من العرب و ٣ من الاتراك وألفان من الهنود ،
وجو هذه المدينة حار ومطرها كثير .

وأهم موانئ بلاد اليمن عدن وهي في يد الالانكيز من سنة ١٨٣٩ م. وهي الآن مركز تجارى مهم جداً بين الشرق والغرب. وموقعها الطبيعى من أمنع بلاد الدنيا: لانها في وسط جزيرة صخرية تتصل بالقارة بلسان من الرمل. وقد حصنها الالانكيز بما لا يقل عن تحصين جبل طارق، وبذلك كانت لهم الكلمة النافذة في البحر الأبيض المتوسط والبحر الاحمر. ومينا عدن تبعد عن مدينتها قليلاً، وهي من الاهمية بحيث تراها على الدوام عاصمة باساطيل الالانكيز وكثير من المراكب التجارية وخصوصاً التي تسير بينها وبين البصرة أو بينها وبين بومباي ويقدر عدد السفن التي رست بميناها في سنة ١٩٠٨ م بنحو ١٨٠٠ سفينة، وبلغت وارداتها في السنة المذكورة سبعة ملايين وسبع مائة ألف ليرة. ومدينة عدن مشهورة بصهاريحها القديمة المنحوتة في الصخور والتي تملؤها مياه الامطار. ويبلغ عدد سكانها الآن ٥٠ ألف نفس، وكانوا عند استيلاء الالانكيز عليها لا يزيدون عن عشر هذا العدد. وأغلب سكانها من الهنود والسوماليين والاحباش واليهود وقليل من العرب. وعلى مقتضى المعاهدة التي عملت بين الباب العالي وحكومة الالانكيز سنة ١٩٠٤، جعلت أملاك الالانكيز في جنوب بلاد العرب ممتدة من بوغاز باب المندب الى نهر بانا شرقاً: وهو ما لا يقل عن مائتين وعشرين كيلومتراً طولاً على ساحل المحيط الهندي، وخمسين كيلومتراً في داخل البلاد. ومما يدخل في سلطة الالانكيز في جنوب بلاد العرب واحدة الشيخ عثمان المشهورة بسلطنة الحج (ومركز سلطانها الحوطه)، ثم جزيرة بريم الواقعة في مدخل بوغاز باب المندب ومساحتها ٨٠ ميلاً مربعاً وهي مركز تجارى مهم، ثم جزائر كور يامور يا على ساحل حضرموت.

وكل هذه الجهات تابعة ادارتها لحكومة عدن التي هي تابعة لامراتورية الهند. وللانكيز عد ذلك شبه سيادة على الحكومات الصغيرة التي في سواحل حضرموت، لانها تعطى ملوكهم مرتبات بدعوى عدم تنازلهم للممالك الاخرى عن شئ من أملاكهم: وأهمها سلطنة المسكلة، وسلطنة متهرة، والشحر، وتريم.

وهذه البلاد على الساحل الجنوبي لحضرموت الا تريم فانها تبعد عنه بنحو ٢٠ كيلومتراً

واهلها يتكلمون بلغة يسمونها بالغة عَيْلِيَّة ، وهي غير العربية واعلمها مستمدة من لغة البلاد الاصلية التي يسمونها بالمسند وهي لغة حمير .

— عمان —

حكومة عمان وتسمى امامة مسقط واقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية من بلاد العرب . وكل ساحل عمان عامر بالبلاد والسكان ، وطوله من نجرم ربط الى بحيمش جزيرة القطر نحو ٢٢٠٠ كيلومتر . وعرضه في داخل البلاد الى الغرب نحو ٣٠٠ كيلومتر ، وعاصمتها مسقط . وتنقسم البلاد الى البطنة (نهامة) ولا تمتد اكثر من ٤٠ كيلومترا أغلبها مغطى بالنخيل المشهور بجودة ثمره ، ثم الى قسم الجبال وأكبرها الجبل الاخضر وارتفاعه نحو ٣٠٠ متر ، وفيه كثير من الغابات والاحراش . ويوجد بين هذه الجبال وديان كثيرة خصبة تسقى بواسطة مجارى ماء لها خزانات وسدود ، كما كان شأنها في هذه البلاد من قديم الزمان . وأهم حاصلات عمان التمر والحنطة والذرة والشعير والرسم والنيسلة والخضر وكثير من انواع الفاكهة لاسيما الجوز الهندي والمانجو ، ومن محاصلها خشب الند والصندل والصمغ العربي والصبر والتباك . وفي جبال هذا الاقليم كثير من المعادن وبالاخص الحديد والرصاص والنحاس والسكريت والملح الجبلى . وعلى سواحلها مغاصات كثيرة للؤلؤ وأشهرها في مسند حمار ، ودمار ، ومسقط . وأهل السواحل يشتغلون بصيد السمك ويصدرون منه كميات كبيرة الى بلاد العجم وغيرها ، ويحفظون منه كميات كثيرة ، وما يبقى من التصدير يغذون منه البقر ويسعدون به الارض . وهذه البلاد مشهورة بنخيلها وبقرها وغنمها ، وجوها حار كثير الجفاف .

وعدد أهالى حكومة عمان يبلغ مليوناً وستمائة ألف شخص . ومساحتها لا تقل عن ثمانين ألف ميل مربع ، وعاصمتها مسقط أو مسكت وسكانها ٢٥ ألف نفس ، وبينها وبين مكة أكثر من ألفين كيلومترا . ولها ميناء صغيرة ترسو السفن فيها . وتنقسم سكانها الى قسمين : البدو أو سكان الخيام وهم قوم رُحَّل وراء المرعى وفي الغالب من العرب العدنانية ، ثم المتحضرون ويقال لهم العُمانيون وهم خليط من الهنود والعجم والبلوچستان والعرب والزنج .

وأهل عمان على مذهب الاباضية المنسوب الى عبد الله بن أباض المرسي (من المربية من أعمال طرابلس الغرب) الذي استولى على افريقية الشمالية سنة ١٥٢ هـ وادعى فيها الخلافة . وكانت عمان تابعة لحكم التبابعة ، وأسلمت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت الخوارج تلجأ اليها هرباً من خلفاء بني أمية والعباسيين ، لبعدها عن العمران الاسلامي . وكان تجارها ينتقلون في جزر المحيط الهندي مثل جاوة وسومطرة وغيرها من سواحل أفريقيا الشرقية . ومن كثرة احتكاكهم بأهل تلك البلاد اذاعوا فيهم دين المسلمين وقبحوا لهم الوثنية ففسحافهم الاسلام . وكثر توارد العرب الى تلك الجهات وتقربوا من أهلها بالمصاهرة وما زالوا حتى أصبحت لهم الكلمة فيهم والسيادة عليهم .

وفي سنة ١٥٠٨ م استولى البورتغاليون على سواحل عمان واتخذوا مسقط قاعدة لغاراتهم البحرية ، ووجهوا عساكرهم لتحصينها . ولما استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز سنة ١٦٢٢ ، لحأ أهلها الى مسقط فازدادت بهم أهميتها . وفي سنة ١٦٥٨ ثار أهلها الى مسقط على البورتغاليين وطردوهم من أرضهم . و بعد مدة استولى الهولنديون على مسقط فطردوهم أهلها . ثم أتى الإيرانيون بقصد فتح بلادهم فاستصرخ العمانيون بأحمد بن سعيد حاكم الشحر ، فحضر وساعدهم على طردهم ، فبايعوه ونادوا به سلطاناً عليهم في سنة ١٦٦٧ هـ . وامتد حكم ابن سعيد شمالاً الى جزيرة القطر وجزائر البحرين ، وجنوباً الى حضرموت وظفار ، ثم توفي سنة ١١٨٨ هـ ، وتولى مكانه ابنه عبد الصمد . ولما مات تولى بعده ابنه سلطان بن عبد الصمد . ولما مات تولى عمه سعيد بن أحمد بن سعيد . فأدرك أهمية مركز بلاده الجغرافي وعرف أن مستقبلها مرتبط بالقوة البحرية . فاشأ أسطولاً من ثلاثين سفينة حربية ، وسلحها بالمدافع واستولى بقوته على جزيرة هرمز في الخليج العجمي ، ثم استولى على جزيرة سوقطرة وجزيرة زنجبار ، ثم وضع يده على سواحل زنجبار ورأس غاردافوي : وبذلك أصبح له السلطان المطلق في خليج العجم والبحر الهندي . وأنشأ طرقاً كثيرة في بلاده التي أصبحت محط الرحال للتجار من الهند وفارس وشرق أفريقيا ومصر . وكان الوهايون قبل هذا الزمن قد أغاروا على عمان ووضعوا خراجاً

سنوياً على صاحبها، ولكن السلطان سعيد امتنع من أدائه اليهم . فاعاروا عليه وأحرقوا كثيراً من بلاده ولم ينقذهم الا نحوهم عنه الى حرب ابراهيم بن محمد على باشا الذي قضى عليهم القضاء المبرم . بعد ذلك مال سعيد الى الراحة، فباع اسطوله وقسم مملكته بين أولاده الثلاثة: فجعل زنجبار وما يليها من سواحل افريقيا وجزيرة سوقطرة الى ولده ماجد، وجعل القسم الشمالى من مملكته وهو جزائر خليج البصرة وما يليه من الساحل الغربى لابنه الاكر التوينى ، وجعل القسم الجنوبى الى ابنه تركى .

ولما توفى سعيد طلب التوينى من أخيه ماجد أن يؤدى اليه خراجاً سنوياً فلم يقبل . فقامت بينهما الحرب مدة سنتين حتى تدخل الاسكندر وأصلحوا بينهما على أن يستقل ماجد زنجبار ، وأن يؤدى في نظير ذلك الى أخيه التوينى كل سنة أربعين ألف ريال . ثم نارع التوينى أحاه تركيا في نصيبه فقم الناس عليه وانقصوا من حوله وابعوا أحاه تركيا، وساعده الاسكندر على دخوله مسقط . فهرب التوينى الى فيصل الوهانى، فارسل معه جيشاً بقيادة ابنه عبدالله واستولى على بلاد عمان وسلمها الى التوينى ، واهرب بالحكم فيها حتى توفى سنة ١٢٨٥ هـ . وخلفه ابنه سالم فقبض على عمه تركى وسجنه ، ثم أخلى سبيله بمداخلة الاسكندر فسافر الى بومباي . أما سالم فانه نار عليه في السنة الثالثة من حكمه رجل من قرابته اسمه عزان، ونزع منته الملك . وبلغ ذلك تركيا وهو في بومباي فاسرع الى بلاده وقتل عزان واستولى على عمان سنة ١٢٨٧ هـ . وكان أخوه ماجد قد مات في زنجبار، فعين أحاه برغشا سلطاناً عليها .

ومن ثم بقيت حكومة عمان على غاية الصفاء مع الاسكندر . ومن سنة ١٢٩٨ م الى الآن عقدت بين الحكومتين جملة معاهدات تضمن بها للسلطان مرتباً شهرياً من خزينة الهند وتكفل له استقلاله وحفظ الامن في داخلية بلاده، وذلك كله في نظير عدم تنازله عن شئ من بلاده الى حكومة أخرى .

ومن هذا الوقت أخذت يد الاسكندر تمتد الى أطراف هذه المملكة واحداً بعد الآخر: فاستولت على جزائر كوريا مورياسنة ١٨٥٤ م، وعلى جزائر خشم الواقعة في مضيق هرمن

سنة ١٨٧٦، وفي هذه السنة نفسها أعلنت حمايتها على جزيرة سوفطرة . وكان سلطان زنجبار تنازل سنة ١٨٩٠ للمانيا عن قسم من بلاده يبتدى من مصب نهر روفوما جنوبا وينتهى الى ونغاشمالا في مقابل ٤ ملايين مارك . فبادرت اسكترا فوضعت يدها على مائتي سلطنة زنجبار من السواحل ، ثم أعلنت حمايتها على جزيرة زنجبار نفسها ، وبعدها عقدت معاهدة مع ايطاليا استولت هذه بموجبها على قسم مما يلي بلاد الصومال .

— جزائر البحرين —

أهم هذه الجزائر جزيرة عوال ، وفيها نحو ستين قرية صغيرة وعاصمتها مدينة منامة وسكانها نحو ٢٥ ألف نفس ، والى جوارها جزيرة اراد . وأصل سكان هذه الجزيرة من عمالقة طسم وجديس ، ثم استولى عليها الفرس ، وصارت تابعة لحكم المتأذرة ملوك الحيرة ، ثم دخلت في سلطنة المسلمين في السنة السادسة للهجرة مدة حكم العللاء الحضرمي على إقليم البحرين . ثم استولى عليهما البورتغاليون ثم الايرانيون ثم امام مسقط ثم الدولة العثمانية ، وبنازعها فيها الان الدولة الانجليزية ويصورها كل منهما بلون بلاده على الخرائط الجغرافية . ويحكمها الان الشيخ عيسى بن علي تحت حمايه حكومة الهند . ومن أهم حاصلاتها اللؤلؤ ، وقد بلغت صادراتها سنة ١٩١٠ مليوناً ومائة وسبعين ألف ليرة اسكيزيه . ويقدر عدد سكان جزائر البحرين بمائة ألف نسمة .

— نجد —

نجد هي القسم الواسع الواقع في وسط جزيرة العرب ، وفي منتصف المسافة بين المدينة و بغداد . ويقسمونه الى قسمين : الشمالى وهو الحائل وما والاها ويسمونه نجد الحجاز ، والثانى العارض وما يليه ويسمونه نجد اليمى . ومعنى نجد الشئ المرتفع ، فهو مرتفع عن تهامة وهي الارض التى تلى البحر . ويرتفع سهل نجد عن سطح البحر نحو ١٢٠٠ متراً . وفي هذين القسمين جبال مشهورة بكثرة خيراتها ، منها جبل سلمى ، وجبل طويق ، وجبل أجأ .

ويحيط بنجد من الشمال صحراء الشام ، ومن الغرب صحراء الحجاز، ومن الجنوب البادية الكبرى ، ومن الشرق اسان من الدهناء ، ولذلك كان الوصول اليها لا يخلو من المشقة .

— شمر —

شمر واقعة في منتصف المسافة بين مكة والبصرة وهي عبارة عن جبل شمر وجبل سلمى . والاودية التي بينهما صالحة للزراعة ، وفيها كثير من البساتين ، ويقدرون مسطحها بأربعين كيلو متر مربعاً . وهذه الجهة ادارتها في يد آل الرشيد ومركزهم مدينة الحائل ، وسكانها نحو عشرين ألف نفس . وفي جنوبها قصبة تسمى كفار ، ويقدرون سكانها بثمانية آلاف نفس . وفي شمر نحو أربعين قرية كبيرة تحيط بها غابات النخيل ، وأغلب سكان شمر من ذوى الخيام ويقدرون بنحو أربعين ألف نفس ، كلهم من أهل الساحة والنخوة . وأشهر حيوانات هذه الجهة الخيل ، وهي أجمل أنواعها في الدنيا بأسرها ، ويوجد عندهم الحمير والابل والبقر ، وتكثر عندهم الاغنام ، ويوجد في جبالهم النعام والبقرا الوحشى والفهد والثعلب والذئب والغزال والاربع وعير ذلك . والى شرق شمر يميل الى الجنوب بلاد القصيم . وأغلب أرضه وديان خصبة تزرع فيها الحبوب على اختلاف أنواعها ، وكثير من أصناف العاكمة كالعنب والرمان والزيتون والمشمش والبطيخ والفاوون ، وفيه كثير من النخيل . وفي وسط أرضه أكمات تكثر فيها الغابات . ويقدرون عدد أهلها بثلاثمائة ألف نفس ، كلهم يسكنون الخيام الا العليل منهم فانه يسكن القرى التي لا تزيد عن ثلاثين قرية ، وأشهرها بريدة وعنيزة . و بلاد القصيم نصفها الشمالى تابع لامير شمر ، والنصف الجنوبى تابع لامير الرياض .

— العارض —

هي جبال نجد اليمن ، وهي المشهورة بنجد الان ، واذا أطلق هذا اللفظ فلا ينصرف الا عليها . وعيون هذا الجبل غزيرة وأوديته كثيرة وفي غاية الخصوبة ، وتكثر فيها المزارع والبساتين .

وهذه البلاد الان وما والاها من بلاد القصيم في حكم آل سعود، وعاصمتها الرياض، وهي من أهم مدن نجد. ويكثر في هذه البلاد النخيل والحيوانات الالهلية وأخصها الخيل والابل والغنم. وأغلب أهلها أهل بادية، ويقدر عددهم بنصف مليون نفس، وكلهم وهابيون. وأمارتا الرياض والحائل تابعتان لتصرفية نجد التي يدخل في دائرتها الحسا ومر كرها مدينة الحسا. وكلها داخل في دائرة ولاية البصرة. ويشغل أهل السواحل بالتجارة وصيد اللؤلؤ والاسماك ويحفظونها ويصدرون منها الى الخارج كميات وافرة. وأعمار بلاد الحسا قضاء القطيف، ثم البلاد التي جنوبها الى بحيث جزيرة القطر، وغالبها بحاري رملية وتكثر المزارع فيها الى جهة السواحل وفيها النخيل بكثرة. وبلاد الحسا مشهورة بالحمر الحساوية ويكثر في فيا فيها السباع والنعام وحمر الوحش. ومن صناعة هذه البلاد العبي المشهورة وغير ذلك من المنسوجات وبعض الاعمال النحاسية. وهواء البلاد حار كثير الحفاف ونحي، الا في القطيف فانه رطب لكثرة المستنقعات التي حولها. وتنقسم هذه البلاد الى أربعة أقضية قضاء الحسا، وقضاء القطيف، وقضاء القطر، وقضاء الحموف، وهو أكبرها وأوسعها. وعدد سكان الحسا يقدر بخمسة وثلاثين ألف نفس نصفهم أهل حضر والباقي بدو. ويوجد في الحسا مياه معدنية بكثرة، وأرض هذه البلاد تسقى من الاحساء (مفرده حسا) وهي الجداول الطبيعية. وقد تجتمع جملة جداول وتصب في بركة تكون خزاناً مستديماً في الاراضي.

اخلاق العرب

العرب أخلاقهم في البادية واحدة في الغالب من قديم الزمان: فهم أهل صدق ووفاء وشهامة وشجاعة وكرم. شديدو الغيرة على سائرهم ولا قيمة للحياة في نظرهم الا مع العزة. يأنفون العار ويحفظون الجوار ويدافعون عن دخل في وجههم (حميتهم). وادابني بعضهم على شخص فمال لهم أنا في وجه فلان يعني رجلاً من قبيلتهم ولو في غيبته رجعوا عنه واحترموا حمايته صاحبهم. يعرفون المعروف لصاحبه ولا تأخذهم في الحق لومة لائم. وهم أبعد الناس عن

الرباءة والنفاق وكلامهم كله صراحة وليس فيه من ألقاظ التعجيم وجمل النعظم ما تضيع معه
الحقيقة : فهم ينادون أمير مكة وهو في منزلة الملك منهم ، مولهم بأشرف كما كانوا ينادون
الرسول ، مولهم يا محمد . صمانهم سبيل على أسبهم وسبأ لآحهم أقرب الأشياء إلى يدهم .
الربيع عندهم خبر الأيام واللحم سبب الطعام وهم أبعد الناس عن التأني في المأكل والملبس .
يعبر قوتهم على ضعيفهم وكثرون من غرو بعضهم البعض ولا يترك الرجل منهم تأردمهما
كان ضعيفاً . وإذا لم يأسر له أن يحصل على حنوفه من عريمه شخصياً كان له في عرفهم أن
يعبر على حمسه وهو أي شخص من قبيلة يحصل معه في اسمه إلى الخد الخامس . وإذا قتل
شخص آخر ولم تمكن صاحب الدم أن يمتص من الغالب قبل نكاحه أو حمله أو عمه أو أحد
بناتهم وبه سقط النكاح . وبعضهم رضى بالدية في قبيلة وهي عندهم ثمانمائة ريال في
العمد وألف في الخرد وعشرة آلاف في الرجل السري . وإذا قتل أحدهم أو ففوه في غيره حتى
يأخذوا ثأره وعمدها يمتحون دمه ويدهونه في فراشه الأحمر مرتاحاً على زعمهم مما
صنعوا . ومن عواندهم الماء أنه وهي أمداد قبل أحدهم يذهب أهل الغالب إلى أهل المقتول ولا
يتسربون لهم فيه ولا آكاون طعاماً . وداستلوا عن حاجتهم سألوهم الماء وهي بأجيل
المطالبة بالخصاص شهر أو شهرين فينبولون منهم أحلامهم في الغالب . وعليه يكون الغالب في أمن
على نفسه طول هذه المدد إلى تخمدون أماءه في الاتفاق مع أهل المقتول على الصلح أو الدية .
وإذا انتصت دون ان سقتوا طالموهم بالخصاص والآناروا لا نفسهم بأي طريقة .
وإذا أتهم شخص منهم وأسكر أو انه إلى الملاحس هو رجل مخصوص عندهم فيأتي
خديده ثمانية أناروا بحسه أيها . وهم يرمون أنه إذا كان صادقاً لا تضره ولا فاتها تحرق
لسانه . وبعضهم نخطد انرد في الارض يوقف فيها منهم ويحمله و يعتمدون أنه إذا كان كاداً
لا يمكنه الخروج منها . أم الممخضرون من العرب أو الدين لهم صلة بأهل الحضرة كالحالة
والمؤمنين مثلاً فأخلافهم أقرب إلى أخلاق الحضرة منها إلى المداوذة والطبقة السافلة منهم في
الغالب من أنتم ما يوجد من نوع الإنسان على العرب . وربما كانت حاجتهم إلى العيش هي
التي ترمي بهم إلى انسلاف العيوب واقترااف الذنوب . وليست أخلافهم مما يؤخذ على أخلاق
العرب في جموعها : وأمثالهم في جميع الأمم كثيرون .

﴿ جدول بالقبائل الموجودة ببلاد العرب ومساكنها وعدد نفوسها ﴾

اسم القبيلة	الطون المدرعة منها	عدد	مساكنهم
عزرة	(مائل الحجار) الحسنة . حلاس . (ومهم الزوال والمخالف) وبشير (ومهم ماجد وسلي) وأولاد علي (ومهم المشارفة . المشطا . الحدة أمده . الجدة الامة وطلاح) .	٣٥٠٠	شمال المدينة في شرف مدائن صالح إلى خيبر .
الحويطات	الحازمي . الريضات . عمران . بنى عطية . دبور . بدول . السماحة . الرايين . والبطحة	٧٠٠٠٠	من محطة العلاء إلى معان والعصبة وغرد .
إلى جبهته	بنى مالك (و تنفر عنهم فمائل الصبيحة . العيايشة . عروه . كومه . سدة بات . الخصيبات . الاساوره . المسادي . الرقعه . بنى كلب . الحنادله . الحمد . والمواليد) . ثم بنى موسى (و تنفر عنهم الراحه . الموالي . المرادين . العلاءوس . ريمان . العوامره . بنه . والسماحة) .	٣٠٠٠٠	من العقبة إلى جنوب الوجه
	بنى مالك (و تنفر عنهم فمائل الصبيحة . العيايشة . عروه . كومه . سدة بات . الخصيبات . الاساوره . المسادي . الرقعه . بنى كلب . الحنادله . الحمد . والمواليد) . ثم بنى موسى (و تنفر عنهم الراحه . الموالي . المرادين . العلاءوس . ريمان . العوامره . بنه . والسماحة) .	٥٠٠٠٠	شرف و شمال المدينة إلى الوجه
(عس) (هيم)	مهيزان . دوى الرشيد . دوى راك . النوامسة . الشراراب . والهمان .		وهي في بلد صغيرة في شمال ناسع
حرب	بنى سالم (ومهمهم ميمون وسفرع إلى محمده . رلا وعه . رحله . عمرو . حيدر . أحامده . صبيح ثم المراوحة وهي الحوارم وتنفرع إلى بواصة . فرا . ظواهر . جنول . حنيطاب درعات . حجلة . مزينة . ردادده . حباينه) ثم بنى مسروح (وتنفرغ منها عطور . مناشك لشر . معبد . السلا دية . حمران . المدارس بنى جابر . عوف . زبد	٨٠٠٠٠	وهم يسكنون من الحمره شمالا وشرقاً وغرباً إلى عسفان

(١) عس مائة هي إلى كان لها في الخاهلية ذلك الخاه المبيع . وكان إلى القرن الثامن الهجري قوة وعبدت على حرامها قمع العرب عليها ووعوا بها قسب شملها في اليمن وغيره ومن ثم ضعف أمرها .

إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
الذخاولة ^(١)	*(قائل الحجار)* (١) قبيلة حقيرة في صواحي المدينة يسمعونهم أهلها في خدمتهم وفي رراعة نباتينهم وحقولهم وهم رافضة ولا يسمون أباءهم بأسماء أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة . ويسمون أولادهم المرون وهم يحملون بكاح الممة . وأهل المدينة لا يسمونهم دويش . معيون . نبي عبد الله	١٢٠٠٠	شرق المدينة شمالا الى نجد وجنوبا الى الصفيينة .
نبي سليم عتيبة	رقاويريا (ويتفرع عنهم ما قبائل روسان . الروقة . الشيايين . الدجاجين . العصمة . جذعان . والحنايس)	٢٠٠٠	شرق المدينة بجنوب الى حاذه شرق البادية الواقعة على طريق الشرق بين مكة والمدينة
قريش هذيل ثقيف	العلويين . التدويين . نبي خالد بنو سفيان . بنو سعد . باصره . ربيعة . عيلدة	٢٠٠٠	شمال عرفة والطائف .
ثقبوم الجوم	عدوان	٢٠٠٠	الحبال التي بين مكة والطائف
بنو الحارث	بنو سعيد	٢٠٠٠	جنوب وشرق الطائف .
بنو لحيان	بنو لحيان	٢٠٠٠	شرق الطائف .
الجحادة	بنو لحيان	٢٠٠٠	» »
قبائل	بنو فهم . يزيد . بجاله . منعان . أشراف ذوى ريد . نبي هلال . نبي عفيف . أشراف ذوى حسن . ببالا سود . ببالا غور . نبي سليم . نبي عمر . نبي علي . نبي زبدان . رفاعه العبيدات . الهجالة . بنو كبير . أكلوب . العبادله . البيشة . بنو سعد . بنو سعدة . ميمون . نبي مالك . زهران . غامد . شهران . وبلقرن . بنو الاسمر . ناصر . نبي الاحمر . وشهران .	١٥٠٠	جنوب مكة وعلى طريقها الى الايت .
قبائل	بنو فهم . يزيد . بجاله . منعان . أشراف ذوى ريد . نبي هلال . نبي عفيف . أشراف ذوى حسن . ببالا سود . ببالا غور . نبي سليم . نبي عمر . نبي علي . نبي زبدان . رفاعه العبيدات . الهجالة . بنو كبير . أكلوب . العبادله . البيشة . بنو سعد . بنو سعدة . ميمون . نبي مالك . زهران . غامد . شهران . وبلقرن . بنو الاسمر . ناصر . نبي الاحمر . وشهران .	٦٠٠٠	شرق الطائف الى الجنوب .
	بنو فهم . يزيد . بجاله . منعان . أشراف ذوى ريد . نبي هلال . نبي عفيف . أشراف ذوى حسن . ببالا سود . ببالا غور . نبي سليم . نبي عمر . نبي علي . نبي زبدان . رفاعه العبيدات . الهجالة . بنو كبير . أكلوب . العبادله . البيشة . بنو سعد . بنو سعدة . ميمون . نبي مالك . زهران . غامد . شهران . وبلقرن . بنو الاسمر . ناصر . نبي الاحمر . وشهران .		في جنوب الطائف الى عسير .

اسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	﴿قبائل عسير﴾		
قبائل	بنى علفم . رفيره . بنى ربيعة . المقيد .	١٠٠٠٠	شمال وجنوب العسير
قحطان	رفيف . عبيدة . شريف . سحان . و راعه	١٠٠٠٠	جنوب العسير شرق
يام	ذوى محمد . وذوى حسين .	٣٠٠٠٠	فى وادى نجران
	﴿قبائل اليمن﴾		
بائعز	بنى زيد . بنى حرب . بنى عيس . و بنى سهم	٦٠٠٠	شمال القنفذه
قبائل	بنى بحير . و بنى الروحه .	٥٠٠	فى وادى وئبه قرب القنفذه
»	تلمنتشير . بلعريان . العوامر . ملكينانى	٤٠٠٠	وادى حلى قرب وادى وئبه
»	بنى سبيل . بنى شليل . وجيزان .	٦٠٠	قرب العرايش
»	بنى مروان . حرَض	١٥٠٠	بين جيزان ولحيه شمال الحديدة
»	بنى قصير . بنى جامع . بنى شيبه . بنى شابع	١٠٠٠	بحوار الحية
»	بنى رين . بنى راجح . الفراته . بنى طاهر . و بنى هيجان .	٧٠٠٠	وادى الواعظات شرق الحية
»	بنى حسن . بنى عيس . أسلم .	٥٠٠	قرب وادى الواعظات
»	آل مره . الكُرب . الصمير .	٣٠٠٠٠	بين جبل برط والجوف
»	نهم . أرحب .		بلاد حاسد شمال صنعاء
»	عمران .	١٠٠٠	شمال الحديدة
»	همدان .	١٠٠٠	شمال صنعاء
»	بنى مطير .	٣٠٠٠	قرب صنعاء
»	البرويه .	١٠٠٠٠	قرب صنعاء غربا
»	الحضور .	٤٠٠٠	جنوب صنعاء
»	بنى شداد . خولان . بنى جبير . عيس . فلاح . ضبيان . مجاهد . قيس الاعماس .	٦٠٠٠	شرق صنعاء
قبائل	آل عمورى . المراشده . القيشن . الخامعه . و نوح .	٢٥٠٠	فى وادى دُغن جنوب شبام
»	الحالكه . آل محفوظ . آل يزيد . آل بطاطى . و آل كثير .		فى وادى لسير أحد شعاب وادى دُغن
»	آل العوابسه .	٥٠٠	فى وادى العين

إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
قبائل	باصليب . بابيس . نبي ماضي . الجمدة . الصمرة . نهب . و نبي محاشن .	١٥٠٠	وادي عمد
»	نبي حيدر . نبي الليث . وشحا .	٥٠٠	وادي رفيه
»	آل بالعبيد . الصيغر . ونافع	٢٥٠٠	وادي دهر
»	آل كثير . العوامر . آل باجري . آل جابر	٦٠٠٠	وادي بن راشد
»	وآل تميم
»	يافع .	٢٠٠٠٠	الحبال الواقعة شرق شمال عدن
»	العواليق . آل ديب . آل عبد الواحد . شيبان	٥٠٠٠	بين عدن والمكلا
»	العكابر . و نبي حسن
»	آل حموم .	١٠٠٠	بحوار الشحر
»	نبي هود . مناهل . ومهره	٢٠٠٠	بين قريني هود وظفار
»	آل كثير .	٥٠٠	ظفار وماحولها
»	قرا . والشجرة .	٣٠٠٠	الحبال المشرفة على ظفار
»	السادات العلوية .	٣٠٠	حضر موت
قبائل عمان	بنو شعاب . الفاريون
قبائل الحسا	قبيلة الطرة .	٣٠٠٠	في أطراف القطيف
»	قبيلة نبي هاجر .	٤٥٠٠	غرب القطيف
»	بنو خالد (بن الوليد)	١٠٠٠٠	غرب الحسا
قبائل نجد	بنو سبيع .	٦٠٠٠	بين الرياض والحسا
»	قبائل عنزة (بطن من التي بالحجاز) . الذي	١٤٠٠٠	بين المدينة المنورة والقصيم
»	الفرم . نبي سالم و نبي يحيى
»	العجمان وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية	٦٠٠٠	شمال الرياض
»	قبائل قحطان (وهم غبر قحطان اليمن)	٣٠٠٠٠	بنو قحطان الى قسمين الاول بين الرياض وريته والثاني بالحوطة
»	قبائل الضعيفات . الحعاره الرابعة . نبي	١٥٠٠٠	وادي الدواسر جنوب الرياض بمر
»	بنو ساجه . بنو لحم . بنو حيتم . عرب الاخايل (ويقال انهم بقية من نبي هلال المشهورة)	..	في القصيم

سفر الجناب العالى

من مصر الى جدة

طالما كانت تتوق نفس مولانا الخديو رحمه الله عباس باشا حلمى الثانى رحمه الله الى حج بيت الله الحرام وزيارة بيته الكريم . وكانت هذه الفكرة المقدسة تتردد فى خاطره من سنة الى أخرى ، حتى تأكدت عزيمته على أداء هذه القرية فى شهر رمضان الماضى سنة ١٣٢٧ وأصدر أمره السامى بتجهيز ما يلزم لسفره الى الاقطار المجازية . وفى شهر ذى القعدة أخذ حطه الله فى تعيين من يلزمه فى هذا السفر الميمون من رجال معيته الفخام ومن غيرهم من العلماء الأعلام والذوات الكرام . والحلة فقد صدرت ارادته السنية تشريفى بالسفر فى خدمة ركابه العالى ، وصدر الأمر الى بعض الحاشية الخديوية من مملكين وعسكريين بالسفر معهم الى جدة وبعضهم الى مكة لا تنتظار تشريف جنابه السامى بهما ، نخص بالذكر منهم أصحاب السعادة أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى العربى والافرىكى (مدير الأوقاف العمومية حالا) وحسين مكرم باشا السرياء والخديوى ومهمندار جنابه العالى فى هذه الرحلة المباركة (وكيل الحرية حالا) ومحمد عزت باشا رئيس الديوان الخديوى التركى وأحمد خيرى باشا ناظر الاوقاف الخصوصية وأحمد صادق بك وكيل الخاصة الخديوية ومحمود بك محمد رئيس قلم عرفخالات المعية السنية وفضيلتلو الشيخ محمد شاكر وكيل مشيخة الأزهر الشريف والسيد محمد البىلاوى من علماء الارهر ووكيل الكتبخانة الخديوية المصرية والشيخ محمد عاشور مفتى الأوقاف الخصوصية وغيرهم من حضرات ضباط الحرس الخديوى .

وفي يوم السبت الموافق ٢٦ دى القعدة ٩ ديسمبر سنة ١٩٠٩ كانت تشریفات
الوداع ، فامتلات أرجاء سراى عابدين بصنوف المودعين ، وتواردت الوفود من جميع
انحاء القطر للنم هذه اليد المباركة بحال لم يسبق لها مثيل ، وفلو بهم تبتهل الى الله تعالى بأن يحفظ
ملك البلاد المحبوب ، وأن يردده اليهم قريباً بكل ما يرجون له من كمال الصحة والعافية . ولم
تفتصر هذه العاطفة على المسلمين ، بل كنت ترى المصريين على اختلاف أديانهم مشتركين
في السرور بهذا الاحساس الشريف والشعور الحى الذى تحرك فى فؤاد ملك من أكر
أمراء الاسلام للقيام باداء هذا الواجب الدينى الاجتماعى ، مؤملين من ورائه الخير
والسعادة العظمى إن شاء الله الاسلام وأهليه عموماً ولمصر وسببها خصوصاً .

وفي ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٢٧ صدر الى عطوفه رئيس النظارة الأمر العالى الآتى .
« قد شاءت الارادة الالهية بتحقيق رغبتي فى اداء فريضة الحج وزيارة الروضة الطاهرة
السوية على صاحبها الصلاة والسلام ، فعزمنا على السفر لهذا النصد الحليل فى هذا العام .
ولونوقنا فى عطوفتكم رأياً أن تقوموا من امننا ممد غياننا فى اداره شؤون حكومتنا
بعهدكم من الخيرة والدراية ، وقد أصدرنا هذا اليكم ذلك راجين من الحق عرشاً أن
توفىكم مع حصرات النظارة زملائكم لما فيه سعادته الامة وخير الملامد .

والمالرحو أن يكون نوحهما الى ملك الأقطار الماركة ووقوفنا بالذات على أحوال المحج
المصريين وحاجاتهم باعثاً فى المستقبل لراحتهم واطمئنانهم ، خصوصاً فى هذا العهد عهد
مولانا خليفة المسلمين السلطان محمد الخامس ﷺ أعز الله وأيد ملكه بالعدل والتوفيق .
هذا وسرفع أ كف الصراعة الى مقام العزة الالهية فى تلك الجماع الطاهرة بأن توفىنا الى
خدمة الأمة العز يزده مصر يه التى لا تمارفها إلا وفلسامعها وفكرنا مشغول بما يؤدى الى
خيرها ومجدها فى الحال والاستقبال ، كما ما على يقين من أن دعواتها الصالحة تكون ملازمة
لنا فى الحل والترحال إن شاء الله » .

وفي الساعة السابعة والدفينة الأربعين من صباح يوم ٢٩ دى القعدة سنة ١٣٢٧ .
وهو اليوم الذى تمر فيه رسمياً سبيل الحباب السامى ، تحرك القطار المخصوص من سراى

الفة متلا للحضرة الفخيمة الخديويه و بعض الحاشية الكريمة . فوصل الى محطة مصر حيث كان في انتظار جنابه العالى أصحاب السعادة النظار الكرام والعلماء الأعلام ووكلاء الدول وقاصليها وكل من في مصر من الدوات وأصحاب الحيات و بعد ان صاحبهم حفظه الله مودعا من الكل بالدعاء الصالح ، أشرف حضرات النظار بالركوب مع سموه ، وسافر القطار على بركة الله تعالى الى السويس . وكانت جميع محطات السكة الحديدية مزدانة بأحر الزينات الباهرة ، وفيها ما لا يحصى من جموع المودعين ، لاسيما في محطتي نها والزقازيق اللتين احتشد فيهما خلق كثير يضرعون الى الله تعالى بأن يرد عليهم أميرهم محمود والعودة محروسا بالعباية العمدانية . ومارال النظار سائرا تشيعه الملوب حتى وصل بسلامة الله الى السويس ثم الى محطة الحوض في الساعة الأولى بعد الظهر . وهالك كانت معالم الريات في أحمل مظاهرها ، وكان المستمبلون من غلبة المصريين لا يحصون عددا ، حيث قامت الى السويس فطر محصوه من جميع جهات المطر تمل وفود المودعين من عواصم الثغور والمدريات ، وفي مقدمة الجميع حضرات أعضاء الجمعية العمومية ومجلس شورى القوايين يتقدمهم صاحب اندولده والتمجامة الرئيس حسين كامل باشا (وكان رئيسا لهما) فلما وقف المظار رل الحناب العالى وصافح دولته وكل من كان حاضرا من الأمراء والعطاء شاكرا لهم تحملهم هذه المشقة ، وأنى عليهم لسان كد عطف وحنان ، ثم التفت الى دولة الرئيس قائلا : إني أشكرك من صميم قواى لا يصفتك رئيسا للشورى والجمعية لعمومية فقط بل لصفقت كبريات الخديوى — فلم يمالك دولة الأمير نفسه تلاء هذا الكرامة الكرى والعاطفة الشريفة أن درفت عيناه بالدموع وقال محببا عن هذه العبارة السامية الرحمة : لست يامولاى مهما بالغ من أمرى عبر عمن عبيدكم الخاضعين المخلصين لعرشكم ، قد امتزت شرف المرين من سموكم ، فحنى الحناب العالى رأسه لهذا الحواب الذى كان له أجمل وقع في نفوس الحاضرين ، لأنه جمع الى محض الاخلاص جليل المحبة والولاء .

وهناك صعد الحناب العالى الى ماوراء الحروسة ، و بعد أن استراح قليلا ابتدأت التشرهات بحال كنت تتخيل معها انك ترى عيانا عاطفة هذا الامير الحليل المحبوب تتعاق

مع عواطف رعيته الصادقة المخلصة ، وكنت كأنتك تشاهد الدعاء الذي كان يخرج من أعماق القلوب صاعداً إلى السماء رجاءاً إلى الله تعالى أن يحفظ هذه الذات السامية وأن يعيدها إلى ملكها بعد أداء هذه الفريضة المقدسة في صحة تامة ومسرة عامة . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر تحرك اليخت قاصداً جدة ، وكان مقبلاً للجناب العالى وصاحبة الفخامة والدعوة الرفيع وصاحبات الدولة الأميرات السنيات عطية هانم أفندى وفتحية هانم أفندى كريمة الحضره الحديويه الفخيمة والريسيس فاطمة هانم أفندى عمه جنابه السامى ، وكن قد حضرن مع دوله والدة على قطار خاص وصل الى السويس قبل تشریف الجناب العالى اليها .

وما زال اليخت سائراً حتى حادى ثغراً باعاً من الشاطئ الشرقى ، وهو على عرض ٢٢ درجة و ٢٨ دقيقة وطول ٢٨ درجة و ٥٨ دقيقة ، وبينه وبين جدة مائة ميل وتسعة ، فأحرم الحجاب العالى إحراماً كاملاً هو ومن كان في معيته من الحجاج ، واستقرت الباخرة في سيرها حتى إذا صارت على بعد ساعتين من جدة ، أخذت مبايها تظهر شيئاً فشيئاً حتى تجلت للعيان بيضاء ناصعة ، وظهرت في جنوبها ضيعة صغيرة يسمونها بالزله وكلها أكواح تسكنها الأعراب وبعض الأهلالي وغالبهم من صيادى الأسماك . وفي قبالة هذه الضيعة من جهة البحر جزيرتان صغيرتان إحداهما وهى الشمالية تسمى جزيرة سعد والثانية تسمى جزيرة سعيد ، وفيهما الحجر الصخري لثغر الحجاز ، وفي الأولى محل للتبخير وآله لنكر برالمياه الملحة وبعض أحذيه (١) مبنية لا قامه الحججور عليهم فيها . فإذا كانت جوازات المراكب القادمة الى هذا الثغر غير نظيفة أخذ الحجاج إليها في سفن شراعية يسمونها سناك (مفردها سنبوك) فوصل الى الجزيرة الأولى في ثلاث ساعات أو أكثر ، وإلى الثانية في ضعف هذا الزمن ، فيتضمنون في هذه أو تلك مدة الحجر التي يقدرها حكم المورثينات بحجة .

وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثلاثاء غرة ذى الحجة ألفت الحروسه مراسيها على نحو ثلاثة أميال من الشاطئ ، لأن المراكب الكبيرة لا تستطيع الدخول الى مينائها لملة عمق

(١) مفردة حذاء وهو قسم من أقسام القورينيه يوضع فيه أناس على حداثهم لمصواه أيام الحجر المقررة عليهم ولا يمكن أحدا منهم أن يعادر حدود هذا القسم بأى حال قبل انتهاء المدة .

المياه فيها: وبقى بها الجناب العالى الى صباح اليوم التالى . وكان يوجد خارج الميناء كثير من المراكب التى أتت الى هذا النفر بالحجاج من الهند والروسيا وتركيا و بلاد المغرب ومصر وبورسودان وغيرها ، وكلها رافعة أعلامها ترحيبا بمقدم سموه ، كما كانت السنايك التى ظلت تعدو وتروح فى مياهها رافعة على سوارىها العلم العثمانى إكراما لتشريف جنابه العالى .



مدينة جدة

قال البكرى فى معجمه « جدة بضم أوله ساحل مكة سميت بذلك لانهما حاصرة البحر والحدوة من البحر والنهر ما يلى البر وأصل الجدة الطريق الممتد » وأهل البلاد يسمونها الآن جدة لكسر الجيم ، ويسمونها المصريون جدة تفتحها ، وكلها على ما أرى تسمية صحيحة : لأن الجدة بالكسر اليمن والسعادة ، وهذا النفر بلا شك منه المادة التى تقوم بحياة هذه البلاد كلها وأى شئ أسعد مما يقوم بحياة الانسان ووجوده . كما أن الحدوة بالفتح الطريق الواسعة ، وايس من طريق فى بلاد الحجار أوسع من هذه . وهى واقعة على الساحل الشرقى للبحر الاحمر على ٣٩ درجة وعشر دقائق من الطول الشرقى وعلى ٢١ درجة و ٢٨ دقيقة من العرض الشمالى . وقد كانت قرية صغيرة فى بادئ أمرها يسكنها وما حولها قضاة قبل الاسلام فلما كانت سنة ٢٦ للهجرة فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه اشتكى الناس له الشدة التى يعانونها فى ميناء الشعيبية لكثرة ما فيها من الشعاب التى كانت تعوق سير السفن بها . وقالوا له ان فى شمالها مكانا خيرا منها . فذهب عثمان اليه فى جمع من قومه ليعاينه بنفسه فوجده حقيقة أحسن من الاولى فأمر بجعله نغرا لمكة ، وسموه جدة . ومم يدكر عن عثمان رضى الله عنه عند قدومه الى هذا المكان ، أنه نزل الى البحر فاغتسل وأمر قومه بالاغتسال فيه كذلك وأن يتخذوا المنزعة عليهم : وهو ما يزعم الافرنج أنه من مدينتهم . والشعيبية الآن قرية صغيرة على مسافة عشرين كيلومترا من جنوب جدة وبعضهم يدكرها بلفظ الشعيبية : قال كثير يصف إبلا تسير فى ملا تريم (مكان بحضر موت)

سألك^(١) وقد أجدها البكور * غداة البين من أسماء غير
 كأن حمولها بملاتريم * سفين بالشعبية ماتسبر
 ومن ثم أخذت جدة تزيد في عمرها وتعظم في أهميتها حتى أصبحت أكبر غربي بلاد
 العرب .

وساحل جدة كله شعاب صخرية يخللها شعب مرجانية حمراء أو سوداء (اليسر) ،
 وترى على سطح مياهها في كثير من جهاته أوراق مات مائي شبيهة بشيء بالبشبين في
 بحيرات مصر، وهذا النبات لونه أحمر قاتم ويوجد بكثرة على شاطئ الخليج العربي . وربما
 كان له تأثير على ما يعيش في جود من الاصداف الحمراء والاسماك المرجانية التي توجد فيه
 بكثرة لتعذبتهم منه ، وربما أتت من ذلك تسميته بالبحر الأحمر . ويساعد على هذه التسمية ذلك
 اللون السجاني الذي يشاهد قبل شروق الشمس فيما يلي الشاطئ من مياه البحر عندما يحسار
 كتله المياه عنه وقت الحز الذي يحصل فيه يوماً : حيث يترأى لك الشعب على طول الشاطئ
 ضارباً في البحر بلونه الأحمر الذي يتشرب بالزرقه شيئاً فشيئاً حتى يتصل كتله الماء الكبرى .
 ومما يذكر بهذه المناسبة أن أهل جدة يميلون الى اللباس الأحمر لافرق في ذلك بين
 كبيرهم وصغيرهم ، وربما كان ذلك من تأثير الوسط الذي يعيشون فيه : فتراهم يشدون
 على وسطهم حزاماً أحمر ويضعون على رأسهم شالاً من لونه ، وكثيراً ما ترى صبيانهم يلبسون
 جلابيب بيضاء وعليها صديرة حمراء : حتى الطبيعة الغالبة منهم يكثر في لباسهم اللون
 الوردي أو ما يهرب منه .

ويحيط بحده سور له خمسة أضلاع : فالغربي منها على البحر وطوله ٥٧٦ متر ، والبحري
 ٦٧٥ متر ، والشرقي ٥٠٤ متر ، والشرقي الجنوبي ٣١٥ متر ، والجنوبي ٨١٠ متر .
 وفي كل ضلع من أضلاع هذا السور باب ، والباب الشرقي يسمى باب مكة وعلى جداره
 من الخارج ركن منقوش في الحجر وإلى جانبه اسم السلطان الغوري ملك مصر ، وهو الذي بنى
 هذا السور سنة ٩١٥ لمنع الأفرنج (الدين كانوا اللهاء في استعمار الشرق) من طوعهم
 (١) لعمري ساء لك .

الى جدة . وقد أفاد فائدة تد كرفى مع البرتغاليين من الدخول اليها سنة ٩٤٨ وأصلتهم فلعنتها هذه الصغرة بارأحامية فروا منها الى مراكزهم نازكين ما كان معهم من الدخائر . كما نالت أيضاً من الوهابيين حين حصارهم لجدة سنة ١٢١٨ ، إلا أسهالم يكن تؤدي وظيفتها في ضرب المراكب الانجليزية لها سنة ١٢٧٤ : وسبب ذلك ان أحد الرعايا الانجليز كان يملك مركباً شراعياً بحده ، وكان يرفع عليها العلم الانجليزي فبدلاً له بالعلم العثماني ، فحقق لذلك فصل الانجليز ورجل الى المركب وأنزل العلم العثماني بالموه وأهانته . فلما بلغ الناس هذا الأمر كبر عليهم وهاج له الرعاع فمصدوا منرله وقتلوه مع الفصل الفرنسي و بعض الافرنج و هوادورهم . فأتت مراكب الانجليز وضربت جدة . فحضر والى مكة وانفق مع الاميرال على عمل تحقيق كانت نتيجة شتى نحو ١ نفر آمن الالهالى في سوق جدة ، وبقي كثيرين من كرائها ، وغرامة الدولة نظير الاموال التي ادعت رعايا الدول الاجنبية انهم ادتها في هذه الفتنه . وفي سنة ١٣١١ ساق الانجليز مراكبهم مره أخرى الى مياه هذا الثغر عندما قتل الأعراب وكيل الفصل الانجليزي وجرحوا وكيل الفصل الفرنسي والروسي ، وكانوا تجاوزوا الحد المضروب لهم خارج البلد ، وكلهم مسلمون من الالهالى الذين لم يحسوا سيرتهم مع اخوانهم من مواطنيهم ارتكاباً على حمايه الاجنبية . فحضر الشريف عون من مكة لهذا الأمر الذي انتهى بالصلح وسهر المراكب من غير صرب .

وشوارع جده لا نظام فيها وهي تحتوى على نحو ٣٥٠٠ منزل مبنية بالحجر الحلى الذى يأتون به من الجبال الفرنسية ، أو الحجر المائى الذى يقطعونه من شعاب البحر وهو خفيف جداً وفي عايه الممانه الا أن خطره جسيم وصرره عظيم لأنه قابل للالتهاب بسرعة لما يحتويه من الماده الصفورية التي توجد فيه بكثرة . ومساكنها كساكن مدن الحجار (مكة والمدينة) وهي أشبه بمساكن مصر في عهد المماليك (وفي سوق السلاح كثير منها) ، أعنى أن بها غرفاً كبيرة ولواوين واسعة ذات سفوف عالية ولها شبابيك طويلة عريضة على شكل المشربيات يسمونها الرواشن (مفرد هروشن وهي كلمة فارسية معناها المنور) ، وشغلها الخشبي يشبه ما يسمونه بالمنفور أو المنجور وأكثرها من النوع المسمى بالشيش . وقد رأيت

في بعض بيوت هذه المدينة منزلاً وجهته نحو ١٥ متراً وفيها تسعة رواشن كبيرة . ولا شك أن هذه المآورد الواسعة موافقة جداً للبلاد الحارة . ولذلك ترى النظام الجديد في العمارات المصرية يرجع الى هذا النمط كما تراه في أغلب المباني الحديثة لا سيما في الأحياء الأفرنجية وعلى الأخص في مصر الجديدة التي هي شكل مجمل مكمل من الاشكال المصرية القديمة .

ولمحمد علي باشا في هذه المدينة مبان كثيرة : منها دار الولاية ، ودار البلدية ، وثكنات العساكر ، وغيرها .

وماء الشرب فيهما من الصهاريج القديمة التي تملأ من ماء المطر أو العيون الموجودة خارج المدينة ، وكلما فرغت تلك العيون من البحر كانت مياهها ملحة غير صالحة للشرب . وفيهما مواسير كان وضعها عثمان باشا نوري سنة ١٣٠٢ وسير الماء فيها من عين الرعامسة التي تبعد عن المدينة شرقاً بنحو عشرة كيلومترات . وهي الآن مهدامة . وقد اهتمت بلدية المدينة بإصلاحها ولكن يظهر أن الحكومة لا يمكنها عمارتها إلا بمعونه الأهالي وهم لا يساعدون على ذلك لأن لهم مصلحة في بيع مياه صهاريجهم على الحجاج تأمناً باهظة . على أن سواد الحجاج لا يشرون أثناء وجودهم في هذه المدينة إلا من المياه التي يأتيون بها اليهم من الحفر والآبار وفضلاً عن وساختها فإن طعمها يميل دائماً الى الملوحة ولولا فضل الله عليهم لهلكوا منها جميعاً !!!

وفي هذه المدينة كنداسه لبعض الفرنجة لتكرير مياه البحر وبيعها للباس ولكنها تخرت نهائياً وبلغنا ونحن بحدة أنهم أرسلوا بعض عددها الى السويس لإصلاحها فيها . وجدة مركز تجاري كبير ويمكنك أن تقول انها الثغر العمومي للحجاز فمنها صادراته واليه وارداته . وتجارته تكاد تنحصر في أصناف اللؤلؤ والمرجان واليسر والسبح والاقمشة الحريرية والعطر والعطارة والبقالة الجافة والقرب والجلود والسجاد جيد وجميع ما يهيم الحاج . وتجارته الرئيسية في الحبوب خصوصاً القمح والدقيق اللذين عليهما مدار حياة أهل البلاد العربية من أدناها الى أقصاها ، وهي تأتي اليها من الهند ومصر والشام والعجم والجاود وغيرها . وسوق المدينة تمتد على طولها من الجهة الجنوبية الى الشمالية التي

تنتهي بما كن قناصل الدول، وهي أحسن ما في المدينة من الابنية، وأخص منها بالذ كرمزل
الوكالة الروسية الذي هو على أطف مثال وأجمل هندام لما فيه من المشر يات والطشئف
(الملكونات) التي تمثل أهة الشكل العربي المديم بما يحيل للرأى أنه أمام قصر الرصافة في
بغداد. وبجاء هذا المزل نقطة بوليس و حوارها مكان البوسنة، وهو غرفة صغيرة يقطعها
حاجز خشبي بسيط يفصل بين العمال وأرباب الأعمال، وإلى حوارها مكان التلغراف .
وتجار جدة من أهلين وحضارم وهنود وأعجام وبخاريين وأروام تراهم يعملون في هذا
الوسط ولا تروج تجارتهم الا في موسم الحج . ولا حد الاروام في جنوب المدينة وابور
(ما كينه) يدار بالبتول لطحن الغلال وأجرة الكيلة الجداويه (ممدارها ثلاث أقات)
ثلاثة قروش محبوبة ومع هذا فان صاحبه على الدوام تراه يصرح مستغيثاً من قلة المكسب
وكثرة ما يصرفه في سبيل ادارته .

وتعداد أهل هذه المدينة لم يحصل بصفة رسمية ، وهم يبلغون خمسين ألفاً على أضبط
تقدير : منهم عشرة آلاف من الاجاب المسلمين بين فرس وحضارم وهنود وبخاريين ،
أما الفرنجة فيبلغ عددهم مائة أو يزيدون قليلا وأغلبهم من الأروام . وثرؤة البلاد تقرباً
في أيدي هؤلاء الاغراب وتقدر ثروة بعضهم بنحو مليون من الخنيهات لا هم يجدون
ويكدون ولهم نشاط غريب في بابيه ، حتى الشياطين والقلايكة في هذه المدينة تجدهم في
الغالب من الحضارم أو العيد .

وفي جدة مدرستان مدرسة الاصلاح وفيها نحو ثمانين تلميذاً ويصرف عليهما من
ترعات الاهالي ، والمدرسة الرشديه وهي للحكومة وفيها نحو مائة وعشرين تلميذاً ،
ولا يدرس فيهما الا شئ بسيط من الحساب والكتابة والقراءة العربية والتركية ، وعلى كل
حال فانهما أقل في التعليم من مكاتب الاوقاف بمصر . وقد رأيت في سوق المدينة لوحة
مكتوبة عليها (جريدة الاصلاح ومطعمتها) فسأت عنها فعلمت أنها ابتدأت عملها بعد
اعلان الدستور العثماني ولكنهم لم تجددوا جافاضطر صاحبها الى اغلاقها، وقفل محررها
(التركي) راجعاً الى الاستانة ، أما المطبعة الآن فليس لها من عمل يذكر .



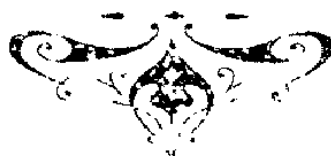
BOHEME & ANGSTER, CAIRO

مرفاجه

وسكان جدة خليط كما أسلفنا، وقد أثرت فيهم طبيعة هذا الاقليم فغلبت عليهم حال البداوة فيما يختص بالتعليم الذي ليس لهم فيه حظ يذكر اللهم الا ما كان يوصل الى كتابة خطابات أو مزاوله قليل من الحساب . وفي المدينة أربعة مساجد - المسجد الحنفى - والشافعى - والمالكى - ومسجد سيدى عكاشة وهو أكبرها، وفيها أجزائه صغيرة، ويقال ان بها نزلا صغيرا (لو كاددة) في ميدان الجمرى والسكنى لم أره .

وحكومة المدينة محصورة في القائنم ووكيل الشريف وهو الآن حضره السرى الوجيه السيد محمد نصيف : والاول مختص بأعمال الحكومة المالية المنحصرة في ايراد الجمرك عالياً، وتقدر هذه الايرادات بنحو خمسين ألف جنيه عثمانى في السنة على الاكثر، والثانى قائم بجميع الاشغال المختصة بالعرب كما أن أمر القوه العسكرى به موكول الى قومداها : وقد كان الى الحمار يسكن أولاً في جده واصل مكره في محوسنة ١٢٨٠ الى مكة لأهميتها .

وفي موسم الحج ترى في جدة حركة مستديرة لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً من الحاجح الدين اذا وصلوا اليها وجدوا على أبواب حمرها مطوفيه - م أو وكلاءهم في انتظارهم وهم ينادون يا حاج فلان أو يا حاجح فلان (يعمون المطوف) . ويعرف الحاجح اسم مطوفه فينادى عليه وهو في هذه الشدة فيبادر الى مساعدته ويا حذمه ورفقة جواره (ناسا بورب) ليعلم علمها من فلم الحواراب ثم يسير معه الى منزل يقيم به يوماً أو يومين يصلح فيهما من شأنه في نظير أجر يدفعه لصاحبه ثم يؤجر حميره أو حماله ويسافر الى مكة بعد أن يشترى شئاده ان كان له اصرورده عنده ومتوسط ثم الشندف جسيه الحلمرى وأجره الهجين أو الحمار جنيه الى مكة وكذلك جعل الحمل ، أما حمل الشندف فتعمل أجرتة في الغالب الى ضعف ذلك .



جبانة جدة وقبر أمناء حواء

و يوجد خارج هذه المدينة من جهة الجنوب مدفن للنصارى محاط بسور عال وعليه خفير من الأعراب لا يدع أحداً يدخل فيه من غير ذويه . أمام مدافن المسلمين فانها في جهتها الشرقية على مسافة نحو كيلومتر من بابها الشرقى الذى يسمونه باب مكة ، وعليها سور يفتح باب للغرب ترى في مدخله زمن الحج كثير أمن الشجادين صغاراً وكباراً من الأعراب والأغراب فادخلت من هذا الباب وجدت أمامك رأس قبر طويل ضارب الى الشمال مسافة مائة وخمسين متراً على ارتفاع من وى عرض نحو ثلاثة أمتار ، وهو ما يسمونه قبر أمناء حواء : وهو أشبه شئ بمادة مسدودة من طرفها الجنوبى بثلاث حوائط من مربع بمقصره الحائط الشمالى الذى هو من جهة الغرب . وطول كل حائط أربعة أمتار في ارتفاع مثلها ، وفي كل منها شباك تحرج منه فروع عوسجة كبيرة . كاد تسد فراع هذا المربع الذى هو مكان الرأس عندهم . وفي هاهنا هذا المسطيل من جهة الشمال حائط يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار ، في وسطه من أعلاه شرفة تحتمها شباك يطل على القبر من جهة المدمين ، وعدمها يلقى القبر ترى أناساً مطوعين لا رشادك عن مكان الرأس أو القدم وأيديهم ممدودة للسؤال ، وفي نحو ثلثي طوله من جهة الرأس فيه يفتح باب الى الغرب ، وفيها شباك يشرفان على جهتي القبر ، وفي وسطها معصورة من الخشب عليها ستر من الخوص . فها باب مماثل لباب القبة فتحة لها حدم المقصورة قائلا « هذا مكان السرة الشريفة » . فنظرت فوجدت فيه حجراً من الصوان يبلغ طوله نحو متر ، مخفورا من وسطه ، وهو أشبه شئ بساوس صغير ، ان لم يقل مذبح كان مستعملاً في قديم الزمان لتقديم القران . وهنا لك مرة بحاطرى أن هذا المكان ربما كان لغضاعة فيه قبل الاسلام هيكل لحواء أم البشر يعبدونها فيه كما كانت هذيل تعبد سواع ابن شيث بن آدم : وهذيل كما لا يخفى في جنوب وشمال مكة ، وهم الآن يقولون هذيل الشام وهذيل اليمن ، وكانت مساكن قضاعة فيما بينهم : وكما كانت قبائل كلب ومراد وهمدان

الهائل : لأنه لا يلزم من طول القصر طول الجثة بهذا المقدار ، وليس آدعائهم بأن هذا موضع الرأس وذلك موضع القدم برهانا على أن طرفي جسم حواء متساويان مع طرفي قبرها : إذ يصح أن يكون هذا المعين جهة الرأس وذلك لجهة القدمين من غير تحديد نقطة بداية أو نهايه . ولا عبرة بقولهم أن الفممة على مكان السره ، لأنه بمقطع النظر عن أنه كان الأولى بها أن توضع على أشرف عصب في الجسم وهو الرأس ، فإن المسافة بين الرأس والسره في طول القبر ضعف المسافة بين السره والقدمين ، وهذا يخالف لطبيعة الانسان ،

أن المسافة الى بن آدم وبين الطوفان كانت أصعاف أصعاف المسافة الى بنسا وبين الزمن الذي وصلنا منه هذه التوميات ، كما تدرج معه جسم الانسان الى هذا التحكم بالهواء والظهي الذي يسير به الى الصف والصفاء . ولا أدري إذا كان يصح أن يقيم على هذا برهانا محسوساً من تلك الهياكل الضخمة الى اكتشافها ، أحياء بن طبقات الارض وثبات الصخور ، ووجدوا فيها أصعاف أصعاف هيكل الحيوانات الى من نوعها الآن : يذكر من ذلك الحيوان الهائل الذي سموه ماستودون (Mastodonte) وولوا انه هو الغمل بنسا ومدكور في مادة فسان (éléphant) دائرة المعارف الكبرى المراسوية ، ثم ذلك الحيوان الذي سموه برنوسور (blestosaure) وولوا انه نوع من الورلة (الورنه) وولوه عذبة أعمار ، وهو مالا يكاد يرتبطه اسمه بطوك أي نوع من أنواعه الآن . ولا يردعني أنهم وجدوا في الارض الثالثه جسم انسان لا يزيد كثيراً عن أحوال مسوم . وقد ذهب بعض الخوولوجيين الى أن الصخور الباليوروي (أي الى وجدوا فيها بعض حيوانات مما كانت تعيش في الارض الثالثه) إنما هي مكونة من روائب مائية سدها الطوفان . وعلى هذا فيكون هذا الانسان الذي عثروا عليه كان عائداً في اقله الى ايامها الارض الثالثه وانتدأت بها الارض الرابعة ، وهي الى بعد الطوفان والتي نعيش فيها الآن . ولا مشاحة في أن الانسان الاول كان موجوداً قبله بضعف مليون سنة عن الازل كما يؤخذ من قول فلاماريون في كتابه (as tronomie Populaire) من أن عمر الارض الثالثة كان مئتي ألف سنة ، وعمر الثانية مليون ومئتي ألف سنة . والارض الثالثه هي الى انكوب فيها السمات والحيوانات الى انهم تكون الحيوانات الثدييه الى منها الانسان ، الذي مارا من مدحا في كتابها وتره في نحوها حتى ظهر اسمعاده وأحد يعمل لما وجد من أحله ، وبعمله هذا ابتداء طور جديد هو طور الارض الثالثه . على أنه نعور أن يكون عمر هذين الطورين أكثر مما مدره لهما فلاماريون ، بدليل أنهم كانوا يعدرون عمر الارض في جميع أدوارها بمائتي مليون سنة ، ولكنهم بعد اكتشاف الراد يوم مدرره ثمان مليون من السنين (انظر باب الاحمار العلمية في عدد ٦ من هلال مارث سنة ١٩١١) . ولا بعد أن يأتي زمن يرشدنا فيه العلم الى أن عمر

بالطبع هذا الهيكل ، بقى أترد فى نفوس القوم برأبحق الأمومة ، وأقاموا له قبعة (لا بدرى متى كان تشييدها) لتكون مزارا للناس ، كما كانوا يقيمون المزارات لآل بيت النبوة عليهم وعلى جدرهم الصلاة والسلام .

ولقد ذكر هذه القبة ابن بطوطة فى رحلته المشهورة فى القرن السابع للهجرة ولم يذكروا شيئا عن القبر . ومن أكبر الأدلة على أن هذا القبر حادث لا محالة ما ذكره ابن جبير فى رحلته التى عملها سنة ٥٨٧ للهجرة قال رحمه الله : « وبها (بحدة) موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكرون أنه كان منزلا لحواء أم البشر عند توجهها إلى مكة فبنى ذلك المبنى عليه تشهيرا ببركته وفضله والله أعلم »

وعلى كل حال فانا لو صرفنا النظر عما غيره الطوفان من معالم الارض وقلب أغلب معالمها بطما لظهر خصوصا فى الجهات الركائنية التى منها هذه البلاد وجارى ما مؤرخى العرب فى أن حواء هبطت مع آدم إلى جزيرة سرنديب (سيلان) ، وقطعت النظر عن الواسطة التى انتفلا بها من الجزيرة إلى القارة ، وعن كيفية وصولهما إلى جدة وموت حواء ودورها بهذا المكان ، ثم موت آدم ودفنه بحبل أبى قيس أو بمسجد الحيف ، أو توجهه على ما يقول البصارى إلى بيت المقدس وموته به ودفنه تحت صخرة هناك فى كنيسة القيامة يفسدسونها إلى الآن : فلا نهولنا دعوى القوم بأن هذا قبر حواء على ما هو عليه من الطول^(١)

(١) أرحو أن تسمح لي القاري بأن لا أترك هذا المقام دون أن أقول كلمة عما ولوه فى طول آدم وحواء :

قل المسيو هاربون العضو فى المجمع العلمى الفرنساوى والعالم المسشرق « ان طول آدم كان ١٢٣ قدم وتسع بوصات (٣٧ متراً تقريباً) وان طول حواء كان ١١٨ قدم وثلاثة أرباع البوصة » (أنظر مادة آدم فى معجم لاروس الكبير) .

أما العرب فهم قلوا ان طول آدم كان سبى درات (وكان طول حواء متناسلاً معه طمعاً) ونحن لا بدري ما كانوا يقصدونه من طول الذراع . ولو فرضنا انه ذراع اليد الذى يطلع متوسط طوله ٤٠ سمتمراً فان طوله يكون ٢٤ متراً وهو أقل مما قاله المسيو هاربون بكثير . ويقول بعضهم اما اذا نظرنا إلى طول الموميات التى وصلت إلينا من حبيب قرنا ورأينا أنها لا تختلف كثيراً عن طول حواء اليوم حكمنا بأن ما قاله العرب فى طول آدم منالغ فيه . ولكن من لنا

الهائل : لأنه لا يلزم من طول القصر طول الجثة بهذا المقدار ، وليس آدعائهم بأن هذا موضع الرأس وذلك موضع القدم برهانا على أن طرفي جسم حواء متساويان مع طرفي قبرها : إذ يصح أن يكون هذا المعين جهة الرأس وذلك لجهة القدمين من غير تحديد نقطة بداية أو نهايه . ولا عبرة بقولهم أن الفممة على مكان السر ، لأنه بمقطع النظر عن أنه كان الأولى بها أن توضع على أشرف عصب في الجسم وهو الرأس ، فإن المسافة بين الرأس والسر في طول القبر ضعف المسافة بين السر والقدمين ، وهذا يخالف لطبيعة الانسان ،

أن المسافة الى بن آدم وبين الطوفان كانت أصعاف أصعاف المسافة الى بنسا وبين الزمن الذي وصلنا منه هذه التوميات ، كما تدرج معه جسم الانسان الى هذا التحكم بالماوس الطبيعي الذي يسير به الى الصف والصفاء . ولا أدري إذا كان يصح أن يقيم على هذا برهانا محسوساً من تلك الهياكل الضخمة الى اكتشافها ، أحياء بن طبقات الارض وثبات الصخور ، ووجدوا فيها أصعاف أصعاف هيكل الحيوانات الى من نوعها الآن : يذكر من ذلك الحيوان الهائل الذي سموه ماستودون (Mastodonte) وولوا انه هو الغمل بنسا ومدكور في مادة فسان (éléphant) دائرة المعارف الكبرى المراسوية ، ثم ذلك الحيوان الذي سموه برنوسور (blestosaure) وولوا انه نوع من الورلة (الورنه) وولوه عذبة أعمار ، وهو مالا يكاد يرتبطه اسمه بطوك أي نوع من أنواع الآن . ولا يردعني أنهم وجدوا في الارض الثالثه جسم انسان لا يزيد كثيراً عن أحوال ماسود . وقد ذهب بعض الخوولوجيين الى أن الصخور الباليوروية (أي الى وجدوا فيها بعض حيوانات مما كانت تعيش في الارض الثالثه) إنما هي مكونة من روائب مائية سدها الطوفان . وعلى هذا فيكون هذا الانسان الذي عثروا عليه كان عائداً في اقله الى ايامها الارض الثالثه وانتدأت بها الارض الرابعة ، وهي الى بعد الطوفان والتي نعيش فيها الآن . ولا مشاحة في أن الانسان الاول كان موجوداً قبله بضعف مليون سنة عن الازل كما يؤخذ من قول فلاماريون في كتابه (as tronomie Populaire) من أن عمر الارض الثالثة كان مئتي ألف سنة ، وعمر الثانية مليون ومئتي ألف سنة . والارض الثالثه هي الى انكوب فيها السمات والحيوانات الى انهي تكون الحيوانات الثدييه الى منها الانسان ، الذي مارا من مدحا في كتابها وتره في نحوها حتى ظهر اسمعاده وأحد يعمل لما وجد من أحله ، وبعمله هذا ابتداء طور جديد هو طور الارض الثالثه . على أنه نعور أن يكون عمر هذين الطورين أكثر مما مدره لهما فلاماريون ، بدليل أنهم كانوا يعدرون عمر الارض في جميع أدوارها بمائتي مليون سنة ، ولكسهم بعد اكتشاف الراد يوم مدره ثمان مليون من السنين (انظر باب الاحمار العلمية في عدد ٦ من هلال مارث سنة ١٩١١) . ولا بعد أن يأتي زمن يرشدنا فيه العلم الى أن عمر

محالف لشكل نبي آدم أو بعبارة أخرى لشكل نبي حواء في جميع أدوار حياتهم .
على اننا مع اسكارنا لطول هذا الفارقنا محترم لحواء وجودها انى كانت وكيفما كانت
لأنها أم الكل و عكاها من احترام الكل : لذلك لما قصه دال شريف عون الرفيق هدم قبورها
فيما هدم من قباب الصالحين بمكة وعبرها قام في وجهه قاصد الدول وحالوا بينه وبينها بدعوى
انها ليست أم المسلمين وحدهم .

الارض أصعاف أصعاف ذلك ولا شك ان قدم الانسان فيها مناسب مع قدمها بطبيعته الوجود .
على أنهم يقولون ان السمات الى كات تعيش في الارض الثالثة كات اكتر بكثير من التي تعيش
الآن من نوعها : ومما جاء في دائرة المعارف العربية من ذلك بمادة حيولوجيا ، أنه :
« ومما استغرب له في كتاب الارض المعجمية بموه العجيب . من أنواع البرخس الى لا يكون
منها في عصرنا هذا الا نبات خشبي شبه حادثة في البلاد الباردة وكان يكون منها أشجار أعظم ازهارها
من أشجار النوب . وأنواع الليكو بوديون لا ترتفع في هدم لا يام اكتر من مرة ، مع انها
كات في الزمن القديم ترتفع من ٢٥ الى ٣٠ مترا وكان طرها مترا » .
وينسبون هذا الاختلاف الى اختلاف درجة الحرارة الهوائية لأنها يقولون انها كات ٢٠٠ درجة
بمجرد ان هدم ، تكون مشربة الارض ، وصارت نقل شتاء فشيئا برودة هدم الفترة حتى
وصلت الى هذه الدرجة الى هي عليها الآن . واي لا أدري اذا كان هذا المعلن صحيحاً أم لا يؤثر
على الانسان تأثيره على الحيوان وعلى السمات والشكل كالاتي من المملكة العنصرية .

على أنما لو فرضنا ان الانسان من من طوله في كل مائة سنة نصف سيمر لكات أحوال
هذه الموميات في حياتها أعى وهي في نصارتها لا يريد عن أطوالها الانحوا ٢٥ سمتر فقط ، وهو
انس نالفرق المحسوس من أطوال الحسوم في المدين الحاضرة والمارة ، خصوصاً اذا لاحظنا انكماش
حسوم الموميات بعد تحيطها وبداخل درابها في بعضها تبايمصر من أطوالها . وعلى هذه النسبة
تكون مقدار طول الانسان اذا اعتدنا بحدرو ولا ماريون لا ينقص عن ٢٥ مترا .

وعلى كل حال فهذا مقام يصعب أن يوصل البحث فيه الى حقيقة ثابتة ، لأنه منى على فروص
يهرها بعضهم من الخبقة ويعدها آخرون عنها على حسب الشكل الذي يقع من صورتها في مجلاتهم
والله اعلم بما كان وما يكون .

وصول الجناب العالي الى جدة

وسفره منها الى بحرة

ومما يذكر في تاريخ جدة تشريف الجناب العالي الحديو اليها يوم الثلاثاء غرة ذى الحجة سنة ١٣٢٧ قاصداً تأدية ورخصة الحج الشريف . فمما أشرقت شمس هذا النهار حتى أخذ الناس يردون الى الميناء زمراً و في مقدمتهم عليه القوم وأعناقهم متطاولة الى عرض البحر لرؤية وابور المحروسة الممل لهذه الذات العباسية المحبوبة . وفي نحو الساعة الثالثة العربية نهراً أحضر أصحاب السيادة والسعادة على بك وفيصل بك والشريف زيد أنجال سيادة شريف مكة ومعهم حضرات القائمقام وقومندان القوة العثمانية الموجودة بمحطة وسعادة مكتوب بحى الولاية الدي وفد للسلام على الحصره الحديوية باليابه عن الدولة العلية والتشرف بمرافقة الحجاب السامي بصفته مهمندار آله مدده وجوده حفظة الله في الأقطار الحجازية يتلوهم حضرات مدير البوستان والتلغرافات و وكيل شركة المواحر الحديوية وغيرهم من مستحدمى الحكومة العثمانية . وقبل أن تظهر أى اشارة تسمى "عرب الركاب العالي ركبو اجميعا الزوارق ورنوا الى عرض البحر انتظاراً لعدمه الشريف . وكانوا قبل شروق الشمس قد أرسلوا الوابور الحربي العثماني المقيم في مياه جدة لاسمعال المركب الحديوية المحروسة على بعد سبع ساعات أو أكثر من مياهها .

وفي نحو الساعة السابعة العربية نهراً طهر دحان المركب في الافق ، وما زالت اقرب شيئاً فشيئاً حتى ألتقت مراسيها في الساعة الثامنة . وهالك فرات منها الزوارق وصعد الاشراف ورجال الحكومة للسلام على مولانا الحديو وتبليغ قدس سلام مولانا أمير المؤمنين ونهاى الدولة العلية مع تحية سيادة الشريف ودولة الوالى . فمما لهم حفظة الله بما جبل عليه من البشر والايناس والخفاوة والاكرام ، وبعد ساعة رجعوا والسنتهم كلها شكر وثناء على مكارم أخلاقه وكمال آدابه .

وما غربت شمس هذا اليوم حتى بدت دار البلدية تحتال في حلق زينتها من جهة البر، وتآلمت أنوار المراكب البخارية على اختلاف جنسياتها من جهة البحر، وذهبت ساريات لسنا بك في السماء بمصابيحها التي كانت كأنها النجوم الزواهر. وبالجملة فقد كان يوما مشهودا وليلة قدّ في بابها لم ير أهل جدة مثلها بالمرّة، كما أنهم لم يشاهدوا عناية الدولة العلية بمثل احتفائها بهذه الذات الكريمة واهتمام دولة الشريف بمافيها راحة جنابه الرفيع: وأى رجل اصطفاه مولاه الى حج بيته الكريم كالعباس حفظه الله، دعا دربه ولباه، وقد كشف عن رأسه تاج ملكه ونزل الى صفوف قبة الخلق في تقشفهم في ملابسهم وغذائهم، نام على الغراء ويلتحف السماء، ويركب الصعب، ويسير بين حراره الشمس وبرودة الليل، في طريق تغزرو عثاؤه، وتكثر حصباؤه، ولا ينقطع اعصاره، كما لا تنهاى أخطاره. فلا غرابة اذا كانت عين الله تكوّه وعنايته تحرسه وقلوب الخلق ترمقه بكل تحلة واحترام.

وقبل فخر يوم الاربعاء ثابى ذى الحجة أخذت العساكر تغدو وتروح في ميادين البلدية التي اكتظت بالجموع من عساكر الحرس الخديوى من جهة، وعساكر الدولة وجند البيشة^(١) من جهة أخرى.

وفبل الشروق ظهر من ايم الزورق البخارى المقل لمولا بالخديو حفظه الله فضرب البفر وأطلقت المدافع من طابية المدينة. وهنالك انتظمت العساكر على شبه دائر مد مستطيلة نصفها الشرقى من رجال الحرس الخديوى، والنصف الثانى نصفه من عساكر الدولة العلية ونصفه الآخر من عساكر البيشة، وطرفا هذين الموسين من باب المورنتية الى باب البلدية. وبعد نصف ساعة شرف الركاب العالى على سلم القورنتينة، وكانت ساحتها مفروشة بالسجاد جيد العجمية وقد اصطف على جانبيها رجال الدولة العلية من جهة، ومن الأخرى أنحاب السعادة أنجال دولة الشريف ومن حضر معهم من الأشراف لأداء واجب التحية. فطلع حفظه الله على الاسككة وهو فى لباس احرامه كالبدري تمامه، وسار وهو يحيى هذه

(١) يشتهر قبيلة موحدية في شرق بلاد العرب وحنودها يركبون المحجن بلباسهم العربي وهم في نظامهم أشبه بالنسوزوى وكل عساكر الشريف منهم وهم مشهورون بالشجاعة والامانة.

الجوع عبيده الشريفة، يتلوه صاحب الدولة البرنس كمال الدين باشا، وفضيلة الشيخ بكرى الصديق مفتى الديار المصرية، وحضرة عزتو على بك لبيب طبيب سموه في هذه الرحلة المباركة، وغيرهم من الياوران الكرام وبعض رجال حاشيته. وكان جواده على سسلم الفورنتينة فركب حفظه الله بين عزف الموسيقىات المصرية والتركية ودعاء الجنود وهتاف الجمهور، وركب من خلفه دولة البرنس وسعادة حسين محرم باشا مهنداره الخصوصي، ثم الياوران تتقدمهم ثلثة من الحرس بهيئة ناشدار (حرس أمامي)، يحيط بهم جميعاً فرقة من الخند. ثم ركب في أثرهم أنحال الشريف ومعهم مدوب حكومة الحجاز وجمعهير من الأشراف، تتلوهم جنود البيشة ثم قومندان مطه جدة ومعهم فرقة من عساكر الدولة. وسار حفظه الله هذا الموكب الحافل إلى باب المعار به ومنه إلى الباب الشامي وهالك كان في انتظاره مشايخ العربان من أشراف وغيرهم على هيجنهم وساروا جميعاً في ركابه العالى إلى بحرة.

والطريق من جدده إلى مكة يبلغ طولها نحو ثمانين كيلومتراً. وهى تدخل بعد ساحل جدة في وادين جليلين أعلاهما يسمى القائم، ثم تمر في طريق على جبل الرعامة، ثم على جبل أم السلم وبه فهو العبد^(١)، ثم يأخذ الوادى في الميل إلى الحبوب الشرقى فيمر بقرية جراده، ثم يصل إلى بحره، وهالك يسمع الوادى وينقطع واد آخر من الشمال الشرقى إلى الحبوب حتى يتصل بالبحر اسمه وادى مر (وادى فاطمه). وهو واد عظيم من أشهر أرض الحجاز خصوصاً ويسكنه كثير من قبائل أشراف دوى حسين وهم عمالكون أغلب أراضيه، وفيه عيون ماء كثيرة ولدا بزراع به جميع أنواع الحصروات التى تأتى إلى مكة. وينقطع الطريق السلطانى بين مكة والمدينة في نقطة يوجد فيها اساتين من بحيل وأغاب يتخللها عرمرى ماء يأبى من جهة الشرق (يسمونه ميرا) وكتلة الماء فيه أقل من متر مكعب وأكثر فواكه تلك البساتين من البرتقال والليمون: وأرى أنه لو عملت هذه الجهات آباراً لتوارى به الكائنات تأتى نفوائد حمة.

وبحره نزلها حملة أكواح يسكنها بعض الأعراب، وفيها عيش عمومية واسعة

(١) هو صابط سوداني عثماني كان مقيماً بهذا المكان من طرف الدولة وأظهر شجاعته وحسن تدبيره في تأمين الطريق فسمي إليه.

يسمونها قهاوى ، يستريح فيها من أراد من الحجاج وخصوصاً رآ كبي الحمير والهجن لوجود ما يلزمهم بها من خبز وجبن وبلح وبعض الفاكهة والقهوة والتبأك ، وفي جوارها أفنية واسعة محاطة بأسوار من الحر يدتربط فيها جمال الحجاج ودوابهم ، وأغلب القوافل تبيت فيها . ويأخذ الطريق من بحرة نحو الشرق ويميل الى الشمال فيمر على حدّة وبيت فيها بعض القوافل ، ثم على قهوة سالم ويقرب منها الى الشمال الغربى قرية الحديدية ، ثم يمر على جبل الشميسى ، ثم على المقتلة ، ثم الهجالية ، ثم البستان ، ثم قهوة المعلم ، ثم الشيخ محمود وهو باب مكة وفيه قبر حار الله الزمخشري صاحب التفسير الشهير المسمى بالكشاف وكان قد أتى اليها حاج سنة ٥٣٨ هـ مات بها يوم التروية ودفن بهذا المكان . وكل هذه القهاوى شبيهة أكواخ يحدد الحاج فيها بعض الراحة . أما الجبال على طول الطريق فنراها حمراء أو مائلة الى الخضرة أو الصفرة ، وهذا مما يدل على أنها غنية بالمعادن المختلفة كالحديد والنحاس وغيرهما . وعلى طول الطريق أربع عشرة قلعة يوجد فيها الجند العثماني على الدوام ، وبعضها قد تم من عمل الشريف غالب أو محمد على باشا والى مصر ، والبعض من ساء الدولة العلية من عهد ليس بعيد خصوصاً بعدما كثرت محبى الحاج محراً .

أما ما كان من أمر صاحبة الدولة والعصمة والدولة الحجاب العالى فانه انزلت من المحروسة الى الر في منتصف الساعة الثالثة العربية نهائياً ، وكان في انتظار دولتها على الاسكلة بعض رجال الحاشية ، وكان بعض مأمورى الحكومة العثمانية على بُعد من الباب العمومى ، وركبت حمظها الله مع صاحبتي الدولة الاميرتين كرى الحاضرة المخيمة الحديويه عربيه من طرار (لاندو) بحرها أربعة بغال ، وركبت دولة الاميرة فاطمة هانم أفندى مع بعض المملكات (كبريات الحاشية) عربيه أخرى من عربات دولة الشريف ، وباقي المملكات ركن في هودج يتلوها هودج سعادة الماس أغاباش أغاى السراى الحديويه ، وعنايتلو كاظم أعا باش أعاى دولة الوالدة ، ويتلودلك شقاف بعض رجال المعية السنية ثم حمال الحملة . وسارت عربيه دولة الوالدة يحيط بها فوارس الحرس الحديوى وفي مقدمتهم عسكر الشريف ومن خلفها حرس الدولة ، والناس على جانبي الطريق يحال لم يسبق لها مثيل ، ولسان الجميع

يلهم حج بالثناء والدعاء . وما زال هذا الموكب على نظامه الجميل حتى خرج من باب جعدة الشرقى
المسمى باب مكة ، و بعد ذلك سارت دولة الوالد مع رجال الحرس الى بحرة حيث استقبلت
أحسن استقبال ، ونزلت في الدائرة المخصصة لاقامتهم مع حاشيتها .

وهناك كنت ترى معسكر الجباب العالي في نظام لم يسبق له نظير بالمره ، والى
شرقيه سرادق حضرات أبحال الشريف التى مدت فيه ظهر ذلك اليوم مائده على النظام
الأفرسكى تسع محو مائة مدعو لضيفه سمو الامير ومن فى معيته ، وعلى الخصوص
فى العشاء الذى حضره مولانا الحديو ، وكان أتاب عنه فى الغداء دولة الرئيس أحمد كمال
الدين باشا . أما النظام والزينة فى هذه المائدة فقد كان مدهشين جداً لعدم انطباقهما بالمره
على حال هذه البد او الف التى رأينا فى مساعده ونحن بين ضيفها كأننا بين جدران البهو الكبير فى
نزل الكويتى منتال بالناهرة أثناء مأدبة من المآدب الكرى : نعم كنت تجد الطعام على
كثرة صنوفه جمع الى نظافته لذة طعمه ، وكانت ثريات النور الأبيض تتلألأ منتشرة فى
أرجاء الصيوان مما كان ينير جو بحره بأجمعه حتى لسكاً بنا فى رابعة المهار . وكان يزيد فى
رواء هذه الحفلة تلك الآداب العالية التى كست تراها فى أبحال سيادة الشريف . و بعد العشاء
مارح الحجاب العالي صيوان الأشراف بين صنوف التبجيل والتكريم ، فاصطف مشايخ
العربان من أشراف وغرهم فسلم حفله الله عليهم شاكر ألهم ضيافتهم وهم له شاكرون
تفضله تقولها .



دخول الجناب العالي الى مكة

— وأيامه بها قبل عرفة —

بعد تناول العشاء في صيوان أبحال الشريف في محرة استراح الجناب العالي قليلاً في سرادقه، وفي نحو الساعة الحادية عشرة أفرسكي مساءً، امتطى حفظه الله جواده كريمة قاصداً مكة، يتبعه دولة البرس كمال الدين باشا وحضره السرياور وبعض الخاشية. وسار الكل في ركابه حتى اداوا في جبل الشميسي وجد في اسطارسموه سعادة خيرى باشا مديراً لأوقاف الخصوصية، وقدم لحضرته العليسة عطوفة أمين بك القائم بأعمال ولاية الحجاز ثم سعادة فومندان القوة الشاهانية بها. وبعد تبادل التحية ساروا مع سموه حتى وصلوا الى قهوة البستان وهي على بعد ثلاث ساعات من مكة. وهناك كان دولة الشريف حسين باشا أمير مكة المكرمة في جمع من علية ينتهه وأكابر قومه استقبالا لجنابه الفخيم، وأراد الشريف أن يترجل عن جواده احتراماً لجنابه العالي، فافهم عليه سموه بأن لا يفعل، وبعد تبادل التحيات وعبارات التهناني ساروا جميعاً حتى وصلوا الى الصواوين التي أعدها الحكومة خارج مكة احتفالاً بمقدمه الشريف، وكان العلماء والوجهاء والأعيان والتجار في انتظار قدومه السعيد بها. ونزل حفظه الله في سرادق مخصص لتشريفه، وبعد شرب القهوة قدم له دولة الشريف حضرات أعضاء بلدية البلد الحرام: وفي مقدمتهم الشيخ الشيبى، ثم حضرات قاضى مكة، ومفتها، ونائب الحرم، والسيد عبد الله الزواوى رئيس قومسيون عين زبيدة وقومسيون المعارف وغيرهم من العلماء والاشراف والأعيان، فبدى سموه لهم شكرانه وعظيم امتنانه، ثم امتطى جواده قاصداً مكة، وسار بمن كان معه من وسط جنود القوة الشاهانية المقيمة بها، وكانت قد اصططت على جاني الطريق الى ثكنة (قشلاق) الحميدية لأداء واجب التعظيم وأمامها حضرات فومنداهما وضباطها بالتشريف الكرمي، وفي هذه الفترة كانت الموسيقى تصدح بالسلام الخديوي.

ودخل مكة حفظه الله من باب جرول حيث كان حرس المحمل واقفا لاداء واجب السلام، وسار في طريق الشينكة والناس على جانبيه كأنهم البنيان المرصوص والكل ينهل الى الله يحفظ هذه الذات السنية ، ثم مر امام التكية المصرية ودار الحكومة الحجازية ودار البلدية وكانت كلها مزينة بأحسن زينة ، ووصل الى باب الحرم الشريف فخرج يوم الخميس ثالث دى الحجة وصلى الصبح مع الامام المالكي ، ثم طاف طواف القدوم ، وخرج الى السعي بين الصفا والمروة حيث اصططعت الحجاج على اختلاف أجناسهم وفي مقدمتهم الحجاج المصريون على طول المسعى ، وكان كلما مر عليهم ساعياً لله ارتفعت أصواتهم مكبرين مبتهلين وأفتدتهم ترفع الدعاء الى رب الارض والسما بحفظ هذه الذات العباسية المحروسة ، وأعينهم تذرف دموع الفرح لمشاهدته أنوار مليكهم المحبوب ، الذي استولى بعدله وفضله ورحمته وبعثته على الملوك ، فيا لها من ساعة كمت ترى فيها هذا المليك الفخيم ولا عرش يقله ، ولا تاج يظله ، وقد تجرد عن ثيابه الملك بل عن مظاهر الدنيا بأجمعها وسعى بين يدي الله سبعة أشواط كانت قلوب الناس في أنفاسها تسعى بين يديه الكريمةتين يا لها من ساعة ما كنت تسمع فيها الا زغردة النساء وآى الدعاء ومظاهر الرعية الصادقة بالاخلاص والولاء ، حتى كأنما الكل أهل بيت واحد خرجوا لاستقبال والدم وسيدهم وعائلهم وولى نعمتهم بعد غياب طويل . وأحسن ما يدكر في هذا المقام أن سيادة الشريف أشار عليه بالسعى راكباً لعدم المحظور شرعاً خصوصاً وهو في تعدد الشدائد بعد هذا السفر الطويل ، فامتنع بموه قائلًا « ما على لو غرت قدمي ساعة في سبيل الله » .

و بعد السعى قصد حفظه الله دار الامارة في سوق الليل ، وكانت قد أعدت لاقامته مدة وجوده بمكة . وكان دولة الشريف قد استأذن جنابه العالي عند دخوله الحرم الشريف وسبق اليها استعداداً لمقدمه السعيد . ولما وصل الركاب العالي كان دولته في انتظاره على باب السراى العامرة ، فرحب به ترحيباً يليق بمقام الزائر وكرم المزور ، وصعد مع سموه الى قاعة الاستقبال الكريمة وبعد تكرار آيات التهاني انصرف دولته مودعاً بكل شكر واحترام .

وهذه السراى كان قد بناها الحاج محمد على باشا والى مصر سنة ١٢٢٨ لتكون داراً لحكومة الحجاز ، ولما ترك ولايتها جعلت مقر الأمانة مكة الى الآن لذلك لم يردوله الشريف أجمل مناسبة يجدد بها الذكرى الطيبة لهذه العائلة الكريمة العظيمة الأتقدم أثر من آثار ما بقى القرن الثالث عشر الهجرى الى هذا الحفيد الحليل ، ليمرأى عظمة أروقتة بعض آيات آبائه الأكرمين : وفى هذا إشارة لطيفة الى عدم سسيان دولة الشريف ما كان لمحمد على باشا على عائلته الكريمة من اليد البيضاء ، لانه هو الذى عين فى امانة مكة جد هم محمد ابن عون سنة ١٢٢٩ ، ومن ثم وهى فى أيدي سبيه الى اليوم .

وما طلعت شمس هذا النهار المبارك حتى اطلقت المدافع من قلاع مكة ترحيباً بمقدم الجناب الحديوى ، و بعد الظهر تبادل سموه الزيارة مع سيادة الشريف ، ثم تشرف عطوفة المأمم بأعمال الولاية بزيارته حيا به العالى ، وفى الساعة الرابعة بعد الغروب نزل حفظة الله للطواف ببيت الله المعظم .

أما دولة الوالده فاتها حفظة الله ركبت من بحرة معيتها فى فجر اليوم المذكور و وصلت الى مكة قبيل الغروب ، ودخلتها فى موكب من أحرار أى الرأءون وسمع السامعون بين اطلاق المدافع وعزف الموسيقىات وهتاف الحووع المحتشدة على الطريق ، وما زال موكبها الحليل سائرأ حتى وقف أمام باب الصفا حيث نزلت دولتها الى دار باناجا (١) باشا التى كانت أعدت لاقامتها بميامدة وجودها بهذا البلد الامين . و بعد هزيع من الليل طافت دولتها طواف القدوم ، ثم سمعت فى عرتها مع صاحبات الدولة والعصمة الاميرات الفخيمات . وما زغت شمس يوم الجمعة رابع دى المحجة حتى أخذ الا لاف من الناس يهرون على باب الدار الحديوى : هذا رافع يده للدعاء ، وذلك باسط كفه للعطاء ، وتسابق كبار المصريين لكتابه أسمائهم فى سجل التشرىفات قياما بواجب تحية القدوم . وفى سخوة النهار ركب سموه قاصداً دار الولاية لرد الزيارة الى عطوفة الفأمم بأعمالها ، فاستقبل سموه بكل ما يمكن من مظاهر الاجلال والاحترام . وكانت

(١) وهذه الدار أيضاً من آثار محمد على باشا كان قد ابدأها والله على الحجار المرحوم أحمد باشا يكن

فرقة من الجنود الشاهية مصطبة على جانبي الطريق الى بابها ، ولما وصل ركابه العالى عزفت الموسيقى بالسلام الخديوى ، فأسرع عطوفة القائمقام الذى كان ينتظر على بابها مرحباً بمقدم سموه ، ثم استصحب جنابه العالى الى قاعة الاستقبال شاكراً له تفضله بهذه الزيارة ، وبعد شرب القهوة قدم لسموه حضرات العلماء والمأمورين الملكيين والعسكريين وحضرات أعضاء المجلس البلدى والاعيان والنجار الذين حضروا استعداداً للتشرف باستقبال جنابه الفخيم ، وكانت الموسيقى الشاهية طول هذه المدة تطرب الحاضر بنغماتها الشجية . ثم انصرف برعاية الله مودعاً بكل حفاوة واعظام لزيارة التكية المصرية ، فاستقبل بما يليق بمقامه الرفيع ، وتفقد محالها ومخازنها ومطبخها وبازل حفظه الله فأكل من خبزها ، وبعد أن أعطى التسيبب اللازمة زياده العناية بأمر الفقراء وشدة الاهتمام بهم ، رجع الى دار الامارة وزار دوله الشريف .

ولما قرب وقت الظهر قصد حفظه الله الحرم الشريف لصلاة الجمعة ، وكانت أعدب له النبة التى فى أعلى بئر زمزم فمرشت بأصناف السجاج جيداً معجمية والبسط الفاخره . وكنت حين سبق اليها الشرف الميام بخدمة استقبالها : فدخل سموه من باب الصفا يحف به عدد عظيم من الأشراف وبعض ضباط الحرس الخديوى ، فزغرد النساء اللاتى كن فى محلهن من المسجد على عین الباب فرحاً بمقدمه السعيد ، وهالك علت الأصوات من ارجاء المسجد بالتكبير والتهليل مما لم يسبق له مثيل : نعم علت الاصوات الى رب السموات الذى عظم شأنه وتجللى سلطانه وظهرت ربوبيته هادياً كمل مظاهرها . فاذا قلت ان العالم كله ملك فلناولكن مكة عاصمته ومظهر سلطانه وجبروته ، والكعبة بيته ومكان عظموته ورحمته . وأى مكان فى أطراف انسكوه لا يبلغ مسطحه ثمانية عشر الف متر مربع مع أنه يحتشد اليه من الحجى وقت واحد نحو نصف مليون من النفوس ، والكل يدعون الله قلب واحد ولسان واحد ، وهم وان اختلفت جسياتهم ونباينت لغاتهم يتوجهون الى قبلة واحدة ، ويتحركون فى صلاتهم بحركة واحدة ، وهم لا يرجون غير رحمة الله الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ولما صعد الخطيب المنبر صعد معه أحد الاغوات وجلس على الدرجة التي تلى قدميه : وهذا بلا شك عادة قديمة كانت للمحافظة على الخطيب أثناء اشتغاله بالفاء الخطبة حتى لا تتسرب اليه دأثيمة ، وأظن أنهم استغنوا عن ذلك فيما بعد بعمل ابواب للمنابر خصوصاً وقد صارت الخطبة لغير الامراء والرؤساء . وعقب هذه الخطبة التي لم تخرج عن مثيلاتها في دواوين الخطب البسيطة ، أعم الجناب العالى على الخطيب بحلقة سنية البسه اياها سمادة حسين محرم ناشدا ، ثم صلى الخطيب بالناس تحت جدار الكعبة المكرمة بين المعجن ونامها الشريف . وكانت السماء في أثناء الخطبة قد تلبدت بالغيوم ثم فاضت بغيثها المدرار أثناء الصلاة فلم يتزعزع الناس عن مراكرهم واستبشروا جميع الخلق بهذه الرحمة التي كانت قد اذنت عن بلاد الحجاز من ست سنوات ، وكان هذا أحسن فأل لحج الجناب العالى الحديوى . وبعد الصلاة خرج حفظه الله من باب الصفا بين صفوف الحرس الحديوى الذى حال بين سموه وبين أولئك الألوف المتراخمة لمشاهدة محياه الشريف ، وأستهم تلهج بالدعاء له ، وخصوصاً أهل جزيرى العرب الذين فرحوا بهذا الغيث الذى أكرم الله به وقادة ضيعة الكبير .

وفي صباح يوم السبت خامس دى الحجة قصد حفظه الله زيارة الاماكن المباركة فى ركب من حاشيته ملاكيين وعسكريين ، فذهب الى المعلاة (المعلى) ، وبعد زيارة ما فيها من الاماكن المباركة أمر فوزعت الصدقات على من كان هناك من جيوش الفقراء والمعوزين ، ثم امتطى جواده وصعد بحاشيته الى طريق الحجون فرعلى السلخانة وقصد جروول لزيارة الحمل المصرى ، فاستقبل استقبالاً فخياً ، وقدم لسموه أمير الحاج جميع ضباط ومستخدمى الحمل فتشرفوا بلثم راحته الكريمة ، وبعد أن أوصاهم بحفظه الله بزيادة العناية بواجباتهم فى هذا البلاد المقدسة اعلى صهوة جواده وسار تحيطه المهابة وتلازمه الكرامة الى زيارة مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم مولد سيدنا على كرم الله وجهه ، وبعد ذلك قصد حفظه الله دار الارقم المخزومى فزارها وعاد الى السراى العامرة .

و بعد ظهر هذا اليوم استقبل الحجاب العالي كثير من الرائر بن من علماء وأعيان مكة ومن بينهم أعضاء قومسيون عين زيدة وفي مقدمتهم حضرة رئيسه السيد عبد الله الزواوي .
 وفي الساعة الخامسة العربية بعد غروب اليوم المذكور قصد ريادة بيت الله الحرام ،
 ففتح بابه ووضع اليه المدرج المبرى ، وأوقف ما فيه من الشموع حتى صار كانه قطعة من نور على نور .
 فصعد حفظه الله على المدرج ، يتبعه دوله الامير كمال الدين باشا ورجال حاشيته عسكر بين وملكيين ، وهناك صلى ركعتين لله تعالى في القبلة التي في مفلاة الباب (وكانت مصلى النبي صلى الله عليه وسلم) ثم اتجه الى الجدار الشمالى وصلى ركعتين أيضاً ، ثم الى الجدار الشرقى فصلى مثلهما ، وكان الجميع يصلى كذلك ، والكل في غاية ما يمكن من الخشوع للهاء هذا الماكوت الاعظم والرهبوت الأثم الذين تصغر أمامهما النفوس الكبيرة حتى يكاد يتصل وجودها بالعدم : ولولا ما كنا اشاهده من تحرك الحسوم في هيئة الصلاة ، ورفع الايدي بالدعوات ، واضطراب الشفاه بالتضرعات ، وما كنا سمعهم من دقات القلوب أمام هذه العظمة اللامتناهية ، لحسبنا أنفسنا في حياد غير هذه الحياه : وفي الحميمة فقد كنا في هذه الساعة في عالم آخر . نعم كما في بيت الله ، وفي حضرة الله من غير ما واسطة ، وليس فيا الرأس بحصع ، ولسان بضرع ، ودعوات ترفع ، وعيون تدمع ، وقلب بهلع ، واخلاص يشمع .
 واعد أن أفضا على هذه الحال ساعة خرجنا وقلوبنا تفيض أقدا مناعن السعى لحفظات تزيد في تمتع النفس بهذه التحليات العظمى ، وعاطفة الادب تدفعها بموجبات الاحترام والاحتشام .
 وبعد نزولنا من البيت المعظم طاف حفظه الله حول الكعبة ، ثم زار مقام الخليل ابراهيم . ثم عاد الى مقامه شاكر الله على توفيقه لزيارة بيته الكريم .

وفضى جنباه العالي يوم الأحد في استقبال كثير من الناس على اختلاف أجناسهم ، وفي المساء أولم وليمة فاخرة لسيادة الشريف وأصحاب السعادة أبحاله الكرام ووكيل الولاية ونحو عشرين من عليا الموم والأشراف وكبار المأمورين وحضرات الماضى والمفتى وشيخ الحرم ومديره وقومندان العساكر الشاهانية ورجال المعية السنية ، وبعد العشاء انتقلوا الى البهو الكبير وكان حفظه الله يؤاسهم بلطعه ومكارم أخلاقه . . . وبعد شرب القهوة قام عطوفة أمين بك

أفندي وكيل الولاية والقائم بأعمالها، وارتحل خطابه غاية في البلاغة جمعت الى جزالة اللفظ رقة المعنى . ومما جاء فيها بعد ترحيمه بمقدم الجباب العالي الى هذه الديار الممدسه : أنه منذ وجوده في مركز الولاية وهو يدرس نكل اعجاب وافتحار أعمال المرحوم محمد علي باشا في ولاية الحجارة ، وما عمله فيها من ترتيب ونظام ، وما حبس على أهلها من الأوقاف الواسعة ، وما رابط لهم من المرتبات الحسيمة التي لا تزال ترسل اليهم من حكومة مصر سنوياً فينال منها الكبير والصغير ، وتساعد على حياة كل بأس فقير . وبعدهما انتهى ذلك الخطيب من خطابه البليغ شكره الجباب العالي فصاحته ولطفه وأدبه . ثم أخذوا في السمر الى منتصف الليل ، وانقض عمد الجمع وكانهم السنة شكر للجباب العالي على عظيم كرمه ، وحسن لوائه ، وجميل ملاطفته ، وواسع معرفته ، وكبير آدابه . وقضى حفظه الله يوم الاثنين سابع ذى الحجة في استقبال كثير من الزائرين ، ثم تراور سموه مع دوله الشريف ، وفي المساء طاف بالكمة المعظمة ، ثم رجع الى دار الامارة ، وأمر حفظه الله بالاستعداد الى الخروج لعرفة .

الطريق القديم والحديث

من مصر الى الحرمين

كانت مصر ولا تزال طريق المسلمين الى حج بيت الله الحرام ورياره بيه عليه الصلاه والسلام ، في نصف الكرة الارضية الغربية باعتبار أن مكة المكرمة هي قلب (١) العالم ، والنقطة المركزية التي سبغت منها أنصاف أقطار الى محيط جميع دائرة الأقطار : فالاندلس الذي كان يسكن في غرب أوروبا ، والمغرب الذي في غرب أفريقيا ، وما دونه من مسلمي البربر ، والسفلى ، وبلاد التكرور ، والسودان الغربي والشرقي كانوا اذا قصدوا الحج الى بيت الله الحرام

(١) واليهود يقولون ان قلب العالم في المكان الذي هي أبواب العهد بالقدس ، والصاري يقولون انما هو في كنيسة العياض بيت المقدس وفيها كرم من الرقيم يبلغ مظهرها نحو ثلاثين أو أربعين سيمر مرفوعة على قاعدة من الرقيم أيضاً ، ويرحمون ان هذه الشجرة موضوعة في المركز الحقيقي للكرة الارضية .

سافروا من بلادهم الى مصر بحرا أو برا، ولهذه الغاية كان يقصدها كذلك كثير من أهالي الشام والترك والقوقاز والفرج وبجاري وقازان وغيرهم من مسلمي شمال روسيا وسيبيريا وجزائر البحر الأبيض المتوسط . ويحتمع الكل بالماهرة قبل شهر رمضان، ثم يسرون منها الى قوص ومسافتها ٦٤٠ كيلو متر كانوا يقطعونها برا أو في النيل في نحو عشرين يوما، ثم تسافر فوافلهم منها في الصحراء الشرقية مدة ١٥ يوما يقطعون فيها نحو ١٦٠ كيلو متر الى عيذاب أو الى الفصير على البحر الأحمر . وكان كل من هاتين الفريتين ميناء لمصر الشرقية من قديم الزمان، أي أهمها كانتا من مصر بالامس مكان ميناء السويس الآن . وكانت الاولى منهما أهم من الثانية، وكلتاها كانت في أيدي عرب البجاء^(١) الذين كانوا يتولون نقل الحجاج

(١) قبائل البجاء أو البجة يقال لهم من البربر، وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقية من وادي النيل الى مصرية يقال لها الحرية في صحراء قوص وهذه الصحراء عامرة بمعادن الرمد والذهب والفضة والحديد وفيها معابر وآبار تدعى لاسحراجها، وهي طعنا من عهد قدماء المصريين وبعضها من عمل محمد بن علي باشا وإلى مصر وكانت العرب تسخر منها المعادن (وخصوصا البر) في القرن الاول والثاني للهجرة وذلك باتفاق مع ملك البجة الذي كان ممره اسوان . وكان يسل المسلمين منه ومن قومه أدى كثير فأرسل المؤمنون اليه عبد الله بن الحنفية فكان له منهم وفتح، ثم وادعهم وكنت بينهم وبين كيون رؤسهم كنانا يذكر لك طرقه . لعرف مقدار السباح الاسلامي مع أهل الدمه وكيف أنه كان لا يفرق بينهم وبين المسلمين في المعاملة :

هذا كتاب كتبه عبد الله بن الحنفية مولى أمير المؤمنين صاحب حشش المرأة عامل الامراء في اسحاق ابن أمير المؤمنين الرعيذ أمانه الله ، في شهر ربيع الاول سنة ثمان وعشرين ومائتين ، يسكنون من عبد العزيز عظيم البجة ناسوان ، إليك سألني وطلب الى أن أؤمك وأهل بلدك من البجة وأعتقد لك ولهم أمانا على وعلى جميع المسلمين ، فأخبرتك الى أن عمدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقم واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا ، وذلك أن يكون لك وحملها من منبهي حد اسوان من أرض مصر الى حد ما بين دهنك وناصع ملكا للمؤمنين عبد الله بن هارون أمير المؤمنين أعزاه الله تعالى ، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لامر المؤمنين ، إلا أنك تكون في بلدك ملكا على ما أنت عليه في البجة ، وعلى أن يؤدي اليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة ، وذلك مائة من الاذن أو ثلثمائة دينار واربعة دنانير داخله في باب المال ، والخيار في ذلك لامير المؤمنين ولولائه ، وليس لك أن تحرم شيئا عليك من الخراج ، وعلى أن كل أحد منكم ان ذكر محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه مما لا ينبغي أن يذكره أو يمل أحد من المسلمين حرا أو عبدا فقد برئت منه الدمة دمه الله ودمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودمه أمير المؤمنين أعزاه الله وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب ودراريهم ، وعلى أن أحد منكم ان أعين الخمار بين على أهل الاسلام بمال أو دل على عورة

على ألبهم في هذا الصحراء، وكانت أخلاقهم على غاية من الفطاعة، لاشفقة فيهم ولا رحمة،
وربما بلغ بهم الأمر إلى تغيير طريق الماء على المافلة لغرض شنيع وهو أن ركابها يموتون
عطشاً فيستولون على متاعهم .

وفي هذه الصحراء قبر العارف بالله أنى الحسن الشاذلى قرب مكان يقال له (أمتان) توفي
فيه سنة ٦٥٦ في طريقه من المغرب الأقصى إلى الحجاز ودفن به . وأهل هذه الجهة يعملون له
مولدات سنوياً من أول ذى الحجة إلى التاسع منه ويصعد زيارته في هذا المولد كثير من أهل
الصعيد والعربان والمغاربة .

وكان الحجاج يقيمون في عيذاب أو القصير نحو شهر من الزمان في انتظار الغلايك التي
تحمّلهم إلى جدة ويسمون بها جلانا (واحدتها جلبة) ، وهي سفن صغيرة غير محكمة الصنع
وشراعتها في الغالب من القصير . وكان أصحابها يتعسفون بالحجاج فيشحنونها بأكثر
من حمولتها : وكثيراً ما كانت تغرق في وسط البحر عن عليها من الحجيج الذين يذهبون
بحية مطامع أولئك الأشرار ، ومن وصل به طول عمره إلى جده وصلها في نحو أسبوعين
يتفاب في أنسائها بين تحكم الملاح ، وتبرم الرياح ، وانزعاج الماء ، واضطراب الهواء .

ولمذحج من هذا الطريق ابن جبير الأندلسي سنة ٥٧٩ فقطع المسافة بين القاهرة
وجدة في نحو شهرين ونصف ، قضاه في أسوأ حال ، بين مشقات وأهوال ، مما هو مبین في

من عورات المسلمين أو أثر لعربهم فقد هض دمة عهد وحل دمه ، وعلى أن أحداً منكم أن قتل
أحداً من المسلمين عمداً أو سهواً أو خطأ جراً أو عبداً أو أحداً من أهل دمة المسلمين أو أصاب لأحد
من المسلمين أو أهل دمتهم مالا بلداً له أو بلاداً أو بلاداً أو في شيء من البلدان رأياً
أو محرراً ، فعليه في قتل المسلم عشر ديات وفي قتل العبد المسلم عشرين وفي قتل الدمي عشر ديات من
ديارهم ، وفي كل مال أصدهم للمسلمين وأهل الدم عشر مائة ، وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البع
تاجراً أو مبيعاً أو محارراً أو حراً فهو آمن فيكم كما حدكم حتى يخرج من بلادكم ، ولا يؤووا أحداً من
آبى المسلمين من أناكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين ، وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت
في بلادكم بلا مؤنة لزمهم في ذلك ، وعلى أنكم أن رتم ريف صعد مصر الجارة أو محارب لا يظهروا
سلاحاً ولا تدخلوا المدن والقرى محال ولا تجمعوا أحداً من المسلمين الدحول في بلادكم والجارة فيها
رأياً ولا محرراً ولا تحبوا السبل ولا سطموا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الدم ولا تسرقوا
لمسلم ولا دمي مالا ، وعلى أن لا تدموا شيئاً من المساحد التي أبناها المسلمون بصيحه وهجوسائر
بلادكم طولاً وعرضاً من فلتتم ذلك فلا عهد لكم ولا دمة لبح وناقى الكتاب لا يحرج عن هذا المعنى .

رحلته . وفي سنة ٧٢٥ سافر ابن بطوطة من مصر الى عيذاب ولكنه لم يجد فيها مراكباً
تحملة الى جدة مع من قصدها من الحجاج لان السفن التي كانت عيناؤها أحرقت في واقعه
حصلت هناك بين الترك وعرب البجاة، فعاد منها الى مصر، ومنها الى بلاد الشام، ثم الى بغداد
وسافر منها مع الحمل العراقي في السنة التالية .

وكان يسكن في هذه القرية (عيذاب) حاكم : حاكم بدوى من طرف شيخ قبائل
الباجة وآخر تابع لحاكم مصر، وكاملاً خذان عوائد مرور عشرة جنيهاً عن كل حاج مغربى
وسبعة على الحجاج الآخرين، ويمتسان ما يتحصل منهما وبين أمير مكة ! واستقرت هذه
المكوس حتى أطلبها صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٩٠ هـ زمن الشريف مكث بن عيسى
ورب له شيئاً عوضاً عن نصيبه، ثم أعادها لأشراف من بعده على الداخلين من الحجاج إلى
مكة، حتى ألزم الملك الناصر محمد بن قلاوون الشريف عطيفة بن أبى عمى سنة ٧٢٦ هـ باطلها في
نظير ما ربه اليه من الفمخ الدي كان يحمل اليه في مكة كل سنة .

والطريق بين قفط والمصير قديم جداً، فتجد رمسيس الثالث في القرن الثاني عشر قبل
الميلاد لتداول التجارة بين مصر و بلاد اليمن والهند و بلاد العرب الذين كانوا كثيراً
ما يهاجرون منها الى مصر طلباً للتجارة أو للعيش فيها . وفي سنة ٣٢٠ قبل المسيح أخذت هذه
الطريق أهمية عظيمة زمن بطليموس في بلاد افوس ، وصارت المصير هي الميناء الوحيدة التي
تصل تجارة البحر الأبيض المتوسط بالحيط الهندى وبالعكس ، وهو الذى حفر أغلب
الآبار التي في هذا الطريق وبنى على طولها محازن للتجارة وأقام بحوارها قلاعاً ورب لها
الحصن الارم لحراستها ، وهو الذى بنى مدينة ترنيس وقامت على أنقاضها فيما بعد قرية
عيذاب (أنظر عيذاب في الخطط التوفيقية) . وفي هذه الجهة إلى الآن أطلال مدينة قديمة
ذهب بعضهم إلى أنها أطلال مدينة أوفيرا التي كان سليمان بن داود يرسل بنى إسرائيل
اليها في القرن العاشر قبل المسيح لاستخراج الذهب من ضواحيها وورد ذكرها في التوراه
في الإصحاح التاسع من أخبار الملوك الاول .

ومارال هذا الطريق هو الطريق الوحيد للحاج المصري من القرن الاول الى سنة ١٤٥٠ التي سافرت فيها شجرة الدر مع قافلة الحاج الى مكة لأول مرة عن طريق البر على العقبة . وفي سنة ١٦٠٠ أخذ هذا الطريق الأخير أهميته حيث سيرا الظاهر بيرس البندقداري قافلة الحاج منه وأرسل معها الكسوة التي عملها للكعبة ، والمفتاح الذي أمر بصنعه لبابها الشريف ، ومن ثم أخذ يقل دهاب الحاج عن طريق عيذاب ، ولكنها استقرت طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب .

ويظهر أن عيذاب ابتدأت تسقط أهميتها شيئاً فشيئاً بسبب زيادة أهمية الفصير ، نظراً لأن لها حليجا طيعيا يجعل مياهها على الدوام في أمن من التغيرات البحرية حتى تلاشى أمرها بالمره ، ولا تزال أبقاضها في جنوب الفصير بمسافة عشرة كيلومترات .

ولمداهم العزيز محمد علي باشا بطريق الفصير عند سوق العساكر المصرية الى بلاد المحازلرب الوهابية ، فهدسله وأصلح آباره ، واستقرت عيافته به بعد ذلك لاستغاله باستخراج ما فيه من معادن الذهب والنحاس .

وهذا الطريق مطروق الى الان ويبدو وب كثيره تسمى مطارق : وأول محطة له بئر عنبر ، ويسبر اليها المسافر من ناأومن فقط : وهذه المراكمت ساقية قديمة أصلحها المرحوم إبراهيم باشا نحل محمد علي باشا ، وبنى بجزارها سيلا لسقيا المواشي ، والى جانبها مكانا لدواب معنودة لاستراحة المسافرين . وقصر في الرزناحة الى حادهم هذه البئر ستة جنينها تسمو يالآ تزال بصرها المالىه الى من يقوم بأمرها . ومن هناك يسير الطريق الى الشمال الشرقى في درب يسمى مطرق جيف الكلاب (لأن هناك مغاير مصر يد قديمة كان بها جثث كلاب كثيرة محطة) حتى يصل الى محطة اللفيطة ، ويقمها أناس من قبيلة العشابات من عرب العباددة وهم خدم البجاة ، وفي هذه المحطة نحيل وحمله آثار بعضهم عهد البطالسة . ولا يزال الطريق حتى يصل الى محطة الوكاله وها آثار قديمة . ومنها يسبر في مطرق يسمى مطرق جيف العجول (وهناك مغاير كانت بها عجول كثيرة محطة من التي كان يمد سها فدماء المصريين) ، ثم في مطرق الحمامات وفيه خزانات مياه طبيعية ، ثم في

مطارق الكافر (وفيه آثار فرعونية و أثر حلزونية من الرخام ينزل اليها بمائة وثلاثة وأربعين درجة) . ومن هناك يستمر الطريق الى بئر الاسكيز (التي حفروها عندما وصلت جنودهم بجرأ الى القصير ، ومنها ساروا الى تلك الجهة متعفين عساكر العرناوين وقت احتلالهم لمصر) ، وماء هذه البئر يبعد عن سطح الارض بنحو أربعة أمتار . ومنها يسير الطريق الى العنبرة ، وبها ينبع معدني مياهه كبريتية ، ويقصده بعض الناس للاستشفاء به ، وهناك مستنقعات كثيرة ينبت فيها السمار ، والحكومة تبني سنوياً للمصريين . ومنها يستمر الطريق الى القصير . ولقد كانت هذه المدينة في القرن الماضي عامرة أهلة بالسكان الذين كانوا يزيدون عن عشرين ألف نفس ، وكانت من ضمن محافظات انظر المهمة .

وما زالت طريق القصير مستعملة للتجارة حتى عملت السكة الحديدية من القاهرة الى السويس في مدة سعيد باشا عوضاً عن العربات التي كان سيرها محمد علي باشا سنة ١٨٤٥ م بواسطة الخيل في طريق الصحراء لحمل السياح من القاهرة اليها ، وكان لها ديوان مخصوص يسمى ديوان المرو على يسار الداخل الى الموسكى ، وهو معروف الآن بسوق الخضار القديم . ومع كل هذا استمرت القصير مهمة بين مصر العليا والصحراء تنقل منها الحبوب الى جدة ، وينقل من هذه اليها السجاد والفلل والبن والسالمكي وخلاف ذلك من واردات الهند وغيرها . وكانت لها سوق كبيرة في قنأ حتى إذا حفر قنال السويس وصارت ترسل كل هذه الحاصل الى أور و بأرأساء ، فلت أنعمينها وأصبحت من نحو عشرين سنة مأمورية صغيرة تابعة لمديرية قنأ وإن كانت إدارتها في يد مصلحة خفر السواحل .

وكان بعض الحجاج يسافرون من السويس الى جدة بواسطة المراكب الشراعية ، فيدعون مسافتيها في نحو عشرين يوماً . ولكن غالبهم كان يسير برأ عن طريق العنبرة مع الحمل أو مع غيره من القوافل التي كانت تقوم بها عربان مصر من أولاد علي وغيرهم ، فيصل الى مكة في نحو خمسين يوماً . وأول من رتب ركاب الحجاج على هذا الطريق وعقبه عند رحيلهم من الركة الأمير جمال الدين الاستادار عندما سافر ولده شهاب الدين أميراً للمحمل سنة ٨٠٩ فكان إذا وصل الركاب الى عجرود (وهي محطة قبيل السويس) يأمر الأمير بكتابة كابر

الحاج ويرتب كلا في مكان معين من القافلة بجماله وذوبه وخدمه ، ثم يجمع الركب من الطليعة الى الساقية ، ويضبط أطرافه ونواحيه بجماعة من العسكر بعد أن يسير أصحاب الجمول والاموال في وسط الركب .

وطريق البر شاق جدا وخصوصا في المنطقة التي بين السويس والعقبة ، وهي لا تبتعد عن ثمانمائة كيلومتر ، كلها أرض رملية ناعمة تسوح فيها اخفاف الجمال قبل اقدام الرجال ، ولا يهتدون فيها الى الطريق الا بواسطة نواطير أشبه بشئ تطواحين الهواء أقيمت لهذه الغاية . وماء هذا الطريق قليل وعناؤه كثير ، وقد كان في بعض العرى التي عليه محازن للميرة والذخيرة ومؤن الجمال وامتعة الحجاج الذين كانوا يرسلونها اليها قبل سفرهم على سبيل الامانة في نظير اجرة مخصوصة تتوفر بها عليهم مشمة حملها في الطريق ، وكان في هذه العرى فرق من الجند لحراستها . وبالحمد ماورد لك اسماء المحطات التي كان يعطونها الحاج في طريق البر من القاهرة الى مكة ، ومسافة الركوب بين كل محطة والتي يليها بمسافة الحمل التي هي اسرع من المواقل الأخرى لا يتظام سيرها واحكام أمرها وجوده جمالها : من القاهرة .

ساعة

٠٦ الى بركة الحاج .

١٤ » الدار البيضاء ، وبها قصر عباس باشا الاول ويلها الدار الخضراء .

١٢ » عرود ، وتوجد في الجنوب الغربي من السويس على مسافة عشرين كيلومترا منها ، ومن هناك كان يرجع المرضى والمقطعون والمشيعون .

٠٨ » الباطور الاول ، والثاني ، والثالث ، والارض في هذه المسافة رملية ناعمة متنقلة من جهة الى أخرى عند هبوب الرياح بشدة .

٠٦ » العلوه .

١١ » جنادل حسن ، وأرضها رملية .

١٢ » قرية نجل ، وفيها نخل وشجر وقاعة وخان من عمل الغوري ، وساقية من عمل الملك الناصر حسن والى جانبها ثلاثة احواض تسع ٣٠٠ قرية

ساعة

الي

تملاً في زمن الحج . وكان يرسل إليها أربعة من الثيران من طرف الحكومة فلا تزال تدور في الساقية ملء الخيضان حتى ترجع مع قواول الحاج الى مصر .

١٢

»

نثر فر يص ، وسُميت أخيراً بئر أم عباس لان والدته عباس باشا الاول اصلحتها وماؤها عطن .

٠٧

»

العقبة ، و يصعد اليها المسافر بمنحدر من مسافة طويلة من الغرب حتى يصل الى قمتها ، فاذا أراد أن ينزل الى الجهة الشرقية صار ياز لأصاعدا وصاعدا نازلا في أرض حجرية تارة ، وأخرى رملية ناعمة ، وأخرى خشنة أوزا طيبة ، الى أن يمر في مضيق لا يسع الا جملاً جملاً ويسمى قطع لاز . وطريق هذا القطع حلزوني تمر به أصلاً ابن طولون في القرن الثالث الهجري ثم محمد بن قلاوون في القرن الثامن ثم عباس باشا الأول في القرن الثالث عشر ، ومع ذلك فان المسافر فيه لا بد أن ينزل عن دابته ويسير على قدمه حتى يقطع العقبة في ست ساعات نزولاً وضعفها صعوداً . ومن دون هذه العقبة قرية العقبة ويسمونها أَيْسَلَة^(١) وفيها

(١) هي بلدة قديمة جداً وكانت عاصمة من زمن مدين وكانت في مدين سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام . مياه كثيرة للمراكب الي كانت تعد الى الشام من اليمن والهند ودرس واطمطع بها طريق البر من اليمن الى بصره . ولما مات سليمان رحمت الطريق الاول الى ما كانت عليه في قتل البحارة برأ ، وكان فيها أسواق كثيرة بل كانت مكرراً للبحارة من مصر وبلاد العرب ودرس والعراق . ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم الى عروة بنوك في السنة التاسعة للهجرة أتاه من رؤة صاحبها وصاحبه وأعطاه الحرية فكسله عليه الصلاة والسلام عهداً هذه صورته « بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحى من رؤة وأهل أيلة منهم وسيلارهم في البر والبحر لهم دمة الله ودمه الذي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر من أحدث منهم حدثاً فيه لا يحول ماله دون نفسه وأنه لطيفة لمن أحده من الناس وأنه لا يحل أن يعموا ماء يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر . هذا كتاب بهم من الصلح وشرحيل بن حسنة نادر رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وفي سنة ٥٦٦ هـ أسولى الافرنج عليها في الحروب الصليبية فسار اليها من مصر صلاح الدين الايوبي وأخذ منه مراكب مفصلة على الخال حتى وافى مياهها فأصلح مراكبه وأرلها في

يفصل أمير الحاج جميع المقطوعين الذين لا يمكنهم الاستمرار على السفر لمرضهم أو لفقرهم ، و يعطيهم المؤنة اللازمة من البقسماط ثم يستأجر لهم سنبوكا يسير بهم إما الى مصر أو إلى جدة ، وكثيراً ما كانوا يصلونها بعد نزول الناس من عرفة . ومن العتبة يتجه الحاج الى جهة الجنوب .

» ٠٩ ظهر حمار ، وفي طريقها مضيق بين جبلين على البحر لا يسع إلا جملاً جملاً .

- » ١٤ الشرفا ، ويسمونها أم العظام .
- » ١٢ مغاير شعيب ، وبها نخل و ساتين ومياه عذبة .
- » ١٤ عيون القصب ، وبها ماء ونخل وشجر سنط وعبل .
- » ١٢ المويلح ، وفيها قلعة أشأها السلطان سليم العثماني بها بعض الجند لحراستها ، ومناخها رطب غير جيد للصحة ، وسكانها يتجرون في الفحم الذي يصنعونه من شجر الطرفا الذي ينبت بكثرة في الوديان المحاورة لها . ومنها طريق الى تبوك مسافته مائة كيلو متر .
- » ١٢ سلمى (كفافه) ، وفي طريقها مضيق شق العجوز تسير فيه الجمال جملاً جملاً ، وبهذا الوادي شجر الدوم والسنط والطرفا .
- » ١٢ اصطبيل عتر ، وهو مكان متسع محاط بالجبال وفيه ثلاثة آبار .
- » ١٢ الوجه ، سيأتى الكلام عليه في طريق المدينة ، ومنه ينشعب الطريق الى العلا شرقاً ، وإلى ينبع جنوباً ، وإلى المدينة المنورة جنوباً بشرق .

البحر وحاصر المدينة برأ ونحراً حتى أحدها عموة وطرده الافريح منها . وهي الآن قرية صغيرة في أيدي عرب الحويطات وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع بها خمس الخود لحراسها ، وعدد سكانها لا يزيد عن مائة نفس ، وفيها نخيل وأشجار وماؤها حار ويررع بها الخسروات . وبين القفة وممان نحو مائتي كيلو متر شرقه ، والطريق صيقة وتحترق حال السراة التي يكسوها الحليد طول الشتاء . ويدها وبين بيت المقدس شمالاً نحو ٣٠٠ كيلو متر في صحراء مليئة المياه وطريقها وعرة . وبينها وبين السويس نحو ٣٠٠ كيلو متر .

- ساعة الي
- ١٦ » عكرة ، ولا ماء فيها .
- ١٢ » الحنك ، ولا ماء فيها .
- ١٢ » الحوراء ، وفيها مضيق تسير فيه الجمال حملاً جملاً ، وأرضها ذات رمل ناعم .
- ١٥ » الخضيرة ، وفيها معادن نحاسية وأرضها صلبة .
- ١٠ » ينبع ، ويدخلها الحمل واكباً باحتفال عظيم ، وهي ثغر المدينة المنورة على البحر الأحمر ، وستكلم عليها في طريق المدينة .
- ١٨ » السميفة ، وماؤها ملح .
- ١٠ » مستورة ، وماؤها حلو .
- ١٤ » راسخ ، وهي قرية بينهما وبين البحر نصف ساعة ، وفيها قلعة بها بعض الخد لحراستها ، وفيها محازن تحفظها مؤن ركب الحمل ودخاؤه وفيها صهاريج عذبه وهي المينات لمكة ، ومنها تنفر ع الطريق إلى المدينة ثلاثة أفرع : الطريق السلطاني ، والطريق الفرعي ، وطريق العابر .
- ١٢ » نزالهندي أو العضية (وبعضهم يكتبها العديعة) ، وهي قرية على البحر ماؤها ملح ومنها يتجه الطريق إلى الجنوب الشرقي .
- ٠٦ » خليص ، وبالقرب منها عيون ماء كثيرة يحيط بها مزارع وبساتين .
- ٨ » عسفان ، وهناك نزل ماؤها حلو يسمونها نزال التقلة ، ويقولون إن ماءها كان مرأفتل فيه النبي صلى الله عليه وسلم فصار عذاباً ، وفي طريقها ممران على طول نحو كيلو متر لا يسمعان إلا جملاً جملاً .
- ١٥ » وادي فاطمة (وادي مر) أو مر الظهران ، ومنه إلى قر السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم إلى العمرة الجديدة (التنعيم) وهي حد الحرم من هذه الجهة وأقرب حدوده إليه ، ومنه إلى الزاهر ثم إلى

ساعة	٤
مكة المكرمة .	
المجموع	٣٣٧

وعلى حساب ان الحمل يقطع في الساعة الواحدة أربعة كيلومترات ، تكون المسافة من مصر الى مكة من طريق البر ألفاً وأربعمائة كيلومتر تقريباً ، كانوا يقطعونها في نحو أربعين يوماً على الأقل .

أما الآن فالحاج المصري يركب السكة الحديدية الى السويس ويبحر منها الى جدة بغاية الراحة ومنها الى مكة فيصل اليها في أقل من أسبوع . ومن الناس من يسافر الى المدينة أولاً بطريق السكة الحديد الحجازية ، وبعد الزيارة يسافر مع القافلة الى مكة أو يرجع الى مصر ومنها الى جدة . ومنهم من يسافر بعد الحج الى المدينة بطريق البر ، ومنها يعود الى ينبع فالطور ، أو يركب السكة الحديد الحجازية الى الشام ولكنه في هذه الحالة يصادف كثير من المشقة في ضرورة عودته الى الطور لمضاء الحجر الصحي هناك : لذلك يرى الكثيرون أن أحسن حل للصعوبة التي في طريق الزيارة أنهم يعودون بعد الحج الى مصر ، وبعد انقضاء مدة الحج التي يلزمها الحجر الصحي عادة يسافرون الى المدينة بالطريق الحديدي ويعودون منها الى مصر مباشرة .

مكة المكرمة

مكة وتسمى مكة وأم القرى ، مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ متر وهي على عرض ٢١ درجة و ٣٨ دقيقة وفي طول ٤٠ درجة و ٩ دقائق ، وتبعد عما يرتبطها الى عهد ابراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام . وكان يعيش بنوه في الخيام والمضارب حتى عاد قصي بن كلاب من الشام في القرن الثاني قبل الهجرة ، فبنى فيها المساكن والبيوت حول الكعبة ، ومن ثم أخذت تزيد في عمرائها الى الان . وهي عاصمة (قصبة) بلاد الحجاز وفيها محل حكومته التي تنقسم الى قسمين : الاداري وهو في يد الشريف أمير مكة ويسمونه سيد الجميع ، والمالي والعسكري وهو في يد الوالي الذي يكون تركياً في الغالب : وعليه فالشريف ينظر في القضايا

الجسمية ويحكم فيها على حسب نظامات أربابها ان كانوا من الالهالى أو من الأعراب ، أما القضايا الصغيرة فيحكم فيها القاضى الذى يعين من قبل السلطان .

وهذه المدينة تمتد من الغرب الى الشرق على مسافة نحو ثلاثه كيلومترات طولاً ، وما يقرب من نصف ذلك عرضاً ، فى وادئ مائل من الشمال الى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبال تكاد ان تتصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب ، أعنى على أبواب مكة الثلاث . ولذا لا تشاهد أبنيتها للقادم عليها الا وهو على أبوابها . والسلسلة الشمالية منها تتركب من جبل الفلج (الغلف) غرباً ، ثم جبل فيقعان ثم جبل الهندى ثم جبل لعلع ثم جبل كداء (فتح أوله ومد فى آخره) وهو فى أعلى مكة ، ومن جهته دخل رسول الله البلد حين الفتح . أما الجنوبية فانها تتركب من جبل أبى حديد غر نأيتلوه جبلاً كدّى (بضم أوله وألف لينه فى آخره) وكدّى (بالتصغير) بأحراف الى الجنوب ثم جبل أبى قبيس الى شرفيهما ثم جبل خندمة . وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم تراها عامرة بالبيوت والمساكن التى تتدرج عليها الى قلب الوادى ، ويبلغ عددها نحو سبعة آلاف بيت منها الكبير والصغير يحشد فيم ازمن الحج ٢٠٠٠٠٠ ألف نفس على الاقل ، واداً كان الحج بالجمعة كان الناس أضعاف ذلك . ومساكنها على شبه مساكن جدة ، ويكثر فيها ما يسمونه بالادوار المسروقة ولا حوش لها فى الغالب الا ما كان لمظمائها وكرائها ، وأعظم مساكنها بالفرارة . وأحسن موقع فى مكة شعب جبالا ارتفاعه وسعة طرفه ومساكنه وفيه بيوت كثيرة جميلة على الطراز التركى يسكنها موظفو الولاية من الأتراك وفيه دار عظيمة للشرىف عبد المطلب وداران عظمتان للسيد محمد السعاف الذى له أملاك واسعة فى مكة والمدينة . ومع ذلك فليس بمكة على قدم عهدا بالحضارة وعظم مكاتها فى نفوس الناس من زمن بعيد جداً شىء يدكر من آثار العماره المديمة مما هو موجود بكثرة بمصر والشام اللهم إلا بيت الشرىف ناصر^(١) باشا الذى هو فى خامسة المظرو وجمال الصناعة العربية بمكان عظيم ، ويصح أن يكون أحسن بيت فى مكة .

(١) الشرىف ناصر باشاولى عهد أمارة مكة وهو الآن بالاساء وهذا البيت بناه الشرىف عبد المطلب .

وضمن هذه المساكن بعض الدور القديمة، فترى دار ابن عباس في المسعى على يمين السالك إلى المروة، وفي الشرق الشمالى للحرم آثار دار أبي سفيان المشهورة في الجاهلية والاسلام، وهي مهدمة لا عناية للقوم بها، ولو لاحظوا أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل لها يوم الفتح شأنا كبيرا حيث جعلها حرماً محترماً كل من دخلها من المشركين كان آمناً لكان المجلس البلدى بمكة أعارها شيئاً من عنايته .

والحرم الشريف بين هذه البيوت مائلاً إلى الجهة الجنوبية مما يلي جبل أبي قبيس . وفي هذه الجهة دار الخيزران، يتلوها شرقاً شعب بنى هاشم ويسمونه شعب على، ثم شعب المولد، ثم شعب بنى عامر، وفي هذه الجهة كانت مساكن بنى عبد المطلب في الجاهلية وفيها الآن كثير من الأشراف . أما باقى قرى يش فكانوا في الجهة الأخرى من الحرم خصوصاً جهة الشمال، ومن دونهم باقى أهالى مكة .

ويتوسط مكة طريق يقطعها من الغرب إلى الشرق وهو كرشوارعها، ويختلف اسمه باختلاف الجهات التي يمر عليها : فإدا ابتدأ من جرول يسمى حارة الباب، ثم الشبيكة، حتى إدا وصل إلى الحرم من جهة الشمال سعى الشامية، فإدا انعطف إلى الجنوب على يمين الحرم سعى السوق الصغير، ثم جىاد وفيه البوستان والتغراف والتكية المصرية ودار الحكومة العثمانية ويسمونها بالحيدية، وإلى جوارها إدارة الصحة وقشلاق الطوبحية والمطبعة الأميرية . فإدا وصل إلى الصفا سعى المسعى، ثم الفشيشية، ثم سوق الليل ثم الغزة ومنها إلى باب مكة الشرقى أو باب المعلى . أما الشوارع التي في شمال الحرم فهي الشامية وفيها سوق المدينة، والفرارة، والنقا، والسليمانية، والجدرية، والبراضية . وليس بمكة على كرها ميادين عمومية، اللهم إلا سحن المسجد الحرام الذى بسعته يؤدى وظيفة الميادين الكبرى . وهذه الطرق تختلف سعته من مترين إلى خمسة عشر متراً أو تراها في زمن الحج عاية في الوساخة والمذارة مما يوجب على المجلس البلدى في مكة أن يعتنى بنظافتها خصوصاً في مدة الموسم، مع عدم إهماله أمر التورليلا خدمة للدين والاسامية . وفي مدة الموسم يرى أهل البلاد لاسيما الأعراب يضعون دائماً أسداتين من الفطن في فتحتى مناخرهم بعد أن يغمر وهما بدهن المرو ويسمونهما الصهايم، ويربطونهما بخيط يملفونه في رقبتهم، حتى إدا

آسواء عدم وجود فذارة رفعوها وأرسلوها على صدرهم . وهم لوعلموا أن هذه السدادة صررها أكبر من معها لا بطلوا استعمالها : لأن وظيفة الخياشيم إنما هي لتنقية الهواء من الادران وتسوقه الى الرئتين نقياً . ولو دخل الهواء الفاسد الى الرئتين من طريق الفم فانه يدخل اليهما ما فيه من المادد الغريبة فيتصل معها بالدم وهما لك يكون تأثير الضرر والعياد بالله . أما الطبقة الرافية وخصوصاً من الأعراب فانهم يضعون طرف صمادتهم (كوفيتهم) على عينيهم وأذنيهم ، ويثبتون في عمامتهم أو عمامهم اثناء الرداء والروائح الكريهة .

و يقصد مكة زمن الحج أنواع العالم الاسلامي من جميع أطراف المسكونة : فترى بها الأزياء المتباينة والسحن المختلفة ، حتى لبجدرها أن تسمى بالمعرض الاسلامي . ولقد رأيت فيها رجلاً يابانياً من كبار فوآد اليابان^(١) قد أسلم وفد إلى التآدية ورخصة الحج . وقد اعتاد الشوام والمغاربه سكنى الجهة الشمالية من مكة زمن الموسم ، والافغان والسليمانية^(٢) (أهالي قندهار) في الجهة الشمالية الشرقية ، والهود والحاوة في الجهة الشمالية الغربية ، والبن واثركستان والضاعستان في المسفلة ، والعجم في شعب علي ، وماسوى ذلك في وسط المدينة . وأهالي مكة يبلغ عددهم^(٣) نحو ١٥٠ ألف شخص منهم حمسون ألفاً من الأهل والباقيون من الأعراب كما نراه في الجدول الآتى :

أهالى	٥٠ ألف
أعراب وعاليهم حجار يون و عيون وحضارم (من سكان حضرموت)	٢٥
بحاريون	٢٠
هنود	١٢
جاوه	١٥

- (١) وأهل مكة يسمونها العمان والنسبه اليها العمانى ومنها الشال العمانى المشهور .
- (٢) نسبة الى رجل اسمه سليمان صاحب طريقة شائعة في بلادهم .
- (٣) العدد في بلاد العرب لم يحصل لحد الآن بصفة رسمية وكل ما يعمل عنه إنما هو على وجه التقريب وما وسمناه هنا أخذناه من مأثورى الدولة وغيرهم ممن يوثق بأقوالهم .

١٠ سلبانية وأفغان

٥ شوام

٥ مقاربة

٨ أجناس مختلطة

١٥٠ المجموع

وأغلب هؤلاء الاغراب يشتغلون بالامور المالية وخصوصاً التجارة : لذلك تبّه أمرهم وأصبحت مالية البلاد في أيديهم . وإناذركم بعض البيوت القديمة التي توطنت منهم في مكة من زمن بعيد وفيها كثير ممن اشتهر بالوجاهة والثروة :

من الهنود — بيت خوقير . فتا . الدهلوى . الساب . حكيم . الرزة . الداكرو . ميره . الملقى . عبد الشكور . عبد الحق . بشاره . المرزا . أحمدود . كمال . جان . شلهوب . نور . الطيب . دستاويه . خوج . الوشكى . سنبل . خوجه بكر . المسكى . الياس . الزرع . الفرع . الحجي . الخ .

ومن الحاوه — بيت البتاوى . المنكابو . الزينى . أرشد . العنتيانا . العلمباب . قدس . دوم . الخ .

ومن البخاريين — بيت كشن . العاشقى . الايديجان . الخ .

ومن الحضارم — بيت باحارس . ناجنيد . باناجا . باحيم . بادرع . باعيسى . باعشن . الخ .

ومن الشوام — بيت هاشم . الحرى . الخشيفانى . الخ .

ومن الترك — بيت الدرايزلى . الفرملى . الخ .

ومن المصريين — بيت الفطان . الزقزوق . الرشيدى . الرواس . القزاز .

الاباصى . الخ .

وفداختلف بعضهم في أصل هذه البيوت ولكننا ذكرناها على ما هو مشهور من نسبتها ، على أن الغرض من ذكرها هنا إنما هي لكونها غير عربية ليس الا .

ومن اختلاط هذه الاجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة أو المباشرة صار سواد أهل مكة خليطاً في خاتمهم، خليطاً في خلفهم : فتراحم قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الا ماضولى، وعظمة التركي، واستكانة الجاوى، وكرياء الفارسى، ولين المصرى، وصلابة الشركسى، وسكون الصينى، وحدة المغربى، وبساطة الهندى، ومكر اليمنى، وحرارة السورى، وكسل الزنجى، ولون الحبشى . بل تراهم جمعوا بين رفة الحضارة وقشف البداوة : فيناترى الرجل منهم قد أسك برفة حديثه معك، وضعتيه بين يديك، ادهوقداستوحش منك وأغلظ في كلامه، حتى كأن طبيعة البداوة تغلبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلفه في حضرتك .

وقد وصل هذا الخلط الى أزيائهم التى تراها مجموعة مختلطة من أزياء البلاد الاسلامية : عمامة هندية، وقفطان مصرى، وجبة شامية، ومنطقة تركية فيها خنجر تراه على الخصوص في حزام الاشراف مفضضاً أو مذهباً بشكل جميل جداً وكثيراً ما يكون مرصعاً بالاحجار الكريمة . ومع هذا، تدترى الرجل الصانع العمير يلبس القميص وعلى ياقته الظرافة المشغولة بالحرير، وعلى رجل سراويله شىء يشبه الركامه وهو حافى الرجل (مثلاً) . غير أنك لا تلاحظ ذلك في طبقة الأشراف التى ترفعت عن هذا الخليط، فلم يدخل في مادتهم غريب، ولم تغلب عليهم خلق جديد، بل خلفهم هو هو بعينه العربى البحت الذى ورثوه عن أجدادهم وألقوه بما وطروا عليه من كريم العنصرو دكاء المحتد . وعلى العموم فأخلاق أهل مكة عابدة فى الكمال وخصوصاً في الطبقة العالية منهم رضى الله عنهم ولا يؤخذ على مجموعهم خسة بعض السوقه فيهم .

والذى يؤسف له أن هذا الخلط وصل الى لغتهم : فتراهم يتكلمون فى الغالب بلغة يكثر فيها الحشوم من كلمات عربية مشوّهة، أو فارسية، أو تركية، أو غيرها . وهم ينوّنون المضاف فيقولون فى هذا حق فلان مثلاً « هذا حق فلان » مع إبدال الفاف جيماً مصريه، ومنهم من يمد الحرف المنوّن فيقول « هذا حقون فلان »، أو يؤنث لفظه فيقول « حفة فلان »، ولا يحدفون النون من الفعل فى صيغة الا مر للجمع فيقولون « هيا صلون المغرب واركبون » بدل صلوا واركبوا . ويسنعملون الترخيم فى غير المنادى فيقولون « قم اعنا » أى قم لعندنا، ويقولون فى الايّل بكسر الباء، وفى الحبل البّل يفتحها، ويقولون « كيّمنا » أى كملنا

(خلصنا)، ويقولون «وصابتي» في وامصيبتي، «واللّمن» في اللّمن . ومما يكثر سماعه منهم قولهم «دّحين» في هذا الحين، و«ازهم فلان» في ادع فلانا. ويعبرون عن الرجل بلفظ (زأمه) ويجمعون الرجل على أوادم^(١) . ويقولون «زكّنه» أي اضربه . «وقل كذا» أي اعمل كذا. ويقولون «أبيض» للاستحسان . «وسنّع» في صنّع أو أفن . و«اتجمع مص»^(٢) يعني اجلس . و«فصخ»^(٣) حداك أي اخلع بعالك . ويقولون «مشلح» للعبادة . و«شايه» للمفطان . و«امرح» اجر . و«الودّن» للفدان من الارض . و«الصّواده» للكوفية و«زكّن عليه» أي أكد عليه . و«زلّ» بمعنى مر، «واندر» بمعنى أخرج، «والا» بمعنى نعم ، و«اغد» في رح . ويستعملون قولهم «أشكل» لافعل التفضيل من الحسن فيقولون هذا الشئ أشكل من هذا، يعني أحسن منه ويستعملونها أحيانا بالكثرة فيقولون هذا أشكل من هذا يعني أكثر . ويسمون «الاولاد» بالزورفة، فيقولون بزورفة فلان أو بزران فلان أي أولاده . ويستعملون لفظ «هرّج» في معنى كلم فيقولون ما هرجته أي ما كلمته . ويستعملون لفظ «صاقن» التركية للاحتراس والنبية، و«قربوز» للبطيخ . ويستعملون غير ذلك كثيرًا من الكلمات التركية والفارسية مثل «روشن» للشبّاك . ويقولون عن حياض مجرى عين زبدة باران : وهو اسم لرجل أعجمي قام بعمارة هذه الحياض وإن كان تبادر لدنّي لاول وهله أنه لفظ فرساوى (Bassin) ظننته أنه من وضع بعض المهندسين الاتراك الذين كانوا يعملون في اصلاح هذه العين ، كما استعملوا بعد ذلك من هذه اللغة ألفاظاً كثيرة في المدينة المنورة بعد وصول السكة الحديدية اليها : فيقولون «البيليت» لتذكرة السكة الحديد (Billet) و«استاسيون» للمحطة (station) و«شماندفير» للسكة الحديد (chemin de fer) و«العاجون» للعربة (Wagon) و«الرسويل» للمستخدمين (personnel) وهكذا من الالفاظ التي لم يسمح الوقت لاستقصائها

(١) مفردة آدم ومعناه بالعبرية انسان .

(٢) لملها محرقة عن قمز .

(٣) محرقة عن فسح .

وهذا كله مع كثرة أعلامهم النحوية وعدم مراعاة الفواعل الصحيحة التي لا يهتمون بها في تقويم ألسنتهم أو أعلامهم . واني بينما كنت محزوبا لتأخر اللغة العربية في مشرق أنوارها ومظهر اعجازها إذ عثرت على ترجمة فرنساوية لكتاب (١) عمرو بن العاص الذي أرسله الى عمر بن الخطاب لما استولى على مصر يصفها له فيه ويشرح له السياسة التي سيتخذها فيها وقد شرحت هذه الترجمة الكاتب الفرنسي الشهير المسيو أوكتاف أوزان (Octave Uzanne) في جريدة الفيجار والفرنساوية الشهيرة ، وعلته عنها برمتة جريدة البروجرية الفرنسية المصرية ، مع التعليقات التي علمها عليه المسيو أوران ، والتي وصف فيها هذا الكتاب بأنه من أكرآيات البلاغة في كل لغات العالم ، وقال عنه انه من الفرائد في إيجازه واعجازه ، واقترح وجوب تدريسه في جميع مدارس المسكونة ، حتى يتعلموا منه مع فود الوصف ومناة التعبير صحة الحكم على الاشياء ، وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار . وانا اذا سأستهناشديد الاسف على ضياع هذه اللغة من الوسط الذي لا تزال فيه هذه العترة الشريفة الفرشية ، التي نزل بلغتها القرآن ، وصار معجزة الاسلام فصاحت به وبلاغته :

(١) وتسميا للفائدة تذكر لك هذا الكتاب الطبع وهو (اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر ترنة عبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكسفها جبل أعبر ، ورمل أعمر . بحط وسطها البيل المارك المدوات ، ميمون الرواح ، يحري بالريادة والقصان كحري الشمس والقمر ، له أو ان تظهر به عيون الارض ويبايعها قدر حلالة ، ويكثر محاحه ، وتعظم أمواجه . فقيص على الحاميس ، فلا يمكن التحلص من المرى بمصها الي بعض الا في صغار المراكب . وحفاف القوارب ، ورواري كائن الحمايل ، (قطع السحاب) وري الاصيل . ودا تكامل في ريادته تكس على عقبه ، كاول ما بدا في حربه وطني في درته . فممد ذلك تخرج مله محقورة . ودمه محقورة ، يحرتون بطون الارض ، ويسدرون بها الحب ، ويرجون الماء من الرب ، ليقبهم ما سعوا من كدهم ، فبالهمهم سيرحدهم ؟ ودا أحدى الررع وأشرق ، سقام من فري الندى وغدام من تحت الترى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، اد هي عبرة سوداء ، ودا هي زمردة خضراء ، ودا هي ديباحة زرقاء ، فسارك الله الخالق لما يشاء . والذي يصلح هذا البلاد ويبيرها ويقر فاطمها فيها ، ألا يقل قول خسيسها في رئيسها : والا يستأدى خراج الثمر الا في أوامها ، وان اصرف ثلث ارتفاعها في عمل حصورها وترعها . ودا تقرر الحال مع العمال على هذه الاحوال ، تصاعف ارتفاع المال ، والله تعالى موافق الملك والمال .

وكتب بها ابن العاص هذا الكتاب وهو في بداوته ، وعلى شأته الاولى ، هذا الكتاب الذي بعثته من ادراجه مدينة العصر العشرين ، من دفاتر الغابرين ، وأعطته ما يليق به من التجلة والاحترام ، فقد يجب علينا أن نفتخر بان كتاب ابن العاص بقي في مصر ملازماً لذلك الوصف الطبيعي الذي وصفها به عمرو من ثلاثة عشر قرناً ولا يزال قائماً بها الى الآن بل الى آخر الزمان ، وقد أثرت بلاغته في المصريين الذين هم والحمد لله الآن في مقدمة الناطقين بالضاد حتى لكان في عصرهم في أيامنا هذه وقد اتملت اليها فصاحة الخطباء ومثانة الكتاب و بلاغة الشعراء في عصر الحضارة الاسلامية . وعسى أن يكون هذا خيراً أو فإل خيراً لبنينا يكون لهم من ورائه إن شاء الله شأن كبير ومقام خطير .

وغالب أهل مكة يتكلمون بالتركية ، ومن المطوفين من يتكلم بلغات مختلفة كالهندية والأوردية والحاوية والفارسية والصينية . أما أهل البادية فلغتهم عربية صرفة لا يكاد يفهمها إذا سمعها يتكلمون بها . ولكل قوم منهم لغة مخصوصة تختلف في لفظها باختلاف القبائل فمنهم من يقلب القاف زايًا فيقول (زربة) في قرية . وعتيبة تقلب الكاف سيناً فيقولون (سواسب) في كواكب و (سلب) في كليب و (سبد) في كبد . أما بنو شيبان فينطقون بالكاف جيما فارسية (معطشة) فيقولون (چواچب وچليب) وهم كذلك يملكون القاف جيما فارسية فيقولون في قرية (چرنة) وهكذا . والعرب لا ينطقون بالقاف بل يلفظونها جيما مصرية ومنهم من يقلب الميم باءً فيقولون بك في مكة ومنهم من يملأ الشاء فاء فيقولون فؤم في ثم ومنهم من يغير الحركات في الكلمة كقول الحجازيين الحج وفول مجد الحج وهكذا .

وعلى كل حال فلا يزال في عرب اليوم أثر ما كان في لغاتهم المديعة من الكشكشة (١) والكسكسة (٢) . . .

- (١) الكشكشة هي اضافة شين على كاف المحاط فيقولون في عليك (عليكش) وفي بك (بكش) وكاب في قبائل ربيعة وحير . ومنهم من يقلب الكاف شيناً فيقولون غلش في عليك و (ليش اللهم ليش) في ليك اللهم ليك .
- (٢) والكسكسة وهي قلب كاف المذكور سيناً فيقولون (مس وعلس) في ملك و عليك .

والمنعنة (١) والمجمعة (٢) والجمعة (٣) والاستنطاء (٤) والطمطمانية (٥) والوثم (٦)

نما هو مشروح نكتاب مميزات لغات العرب لحفنى بك ناصف المصرى .

وأهل مكة كلهم مسلمون ، ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التى نزلت فيها الآية الشريفة (يا أيها الذين آمنوا إنا نعلم أنكم كنتم نجس فلا يقر بوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) . وكان على بنادى فى الموسم الذى أعقب نزول هذه الآية الشريفة بقوله : (ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك) . وكان المراد بذلك مع المشركين من الحج ، وعدم دخولهم البلد الحرام التى بها تم مناسكه ، لانهم مع ما كانوا عليه من سوء الضمير وخبث الطوية ، كانوا يلقون بذرا الشقاق والغل بين قبائل العرب المسلمين ، ويوغرون صدورهم ، تقصد التفرقة التى يكون من ورائها الضعف . فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب فى أطراف الجزيرة بعد عشرة أيام من بيعة أبى بكر ، وذلك تتأثر المشركين منهم ، حتى بلغ من أمر هؤلاء أن ادعى البوثة منهم طليحة فى الشمال ، ولهيعة فى اليمن ، ومسيلمة الكذاب مع سجاح فى النمامة (شرق بلاد العرب) وقام غيرهم بالدعوة لنفسه فى وسط البلاد . هنالك استنفراً أبو بكر المسلمين الى قتال أهل الردة ، وبعث اليهم بأحد عشر لواء ، وأمرهم

(١) المنعة هى قلب الهمزة اذا وقعت فى أول الكلام عينا فكانوا يقولون (عك) فى الك ، (وعك) فى أ ب ، (وعلم فى أ س) وكاب فى قيس ونعيم .

(٢) المجمعة أو (المجمعة) هى قلب الحاء عينا مثل دولهم (عى حب) فى حبى (والامم الامر خير من الامم الابيض) فى اللحم الاحمر خير من اللحم الابيض ، وكاب فى هديل .

(٣) الجمعة هى لك الياء حيا وكاب فى نضاعة ومهم المائل :

يارب ان كتب فلب حصح (ححي) * فلا يزال سائق بأتيك مع (نى)

(٤) الاستنطاء هو قلب العين نونا كقولهم أنطى فى أعطى وكاب فى سعد .

(٥) الطمطمانية وكاب فى حمير هى لك لام العريف مميا كقولهم (طاب امهواء) فى طاب الهواء (وليس من اميراه صيام فى امسفر) فى لاس من البر الصيام فى السفر ، وهذا موجود فى فلاحى مصر فيقولون (امسارح) فى المارح .

(٦) الوثم هو قلب السين ناء نحو قولهم (الباب بالاب) فى الناس بالناس . ومارن كاب تطلب المم

ناء والباء مميا فيقولون (مات المير) فى مات المير .

أن يحاربوهم ولا يقبلوا منهم غير الاسلام . فساروا وألبوا في قتالهم بلاء حسناً ، وخصوصاً جيش خالد بن الوليد الذي كان له الفضل الاكبر في رجوع الناس الى الاسلام .

وبعد وفاة أبي بكر سار عمر على طريقه في تطهير بلاد العرب ممن كان على غير دين الاسلام ، لانهم أهل البلاد الذين هم عزها وبهم يكون خيرها وأشرها وبهم تكون سعادتها وأوشعها وتها . وسار على سنده من أتى بعده من الخلفاء الى اليوم . لذلك ترى الآن أهل الحرمين أنفسهم يبالغون في مراقبة الأجانب الذين يفدون الى بلادهم فلا يتعدى جدوة وينبع وصنعاء جنوباً ومحطة العلا شمالاً أحدهم الا جاب بالمرء وان فعل ما هو الا مورط بنفسه الى حتفه من أهل البلاد . ولذلك فان الأجانب من عمال السكة الحديدية الحجازية ما كانوا يغادرون هذه المحطة ، لجهة الجنوب ولول ضرورة .

أما أفراد العرنجة الذين قصدوا مكة أو المدينة في أزمنة مختلفة ، وكتبوا عنهما ما كتبوا على حسب نزعاتهم سياسية أو دنية أو عمرائية أو جغرافية ، انما كانوا يترجون بزي المسلمين بعد أن يعرفوا اللغة العربية ، ويدعون أنهم على الدين (١) الاسلامي ونحصر بالذكريتهم

(١) ولا أرى اتاناً لهذا الامر غير أن أذكر لك صورة الاعلام الشرعي الذي اسجرحه برتلون لنفسه من مكة (وكان سمي نفسه عبد الله بن النسر) أوهم فيه محرره أنه على دين الاسلام وقد أخذت صورة هذا الاعلام نافقاً وطوغرافياً ووضعت في صفحة ١٥٢ من كتابه الذي عناه (سياحتي الى مكة) وهاك هي نصها .

✽ باسم الله الرحمن الرحيم ✽

والصلاة والسلام على النبي البذل . القائل علماء أمتي كاسياء بني اسرائيل . عليه وعلى آله أجمعين .
ادوة العلماء الاعلام . وعمدة الفضلاء المحام . حلال المشكلات ومزيل المعصلات سداً
وأحيانا في الله الشيخ ابن دأكور حفظه الله آمين .

وبعد اهداء مرشد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقد ورد اليها من أراد الله له بالسعادة الديوية والاحرورة عبد الله بن النسر بدحو له في الاسلام فأمعنا النظر في حاله فوجدناه مؤمناً حقاً راعياً عاه الرعة في الاسلام . هذا ممن يلزمه الاعساء بشأنه من عرض أحكام الاسلام عليه وتعلمها له ولو كانت مدة حلوسه سبع ذلك لعلنا معه ما يكون سداً لكل خير ولكنه أسرع بالمسير فلم يزل كل من له رعة في الاسلام ان يقوم بشأنه من تعلم ما يحاج اليه وقد أشار لي بأن الرعة اليكم أكثر فترجى عني سعادتكم أن تقوموا بشأنه لآحرما الله وانكم من الاحر ودمتم في خير وسرور .

محمد عبد ابن المرحوم الشيخ حسن
معي المالكية

٧ ربيع الثاني

سنة ١٣١٢

بوركارا السويسرى ، و بورتون الانكليزى ، وهو رجس رنج الهولاندى ،
 وكورالمون الفرنساوى ، وأولهم هو أسبهم الى التورط بنفسه فى بلاد العرب . وبوركارا
 سويسرى الجنس لوزانى المولد (Lausanne) وفد الى مصر ودخل الازهر بعد أن
 ادعى الاسلامية وسمى نفسه ابراهيم المهدي ، وتعلم فيه العربية ثم سافر الى بلاد العرب
 وأقام بها نحو سبع سنين ، وكتب عنها كتابه الذى هو أحسن ما كتبه الفرنجة فيها خصوصا
 فى صفة بلاد العرب وقبائلها ، ومات فى مصر على زبد الاسلامى ، ودفن فى قراقة باب
 الفتوح بجوار قبعة الشيخ بونس ، ولا يزال قبره موجوداً بها ومكتوب على شاهد ترشيه
 هذه العبارة :

هو الباقي

- « هذا قبر المرحوم الى رحمه الله تعالى الشيخ ح »
- « ابراهيم المهدي بن عبد الله بوركهرب اللوراني تاريخ »
- « ولادته ١٠ محرم سنة ١١٩٩ وتاريخ وفاته الى رحمة »
- « الله بمصر المحروسة في ٢٦ دى المحقة سنة ١٢٣٢ هـ . »

ومن عوائد اشرف مكة ان كراءهم يرسلون أولادهم وهم فى نعومة أظفارهم الى البادية
 وخصوصا الى قبيلة عدوان التى توجد فى شرق الطائف وهى قريبة من سعد التى أرضع فيها
 رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدشئون فيها على البداوة التامة مع الأمية الصرفة حتى اذا
 ترعرعوا عادوا الى مكة وقد تعلموا بعض لغات القبائل وحفظوا من اشعارهم وأخذوا من
 عوائدهم وطبائعهم ، وأحسن ما رآه فيهم الفروسية والحريه فى المول والفعل وهذه العادة قديمه
 جدا فى القوم ، ومما يدكر عن الرشيد انه رأى ولده المعتقد وهو صبى يتأفف من الذهاب الى
 الكتاب فمنعه منه وأرسل به الى البادية فزال بها حتى عاد منها عارفا بلغتها عالما باخبارها حافظا
 لكثير من اشعارها وقدولى الخلافة وهو على أميته .

ومن عادة شريف مكة أن يجلس للحكم فى دار الامة كل يوم من الساعة الخامسة تنهارا
 الى قبيل العصر ، فتعرض عليه المسائل الهامة وهنالك يستعد الى التوجه الى الحرم فى ركبة

بسيطة فيصل إلى العصر، وكثيرا ما يجلس بالحرم حتى يصلى المغرب ثم يعود إلى قصره فيتناول العشاء مع من يريد من نبيه وخاصته وضيوفه .

ومن عادته أنه يجلس صباح يوم الجمعة في دار الأمانة للمقابلات، فيفد عليه والى وكبار الموظفين ثم أعيان مكة وجوهها، وبعد السلام عليه يذهبون إلى السلام على والى .
ومن عادته أن يصلى الجمعة في الحرم حتى إذا كان في الطائف ينزل منها في موكبه فيصل إليها فيه وبعد العصر يعود إلى مصيفه .

ومن عادة أهل مكة التألق في المأكول والمشرب واللباس، وتكثر في لباسهم الألوان الزاهية الباهية وخصوصا الأحمر والأخضر والأزرق والوردى . وترى في مساكنهم كثيرا من أدوات الزخرف والزينة والرياش الثمينة وخصوصا البسط العجمية النادرة المثال .
ومن عادتهم تقديم الشاي في أى وقت تحية للقدام عليهم ، وإقامة المآدب في حفلة يسمونها قيلة (لعلها آتية من الفيلولة) ويتناخرون بكثرة صنوف الطعام المتغايرة في شكلها وطعمها وليس لأطعمتهم نظام مخصوص فمنها الهندي والعربي والشامي والمصري والتركي .
وبعد المدعوون في هذه الولائم على سباط يمد على الأرض وتخدم عليهم الألوان لونا بعد آخر ، وبعد فراغهم من الطعام يجلسون للسمر أو سماع بعض الأغاني وآلات الطرب كالعود أو المايون أو الرباب ثم يصرفون . وعالبا تكون هذه الحفلات في ضواحي مكة كالزاهر والشهداء وهناك يكررون إليها ويقضون يومهم في سرور وحبور وألعاب رياضية كالمسابقة بالحرى أو ألعاب الكرة أو النرد أو الشطرنج مثلا .

ولأهل كل حارة من حارات مكة عادة مع أميرها: ذلك أن يجتمعوا ويدعوا الشريف إلى وليمة يقيمونها كل سنة في أحد منازلهم خارج مكة ، فدا قبل منهم ذلك عتبت يوم الوليمة وفيه يذهب مع خاصته الدين يدعوهم للتوجه معه في موكب نفيم تحرى أمامه خيالة الأعراب والبيشة ، والباش يهتفون له بنوهم دائما - (يعيش) حتى إذا وصل مكان الدعوة جلس مع من أراد . وفي وقت الغداء تمد الموائد على النظام الأفريقي والتركي والعربي ويجلس الشريف ويدعو خاصته للاكل معه ، وبعد الطعام تلعب الأعراب بألعاب الفر وسية : تارة

بالخارج وأخرى بالسيوف إلى آخر النهار . وبعد فترة من الليل يعود الشريف في موكة إلى مكة .

ومن عوائد أهل مكة أنهم يأكلون مرتين في اليوم : واحدة في نحو الساعة التاسعة صباحاً ، والأخرى بعد صلاة العصر . وهم يميلون إلى الأبهة والدخخة كثيراً ، ويعلم صغيرهم كبيرهم في التظاهر بالكرم والشجاعة ، خصوصاً في شهر رمضان . وقد كانوا يفترون في الحرم بعد صلاة المغرب ، فيمدون فيه الموائد هنا وهناك ، لا سيما في رمن الحر ، ولكن الشريف عون الرفيق أبطل هذه العادة (وحبراً فعل) : لأن فضلات الأكل كانت توسخ المسجد فتكثر فيه الحشرات والمططوع غيرها . ومن عوائد كثير منهم أنهم بشرطون وجبات صبياتهم ثلاث شرط في كل جهة . وسأؤهم يدحن بالترجيلة ، والزار يشوفين كثيراً ، وبعضهم يخرج إلى الأسواق عملاءه واسعة سوداء في الغالب ، وبرقع كثيف فيه فبان صغيران فيما بل العينين ، وفي أرحلهم أحفاف ضخمة لونها أصفر عالماً .

وأفراحهم وما آتاهم غاية في البساطة : ومن عوائدهم في زواجهم أنهم يدعون الأهل والمحمين مساءً ورحلاً ، فأتى الرجال ويجلسون في الأماكن المعدة لهم خارج البيت ، ووقت العشاء يمد لهم سباط مسنطيل يجلسون عليه جميعاً مرة واحدة فيأكلون ثم ينصرفون . أما النساء فمدخلن البيت فيجدن على باب قاعة الجلوس قصعة كبيرة مملوءة بمعجون الحناء ، فتحني المرافيد أمن يديها ثم تدخل إلى المكان وبعد السلام تجلس على هذه الحال مع باقي النسوة ، ولا يزالن يجادن أطراف الحديث إلى منتصف الليل ، وهناك يزفن العروس إلى عملها ، ثم يمدن إلى بيوتهن بعد أن يضعن في عنقها غفوداً كثيراً من زهر الفل أو تمر التفاح وهو في قدر البندق .

أما ما آتاهم : فعند موت الميت تصرح امرأة من أقرب الناس إليه صرخة واحدة أو صرختين إعلاناً بالمصيبة فتتوافد عليها النساء ، فيجدن قصعة الحناء بجوار قاعة الجلوس فتحني كل واحدة منهن يد أمن يديها ثم يدخلن القاعة ، وبعد أن يعزبن صاحبة الفقيد بكلمات قليلة يجلسن يأخذن في الحديث في شؤون محتلمة ثم ينصرفن . أما الميت

فيأخذه بعض أقاربه ويدفونه بغير احتفال كبير ، وبعد دفنه يتوارد الرجال على أهله فيعزونهم وينصرفون لوقتهم . ومن عوائدهم انهم يحتفلون احتفالاً كبيراً بختم أولادهم للقرآن الكريم ويسيرون بهم بموكب عظيم في طرق مكة . ويحتفلون في منتصف شهر صفر بمولد السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند مدفنها بالزاهر على مسافة نحو سبعة كيلومتر من مكة على طريق المدينة ، فينصبون خيامهم في تلك الصحراء ويتفاحرون بكثرة الطعام والشراب . ويحتفلون بمولد النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الاول . ويعبرون عن المولد بالحوّل : فيقولون حول ميمونة ، وحول النبي . وفي شهر رجب يحتفلون بزيارتهم للمدينة المنورة .

ومن عاداتهم الاصطياف في الطائف ويرتفع عن سطح البحر بمسافة ١٥٥٠ متر ، والهدى فوق جبال كرا ويرفع عن سطح البحر بمسافة ١٧٦٠ متر وفيه جنان كثيرة تحرى من تحتها الانهار فيها ما يشتهون من اثمار وأزهار . وأشهر مصيف في الطائف يسمى شراوهولا شراف ذوى عون أشاه الشريف عبدالله باشا وسماه باسم شرامصر ، ثم حدائق المنشاء وهي لذوى غالب : وهي أحسن حدائق الطائف ومشهورة بحوخها وعنبها ، وماؤها أعذب مياه تلك الجهة . وللطائف طريقان : طريق المافلة ^(١) ويبعد عن مكة نحو ٣٦ ساعة ، وطريق ^(٢) المغال على جبل كرا وهو على نحو نصف هذه المسافة . ومدينة الطائف ^(٣) مشهورة بطيب هوائها وليس أحسن منها الا جبل الهدى الذى يبعد

(١) مكة . بئر البارود (شمالى مى) . وادى اليمامة . السولة (وهي مدأ سوق عكاظى الحاهلية) . البية بدير . أم حمى . الحيم (القيم) . الطائف .

(٢) مكة . مى . عرقه . وادى سمار . وادى العمان (ومعه يندى بحرى عن ريدة) . تهوة شداد . وادى خرب الرأس . أبو حراجل . السكر . مجمع الدروب . عن المعسل الهدى (وفي جبل الهدى كثير من القرود الصغيرة والوحوش الصارية من سباع وغيرها) . وادى محرم (وهو يقات احرام أهل الشرف واليمن وحصر موت وعمان) . بئر السكر . الطائف .

(٣) ويحيط بالطائف سور عليه عدة أبراج أشهرها القلعة الى باها عثمان المصايب عامل الوهايين على الطائف ، وفيها يسجن المفقون الى الطائف من رجال الدولة العلية : وأشهر من سجن فيها ومات بها زمن السلطان عبدالحميد شيخ الاسلام خير الله أفندي (الذي أفى بجمع السلطان عبد العزيز) ، ومحمود باشا الداود (صهر السلطان عبد العزيز) ، وأحمد مدح باشا الشهير ناني الدستور .

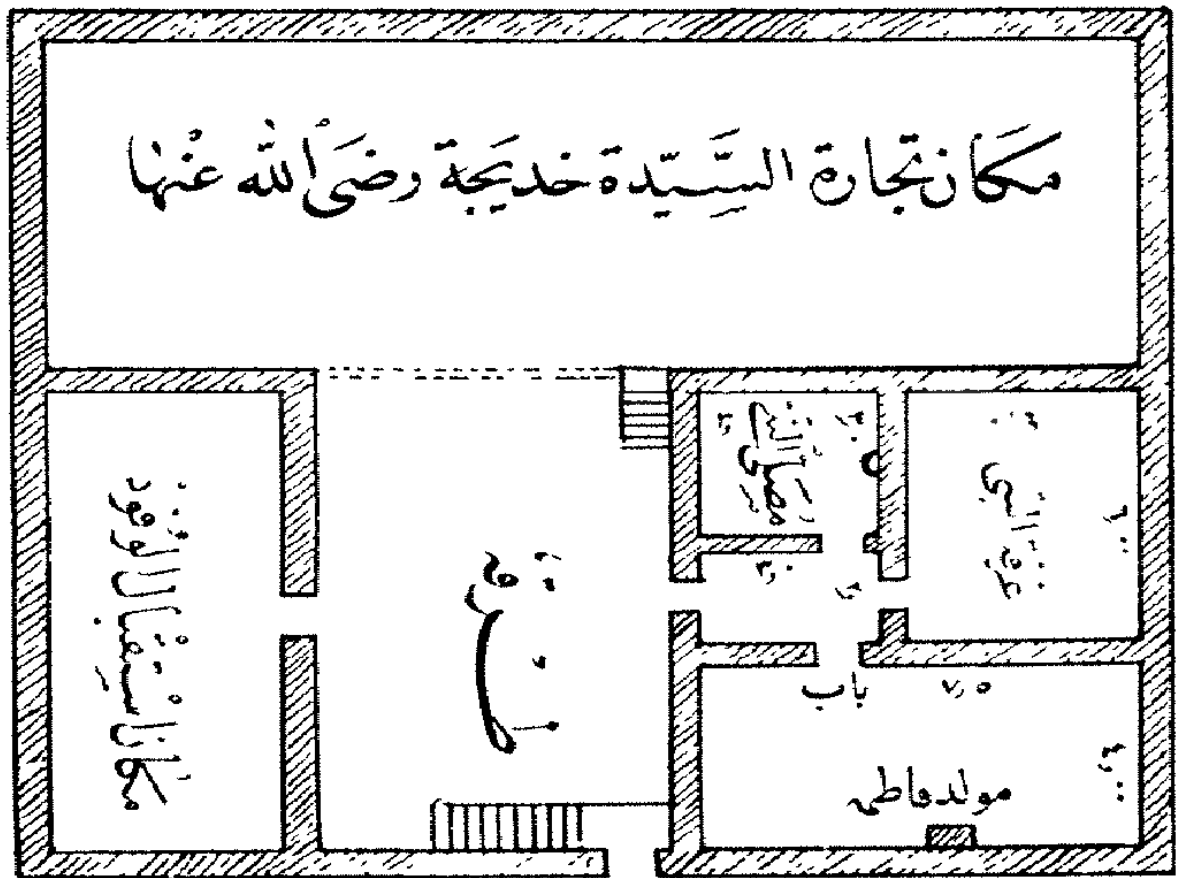
عنها نحو ثلاث ساعات الى مكة، وأهله مشهورون بجمال خلقهم وبعمومة بشرتهم وينسبون ذلك الى شربهم من نهر هناك يسمونه المعسل يبالغون في حلاوة طعمه . وفي الطائف قبر السيدين : الطاهر ، والطيب ، ولدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبر سيدنا عبد الله بن العباس ، ويقصد هذه اليمانيون لزيارتها قبل الموسم وله على الخصوص عندهم احترام كبير . وكان بها زمن الجاهلية معبد اللات والعزى ، وكانت تدين بهما تقيف وغيرهما من المبائل المخاوره للطائف . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب اليهم في أول نبوته وطلب منهم نصرته فأبوا عليه ذلك .

ويتخلف عن الحج كثير من أهل مكة ويفيمون فيها للمحافظة على دورهم من اللصوص الذين يكثرون في هذه الآونة فيقطعون ليلهم سهرأً بين اطلاق سادقهم من كل الجهات اعلانا بأنهم يفظون اكل من فصدهم بسوء .

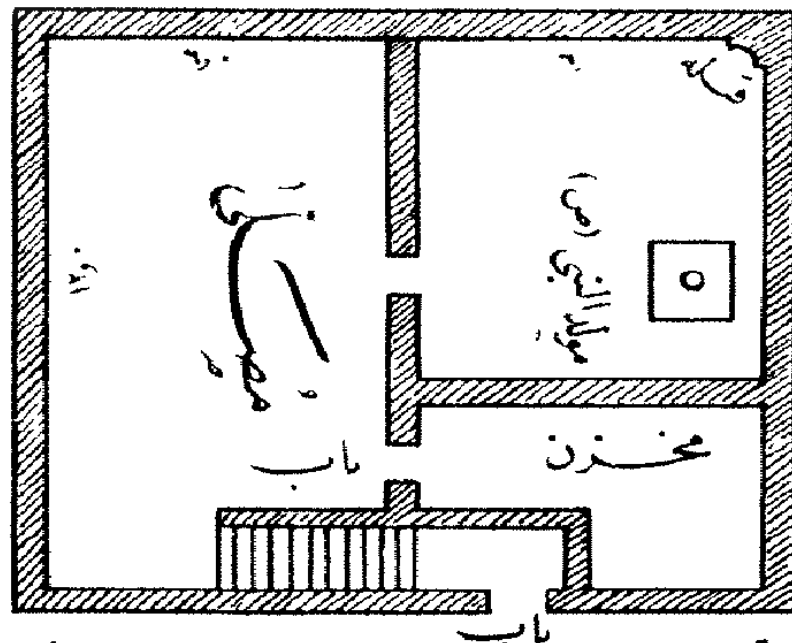
ويوجد بمكة وخارجها مزارات كثيرة منها مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد علي ، ومولد فاطمة ، ودار الخيزران .

أما مولد النبي صلى الله عليه وسلم فهو في شعب بني عامر أو شعب المولد : وهو مكان قد ارتفع الطريق عنه نحو متر ونصف ، ويزل اليه بواسطة درجات من الحجر توصل الى باب يمتدح الى الشمال يدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثني عشر متراً في عرض ستة أمتار ، وفي جداره الايمن (الغربي) باب يدخل منه الى فبة في وسطها (يميل الى الحائط الغربي) مغمور من الحشب ، داخلها رحامة قد فخرجوها لتعيين مولد السيد الرسول عليه الصلاة والسلام . وهذه القبة والفناء الذي خارجها لا يزد مسطحهما عن ثمانين متراً مربعاً ، وهما يكوّنان الدار التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان السيد الرسول وهدب هذه الدار لعفيل بن أبي طالب ، فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفي (أخى الحاج) ، فلما بنى داره

والداماد ومدح مدقوبان حاب نصهما فكان يقال له الجزيرة حرج السور على مسافة من باب سيدنا عبد الله بن العباس . وقد أقيم على مرها أحياناً قمة فحيمة سنة ١٣٢٧ وقرشت بالرياش التيمية بمعرفة شعبة جمعية الاتحاد والترقي بمكة .



رسم نظري تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)



رسم نظري تقريبي لمولد النبي (ص) اودار عبد الله بن عبد المطلب (بمكة)

المشهوره بدار ابن يوسف وكانت بجوارها أدخلها فيها ، حتى اشترتها الحيزران أم الرشيد وفصلتها وبنتها على ما كانت عليه وجعلتها مسجداً ، وهي باقية كذلك الى يومنا هذا .
ويفر من مولد النبي صلى الله عليه وسلم مولد سيدنا على رضى الله عنه وهو على شكل ساقه الا أنه أصغر منه .

أمام ولد السيدة فاطمة في درب الحجر : وهو دار خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها ولدت جميع أولادها منه . وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم كان يعمل في تجارتها الى الشام ثم اختارته لنفسها لما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال الصفات وصفات الكمال ، فتزوجها في سنة ٢٨ قبل الهجرة أعني قبل بعثته بخمس عشرة سنة . وماتت خديجة بمكة رضى الله عنها قبل الهجرة أربع سنين وهي في الرابعة والستين من عمرها . وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق أيضاً ، فيزل اليها بجملة درجات توصل الى طرقة ، على يسارها شبه مصطبة مرتفعة عن الارض نحو ثلاثين سنتيمتر ومسطحها نحو عشرة أمتار طولاً في أربعة عرضاً وفيها كتاب يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف ، وعلى عينيها باب صغير يصعد اليه بدرجتين يدخل منه الى طرفه ضيقة عرضها نحو مترين وفيها ثلاثة أبواب : الذي على اليسار لغرفة صغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طولاً في أقل منها عرضاً ، وهذا المكان كان معداً لعبادته صلى الله عليه وسلم ، وفيه كان ينزل الوحي عليه ، وعلى عين الداخل اليه مكان منخفض عن الأرض يقولون انه كان محل وضوءه عليه الصلاة والسلام . والباب الذي في قبالة الداخل الى الطرقة يفتح على مكان واسع يبلغ طوله نحو ستة أمتار في عرض أربعة ، وهو المكان الذي كان يسكنه صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة رضى الله عنها . أما الباب الذي على اليمين فهو لغرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار في طول نحو سبعة أمتار ونصف ، وفي وسطها صورة صغيرة أقيمت على المكان الذي ولدت فيه السيدة فاطمة رضى الله عنها ، وفي جدار هذه الغرفة الشرقي رف موضوع عليه قطعة من رحي قديمة يعملون انها من رحي السيدة فاطمة التي كانت تستعملها في حياتها . وعلى طول هذا المسكن والطرقة الخارجة والمصطبة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر متراً وعرضه نحو سبعة أمتار ، وأظن أنه المكان الذي كانت السيدة خديجة تحزن فيه تجارتها .

وهذه الدار التي كانت مقر آلہ صلى الله عليه وسلم ومحل اقامته في مكة ومبعثه الى الخلق كافة اذا انعمت بها نظرك وامنت فيها وكره لا رها الا البساطة بنفسها : دار تحتوى على أربع غرف ، ثلاث داخلية : منها واحدة لبناته ، والثانية له ولزوجه ، والثالثة له ولربه ، والرابعة بمزمل عندها ولعموم الناس . يا لله ما هذا الترتيب الحيل وما هذا النظام البديع ؛ بل ما هذه الآداب الكرى والسكالات الحيوية العظمى التي صيغت في شكل هذه البساطة المتناهيه ؛ تأمل قليلا تر أن هذا النظام هو بداته ما قضت به المدينة العصرية لولا أنه يعمل فيها بشكل تعددت صفاته وكثرت حاجياته ! هذه هي دار السيد الرسول الذي أرسل للناس كافة ؛ نعم هذا هو منزل هذا النبي الامي وذلك هو نظامه في بته : ذلك النظام الذي وان كان محردا عن مظاهر العظمة والفخامة فعدا كنسى محلى الحلال والكمال ' اللهم انى آمنت بك وبرسولك هذا الذي لم يتحد دينك وسيلة الى عيش الا غنياء وحياة العظماء ، بل كان حسبه من عيشه ما كان يقوم بحياته التي إما كانت كلها خيرا أو بركة و غنا وسعادة للناس أجمعين .

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم الى المدينة استولى على هذه الدار عفيف بن أبى طالب ، ثم اشتراها منه معاوية بن أبى سفيان فجعلها مسجداً ، وعمرت في زمن الناصر العباسي . وقد وضع في حائط الطرقة الخارجية على يسار الداخل لوح من الرخام مكتوب عليه بالحروف البارزة : « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمار مر يد مولد الرءاء البتول فاطمة سيدة نساء العالمين بنت الرسول محمد المصطفى المختار صلى الله عليه وعلى آله وسلم سيدنا ومولانا الامام المفترض للطاعة على الخلق أجمعين ، الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، أعز الله أبصاره ، وضاعف اوقداره ، وجعل منافعه ومشغلاته وأجره عائد على مصالحه ثم على مصالح هذا الامام الشريف الممدس الطاهر النبوى ، على ما يرى الناظر المتولى له في ذلك من الحظ الوافر ، والمصلحة لهذا المار بدوا مولد المقدس المذكور بعد ذلك ابتغاء وجه الله تعالى » طبعا الثواب الدار الآخرة . تفعل الله ذلك منه وجزاه عليه أجر المحسنين . وذلك على يد العبد الفقير الى رحمة الله تعالى على بن أبى البركات الدوراني الأبارى في سنة أربع وستين ومائة ومن غير ذلك أو بدله عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين الى يوم الدين آمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آل الطاهرين .

ثم عمرها بعد ذلك إلا شرف شعبان ملك مصر ثم الملك المظفر صاحب اليمن ثم السلطان سليمان في سنة ٩٣٥ .

أما دار الأرقم المخزومي المشهورة بدار الخيزران فهي في زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا : وهي الدار التي كان يحتج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر بعثته هو ومن آمن معه ، وكانوا يصلون بها سراً حتى أسلم عمر رضي الله عنه فقويت به عصيتهم وجهروا بالاسلام والصلاة . وباب هذه الدار يفتح إلى الشرق ويدخل منه إلى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار في عرض أربعة ، وعلى يسارها ليوان مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار ، وفي وسط الحائط التي على يمينها باب يدخل منه إلى غرفة طولها ثمانية أمتار في عرض نحو نصف ذلك مهر وشة الخصير وفي زاويتها الشرقية الحنوية حجران من الصوان موضوعان فوق بعضهما مكتوب في أعلاه ما بالحرف البارز « بسم الله الرحمن الرحيم في بيوت أدن الله أن ترفع ويدكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران وفيها مبتدأ الاسلام أمر بتجديده الفقير إلى مولاه أمين الملك مصباح انتفاء ثواب الله ورسوله ولا يضيع أجر المحسنين » . ومكتوب في الثاني : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا مختبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروف بدار الخيزران أمر بعمله واشأته العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الاسلام أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الاصفهاني وزير الشام والموصل الطالب الوصول إلى الله تعالى الراجي لرحمته أطال الله في الطاعة هاه وأباله في الدارين مناه في سنة خمس وخمسين وخمسمائة » .

ومن الأماكن المقدسة عار حراء : وهو الغار الذي كان يتعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، ومساحته تقرب من ثلاثة أمتار في مترين ، ويوجد في قمة جبل النور الذي على يسار السالك إلى عرفة ، وفيه نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم لأول مرة . ثم جبل ثور وهو إلى الجنوب من جهة المسفلة وعلى ساعتين منها ، وفيه الغار الذي اختفى فيه رسول الله مع صاحبه أبي بكر حين قصد الهجرة إلى المدينة ، ومساحته نحو مترين مربعين . ثم المعلى . وهي مقبرة مكة وتوجد خارج بابها الشرقي ، وفيها ضريح السيدة خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وهو داخل قبة تجددت سنة ١٢٩٨ ، وفي القبة مقصورة من خشب الجوز



مباني المعاليمة المكرمة في حيا ونا السيرة ولسنة
على اياما قوا عجب الطول والارث في حيا من وفتها

أقيمت على قبرها الشريف، وإلى جانبها مقصورة صغيرة مدفون فيها ستة عشر شخصاً من الأشراف . وحارج هذه القبة إلى الغرب قبر السيدة الكبيرة حرم ساكن الجنان محمد علي باشا، وكانت قد أتت إلى الحج سنة ١٢٦٦ هـ ماتت ودفنت بهذا المكان . وقباله قبة السيدة خديجة إلى الجنوب قبة السيدة آمنة ^(١) بنت وهب والد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبحوارها مقصورة دفن فيها الشريف محمد بن عون . وفي شمالها قبة أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وبحوارها قبة جده عبد المطلب، وكلتاهما تحددتا في سنة ١٣٢٥ هـ . وفي هذه الفرافة قبر سيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وكانت له قبة هدمها الشريف عون الرقيق فيما هدم ولم تشيد بعد، وفيها قبر أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين وكان قد حضر إلى مكة حاجاً في سنة ١٥٨ هـ مات ودفن بالمعلى ولا يعرف مكانه . وفيها غير ذلك كثير من قبور الصحابة والتابعين والصالحين رضوان الله عليهم .

ومن المزارات بمكة أيضاً مسجد الحن، ومسجد الراية، ومسجد الاجابة، ومسجد البيعة، ومسجد أنى نكر، ومسجد عمر، ثم جبل أبي فريس وفيه مسجد بلال، ومسجد الشقاق النمر، وزاوية السنوسي ^(٢) الذي له في الحجاز شأن كبير ومقام خطير ومعظم الأعراب على شيعته .

(١) ذكر ياقوت في معجمه أن آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم دفنت بالأنواء وهي قرية من أعمال الرمح من المدينة، بينها وبين الحجة مائتي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً . والسبب في دفنها هناك أن عبد الله والد الرسول كان حرج إلى المدينة فمات ودفن بها . وكانت في كل عام تخرج إلى المدينة لزيارة قبره، ولما أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب سبب خرب راثرة له وممها عبد المطلب وأم أيمن حاصلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صارت بالأنواء مصرفة إلى مكة ماتت ودفنت بها .

(٢) أهالي مكة أغلبهم على طرقة السنوسية، وكثير منهم على طريقة يسمونها الرشدية وهم أتباع الشيخ إبراهيم الرشدي، والادريسيه وهم اتباع الشيخ أحمد بن إدريس، والمرغية وهي شائعة في السودان ومصر .

وفي مكة مكان للتغراف والبوستة بناه المرحوم عثمان باشا نوري عند بنائه لدار الحكومة (الحميدية) وغيرهما منذ كان والياً عليها لأول مرة سنة ١٨٨٢ ميلادية . والتغراف في هذه المدينة لا نظام فيه للمرة لعدم وصول غالب الاشارات التي ترسل من وإلى أربابها ! ولعل ذلك ناشئ من كثرة الاعمال في زمن الحج : أما البوستة فشئ لا نظير له للمرة في بوسطات العالم : فان المكاتب تحضر في زمن الموسم من جدة الى مكة على الحال في عدة زكايب ، فتلقى في طريقة مكتب البوستة الضيعة ، ويأتي المطوفون أو صبيانهم أو الحجاج أنفسهم فيفررونها ويأخذ كل ما يعثر عليه صدقة باسمه أو باسم معارفه ، وعليه فاعلم الخطابان لا تصل الى أربابها . وأظن أن هذا النظام أو النظام لا مبرر له للمرة ، لأن الحكومة العثمانية في استطاعتها أن تكثّر من عمال البوستة في موسم الحج وإذا فرضنا أنها عيت بصفة ظهورات عشرين عاملاً لهرز هذه المكاتب مدة الموسم وتوزعها على أربابها فلا يكلفها ذلك شيئاً يذكر . ولو قلنا ان الزمن الماضي كان زمن فوضى لا نظام له قلنا لا يمكن أن نقول هذه الكلمة في الحكومة الحاضرة ، وإن أمكننا فلا نحب أن نقولها . وليست هذه الحال خاصة بمكة ، بل تراها بالمدينة وينبع وجدة ، وعليه فارجو من حكومة الحجار العناية بتنظيم البوستة قياماً بواجب رد الامانات الى أهلها حتى لا تضيع الفائدة المقصودة منها .

وفي شوارع مكة كثير من المهاوى البلدية التي ترى في دوائرها دكا وكراسي من الخشب مقاعد هامة مصنوعة من شبكة من الليف أو الخوص المجدول وأحسنها في جهة جياد ، فيجلس عليها المجاح وخصوصاً فيما كان منها خارج البلد مدده الصيف ، ويشربون منها الشاي (ويسمونه الشاهي) ^(١) والقهوة ^(٢) والرجيلة التي يجيئونها بالتبأك الحمي عادة لكثرة استعماله هناك . ولقد رأيت بعض الهنود يمر على هذه المهاوى وهو ينادي قائلاً « كابوس

(١) وأظن ان هذه الكلمة نسبة الى شاه الفرس لاسعماله هذا الشراب كقولهم شراب ملوكي مثلاً وربما أتى من هذه النسبة اسم ذلك القماش الحريري المشهور « شاهي » .
(٢) القهوة عندهم من الشاي المسمى ، وكبرائهم يصيغون عنها كثيراً من المسهب مثل الجهان والقرنفل وبعض المطريات مما يحمل لها سكهة لطيفة جداً ويسمونها دوش ومن أعني البدو: يادوش ما اسمك دوش اسمك دواء لكل كد عليه .

كابوس» (مكبساتي) ، فاذا استدعاه أحد من فيها فرشه على دكة وأخذ يكسه بمهارة فائقة نحو نصف ساعة على الأقل في نظير قرش أو قرشين . ويقرب من هذه القهواوى عادة سوامر يوم فيها بعض أناس في الغالب من النمايين يتغنون بأغنية جميلة تطرب منها النفوس وكلها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم . وفي بعض الأحيان ترى هؤلاء المغنين متنقلين في طرق مكة .

وفي مكة ثلاث تكايا أو كرها وأخرها وأنظمها وأكثرها مورياً التكية المصرية : وهي بناء فخيم شيده المرحوم محمد علي باشا جد العائلة الكريمة الخديوية في مكان دار السعادة التي كانت محل حكومة بنى زيد من الأشراف ، كما كانت دار الهناء محل حكومة بنى بركات وكانت توجد مكان دار الشريف أنى عى تجاه باب الوداع . وفي هذه التكية محازن وطاحونة ومحبر ومطبخ ومكان نظيف منظم لحضرة مديرها وأمكنة لمستخدميها ، ويطبخ بها يومياً الشوربه للعفراء والمورين الذين يهدون الى بابها صاحبها لخذها مع ما هو مرب لهم من الخبز الذى تقوم به حياتهم و يبلغ عددهم يومياً نحو خمسمائة شخص أو يزيدون (١) .

وفي مكة فلعمنان تحيطان على المدينة ويسكن بهما عساكر الدولة ، وهما قلعة جيا دالتى بناها الشريف سرور سنة ١١٩٦ هجرية في الجهة الجنوبية ، وقلعة الهندى التى بناها الشريف غالب سنة ١٢٢١ في الجهة الشمالية . وفيها حمامان على مثال الحمامات الرومية بمصر : واحد بالعمرة بنائه محمد باشا وزير السلطان سليمان سنة ٩٨٠ هـ ، والثانى بالقشاشية ويسمونه حمام النبي . وهما مطبعة للولايه وتسمى باسمها . ويصدر فيها جريدته بالتركية والعربية اسمها (حجاز) وهي شبيهة بالرسمية وكل ما فيها تقريباً يتعلق باخبار الحكومة واعلامها .

وليس في مكة كتب حانات تذكر اللهم الا كتب حانه بسيطة في باب أم هانئ تسمى كتب حانه شروانى زاده محمد رشدى باشا والى الحجاز سابقاً ، وأخرى في باب الدُرَّيبَة قرب

(١) وهذا العدد يزداد حسب شرط الواجب في هذه الحج الى ثلاثه أصعافه ، على انه ربما يقصد التكية من الفقراء في الموسم ما يريد عن ذلك كثيراً لأنها أعظم ملجأ للناس في مكة ولو كانت ادارته أرواف الحرمين تريد في ميرانية هذه التكية ولو في مدة الحج كان ذلك من خير أعمالها .

باب السلام تسمى بالكتبخانة السلطانية ، أسسها السلطان عبد المجيد وكونها من
شئات كتب الحرم وغيرها مما أرسله اليها من الاستاتة . واكل كتبخانة من هاتين
فهرست بخط اليد ومفسر يوم بشؤونها . والكتب التي بهما محوية وفهية وأدبية وتاريخية
وعالها باللغة العربية وفيها شئ بالفارسية والاوردية (الهندي) والتركية والجاوية (لغة الملايو) .
وفدكان بمكة كتب كثيرة مهمة وكانت موضوعة في دواليب في دائر حائط الحرم ،
سرق بعضها والسيول التي أغرقت المسجد وخصوصاً في سنة ١٧٤٤ صعدت الى هذه
الخزائن وأتلفت منها شيئاً كثيراً ، وكان في ذلك أكرم مصيبة على العلم والعلماء لاهم
ومدواها مالا يصلحه الزمان ولا يعوضه الاسان .

وفيها مدرستان المدرسة الصولية ، بناها المرحوم الشيخ رحمة الله الهدي الشهير
(صاحب كتاب اطهار الحق) ، ويدرس فيها القرآن الشريف وعلم التجويد وشئ من اللغة
العربية والاعمال الحسابية والهندسية ، ويصرف عليها من تبرعات أهل الهند ، وهو أمر
لائت له ولا ندوم معه حياة مدرسة نافعة مثلها : لذلك أخذت في الانحطاط ، والامل
في حكومة الحجار الموض بها و أمثالها . ثم المدرسة التي يومها حضرة الاستاد الفاضل
الشيخ يوسف محمد الحياط ، وهو من علماء مكة الامثال ، ويدرس فيها ما يدرس في الاولى
بنوسعة ، وعمايه مولا بالامير بها كبيرة ولدك فالامل في نجاحها عظيم . واقدرأت بعدد
٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٨ من جريدة المفيد الغراء بملا عن جريدة صباح أن الحكومة
العمانية افتتحت مدرسة بمكة المكرمة محضـور والوالى والشرىف وحمهور من الوجهاء
والاعيان فعسى أن يكون فيها الخير المرجو لأم القرى بل لأم العواصم الاسلامية .

ولو كان مولا بالامير يفضى بان يتخرج المطوفون من مدرسة مخصوصة يدرسون فيها
ما هو خاص بوظيفتهم لكان في ذلك أكر خدمة دينية ، لان جل الموجود منهم الآن يجهل
مأمورينه الكرى . وليت بعضهم يقف عندها الحد بل يلتقى في دهن الحاح ما ليس من الدين
في شئ كسأله الكنفاني والزلباني مثلاً : وهما حجران في طريق جعدة الى بحرة يزعمون أن
واحد منهما كان كنفانيا والآخر كان زلبانيا وكانا يغشان الحجاج مسحهما الله حجرين !!

ومسأله الناقة والحجام والحجامة بجبل عمر : ذلك أن هناك صخرة تشبه ناقة باركة وإلى جوارها حجران زعمون أن النبي كان هذا المكان يناقته فأى رجل حجج مع امرأته وامسك بالناقة التي لم تنهض برسول الله صلى الله عليه وسلم فمسخها الله معهم على هذه الصورة !! ومسأله سارق الصندوق وهو صخرة إلى جهة جبل النور تنفرت من صورة رجل يحمل صندوقاً يزعمون أنه كان سارقاً له فمسخه الله عليها !! وأمثال هذا كثير مما تحجب العناية بآلته خدمة للدين المتين . والادعى من ذلك أنهم يحرفون الفاظ القرآن الكريم عمداً أثناء الطواف ، بتهخيمهم مالا يحوز تفخيمه أو ترقيمهم مالا يصبح ترفيقه ، بل منهم من يقلب الحرف ما آخر لتفر يبه إلى نطق السامع إن كان تركياً أو هندياً أو فارسياً ، فيقولون مثلاً « وكما عذاب النار » في قوله تعالى « وفاء عذاب النار » و « مه مد رسول الله » في محمد رسول الله و « يأرهم الراحمين » في يأرحم الراحمين و « اللوهم » في اللهم وبحمدك ممالا يحوز شرعاً ولا اجتماعاً .

ويدرس في الحرم الشريف بعض العلوم العربية والتفسير على الطريقة المدعية العفوية ، ويقدر عدد الطلبة ببضع مئات جلهم من الجاهل الذين يغفرون إلى هذه البلاد من المظالم التي تتساقط على رؤوسهم من حكومة الادهم ، فتراهم يشغلون وقت الدرس في الدراسة ووقت القضاء منها يعملون فيه عملاً ينوم بحياتهم .

ويبلغ عدد المدرسين العاملين نحو الثلاثين ، وعنايتهم بالتعليم قليلة جداً ، وذلك لانه لا موارد الارزاق ولان مرتباتهم التي تصرف لهم من طرف الدولة لا تهمهم ، لأنها تختلف من مائة إلى خمسمائة قرش غنائى سمويًا . ولما في الحكومة الحديثة ، حكومة الدستور ، حكومة العلم ، حكومة العمل ، وفي كبرهمة دولة السريف عظيم الامل في اسمال حال العلم بهذه البلاد في زمن قرب إلى حال هيد القوم في دينهم وديارهم .

وتجارة هذا البلد كلها أو جلها في يد الاعراب خصوصاً الهنود ، وعالمها من صنف العطريات والسبع والسجاجيد والامشة الحريريه الهنديه والشاميه . والصناعة فيها غير مهمة وهي لا تخرج عن صياغة بعض قطع ذهبية أو فضية وخصوصاً في عمل الدبل التي يدعون

منفعها للبواسير شفاهاً الله ! ! والحدادة عندهم بسيطة جداً ولكن هادقة في عمل الأسلحة وفيها من المصانع فاحورة لعمل الدوارق والعلل وكل ذلك في يد الأجاب أيضاً . أما الاهالى فأغلبهم يعيش من مهنة التطويف أو التظاهر بالشعار الدينى ، ولا تروج تجارتهم الا زمن الحج ، وما يأتىهم فيه من رزق يعيشون منه طول عامهم . غير أن كثير أمهم يرحلون مكة بعد الموسم الى الجهات التى بها أناس ممن سميت معرفتهم بهم فى الحج ، فيفدون عليهم ببعض الهدايا ثم يعودون وقد أخذوا أضعاف ثمنها منهم .

والتقود التى تسنعمل فى مكة هى النفود التركية والمصرية فضية أو ذهبية ، والروسيّة والفروش الهندية والريال الشينكو وأبوطيره والريال الترم^(١) (الحاوى) وهو على أشكال مختلفة ، والحنية الانجليزية والفرنساوى والروسى . وليس لهذه النفود قيمة ثابتة هناك ، بل راهم يستعملونها على الدوام فى مصالحتهم ، ف يأخذونها منك بأقل من قيمتهاو يعطونها لك بأكثر مما تساوى ، وهذا عيب كبير من عيوب المعاملات ! ! ولعل أرباب الأمر والنهى يجتهدون فى إزالته فريباً . والريال أبوطيره هو أكثر النفود استعمالاً عند الأعراب وفيتمه عندهم كالريال الشينكو والمصرى . ومما ياسب ذكره هنا أى أعطيت مره قطعة من النفود ممسوحة قليلا الى طفل صغير أعراى فردها الى قائلها هذه رطاء : وهى كلمة بدوية صرفة كان لها وقع عظيم على سمعى ' والأعراب لا يعرفون قيمة هذه النفود ، وإذا وجد معهم شىء منها يتوجهون به الى التاجر ويقولون له « سوّبهده من الصنف الفلانى على أمانتك » ، ولا تهمهم جودة الصنف بل تهمهم الكثرة منه .

وأسواق مكة كثيرة : منها سوق الشامية فى شمال الحرم وهى أشبه سىء بالأسواق التركية ولها سقف من الخشب على مثال الخان الخليلى بمصر لولا أن شوارعها أضيق ، وهذه السوق بضيق بالمارين خصوصاً عند مرور الجمال بها . وفيها يبيعون السبع والأقمشة الهندية والتركية وغيرها ، وفيها كثير من المصوص الفيروز والياقوت والعقيق الذى يبيعه

(١) هذا الريال صرت باسم شركة هولندية ومع عدم استعماله فليرال ذكره يرد في أموال بعض الذين يشهدون بشيدهم (أدبانية) « شرم رىم حالى عدان » .

على الخصوص حجاج اليمن في شوارع المدينة بأثمان رخيصة جداً .
ثم السوق الصغير وهو تجاه باب إبراهيم وأغلب ما فيه للغذاء ، كالحبز واللحوم والبقول الجافة
والخضر التي يؤتى بها من الودية المحيطة بمكة كوادى فاطمة شمالاً ، ووادى الليمون شرقاً ،
ووادى العبيدية (العبادية) والحسينية جنوباً . وكثير من هذه الخضريات يؤتى مع القمح من جهة
الطائف وجبال كراء ، وفي هذه السوق دكاكين كثيرة يبيعون فيها الأسماك المملحة التي يؤتى بها
من جدة ، وهي في الغالب مضرّة جداً بالصحة لتعقمها من الحرارة وطول زمن البهل . وفي
شرق المسجد سوق الليل وهي سوق كثره محلاطة فيها جميع احتياجات الحاج . وفي كل هذه
الأسواق ترى مدة الموسم حركة لا تفتطع يأتى من ورائها ربح عظيم لأهل البلد . ومدار حركة
الأشغال الشاقة في مكة على العبيد منهم الحمالون والخطّانون والحمارون والجمالون والسفّاءون
والخدامون . ولفد كان للرقيق بمكة سوق كبير أخذ أمرها ينحى شيئاً فشيئاً حتى كاد
لا يكون له أثر بالمرّة . وكانوا يسمون المسكان الذي يبيعونه فيه بالدكاكين كان في حوشه دكة
يُحْسِنون عليها ما يراد بيعه منه .

ومهدد المناسبة أقول ان ما يصرفه الحجاج بمكة ليس بالشىء الذى يستهان به ، لأننا اذا
فرضنا أن متوسط عددهم يبلغ سنوياً مائتي ألف نفس ، وأن متوسط ما يصرفه الواحد
منهم مده اقامته بمكة خمس جنيهات ، فيكون مجموع ما يصرفه الحجاج في مكة على أقل مدير
مليوناً من الجنيهات في نحو شهر من الرمان : في أجرة مسكن وبعض المأكل وأجره مطوف
وزمزمى وبعض هدايا يشتريها للدوية وأهله . ومع هذا كدفاً بعض أهالى مكة لا ينظرون
الى الحاج (قطع النظر عن كونه ضيف الله وفي بلد الحرام) بالعين التي يحب عليهم أن ينظروا
بها . وعلى الأقل من الجهة الاقتصادية التي هي مصدر حياتهم . لأنهم مع احترامهم له يسيئون
معاملته ويرون في ماله كلاً مباحاً لهم ، ويتقوّلون في ذلك الاحاديث التي لا يخرج معناها
عن قولهم « الحاج رزق لأهل الحرمين ورزق الحاج على الله » ! ولعل هذه المعاملة السيئة
كانت في ذلك الزمن السيئ زمن الاستبداد الذى كان المطوّفون فيه يوفقون أغنياء الحجاج
في سوق المرابذة ، حتى يرسوا أمرهم على أيهم يتولى شؤونهم ، كما حصل لبعض سراه

المصريين في سنة ١٣٢٦ ولا حول ولا قوة الا بالله !!

وجو مكة كثير الحرارة قليل الامطار ، ومع ذلك ففند تحصل فيه سيول كثيرة من الأمطار التي نزل بكثرة في الجبال العالية المحيطة بالطائف . وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمل في شمال مكة قناطر لحزمياه هذه السيول عن هذه المدينة ، وابصرافها من الجهة الشرقية نحو المسفلة الى خزان كبير في الجهة الجنوبية يسمونه بركة الماجن ، وهناك تستعمل للأعمال الزراعية . ولا تزال لهذه السيول أضرار جسيمة بمكة ومبايها .

وأهواء مكة تختلف في هبوبها جملة مرات في الساعة الواحدة . ولهذا يقول المكيون « إن الله خلق سبعين هواء جعل منها في مكة سعاء وستين وفي العالم كله هواء واحد » : ذلك لأن الهواء يدور في جو المدينة بين جبالها المحذقة بها كما تدور الدوامة على سطح الماء . فيينا تراد يدخل الى المساكن من المنافذ الغربية اذ ابيه انقطع عنها ودخل من الشرفيه أو الشمالية أو الجنوبية وهكذا ، ولذلك تجدد مساكنهم كثيره الوافذوعالبا الى الجهات الاربع حتى لا تحرم من الهواء من أى جهة كان . والهواء المحرى عندهم وهو الغربى أحسنها وألطفها لانه يأتي من جهته البحر ، ثم هواء الشام و يسمونه الشمال والشمال ، أما الجنوبى والشرقى فهما حارا .

ويفسد هواء مكة في أيام الحج لكثرة الساكنين فيها وعدم العناية بنظافتها ، وتكثر فيها زمن الشتاء أمراض الصدر و يمد فيها التدرن الرئوى ، وفي زمن الصيف تكثر الاحتفانات الدماغية وضربات الشمس وأمراض العين والكبد والجهاز الهضمى والدوسنتاريا خصوصاً بين الاطفال و يسببها عندهم أكل السمك العفن والقوا كد الغير باضجة ، وفي زمن الحر تكثر فيهم الحميات لاسيما عند فساد مياه الشرب ، ويكثر فيهم مرض الحدرى ويموت بسببه سنويا أكثر من اثنين فى الالف . ومما يحذر نادره ان الكوليرا لم تظهر في مكة الا سنة ست وأربعين ومائتين وألف هجرة أى في نحو سنة ١٨٢٥ ميلادية ، وفدت اليها مع حجاج الهند ولا تزال تمسك اليها معهم . ولو كانت الحكومة تعتنى

اشدة الحجر على حجاج الهندود والحاوہ فی جزیرة فمران^(١) فبل دخولهم الى جدة بزمن لامكسها الحيلولة بين حجاج بيت الله الحرام وهذا الداء الويل . والا وثمة الكبيرة التي حصلت بمكة في زمن الحج وفتكت بالحجاج فتكاد ريعاً كانت في سنة ١٨٩٠ ميلاديه وسنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٥ وسنة ١٩٠٢ وفي مكة مستشفى معروف الآن باسم شفيخانه الحاصكية وهو من خيرات حاصكي سلطان روجه السلطان سليمان العانوني . وفيها أربع أجزا حانات : اثنتان في طريق المسعى و واحدة في مصلحة الصحة بحيا دار الراحعة أشبه شيء بكان عطارة بسيطة فيها من الادوية ما فسد عالبه وأصبح ضرره أكثر من نفعه وعلى كل حال فالعمايه بالمسائل الصحية بمكة فابلتجداً . لأن تقتهم بالطب المديم الذي مداره على الكي والفصد والحمية الشديدة وبعض أصناف العطارة الشرقية كالمر والصبر أكثر من نفعهم بالطب الحديث .

وود كان الحباب العالي الحديوي حنطه الله وكر في إيجاد مستشفى بمكة ورتب له طبيباً وأجرا جياً فلم يتيسر لهما القيام بمأمور بينهما واكتفى الحال مؤقتاً بالخدم التي تقوم بها مأموريه الأوقاف الصحية زمن الحج ومقرها فيها يكون في التكية المصرية والحق يقال ان لها أثر ايد كرويشكر . ومصاريف هذه المأموريه تبلغ سنوياً فوق السبع مائة جنيه مصري ومع هذا فالأسمى الخدم التي تقوم بها مأموريه الحمل المصري الصحية لعامة الحجاج لا فرق بين مصري وغيره .

وأهل مكة يشربون من ماء الآبار التي فيها مثل زمزم أو التي في ضواحيها كالأزهر والعسقلاني والحرارة وغيرها، أو من الصهاريج التي تملأ من مياه المطر أو ماء الينابيع، أو من عين زبيدة التي يجري ماؤها الى المدينة في قنوات تحت الأرض لها خزانات في شوارعها

(١) جزيرة فمران وامة في البحر الأحمر شمال الحديدة بمسافة أربعين ميلاً وعلى مسافة ٤٨٠ ميلاً من جدة . وفيها أحدية كثيرة ينسأ الدولة العلية بحيث أصبحت وافية بالمرص المقصود منها . ولو كانت الدولة لا تدع الهود والحاوہ يدخلون الى ميناء جدة الا اذا كان معهم حوار بطيف من فمران لكان ذلك أنفع للاد هابل للاد العالم بأسره ولا كمن المسامون ما تلصقه الافريح بمكة من انها ثورة الاوثة التي تغشى في ملاد العالم سامحهم الله .

علاؤها منها السعائون ووربهم . وهذه العين لها أهمية عظيمة جداً وهي من أجل الآثار التي تنسب إلى السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد رضي الله عنهما . وكان السبب في إنشائها أن هذه السيدة البارة رأت في حجبها ما كان ينال أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من العناء الشديد والاهوال الكثيرة لقلة الماء في تلك الأحياء ، فأمرت رحمها الله بأجراء الماء إلى أم الفري من عين حنين التي توجد فيما وراء عرفة إلى جهة الشمال الشرقي ، على مسافة نحو خمسة وثلاثين كيلومتراً من مكة . وهذه العين تخرج من جبال طاد وسير في وادي حنين الذي حصلت فيه (سنة ٨ للهجرة بعد فتح مكة) تلك الواقعة المشهورة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من هوازن ونقيف ، ولبت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم نبأاً عظيماً ، كما أبلى المسلمون فيها بلاءاً حسناً . وفيها قتل دريد بن الصمة وهو من أكرر رجال الحاهلية المشهورين ، فقتله رجل من المسلمين يسمى ربيعة بن رفيع السلمي .

وقد اهتمت زبيدة بهذا العمل الحليل اهتماماً كبيراً وأرسلت إليه العمال من جميع الأطراف ، فسوا لهذا الماء محرى عظيماً وأوصلوا به محرى آخر من وادي النعمان من الماء الذي ينزل إليه من جبال كرا التي تبعد عن عرفات شرقاً إلى الجنوب نحو عشرين كيلومتراً ، وسبروا إليه سبع قموات أخرى من الجهات التي تسقط إليها السيول حتى تساعد ماء المحرى الأصلي الذي عندما وصل إلى جنوب ممي نفرل في الصخر خراخراً كبيراً يصب فيه يسمى زبيدة ، ومنه سببت قيادة إلى مكة . ومن هذا المحرى امتد فرعان : واحد إلى عرفات ، والآخر إلى مسجد نمرية يسير الماء فيهما من الحج .

وفي نهاية القرن السابع الهجري طم محرى هذه العين ونهدمت قناتها وانقطع مأوها عن المدينة ونال الناس من جراء ذلك جهداً عظيماً . ودكر الفاكهي في تاريخ مكة أن الأمير جويان « نائب السلطنة بالعراق عن السلطان أبي سعيد بن خريز » (لعله خداسده) ملك التتار « أراد أن يعمل عملاً نافعاً في أم الفري فطلب إليه أن يعمر عين زبيدة ، فأرسل رجلاً من خاصته اسمه بازان لتعميرها فأتى في سنة ٧٢٦ وفيها جرت مياه العين إلى سفائيتها التي بناها في المسمى وسماها باسمه و يظهر أن هذا الاسم تغلب على باقي السفائيات التي بمكة حتى صار يطلق على كل واحدة منها

اسم بازان الى الآن .

وما زالت هذه العين حياة لاهل البلد الحرام وحجاج بيت الله المعظم حتى أهمل شأنها وتهدم بنيانها وانقطعت مياهها مرة أخرى فيما بين سنتي ٩٣٠ و ٩٧٠ ، ونال الناس من ذلك أهوال ما كانت تخطر على البال ، حتى بلغ ثمن زق الماء (قربة صغيرة تسع ٣ لترات تقريباً) بعرفة في غضون هذه المدة ليرة ذهبية: وسبب إهمال هذه العين في المدة المذكورة أن ملوك مصر هم الذين كانوا يعتنون بها ويقومون بعمارتهافي الغالب . فلما تغيرت الأحوال ودخلت مصر مع أرض الحجاز سنة ٩٢٣ ضمن أملاك الدولة العلية التي كانت تشغل كل وقتها كثرة حروبها الخارجية ، أهملت الدولة ترتيبها الداخلية حكومتها ، خصوصاً ما كان يعيداً عنها . ولكن أهل الحرمين الشريفين قاموا في سنة ٩٦٩ وانتمسوا من السلطان سليمان اصلاح هذه العين . وهالك رجته كريمة صاحبة السمو الملو كانى مهر ماد سلطان أن يشرفها باجراء هذا العمل المروور من مالها الخاص ، وعينت مديراً للقيام بهذه المهمة ، وسلمته الأموال اللازمة لها ، فسافر من وفته الى مكة وشكل مجلساً من أهل الرأي فيها ، وأمر بحفر الماء وتنظيف فروعها و بناء ما تهدم من محراها ، ولما وصل الاصلاح الى ثلث زبيدة بنى أراد رحمه الله أن يغير محراها الى مكة ، فاضطر الى النزول في هذا الجبل الصخري على مسافة نحو خمسة وعشرين متراً من سطح الارض ، في مسافة طولها أكثر من كيلومتر ، ثم سيرها في حوض الجبل القبل حتى أوصالها الى مكة سنة ٩٧٩ .

وينقسم هذا الحرى من البياضية شرقى باب المعلى الى أربع شعب تتخلل المدينة من جهة الى أخرى . و يبلغ عرض هذه القناة نحو متر وربع في ارتفاع نحو متر ونصف ، وتفر من سطح الارض وتبعد عنه على حسب ارتفاعها وانخفاضها ، ولها حزامات عملاً منها السفاءون . وفضل ماء زبيدة يسير الى المسفلة حتى يصب جنوب مكة في بركة المساجن وهناك يستعمل في سقي بعض البساتين والمزروعات التي لبعض الأشراف .

وكثيراً ما تعبث السيول بهذه القناة فتصلحها أمراء مكة بالأموال التي ترد اليها من الدولة أو من أصحاب الهمم والخيرات من المسلمين . وآخر ما حصل لها من ذلك على أثر السيول التي

وقعت في سنتي ١٣٢٧ و ١٣٢٨ فهدمت نقطة كثيرة منها، وطم محراها بما تحلف اليه من الرمال والاحجار ، فقام حضرة صاحب الدولة الشريف حسين باشا أمير مكة وجمع الناس وطهره وأصلح ما اعتل منه . وكان للجناب العالي الخديوي العباسي أكبر فضل في ذلك لانه بمجرد ما بلغ مسامعه الكريمة خبر هذه الفاجعة التي أصيبت بها أم القرى ، أرسل بألفي جنيه مصري لهذا العمل الجليل ووعده بغيره كلما اقتضت الحال لمساعدته جزاء الله خيراً .

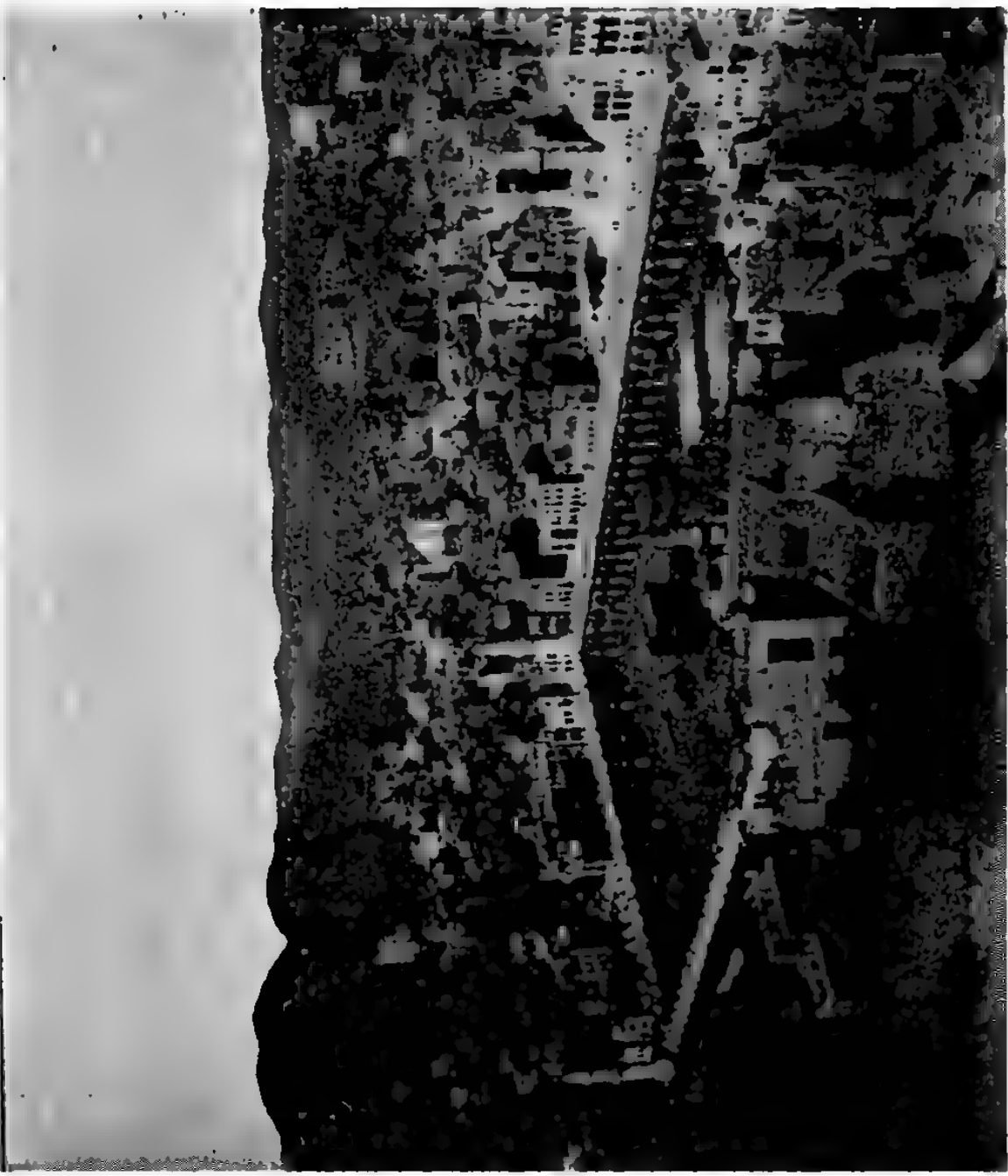
وهنا يجدر بنا أن نلاحظ على بلدية مكة أن الفتحات التي في أعلى هذه العين من جهاتها المكشوفة في مكة وفي أعلاها يستعملها الناس في غسيل ملابسهم وخلافها ، مما لا ينطبق على القوانين الصحية ولا تسمح به الشريعة القراء الاسلامية !! وهل يسمحون لي أن أقول لهم ان ذلك ولا شك العلة الوحيدة لكثير من الأمراض التي تنفشي في مدينتهم : وعليه فيجب أن تكون العناية بأمر هذه الفتحات كبيرة ، وأن يضرب على أيدي من يعيث بها أوسدها في وجوههم بالمرّة، وهل فاتهم قول صاحب الشريعة المعصية (النظافة من الإيمان) .

ويا حبذا لو يأمر دولته مولانا الشريف بوضع طلمبات على فوهات مياه محرى عين زبيدة في مكة ومنى وعرفة ، وعلى نثر زمزم ، وتكون هذه الطلمبات كبيرة بحيث تكفي الحاجة للحجاج من جهة ، ومن أخرى تجعل ماءها بعيداً عن التلوث بأنواع البكتريا التي تكثر منها الحمايات في الحجيج وتودي في الغالب بحياة الكثيرين منهم .

وعندي نصيحة للذين من عادتهم العناية بأمر ماء الشرب : ذلك أنهم اذا أرادوا الحج أخذوا معهم ما يكفيهم من المياه المعدنية أثناء الطريق ، أما مدة وجودهم في مكة والمدينة فحسبهم على الماء المخصص لشربهم ، ولو أضافوا على كل لتر منه عشر نفل من محلول مركب من واحد في الألف من رمونات البوتاسا كان أحفظ لصحتهم . وهناك طريقة أخرى لتنقية الماء تنقية تامة ، وهي أن يؤخذ أقراص محبزة تسمى أقراص (فياروجورج) ذات ثلاثة ألوان : الاول أزرق والثاني أحمر والثالث أبيض . فيذاب أولاً قرص أزرق ثم آخر أحمر في لتر من الماء المراد تنقيته ، وهناك يتم اتحادهما هذا الماء فتقوت جميع الجراثيم التي فيه في مسافة عشر دقائق ، ثم يوضع فيه القرص الأبيض فيتحد مع اليود الذي به ويعمل معه

رسم مكة والحرم بالخط غرافيا من جهة الى قبيلتين

GEORGE & ARDREY, CAIRO



تركيباً عديم الطعم ، وبهذه الطريقة يكون الماء صالحاً للشرب . وإذا لم يكن لاهذا ولا ذاك فعليهم بفلتز سفرى يمتصون به الماء ولو في الصحراء .

هذا وأرجو قبل قفل باب الكلام على مكة أن يسمح لي حضرة القارىء بكلمة أسوقها اليه : ذلك أنى زرت القدس الشريف فرأيت به لكل نوع من النصارى واليهود على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم من الأديرة والكياومنازل الضيافة شيئاً كثيراً جداً ، تمهدت فيها سبل الراحة والحياة للناس أجمعين : فالقاهر يخدم فيها مكائماً محاماً لمدة أسبوع على الأقل ، يرى نفسه فيه آكلًا شارباً نائمًا كسلاً مخدوماً مشكوراً من غير ما يتكلف لذلك قرشاً واحداً ، والغنى يخدم فيها راحتاً في نظير أجر يدفعه يومياً لا يزيد عن الأجر الذى يدفعه فى لو كادته سيطرة ، ومن الأغنياء من يخذها مسكماً فقط ويتدارك أكله بنفسه . وهذه الأماكُن التى قامت بها شركات البر والاحسان من الممالك المختلفة على اختلاف جنسياتها ومذاهبها كثيرة جداً ، وأكثرها لليهود ثم للروس ثم للأتراك ثم للأنجليكان والفرس والأتراك والأتراك . وقد أقام الألمان هناك أخيراً داراً للضيافة وللصححة على جبل الرحى صر فوا عليها أكثر من سبعين ألف جنيه : وهى دار رحيمية فسيحة شامخة البنيان ، وطيدة الأركان ، وضع فى مدخل سلمها تمثال امراطور وامراطورة الألمان ، وافتتحت هذه الدار رسمياً بحضور ولى عهد المملكة الألمانية الرئيس أيل فى شهر ابريل سنة ١٩١٠ م . وعدا هذه الدور والأديرة والملاجئ ترى هناك لكل جنس من النصارى واليهود المستشفيات العظيمة المشيدة والمدارس الفاخرة ، بحيث تكاد ترى بحوار كل بيت من بيوت المدينة مدرسة : هذه الألمان وبنائهم لكناز وغربها للروس وخلافاً للفرس والأتراك وسواها لليهود ، بل تجد لكل فرقة من هذه الأمم مدارس مخصوصة للبنات والبنين على أحسن طراز جديد ، والتعظيم فيها على أحسن بر وجرام كافل لحياة المتعلمين . اللهم إن هذه هى الحياة الصحيحة وهذا هو الوجود بكامل معانيه ! وهل لاخواننا المسلمين فى جميع أقطار المسكونة أن يقوموا بعمل مثل هذا بمكة ينتفع به الفقراء من حجاج المسلمين ، ولهم من مساعدة الحكومة العثمانية ما يوصلهم الى هذه الغاية الجليلة التى يكون من ورائها راحة حجاج بيت الله الكريم ؟

وبهذه المناسبة نقول ان الجناح العالى حفظه الله بعد عودته من حجه المبرور ربط في تكثيق مكة والمدينة كثير آمن المرتبات الشهرية والسنوات الى عدد عظيم من أشرف وعلماء وأهالى الحرمين الشريفين ، لازالت تتوالى عليهم فيوضاته وإحساناته لأنهم أولى الناس بمثل هذه العناية السامية . وامله حفظه الله يأمر فيكون له بهما أثر خيم دائم يشكره عليه الله والباس على توالى الايام . وياحبذا اذا كان المبلغ الذى جمع من السادة المصريين على دمة اقامة تذكار لحج الجناح العالى الخديوى يقام به دار للضيافة بمكة لفراء حجاج بيت الله الحرام عموماً والمصريين منهم خصوصاً ، ويقوم مصلحة الاوقاف بما يصدر عنه هذا الاكتاب والله الموفق للصواب .

تاريخ مكة

يصعد تاريخ مكة الى سيدنا ابراهيم الخليل صلوات الله عليه . في سنة ١٨٩٢ قبل المسيح أمره الله بالهجرة بولده اسماعيل وأمه هاجر (كما ورد في التوراة) ، فذهب بهما الى هذا الوادى الذى لم يسكنه أحد لعدم توفر الماء فيه ، اللهم الا أولئك العمالق الذين كانوا يسكنون غالباً فى الوادى الواقع شماله ويقال له الحَجُون : وهم قوم نزحوا الى هذا المكان من جهة البحرين وكان ملوكهم فيها يمتد الى شبه جزيرة سيناء . والبالليون يسمونهم « ماليق » فأضاف عليهم العربايون لفظ عم (يعنى أمة) فصارت « عم ماليق » فخرها العرب الى عماليق ، والمصريون يسمونهم الهكسوس أى الرعاة .

فلما عثرت هاجر على نهر زمزم التى أصبحت حياة جديدة لهذا الوادى نزلوا اليها وسألوها الاقامة معها على أن يكون الأُمُر لها ولولدها ، فقبلت ذلك وكانت قد ابنت لها

بيتاً تأوى اليه مع اسماعيل . وكان ابراهيم يتردد لزيارتهم من فلسطين فأمره الله تعالى بتطهير هذا البيت وجعله مصلى للناس : قال تعالى « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » . ثم أمرهما الله برفع قواعد هذا البيت ، وهناك هدمه ابراهيم ، ورفع مع إسماعيل على قواعد الكعبة المكرمة : قال تعالى « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ونب علينا إنك أنت التواب الرحيم » . ثم أمر الله أن يؤذن في الناس بالحج فقال « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » . ومن ثم اتسدت شهرة ذلك البيت المعظم تداع في القبائل الحاضرة والمجاورة ومنه أنى لفظ مكة أو مكاهي كلمة بالية سمعتها العماليق ومعناها (البيت) .

ورجع ابراهيم إلى قومه ، وبقي اسماعيل في خدمة البيت حتى مات ، فتولى خدمته من بعده بنوه إلى أن داخلهم الضعف فتغلب العماليق عليهم ، وصار أمر البيت اليهم . وما زالت السلطة في يدهم حتى وفدت جرهم على مكة من طريق اليمن بعد قطع سد مأرب ، في نحو منتصف القرن السادس قبل الميلاد وعليهم مضاض بن الحارث ، فزاحمهم وغلبهم على أمرهم ، وصارت لهم الكعبة والسلطان في مكة بل وفي الحجاز بأكمله . فلما كرس سلطانهم وعظمت شوكتهم عثوا في الأرض فساداً فوق فيهم وباءت منهم ، وضعف أمرهم وتغلب عليهم بنو إسماعيل واستردوا أمر البيت منهم وطردوهم من مكة ، فساروا إلى أرض جهينة (شمالى يبيع) ، وفي ذلك يقول شيخهم عمرو بن الحارث .

وكنا ولأه البيت من عهدنا ت (١) * يطوف بذاك البيت والامر ظاهر
 كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
 بل نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والجدود العوائر
 وما كادت تنحصر السلطة في بني إسماعيل حتى أتت خزاعة وتغلبت عليهم ، ووليت

أمر البيت من سدانة (خِدمة البيت) وسقاية (سقية الحجيج) زمناً طويلاً بما كان لها من العصبية ، رغماً عما كان في بني اسماعيل من الرقي الادبي والسمو النفساني : لانه كثيراً ما كان ينبغ فيهم رجال يرهنون بحسن معرفتهم وكال فضلهم على ذكاء أصلهم وكرم محتدهم ، مثل كعب بن لؤى الذى اشتهر ببلاغته وفصاحته . وهو أول من جمع الناس في يوم العروبة^(١) (يوم الجمعة) وكان يخطبهم فيه بما يرشدهم الى طريق الفضائل ويبعدهم عن ارتكاب الرذائل ، وقد اشتهر أمره بين العرب وعظم قدره فيهم حتى كانوا يؤثرون نعام موته الى عام الفيل ، وهو من لا يقل عن أربع مائة سنة .

وما زال أمر البيت في يد خراعة حتى رجع قصي بن كلاب من الشام ، وكان ذهب اليها مع أمه صغيراً : وهو من أحفاد كعب والبطن الرابع والعشرون من اسماعيل . فجمع قبائل قريش بما كان فيه من حسن السياسة والذكاء وقوة العارضة بعد أن كانت تفرقت وأخذت الشجعاء تدب فيما بينهم ، وسمى أصاله رأيه حتى اشترى من خزاعة حجابة البيت (الاستئثار بمفاتيح الكعبة) ثم أجلاهم بما وجدله من العصبية عن مكة الى بطن مر (وادى فاطمة) ، ومن ثم كبر شأنه ونبه أمره وعظم سلطانه واجتمعت له السقاية والحجابه والرفادة واللواء (رايه الحرب) ، ولم تجتمع في رجل قبله . وقصى أول من أطعم الحاج وسقاه لانه ضيف الله وجاره ، وبذلك سارت الركبان بسيرته وتحديث الناس بنباهته . وكان له رأى سديد وفكر رشيد . وهو الذى بنى دار الندوة قرب البيت وجعل بابها اليه ليجمع فيهم مع قومه للبحث في شؤ ونهم والافرار على ما يتم من أمرهم فاصبح به مالك قريش عظيماً وشأنهم جسيماً ، حتى كان لهم بعد ذلك خراج على القبائل والعشائر يؤدونه اليهم ويتفربون به منهم . وكان لمصى ولدان : عبد الدار وعبد مناف ، وقد شرف الاخير على صغره وزاد فضله عن أخيه الاكبر . فأوصى أبوه لعبد الدار بما كان في يده من السقاية والحجابه والرفادة واللواء والندوة ، حتى يشكافهم عبد مناف في شرفه الذى وصل اليه بعقله وفضله .

(١) كاب أيام الاسبوع عند العرب في عصر الجاهلية الاولى كما يأتى : أول (الاحد)

أهون ، جبار ، دنار ، مؤنس ، عرويه ، شبار .

ولمات قصي استولى عبد الدار على ما أوصى له به أبوه . وانتقل ذلك الى بنيه من بعده حتى ظهر بنو عبد مناف عليهم ونازعوهم ما في أيديهم ، وكادت تدور رحى الحرب بينهم ، وانتهى الامر بنح Hakim بعض القبائل ففسموا بينهم شرف هذه الامتيازات : فكان لبني عبد مناف السفاية والرفادة ، ولبنى عبد الدار الحجابة واللواء اللذان مازالا ينتفلان فيهم الى فتح مكة . وكانت مفاتيح الكعبة مع عثمان بن طلحة فأخذها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما دخل البيت أراد أن يحجزها عنه ، فنزل قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » ، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه قائلا « ها كم خذوها خالدة تالدة » ، وعدموت طلحة سلمها رسول الله الى أخيه شيبه فبقيت في بنيه الى الان .

ووصلت قر يش في الحاهلية الى محكبير وشرف عظيم ، وانتهى شرفها الى عشرة أطن منها كانوا يقتسمون امتيازاتهم القومية من دينية وسباسبية واجتماعية وتشريعية . وكانت هذه الامتيازات يتوارسها الا بناء عن الا بناء وانتهى امرها قبل الاسلام الى من سئذ كرم : كان العباس بن عبد المطلب (من هاشم) يسقى الحجاج واستمر ذلك في الاسلام . وكان أبوسفيان ابن حرب (من بني أمية) عنده العباب ، وهي رايه حرم بهم لا يخرجها الا اذا حى وطيسها فيسلمها الى من يجمعون عليه الرأي لحملها . وكان للحارث بن عامر (من بني نوفل) الرفادة ، وهي ما كانوا يخرجونه من أموالهم لاعانه الممطع من الحاج . وكان لعثمان بن طلحة (من بني عبد الدار) السدان والحجابة واللواء والندوة . وكان ليزيد بن زمعة بن الاسود (من بني أسد) المشورة في الأمور الهامة . وكان لأن بكر الصديق (من تيم) الديات والمغرم ويعال لها الأشناق وكانوا يعضون على حكمه فيها . وكان خالد بن الوليد (من بني مخزوم) على خيل فر يش وكانت له القبة : وهي ما كانوا يجمعون فيه سلاحهم وذخيرة حريمهم ، وكان لعمر بن الخطاب (من بني عدى) السفاردها كان يقع بينهم وبين غيرهم من العرب ، فيمضي عنهم ما راءه من مصلحتهم . وكان لصفوان بن أمية (من جحج) الايسار وهي الا زلام (١) .

(١) واحدها زلم وهي أقذاح ثلاثة كات للعرب بالكعبة مكتوب على الاول أمرني ربي وعلى الثاني بهاني ربي والثالث ليس عليه شيء . وكات العرب اذا أراد أن تمضي في أي أمر من أموره دهبوا الى الكعبة واسمسموا بالارلام فيعتزع لهم صاحبها فيمضون على ما قسم لهم .

وكان للحريث بن قيس (من بني سهم) الحكومة والاموال التي يقدمونها لأصنامهم .
 أما بنو هاشم فقد علا أمرهم وعظم شأنهم خصوصاً في مدة عبد المطلب بن هاشم جد النبي
 صلى الله عليه وسلم الذي كرس سلطانه بعد واقعة القيل ، وذاعت شهرته وهايته القبائل
 وقصده العرب من جميع جهات الجزيرة . ولما ظهرت نوة سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد
 المطلب وتحلى الاسلام بظهوره المنيع ، وعدم تقدمه السريع ، كمل لبني عبد مناف فضلهم
 وتم بهذا الشرف سعادتهم .

حكم الاشراف بمكة

من أكر الحوادث التاريخية بمكة هجرته صلى الله عليه وسلم منها الى المدينة ، وفتحها
 لها بعد ثمان سنين من الهجرة . ومن ثم صارت مكة تابعة له وخلفائه من بعده .
 وكانت حكومة الاسلام في مدته عليه الصلاة والسلام ديموقراطية «شورية» على
 حسب الشريعة الغراء ، وكذلك في عهد خلفائه الراشدين ، حتى انضمت الخلافة الى
 مظاهر الملك فشاهاشي من الاستبداد .

وكانت حكومة الحرمين تتبع في جميع أدوار حياتها مركز الخلافة الاسلامية . وأول من
 تولى إمارة مكة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد رضي الله عنه ، ولده عليهما رسول
 الله بعد الفتح ، عند خروجه لواقعة حنين في الثالث الاول من سنة ٨ للهجرة . وانتقلت الخلافة
 بعد الخلفاء الراشدين الى الامويين في سنة ٤٠ هـ وفي اناسها استولى عبد الله بن الزبير على مكة
 بضع سنين حتى استردها منه الحجاج بن يوسف الثقفي الى الامويين سنة ٧٣ . وفي سنة ١٣٢
 انتقلت الخلافة للعباسيين وما زالت في أيديهم الى سنة ٣٥٨ . وتولى أمر مكة في هذه المدة نحو
 مائة أمير من أشراف وغير أشراف . وفي هذه السنة انتقل حكمها الى الفاطميين وفيها دخلها
 جوهر القائد ، ثم دخلها مولاه المعز لدين الله العبيدي ومن ثم كانت البلاد الاسلامية من بغداد
 الى حلب الى البصرة يخطب فيها للخليفة العباسي ، ومن حلب الى الحرمين وسائر بلاد العرب

يخطب فيها للعباسيين : والسبب في ذلك أن جعفر بن محمد بن الحسن الثائر بن موسى الثاني ابن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي أمير المؤمنين كرم الله وجهه تغلب على مكة في السنة المذكورة ، وخاف من العباسيين فدعا للمعز لدين الله العبيدي صاحب مصر ، فكتب له المعز بولاية مكة وبه اشددت حكومة الأشراف عليها .

واستقرت في بنيه من بعده الى سنة ٤٥٥ هـ حيث وليها حفيد أخيه هاشم : وهو محمد بن جعفر بن عبد الله بن هاشم ، وتولى أمرها بنوه من بعده الى سنة ٥٩٧ هـ . ويقال لهم الهواشم ، وكان حكمهم جورا وظلما حتى أن آخرهم الشريف مكث بن عيسى ضرب ضريبة على حجاج بيت الله الحرام مقدارها سبعة دنانير ، كان يتقاضاها في عيذاب أو في جده على كل شخص يفد الى مكة عن طريق مصر . فاستغاث الناس بصلاح الدين الأيوبي ، فاتفق مع مكث على الغائها ، ورتب له بدلها في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحا . ومن هذا الوقت انشأ الخطباء في مكة يدعون لصلاح الدين عقب دعائهم للخليفة العباسي ولا مير مكة .

واستولى على مكة بعد مكث الشريف ففاده سنة ٥٩٧ هـ وهو الحلفة السابعة من أحفاد الشريف عبد الله أحى الشريف جعفر بن محمد بن الحسن الثائر وكان قتادة من أهل النخوة والشجاعة والهمة العالية ، واتسع ملكه من اليمن الى المدينة . إلا أن أهل اليمن تغلبوا على مكة في مدة ولده حسن لسوء سلوكه ، ومارالت في أيديهم الى سنة ٦٣٠ هـ ، وبعدها تغلب الشريف راجح بن قتادة عليها وصارت الاماره بعده فيها كالكرة يتلقاها القوي من بنيه أو بني اخوته . وكانت حكومتها تتبع ملوك مصر باردة وملوك اليمن أخرى لاشتغال ملوك مصر عنها بالحروب الصليبية ، خصوصا بعد موت الملك الكامل الذي كان يدعى له في خطبة الحرمين هكذا : « صاحب مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، وخادم الحرمين الشريفين ، المحترمين : الملك الكامل خليل أمير المؤمنين » . وأول من استقل من ملوك اليمن لذلك العهد نور الدين بن عمر بن علي بن رسول ، وكان عاملا عليها للملك الكامل صاحب مصر ، واقب

نفسه الملك المنصور . وما زالت حكومة مكة في هذا الارتباك والاختباط حتى آل أمرها الى الشريف أبي نعيم بن حسن بن علي بن قتادة سنة ٦٦٧هـ ، فخطب لبيرس ملك مصر فاقره عليها وحج من سنته . وما زال أبو نعيم حتى وقعت له مع العسكر المصري حروب ألجأته الى التنازل عن الامارة سنة ٧٠١ الى ولديه حميضة ورميثة ، فغلبهما عليها أخوهما أبو الغيث بن أبي نعيم . وفي مدته حج السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٢هـ ، واستقر بها حتى غلبه على الامارة أخوه حميضة سنة ٧١٤هـ وقتله ودعى اخوته الى وليمة عنده وقدمه اليهم مصلوقا ، وعلى رأس كل واحد منهم عبد شاهر اسيفه . وما زال حتى تغلب عليه أخوه رميثة سنة ٧١٨هـ فهرب ومات في هربه . وفي سنة ٧١٩هـ حضر الى مكة جيش مصري وقبض على رميثة وأتى به الى ملك مصر الملك الناصر بعد أن ولي مكانه الشريف عطيفة بن أبي نعيم . وفي سنة ٧٢٢هـ أطلق الملك الناصر رميثة وأشركه مع أخيه في ولايته مكة ، وذهب عطيفة الى مصر ومات بها سنة ٧٤٣هـ ، وانفرد رميثة بالامارة حتى جعلها الملك الكامل شعبان ملك مصر لولده الشريف عجلان بن رميثة سنة ٧٤٦هـ ، وعزله عنها السلطان حسن بن محمد الناصر سنة ٧٦٠هـ ، الا أنه رجع اليها بأمر من الملك المنصور محمد وما زال بها حتى مات سنة ٧٦٦هـ . وتولى بعده الشريف أحمد بن عجلان ، وفي مدته صدر أمر الملك المنصور بلفو المكس الذي كان يؤخذ على الاشياء التي كانت تدخل الى مكة ، وعوض أميرها عنه مائة وستين ألف درهم وألف أردب قمحا ، وأمر فنقش ذلك على باب الصفا . واستمرت الامارة في بنيته حتى صدر أمر سلطان مصر بأن يكون الشريف حسن بن عجلان نائباً عنه في ولاية الحجاز وابنه الشريف بركات أميراً على مكة : وكان بركات عالماً فاضلاً محدثاً ، وقد استدعاه الملك بارسباي الى مصر فوفد اليها مظلماً مكرماً وأخذ عنه كثير من علمائها ، ثم رجع الى مكة ومات بها سنة ٨٥٩هـ وتولى مكانه الشريف محمد بن بركات : وكان رضى الله عنه على أحسن ما يكون من العدالة والانصاف وحسن السيرة والرفق بالناس ، وقد سافر الى مصر سنة ٨٧٧هـ مدة السلطان قايتباي فاستقبل بما يليق به من صنوف الاعظام والاجلال ، ثم رجع اليها معزراً مكرماً . وفي مدته حج السلطان قايتباي سنة ٨٨٤هـ وشيد فيها لصق الحرم من الجهة الشرقية مدرسته التي

تغلب عليها ذوو غالب ولا تزال في أيديهم الى اليوم .

وما زال محمد بن بركات على أماره بمكة وولاية الحجاز حتى مات سنة ٩٠٣ هـ وتولى بعده ابنه الشريف بركات ، وما زالت الامارة تنتقل من يد الى يد اخوته حتى استعمل بها في سنة ٩١٠ هـ . وفي سنة ٩١٨ أرسل اليه السلطان الغوري يدعو الى مصر ، فاعتذر وأرسل باليابه عنه ابنه الشريف أناعى وعمره ثمان سنين ، فأكرمه السلطان كل الاكرام وردة الى أبيه معززا وأشركه معه في أمر مكة والأقطار الحجازية .

ولما استولى السلطان سليم على مصر سنة ٩٢٢ أقرهما على مكة ، وسار للفتيا به الشريف أبونعى بمصر ، فأكرمه مثواه ، وأرسل معه أمرا يقتل حسين أعا الكردى الذى كان على جده من قبل الغورى . فلما وصل الى جدة قبض على الاغا وأغرقه وولّى غيره مكانه ، ومن هذا الوقت صارت بلاد الحجاز واليمن تابعة للدولة العلية .

وكان الشريف أبونعى من خيرة الاشراف عتقلا وحلما وعلماء وفضلا وادارة ودرايه ، واليه ينتهى سب اشراف بنى حسن (الدين يحكمون الان) و بنى زيد ، و بنى بركات (الذين كان لهم الحكم قبل محمد بن عون) ، و بنى نعمة (وهم متفرقون فى بلاد العرب) . وفي سنة ٩٩٢ مات أبونعى وتولى بعده ابنه الشريف حسن : وكان عالما فاضلا كاملا أدبيا سار فى ادارته بلا دة على سبب أبه فى العدالة والكرم ومكارم الاخلاق ومحامد الصفات ، وهو رأس سلسلة الاشراف الحسينيين الذين منهم محمد بن عون جد العائلة الحاكمة الآن .

وهو الذى بنى دار السعادة بمكة فى سنة ٩٦٧ وكانت محل إمارته وإمارة خلفائه زمنا طويلا ، ومما جاء فى وصفها وتاريخ بنائها قول بعضهم :

ان بينا بناه خير مليك * أسس الملك ككفه وأشاده

فاق فى وصفه وحسن بناه * كل قصر لاهل العلا والسياده

جاء تاريخ وصفه فى نصيف * أنابيت الملوك دار السعاده

وما زال الشريف حسن قائما بأمير ولاية الحجاز حتى مات سنة ١٠١٠ وأخذت

الشرافة تنتقل في نبيه و بنى اخوته حتى تولاهما الشريف زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن ابن أبي نعي سنة ١٠٤٣ : وكان ذاهمة عالية وشجاعة تامة وادارة حسنة ، وما زال قائما بولايتها خير قيام حتى مات سنة ١٠٧٧ . وتولى بعده ولده الشريف سعد ولكنه خرج من مكة مقهورا ومكث بعيدا عنها احدى وعشرين سنة ، تولى امرها فيها الشريف بركات ابن محمد بن ابراهيم بن أبي نعي ، ومات سنة ١٠٩٤ ، وأعقبه عليها ولده الشريف سعيد بن بركات ، فغلبه عليها الشريف سعيد بن سعد بن زيد . ثم عزل عنها ، وأعقبه الشريف عبد الله ابن هاشم ، ثم أحمد بن غالب الذي مات سنة ١١١٣ ، فرجع الى الامارة الشريف سعد بن زيد ، وأخذ يتناوب الولاية هو و ولده الشريف سعيد جملة مرات . ومات الشريف سعد بعيدا عن مكة بالعبادية سنة ١١١٦ ، و بقيت الولاية في يدا انه الشريف سعيد حتى مات سنة ١١٢٩ : وكان جليل القدر عظيم الفضل بعيدا لآمال شجاعة مهيبة . وأخذت الامارة بعده يتداولها نوه و بنواخوته حتى عليهم عليها الشريف يحيى بن بركات ، ثم انه الشريف بركات بن يحيى فيما بين سنتي ١١٣٤ و ١١٣٦ . ثم رجعت الى نبي سعيد ، وما زالت فيهم حتى تولاهما حفيده الشريف سرور بن مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد في سنة ١١٨٦ . وهو مشهور بعلا الهمة وجلال الصفات والشجاعة الفائقة : حارب عرب الشروق و قبائل حرب و انتصر عليهم جملة مرات و انقادت اليه جميع بلاد الحجاز ، وامتد سلطانه على جهات كثيرة من بلاد العرب . وما زال في الامارة حتى مات سنة ١٢٠٢ وتولى بعده الشريف عبد المعين بن مساعد ، الا أنه تنازل عنها بعد أيام قليلة الى أخيه الشريف غالب . وفي مدته استفحل أمر الوهابية ، و وقعت بينه وبينهم حروب كثيرة كادت الغلبة تكون فيها لهم ، لولا أن الدولة العلية كلمت محمد علي باشا و الى مصر كبح جماحهم ، فارسل اليهم جيوشا مصرية على رأسها ولده طوسون ، ثم ولده ابراهيم الذي فرق جموعهم واستولى على بلادهم بعد أن أخذ رئيسهم عبد الله بن سعود أسيرا وأرسله الى والده بمصر . وفي سنة ١٢٢٨ جاء محمد علي الى بلاد الحجاز فاستقبله الشريف غالب من جدة ، وسار في خدمته الى مكة . وكان كل منهما على خوف من صاحبه ، وانتهى الأمر بأن قبض محمد علي على الشريف غالب و بنيه

وأرسلهم الى مصر عن طريق القصير ، فوصل القاهرة في ١٧ محرم سنة ١٢٢٩ وقول فيها بالاحترام اللائق ، وبقى بها الى ١٩ شعبان حيث سافر مع أولاده حسب الارادة السلطانية الى سلانيك وأقام بها الى أن توفاه الله سنة ١٢٣١ ، وفيها عادت أولاده الى مكة بمقتضى أمر سلطاني .

وكانت مدة أماره الشريف غالب على مكة ٢٧ سنة قضاهما كلها في حروب الوهابية . وكان رحمه الله على الهمة ، كبير الشهامة ، كثير الدهاء . ولما بقي الى مصر ولّى محمد علي مكانه الشريف يحيى بن سرور في أواخر ذي القعدة سنة ١٢٢٨ ، ومن هذا الحين صارت بلاد الحجاز تابعة لمصر .

وكان على أعمال العرب الشريف شمر من جهة محمد علي ، فنمت بينهما الضغائن ، فقتل يحيى شمر أمام باب الصفا وهرب الى بدر . وتولى على مكة الشريف عبد المطلب ابن غالب ، بأمر من أحمد باشا يكن ، ولكن محمد علي باشا أصدر أمره بتعيين الشريف محمد بن عون ، وكان اذ ذاك نزىلا عليه بمصر ، وكان سبق له أن تولى إمارة نربة وعسير من قبله . فسار الشريف عبد المطلب الى الطائف وجمع جموعا من العرب وحارب بها أحمد باشا ، ولكنه انهزم وطلب الأمان من الشريف محمد بن عون ، فأمنه هو والشريف يحيى وأرسلهم الى مصر بناء على أمر محمد علي ومعهما عبد الله بن فهد وآخرين . ولما وصلوا اليها كرمهم محمد علي كل الاكرام ، وبعد سنة أعادهم الى مكة الا الشريف يحيى فانه استبقاه ومات بمصر سنة ١٢٥٤ . وبعد ذلك وقع نفور بين أحمد باشا يكن والشريف محمد فاستحضرهما محمد علي ثم أعاد أحمد باشا الى مكة وحجر الشريف محمد بن عون بمصر ، وبقى فيها حتى خرجت ولاية الحجاز من قبضة محمد علي سنة ١٢٥٦ زمن السلطان عبد الحميد ، وصدرت الاوامر السلطانية بتولية ابن عون أماره مكة . وكان رحمه الله عاقلا ذا دهاء وهيبة وذكاء ، ميمون الطالع عالما يحب العلم والعلماء ، ومكث زمنا طويلا وهو يدبر أمر الحجاز بحسن درايته وإدارته . وفي سنة ١٢٦٣ سار الى نجد لاجل احماد فتنه فيصل بن تركي أمير الرياض ، وتم أمرهما بالصلح بعد أن قرر على فيصل خراج الدولة قدره عشرة آلاف ريال

كل سنة، واستقر في ولاية مكة الى أن توفي في ١٣ شعبان سنة ١٢٧٤ . وتعين بعده ولده الشريف عبد الله باشا كامل : وهو أول شريف منح رتبة الوزارة وانصب باشا وكان تربى في الاستانة وتعلم فيها العلوم الشرعية والتفسير والحديث وفنون الادب . فوصل جدة بعد أن انجلى عنها امراكب الانكليز سنة ١٢٧٥ ، وهناك قابله المندوبون البريطانيون وطلبوا منه أن يساعدهم في وصولهم الى مكة ، فاعتذر عن احتمال هذه المسؤولية ، ثم قال لهم : وماذا تريدون من بلد لا زرع فيه ولا نبات ولا ماء ووربما بالك من مرض يذهب بحياتكم لعدم اعتيادكم على مثل هوائه ، في حين أنكم في غنى عنه ؛ فافتنعوا بحجابه وعادوا الى بلادهم وسار هو الى مكة . وفي سنة ١٢٧٧ ذهب الى المدينة لاستقبال سعيد باشا والى مصر ، ورجع معه الى القاهرة ، ثم عاد الى مكة بعد أن صادف من الاجلال وكال الاعظام ما يليق بمقامه ، واستقر في الامارة الى أن توفي في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٤ . وتعين أخوه الشريف حسن باشا مكانه ، فقدم اليها من الاستانة ، وكان على جانب عظيم من التقوى والصلاح والزهد والورع ودعاة الاخلاق ، واستقر حكمه الى سنة ١٢٩٧ ، حيث قتل أثناء دخوله جدة وكان ذهب اليها في موكب حافل : فتقدم اليه رجل افغانى كأنه يريد تقبيل يده وطمعنه في خاصرته ، فتوفي بعد يومين مأسوفا عليه من عموم أهل الحجاز ، ونقل الى مكة رضى الله عنه وأهلها يابون به بالشهيد . وتولى بعده الشريف عبد المطلب للمرة الثالثة ولكنه عزل عنها سنة ١٢٩٩ لسكثرة الشقاق الذى كان بينه وبين الاشراف ، وتعين بدله الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون ، فاخذ في تمكين قدمه في مركز الشرافة وعمم نفوذه على العرب والمأمورين من الأتراك حتى كانت الولاية كأهم من المأمورين عنده ، الا في زمن ولاية عثمان نوري باشا الأولى فانه ضرب فيها على يديه ، ولكنه نقل من ولاية الحجاز بسعى عون الرفيق ومؤازريه في الاستانة . ومن وقتها خلا له الجو : فكان يعطى ويحرم ، ويسعد ويشقى . ويمنع وينعم . وقد كان ينزع الى مذهب الوهابية أو ما يقرب منه : فهدم كثيراً من قباب المزارات ، وخصوصاً فى المعلاة ومن ذلك قبة سيدنا عبد الله بن الزبير ، بل وصل به الحال الى أن أمر بهدم قببى السيدة آمنة والسيدة خديجة الا أنه ما عثم أن استرجع أمره .

وكذلك أمر فاز يلت ملك الرحي التي كانت في مولد السيدة فاطمة (دار خديجة) رضى الله عنهم، وكانوا يزعمون أنها هي التي كانت تطحن عليها في حياتها، وأمر أيضاً بتوسيع باب غار حراء في جبل ثور وهو الذي خيم على بابه العنكبوت بعدما آوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رفيقه أبي بكر عند هجرتهم من مكة إلى المدينة: وكان بابه لا يسع إلا نهر واحد إذا دخل منه زاحفاً على بطنه: وكان الناس يزعمون أن لا يدخله إلا السعيد وأما الشقي فلا. فإراد توسيع هذا الباب أزاله هذا الوهم العاسد. إلا أنه لم يكن له على كل حال أن يغير شكله الطبيعي مثل هذا من أجل الآثار ومن الأشياء التي كان الإنسان يقتدر فيها تلك المعجزة التي خدعت الطبيعة فيها أشرف مخلوق حتى حيل بينه وبين أعدائه. وقد كان يميل سماحه الله إلى الرفه بكل أنواعه فكان عنده على الدوام المطربون باللات والعرايحية (الطبالون) والضاربون بالوبة وحملة ما يعال في معاملته للناس أنه كان مهاناً وهاناً. واستقدم أتومو بيلامن أوروباً كان يركبه في طريق الطائف ولكنه مات بموته. وأشياء يستأجروا شمال جرول (بمكة) وهو المكان الذي يخيم عنده المحمل المصري، وجلب إليه أشجاراً كثيرة من مصر والهند والشام وغيرها وساق إليه الماء من عين زبيدة، وهالاه كان في مدته جسة من الخناث لم يسبق له بطير في مكة. أما الآن وقد انصرفت عنه المياه ومد جفت أشجاره وذهبت أزهاره وأصبح كقطعة من غابه في الصحراء يسعى فيها الغراب، وترعى فيها العقبات، سبحان مغير الأحوال بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

ومات الشريف عون بالطائف يوم الاثنين ١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ واخلف الناس في أسباب موته ؟؟ وكانت الشرافة بعده لأخيه الشريف عبداللهد باشا الذي كان يقيم في الاستانة، ولكن صدرت الأرادة السلطانية بسعى راتب باشا وإلى الحجار بنوجيه الامارة إلى الشريف علي باشا بن عبد الله بن محمد بن عون الذي كان قائماً بالمشريف في مكة، وما زال على غاية الوثام والاتحاد مع راتب باشا حتى حصلت حركة الاستانة وقام الدستور مقام الاستبداد وعزل راتب باشا لجوره وظلمه وخرج مدحوراً إلى الاستانة ومنها منفياً إلى رودس بعد أن صودر في جميع أمواله. أما الشريف علي باشا فانه ظل بالطائف

متظاهراً بمشايعة الحكومة الدستورية الجديدة، وفي يوم الخميس ١٨ شوال سنة ١٣٢٧ . حدثت فتنة بين بعض أهالي مكة والعساكر الشاهانية قتل فيها من الطرفين نحو عشرين رجلاً ، وقيل انها كانت بإيعاز الشريف علي باشا . وفي اليوم الثاني شاع في مكة عزل الشريف علي وتعيين الشريف عبد الله باشا الذي كان مقبياً بالاستانة ، ثم جاء الخبر بوفاة وتولية الشريف حسين باشا ابن علي بن محمد بن عون وكان مقبياً في الاستانة منذ سبع وعشرين سنة . فلما حضر الى مكة قام الشريف علي منها بعائلته قاصداً الاستانة ولما وصل الى السويس نزل الى مصر ولا زال بها الى الآن . أما الشريف حسين فانه قام بالأمر حق قيام مهمة لا تعرف الملل ، وضرب على أيدي قبائل العرب الذين كانوا يتحفزون للخروج على الدولة : فكان حفظه الله يرسل بعسكره مع نخله هذا الى جهة في حين ما يرسل بنجل آخر مع فرقة أخرى الى غيرها وهكذا حتى هدأت البلاد وضرب الأمن بحرايه في جميع أطراف الحجاز . ومما يذكرك له بالثناء الخليل انه أمر بجعل أجرة الخيل من مكة الى المدينة الى ينبع أربعة وعشرين ريالاً محمداً بعد أن كانت أكثر من ستمين ريالاً في مذهب سلفه . وبالجملة فكفه عدل وقوله فصل ونسيره فضل نفع الله به الدولة والماله وجعله ممثلاً لشرف بيت النبوة بجاد جده الامين . ولقد تشرفت بمعرفته مدة وجودنا بعمية الجباب العالي بمكة فوجدته أيدساً ودعياً كريم الأخلاق ، حسن السجايا ، قد جعل الوقار رؤياه ، وكل الادب جلال محياه . وفي أوائل عام ١٣٢٩ زحف الشريف حسين بخيله ورجله الى عسير لمساعدة الدولة العلية في محاربة الادريسي وعسى أن يجعل الله على يده اصلاح ذات البين وحفظ دماء المسلمين فيكون له بذلك أكبر فضل في العالمين .



﴿ جدول بأسماء من تولى مكة من زمن الفتح الى اليوم ﴾

﴿ مأخوذ من السالنامة الحجازية المطبوعة بمكة سنة ١٣٠٦ بتصرف قليل ﴾

سنة هـ	سنة م	الأمراء
٠٨	١٣	عتاب بن أسيد
١٣		الحارث بن حارثة
		قنقذ بن عمير بن جدعان
		نافع بن الحارث الخزاعي
		خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة
		أحمد بن خالد
		طارق بن المرتفع
		الحارث بن نوفل القرشي
٢٤		علي بن عدي بن ربيعة
		الحارث بن نوفل القرشي
		عبد الله بن خالد بن أسيد
		خالد بن العاص بن هشام
		عبد الله بن عامر الحضرمي
		نافع بن الحارث الخزاعي
٣٦		أبو قتادة الأصباري
		القثم بن العباس
٣٩		عتبة بن أبي سفيان
		مروان بن الحكم
		سعيد بن العاص
		عمرو بن سعيد المعروف بالاشدق
		خالد بن العاص المخزومي
		عبد الله بن خالد بن أسيد
٦١		عمرو بن سعيد الاشدق
		الوليد بن عتبة بن أبي سفيان
		عثمان بن محمد بن أبي سفيان
		الحارث بن خالد المخزومي
		عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب
٦٤		يحيى بن حكيم
٦٤		عبد الله بن الزبير بن العوام
٧٣		الحجاج بن يوسف الثقفي
٧٥		مسلمة بن عبد الملك بن مروان
		الحارث بن خالد المخزومي
		خالد بن عبد الله القسري
		نافع بن علفمة الكناني
		يحيى بن الحكم بن أبي العاص
٨٧		عمر بن عبد العزيز بن مروان
		خالد بن عبد الله القسري
٩٧		طلحة بن داود
		عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد
		محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن
		عروة بن عياض
		عبد الله بن قيس بن مخزومة
		عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن سراقه
١٠١		عبد العزيز بن عبد الله بن خالد

«تولى الخلافة
في مكة من سنة
٦٤ الى سنة ٧٣»

تاريخ التولية سنة هـ	تاريخ التولية سنة هـ
١٠١	عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس .
	عبد الواحد بن عبد الله .
	ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومي
	محمد بن هشام بن اسماعيل المخزومي .
	نافع بن عبد الله السكناني .
١٢٥	يوسف بن محمد الثقفي .
١٢٦	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز .
	عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك .
	أبو حمزة الخارحي .
	عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي .
	مروان بن محمد بن الوليد .
	الوليد بن عروة السعدي .
	محمد بن عبد الملك بن مروان .
١٣٢	داود بن علي بن عبد الله بن عباس .
	عمر بن عبد الحميد بن عبد الرحمن .
١٣٦	العباس بن عبد الله بن معبد .
	زياد بن عبد الله الخارثي .
	الهيثم بن معاوية العتكي الخراساني .
١٤٣	السري بن عبد الله بن الحرث .
١٤٥	محمد الحسن بن معاوية .
	السري بن عبد الله .
١٤٦	عبد الصمد بن علي بن عبد الله .
١٤٧	محمد بن ابراهيم الامام .
١٥٨	ابراهيم بن يحيى بن محمد بن علي .
	جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله .
١٦٦	عميد الله بن القثم بن العباس .
١٦٩	الحسين بن علي .
	أحمد بن اسماعيل .
	حماد البربري .
	سليمان بن جعفر .
١٨٧	الفضل بن العباس بن محمد بن علي .
	محمد بن عبد الله بن سعيد بن المغيرة .
	عباس بن موسى .
	عباس بن محمد الامام .
	عبد الله بن القثم .
	علي بن موسى .
	موسى بن عيسى بن محمد بن علي .
١٩١	داود بن عيسى بن موسى بن علي .
	الحسين بن الحسن بن علي الاصغر .
	علي بن محمد بن جعفر الصادق .
	عيسى بن يزيد الجلودي .
٢٠٢	هارون بن المسيب .
	حمدون بن علي .
	يزيد بن حنظلة .
٢٠٣	ابراهيم بن موسى الكاظم .
	عميد الله بن الحسن بن عبد الله .
	صالح بن العباس بن محمد .
	سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي .
	محمد بن سليمان المذكور .
	الحسن بن سهل .
	عميد الله بن عبد الله بن الحسن .
٢١٨	صالح بن العباس بن محمد .

الاسم	الرقم	الاسم	الرقم
اشناس الجركسى .	٣٠١	ابن محارب .	٣٠١
محمد بن داود بن عيسى .	٣١٧	حافظ أبو الفضل .	٣١٧
علي بن عيسى بن جعفر .	٢٣٢	أبو طاهر الفرمدى .	٢٣٢
عبد الله بن محمد بن داود .	٢٣٩	الفاضى الشريف أبو جعفر محمد .	٢٣٩
محمد بن سليمان بن عبد الله .		عيسى بن أبى جعفر .	
محمد بن المنتصر .		أبو الفتوح الحسين بن جعفر .	
إيتاح التركى .		حسن بن جعفر .	٣٨٥
عبد الصمد بن موسى .	٢٤٧	أبو الطيب بن داود .	
جعفر بن الفضل .		الشريف محمد بن حسن بن جعفر	٢٣٠
اسماعيل بن يوسف .		محمد بن جعفر بن محمد .	٢٥٥
عباس بن المستعين .	٢٥٢	القاسم بن محمد .	٤٨٤
محمد بن طاهر بن الحسين .		فليته بن القاسم .	٥١٨
عيسى بن أحمد بن المنصور .	٢٥٢	هاشم بن فليته .	٥٢٧
محمد بن أحمد بن عيسى .		القاسم الملقب بعمدة الد	٥٤٩
علي بن الحسن الهاشمى .		عيسى الملقب بطب الد	٥٥٧
الموفق طلحة بن المتوكل .	٢٥٦	مالك بن فليته .	٥٧٠
ابراهيم بن محمد بن اسماعيل العباسى .		القاسم .	
أبو المغيرة محمد بن أحمد بن عيسى .		قطب الدين عيسى .	
أبو عيسى بن محمد .		داود بن عيسى .	٥٧٠
الفضل بن العباس بن الحسين .		مكث بن عيسى .	٥٧١
هارون بن محمد بن اسحق .		القاسم بن مهنا .	
أحمد بن طولون .		مكث بن عيسى .	٥٨٧
محمد بن أبى الساح .		القاسم بن مهنا .	
عج بن محلب .	٢٧٩	نكر بن عيسى .	
ابن المهلب .		محمد بن مكث .	
مؤس الخادم .		قتادة بن ادريس .	٥٩٧

الأمراء سنة	الأمراء سنة
عبد الله بن محمد الثائر بن موسى .	٨٢١
المثنى بن الحسن .	٨٢١
الشریف الحسن بن عقيلان .	٨٢٧
نور الدين علي بن عمر بن رسول .	٨٢٨
صارم الدين ياقوت بن مسعود .	٨٤٥
طغتكين التركي .	٨٤٧
راجح بن قتادة .	٨٥١
الشریف الحسن بن علي بن قتادة .	٨٥٩
جهاز بن حسن بن قتادة .	٩١٠
راجح بن قتادة .	٩٣١
عام بن راجح بن قتادة .	١٠٠٣
أبو نعي علي بن قتادة .	١٠١٠
جهاز بن شيخة الحسيني .	١٠١٢
أبو نعي علي بن قتادة .	١٠٣٢
حميضة ورميثة .	١٠٣٧
عطيفة وأبو الغيث .	١٠٣٩
ثقة وعجلان انارميثة .	١٠٤٠
الشرم سند بن رميثة ومحمد بن عطيفة .	١٠٤١
أحمد بن عجلان .	١٠٤١
عنان بن مغامس .	
عنان وأحمد وعقيل .	
علي بن عجلان .	
محمد بن عجلان .	
الحسن بن عجلان .	
رميثة بن محمد بن عجلان .	

سنة	الأمراء	سنة	الأمراء
١١٤٦	الشریف مسعود بن سعید .	١٠٤٢	الشریف زید بن محسن .
»	مساعِد بن سعید .	١٠٧٧	» سعد بن زید .
١١٦٥	» جعفر بن سعید .	»	بركات بن محمد .
١١٧٢	» مساعِد بن سعید .	١٠٨٣	» سعید بن بركات .
١١٧٣	» عبد الله بن سعید .	١٠٩٤	» أحمد بن زید .
١١٨٤	» أحمد بن سعید .	١٠٩٥	» سعید بن سعد بن زید .
١١٨٤	» عبد الله بن حسن .	١٠٩٩	» أحمد بن غالب .
١١٨٤	» أحمد بن سعید .	»	محسن بن حسين .
»	سرور بن مساعِد .	١١٠١	» سعید بن سعد .
١١٨٦	» عبد المعین بن مساعِد .	١١٠٣	» عبد المحسن بن أحمد .
١٢٠٢	» غالب بن مساعِد .	١١١٣	» عبد الکریم بن محمد .
١٢٠٢	» یحیی بن سرور .	»	سعد بن زید .
١٢٢٨	» محمد بن عبد المعین .	»	عبد الکریم بن محمد .
١٢٢٢	» عبد المطلب بن غالب .	»	سعید بن سعد .
١٢٦٧	» محمد بن عبد المعین .	١١١٦	» عبد الکریم بن محمد .
١٢٧٢	» عبد الله باشا ابن محمد بن عون .	١١١٧	» سعید بن سعد .
١٢٧٢	» حسین باشا .	١١٢٣	» عبد الله بن سعید .
١٢٩٢	» عبد المطلب بن غالب .	١١٢٩	» یحیی بن بركات .
١٢٩٧	» عون الرفیق بن محمد بن عون .	١١٣٠	» مبارک بن أحمد .
١٢٩٩	» علی باشا ابن عبد الله .	١١٣٢	» عبد الله بن سعید .
١٣٢٣	» عبد الاله باشا ابن محمد بن عون .	١١٣٦	» محمد بن عبد الله .
١٣٢٧	» حسین باشا ابن علی » » » »	١١٤٣	» مسعود بن سعید .
١٣٢٧	» حسین باشا ابن علی » » » »	١١٤٥	» محمد بن عبد الله .



﴿ انتهى الجدول وبعض ما فيه يخالف لما جاء بكتاب مرآة الحرمين وغيره من التواريخ ﴾

الوهابية ومحمد علي في الحجاز

— * —

في سنة ١١٤٢ ظهر رجل من عرب بادية نجد اسمه محمد بن عبد الوهاب ، تلقى العلم في مكة على بعض شيوخها وأخذ يذيع عقيدة جديدة في الدين الاسلامي ، تجاوز فيها الحد الذي ذهب اليه الامام أحمد بن حنبل ، بل تعالى في بعض الامور غلوأ كبيراً ، وأخذ يرمي على أحياء العرب حياً بعد حيّ يذيع فيهم عقيدته حتى اتبعه كثير من الناس ، وما زال يزداد مريدوه ويكثر تابعوه حتى قوى أمره وخافته البادية . ولما قربت أشهر الحج أرسل الى شريف مكة الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد عشرين رجلاً من قومه ليعرضوا عليه مذهبه ، وليستأذنوا له في حج بيت الله الكريم . فأمر بالقبض عليهم وسجنهم وحكم تكفيرهم ففر منهم نفر الى الدرعية مقر الوهابي وأخبروه بما حصل ، فاستأذنه قومه ممنوعين عن الحج الى سنة ١٢٠٥ . وكان في امارة مكة الشريف غالب فاستأذنه في الحج فأبى فقامت لذلك الحرب بينهم . ورغمما عن موت محمد بن عبد الوهاب في سنة ١٢٠٧ فان الحرب ما زالت رحاها دائرة بينهم الى سنة ١٢١٣ ، وحصل في أثنائها خمس عشرة واقعة كانت الحرب فيها سجالات لا في الاخرة التي تسمى غزوة الحرمة فقد كان فيها للوهابيين النصر المبين . وفي هذه السنة تم الصلح بين الشريف غالب وعبد العزيز بن محمد بن سعود أمير الدرعية « الذي كان يهوم بنصرة الوهابي رغبة في اتساع ملكه حتى ضخم وكاد يستولى على أطراف جزيرة العرب تمامها » وتحددت في هذا الصلح منطقة يهود كل من الطرفين ، وسمح الشريف للوهابيين بالحج في سنة ١٢١٤ . فتح مسعود بن عبد العزيز ومعه خلق كثير . ثم حج أيضاً في عدد عظيم من قومه سنة ١٢١٥ . وفيها حدثت مناورة بين عربان الشريف وقوم سعود أدت الى استئناف الحرب بينهما ، وحصل من جرائها بين الطرفين ثلاث عشرة موقعة استولى ابن سعود في الأخيرة على الطائف سنة ١٢١٧ . وبعد أن تفرق الحجاج في تلك السنة خافه الشريف غالب ففر الى جده مع واليهما شريف باشا . وصار الناس

في مكة لا يقر لهم قرار من الخوف . فعند ذلك قام الشريف عبد المعين بن مساعد وأرسل كتابا الى سعود يطلب منه أمانا لخيران بيت الله الحرام ، على أن يطيعوه ويكون هو عام له على مكة . وأرسله مع وفد من أفاضل أشرف البلد الحرام وعلمائها ، فاجتمعوا لسعود في وادي السيل (على مرحلتين من مكة) وعاهدوه على الطاعة . فكتب لهم أمانا في ورقة صغيرة هذه صورته : « بسم الله الرحمن الرحيم من سعود بن عبد العزيز الى كافة أهل مكة والعلماء والاغوات وقاضي السلطان ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فأتم جيران الله وسكان حرمة آمنون بأمنه ، انما ندعوكم لدين الله ورسوله . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . فأتم في وجه الله ووجه أمير المسلمين سعود بن عبد العزيز ، وأميركم عبد المعين بن مساعد فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله ورسوله والسلام » . وأرسل هذا الأمان اليهم في يوم الجمعة سابع محرم سنة ١٢١٨ . فصعد مفتي المالكية على المنبر وتلاه على رؤوس الاشهاد وقاله الناس بالطاعة .

وفي اليوم الثاني دخل سعود مكة تحريماً ، فطاف وسعى ونحرنحو مائة من الابل ، ثم صعد الى بستان الشريف الذي في المحصب ، وفي ثاني يوم نزل وصعد الى أعلى الصفا وخطب في الناس وتجددت له البيعة . وفي اليوم التالي أمر هدم الباب التي في المعلى بما فيها قبة السيد خديجة ، ثم هدم قبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد أبي بكر وعلى رضوان الله عليهما ، ثم أمر بجمع المؤذنين من الدعاء بعد الأذان وعدم تكرار صلاة الجماعة في المسجد الحرام : فكان يصلي الصبح الشافعي ، والظهر المالكي ، والعصر الحنبلي ، والمغرب الحنفي ، وكانت العشاء لجميعهم . وارتحل سعود عن مكة بعد أن أقام بها أربعة عشر يوماً ، وسار بجنوده الى جدة طالباً الشريف غالباً وحاصرها أياماً فلم يتيسر له أخذها لخصانة سورها وقوة مدافعها التي نالت من رجاله كثيراً . ثم ارتحل الى الشرق ، فعاد الشريف غالب الى مكة في أواخر شهر ربيع الاول ودخلها ظافراً ولم يعارضه الشريف عبد المعين . وأخذت تهد اليه رؤساء القبائل لمخالفته ، واسنأف الحرب مع الوهابيين الى شهر ذي القعدة سنة ١٢٢٠ .

وفيه انعقد الصلح بينه وبينهم على دخولهم مكة لاداء مناسك الحج ثم يعودون الى بلادهم . ومع ذلك فقد كان الشريف غابيا الى الوهابيين اتقاء لشرهم ، ويتظاهر لهم بما يوافق مذهبهم : فكان أحيانا يأمر بهدم ما تقي من قباب الصالحين بمكة وجدة ، وأخرى ينه باختصار المؤدنين على الاذان دون السلام ، وغير ذلك من الامور التي توافق مذهب الوهابية . وفي سنة ١٢٢١ أحرق سعود الحمل المصري بمكة واشترط شروطا على الحمل الشامي وهو في هدية فلم يقبلها ورجع من غير حرج ، ومن ثم انقطع الحملان عن الذهاب الى مكة . وفي هذه السنة أخذ سعود جميع المجوهرات التي في الحجر الشريفة النبوية بالمدينة المنورة وكانت لا تقدر بثمن ، وطردها من مكة والمدينة وكان من طرف الدولة العلية ، واستبدأ امر الحرميين الشريفين استبداداً مطلقاً . فلما بلغ السلطان محمود كل هذا أرسل الى محمد علي باشا بان يسير جيوشه لقتال الوهابي ، فلم يتيسر له تلبية هذا الامر في وقته ، لانه منذ تولى على مصر في سنة ١٢٢٠ وهو يصل الليل بالنهار في ترتيب داخلية وتنظيم مالياتها وتقوية حربيته . فلما توالى عليه الأوامر السلطانية بذلك جهز أول حملة وأرسلها الى ينبع تحت امره ولده طوسون باشا في رمضان سنة ١٢٢٦ ، فلما كوها وما بعدها الى الصفراء بلا صعوبة ، وهناك حصلت موقعة بينهم وبين عثمان المضايقي حاكم الطائف من قبل سعود وكان معه من الوهابيين عدد لا يحصى ، فانهزم الجيش المصري وتشتت شمله في هذه القفار ، وسار طوسون الى القصير وبقي فيها منتظراً أوامره والده .

وفي محرم سنة ١٢٢٧ جهز محمد علي جيشا وأرسله بجرا الى ينبع وأمر طوسون باشا بالذهاب اليها للمحافظة عليها . وجهز في شهر صفر جيشا آخر وأرسله من طريق الرث تحت قيادة صالح أغا السلحدار ، ثم أخذ يوالي ارسال الجنود والذخائر برا وبحرا حتى اجتمع له في ينبع قوة كبيرة . وكان طوسون يكتب الشريف غالبا ويستترشد برأيه ويعمل بتدبيره ، وأرسل الى مشايخ حرب حجاز وافأحسن استقبالهم وأهال عليهم الخلع والاموال ، فساروا في خدمته حتى دخل المدينة المنورة في شهر ذي القعدة وأخرج من كان فيها من الوهابيين ،

وسارت فرقة من الجنود التي في ينبع الى جدة من طريق البحر فدخلوها من غير مقاومة . فلما علم بذلك عسكر الوهابي الذين بمكة خرجوا منها وتركوا قلاعها خاوية . ثم سارت فرقة من الجنود المصرية من جدة الى مكة ، فمالهم الشريف غالب بالاكرام التام ، ودخلوها واحتلوا قلاعها . وبلغ ذلك عسكر الوهابي الذين بالطائف فتركوه وساروا الى الدرعية . ولما وصلت البشائر الى مصر باستيلاء العساكر المصرية على المدينة المنورة وجدة ومكة ، أمر محمد علي باشا بتزوين القاهرة خمسة أيام وأرسل مبشرا الى الحضرة السلطانية بهذا الفتح المبين ، فكان لذلك يوم مشهود في الاستانة .

وفي شهر ربيع الثاني سنة ١٢٢٨ مات سعود بالدرعية وتولى مكانه ابنه عبدالله . وفي ١٤ شوال منها سار محمد علي باشا من مصر قاصدا الحجاز ، فوصل الى جدة في أواخره وكان الشريف غالب حاضرا لاستقباله فيها . وما استقر بها محمد علي حتى أنه رسل من عند ابن سعود يطلب الصلح ، فاشتراط أن يدفع له الوهابي جميع المصاريف التي صرفت على العساكر من أول الحرب الى ذلك اليوم ، وأن يأتي هو لا مضاء هذا الصلح بنفسه . وفي اليوم التالي استعرض عسكره أمام هؤلاء الرسل فأدهشهم حركاته ونظامه . ثم سار محمد علي الى مكة وفي خدمته الشريف غالب ونزل في بيت العرطسي ، ونزل طوسون باشا في بيت السقاف بالشامية . وكان كل من محمد علي والشريف غالب على حذر من بعضهما ، فاراد محمد علي أن يخلو له الجوقا ومرولده طوسون باشا بالقبض على الشريف غالب وأولاده وكان ذلك في أواخر ذي القعدة سنة ١٢٢٨ ، ثم أرسله مع أولاده الى مصر ومنها الى سلايك . وتولى مكانه الشريف محيي بن سرور .

ومكث محمد علي بمكة يرب أمورها ويغزو بجنوده كل قبيلة نبذت طاعته أو نقضت عهده ، وبعد أن حج سنة ١٢٢٩ توجه بعسكره الى الطائف ، ووقع بينه وبين الوهابيين في افتتاح سنة ١٢٣٠ جملة وقائع ملك بعدها تربته وربنة وبيشة وعسير . وكان كل جهة يملكها ينظم شؤونها ويعين عليها أميرا من عنده . وما زال ينتقل من اماره الى أخرى في جزيرة

العرب حتى عاد الى مكة في شهر جمادى الاولى ، فرتب لهم امر تبات الى كثير من الاشراف وغيرهم على حسب ما تقتضى به المصلحة العامة ، وهى باقية لا ولادهم الى الآن . ثم رجع الى مصر بعد أن عين حسين باشا الارناؤوطى والياً على مكة ، وأقام ابنه طوسون باشا قومنداناً عاماً على القوة العسكرية التى بالحجاز .

وفى شهر شعبان من هذه السنة عقد طوسون باشا صلحاً بينه وبين عبد الله بن سعود على أن يترك الحرب ويحقنا الدماء وأن يذعن الوهابى لحكومة الحجاز . وأرسل ابن سعود وفداً من عليه قومه الى طوسون ليؤكدها هذا العهد ، فبعث بهم الى والده بمصر فلم يرق فى عينه هذا الصلح . واستقر طوسون باشا فى الحجاز الى ذى القعدة ، ثم رجع الى مصر بأمر من أبيه فوصلها فى شهر ذى الحجة ، وعملت له فيها زينة كبيرة . وكان ولد له فى غيبته ولده عباس باشا الاول . وما زال بمصر حتى توفى سنة ١٢٣١ بالطاعون وعمره نحو عشرين سنة .

وفى محرم سنة ١٢٣٢ أرسل محمد علي ولده ابراهيم باشا الى الحجاز لحوار الوهابيين . فسار فى عسكر كثيف الى مكة ومنها قصد الدرعية . ولما وصل الى مكان يقال له مرنان وقع بينه وبين الوهابيين قتال شديد انتصر فيه عليهم ، واستولى بعد ذلك على مدينة الشعراء ، ثم سار الى الدرعية فحاصرها فيها عبد الله بن سعود واستولى عليها فى ذى القعدة سنة ١٢٣٣ بعد قتال شديد ، وقبض على عبد الله بن سعود أمير الوهابيين وعلى كثير من بنيه وأهليه ودويه ، وبعد أن جعل على مدينتهم ساقطها سيّرهم الى مصر . فلما أنت البشائر الى محمد علي زين القاهرة زينة كبرى وأمر باطلاق ألف مدفع . ووصل ابن سعود ومن معه الى القاهرة فى أوائل شهر المحرم سنة ١٢٣٤ ، فدخلوها فى موكب عظيم ، وقال محمد علي ابن سعود نانى يوم فى سرايه بشرا بصدر رحب ، وقدم اليه الوهابى صندوقاً صغيراً فيه ما تبقى عنده من الحواهر التى أخذها أبوه من الحجر الشريفة النبوية : ومن ذلك ثلاثه مصاحف مكللة بالحواهر الثمينة ، وثلثمائة حبة كبيرة من اللؤلؤ ، وقطعة كبيرة من الزمرد . ثم أرسل عبد الله بن سعود الى الاستانة فصلبوه على باب همايون . وفى هذه السنة حج ابراهيم باشا وعاد الى مصر فعملت له فيها زينة كبيرة مدة سبعة أيام ، ومن ثم صارت بلاد الحجاز من أدناها الى أقصاها خاضعة لحكم محمد علي .

اماما كان من أمر آل سعود فانهم اجتمعوا أمرهم لاسترجاع نجد الى حكمهم بعد ان هدم ابراهيم باشا دار ملكهم فتم لهم ذلك . وكان الأمير عليهم فيصل بن تركي ابن عم عبد الله بن سعود ، فلما استفحل ملكه خافه محمد علي وسير اليه خورشيد باشا سنة ١٢٥٣ ، فاستولى على الدرعية بعد جملة وقائع بينه وبين الوهابيين ، وقبض على فيصل في سنة ١٢٥٤ وأرسله الى مصر ومعه كثير من آل سعود . وولّى الامارة بعده خالد بن سعود ، فثار عليه عبد الله ابن ثنيان واتزعها من يده . فبلغ ذلك فيصلا بمصر وهو سجين بالقلعة : وكانت له صلة بعباس باشا الاول ، فشكا اليه ما يلقيه من تغلب ابن ثنيان على بلاده ووعده ان هو خلصه من سجنه وصار له الحكم في قومه يصير من رجاله ومن رجال محمد علي . فساعده عباس باشا على الهرب . فسار فيصل حتى نزل على ابن الرشيد أمير شمر ، فاكرم وقادته وسير معه بعض رجاله الى ابن ثنيان . وبلغ ذلك قومه فبادر اليه كثير منهم وساروا معه الى القصيم فحاصرها وأخذ ابن ثنيان أسير او ما زال في سجنه حتى مات ، وتم لفيصل اسديلاؤه على نجد سنة ١٢٥٨ واستقامت له الامور فيها الى أن توفى سنة ١٢٨٢ ، وله من البنين (عبد الله . وسعود . ومحمد . وعبد الرحمن) . فاستولى عبد الله بن فيصل على الامارة ، فوقع خلاف بينه وبين أخيه سعود الذي فر الى البحرين فساعده أميرها وخرح في قبائل العجمان وسار الى نجد ، والتقى برجال أخيه عبد الله وعليهم أخوه محمد بن فيصل ، فحصلت بينهم موقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الفريقين ، وكانت الغلبة لسعود بن فيصل ففر عبد الله أخوه الى العراق وجمع له جموعا والتقى بجيش أخيه سعود الذي كانت له الغلبة عليه أيضا . فمصد عبد الله أطراف نجد يستجد قبائلها فلم يحصل على طائل ، ومن ثم توطدت قدم سعود في الامارة وأخذ يركب كثيرا من المظالم ، ولكن مدته لم تطل بأكثر من سنة حتى عصت عليه قبائل نجد ، وتكدرت عليه أيامه ومات حتف أنفه . وتولى الامارة بعده ولده محمد وعبد العزيز ، فاستجمع عبد الله ابن فيصل قوة واستولى على الرياض عاصمة الامارة . وفر محمد وعبد العزيز الى مدينة الخرج القريبة من الرياض ، وحصلت بينهما وبين عمهما مناوشات انتهت بهدنة بين الطرفين . ثم حصلت بينهما وقائع كانت الغلبة فيها لعمهما عبد الله . وفي هذه الاثناء كانت امارة الرشيد

تتقوى بانقسام الكلمة بين آل سعود ، حتى عسلا أمره . فطمع في امارة نجد وتحرك اغزوة ابن فيصل من الحائل وحصره في الرياض مدة انتهت باستيلائه عليها وأسر عبد الله بن فيصل وأتى به الى الحائل معززا مكرما فاقام فيها نحو سنة ثم طلب الرجوع الى الرياض ، وبعد وصوله اليها توفي فيها . وكان ولدا أخيه سعود (محمد وعبد العزيز) في الخرج . وكان ابن الرشيد غير مستريح منهما فترقب الفرص فيهما حتى قتلهما واستولى على نجد . اما الرياض فكان فيها ولدا فيصل محمد وعبد الرحمن وكان لهما الأمر في بلدهم خاصة وتوفي محمد واستغل بالامر عبد الرحمن . وكانت بلاد القصيم بعد زوال حكم آل سعود مستقلة بيد أميرها حسن بن مهنا ورامل بن سليم فحصل بينهما وبين ابن الرشيد خلاف وقع بسببه حرب كانت الغلبة فيه لابن الرشيد وكان عبد الرحمن بن فيصل قد سار لمساعدة أهل القصيم فلما حصل الظفر لابن الرشيد واستولى على القصيم التجأ عبد الرحمن بن فيصل الى الكويت وهي في اماره ابن صباح واستجمع له قوة اتقوا بها ابن الرشيد ، فظهر عليه ابن الرشيد و بذلك صار له الحكم في كل نجد . وأقام عبد الرحمن في الكويت و رتدت له الدولة العثمانية مر بيا يصله من البصرة حتى مات ، وله من البنين عبد العزيز ومحمد وسعد .

وكانت حصلت فتنة بين مبارك بن صباح وأخوته فمكثهم ففرت أولادهم مع خالهم يوسف ابن ابراهيم الى البصرة . واستغاثوا بالدولة العثمانية فلم تلتفت اليهم . فاستنجدوا بأمر نجد عبد العزيز بن الرشيد فكتب عبد العزيز الى الحكومة العثمانية بان ترخص له بالزحف على الكويت والاستيلاء عليها مدعيان ابن صباح قصد الاستجداد بالاسكيز وتسليم الكويت اليهم . وقصد بذلك اغراء الحكومة العثمانية به وانعلا بها عليه . فقبلت الحكومة كلامه وامدته برجالها وحصل بينه وبين ابن صباح واقعة كبيرة كان النصر فيها لابن الرشيد . فالغ انتصاره الى الحكومة العثمانية وأخبرها انه قتل ابن صباح « وكان خبره غير صحيح » وطلب منها أن يستولى على الكويت . فجهزت العسكر لذلك من البصرة ، وعندها طلب ابن صباح ان مكف الحكومة عداها عنه وتدع الطرفين لبعضهما . فلم تلتفت الدولة الى ذلك فقام عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل من الكويت بجيشه ، وهجم على عامل ابن الرشيد

في الرياض فقتله واستولى عليها وحصنها بسورتين، ثم حصلت بينه وبين ابن الرشيد وقائع كثيرة كانت تارة له وأخرى عليه، واستولى بعدها على أغلب بلاد نجد إلا الحائل وجبال شمر فأنها بقيت في يد ابن الرشيد الى الآن .

وهنا يحل بنا أن نذكر كلمة عن اسرة الرشيد لنتم بها الفائدة فنقول :

كان عبد الله بن الرشيد أميراً على شمر وكان له ثلاثة بنين وهم طلال ، ومتعب ، ومحمد . ولما مات تولى بعده ولده متعب ، فقتله بدر وبدر ولدا أخيه طلال واستوليا على الامارة ، فقتلها عمهما محمد واستولى عليها : وكان رجلاً عاقلاً كريماً سارت الركبان بسيرته وتحدثت الناس بنباهته خصوصاً بعد ان انتهى حرب الوهايبة وأسر عبد الله بن سعود وتشتت آل دودووه . لذلك أخذت سلطة محمد بن الرشيد تمتد في اطراف نجد خصوصاً بعد ان اشتعلت نار الشحنة بين بني فيصل بن تركي . ومات محمد بن الرشيد ولم يعقب ولداً فتولى الامارة عبدالعزيز بن أخيه متعب ، فقتله سلطان وسعود ولدا حمود بن الرشيد واستوليا على الامارة معاً ، ثم وقع بعد ذلك خلاف بينهما فقتل سعود أخاه سلطاناً وأفرق بالولاية . وكان لعبد العزيز بن متعب ولد صغير اسمه سعود هرب به حاليه السهان بعد قتل أبيه الى المدينة ، وأقام بها مدة طويلة ثم سار منها بحيش كبير بتواطؤ مع قبائل شمر ، وهجموا على سعود بن حمود في الحائل وقتلوه واستولى سعود بن عبدالعزيز بن متعب على اماره شمر ولا يزال فيها الى الآن .

— * —

الحرم المكي

كان الحرم المكي في مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم على حدود المطاف الآن ، وهي حدوده القديمة من عهد ابراهيم عليه السلام . فلما كثرت سواد المسلمين زاد فيه عمرو وعثمان شيئاً مما اشتريا من الدور التي كانت حوله ، وزاد فيه عبد الله بن الزبير عندما بنى الكعبة ، وأقام ما كان ترمم منه . وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك وعمه ، وعماراً تذكراً فتشك ، وهو

أول من نقل اليه أساطين الرخام: واهتمام الوليد بالعمارات لا ينكر، يعرفه من شاهد قبلة الصخرة بالقدس الشريف ورأى ما بقى فيها من آثار الموزاييك الذهبية وغيرها من أعمال القيشاني التي تدهش العفل ويحار فيها الفكر. ويوجد في المسجد الاموي بدمشق الى الآن شئ من أثر عمارته لم تصل اليه يد الحريق، وبه أعمال موزاييك ذهبية بدعة جداً على حائط الصحن الجنوبي والغربي.

ولما حج الخليفة محمد المهدي سنة مائة وستين رأى أن البيت ليس في وسط المسجد فاشترى كثيراً من البيوت خصوصاً في الجهة الشرقية القبليّة وزادها في المسجد، وأدخل اليه كثيراً من الارورارات التي كانت فيه وكانت في ملكية الغير، ثم أنى من بعده ابنه الهادي فأكمل ما نقص في مدة والده.

وكانت دار الندوة عامرة بالحرم تجاه الكعبة من الجهة الشمالية الغربية، وكان ينزل بها الخلفاء والامراء في حجهم في صدر الاسلام، ولكنها أهمل أمرها في منتصف القرن الثالث الهجري فأخذت تهدم بناؤها، فكُتِب في ذلك الى الخليفة المعتضد العباسي فأمر بها فهدمت في سنة إحدى وثمانين ومائتين وجعلت مسجداً وفيها قبلة الى الكعبة، ثم جعلوا لها قبة عالية، ثم غير شكلها فيما بعد الى شكل آخر، واستقر مقامها بصلّى فيه الامام الحنفى الى أن أتى الامير كلدى أمير جدة في سنة ٩٤٧ هـ فهدمها، وبنى المقام مربعاً ذا طبةتين: الاولى للامام والمصلين، والثانية للمؤذنين والمبلغين وهو على هذا الشكل الى الآن.

وفي سنة ٨٠٢ احترق الرواق الشرقى، فأمر الملك الناصر فرج بن برقوق ملك مصر بتعمير ما خرب منه، ووضع بدل الاعمدة الرخام التي احترقت أعمدة من الحجر الشميسى. ومن ثم كانت تقوم بعمارده الحرم ملوك مصر، وحسبك العمارة التي قام بها السلطان قايتباي في سنة ٨٨٦.

وفي سنة ٩٧٩، مال الرواق الشرقى من الحرم ميلاً محسوساً فأمر السلطان سليم الثاني بأن يرسل المعمار يون والمهندسون والصناع من جميع الاصناف لعمارة، فأرلوا سقفه

جميعه وأساطينه كلها وهدموا محيطه وبنوه على الترتيب الحالي، وأقاموا أعمدة الرخام بين أساطين حجرية متناسبة الوضع، وبنوا عليها قبا بأبدل السقوف التي كانت تطحنها يد الرطوبة المتخلفة من الأمطار، مع ما كان يكثر فيها من الحيوانات التي اشتهرت بعداوتها للأخشاب كالارضضة والسوس وغيرهما من الحشرات المضرة. وفي أثناء هذه العمارة مات السلطان، وكان الذي انتهى منها الجانب الشرقي والشمالي فقط، أعني من باب على إلى باب العمرة. ولما تولى السلطان مراد خان أمر بنقش العمارة على الوجه الذي كان قد أمر به والده، فتمت على أحسن حال بالشكل الذي تراه الآن. وليس لمن بعده من السلاطين بهذا الحرم الأعمارات ترميمية أو تكميلية.

وفي هذه العمارة نزل العمال بأرضية الشارع الموصل إلى المسفلة، بحيث صار يصرف ماء ساه يدخل إلى الحرم من مياه السيول التي كثيراً ما كانت سبباً في بعض أركانها وهدم بنيانه. وكانت الزيادات التي تتحلف من الدور التي دخلت في ترسع الحرم الشريف في كل عماراته يبنى بعضها مدارس وبعضها أروقة يسكن فيها فراء طلبة العلم في المسجد، وكان لها أوقاف جمة. ولكن كثيراً ما تغيرت أوقافها واستبدلت بغيرها وأخرجت من يد واقف إلى يد غيره أقوى منه، ومن ذلك مدرسة قايتباي التي لا تزال الآن على يسار الداخل من باب السلام، فإنها بعد أن كانت مدرسة تدرس فيها علوم الدين ولها أوقاف بمصر تصرف غلاتها عليها، ضعفت أوقافها شيئاً فشيئاً، فملوها من دار علم إلى دار ضيافة كان ينزل إليها أمراء الحاج المصري، ثم صار يسكنها بعض أشرف ذوي غالب وهي في أيديهم إلى الآن. ولا يزال المحملان المصري والشامي بوضعان أيام وجودهما بمكة لصق حائطهما الذي من داخل الحرم، وبحوارهما من الخدم ما يهوم بحراستهما. وعلى يمين باب السلام مدرسة يقال لها المدرسة السليلية بها كتب خزانة تقدم الكلام عليها في مكة.

والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريباً) وفي وسطه (بميل إلى الزاوية الجنوبية) الكعبة المكرمة. وطول ضلع الحرم المقابل للحطيم وهو الذي فيه باب الزيادة مائة وأربعة وستون متراً، وطول الذي يقابله وهو الذي فيه باب الصفا مائة وستة وستون متراً،

وضلعه الذى فيه باب السلام مائة متر وثمانية ، والذى يقابله وهو الذى فيه باب ابراهيم مائة وتسعة أمتار : فيكون مسطحه من الداخل سبعة عشر ألفاً وتسعمائة واثنتين من الامتار المربعة ، وهو ما يزيد عن أربعة أقدنة وربع . أما من الخارج فتوسط طوله مائة واثنتان وتسعون متراً ، وعرضه مائة واثنتان وثلاثون متراً (وهذا حسب تحقيق المرحوم محمد صادق باشا أمير الحاج المصرى) . ويحيط بالحرم من داخله أربعة أقدنة وثلاثمائة وأحد عشر عموداً ، يتخللها مائتان وأربع وأربعون اسطوانة من الحجر الشميسى الاحمر ، تقوم عليها قباب على محيط المسجد . وعلى بعض هذه العمد كتابة محفورة فيها ، تدل على ما كان لبعض الملوك من العماره فى المسجد أو من الاعمال التى فيها نفع للمسلمين كإبطال المكوس ونحو ذلك : ومن هذه الاعمدة عمود قرب باب الحزورة لا يزال مقوشاً عليه عهد كتبه الاشرف شعبان سلطان مصر بإبطال المكوس التى كانت تأخذها أشرف مكة على الحجيج . وأغلب هذه العمد مطلى بالجبس : لأن بعض أمراء مكة ساء بهم الله كانوا اذا أرادوا بعض اليهود المحفورة عليها ، عمدوا الى تلك النقوش وكسوها بعجينة من الجبس فلا يظهر لها أثر .

وأبواب الحرم ثمانية فى الجهة الشمالية : وهى باب الدريه ، وباب المدرسة ، وباب المحكمة وباب الزيادة ^(١) ، وبجواره الى الغرب باب القطي ^(٢) ، وباب الباسطية ^(٣) ، وباب الزمامية ، ثم باب عمرو بن العاص ^(٤) . ويليه من الجانب الغربى ثلاثة أبوابها باب العمرة ^(٥) وباب ابراهيم ^(٦) ، ثم باب الحزورة ^(٧) . ويليه من الجهة الحنوية سبعة أبواب : أولها باب أم هانئ ^(٨) ، وباب العجلة ^(٩) ، (ويسمونه باب التكية) ، وباب الرحمة (أو المحاهدية) ،

(١) لأن هذه الجهة رادت فى المسجد فى عمارته الاخيرة . (٢) نسبة الى القطي صاحب نار بج مكة وكانت له مدرسة يقيم فيها . (٣) لأنه محاور لمدرسة عبدالباسط . (٤) وكان يسمى الباب العميق وباب السدة . (٥) لأنهم يخرجون منه الى العمرة ويقال له باب بى سهم . (٦) وهو نسبة الى رجل خياط كان يسكن بجواره . (٧) وكان يسمى باب بى الحكم ، والحزورة اسم لسوق فى الحاهلية كانت فى هذا المكان ودخلت فى الحرم عند توسعته . ويسمونه باب الوداع لأن الناس يخرجون منه عند سفرهم . (٨) وهى روجه هيرة بن عمرو المحروم ولها كان لها بيت هناك أدخل فى الحرم .

(٩) وكان يقال له باب بى نعيم .

وباب أجياد أو (السنبلة)، وباب الصفا، وباب بني مخزوم، ثم باب بزان^(١). وبلى ذلك من الجهة الشرفية أربعة أبواب : وهي باب بني هاشم (أو باب علي)، وباب العباس^(٢) (أو باب الجنائز)، وباب النبي^(٣)، ثم باب السلام^(٤) وهو الذي يدخل الحاج منه إلى الحرم عند طواف القدوم. ومجموع هذه الأبواب اثنا عشر باباً، ولكن منها ما لم يدخل واحد ومنها ما لم يدخلان أو ثلاثة أو خمسة فيكون مجموعها تسعة وثلاثين مدخلا.

وفي رحبة باب إبراهيم تجد آلافاً من فقراء حجاج الدكارنة واليهود والمغاربة وفيهم كثير من المقعدين^(٥) الذين لا يفدرون على الحركة، فيمضون هناك أيامهم عائشين من حسنة أو باب الخير، وربما كان منهم بالمسجد ما تلجئهم الضرورة إليه مما لا يصح التوسع في شرحه. وهذا أمر لا يليق بكرامة حرم الله ! فهل لحكومة الحجاز أن تفكر في أمر هؤلاء البؤساء وتقيم لهم دار ضيافة يأوون إليها ولو في مدة الموسم، وعسى أن ديوان الأوقاف بمصر أو الأستانة يتدارك ما أهملته حكومة الحجاز فيكون له الثواب الجزيل.

وفي المسجد ست منارات : الأولى منار باب العمرة وهي من أعمال الخليفة المنصور العباسي في عمارته للمسجد سنة مائة وثلاثين، ومنار باب السلام، ومنار باب علي، ومنارة الحرورية وهي من أعمال المهدي العباسي في عمارته للمسجد سنة مائة وثمانيه وستين،

(١) لقربه من سقاية ناران ويسمونه باب العملة.

(٢) لأنه مقابل لدار العباس وسمى باب الحائر لأنه يخرج منه إلى الملقى.

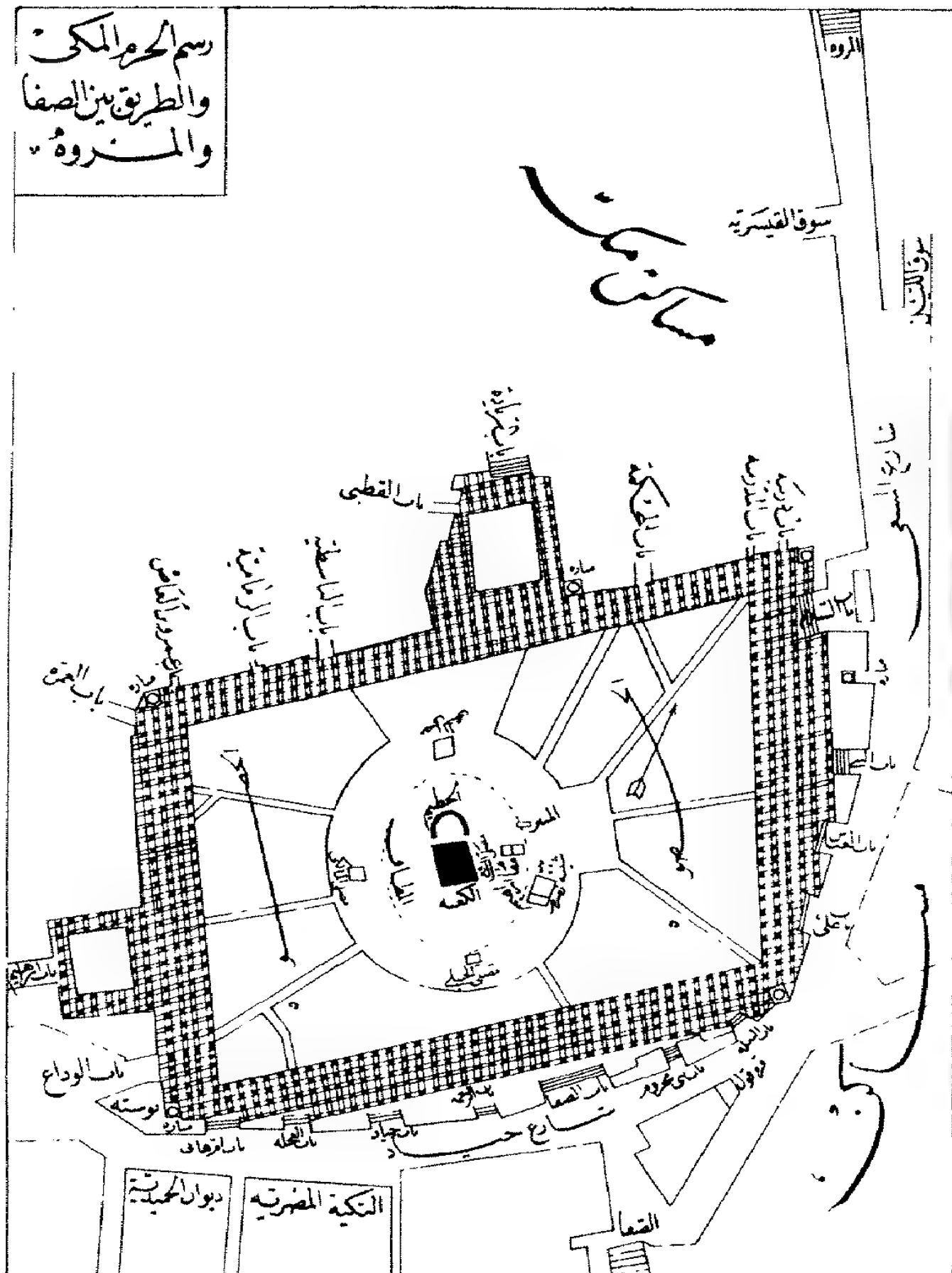
(٣) لأنه كان صلى الله عليه وسلم يدخل المسجد منه لقرنه من دار حديجة.

(٤) وكان يسمى في الأهلية باب بني عبد شمس وعرف الآن باب بني شبة. وسمى باب السلام لدخول

الناس منه عند طواف القدوم الذي هو تحية المسجد الحرام.

(٥) أغلب هؤلاء المقعدين من عبيد أهل مكة الذين إذا وصلوا إلى الشجوة أو اعترتهم غاهة تعمد بهم عن العمل طردهم سادتهم تخلصاً منهم، فيلجئون إلى باب الله الحرام ويعيشون من لقيات أهل الخير حتى يبولاهم الله بأحدى الحسينين : من كات القاصيه فقد أراحهم الله من دسائهم، وان كات العافيه استردهم سادتهم إلى خدمهم^(١). ولا بد لحكومة الحجاز أن ترى رأيها في هؤلاء البؤساء فتحمل لهم ملجأ يأوون إليه خدمه للاستباية. وبهذه المناسبة نقول لك ان أهل مكة يعملون مثل ذلك في حرمهم أو خيلهم التي يقعد بها كبر السن أو المرض : فيسكنونها في شوارع مكة تلحس القمامة من طرفها وما يصح منها أحده أصحابه للاستعمال في خدمهم مرة أخرى !

رسم الحرم المكي
والطريق بين الصفا
والمنزوة



ومنارة باب الزيادة وهي من أعمال المعتضد العباسي سنة مائتين وأربع وثمانين، ومنارة السلطان قايتباي . وقد حصلت في جميعها ترميمات وزيادات في مدة العماراة التي قام بها السلطان سليم الثاني في المسجد ، وكلها باقية لآن يؤذن عليها في الاوقات الخمس . وشيخ المؤذنين أو الميفائي يؤذن على قبة زمزم ، وفيها مزولة مثبتة في حائطها الجنوبي ، من عمل رجل من مراكش أهداها الى الحرم ، وهي عاية في الضبط والاحكام وعليها ميثاقهم في النهار . فاذا دخل الوقت بدأ الرئيس بالادان فيتبعه المؤذنون الذين على المنارات بأصوات يحركها الهواء على طبله الادن فتحدث لها اهتزازات في القلب يعتلي منها خشية ورهبة وخشوعا وخضوعا .

وعلى حدود المطاف لبقاء كل ضلع من أضلاع البيت ، سفينة قامت على أعمدة من الرخام : فالشامية مصلى الامام الحنفى ، والغربية للامام المالكي ، والجموية للامام الحنبلى ، أما الامام الشافعى فيصلى في مقام ابراهيم أو في المطاف مما يلي الكعبة مباشرة جاعلا بابها على يساره . والحنفى يتدى بالصلاة في جميع الاوقات ويتلوه المالكي ثم الشافعى ثم الحنبلى ، الاصلاته الصبح فيبدأ بها الشافعى ويتأخر بها عنهم الحنفى . ومما يلاحظ في الحرم ان أهل كل جهة من العالم الاسلامى يجلسون عادة في الجهة التى يستقبلون فيها الكعبة في بلادهم : فالاعجم تجدهم عند باب السلام ، والشوام والأتراك يسهو بين باب الزيادة ، والمصريون وراء المقام المالكي ، واليمانيون والحاوذه واليهود وراء المقام الحنبلى . ومن أعرب ما شاهدت ان بعض المصريين يستعمل هناك البوصلة التي عملت للصلاة بمصر ولوحظ فيها الاتجاه لجهة مخصوصة ، ولا يمكن أن تؤدي وظيفة الا في البلاد التي على اتحاد مصر من الكعبة ، أما اذا وضعت مثلا في طريق المدينة أو اليمن أو الطائف فانها لا تؤدي وظيفة بالمرّة ، فليهم ذلك من يحمله .

وللحرم سخن كبير غير مسقوف تقطعه مماش محجوره ، وما يها أرض بها زلط دون العولة يسمونها الحصباء ، وأول من حصب أرضية الحرم عمر رضى الله عنه . والكعبة في وسط سخن المسجد بميل الى الجنوب ويليها من الشرق مقام ابراهيم . وفي جنوبه الشرقى قبة زمزم التي بناها

باب الصفا بالحرم المكي



أبو جعفر المنصور في سنة مائة وخمسة وأربعين وفرش أرضها بالرخام، وعمقها المأمون، أما الشبكة التي على فوهتها فقد أمر بعملها السلطان أحمد العثماني. وشرقي زمزم إلى الشمال باب شيبة، وهو بأكية كبيرة قامت وسط الحرم في حدود المطاف، على عمودين من البناء المكسو بالرخام، في المكان الذي كان به باب المسجد في مدته صلى الله عليه وسلم. وفي شمال المقام المنبر، وهو من الرخام غاية في حسن الصناعة أهداه إلى الحرم السلطان سليمان القانوني، ومكتوب على بابه بالخط الذهبي الحيل (انه من سليمان وانه سم الله الرحمن الرحيم). وأول من وضع المنبر في المسجد الحرام معاوية بن أبي سفيان حين قدومه إلى مكة حاجاً. وكان الخلفاء قبله يخطبون على أرضية المسجد تحت جدار الكعبة أو في الحجر، ثم أهدى إليه سنة مائة وسبعين منبر من خشب جميل من صناعة مصر لمناسبة حج الرشيد الذي خطب الناس عليه في حجه في السنة المذكورة. وفي خلافة الواثق أمر بعمل له ثلاثة مابر: واحد وضع في الحرم، والثاني في عرفة، والثالث في منى، وخطب في حجه عليها جميعها. وقد كان الخطباء إذا أرادوا الخطبة في الحرم وضعوا المبر لصق جدار الكعبة بين الركن الأسود والركن اليماني، فإذا أراد الخطيب أن يحط استلم الحجر أولاً ثم دعا وصعد المنبر. وبعد الخطبة كان ينقل المنبر إلى مكانه بجوار زمزم، فلما أهدى السلطان سليمان إليه منبره الرخامي بقي مكانه واستقرت فيه الخطبة إلى اليوم. وفي حوائط المسجد الحرام من الداخل أبواب بعضها منافذ لبعض المدارس على الحرم، وبعضها مخارن في يد خدمة المسجد أو الزمزمة، وهؤلاء يستعملونها أحياناً للاستحمام كبراء الحجاج فيها بماء زمزم أو وضوئهم منها.

والحلمة فشكل (١) الحرم المكي على بساطته في بنائه نفيم جداً، ووضع صحبي،

(١) ومما نراه على شكله تقريباً جامع عمرو بمصر القديمة، ومسجد أحمد بن طولون بالقاهرة وإن كان في مساحته أكبر من الحرم: ويقال أن هذا المسجد بني تماماً على شكل مسجد في مدينة سر من رأى، وهي بلدة كانت تبعد عن بغداد بحوالي ثلثين ميلاً، وكان اسمها أولاً سامرافكبرها المصمم بالعمارة وبني له فيها قصرًا جميلًا وسماها سر من رأى. وفي وسط صحن مسجد ابن طولون قبة عالية تحميها ميصاة وصعد على شكل مربع بقرب وضع بيت الله العظيم من المسجد الحرام وتسميها العامة بالكعبة، ومحوار هذه القبة من جهة القبة ميعة (بصح الأول وسكون الثاني) من الخشب يزعمون أنها من سفينة نوح ولكم ساجدهم الله إذا كانوا وصعدوا ذلك الكباراً لشأن هذه الكعبة المزورة فهل يمكنهم أن يرشدونا عن الرمان والمكان اللذين عثروا فيها على آثار أول سمينة في العالم؟

وصحبه الكبير يؤدي ملاشك للمدينة وظيفة الميادين الكبرى، كما سبق لك بيانه في الكلام على مكة .

وشيخ الحرم هو الوالى عادة ، وللحرم الشريف نائب، وقائم للنائب، ومدير يقوم بشؤونه . وعدد خدمة الحرم الشريف ٧٠٠ نفس : منهم ١٢٢ خطباء وأئمة للمذاهب الاربعة . و ١٠٧ مدرسون . و ٤٥ مؤذنون . و ١٠ مشدون . و ١٢ فراشون . و ٨ وقادون . و ٢٠ كناسون . و ٣٠ بوابون . و ١١ جبادون (ملاءون) من نثر زمزم . و ١٠٨ غسالون لقناديل الحرم . وهناك وظائف أخرى أخصها وظائف الاغوات وعدد هم ٥١ وهم يقومون بخدمات مختلفة فى الحرم ، وأول من رتب الاغوات فى الحرم المكي للخدمة فيه هو الخليفة أبو جعفر المنصور . أما الذين يقومون بخدمة الكعبة المكرمة فهم سدنتها من بنى شيبة . والخدمة فى الحرم وراثية غالباً ما عدا شيخه ومديره فانهما يعينان من طرف السلطنة العظمى ، ووظيفة الاول تكاد تكون سياسية أكثر منها ادارية . والخدمة فى الحرمين الشريفين محترمة جداً ويتشرف بالنسبة اليها الخلفاء والسلاطين من زمن بعيد الى الآن . ويوجد ضمن رتب الدولة العلية العالية رتبة مخصوصة اسمها « خادم الحرمين » .

الكعبة المعظمة

كان الله تعالى يرسل رسله الى خلقه فى ظروف مخصوصة ليعلموهم واجباتهم فى دينهم وديناهم ويرشدوهم الى طريق الخير الذى به تتم السعادة الحقيقية . فاذامضت على ذلك فترة من الزمن خبط الناس فى سيرهم وخلطوا بين عمل صالح وآخر سيئ ، حتى اذا تغلب عليهم عامل الفساد بطبيعة الحال ساء أمرهم ونسوا رساله ربهم اليهم وضلوا ضلالاً مبيناً . ولما كان من طبيعة الوجود ضرورة وجود خالق قوى قادر ، صار كل انسان يتخذ له معبودا على ما يتجسم فى ضميره ويتعظم فى وجدانه : فكان هذا يعبد النار لزعمة انها القادرة على كل شئ . وذلك يعبد الشمس لان بها نظام العالم ، وآخر يعبد الاحجار لانها هيولى هذا الوجود : وهؤلاء الاخيريون

في أي القبائل تختص بشرف وضعه في محله ، وكاد يفضي الأمر إلى إشهار السلاح فيما بينهم . وكان صلى الله عليه وسلم يعمل معهم وعمره اذذاك خمس وثلاثون سنة ، وكان له فيهم شأن عظيم لحسن سيرته وكمال أخلاقه ، وكانوا يسمونه بالأمين ، فارتضوه حكماً . فطلب رداء ووضع فيه الحجر وأمر القبائل فامسكت بأطرافه ، ورفعوه بالحجر حتى إذا وصل إلى مكانه من البناء في الركن الشرقي وضعه فيه بيده الشريفة : وهذه الفكرة السامية والسياسة الرشيدة انتهت الشحنة من بين القبائل ، وهم له شاكرون وبشدة ذكائه متحدثون . وكانت النفقة قد قصرت بهم فبنوا الكعبة على ما هي عليه الآن . وكان الحجر أولاداً فيها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة رضي الله عنها : « لولا أن قومك حديثو عهد بآل سلام لهدمت الكعبة فالزقتها بالارض ، ولجعلت لها باباً شرفياً وباباً غربياً ، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فان قرىشا استعصرتا حينما بنت الكعبة » . فلما ولي عبد الله بن الزبير أمر مكة ، سـير يزيد بن معاوية إليه الحصين بن نمير في عسكر كـثيف . فالتجأ ابن الزبير إلى المسجد الحرام ، فضربه الحصين بالمنجنية فاصابت بعض مقذوفاتها الكعبة فهدمتها واحرقت كسوتها مع بعض خشابها ، حتى إذا بلغه هلاك يزيد رجع عن معـه عن مكة . ثم رأى ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويبنيها على قواعد إبراهيم مستنداً على حديث عائشة السابق ذكره . فهدم الكعبة وأتى لها من اليمن بالحصص التي فيهاها ، وادخل الحجر في البيت ، والصق الباب بالارض وجعل قبالة إلى الغرب باباً آخر ليخرج الناس منه ، وجعل ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً . ولما فرغ من بنائها طيها بالمسك والعنبر داخلاً وخارجاً من أعلاها إلى أسفلها وكساها بالديباج . وكان انتهاء هذه عملية هذا البناء في ١٧ رجب سنة ٦٤ للهجرة . فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان سـير الحجاج بن يوسف الثقفي إلى ابن الزبير فحاصره في مكة ، ورماه بالمنجنية حتى استشهد رضي الله عنه في سنة ٧٣ . ودخل الحجاج مكة وكتب إلى عبد الملك بما جده ابن الزبير في الكعبة ، فولاها عليها وأمره أن يعيدها كما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهدم الحجاج من جانبها الشامي (الشمالي) قدر ستة أذرع وشبر ، وبنى ذلك الجدار على أساس قرىش ، ورفع الباب الشرقي وسد الغربي ولم يغير من

بأقربها شيئاً ، ثم كبس أرضها بالحجارة التي فصلت عنها .

وعليه فالكعبة الآن على بناء ابن الزبير من جوانبها الشرقي والجنوبي والغربي ، وبناء الحجاج من جانبها الشمالي . ولم يطرأ عليها بعد ذلك الا العمارة التي تغير فيها سقفها في زمن السلطان سليمان سنة ٩٦٠ ، ثم العمارة الترميمية التي حصلت في زمن السلطان أحمد سنة ١٠٢١ وتاريخها محفور في قطعة من الرخام مثبتة في الشاذر وان على يد المعين وهذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أمر بعمارة سقف البيت الشريف و تجديد ميزاب الرحمة وتفوية جدار بيت الله الحرام السلطان أحمد في شهر محرم سنة ١٠٢١ » . ثم اغتبتها العمارة التي قام بها السلطان مراد الرابع على اثر السيل الهائل الذي حصل في سنة ١٠٣٩ ووصل ارتفاعه الى مترين فوق أرضيتها ، فهدم من حوائطها الشمالي والغربي والشرقي ، أما ما عمر فيها بعد ذلك فشيء لا يذكر .

شكل الكعبة

الكعبة الآن من الخارج على التعديل الذي رجع اليه الحجاج ، وهو ما كانت عليه مدة النبي صلى الله عليه وسلم ، ذات شكل مربع تقريباً ، مبني بالحجارة الزرقاء الصلبة . ويبلغ ارتفاعها خمسة عشر متراً ، وطول ضلعها الذي فيه الميزاب والذي قبالة عشرة أمتار وعشرة سنتيمترات ، . وطول الضلع الذي فيه الباب والذي يقابله اثنا عشر متراً . وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويصعد اليه بواسطة مدرج يشبه مدرج المنبر . والمدرج الحالي من الخشب المصفح بالفضة أهداه الى الكعبة أحد أمراء الهند ، ولا يوضع في مكانه منها الا اذا فتح بابها للزائرين في الاحتفالات الكبرى : وهي غالباً لا تزيد عن خمس عشرة مرة في السنة . وفيما عد ذلك ترى هذا المدرج بجوار فبسة زمزم من جهة باب شيبة ، ويصعدون اليها

يسلم صغير من الخشب . وفي الركن الذي على يسار باب الكعبة الحجر الاسود على ارتفاع متر وخمسين سنتيمتراً من أرضية المطاف .

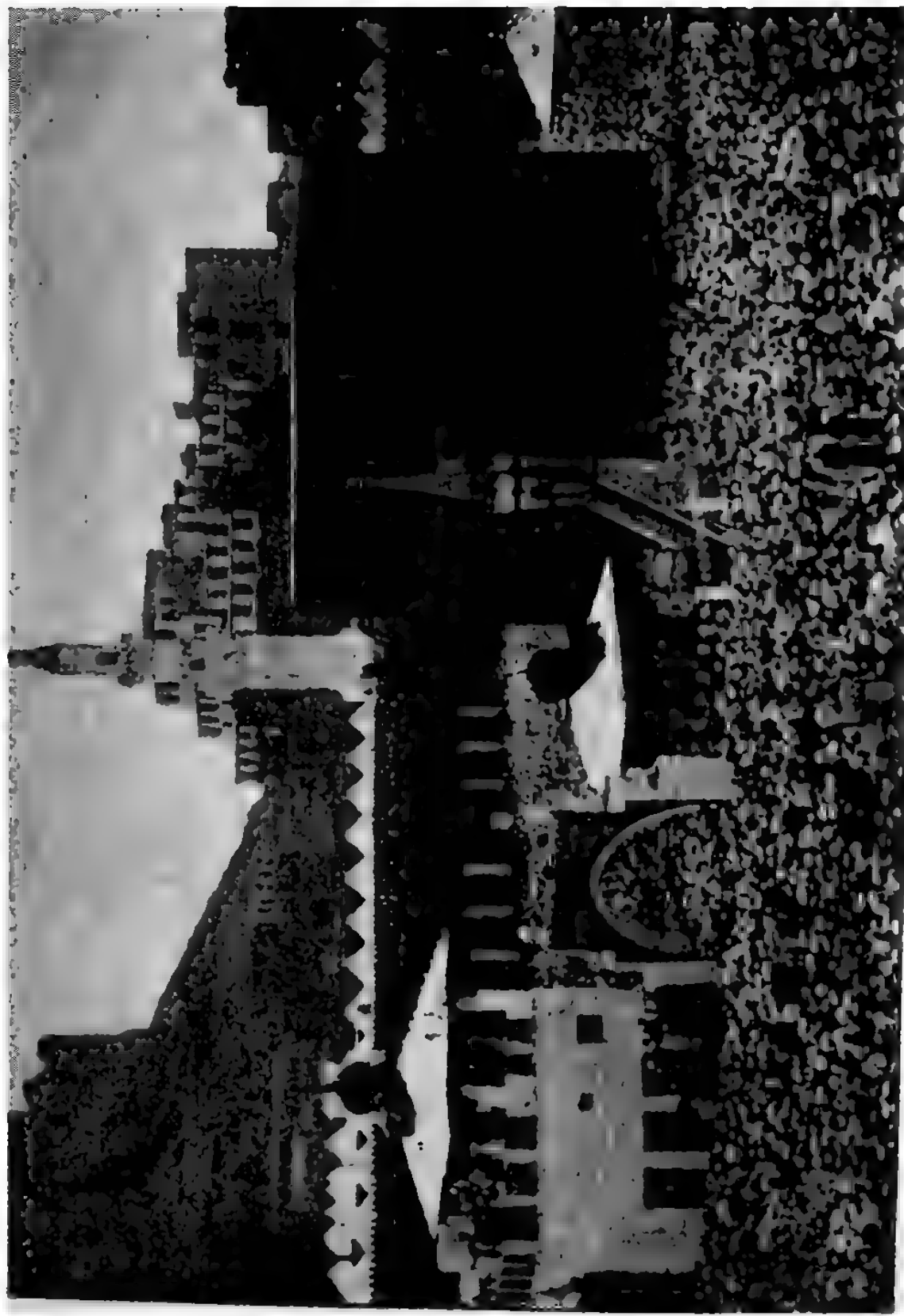
ويحيط بالكعبة من خارجها قصبة من البناء في أسفلها ، متوسط ارتفاعها خمسة وعشرون سنتي متراً ، ومتوسط عرضها ثلاثون سنتي متراً ، وتسمى بالشاذر وان ، وهي من أصل البيت تركت خارجة عنه في بناء قريش لها قبل الاسلام لاختصارهم في بنائها .

والشاذر وان معناه ما يحيط بالسلسيل ، وكانوا يطمعون في العمارات المصرية القديمة على محيط النافورات التي كانت في وسط الفاعات الكبرى .

وعلى ظني انه هنا من أثر عمارة الحجاج ، أقامه ليقى جدار البيت المعظم من تأثير الامطار والسيول التي كانت ولا تزال تنزل بكثرة الى المطاف : ودل هذا على ذلك انما هو لفظه الفارسي الذي لا بد أن يكون من وضع عملة من الفرس استحدثهم الحجاج بن يوسف لعمارته . ولا يبعد أن يكون ذلك من عهد ابن الزبير ، يؤيده ما ورد في الاغانى من أن ابن سريج سئل عن من تعلم الغناء على الفاعده التي كان يغنى عليها مع انها ما كانت معروفة عند العرب ، فقال إنه تعلمها من عملة من الفرس كان ابن الزبير استحدثهم لبناء الكعبة ، وكانوا تغنون بأغنية لطيفة فأخذها عنهم وأضاف نغماتها على النغمات العربية وغنى بها . وعلى كل حال فالشاذر وان والميزاب لفظان أعجميان ، ولم يرد ذكرهما على مدته صلى الله عليه وسلم .

ويسمون زوايا البيت الخارجة بالاركان : فالشمالى منها يسمونه بالركن العراقى لانه الى جهة العراق ، والغربى يسمونه الشامى لانه متجه الى جهة الشام ، والقبلى يسمونه اليماني لاتجاهه الى اليمن وفيه حجر يسمونه الحجر الاسعد ، والشرقى يسمونه الركن الاسود لان فيه الحجر الاسود : وهو حجر صقيل بيضاوى غير منتظم ولونه أسود يميل الى الاحمر وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ، وهي أثر لحام القطع التي كانت تكسرت منه ، وقطره نحو ثلاثين سنتيمتراً ، ويحيط به اطار من الفضة عرضه عشرة سنتي مترات ، والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم ، وهو ما يلزمه الطائف في دعائه واستغاثته .

ويخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعلاه الميزاب (المزارب) ويقال له



COCHINE & ANDERSON, CHICAGO

الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود
في أوقات الصلاة من المسجد

ميراب الرحمة ، وهو من عمل الحجاج وضعه على سطحها حتى لا تقف عليه مياه الامطار :
 وكان من نحاس فغيره السلطان سليمان القانوني سنة ٩٥٩ بآخر من الفضة ، وتجدد في سنة
 ١٠٢١ مدة السلطان أحمد بغيره من الفضة المنقوشة بالماء الزرقاء تتخللها النفوش الذهبية ،
 وقدر أيتيه محفوظا في دار الآ نارا السلطانية الخصوصية بالاستانة . وفي سنة ١٢٧٣
 أرسل اليها السلطان عبد الحميد بيزا من الذهب وهو الموجود بها الآن .

وقباله الميزاب من الخارج يوجد الحطيم : وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتي البيت
 الشمالية والغربية ، ويبعدان عنهما بمسافة مترين وثلاثة سنتيمترات ، ويبلغ ارتفاعه متراً
 وسمكة متراً ونصفاً ، وهو مغلف بالرخام المنفوش وفي محيطه من أعلاه كتابة محفورة بالخط
 المعلق فيها آيات قرآنية وتاريخ من قام بعمارته . ومسافة ما بين منتصف هذا القوس من
 داخله الى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربع وأربعون سنتياً ، والقضاء الواقع
 بين الحطيم وحائط البيت هو ما يسمى بحجر اسماعيل (تكسر الحاء وسكون الجيم) وقد كان
 يدخل منه ثلاثة أمتار تمر ياً في الكعبة في بناء ابراهيم ، والباقي كان زريبة لغنم هاجر
 وولدها ، ويقال ان هاجر واسماعيل مدفونان به .

أما الكعبة من الداخل فشكلها مربع مشطور الزاوية الشمالية ، وهي التي على عین الداخل ،
 وهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبة ، يوصل الى سلم صغير يصعد به الى سطحها .
 وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القاقلي ، عليها مصير ترك على حائط
 الميزاب من جهة وحائط الحجر الاسود من اخرى . وقطر كل عمود نحو ثلاثين سنتي متراً .
 وهذه الأعمدة من زمن عبد الله بن الزبير ، وقيمتها أكرم من أن يقدر لها ثمن ، ويقال ان عليها
 كتابه محفورة فيها ولكن لم أرها . وقد ذكر أنه كان بالكعبة قبل الاسلام ستة أعمدة ولا
 أدري ان كانت من البناء أو من الخشب . ويعطى سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة
 من الحرير الوردي عليها ربعات مكتوب فيها « الله جل جلاله » ، قد أهداها اليها السلطان
 عبد العزيز رحمه الله ، وفي قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلي فيه النبي عليه
 الصلاة والسلام .

ويحيط ببناء البيت من الداخل إزار من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين ، وقد وضع في الحائط الغربي ألواح محفور في الأول منها : « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت المعظم العبد الفقير الى رحمة ربه يوسف بن عمر بن علي رسول ، اللهم أيد ديارك كريم بعز يزورك واغفر له دنوبه برحمتك يا كريم يا غفار يا رحيم » . ومكتوب حول هذه اللوحة : « رب أو زعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه لي تار يخ سنة ثمانين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » . وإلى جواره لوحة مكتوب فيها : « أمر بتجديد سقف البيت الشريف وجميع داخل الحرم وخارجه مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان سنة سبعين وألف » . ثم لوحة أخرى فيها « ربنا تقبل منا لك أنت السميع العليم ، تقرب الى الله تعالى بتجديد رحام هذا البيت المعظم المشرف العبد الفقير الى الله تعالى السلطان الملك الاشرف أبو النصر برسباي خادم الحرمين الشريفين بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله بتار يخ سنة ست وعشرين وثمانمائة » . وفي لوحة أخرى « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعسامة البيت المعظم الامام الاعظم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله أقصى آماله وتقبل منه صالح أعماله في شهر ر سنة تسع وعشرين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » . ثم لوحة أخرى منقوش فيها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت العتيق المعظم الفقير الى الله سبحانه وتعالى خادم الحرمين الشريفين مؤمن الحجاج في البرين والبحرين السلطان ابن السلطان السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان خلد الله تعالى ملكه وأيد سلطته في آخر شهر رمضان المبارك المسطر في سلك شهر سنة أربعين بعد ألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية » . وفي الجدار الشرقي لوح مكتوب فيه « أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك أبو النصر قايتباي خلد الله ملكه يارب العالمين ، عام أربع وثمانمائة من الهجرة » . وفي الجدار الشمالي مكتوب على باب التوبة هذه الايات .

قد بدد التعمير في بيت الاله (١) * قبله الاسلام والبيت الحرام

(١) من هذا الشر يمكنك أن تحكم على مقدارة بحر اللغة العربية ببلاد العرب وخصوصاً في القرامص منها حوالي القرن الحادي عشر للهجرة .

أم خاقان الورى مصطفى خان * دام بالنصر العزيز المستدام
بادرت صدقا الى التعمير ذا * انما كان بالهام السلام
وارتجت من فضله سبحانه * أن يجازيها به يوم القيام
قال تاريخاً له قاضى البلد * عمرته أم سلطان الانام

بمباشرة أحمدك فى سنة تسع ومائة وألف . وبلغنى ان فى البيت حجراً مكتوباً بالكوفى
ويقال انه قديم جداً وانه من القرن الاول للهجرة ، وان صح ذلك كان من عمل الحجاج
ابن يوسف . وبجانب الباب على يسار الداخل طاولة من الخشب مغطاة بستارة من الحرير
الاخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة ، وهومن الاطلس الاخضر المزركش
بالفصص ، يأتى اليها سنوياً من مصر مع الكسوة الشريفة . ومعلق بسقف البيت كثير مما
بقى من الدخائر التى أهديت اليه ، ومن ذلك عدة مصايح ذهبية وفضية لا تقل عن
مائة ، ومنها مصباحان ذهبيان مرصعان بالجواهر أهداهما للكعبة السلطان سليمان القانونى
سنة ٩٨٤هـ .

وتفتح الكعبة فى العاشر من المحرم للرجال ، وفى ليلة الحادى عشر منه للنساء ، وفى ليلة
الثانى عشر من ربيع الاول للدعاء للسلطان من غير ان يدخلها أحد من الزائرين ، وفى صبيحته
للرجال ، وفى مساءه للنساء ، وفى العشرين منه لغسيل الكعبة بحضور الشريف
والوالى ، وفى أول جمعة من رجب للرجال ، وفى تاليه للنساء ، وفى صباح تاليه للرجال ، وفى
مساءه للنساء ، وفى ليلة النصف من شعبان للدعاء للسلطان ، وفى صباح تاليه للرجال ، وفى
مساءه للنساء ، وفى يوم الجمعة الاولى من رمضان للرجال ، وفى تاليه للنساء ، وفى السابع عشر
منه للدعاء للسلطان ، وفى آخر جمعة منه كذلك ، وفى نصف ذى القعدة للرجال ، وفى تاليه
للنساء ، وفى عشرين منه لغسيل الكعبة ، وفى الثامن والعشرين منه لا حرامها (أعنى
احاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرضية المطاف) . وتفتح فى
فى موسم الحج غير مرة لمن يزورها من الحجاج نظيراً أجر يأخذه سدتها . وتفتح الكعبة

أيضاً بعد الحج في نحو العشرين من ذى الحجة لغسيلها .

ولغسيلها احتفال كبير يحضره الشريف والوالى وأعيان مكة وعظماء الحجيج : وكيفية ذلك أن يدخل دولة الشريف في مقدمة الداخلين اليها ، وبعد أن يصلى ركعتين يؤتى اليه بجرادل الماء من عين زمزم ، فيغسل أرضها بمقشاة صغيرة من الخوص ويسيل الماء من ثقب في عتبتها ، ثم يغسلها بماء الورد ، وبعد ذلك يضمخ أرضيتها وحوائها على ارتفاع الأيدي بالخلق وأنواع العطر كدهن الورد والمسك ، وفي أثناء ذلك يكون البخور بالنند والعود صاعداً من جميع جهاتها . ثم يقف الشريف على الباب ويلقى على الحاجج الذين يكونون قد وقفوا آلافاً مؤلفة في المطاف الى باب شيبة تلك المقشاة التي كانت تُغسل بها الكعبة وهي مقشاة صغيرة من الخوص طولها نحو ٣ سنتيمتراً ، فيتراحمون عليها ويلتقون بها بحال غريبة جداً ، ومن يحصل منهم على واحدة كأ أنه حصل على أثمن شيء في العالم ، بل تكون عنده خيراً من الدنيا وما فيها ، ويحفظها على سبيل الركة أثر أشرفاً من بيت الله المعظم . وقد يأتى بعض القوم وخصوصاً المطوفين والزمازمة بمقشاة كثيرة يغمرونها بالماء ، ويدعون أنها من التي غسلت بها الكعبة ويبيعون منها على الحاج كل واحدة بنصف ريال على الأقل !!

الكعبة قبل الاسلام وبعده

كانت الكعبة قبل الاسلام بنحو ٢٧ قرناً ذات منزلة سامية عند العرب باجمعهم ، لا فرق بين وثنيهم ويهودهم ونصاراهم . وقد تحاورت مكانها جزيرة العرب الى بلاد الهند وكانوا يعتفدون ان روح شبهه أحد آلهتهم (وهو الاقنوم الثالث من آلهة الבודהا) قد تقمصت في الحجر الاسود ، حين زيارته مع زوجته لبلاد الحجاز ؟ (انظر سياحة بريتون في بلاد الحجاز) . ويسمون مكة (مكشيشاً) أو (موكشيشانا) يعنى بيت شيشا أو شيشانا وهما على ما أظن من أسماء آلهتهم .

وقد ورد في مروج الذهب في الكلام على البيوت المعظمة « ان الصابئة كانوا يعتقدون ان الكعبة كانت من البيوت السبعة المعظمة عندهم ، وكانوا يعتقدون انها بيت لزحل وانها باقية ببقائه على مرور الدهور وكرور العصور » . وكانت أغلب بلاد الشرق تدين بدين الصابئة وعلى الخصوص بلاد المعجم والهند والسكدان التي منها ابراهيم ، ولا يزال مذهب الصابئة فيها الى الآن . وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم حكاية عن ابراهيم : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهْدني ربي لا كُنت من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي فلما أفلت قال يا قوم اني برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين » . وقد ذكر المقرئى في باب فرق الخليفة ان من الصابئة فرقة كانت تسمى السكاظمة أصحاب كاظم بن تارح ، وان منهم من كان يزعم ان الشمس اله كل اله ، وان السيارات السبع آلهة وكانوا يسمونها المدرات . وكانوا يقيمون لها الهياكل يعبدونها فيها . وذكروا بعض المؤرخين انهم كانوا يحيطون معابدهم بحرم لا يطؤه الغرباء . وعلى ظنى انهم أخذوا هذا الحرم من الدائرة التي تحيط بهلك كل كوكب من هذه الكواكب لئلا يتعداها اليه نجم آخر : وبهذا كان نظام^(١) جميع العوالم . ولا يبعد انهم كانوا يطوفون حول هياكلهم : وربما أخذوا ذلك من دوران هذه الكواكب حول الشمس بما يفيد تتبعية الدائر للشيء الذي يدور حوله . كما لا يبعد انهم كانوا يطوفون بهياكلهم أسابيع لعلاقة ذلك بالكواكب السبعة ، يعنى انهم كانوا يطوفون حول كل هيكل من هياكلهم سبعة أشواط لكل كوكب شوطاً : فاقرها ابراهيم في دينه وجعلها كلها لله وحده . ولا يحى ان

(١) لا يحى أن نظام العالم انما هو تتجاذب أحرامه مع بعضها سواء كانت ثمانية أو محرركة بنسب مخصوصه تحفظ نظامه ، ثم تحفظ هذا النظام العرب الذي هو من أكبر الأدلة على واحد الوجود وقدرته . ولكل سيار من هذه الاحرام دورة مخصوصة لا يتعداها اليه نجم آخر الادوات الادبائ من دوائر غير منتظمة . لذلك ترى الناس اذاراً واشتتاً بها بطسواقه الطون وتقولوا في الاقوال وتوقعوا منه الالهوال : لانهم يحشون مصادمته في سيره بأحد الجيوم التي ربما صادفها في طريقه فتحل الموارد في هذه العوالم ويكون من ذلك الاضطراب الذي يعقبه الماء .

ولما كانت هذه الاحرام مدهشة في نظامها وكانت مصدراً لحياة العالم الارضى بما ترسله اليه من الحرارة والنور، كان الناس يعتقدون أنها مؤثرة بنفسها ، فتحذوها من قديم الزمان آلهة لهم . وحتى الاحتار التي كانت تنصل منها الى الارض أخذوها فعدوها وكان منها الوثنية . ولذلك اشغل الناس من زمن بعيد في استخدام تأثير الكواكب في تبيين حقائق الماضي والمستقبل ، فكان منه علم التنجيم . واشتغل آخرون في استخدامهم في تبييد مطالبهم فكان منه علم الاوقاف والارياح والسحر ، الذي أخذوا منه أخيراً تأثير الفوس القوية على الصيغة مما وصلوا به الى علوم أخرى جديدة يسمونها ميونزم وهسوترموما في منهاها مما يعرفون عنه بالتبويم المايطيسى . ومن الناس من حمل مباحثه قاصرة على حركات هذه الحجوم وابعادها وأصواتها وحرارتها وجميع ما يتعلق بها نظرياً ومادياً ، فكان من ذلك علم الفلك الذي يدل على قدرة واحد الوجود وعظمة هذا الواحد المعبود . وتخصيص عبادة الناس لهذه الكواكب السبعة ، لانها هي التي تكون النظام الشمسي الذي منه أرضنا التي نعيش فيها . وكانوا يعرفون عن أقلاكها بالسماوات السبع ويرتبونها على حسب امادها من الارض كما تراه في قول الشاعر :

زحل شرى صريجه من شمس * فتراهرت بمطارد الافار

والعلم الحديث يعد سيارات هذا النظام سبعة أيضاً ولكنه يجرح منها الشمس والقمر : لان الاولى مركز هذا النظام ، والثاني تابع لها . ويصيغون عليها ستون وأورانوس . وامل هذه السماوات المعودة هي المقصودة بقوله تعالى لديه الكريم في سورة المؤمنين « هل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم » . وقال تعالى في سورة الطلاق « الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن » وقد تكرر ذكر خلق السماوات السبع في القرآن الكريم لتبين انها اعماهي خلق من خلق الله الذي يحب أن يكون متردداً بمادة الناس له .

ولقد كان عصر لمادة الكواكب الشأن الاول ، وخصوصاً للشمس الى كانوا يعتبرونها الههم الاكبر ويسمونها أمون وبعضهم كان يسميها أوروريس ، ثم للقمر ويسمونه ايريس . وكانوا يقيمون لها الهياكل الصالحة في كل جهة ، وأضحها وأكرها هيكل الكرك ، وهو باق الى أيامنا هذه يقرأ الناس في صفحات حلاله وعظمته آيات الرقي المصري القديم في العلم والصناعة . والبابليون كانوا يمدون الشمس ويسمونها بعلوس ، والقمر ويسمونه عشطوره . وقد ذكر رولسون العالم الاثري الانكليزي انه كان يوجد في بابل هيكل يسمى بريس نمروود وكان مبدأ من سبع طبقات ارتفاعها ١٥٦ قدماً وكل واحدة منها ملوثة بلون مخصوص : ولأولى كانت ملوثة باللون الاسود رمزاً لرحل والثانية باللون البرتقالي رمزاً للمشتري والثالثة بالاحمر رمزاً للمريخ والرابعة بالذهبي رمزاً للشمس والخامسة بالاصفر رمزاً للزهرة والسادسة بالاردي رمزاً لمطارد والسابعة باللون الفضي رمزاً للقمر . ولقد أخذ السوربون دياتهم عن الكلدانيين لانهم أقرب الناس اليهم كما أخذوا عن المصريين تشييد العمارات الهائلة لعبوداتهم مما ترى آثاره الآن في بلك (هذه الكلمة مركبة من بعل بمعنى شمس وبك بمعنى هيكل) ثم هيكل بعل في تدمر وهيكل الشمس في حبران وهيكل ايزيس في بطر وغيرها . والذي أراه أن الفينيقيين هم الذين أدخلوا الى بلاد اليونان دياتهم في عبادة النجوم عند

فتحهم هذه البلاد لحارثهم في نحو القرن العشرين قبل المسيح . وهؤلاء أخذوا ديانتهم من الأمم التي كانت تصلها بهم الرابطة التجارية كعصر وخصوصاً آشور وبلاد الكلدان التي ظهرت في علم الملك على جميع الأمم التي كانت تعيش في زمنها حتى كانت روما بعد بناء الرومان لها في القرن الثامن قبل المسيح تحول على أرضها وتستمد من علومها وعلومها مدة طويلة من الزمن .

وكان لكل أمة من هذه الأمم أقوال في معبوداتهم وحكايات ناشئة عن أوهام وحيالات مما يسمونه خرافات، وكانها تدور حول اثبات القوة والتأثير لمعبوداتهم . واشتهر اليونانيون بكثرة هذه الحكايات لكثرة معبوداتهم منها وألقوا فيها المؤلفات ويسمونها مثلوحيا : ويسمون لكل من هذه الآلهة قوة مخصوصة يتصف بها : فيقولون مثلاً أن أورابوس هو السماء بحسبة ورحل من السماء والمشتري بن رحل وهو الآلهة لقوته وقدرته ولكثرة ما أنتجته منها ويقولون أن ستون اله البحر والمريخ اله الحرب وعطار داله الصاحبة والرهرة الهه المال الخ . وكان اليونانيون يقيمون لهذه المعبودات هياكل مربعة يسمونها سيكوس ويحيطون لها بأبن من الشرق وليس فيها مذبحات غير ويحيطون هذا الهيكل بمصا يسمونه الحوش المقدس ، وحول هذا الحوش كانوا يقيمون معابدهم التي يدع الناس في محيطها قربانهم من غير أن يحسروا أن يحطوا خطوة واحدة نحو الهيكل بل ولا نحو الحوش الذي يحيط به . وكانوا يحيطون هذه المعابد بساتين يسمونها بالساتين المقدسة كانوا يرعون فيها أشجار المأكلة للكهنة وشجر الريحون ليأخذوا منه الزيت الذي كانوا يضيئون به معابدهم وهياكلهم . وكانت المصريون تحيط معابدها بمثل هذه العائات المروسة من الريحون ومن ذلك ما نراه الآن من اسم عربة الريون التي تحوار المطرية والتي كانت حرماً لهيكل عين شمس الذي كانوا يسمونه هليوبوليس .

وكان اليونانيون يحيطون هذه الساتين المقدسة بماءات مقدسة أيضاً تطلق فيها الحيوانات التي كانوا يقدمونها إلى آلهتهم على حرمتها . ولهم المائات حدود لا يتعداها أحدهم الناس بل ولا تجسر يد أن تمتد إلى مافي داخلها . ولودخل إليها أحد الخناة كان في حمايتها ووقت الحكومة نفسها منه في حدودها حتى إذا خرج منها أمسك به وأحرق عليه القصاص . واستمرت هذه العادة في كنائس الصراية إلى القرون الوسطى : فكان إذا خالها أي إنسان صار في حمايتها ولا تقوى أيدي أولئك الملوك الجبابرة على أخذها منها .

وأكثر هذه الهياكل اليونانية هيكل المشتري (Jupiter) في أوليه لانه أكثر الكواكب التي تترك منها هذه المجموعة الشمسية حجماً وأكثرها نوراً . وكانوا يحجون إليه في كل أربع سنين مرة وكانت لهم هناك ألعاب يقومون بها لمعبودهم هذا مشهورة بالألعاب الأولمبية ومجموعها ٢٩٣ مرة تنندي من سنة ٧٧٧ قبل المسيح وتنتهي في سنة ٣٩٤ بعده وهي السنة التي اعتنق فيها الامبراطور تيودوس الديانة المسيحية وأحلها محل ديانتهم الأولى . وكان القوم في مدة هذه الألعاب المقدسة يوقفون الحروب التي تكون قائمة بينهم حتى إذا انتهوا من حجم عادوا إليها .

وعليه فلا بد أن الكلدانيين الذين أخذ عنهم اليونانيون ديانتهم مباشرة أو بواسطة الفتيقيين كانوا هم أيضاً يحيطون معابدهم بمثل هذا الحرم المحترم الذي استعمله إبراهيم حول الكعبة لما بناها بئناً لله تعالى يعبده الناس فيها عبادة صحيحة في حجم إليه ، وسار فيه العرب على ملته زمناً ثم تطرق إليها شيء من الوثنية فختلف قتلته أو كثرته باختلاف معتقدات القبائل . وما زالوا كذلك حتى أتى

الاسلام فأزال معالم الوثنية بالمرّة ورجع بالناس في حجهم الى ملة ابراهيم .
ولما ببى سليمان عليه السلام هيككل بيت المقدس أحاطه بحرم وتقضى بأن لا يدخله أحد غير
الكهنة فلما تعلت المسيحية عليه هدمه حتى اذا فصح المسلمون اطيء بناءه عمر مسجداً ولا يزال
المسلمون والنصارى يدخلون اليه : هؤلاء راثرون وأولئك متعمدون وأما اليهود فلا يزالون يحترمون
ولا يدخلون من بابه مطلقاً . ولكبرهم نسوا أو تناسوا سب ذلك المنع لاهم يحملون علته الآن
حتى لا تظأ أقدامهم بالصدفة حجراً من حجارة هيكلم الذي هدمه بحتصر ثم أتى من بعده
طيطوس فأحرقه ، وما هو على طى الا ذلك الميع الاول : ولآن يسمونه بالحرم القدسى .
وكاب قتائل العرب نصرت الحمى لمراعيها وتحمل له حدوداً لاتتمداها القنائل الاخرى . وكان
الرحل مهم اذا أصبح عريراً اتحد له متسعاً من الارض وحمله حتى له يتر بمرتته فلا يدخل اليه أحد بل
ولا يحسر أحدان يمدى على ما يقرب منه من الاراضى لا يرعى ولا بصيد لانيها في حواره . وكان كايك ملك
ريعة يحمى أرضاً واسعة اسمها العالية وحملها حتى له قلما دخلت تحت رايه قتائل . مد كاهها وصار أعمر
العرب حتى منارل السحاب فلا يرعاها غير الله وماشته . واتفق أنه رأي داب يوم ناقة ترعى في
حرمه وكاب لامرأة ريلة على حساس صهره ومن ببى عمه فقتلها . فقتله حساس بها دوداً عن
حواره هو أيضاً ، وكان من ذلك ما كان من حرب النوس الى وقت بين بكر وتعل مدة أربعين سنة .
ومن ذلك ما ورد من أن عامر بن الطفيل سيد ببى عامر بن صعصعة والذي كان من أشهر فرسان
العرب وأتمدهم نبأ لما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم في سنة عشرة للهجرة طلب منه أن يجعل له
الامر من بعده ان هو أسلم . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لك من هذا الامر شئ فمضب
عامر وقال والله لا ملائها عليك خيلاً ورحلاً وذهب فرس في طريقه بالطاعون فمال الي بيت امرأة
من سلول ومات فيه فدفعه قومه هناك وحملوا على قبره أنصاباً ميلاً في ميل وحملوا دائرتها حرماً
يحمي فيها الضعيف والمطلوم فلا يجرعها عليه من يقصده ، وان قل قم أصحابها في وحمة وكانوا
عليه . ولقد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحرم وقل «لاحمى إلا لله ولرسوله» . وحمى عليه
الصلاة والسلام بالمدينة ما يسمونه بالقيع المحمي وحمله لحيل المسلمين وقد كان مسدي للناس
ومصيداً لهم وعرضه ميل وطوله أربعة فراسخ . وقد حمى عليه الصلاة والسلام المدينة فقال حرام
ما بين لا بتيها : وهما حرتان واحدة الي شهاها والاخرى الي حو بها . ولما دخل عليه الصلاة والسلام
مكة عام الفتح حمى دار أبي سفيان وحملها حرماً وأمن كل من دخل فيه من أعدائه . وبعد فتح مكة
أرسل صلى الله عليه وسلم قم من أسيد الحراعى فحدد أنصاب حرما ومشاعر ها على ما وصها عليه ابراهيم .
ومن ذلك العهد اقتصر العرب على حمى بيوتهم فترى الرحل منهم للآن مهما كان ضعيفاً يدفع عن دخل
في يده مهما كافه ذلك لانه أصبح في حمايته ولو كان طاله من أقرب الناس اليه . وحسب الرحل مهم
أن يقول له آخر أنا في وحكم حتى يدخل في هذه الحماية ، بل حسب عدوه منه أن يقول له أنا في وحه
فلان ولو كان عائماً حتى يكون على بينة من أنه صار في حمايته يطاله بها ان هو أخفر حقاً من حقوقها .
وهذه الحماية بهذا المعنى لا توجد في أية أمة أخرى وما نسمعه في مثل بلادنا من حاية الامم الاجنبية لبعض
المسضعفين من غير رعاياهم هو غير ذلك بالمرّة . ومن هذا توسع الناس في استعمال الحرم فأطلقوه
على البيت الذي لا يتمدى حدوده أحد بغير ادن صاحبه احتراماً له . ثم أطلقوه على امرأة الرجل نفسها

لحرمتها على غيره . وأخذ الاتراك طحرم فأضافوا عليه كلمة لك بمعنى مكان فقالوا حرملك بمعنى مكان الحرم وقصروهم على مكان النساء من البيت حتى لا يكون لمن يحترق دائرة أي عذر في الدخول فيها وانتهاك حرمتها . وقد كان قدماء اليونان والرومان يردون في بيوتهم دائرة مخصوصة للحرم معمّل عن الرجال يسمونها جناسي (Gynécée) ولا أدري إذا كان أصل هذه العادة عندهم دينياً أخذوه عن المنطقة التي تحيط بمعدناتهم من الكواكب ففصلوا عن غيرها وتعملها في عرلة تامة عنها . ثم جعلوها حول هياكلها في الارض كما هي حول منارها في السماء . ومن هذا تلك الهالة التي لا ير اللون يرسموها من النور حول رؤوس النبين والقديسين للدلالة على أنهم في حماية الله الواحدة الاحترام . ثم ما لبثوا أن صربوا هذه المناطق (١) حول معدناتهم الصغرى مدفوعين اليه تعامل الحب والاحترام والغيرة . ومن هذا اتحد الملوك من قديم الزمان وهم آلهة الارض على ما كانوا يرسمون احاطة قصورهم بحرم واسع لا يجوز انتهاكها لغير ذويهم أو من يماثل خدمتهم . واسمعت هذا الحرم في الاسلام وكانوا يسمونه حريمًا ومنه حريم دار الخلافة بعدد : وهو الذي جعله المصور العباسي حول قصره بها في منتصف القرن الثاني للهجرة وكان اسمه قصر الخلد وكان عبارة عن ثلث المدينة على سفحها وعظمتهما وكان له سور يمين حدوده كانت دور الناس من ورائه . وكان لهذا السور عدة أبواب بعضها خاص بالخليفة وبعضها للخاصة وأخرى لدخول الناس : منها باب سوق الثمر وباب عموريه وباب الفتنة التي كان يقبلها الملوك أو رسلهم عند قدومهم الى دار الخلافة . وهذا الحرم لم يكن لأحد أن يتعداه الا بأمر الخليفة أو أستاذ داره . ولما أرسل المأمون طاهر بن الحسين من حراسان لحاربة أخيه الأمين ببغداد أوقع بحوشه ثم حصر هذه المدينة سنة ١٩٧ ونزل بأعلاها من العرب وحمل مرارته بها حرمًا كل من لحا اليه صار آمنًا وسماه بالحريم الطاهري . وما زال هذا الحرم محترماً في مدة ولديه عبدالله وعبيد الله . ولأن ترى قصور الملوك محاطة جميعها بحرم واسع يصل بينها وبين ما يحيط بها من الدور والمباني وقد تطفوا في تسميته فسموه ميداناً : وبقدرة ما تكون هؤلاء الملوك دستورين تكون هذه الميادين مساحة لرعاياهم : أنظر للعيادين التي حول قصر كسحهم بلو دره وشو برون بقنا والوفر بباريس وغيرها تراها كلها مع ما يحيط بها من الرياض والعياص منزهات عامة للناس على اخلاف طبقاتهم وقد كانت قبل معرفتهم للدستور أمم من مراتب الآساد وأحي من منازل الاسد . بل انظر الى سراي يندر وقد كان يحم السماء أقرب منها للعتاول زم السلطان عبدالحميد الثاني كيف أصبح بعد الدستور روضة الامنة بل روضة العامة . ولم يكن قرب الملوك الدسورين من رعاياهم باناحة هذه الاحياء من رمن ليس بعيد الا لا سادهم عن المطالم التي تتمتع منها الامم . والاسلام هو الذي منع هذه الاحياء حتى لا يكون وصل بين الرعية ورعايها . واليك برهان صغير على ذلك : أتى رجل من عظماء الفرس بمدفع المسلمين لبلادهم الى المدينة ليشاهد عمر الذي فتح ملك الرومان والفرس في أيام قليلة . وكان يصور انه من أكبر الملوك فخامة وعظمة فسأل عن ابن الخطاب فقالوا له انظره تحت تلك الشجرة وأشاروا الي سدره في الحلاء . فلما بلغه رأى رجلاً في مرقعه قد توسد لعاله وهو مستغرق في نومه . فعجب الرجل من أن يكون هذا هو الذي ملك هذه البلاد وقهر ملوكها فنام هكذا من غير سراج يحوطه أو حرس يحرسه ثم ما لبث أن فكر وقال « حكم فعدل فأمن فحب يا عمر » .

(١) وعليه فليعذرنا الاوربيون اذا أخذوا عندهم هذا الحجاب وصرباء على سائلاً واحتراماً لمن أو

مباراة أخرى غير عليهن .

العبادات كلها انما هي مستمدة من شئ واحد: هو الاحترام الحقيقي والاخلاص الصادق ، وانما المدار في صحتها على جهة توجيهها . وكل مشرع في العالم لا بد له أن يراعى الزمان والمكان في شريعته ويراعى تلك العوائد المتأصلة في النفوس لعدم قدرته على ازالتهما مرة واحدة ، ولنا في تدرج الاسلام في تحريم الخمر أكبر برهان على ذلك وحسبنا صراحة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله لعائشة عن نبيان الكعبة : لولا أن قومك حديثو عهد بالاسلام لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد ابراهيم .

وليس ذلك بغريب فشرعية كل قوم مستمدة من الشرائع التي قبلها باختلاف يسير أو كثير في بعض موادها . وشرعية ابراهيم انما كانت مستمدة من شرائع عمالقة الشمال الذين كانت لهم في العراق دولة زاهية راقية في القرن الخامس والعشرين قبل المسيح . وقد عثر المقابون لهم أخيراً في اطلال بابل وأشور على آثار كثيرة تدل على مدنييتهم وحضارتهم وفيها شئ كثير من شرائعهم . وتوجد الآن مجموعة كبيرة من هذه الآثار في متاحف برلين ولوندره . ومما ينسب الى هؤلاء العمالة اهم أول من عرف علم الفلك وحركات النجوم والافلاك لانه كان عندهم علماء دينياً محضاً ، ولذلك فقد فشاهذا العلم في الصائفة على اختلاف أجاسهم .

ومن الصائفة أخذ العرب علم النجوم واشتغلوا به كثيراً حتى ان ابن قتيبة ذهب الى تفضيلهم فيه عن العجم . ومن علم الفلك عرفوا علم الانواء (جمع نوء) ، وهو ما يسمونه الآن بعلم الظواهر الجوية ، وكانوا يعرفون منه تغير الزمن ووقت نزول المطر واختلاف هبوب الهماء . وللعرب في النجوم خرافات كثيرة: منها قولهم ان سبب دوران بنات نعش (الدب الأكبر) ان الجدى قبل والدهن نعشاهن يدرن حوله حتى اذا الحفنه اقتصصن منه . وهذا على ما أظن أخذوه من خرافات اليونانيين التي تفوق غيرها في هذا القليل ، وكانت سبباً في رقي الخيال عند كتاب الفرنجة وشعرائهم الذين لا يرلون رمزون بها في أقوالهم ، وللنوم فيها كتب خاصة يسمونها (مثولوجيا) . ولما فشت في العرب عبادة الاوثان عبدوا النجوم في أشخاص هذه الاصنام: فعبدوا اللات ويرمزون به الى الزهرة ، والعزى ولعلمهم كانوا يرمزون به الى الشعرى ، وهبل وكانوا يرمزون به الى زحل .

أمر الله بها قضية مسلمة محترمة ويصدقون بما أُمروا به من غير بحث عن علة أو سبب .
ولقد ذكر المسعودي ما يفهم منه أن العرب كانت تحترم مكان الكعبة قبل بناء إبراهيم لها : فإنه قال عند الكلام على قوم عاد لما أصابهم القحط « وهم من العرب البائدة وكانت مساكنهم من بلاد اليمن إلى حضرموت بجنوب بلاد العرب » مالم يخلصه : أنهم كانوا يعظمون موضع الكعبة وكان ربوة حمراء ، فوفدوا إلى مكة يستسقون ، ولكنهم عكفوا فيها على شرب الخمر ، فقالت لهم جرادة جارية معاوية سيد العماليق مخاطبة رجلا منهم اسمه قيل ولعله كان رئيس الوفد :

ألا يا فيل ويحك قم فهيم^(١) * لعـل الله يطرنا غما

فيسقى أرض عادٍ إن عادا * قد آمنسوا لا يبينون الكلاما

إلى آخر ما قالت : ومن هذا يفهم أن مكان الكعبة كان محترما في القوم قبل بناء إبراهيم لها .
ورعا كان هناك معبد قديم للعماليق تلالشى أمره قبل وصول إبراهيم إلى تلك الجهة ، وبنى المؤرخون على أساسه أقوالهم في بنيان الكعبة قبل إبراهيم : فقال بعضهم إن آدم بناها قبله ، وقال آخرون غير ذلك ؛

ويظهر أن هذه الجهة كلها كانت مقدسة عند العرب : يؤيد ذلك تسمية قدماء المصريين بلاد الحجاز بالبلاد المقدسة .

والفرس كانوا يحترمون الكعبة ويعتقدون أن روح هرمز حلت فيها وكانوا يحجون إليها من زمن بعيد جدا وفي ذلك يقول شاعرهم بعد الاسلام :

ومازلنا ن الحج البيت قدما * وملتقى بالاباطح آمينا

وساسان بن بلك سار حتى * أتى البيت العتيق يطوف دينا

فطاف به وزمزم عند بئر * لاسماعيل تروى الشارينا

وقال غيره :

زمزم^(٢) الفرس على زمزم * وذلك من سالفها الا قدم

..... (١) الهيمنة الصوت الحي . (٢) اجتمع وتكاثرو .

واليهود كانوا يحترمون الكعبة وكانوا يتعبدون فيها على دين ابراهيم . والنصارى من العرب لم يكن احترامهم لها باقل من احترام اليهود اياها . وكان لهم بها صور وتماثيل : منها تمثال ابراهيم واسماعيل وفي أيديهما الأزام ، وصورة العذراء والمسيح . وقد وضعت العرب أصنامها عليها على تغاير معبودات القبائل والعشائر حتى اجتمع على سطحها من الأصنام ٣٦ صنما . وأول من أدخل عبادة الاوثان الى مكة ووضع الأصنام على الكعبة عمرو بن لُحَيّ كبير خزاعة حينما ولي أمر البيت ، وكان سافرا الى الشام فاخذ عنها عبادة الاوثان ، وأخذ عن النمروديين عبادة هبل واللات ومناة وكانت من آلهتهم كما تدل عليه النقوش الموجودة على آثارهم . وتبعته في ذلك قبائل العرب فكانت كل قبيلة تأتي بصنمها وتضعه عليها . ومع شيوع الوثنية في العرب فانها كانت فيهم أقل منها في سواهم ، لانهم لم يكونوا يعبدون الاوثان لدانها ولا لصنماتها كما كان الشأن في وثني الهند والصين والرومان والمصريين وغيرهم ، بل كانوا يعبدونها لتقر بهم الى الله زلفى .

وما زالت الكعبة على هذا الشأن حتى دخل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في السنة الثامنة للهجرة فامر بارأله ما عليها من الأصنام . وفي حديث أسامة انه صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة فرأى صوراءد عجماء فجعل يحجوها . وقد ذكر الازرقى عن ابن عائذ عن سعيد بن عبد العزيز أن صورة عيسى وأمه نمتا في الكعبة حتى رأهما بعض من أسلم من نصارى غسان . وقال عمر بن شبة : حدثنا أبو عاصم عن جرير قال سأل سليمان بن موسى عطاء : أأدركت في الكعبة تماثيل ؟ قال نعم أدركت تماثيل مريم في حجرها انها عيسى مزوقا (انظر صفحة ٦٠ من كتاب بلوغ الأرب في ما رآه العرب) .

هذا كان شأن الكعبة في الجاهلية وقد أجمعت الناس مع اختلاف دياناتهم على احترامها واتخذها كل منهم معبدا يعبد الله فيه على حسب دينه أو مذهبه ، وهذا في بابها لم يقع له نظير في الوجود بالمرة ، اللهم الا بيت المقدس الذي يحترمه المسلمون والنصارى واليهود ، وان كان لكل مكان يتعبد فيه على حدته . وهل تريد برهاناً على شرفها واحترامها غير هذا الإجماع من قوم كانوا قطع النظر عن اختلاف دياناتهم اذا جمعتهم كلمة فرقتهم أخرى ؟

واقـد بلغ من سمو مكانة الكعبة في النفوس أن جعلوا لها حرمان من جميع جوانبها واسع الأطراف بعيد الكفاف، لا يدخله الا لسان الا وهو مُحَرَّم، وكل من دخله صار آمناً : قال تعالى محتجاً على أهل مكة « أو لم يروا أننا جعلنا حراماً آمناً ويُخطف الناس من حولهم » . ولم يقف احترام هذا الحرم على تأمين الاسان ، بل تناول الحيوان ، بل تناول البات ، بل لم يقف احترام الناس لها في حدود حرما . وقد كان بمكة قبل الاسلام حزب يقال له حلف الفضول ، اجتمع اليه بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو عبد العزى وبنو زهرة وبنو تميم ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يحدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى تردا اليه ظلمته . وقد حضر هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال فيه : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعى به في الاسلام لاجبت » .

ومسافة ما بين دائرة هذا الحرم ونقطتها المركزية التي هي الكعبة من جهة الشمال والشرق والجنوب تبلغ تقريباً خمسة عشر كيلومتراً ، أما من جهة الغرب فتبلغ ثلث هذه المسافة . وعلى حد الحرم من الجنوب مكان يقال له أضاه (على وزن نواه) ، ومن الغرب بميل قليل الى الشمال قرية الحديبية (وهي التي تمت بها بيعة الرضوان) ، ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له الجعرانة ، اعتمر من كليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن وراء هذه الدائرة دائرة أخرى يُحرم منها كل من تجاوزها قاصداً الدخول الى مكة ، وهي وان كانت حلالاً إلا أنها تعتبر فناء للحرم : ولا شك أنه لوحظ في أبعاد الحرم عمران الجهات الثلاث الاولى ، حتى اذا قصد مكة منها من أرادها بشرية ، فانه لا يصل الى حدود حرما حتى يكون أهله قد استعدوا لحرره ودفعه عن حوزتهم . أما الجهة الغربية وهي جهة البحر فليس فيها من القبائل ما يخشى من عدوانه : لذلك جعلوا حد الحرم فيها من التميم ، وهو مكان على مسافة نحو خمسة كيلو مترات من مكة . وعليه فييفات الاحرام أشبه شئ بالجهة التي يصلح المرء فيها من شأنه عندما يريد مقابلة ملك من الملوك . وحد الحرم هو فناء بيت الملك ، حتى اذا دخل اليه أكمل استعدادده للتشرف بلفائه : فتراه وقد أخذ منه الاحتشام كل مأخذ ، يسير الى قاعة

الاستقبال بغاية ما يمكن من الادب ، حتى لكانه على مرأى منه ومسمع . وقد شاهدت ما يماثل ذلك في طوب سراى بالاستانة العلية : رأيت حجارة منصوبة الى اليوم على أبعاد مختلفة في الحوش الداخلى لهذه السراى ، وفي الفناء الذى كان مخصصاً لخلوس السلطان من بنى عثمان فى الزمن الخالى ، وكان القادم على السلطان من الامراء والسفراء اذا حاذى كل حجر من الاحجار المذكورة يسلم بسلام مخصوص ، حتى اذا وصل اليه قبَّل الارض بين يديه .

ولقد بلغ من شأن السكبة فى الجاهلية أن الناس كانوا يحجون اليها من جميع أنحاء البلاد العربية وغيرها . وكانت أشهر الحج عندهم شوالاً وذا الفعدة وذا الحجة . وكانوا يحرمون الشهر الذى يكون فيه الحج وهو ذوالحجة ، والذى قبله لانه وسيلة اليه ، والذى بعده لانه تابع له : لان الحاح كان يسافر فيه الى بلاده فوجب أن يكون فيه آمناً على نفسه وماله . وترى ذلك فى أسماء هذه الشهور نفسها ، فذوالفعدة يعنى الشهر الذى يتعدون فيه عن الحرب ، وذوالحجة هو شهر الحج ، والحرم هو ما حرموا فيه القتال . وكانوا يحرمون أيضاً شهر رجب ويسمونه شهر الله الا صم ، أى الذى لا يسمع فيه صوت سلاح ولا صوت مستغيث ، على خلاف فى أنه هو الشهر الذى يكابه من السنة القمرية الحالية كما كان عند مضر أو هو شهر رمضان كما كان فى عرف ربيعة . وذلك لان ربيعة كانت تسكن فى شمال بلاد العرب الى العراق ، وأظن ان هذا كان من الاسباب التى حملتهم على تأخير شهر رجب الى رمضان ، حتى يتمكنهم السفر فيه الى مكة ومنها الى اليمن ، فيمضون بها شوالاً ليتاعون فيه ما يريدون من تجارتهم ثم يعودون الى أداء حجهم ، ويرجعون الى بلادهم وهم فى أمن على أنفسهم وأموالهم ، لان حركتهم كلها كانت فى الاشهر الحرم : لذلك تراهم يقولون رجب مضر ورجب ربيعة لتعيين وقت كل منهما . وربما وقع تحريم رجب فى شهر شعبان فى سنى السوء ، فينادى الناس بذلك فى الموسم بقوله « اللهم انى أحللت رجب القادم وحرمت شعبان » . فتقضى العرب على ذلك فى سنتها . ولذلك فانهم يعبرون عن شهرى رجب وشعبان بالرجبين كما كانوا يعبرون عن الحرم وصفر بالصفرين .

والعرب كانت تنسى الشهور حتى توفى بين السنين القمرية والشمسية فكانوا يؤخرون

سنتهم كل ثلاث سنين شهراً (هو تقریباً الفرق بين السنين القمرية والشمسية في هذه المدة) .
وكان السبب في ذلك جعل زمن الحج ثابتاً في فصل من فصول السنة كأحد الربيعين ، حتى
يتيسر لهم القيام به في غير وقت الحر أو البرد الشديدين ، وخصوصاً في الزمن الذي تتوفر فيه
مادتهم التي يتجرون بها من أصواف وأوبار وسمن ودهن وماشية وما في معنى ذلك . وهذا
كله لا يتوفر على الدوام في شهر مخصوص من السنة القمرية كما لا يخفى .

وكان يتولى ذلك منهم النساء وهم من بني كنانة وكانوا يسمونهم القلائس . وقد
استدأت مضر في نسء الشهور في القرن الثاني أو الثالث قبل الهجرة . وكانوا يعملون ذلك
فقط في آخر شهرى المحرم ورجب : فكانوا يؤخرون المحرم إلى صفر أو رجبا إلى شعبان
فيكون شعبان رجباً ، والذي بعده شعباناً ، والشهر الذي بعده رمضاناً وهكذا حتى
يستوفوا كل أشهر السنة . وفي ذلك يقول شاعرهم :

ألسنا الناسئين على معد * شهور الحل نجعلها حراما

وبهذه العملية كانت السنة القمرية تدور معهم مرة في كل ثلاثين سنة تقريباً . وفي
سنة عشر للهجرة كانت شهور السنة القمرية دارت ورجعت إلى أصلها في مكانها الطبيعي من
فصول السنة . فأشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في خطبة الوداع بعرفة في
السنة المذكورة « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض » .
وحرّم الله السىء في هذه السنة . فقال تعالى : « إى السىء زىادة فى الكفر بضل به
الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرّمونه عاماً » .

والعرب كانوا يسمون شهر رجب بالفردي لعزلة عن الأشهر الحرم الأخرى . وربما
كانوا يستعملون رجبا لحجهم الأصغر^(١) ، يعنى العمرة ، وهم يقولون الآن الحج الرجبي ، ولا
يزال هكذا يستعمل في الموالد بمصر ، فيقال المولد الرجبي أى الأصغر . على أن عدة الأشهر
الحرم كانت عند غطفان ثمانية أشهر في السنة ، وكانوا يسمون ذلك البسل (فتح الباء وسكون

(١) جاء في تفسير الألوسى في الكلام عن قوله تعالى « ألحج أشهر معلومات » انه الحج

الاكبر وان الحج الاصغر هو العمرة .

(السين) يعنى التحريم ، وفى ذلك يقول لهم اعشى بنى قيس :

أجارتكم بئسل علينا مُحَرَّم * وجارتنا حِلٌّ لكم وحليلها .

ومعنى تحريمهم لهذه الشهور وانهم كانوا يحترمونها ، ويلفون فيها السلاح ، ويتركون الغزو الذى كان عليه مدار حياتهم ، وهولا يزال كذلك الى الآن فى كثير من أطراف جزيرة العرب . وكانت هذه الشهور كلها هدنة بين القبائل أجمعها حتى لا يقف العداء حجر عثرة فى طريق الحاج منهم . ولذلك كانت العرب تستفصح من الحروب الاربعه التى وقعت لها فى هذه الاشهر ، ويسمونهم بالفجار أى التى حُرِّوا فيها ، وفى ذلك يقول خدّاش بن زهير العامرى

فلا توعدينى بالفجار فانه * أحل ببطحاء الحجّون المخازيا

وقد أقر الاسلام الحرمه فى الاشهر الحُرَّم : قال تعالى « يسألوك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله » . وسبب نزول هذه الاية أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش الى محله ، وأعطاه كتابا وأمره أن لا يفتحه الا بعد مسيره يومين . فلما فتحه وجد فيه : « امض حتى نزل بنخله فأنتامن أخبار قريش عما اتصل اليك منهم » . فقال لأصحابه من كان منكم لدرغبة فى الشهادة فليتنطق معى فانى ماض لا مرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كرد ذلك فليرجع فان رسول الله قد نهانى أن أستكره منكم أحدا . فضى معه القوم وكانوا ثمانية حتى نزلوا المحلة ، فربهم عمرو بن الحضرمى فى قهر من قريش ومعهم تجاره ، وكان ذلك آخر يوم من رجب ، فقتلوا ابن الحضرمى وأسروا رجلا من قومه وهرب بعضهم الى مكة ، ثم ساقوا العير فمدموا بها على المدينة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » . ولما بلغ ذلك قريش أقدم منهم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أيحل القتال فى الشهر الحرام ؟ فنهات هذه الاية الشريفة تحريم القتال فى الاشهر الحرم . ثم نزل بعد ذلك قوله تعالى « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

وكانت قبائل العرب تجتمع قبل الحج : أهل الشمال فى بدر ومجنه بمر الظهران : الذى هو على بعد نحو مرحلة من مكة الى الشمال الغربى . وأهل الجنوب فى ذى الحجاز : وهو على مرحلة

من عرفة شرقاً الى الجنوب . وأهل الشرق في عكاظ : وهي واقعة فيما بين قرن المنازل والطائف ، وتبعد برحلتين كبيرتين عن مكة (مائة كيلومتر تقريباً) ، وقد اتخذها العرب سوقاً بعد الفيل بخمسة عشر سنة واستمرت الى سنة ١٢٩ هـ ، ثم أظلت اكتفاء بسوق عرفة ومكة . وعليه فقد كانت هذه الاسواق (١) بمثابة معارض للتجارة ومؤتمرات للآداب ومكارم الاخلاق . وأظنك تحكم معي بأن العرب من أسبق الناس اليها ، بل سبقتها بها الحكومات المتقدمة لقرون عديدة .

نعم سبقهم اليونانيون الى مثل هذا الاجتماع في الجمازونات (Gymnasiums) التي كانوا يقيمونها لطلابهم ، وأخصها تلك التي كانت في أُولمبية في القرن الثامن قبل المسيح

(١) وأشهر هذه الاسواق بعد عكاظ سوق دومة الخندل في صحراء نجد ، ثم محبة ودو الحار . وقد كان للقوم غير ذلك محال خصوصية للمناظرة والمداكرة والمخاصرة في كل حي من أحياء العرب . وكان في مكة قبل الاسلام دار الندوة ونادي قريش بمحوار الكعبة . فلما جاء الاسلام كان أغلب اجتماعهم في المساجد : فكانوا يحطون فيها وينشدون أشعارهم وكلها كانت حثاً على الفصيلة ومكارم الاخلاق . وكان القوم في المدينة يجتمعون في تقيفة من ساعدة لانها كانت لسعد ابن عباد سيد الانصار ، وخطب أئى بكر وعمر بها يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أشهر من أن تذكر ، لما كان لها من التأثير الذي حمط للإسلام كيانه ووطد بنيانه . ولاشتمال مركز الخلافة مدة الراشدين بالمسوحات ، كثرت بالكوفة والبصرة دور العلم بطبيعة الحال لقرنها من مدينة الفرس وحضارتهم . وظهر الخط الكوفي بها خصوصاً بعد أن وضع أبو الأسود الدؤلي الحركات ووضع لهم نصر بن عاصم الاعرج (القط) في ولاية الحجاج بن يوسف . وقد كانت الحروف العربية قبل ذلك مقبولة ، ولا حاجة لابتداء الصعوبة التي كانت تمتري القراء في تعيين مثل الباء من التاء من الياء ، فكان أول خطوة في رقي الكتابة العربية فتشاً عن ذلك كثير من المشتغلين بها مما كان داعية لاهتمام الناس بالعلوم العربية من لغة ونحو ونثر ونظم والشرعية كالحديث والفقه وغير ذلك ، فظهر فيها كثير من العلماء والشعراء والخطباء . وكان لهم فيها أندية للمناقشة والمفاخرة . وأكبرها كان في البصرة وهو المريد وكانوا يسمونها بمكاظ البصرة ، وفيه حصلت حملة معاذرات بين الشعراء وعلى الخصوص بين جرير والفرددق والراعي في مهاجاتهم بعضهم البعض . وكثيراً ما كانت هذه المفاخرات تحصل في محال الخلفاء لاسيما في زمن معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد وهشام بن عبد الملك . وكان محال المصور والمهدي والرشيد والمأمون ومحال الخلافة في قرطبة بالاندلس حافلة بمفاخرات الشعراء ومحادلات العلماء مما كان سبباً لشجدة القرائح ونمو المدارك وكثرة المباحث التي بصغت بها العلوم على اختلاف أنواعها وكانت سبباً لترقي الدولة الاسلامية في القرون الثلاثة الاولى الى أوج عروفتها وحضارتها وعمرائها .

وكان لهم تاج يسمونه بالتاج الأولي يلبسونه لمن برز في هذه الألعاب ، التي كان الغرض منها تربية الحسوم وإعداد الامة لان تكون أمة حربية . ثم انتهى بهم الامر بعد ضخامة ملكهم أن استعملوا هذه المنتديات لعرض معلوماتهم وبنات أفكارهم . وما زالت حتى صارت تطلق الآن على دور التعليم في أور و باو خصوصاً في ألمانيا . ومن هذا ترى أن أسواق العرب كانت أعم من أمثالها عند غيرهم .

وكانت سوق عكاظ تقوم في صبح هلال ذي القعدة ، وقد قصدته رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة بعد البعثة لينشر في القمائل دين الاسلام . وفيه تقابل صلى الله عليه وسلم نفس بن ساعدة واحترمه كثيراً . وكانت عكاظ أكبر أسواق الجاهلية لانها تلي أكثر جهاتها سكاناً وأعظمها قوة ومنعة ، وكانوا يبيعون فيها ويشترون ويتناشدون أشعارهم ويتفاخرون بما لديهم من نسب عظيم وعمل خطير ، خصوصاً في القرن الاول قبل الهجرة . وكان لهم محاسن يحكم يعرف للناس مكانتهم وشجاعتهم وفصاحتهم وآدابهم ، ورما كان فيه العدو يشهد لعدوه بالسبق من طريق الحق . وكثيراً ما كان هذا الاحتكاك السلمي يؤدي الى المصالحة بعد المكافحة فتتال الاساية من وراء هذا الاجتماع خيراً كثيراً . وكانت كلمات السافين من هؤلاء الشعراء تؤخذ وتعلق داخل الكعبة كزينة لهم واشهاد آمن الناس بأنهم من المعوقين . وأشهر هذه المعانيات وأكبرها بلاغة سبع^(١) كان معظمها ولا يزال مدرسة لسحو النفوس ومعالي الهمم وقد ترجمت الى كثير من اللغات الاجنبية ليتعرفوا منها كثيراً من عوائد العرب وأخلاقهم قبل الاسلام : وكانوا يسمونها بالمذهبات^(٢) .

(أنظر صفحة ١١٦ من الجزء الثالث من العقد القرئيد لابن عبدربه طبع بولاق)

(١) وأصحاب السبع المعلقة على ترتيب بلاغتهم هم : امرؤ القيس بن حجر ومات سنة ٩٤ قبل الهجرة . ورهير بن أبي سلمى ومات سنة ٥٢ هـ . والائمة الديلمي ومات سنة ١٩ هـ . وعمرو بن كثوم ومات سنة ٢٣ هـ . والحارث بن حنظلة ومات سنة ٣٤ هـ . وطرفة بن العبد ومات سنة ٨٤ هـ . وعنترة العبدي ومات سنة ٨ هـ . وبعضهم يلحق بأصحاب المعلقة أعشى قيس ، وليد الذي مات سنة ٥٤ هـ هجرية ويشتهر صرب الامثال في الاسلام .

(٢) ذكر صاحب جمهرة أشعار العرب ان أصحاب المذهبات هم : حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، ومالك بن عجلان . وقيس بن الخطم . واحيعة بن الحلاح . وأبو قيس بن الاسد . وعمرو بن امرئ القيس . وكلهم من الاوس والخزرج .

فريق من مذهب امرئ القيس ومذهبه زهير مثل لانهم كتبوها عاء الذهب وعلقوها في
الاحرام، وبقى بعضها فيه الى يوم الفتح وحرق أغلبها فيما حرق من الكعبة قبل الاسلام.
ولم تقتصر هذه السنة على الجاهلية بل وجدت في الاسلام : فقد كتب هارون الرشيد عهدا
بالخلافة الى ولده الامين من بعده ثم الى ولده المأمون ، وأرسل به فعلق في الكعبة الى زمن
الامين فاستدعى به ومرقه . ثم صار بعد ذلك كل من قام بشرف الخدمة في البيت الحرام من
الملوك والسلاطين يتعين كتابته اسمه داخلها بجوار ذكر الأئمة الذي له فيها .

وما زالت الكعبة محترمة في الجاهلية حتى أتى الاسلام وجعلها الله في السنة الثانية للهجرة
قبلة للمسلمين حينما كانوا (وكانوا يصلون الى بيت المقدس) ، قال الله تعالى لنبيه ورسوله
محمد صلى الله عليه وسلم « قد نرى تغلب وجهك في السماء فليؤتيك قبلة ترضاها فول وجهك
شطر المسجد الحرام وحينما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . فكان كذلك ، ومن ثم صارت
الكعبة قبلتهم في صلاتهم تنوجه اليها وجوههم ، وتعوذ في قبالتها بجاههم ، في أى نقطة كانوا
من هذه الكرة الأرضية ، لا فرق بين شمالى وجنوبى وشرقى وغربى بعيد أو قريب ، وبذلك
أصبحت الكعبة عندهم مركز الدائرة التي يرتبطون بها جميعا بحبل دينهم المتين : دين التوحيد ،
دين المساواة ، دين الاخاء ، دين الحرية الصحيحة ، ولها في نفوسهم من الاجلال والا عظام
مالا يعمى على تعبيره لسان ، أو يتخيله جنان ، لا فرق في ذلك بين أهل مذهب ومذهب
آخر . بل ترى المسلمين على اختلاف مذاهبهم يصلون حولها وراء أى امام كان : وهذا
لا يدل فقط على التسامح الموجود بين المسلمين ، بل فيه أكبر برهان على توحيد الغاية
التي يرمون اليها في عبادتهم ، والتضامن الذي يجب أن يكون بينهم ، وهذا التسامح لا نراه
موجودا بالمرة بين مذاهب الديانات الأخرى .

وقد جعل الله تعالى الطواف بالكعبة من فرائض الحج الذي هو فرض عين على كل
مسلم يستطيع اليه السبيل في أى زمان ومكان ، وفرض كتابته كل سنة على عموم
المسلمين يسقط بقيام البعض به فان أهملوه أنما جميعاً .

ومن الغريب ان كل من يقع بصره لأول وهلة على الكعبة تراه في دهشة كبيرة ، لا لكون
بصره وقع على شئ لم تعود النظر اليه ، ولكن لما يعثر به من الخشية والرغبة ! ! فترى هؤلاء

المشاهدين تأخذهم هزة كبيرة من هذا المنظر المهيّب ، ومنهم من يقف لحظة في مكان المتأدب المستكين المتصاعرا امام هذه العظمة الكبرى ، ومنهم من يصرخ بصوت الخوف ولسانه يلهث بكلمات منعصلة عن بعضها ، ومنهم من يحش بالبكاء فلا تسمع له غير نحيب يختنق معه صوته وتتقطع منه أنفاسه . وعلى كل حال فمسيبة خوف الانسان من ربه على نسبة مع قوة دينه ومثانة يقينه .

— الطواف —

الطواف هو قطعك ما يحيط بالكعبة من دائرة المطاف سبع مرات وتسمى أسبوعا ^(١) ويقال لها أشواط ويشترط في الطواف الطهارة التامة ، وينبني أن لا يكون في يدك مثل نعال أو غيرها من الأشياء الوسخة . وتنتدى كل شوط من الحجر الاسود ، فاذا حاذيته تفرست منه وقيامة ان أمرك والا توجهت اليه قائلا : « اللهم اني بويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط فيسرها لي وتقبلها مني » ، ثم تسير مسلما بيديك قائلا « بسم الله الله أكبر » . وتطوف جاعلا البيت على يسارك من وراء الحجر وبعيدا عن الشاذران .

والمطاف على شكل دائرة يضاوية من الشمال الى الجنوب ، وفد فرشت أرضه بالرحام من مدة بعيدة ، وأصلحت مدد السلطان سليمان القانوني . وهو على حدود الحرم في عهده عليه الصلاة والسلام . ومسافة ما بين آخره والكعبة من جهة الغرب والجنوب نحو ١٩ مترا ، ومن جهة الشمال والشرق نحو ١٢ مترا ، وفيه لصق البيت مما يلي باب الكعبة الى الشمال جزء

(١) تحت في كتب اللغة عن لفظ أسبوع فلم أحده بصرف الا الى سبعة أيام الاسبوع أو الى سبعة أشواط . الطواف مع ان سمع القوم كثيرة وقد مر بك شيء منها : فتأدر لدهي أن لهذه التسمية علاقه بن المسيب وأن القوم ربما كانوا يطوفون في أحد أيام الاسبوع سبعة أشواط لكل يوم شوطا وربما كان يدعوهم الى ذلك حيق ربههم الذي كانوا يستعملونه وهم يبيدون عن مكة في الحصول على عيشهم في هذه البلاد التي تصيق بطييعها عن القيام بحياة أهلها . فلما جاء الاسلام لم يهرق يديها ، وحملها كاهها واحدة ، ولم يجعل لها رمزا معينا يؤدونها فيه .

وأشواط الطواف سبعة من رمي بعيد يؤيده قول تسع حسان ملك حير .

ثم طفا بالنسب سماعا وسعاً * وسجدا عند المقام سجودا

انظر داليه فيما يأتي من هذا الكتاب وهي التي وصف فيها دهايه الى مكة في القرن الثالث قبل الهجرة بقصد هدم الكعبة ورجوعه عن فكره واحترامه لها وكونه اياها وطوافه حولها .

مربع منحط عنه ، سعته نحو مترين من كل جهة يسمى المعجن : وهو ما كان يعجن فيه اسماعيل المؤنة التي كان يستعملها ابراهيم في بناء الكعبة وقد وجدنا فيه كتابة محفورة في قطعة من الرخام مثبتة في الشاذروان هذه صورتها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة المطاف الشريف سلطان الانام الامام الاعظم ، المفروض الطاعة على سائر الامم ، أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله آماله ، وزين بالصالحات أعماله ، في شهر سنة ستة وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله » .

وعليه فقطر دائرة المطاف من الشمال الى الجنوب نحو ٥١ مترا ، ومن الشرق الى الغرب نحو ٤١ مترا ، والكعبة تقريبا في وسطها . فاذا اعتبرنا أن متوسط ما يقطعها الطائف حول الكعبة مائة متر في كل مرة ، ففي السبعة الاشواط يقطع سبعمائة متر . وادعرت ان الحاج يطوف مرات متعددة في اليوم الواحد أقلها مرة قبل كل صلاة من الصلوات الخمس أو بعدها ، علمت أن الحاج بين شاب وشاب وصبي ذكر أو أنثى يقطع في طوافه اليومي على رجليه نحو أربعة كيلومترات على الأقل ، بل منهم من يقطع أضعاف ذلك قبل وبعد الصلاة الواحدة .

وذكر ابن بطوطة في رحلته انه رأى وزير غرناطة وكبيرها أبا القاسم محمد الازدي يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ، ولم يكن يطوف وقت القيلولة لشدة الحر : فكأنه كان يقطع في طوافه كل يوم سبعين كيلومترا .

وللطواف مرشدون يقال لهم المطوفون . ولكل مطوف حجاج مخصوصون على حسب تغاير البلاد وتقاسمها : فترى للاتراك أو الهنود أو البخاريين أو المصريين مثلا مطوفين خصيصين بهم ، بل لكل قسم من أقسام البلاد مطوف معلوم يتوارث عن أيه خدمة حاجه ، تعيينه امارة مكة لهذا الغرض ، وكانوا قبيل الدستور كالملتزمين يحتكر كل منهم رسمياً صنفاً من أصناف الحجيج لا يمكنه أن يتعداه الى غيره ، لا هم كانوا يشترون من أصحاب السلطة بمكة هذه الالتزامات : ولذلك كان لبعضهم سلطان على حاجهم يأمرهم وينهون ولا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة ، حتى اذا جاء الدستور أزال هذا التحكير ،

وأطلق الحرية للحجيج يطوفون مع أى شخص أرادوا .

وكيفية التطوف أن يجمع المطوف في الغالب حجاجه قبل الصلاة أو بعدها ويسير هو أو واحد من صبياناه على رأس كل جماعة منهم ، فيطوف بهم حول الكعبة وهو يتلو أدعية الطواف بصوت عال ، فترد عليه الجماعة التي تتبعه . وربما كان المطوف ولدا صغيرا يزيد عمره عن ست سنين أو سبعة : فيحمله بعض الطائفين على عاتقه ويطوف به وهو يلقيهم الدعاء على هذه الحالة . ومن الطائفين من يطوف وحده ويكون دعاؤه بينه وبين ربه . وبعد صلاة الصبح والعشاء على الخصوص ترى المطاف مزدحما بجماعات الطائفين بحيث لا يمكن أن ينحرك الرجل إلا بحركة المجموع من كثرتهم . فإذا حاذوا الحجر الأسود انقض بعضهم عليه لاستلامه ولا يزال يراحم بمنكيه حتى يصل إليه . ولكن البعض الآخر يكتفى بالإشارة من بعد وخيرا فعمل . ومن لم تكن لهم قدرة على المشى من الطائفين يجلسون في محفة يحملها أربعة على رؤوسهم أو أكتافهم ويطوفون بهم حول الكعبة ، وأغلب هؤلاء من الهنود وخصوصا البنغاليين أو الجاويين : لأن سواد حجاجهم ممن جاوز الثمانين ، يأتون إلى هذه الأماكن المقدسة رجاء موتهم بها ، وهم يرون في ذلك كل سعادتهم ويعملون له طول حياتهم : لذلك تجدهم يمشون الجسدين بؤرة الأمراض التي تنفش في الحجيج لأن حالتهم الصحية تتأثر بأى مؤثر بسيط وليس فيهم من القوة ما يقوى على دفعه وربما كانت حالتهم المعاشية تساعد الأمراض بالف يد على الفتك بهم !! ولقد ذكر أهل السنة للطواف فضائل كثيرة وحثوا على الكثرة منه ، وقالوا إن لم يتيسر للإنسان ذلك فإنه يحمل به أن يجلس في المسجد مستقبلا الكعبة مشاهدا فيها .

وبعد الطواف يذهب الطائف إلى حجر اسماعيل فيصلب به ركعتين سنة الطواف يختمه بهما ، وإن لم يستطع ففي مقام إبراهيم . وهو قبة قامت على أربعة أعمدة وأحاطت بها مقصورة نحاسية مربعة يبلغ طول كل ضلع منها نحو ثلاثة أمتار وستين سنتيمترا وهي على آخر المطاف تجاه باب الكعبة وفي داخلها الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم حال بناء الكعبة ، وبه أثر يقال إنه أترق قدميه ، وذكر أن أثر قدمي إبراهيم في هذا الحجر إنما كان باستناده عليه عند زيارته لمكة

بعد بناء الكعبة ، وكان هذا الحجر قبل الاسلام موضوعا بالمعجن الى جوار الكعبة ثم أبعاد عنها بعد الفتح حتى لا يكون هناك أثر للوثنية بالمرّة ، ودفن بمكانه الحالي ، وبنى عليه فيما بعد القبة الحالية ، ويقولون ان تحته آلة البناء التي كان يعمل بها ابراهيم في الكعبة . والعرب قبل الاسلام كانوا يعتقدون في هذا الاثر ويحترمون به بل يقدسونه ، وهو المقصود بقول أبي طالب في لاميته :

وموطئ ابراهيم في الصخر رطبة ^(١) * على قدميه حافياً غير ناعل

وربما أخذ العرب قبل الاسلام هذا الاثر من أثر القدم الذي بقية الصعود بجبل الزيتون بالقدس الشريف ، ويزعم النصارى أنه لعيسى عليه السلام وهم يقدسونه ويحترمون . ومن ذلك أنى احترام المسلمين لآثار تلك الاقدام التي ينسبونها الى النبي عليه الصلاة والسلام : كما نراه في قبة السيد البدوي في طنطا ، وفي جامع المؤيد ، ومسجد قايتباي بالماهرة ، وفي قبة الآثار النبوية في الاستانة ، وفي خزانة الآثار النبوية بقبة الصخرة ببيت المقدس ، وفي مسجد ابراهيم بحضرة . وعلى صخرة بيت المقدس آثار أقدام غير منتظمة يدعون أنها آثار أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أسرى به ، والى جوارها أثر قدم ينسبونه الى سيدنا إدريس عليه السلام ، والمسلمون هناك يقدسونها جميعاً كما يقدسون أثر قدم عيسى التي تراها في محراب علي بن مينا من المسجد الأقصى ، ويقول النصارى ان المسلمين فصلوها عن أختها التي في قبة الصعود ووضعوها بمكانها هذا . ويقال ان في محطة قدم التي في جنوب دمشق أثر أقدام عائصة في الصخر ينسبونها الى موسى عليه السلام وذكرها ابن جبير في رحلته . وقد رأيت في الفصل الرابع والثلاثين من كتاب محاضرة الاوائل للسكتواري ان أول موضع اهبط الله فيه آدم جبل سرنديب ، وفيه أثر قدم آدم عليه السلام غائص في الصخرة طوله سبعون شراً الخ ؟ ؟ ؟ وعليه فلا بد أن تكون فكرة تلك الاقدام أخذتها العرب عن اليهود أو الهنود ان لم يكونوا أخذوها عن المسيحيين وبقى أثرها في المسلمين الى الان .

ولمقام ابراهيم كسوة من الحرير المزركش بالقصب تأتي اليه سنوياً من مصر مع كسوة الكعبة . ويتصل بمقصورته من الشرق سقيفة على طولها ، بعرض متر وثمانين سنتيمتراً ،

يزدحم الناس لصلاتهم فيها ركعتي الطواف ، ثم يذهبون الى قبة زمزم . وباب هذه القبة الى الشرق وفيها بئر زمزم المشهورة وخرزتها من الرخام من عمل السلطان سليمان وهي مرتفعة عن سطح الارض بنحو متر ونصف ، ومن دونها حوض يعصب الملاءون فيه بدلانهم ، ومن هذا الحوض يملأ السفاءون جرارهم ، الا ما كان لخاصة القوم فانه يملأ مباشرة من الدلاء الخارجة من العين . وهذه الحركة لا تسكد تنقضي في مدة الحج أبداً . وللحجيج اعتقاد كبير في ماء زمزم ويتهادون به في آنية من الصفيح أو الدوارق المختومة . ويزعم أهل مكة انه نافع لكل شئ ، دليل حديث « ماء زمزم لما شرب له » . ويدعى بعضهم أنه يشربه اتقاء الجوع فيشبع ، وأظن ان خدمة العين ينالغون في فوائد مبالغية يتجسم معها الوهم عند شاربيه . ومن ذلك يتبع طعمه من أدواق الماس على نسبة اعتمادهم فيه : فهم من يقول انه لا يعادله شئ في لدته ، ومنهم من يرى انه أحلى من العسل وألذ من اللبن ، ويرى غيرهم خلاف ذلك قال المعري :

تباركت أنهار البلاد سوانح * بعذب وخصت بالملوحة زمزم

والذي يهمهم من ظاهر الحديث المذكور أن هذا الماء نافع لما شرب له من الادواء التي من طبيعته اشماؤها ، وينسره بذلك حديث « انها شفاء سقم » . وحقيقة فانه ماء قلوى تكثرفيه الصودا والسكرور والخير والحامض الكبريتيك وحمض الازوتيك والبوتاسا ، مما جعله أشبه شئ بالمياه المعدنية الصحية في تأثيرها ، وفيه قليله ولا تحلوا لكثرة منه من الضرر ، خصوصاً في غير موسم الحج حيث تكون نثرها مهجورة : لان أهل مكة لا يشربون منها للوحتها . وفي هذه الحالة يزيد فيها الحامض الازوتيك بدرجة تجعل ماءها غير صالح للشرب . وربما كانت نصيحة بعضهم بالتخلع (كثرة الشرب) منها بعد طواف القدوم ، لتأثيرها على الجهاز الهضمي بما ينطقه من المواد التي تكون قد انفرزت اليه مدة هذا السفر الشاق ، مما يكون نتيجة رد عمل تنشط به الاعضاء وتصحح الجسوم . وقد قال الاطباء ان هذا الماء نافع للكلية والمعدة والأمعاء والكبد .

ولفضل ماء زمزم وشدة اعتقاد الناس في بركيته ، تجرأ بعض خدمة المساجد في مصر ،

وادعى تقريراً بالحجلاء من المسلمين بأن عين الماء التي عنده في مسجده لها مفعلة على عين زمزم مكة (كما هي الحال في شهرة العين التي بمسجد الخنفى بالقاهرة !!) ويثبتون هذه الاكذوبة بقرينة أشنع منها !! فيقولون ان رجلاً من مصر كان حاجاً فسقطت طاسة من يده في زمزم فلما حضر الى القاهرة عثر عليها في تلك العين ! ولهذا ترى كثيراً من الناس يتبركون بها ويستشفون بمائها .

ولقد بلغ من اعتقاد الناس في عين زمزم (وخصوصاً الدكارنة والهنود) أنهم يأتون بقطع طويلة من القماش ويعرقونها في مائها ثم ينشرونها على حصص بآء صحن الحرم ، حتى اذا جفت حافظوا عليها وأوصوا بها لتكون كفناً لهم عند مماتهم . وبلغ من اعتقاد بعضهم فيها أنهم يرجون أن يكون هذه البئر المقدسة مقبرة لهم ، حتى يكون لهم من ركنها وعالي مكاتها مقام كبير في حياتهم الاخرى !!! ولقد حدث في سنة ١٣٢٦ هـ ان اتى بعض الهنود بنفسه فيها حياً على غرة من خدمتها ، فاهتم الناس لهذا الأمر واستدعوا بالعواصين من جندة للبحث عن جثته ، ولم يعثروا عليها الا بعد عاء شديد . فخرجوها ونزحوا من البئر كمية كبيرة صلح معها ماؤها ، أما هذا الخاهل فقد ذهب ولا أدري الى رحمة الله أو الى نقمته !!

ولقد أجمعت التواريخ العربية ان مبدأ ظهور هذه العين من عهد قدوم هاجر مع ولدها اسما عيل الى مكة فكانت سبباً لعمارتهما . وقد عاضت مياهها من أطوار ولا ولذلك يسمونها المضمونة ، ونفيت هكذا الى زمن عبد المطلب فحفرها ، واهتم بتوسعتها واتعميقها أنو جعفر المنصور والمأمون وغيرهما ، ولا تزال محل عناية الملوك والسلاطين الى الآن .

والأعراب يكادون يلصقون زمزم بنفس أركان الحج : فان الشخص منهم يضيف زمزم الى البيت الذي يحج اليه في نفس الأمر ، وادأحلف فانه يقدم زمزم على مقام ابراهيم في قصته فيقول « والبيت الحرام وزمزم والمقام ما فعلت كذا مثلاً » . وهذا قسم تصعد معرفتنا به الى معرفتنا بالعرب من عهد اسما عيل ، لذلك ترى الحجاج من الأعراب يدخلون الى زمزم جماعات وزرافات آخذين في صدورهم كل من كان في طريقهم ، حتى اذا وصلوا الى الحوض الذي بجوار البئر نزحوا ما فيه على رؤوسهم ، فيسيل الماء على ثيابهم الى أن تنقل

جميعها ، ثم يخرجون فرحين مستبشرين تظلمهم عصي خدمة العين التي لا تؤثر فيهم بالمرّة دون القيام بهذا الواجب الاقدس .

وليس الاعتقاد في مثل ماء زمزم خاصا بالمسلمين فان للهندو اعتقادا عظيما في نهر الكنج وبحيرة مادن . والنصارى يعتقدون في ماء الاردن الذي يبعد نحو عشرين كيلومترا الى شرق بيت المقدس ويسمونه نهر الشريعة لذلك ترى حجاجهم يذهبون اليه ، ويتبركون بالاستحمام به في المكان الذي تعمده فيه المسيح ، يأخذون من مائه في آنية من الصفيح يتهادون بها عند عودتهم الى بلادهم . وأكثر النصارى اعتقادا في ذلك الروسيون والاقباط أما الافرنج فاعتقادهم في ماء لورده (Lourdes) في جنوب فرنسا لا يقل عن اعتقادهم في ماء الاردن .

﴿ فشل الامراء والملوك في تحويل الناس عن الكعبة ﴾

مما سبق ترى أن الكعبة مشرفة في الجاهلية مشرفة في الاسلام . لذلك اجتهد غير واحد من الملوك قبل وبعد الاسلام في تحويل العرب عن وجهتهم للكعبة الى شئ غيرها . وأول ما ذكر من ذلك أن تبع ابن حسان ملك ملوك حمير ، وهو عائد من حرب الاوس والخزرج يثرب ، أراد هدم الكعبة وكان يهوديا ممنعه من ذلك من كان معه من أحبار اليهود ، فكساها وعاد الى بلاده . وقد كانت غطفان بنت حرما مثل حرم مكة في القرن الاول قبل الهجرة ، تصد تحويل العرب اليه ، وقد كان على العرب ملك اسمه زهير بن حباب ، فلما بلغه ذلك قال لا والله لا يكون ذلك أبدا وأناحي ثم نادى في قومه وقال لهم ان أعظم مائة تدرها عند العرب أن نمنعهم من ذلك فأجابوه الى مراده وجرى بينهم قتال شديد ظفر فيه زهير وأبطل حرمهم . وفي نحو سنة ٦٠ قبل الهجرة ، دخلت جيوش الحبشة الى اليمن انتقاما من ذي يزن ملك حمير الذي كان يفتك بنصارى نجران من قومه ، فغلبوه على أمره وأخذوا البلاد ودانت لهم رقاب أهلها . ثم فرد ابرهة الاشرم بالحكم فيها ، وبنى في صنعاء القليس - (الكليسه) ، وأراد أن يحول إليها حج العرب فسار بحيوشه الى هدم الكعبة . فلما وصل الطائف عرج على مكة ، وبعث من ساق اليه أموال أهلها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب . فأتى

أبرهة وطلب منه أن يردها إليه . فقال له أبرهة « أسكنني في إبلتك وتترك بيتا هودينك ودين آباءك وأنت تعلم أني انما بئت لهدمه ؟ » فقال عبد المطلب « أنا رب الابل ولبيت رب يحميه » . فأعطاه أبرهة الابل فساها هديا ، ودخل عبد المطلب مكة وهو يخاطب أهلها بقوله :

يا أهل مكة قد وافا كمو ملك * مع الفيول على أنيابها الزرد
هذا النجاشي قد سارت كتابه * مع الليوث عليها البيض تنقد
يريد كعبتكم والله مانعه * كنع تبّع لما جاءها حرد ^(١)

وزحف أبرهة على مكة ، فلما وصل قريبا من المزدلفة عند جبال يسمونها جبال النار وجد نوعا من الطير الابليل ^(٢) قد خلق على الجو وأخذ يرميهم بحجارة من سجيل « طين » بمقدار حبة العسدس ، فلما وصلوا مكة فهم فيهم داء الجدري الذي أصابهم ولا شك من مكروب كان كامنا في الحجارة التي كانت تنساقط عليهم من تلك الطيور : وبؤيده قول عكرمة « ان من أصابته الحجرة جدرته » . ولعل هذه الحجارة كانت في بيئة محدورة في بلاد العرب أو في غيرها ، فتشربت من هذه المكروبات وحملت الطيور الى هذه الجهة فكان منها ما كان . وكان مع جيش الحبشة ذلك الفيل الشهير عبد العرب باسم محمود ، وهو لفظ يصح أن يكون هنديا ان لم يكن مغوليا كان يطلق على نوع عظيم الخلقة من الفيلة ولا يزال هكذا مستعملا في اللغات الافريقية (Mamouth) ، فاراد واسوقه على مكة فلم يتمكن من الحركة اليها ومات ، ويقال انه دفن بمكانه المشهور بباب جرول الذي يحجم عنده الحمل المصري ، وكانت له قبة كسرها الشريف عون الرقيق . ولما رأى أبرهة كثرة الامراض التي تفتك بقومه هرب وتشتت شمل جيشه ، وصادف قومه السيل فاغرق أغلبهم ، وهلك الباقي في شتاته ولم يصل منهم الى اليمن الا من آخر بحادثهم . وكان ذلك في عام ولادته صلى الله عليه وسلم ، والعرب تسميه عام الفيل ، وكانت تؤرخ به الى الهجرة : فيقولون وقع الامر

(١) حرد يعني عصان .

(٢) وهو مثل صغار العصافير السوداء ونوعه لا يزال موجودا بالحرم يعيش في قباهه . وهو معروف في مكة باسم أنابيل ، ويطلقونه على المفرد والجمع . وهو ما ذهب اليه أبو عبيدة والمراءحيث قالا لا واحد له من لفظه . وقال بعضهم مبردا ميل كسكين أو أنال كمراب أو اناله بشديد الباء وتخفيفها . وقال آخرون ان أنابيل وصف للطير بمعنى جاعاب .

القلائي قبل الفيل أو بعده بخمس سنين مثلاً . وذهب ابن الكلبي الى أن وافعة الفيل كانت قبل ولادته صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة .

ولقد ذكر المؤرخ اليوناني مالالاس (Malala) في تاريخه الذي طبع في اكسفورد سنة ١٦٩١ م ، « ان أبرهة الاشرم في حملته على مكة كان يركب عربة يقودها أربعة من القبيلة » وقد قال ابن الزبيرى أبحاثاً يشير فيها الى هذه الحادثة منها هذان البيتان :

سائل أمير الجيش عناماترى * ولسوف يني الجاهلين عليها
ستون العالم يؤوبوا أرضهم * بل لم يعش بعد الاياب سقيمها

ومرض الجدرى ما كان يعرف ببلاذالعرب قبل هذا الوقت . وذكر المؤرخ بروكوبيوس (Procope) الذى ولد سنة ٥٠٠ من الميلاد ووصل الى رتبة الوزارة فى القسطنطينية فى سنة ٥٦٢ ، ان أول ظهور الجدرى فى مصر كان سنة ٥٤٤ للميلاد فى مدينة ميلوسيوم : وهى مدينة عظيمة أطلالها بين بورسعيد ومياط لآن ، ونقلت جرائمه الى القسطنطينية سنة ٥٦٩ وهى نفس السنة التى ظهر فيها المرض فى جيوش أبرهة حول مكة ، ولا يبعد أن الرياح أو الطيور نقلت اليها مكروبها فى تلك الاثناء ، فكان منها ما كان . ولا شك أن قوله هذا حجة لان مصر كانت لذلك العهد من أعمال الامراتورية الرومانية . ويؤيد ذلك ما قاله الرحالة بروس (Bruce) الايموسى فى رحلته الى بلاد الحبشة فيما بين سنتى ١٧٦٨ و ١٧٧٢ م التى كتب فيها عن كثير مما عثر عليه من الامور التاريخية والجغرافية والتاريخ الطبيعى ، وذكر فيه ان رأى فى كتب الحبشة ان أبرهة رفع الحصار عن مكة للمرض الذى أصاب جيشه اذ ذاك ، واستنتج من صفاته أنه مرض الجدرى الذى انتشر من ذلك الوقت فى الشرق وأخذ يفتك فى الناس فتكاً مريعاً ، حتى ألف فيه الرازى رسالته المشهورة فى الجدرى والحصبة . وهذه الرسالة لها قيمة كبرى عند أطباء الأفرج لآن تخففت من مصابه كثيراً ، غير أن هذا المرض الخبيث مازال يفتك ببنى الانسان حتى اخترع الاستاذ (جونر) (Jonner) الاكلينزى مادة تسمى الجدرى وأشهر أمرها سنة ١٧٦٩ م وباستعمالها خفت هذه المصيبة وأصبحت لا أثر لها تقريباً فى البلاد المتقدمة ، الا أنها لا تزال موجودة بكثرة فى البلاد العربية لعدم العناية بها . لذلك يجدر

بكل من قصدها أن يلقح جسمه بهذه المادة قبيل سفره اليها . ومن أعجب ما شاهدت بالبلاد العربية عناية صاحب الجمل السليم بعدم قطره مع جمل أجرب خوفا من سريان العدوى اليه ، في حين أن العرب أنفسهم لا يهتمون بفصل الأجرب من بينهم عن اخوته الأصحاء الذين لا يهتمون ان يصيروا طعمة لهذا الداء المهلك !!! والله في خلقه شؤنون .

وفي أيام المقتدر العباسي ظهرت في العراق طائفة القرامطة ، وهم قوم ينسبون الى موالاة محمد بن الحنفية بن علي كرم الله وجهه ، ويكفرون من لم يكن على مذهبهم . وأول من ظهر منهم أبوطاهر القرمطي ، وقد نفي دارا في هجر (١) سماها دار الهجرة ، وأراد أن ينقل الحج اليها : لذلك كان يقصد الطرق الموصلة الى مكة ويفتك بحجاج بيت الله الحرام ، فانتقطع الحج في أيامه خشية منه . وسار القرمطي الى مكة في عسكر كثيف أيام الحج ودخل نخيله ورجله الى الحرم ووضع السيف في الطائفين والعاكفين والركع السجود على نعتة منهم ، وقتل في مكة وشعابها نحو ثلاثين ألفا واقتلع باب الكعبة وجردته مما كان عليه من صفائح الذهب ، وأخذ جميع ما في خزانة بيت الله الحرام من الحوهرات الثمينة ، واقتلع الحجر الاسود من مكانه ، واصرف به الى بلاده بعد أن هدم قبة زمزم ' . وبقى مكان الحجر حاليا يتسبك الناس بمحله ، وبعد موت أبي طاهر رأى قومه أن من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة الى بلادهم . فقام شنبر بن الحسين القرمطي بالحجر الى مكة ، وكان يحيط به برواز من الفضة يضبط بعض القطع التي تكسرت منه حين قلعه ، فوضع في مكانه على الحالة التي تراه عليها الآن .

وفي سنة ٤١١ دخل رجل الحرم بصفة درويش وضرب الحجر بعمود من حديد كان معه . فقامت عليه الاهالي وقتلوه شر قتلة . وكانت قد طارت من الحجر ثلاث قطع مثل ظفر الانسان فاخذت والصقت في مكانها بحيث لا يمكن ملاحظتها . ويزعمون أن الحاكم بأمر الله العاطمي هو الذي كان أرسل ذلك الرجل حتى اذا كسر الحجر الاسود أمكنه تحويل وجهة المسلمين عن الكعبة الى مسجده بجوار باب الفتوح بالقاهرة .

ولقد ذهب بعضهم الى ان اهتمام عبد الملك بن مروان بعمارة بيت المقدس بالفخامة التي

كان بعمره بها، إنما كان لصرف مسلمي الشام ومصر وما والاها شمالا وغربا إلى حجهم إليه إذا تمت الغلبة لابن الزبير على بلاد الحجاز. كما رعموا أن المنصور العباسي لما ابتنى مدينة بغداد وشيد فيها قصره المشهور بقصر الذهب بنى إلى جواره القبة الخضراء وبالغ في زخرفها ليولى وجوه الناس شطرها، وهي تهمة لا تراها في مكانها لما نعتقده من كمال دينهما ومتانة يقينهما رحمهما الله .

هذا وإنى أظن أن ما يحكى الآن على لسان بعض السذج من فلاحي مصر من أنه يجبى يوم ينقطع فيه طريق الحج إلى مكة، وعندها يحج الناس إلى مقام السيد البدوي في طنطا، إنما كان أثرا سياسيا لبعض ملوك مصر يقرب به إلى الوهم أمكان حصول ذلك، حتى إذا سئحت له الفرصة مضى في سبيلها. ومع زوال هذه الفكرة بزوال صاحبها فإن هذا الأثر السئبى بقي على السنة بعض السذج الآن !! ومن هذا تلك المرأة التي ذهبت بتسحية بعضهم لقبة الميضاة التي تراها في وسط سخن مسجد ابن طولون في القاهرة بالكعبة، ولا أدري إذا كانت هذه التسحية قديمة على عهد ابن طولون فشك في علتها أو من وضعيات بعض الجهلاء فترجوا الله أن يغفرها له .

لهذا كله ترى خدمه الكعبة الشريفة كلهم عيوباً تباشر حركة الطائفتين حول الكعبة المكرمة وخصوصا الأعجام الذين ينسب لهم أهل مكة ظالما أنهم لا يتأخرون عن تدبيس الحجر الأسود إذا سئحت لهم فرصة تمكينهم من ذلك، ويقولون هم دسوه في سنة ١٠٨٨ وفي سنة ١١٤٣ وفي سنة ١١٥٥ حتى يصرفوا الناس عنه، وهو أمر إن لم يكن بعيدا عن الصحة ولا شك في أنه مبالغ فيه : والسبب في ذلك هو كراهية أهل مذهب لمذهب آخر، يؤيده ما قاله العصامي في تاريخه من أنه رأى نفسه التمدد على الحجر وعلى أستار الكعبة في سنة ١٠٨٨، وظن أنها عجينة من دقيق العدس كان الغرض منها الإيقاع بأهل الشيعة .

أما ما حصل في سنة ١١٥٥ فاصله سياسى محض : ذلك أن ملك الفرس نادر شاه طومان أرسل إلى الشريف مسعود في تلك السنة يطلب منه ضرورة إقامة صلاة خامسة في

الحرم للشيعه . فارس الشريفة بالخبر الى الدولة العلية فاتهمته بأنه مشايخ الاعجام . فتخلصا من هذه النهمة اتهمهم هو بهذه الفعلة الشنعاء حتى يوغر عليهم صدد ورالناس وأمر بان تلعن الرافضة على المنابر ولا يزالون يلعنونهم عليها في الحرمين الى الآن !!!

هدايا البيت الحرام

لعظم مكانة بيت الله الحرام عند الناس كانوا يتقربون اليه قديما وحديثا بالهدايا الجزيلة والهبات الجليلة والحلى الفاخرة . فكانت تحفظ أولا في بئر في الكعبة يسمونها غيبغيب^(١) أو ععب ، ولكن سدنتها كانت تلتهمها أولا فاولا . ومما وصل من هداياه القديمة الى عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم غزالان وسيفان من ذهب ، كان ساسان^(٢) ملك الفرس أهدها الى الكعبة (انظر تاريخ ابن خلدون) فضر بهما صفايح وصفح بهما نابها . فلما كان عبد الله بن الزبير حلي أساطينها بصفائح الذهب . وأرسل عبد الملك بن مروان بثلاثين ألف دينار الى عامله على مكة ، خالد بن عبد الله القسري ليحلي بها باب الكعبة والاساطين التي في جوفها وأركانها من الداخل . وزاد في ذلك ولده الوليد في عمارته للمسجد الحرام . وأرسل الرشيد الى عامله على مكة سالم ابن الحجاج ثمانية عشر ألفا من الدنانير فضر بها صفائح سمرت على الباب ، وجعل مساميرها وحلقى الباب وعتبتها من الذهب . وذكر ان المتوكل العباسي عمل زاوية من زوايا الكعبة بالذهب (ولعلها كانت تشقة فملاها ذهبا) ير بطبه طرفها ، ولا يخفى ان هذه المادة تستعمل الآن لمتانتها في ربط الاجزاء الثمينة بعضها ببعض) ثم كسا عتبة الباب بالفضة ، وعمل له عضادتين من الذهب بدل اللتين أخذهما بعض

(١) البعب في اللغة المنحرو ولا يمدانهم كانوا يحرون على حافه قرايينهم والجاهليه ولما جاء الاسلام سدت هذه البئر وأزيل ما حولها من الاصنام والانصاب والارلام .
(٢) ساسان هو رأس الدولة الساسانية التي حكمت بلاد الفرس من سنة ٢٢٥ ميلادية الي سنة ٦٥١ الى سنوات فيها العرب على بلاد العجم .

أمراء مكة . وذكرا أيضا أن أم المقتدر العباسي أمرت في سنة ٣١٠ هـ بالبيت جميع اسطوانات البيت ذهبا . حتى اذا دخلت القرامطة سنة ٣١٧ هـ الى مكة جردت البيت من جميع ما كان به من الحلى والذخائر .

وفي سنة ٥٥٢ هـ اقتلع الخليفة المقتدى باب الكعبة وصنع عوضه بابا مصفحا بالذهب وعمل من القديم تابوتا ليدفن فيه بعد موته .

وقد كانت أيدي السلاطين والأمراء والملوك لا تقف في أى زمن من الأزمان عن تمسكهم الهدايا النفيسة الى بيت الله الحرام ، كما كانت يد الأشقياء لا تقف عن التطاول اليها ! سواء في ذلك حجبتها أو غيرهم ! ومن جدد بعض الحلى التى عبت بها هؤلاء الأشرار كثير من الملوك والأمراء نخص بالذكر منهم السلطان الناصر قلاوون ثم السلطان سليمان القانوني ثم السلطان مراد الرابع .

كسوة الكعبة

أما كسوة الكعبة فهي من زمن بعيد . وأول من كساها تبع أبو كرب أسعد ملك حمير ، حين مر عليهم أراجعا من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة : كساها بالبرود المفضبة وعمل لها بابا ومفتاحا وفي ذلك يقول مفتخرا :

ورد الملك تبّع^(١) وبنوه * ورثوهم جدودهم والجدودا

ادجيدا جيا دننا من ظفار^(٢) * ثم سرنا بها مسيرا بعيدا

فاستبحنا بالخليل ملك قباد^(٣) * وابن اقلود^(٤) جاءنا مصفودا

(١) تبّع لقب كان يطلق على ملك ملوك حمير وهو في قوة لقط امراطور الآن .

(٢) ظفار كانت مدينة عظيمة من مدن اليمن واطلا لها نافية الى الآن فيما بين عدن وصنعاء ولها إقليم

يسمى الى الآن باسمها .

(٣) ملك من ملوك المعجم . (٤) لعله أمير من أمراء العراوى أو الشام .

فكسونا البيت الذي حرم الله ملاء مقصباً وبروداً

وأقنابه من الشهر عشرين * وجعلنا لنابه اقليداً (١)

ثم طفنا بالبيت سبعة وسبعة * وسجدنا عند المقام سجوداً

وتبعه خلفاء فكانوا يكسونها بالجلد والقباطى (قمش مصرى) زمنا طويلاً . ثم أخذ

الناس يقدمون اليها هدايا من الكساوى المختلفة فيلبسونها على بعضها ، وكان اذا الى منها

ثوب وضع عليه ثوب آخر الى زمن قصى ، فوضع على القبائل رقادة لكسوتها سنوياً واستقر

ذلك فى بنيه . وكان أبو ربيعة بن المغيرة قبل الاسلام يكسوها سنة وقبائل قر يش تكسوها

أخرى فسمى بذلك العدل لعدله بين قبائل قر يش فى كسوة الكعبة . وقد كساها النبي صلى

الله عليه وسلم بالثياب اليمنية . ثم كساها عمر وعثمان وابن الزبير وعبد الملك بن مروان .

ولما حج الخليفة المهدي العباسى سنة ١٦٠ ، كان على الكعبة جملة كساوى فشكا اليه سدها

من كثرتها فامر بها فانزلت تخفيفاً عن سفها ، وأمر بان لاتعلق عليها الا كسوة واحدة

فكان كذلك الى الآن . أما كسوتها من الداخل فمدور فى محاضرة الاوائل للسكتوارى

أن أول من كسا البيت بالديباج والددة العباس بن عبد المطلب حين ضل العباس صغيراً

فندرت ان وجدته لتكسون الكعبة فوجدته ففعلت .

وكان العباسيون يبالغون فى العناية بكسوتها ، وكانت من الحرير الاسود (وهو شعارهم) ،

وكانوا يعملونها بمدينة تنيس المصرية التى كانت لها شهرة عظيمة فى المنسوجات الثمينة

(انظر مادة تنيس بالمفسر يزى) وكانت تفر الى مصر فى شمال دمياط فهدمها الملك الكامل

سنة ٦٢٤ لكثرة ما كانت توقع بها مراكب الفرنجة فى الحروب الصليبية ، ولما كانت

تتكلفه مصر فى المحافظة عليها ، ولا تزال اطلالها موجودة قرب مدينة المطرية (دقهلية) .

وقد قال النما كهى فى أخبار مكة : رأيت كسوة مما يلى الركن الغربى (من الكعبة) مكتوباً

عليها «مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز ابن الوزير الجرومى بامر الفضل بن سهل ذى

الراستين وظاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة» ورأيت شقة من قباطى مصر فى

وسطها مكتوب في أركانها بخط دقيق اسود «مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين»
 ورأيت كسوة من كساوى المهدي مكتوب عليها «بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير
 المؤمنين أطال الله نقاءه» ، مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع من طراز تنيس على يد
 الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة » ورأيت كسوة من قباطى مصر مكتوب عليها
 «مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلاحه الله» ، محمد بن سليمان أن يصنع من طراز
 تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسامة عامله سنة تسع وخمسين ومائة » وكان من
 أعمال تنيس قرية يقال لها تونة وكانت تصنع بها كسوة الكعبة أحيانا . قال الفا كهى :
 ورأيت أيضا كسوة لهرون الرشيد من قباطى مصر مكتوب عليها «بسم الله بركة من الله للخليفة
 الرشيد عبد الله هرون أمير المؤمنين أكرمه الله» ، مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل من طراز
 تونه سنة تسعين ومائة .

وما زال العباسيون يهتمون بأمر كسوة الكعبة حتى اذا ضعف أمرهم صارت ترسل
 تارة من ملوك اليمن وأخرى من ملوك مصر ، الى ان استقرت في سلاطين مصر فوقف
 عليها الملك الصالح ابن الملك الناصر بن قلاوون قرى باسوس وسنديس من أعمال
 القليوبية . ومن ثم صارت ترسل الكسوة الخارجية السوداء اليها سنويا . وكان كلما يتجدد
 ملك أو سلطان يرسل للكعبة كسوة داخلية من الحرير الأحمر ، وبأخرى خضراء للحجرة
 الشريفة النبوية . فلما استولت الدولة العلية على مصر اختصت بكسوة الحجرة الشريفة
 النبوية وكسوة البيت الداخلية ، واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية . ومن ذلك
 الوقت صارت هذه الكسوة المباركة ترسل من مصر سنويا : وهى ثمانية ستائر من الحرير
 الاسود المكتوب بالنسيج في كل مكان منه «لا اله الا الله محمد رسول الله» وطول الستارة
 نحو خمسة عشر مترا ، ومتوسط عرضها خمسة أمتار وبعض سنتيمترات . وكل ستارتين
 تعلقان على جهة من جهات الكعبة ، فتربطان من أعلاها في حلقات من الحديد غاية في المتانة
 قد تثبتت في سقف الكعبة ، ثم تربطان الى بعضهما بواسطة عرى وأزرة ، وتثبتان من
 أسفل في حلقات وضعت في الشاذروان ، وهكذا كلما وضعت ستارة تثبتت في التي

بجوارها بواسطة هذه الازرة، حتى اذا انتهت كلها صارت كلقميص المربع الاسود، ثم يوضع على محيط البيت المعظم فوق هذه الستائر فيادون ثلثها الا على حزام يسمى رنكا، مركب من أربع قطع مصنوعة من الخيش المذهب مكتوب فيه بالخط الجميل العربى آيات قرآنية، كتبها مع غيرها من أعمال الكسوة الشريفة (فى زمن المرحوم اسماعيل باشا خديومصر) الخطاط الطائر الصيت النادرة النابغة المرحوم عبد الله بك زهدى أحسن الله اليه . ومكتوب على الحزام من الجهة التى فيها باب الكعبة « بسم الله الرحمن الرحيم، واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمانا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعهدنا الى إبراهيم واسماعيل، أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا، انك أنت التواب الرحيم » ومكتوب فى الجهة التى تليها من جهة الحجر الاسود « بسم الله الرحمن الرحيم قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . ان أول ببت وضع للناس للذى ببكة مبارك وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام إبراهيم . بسم الله الرحمن الرحيم، واذ بوأنالا إبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا، وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر، يأتين من كل فج عميق » ومكتوب فى الجهة المقابلة للمقام المالكى « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير، ثم ليفضوا تفهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » ومكتوب فى الجهة الرابعة وهى التى بها الميزاب « فى أيام دولة مولانا السلطان الاعظم ملك ملوك العرب والعجم السلطان محمد الخامس خان ابن السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان الغازى ابن السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان ابن السلطان إبراهيم خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان عثمان خان خلد الله تعالى ملكه » .

والكسوة الشريفة تعمل فى مصر سنويا بدار فسيحة بالخريفش وادارتها موكولة لمديرها الهمام صديقنا عبد الله فائق لك الذى ترقت الكسوة فى مدته رقيقا ظاهرا بأبهر بالتجسينات

التي يدخلها عليها من آن الى آخر .

ومصاريف الكسوة تصرف الا آن من المائسة وميزانيتها سنويا ٤٥٥٠ جنيه مصرى او بيانها هكذا .

جنيه

٥١٥ . ثمن مخيش فضة وملبس بالذهب ١٤٩٣٥ مثقالا و ٣٨٠٥٥ مثقالا فضة بيضاء .

١٦٦٤ اجرة شغالة فى الزركشة وعدد دم ٤٧ نفراً .

١١١١ ثمن حرير واجرة سيج والذين يشتغلون فيه عدد دم ٧٠ نفراً .

٢٠٠ . ثمن أدوات للتشغيل مثل بفتة وخلافها .

١٥٠ . مصاريف ليلة المهرجان المعتاد عمله للاحتفال بموكب الكسوة السنوى .

٠٠٦٠ عوائد تصرف للشغالة يوم نهاية عمل الكسوة .

٠٨٥٠ ماهيات مستخدمين ومرتبات خدمة ادارة الكسوة .

٤٥٥٠ الحلة

الا أن الحجاب العالى الخديوى بعد عودته من الاقطار الحجازية أمر حفظه الله بزيادة العناية بالكسوة الشريفة مما زاد فى ميزانيتها وسيزيد فى بهاؤها ورائها .

ويتبع هذه الكسوة الشريفة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها بالرقع ، وستارة باب التوبة من داخلها ، وكيس مفتاح بيت الله الحرام ، وكسوة مقام الخليل ابراهيم عليه السلام ، وستارة باب منبر الحرم الشريف وهى من الاطلس المصنوع بالمخيش الذهبى والفضى .

وعند انعام عمل الكسوة يعمل لها موكب عظيم فى نحو منتصف شهر ذى القعدة يحضره الجناز العالى الخديوى أو نائبه فيسيرون بها فى موكب نفيم من المكان المعروف بمصطبة المحمل الى مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه ، حيث يسلمها حضرة مأمور تشغيلها الى المحاملى فى مجلس يعقد بحضور نائب من قبل سماحة قاضى مصر وبشهادة حضرة أمير الحاج للسنة المرسله فيها ، وبعد أن يعمل بذلك اشهاد شرعى توضع فى صناديق وترسل

مع ركب الحمل الى مكة . ويرسل معها غلايتان من النحاس مملوءتان بماء الورد التقي لعسيل الكعبة المكرمة .

وهناك تسلم الكسوة لحضرة الشيبى القائم بسدانة الكعبة بأشهاد شرعى يحضره العلماء والكبراء فتبقى في منزله الى صباح يوم عيد النحر فيؤتى بها على أعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد انزال الكسوة القديمة ، ويكون المسجد عادة خلوا من الناس لان سوادهم يكون بمنى ، ولا يصبح مكة منهم الا بفر قليل .

اما الكسوة القديمة فيرسل المفصب منها عادة الى سيادة الشريف ، واذا كان الحج بالجمعة يرسل الى جلالة السلطان ، والغير المفصب يأخذه الشيخ الشيبى فيبيعه على الحجاج ، وبحوار باب السلام دكاكين مخصوصة لذلك . وقبيل الحج يقطع الشيبى نحو مترين من أسفل ستائر الكعبة ويعوضها بازار من البفتة البيضاء يسمونه احراما ، وليس لهذا عندى من معنى ، اللهم الا لحاق الوقت لبيعه قبل الموسم على الحجاج ثمن كبير . وكان عمر يزرع الكسوة القديمة كل سنة ويفرقها على الحجاج وتبعه في ذلك عثمان ، الى أن وجد شيئا منها على حائض فأمر بحفر حفرة وألقى فيها الكسوة القديمة وأهال التراب عليها خوفا من أن يلبسها جنب أو حائض ، فقالت له عائشة « ان ثياب الكعبة اذا نزع عنها لا يضرها من لبسها من حائض ولكن بعها واجعل ثمنها في سبيل الله تعالى وابن السبيل » . ومن ثم صاروا يبيعونها ، وهم يأخذون ثمنها الآن لانفسهم .

ولم يكن يبيع استار الكعبة أو كسوة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم للتبرك بهما مما يؤخذ على المسلمين في دينهم الذى لم ينص فيه على شئ من ذلك . لان الاعتقاد في آثار الانبياء والصالحين شئ قديم في جميع الشعوب . واعتقاد النصارى من الفرنجة في آثار البنا العظيم جدا : فقد حدثني صديق عزيز بك الفلكى أن خاله (وهى فرنسا وية الجنس كاتولكية المذهب) كان عندها قطعة صغيرة من نعل البنا «بى» التاسع طولها ٢ سنتى متر فى عرض نصف سنتى ، اشترتها باربعين جنهما وغلقتها بصفيحة من الذهب ، وكانت تحملها عمية ثمينة تتقى بها جميع الامراض والطوارئ السيئة ، على أن محرد الاعتقاد في مثل هذه الامور

المحمل

ذهب بعض المؤرخين الى أن المحمل يتدى تاريخه من سنة ٦٤٥ هجرية ، وقالوا انه هو الهودج الذى ركبت فيه شجرة الدر ملكة مصر فى حجهافى هذه السنة ، وصار بعدها يسير سنوياً أمام قافلة الحاج وليس فيه من أحد لان مكان الملوك لا يجلس فيه غيرهم .

والذى أراه أن المحمل قديم جدا وربما كان من قبل الاسلام ، وكان يطلق على الحمل الذى يحمل الهدايا الى الكعبة المكرمة ، وقد سیر رسول الله صلى الله عليه وسلم محملا الى مكة بهداياه الى البيت المعظم ، ومن ذلك ما نراه فى التواريخ من اسم المحمل العراقى والمحمل اليمنى وما شاهدناه الا أن من محمل ابن الرشيد^(١) ومحمل ابن سعود ومحمل ابن دينار ، وكل ذلك ليس الا جمالا تحمل صرتهم الى الحرمين مغطاة بقطعة بسيطة من الجوخ ، وكذلك محمل النظام ملك حيدرآباد بالهند يأتى مكة مع الحاجين من بلاده حاملا هداياه الى أهل الحرمين الشريفين . ولقد جاء فى الكلام على دارفور فى تاريخ السودان لنعوم بك شقير تحت عنوان صرة الحرمين ما نصه : « وكانت سلطنة الفور مستقلة عن دول الارض كلها لا تدفع جزية لاحد ما عدا الحرمين الشريفين فانها كانت تخدمهما بمحمل وصرة كل سنة فكان موكب المحمل يأتى^(٢) الى مصر ومعه الريش والصمغ وغيرهما من خبرات البلاد فيبيعها ويتم شمنها « هو والصرة ثم يستطرد الحج الى الحرمين مع الركب المصرى » .

وعليه فحمل شجرة الدر انما كان يسير امامها حاملا الهدايا الى أخذتها مع البيت المكرم فى هودج مزين بأبهى زينة وغاية ما هناك انها عنت به ورتبت له كثير آمن الخدم

(١) وأمير محمل ابن الرشيد يسمونه سهران .

(٢) أما الآن فمحمل ابن دينار يسوحه الى الخرطوم ومنها بالطريق الحديدى الى بورسودان ومنها

يسجر الى جدة .

والحشم ، ومن ثم صار عادة تقوم بهاملك مصر كل سنة ، ومازالوا يبالغون في زينته من سنة لاخرى حتى صارت كسوته بحيث لا يستطيع الحمل حمل غيرها معها ، (وكسوة الحمل الحالية مع هيكله الخشبي لا تقل عن ١٤ قنطاراً) ، وصار ما كان يحمل عليه من الهدايا يحمل في صناديق على جمال أخرى تسير مع الحملة .

ويعمل للمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير من أيام الدولة الايوبية . وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالقاهرة تمشي فيه الجنود الراكبة والبيادة وحرس الحمل وركبه وخدمته من ضوية وعكامة يتقدمهم أمير الحج الذي يعينه الخنازير العالي الخديوي سنويا ، وهو من الباشوات العسكر بين في الغالب ، وبعد أن يدور الحمل دورته المعتادة في ميدان الملعة يمر على المصطبة ، وهي المكان المعد لجلوس الخنازير العالي الخديوي يوم هذا الاحتفال ومعه رجال حكومته السنية من الوزراء والفخام والعلماء الاعلام وكبار وذوات العاصمة ، وهناك يأتي حضرة مأمور الكسوة الشريفة ويده زمام حمل الحمل فيستلمه الخنازير العالي منه ويسلمه الى أمير الحاج ، وعندها تضرب المدافع ويسير الموكب تتقدمه أشاير السادة الصوفية ثم الجنود ثم حمل الحمل يتقدمه أمير الحاج ويتلوه الحامل والحماله ثم القراحيمة (الطباون) على جماهم . ويستقر هذا الموكب سائرا الى المحجر فالدرج الاحمر ويمر من بوابه المؤيد فالغورية فالبحاسين فباب النصر فالعباسية . وهناك يتفرق الموكب وينزل ركب الحمل الى خيامهم التي ضربت لهم في فضاء العباسية ، وينصب الحمل في وسط ساحتها ليؤروه من يريد التترك به حتى اذا كان يوم السفر الى السويس نقلوه مع أدواتهم ودخائرهم الى وابور الحمل الذي يكون مهياً في محطة العباسية ، وبعد الشحنة يسير الى السويس ومنها يبحر الى جدة ، ثم يفصد مكة براً .

وفي سنة ١٣٢٨ سافر الحمل مع قوته على الاسكندرية وعمل له فيها احتفال عظيم يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ حضره الخنازير العالي الخديوي ومنها أبحر الى يافا وركب الوابور الى المدينة المنورة ، وبعد الزيارة سافر الى مكة من الطريق الفرعي ، وبعد أداء فريضة الحج عاد الى جدة ومنها الى الطور ثم الى السويس ثم الى القاهرة . والحكومة الآن تهتم في تقرير

قاعدة لسيره في الطريق الاقل كلفة ومشقة .

وللمحل المصري كسوتان : كسوته اليومية وهي من القماش الاخضر ، وكسوته المزركشة ولا يلبسها الا في المواكب الرسمية . وفي أيام وجوده مكة يوضع فيما بين باب النبي وباب السلام كسوته اليومية . فيكون هناك مزاراً للناس على اختلاف أجناسهم ، ولا ينقلونه من هذا المكان الا في مواكب الرسمية . وعند السفر به الى المدينة المنورة يسير اليها ركبته اما بالبر من الطريق السلطاني أو الفرعي أو الشرقي ، وإما من طريق البحر من جدة الى ينبع ومنها برا الى المدينة أو الى الوجهه ، ومنه الى محطة العلا ، ثم يتوجه في السكة الحديدية الى المدينة ، والمحمل الآن يسير في هذا الطريق الاخير لعنت أعراب الطريق البري من مكة وينبع وتشدد هم في طلباتهم وزيادة مرتباتهم .

وعند وصول المحمل الى المدينة المنورة يدخلها باحتفال كبير من باب العبريه ، وهناك يطلق له واحد وعشرون مدفعاً ، حتى اذا وصل الى الباب المصري ترجل كل من في موكبه اجلالاً لمقام الرسول صلوات الله عليه ، فادأوصلوا الى باب السلام أي شيخ الحرم واستلم رماح الجمل وأصعده على سلم الباب وأناخه على تلك الصدفة الواسعة ، وهناك يرفع المحمل ويوضع في مكانه من الحرم غربي المنبر الشريف وترفع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء ، ويلبس أمير الحاج ومن معه من المستخدمين لباس الخدمة في الحجرة الشريفة (وهو عمامة وفرجية بيضاء مشدود عليها حزام أبيض) ، ثم يحملون كسوة المحمل بكل احترام ويدخلونها في الحجرة الشريفة من الباب الشامي ويتركونها في جاب من ساحة مقام السيدة فاطمة رضي الله عنها . ولا تزال بالحجرة الشريفة حتى يخرجوها يوم سمر المحمل من المدينة المنورة ، ويوكبون بها في يوم خروجه من المدينة كما كانت الحال في يوم دخوله . وعند عودة المحمل الى مصر يحتفل بقدومه رسمياً باحتفال كبير يحضره الجناح العالي الخديوي أو من ينوب عنه ، فيسير الموكب من العباسية الى القلعة من الطريق التي كان خرج منها ، حتى اذا وصل الى مكان الجناح العالي الخديوي في المصطبة استلم سموه زمام الجمل من أمير الحاج وسلمه الى حضرة مأمور تشغيل الكسوة ، وعندها تطلق المدافع ويتم

الاحتفال . وتحفظ كسوة المحمل بمخزن في المالية ، وهذه الكسوة تجدد كل عشرين سنة مرة وتبلغ تكاليفها نحو ألف وخمسمائة جنيه مصري . اما كسوته الخضراء فيكسى بها سنويا بعد عودته ضريح سيدى يونس السعدى (بجبانة باب النصر) وأظن أنه كانت له مدة حياته خدمة في سفريّة المحمل .

واليك كشفاً ببيان ما يصرف من المالية سنويا في تسفير المحمل والمرتبات الجارى صرفها في مكة والمدينة المنورة حسب الوارد في الميزانية الاخيرة .

جنيته

١٢٨٢ . مرتبات وتعيينات لامير الحاج ومستخدمى المحمل .

٢٥١١ . » العربان .

١٤٩٣ . » الاشراف بمكة والمدينة المنورة .

١٩٦١ . » تكية مكة .

١٦٥٧ . » تكية المدينة المنورة .

٢٨٧٩ . » أهالى مكة والمدينة .

٣٠٠٠ . » لمكة والمدينة تصرف سنويا من أوقاف الحرمين والاقواف الخصوصية

والاهلية والخيرية ومن الخاصة الخديوية والمالية .

٢٢٥٠٠ ثمن ومصاريف قمح الصدقة بمكة والمدينة .

١٦٢٩ . » شمع وقناديل للحرمين .

٠٠١٥٥ . » خيام وقرب وخلافها .

٤٢٤٨ . » أجرة منقولات برأ وبحرأ وأجر جمال .

٦٤٢٠ . » فية ما يرسل كل سنة الى الحرمين الشريفين من الزيوت والحصر وخلافها

من ديوان الاوقاف .

٠٠٢٦٥ . مصاريف ثرية .

٥٠٠٠٠ مجموع المنصرف سنويا .

واذا قارنت هذا المبلغ بما جاء في المقر يزي عند الكلام على قافلة الحاج وجدت أنه نحو نصف ما كان يصرف عليها في زمن الفاطميين . قال المقر يزي : « قال في كتاب الذخائر والتحف ان النفقة على الموسم كانت في كل سنة تسافر فيها القافلة مائة ألف وعشرين ألف دينار ، منها ثمن الطيب والحلوى والشمع راتباً في كل سنة عشرة آلاف دينار ، ومنها نفقة الوفد الواصل الى الحضرة أربعون ألف دينار ، ومنها في ثمن الحمايات والصدقات واجرة الحمال ومعونة من يسير من العسكرية وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون ألف دينار ، وان النفقة كانت في أيام الوزير المازوري قد زادت في كل سنة وبلغت الى مائتي ألف دينار ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك في دولة من الدول » .

ولقد كان لركب الحمل في الدولة المصرية شأن كبير ومقام خطير ، وكانت مرتبة أميره في المرتبة الثالثة من مراتب الدولة ، وكان صاحبها في عهد المماليك مرشحاً لان يكون حاكماً للعاصمة التي هي اهم وظيفة عندهم بعد وظيفة الوالى والسلطان ، وله رأى مسموع وكلمة محترمة ، وكانت وظيفته مستديمة وتوليته نقرمان سلطاني ، وله المكانة العليا والكلمة النافذة في بلاد الحجاز ، وكثيراً ما كان يصدر أمره بعزل وتولية امراء مكة . ولقد بلغ من مبالغة ملوك مصر بالاحتفاء بالحمل أنهم قضوا على جميع حكام البلاد التي كان يمر عليها في طريقه بان يقبلوا خف جمل الحمل عند استقباله وما زالت امراء مكة يقبلونه أيضاً في استقباله لهم الى أن أعفاهم من ذلك السلطان جقمق في سنة ٨٤٣ . وكان الاحتفال بطلوع وعودة الحمل مدة سيره على البر في أواخر زمن اسماعيل من الفخامة بمكان عظيم ، وكانوا عند عودته يبلون السكر فرحاً به في احواض كبيرة يشرب منها الغادون والرائحون مدة ثلاثة أيام وهي عادة قديمة جداً . وكان يسافر في خدمته غير مستخدميه من أمير وأمين صرة وكتبة وصيارف ، كثير من الخدم والحشم والعكامة والحالة والفرارية والنجارين والفراشين والخميمة والسقائين ، وكان ضمن وظائف الحمل وظيفة اسمها أمين الكساوى والحلويات ومن شأنه توزيع الحلويات والكساوى التي كانت ترسل للعرب

واستعيض عنها الآن بصرف أئمتها لاربابها . وكان يخرج معه موظف يرسم مأمور الذخيرة في عهده البسماط الذي كان يؤخذ لما عساه يحصل في الايام الغير المعتادة التي كانوا يحتاجون فيها للصرف على الحجاج اذا قضت الضرورة . وكان من ضمن خدمته رجل يقال له شيخ الحمل ، وآخر اسمه أبو المظط ، ثم سائس الهرجلة (الهركله) ومقدم العيط ، ثم سواق المقاطيع وكانت وظيفة الاول أن يشتري الجمال اللازمة للمحمل ، ويركب وراء حمل المحمل في موكله لملاحظته في سيره من الخلف كما يلاحظه المحامل في سيره من الامام . أما الثاني فيمولون انه كان يقوم بغذاء الفطط التي كانت تتبع ركب الحمل مدة سفره في البر ، ويقول آخرون انما كان هذا اسمه أما وظيفته هي التي غيروها بوظيفة امام الحمل . و يقال ان وظيفته كانت من عهد حج شجر فالدر ، أما الثالث فقد كان رئيسا للصويبة والعكامة يستدعيهم عندما تكون هناك حركة مهمة ، فيأتون بغير نظام بين صياح وهياح وكلام . والرابع كان مباشر الدين بمعد هم المرض أو ضيق ذات اليد عن الاستمرار مع الركب . وجميع هؤلاء كان تعيينهم بقرمانات مخصوصة بعضهم السلطة وبعضهم امن ولازم مصر ، ولهم مراتب بالرتب من عهد بعيد . وقد استغنى الآن عن كثير منهم في سفريه الحمل لعدم الحاجة اليهم مع صرف مرتباتهم لهم ، كما استغنى أخيراً عن وظيفته أم من الصرد التي يؤديها الآن واحد من كتبة المالية تسد به النظارة لذلك .

وكان للمحمل عشرون جملاً لهذه المأمورية . وكان لها مباح في بولاق بحوار شيخ اسمه سيدى سعيد . وكانت الحكومة في الزمن السابق تشتري مع هذا الجمال حملاً تجعله وداً عنها كل سنة : فيأتي به الجمال قبل موكل الحج ويركبون عليه شيخ الحمل ويسيرون به ومعهم العكامة والضوية وأمامهم العرايحية يحيط بهم كثير من الغوعاء ، ويمرون في القاهرة ثم يذهبون الى باب الشيخ سعيد و يذبحونه هناك . وكان المحامل يأخذ ربه ، والجماله ربه ، وخدمة الشيخ سعيد ربه ، وخدمة الشيخ يوسف الرابع الماقي . وكانوا يبيعون لحمه الى الناس على سبيل البركة مدعين أن لحمه ينفع للصداع وشحمه للبواسير ، ولذلك فانهم ما كانوا يلقون به الى الارض . يصدد بحه ، حتى يهجم عليه الحاضرون من العامة ويمطعون ارباراً بعداهم قبل

ذبحه ويأخذ كل منهم ما تسمح به قُوته . وكان كثيرا ما يؤدي ذلك الى ضرر جسم يستهين به هؤلاء الحفلاء في جانب هذا الاعتقاد السخيف . فلما بلغ ذلك الجناب العالي حفظه الله أمر بإبطال هذه العادة الشنيعة مع صرف قيمة ثمن الجمل الى أربابه جزاء الله عن الدين والاسانية أحسن الجزاء .

حمام الحمى

حمام الحرم المشهور بحمام الحمى ببلاد سطوح المسجد الحرام ومناقبه وطاقاته . فتجده معششا هنا وهناك، ويجمع زرافات زرافات في جهات كثيرة من حن الحرم وعلى الخصوص في الجهة الشرفية ، وله فيها مكان مخصوص فيه أحواض لشربه ، وبحواره مكان يلتقي فيه حب القمح المرتب له من أوقاف مخصوصة . وكثيرا ما تراه في الجهة الغربية ، حيث يوجد غير واحدة من فقراء القوم يبعون حب القمح للحجاج والزوار ، تقصد القائه الى جيوش هذه الحمامات المستأجرة ، التي تكاد ترفرف على رؤوس الناس ، لا هالم تعرف منهم في حياتها الا كل لطف وأس . وليست هذه الخصيصة قاصرة على نوع الحمام ، بل كل حيوان دخل الحرم وهو آمن ، حتى ذهب بعضهم الى عدم قتل الحية أو العنكبوت في الحرم ، احتراماً له وإكراماً لها فيه . وانفراد الحمام بوجوده في الحرم لا أظنه الا لسهولة أسسه وقلبه جفائه . ومن أغرب ما يروى عنه أنه مع كثرتة في الحرم لم يشاهد منه شيء على الكعبة الا نادرا جدا . وفي الجهة الشرفية من مكة تحت جبل أبي قبيس يقال لها أثر الحمام يجمع عندها كثير منه ليشرب بحريته ثم يذهب الى حيث أراد . وهذه البئر قديمة جدا وأظنها من زمن الحاهلية . كما أني أظن أن احترام الحمام هنا أيضا من زمن بعيد . وعلى كل حال فهو مكرم للبيت سواء قبل الاسلام وبعده . والقول بأنه من سنن تلك الحمامة التي عششت في الفار على النبي صلى الله عليه وسلم انما يزيد في احترامه واعظامه .

وليس الحمام بمحترم فقط هنا بل هذه عادة قديمة جدا : فبنو نوح كانوا يكرمونه لانه أول

من بشرهم بظهور اليا بسمة مدة الطوفان . واحترامه عند النصارى يقرب من درجة
التقديس ، لانه يمثل عندهم روح القدس ، ويقولون انه عندما كانوا يغسلون المسيح في
نهر الاردن وهو صغير جاءت حمامة وحطت على رأسه ، لذلك يرسمونها في كنائسهم وعلى
صورهم الدينية بكثرة . ومن هذا ترى الحمام قد أطلقت له الحرية في كنائس القوم في
أوربا وخصوصا في كنائس ايطاليا والنمسا وبعض كنائس فرنسا ، وقد تعدى هذا
الكنائس الى منافذ المساكن وكرايشها وأسطحها وأشجار الشوارع العمومية وساتينها :
فاذا ذهبت الى فينا أو روما مثلا وجدت هنا وهناك في كل مكان من غير أن يؤذيه أى انسان .
وأثر هذه العقيدة باق في الحمام الذى لا يزال في مدينة القسطنطينية الى يومنا هذا ، وتراه على
الخصوص في مسجد بايزيد ومسجد أنى أيوب الانصارى ، غير أن أهل الاستانة قد بالغوه
في اكرامه حتى حرموا دبحه ، فهم لا يأكلونه أبدا سواء في ذلك مساموهم وبصاراهم ويهودهم .
أما ما ذكر من أن المسلمين يعتقدون أن حمام الاستانة من ذرية حمام الغار (الذى يقولون عنه
انه كان يخبر الرسول بجميع ما كان يفعله المشركون) ، فانه لا أصل له عندهم ، كما لا أصل في
دينهم لتلك المأثورية التى كان يؤذيها حمام الغار . والشيعية من العجم يعتقدون مثل هذا الاعتماد
في حمام الحرم ، ويزعمون أنه هو الذى أخبر أهل المدينة المنورة بقتل الحسين رضى الله عنه .

والصينيون يستعملون الحمام من زمن بعيد في استكشاف بحتم على مثل ما يستعمله بعض
الاروام الآن في طرقات مصر : فيأتون للحمام يطبق فيه جملة أوراق مطوية مكتوب فيها
شئ من الخير والشر ، فتأتى الحمامة وتستخرج بمنارها واحدة يكون معها ألهم ، ويسمون
هذه الحمامة بالكوب - بن (Pak-pko-Pin) يعنى الحمامة ذات الورقة البيضاء .

ولقد كان الحمام عند الساميين هو الحيوان المقدس للاله عشتورت (Astarte) . وكان
عند الفنيقيين واليونانيين والسوريين يمثل السماء والنجوم . وأظن أن احترامه عند العرب في
الجاهلية لم يأت الا من هذا الطريق . ولذلك كانوا يضعون تماثيل حمامة داخل الكعبة بجوار
تمثال هبل : ولقد ورد في سيرة ابن هشام عن صفية بنت شيبة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم
لما نزل مكة بعد الفتح وطاف بالبيت ، دعا عثمان بن طلحة وأمره بفتح الكعبة فلما

دخلها وجد فيها حمامة من عيدان وكسرها بدهن ثم طرحها .
على أن الوصف والنظر عن كون الحمام لطيفاً في شكله ، أبساقى نوعه ، جميل في صورته ،
لطيف في لباسه ، يمثل في عائلته المحبة الحميمية والشفقة الحسية ، فابصرى فيه درسا عائلياً
كبيراً : يرى الدكر منه مع انشاده يعملان لحماتهما وحياده عائلتهما عمل المحبين المحمدين ،
حتى إذا فرغ من واجبهما الإلهي نزعاً إلى حياتهما الزوجية : فتراهما بين تواقق وتعاشق
وتعاقب ، لا يفصلان إلا ليتصلا . ولا يفترقان إلا ليجتمعا في جلابيب جمال ، وأساليب
دلال ، مما لا يرى له مثال ، في زوجين من غروبهما على كل حال .

على أن الحمام له على الإنسان خدمة بدكر فتشكر : فقد كان من القرن الثامن قبل المسيح
إلى منتصف القرن التاسع عشر يؤدي وظيفة التلغراف بين الأمم المختلفة ، حتى أعلن مرس
ووطسون سنة ١٨٤٤ م للعلماء الكهربي ، الذي لا يشك أحد في أنه أعاد العالم بأسره
فائدة جسمية . وكان من أكبر الأشياء التي ساعدت على انمدن العصري وإبشاره بسرعته .
ولكن هل هذه الفوائد الجسماء ، نسيتنا فضل ذلك الحمام ؟

ولتكن هذه الفوائد تقول لك أن أول من استعمل الحمام في الزجل هو رجل من حرره
أوجس (من جزر اليونان) ، أي في سنة ٧٧٦ قبل المسيح إلى أنما لم يحصر الألعاب
الأولمبية ، واستحضر معه حمامة كات عمده أحدها من بين أفراسها . فلما بررى هذه الألعاب
أرسل الحمامة فذهبت إلى عشها ، ومن قدومها علم أهل الرجل بجأحه في مأمورته . ومن
ثم استعمله اليونان والرومان والعرب والمصريون في مراسلاتهم . وكان لمصر وخصوصاً
زمن الإيوبيين والفاطميين مصلحة للرسائل ، وكان في كل جهة باب للحمام ، وكله
غريب من جهات متعددة : فكانوا إذا أرادوا إرسال مكتوب إلى أي مكان ، أرسلوه على
جناح حمامة مأخوذة من هذه الجهة . إلا أنهم كانوا يرسلون الخبر من صورين على
حمامتين بعد الذي حصل في حصار القرحمة لمكا . ذلك أن المسلمين في عكا أرسلوا رسالته إلى
صلاح الدين الأيوبي بواسطة حمامة من حمامهم ، فتبعها طير خارج وصرها ، فسمعت في
معسكر العدو الذي عرف منها مواقع الضعف من عدوه . ولعلك تدكر لما نزل لويس التاسع

ملك فرنسا الى دمياط سنة ١٢٧٠ م وسار بجنده الى المنصورة ، أخذ ملك مصر الملك الكامل خيره بواسطة الحمام الزاجل ، فسير اليه جيوشه لوقته فأوقفته عند حده ، وكان ما كان من اهزام جنوده عند المنصورة وأسر لويس وسجنه بها الى أن تم الصلح بينه وبين ملك مصر ، فأطلقه وسافر الى تونس ومات بها . وفي حديثه يقول بعضهم .

قل للفرسيس وان أنكروا حبس لويس في معال صحيح

دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

والحمامة تقطع في طرها من سبعين الى ثمانين كيلومترا في الساعة ، ولها صبر على الجوع جملد أيام ولا يمكنها الا تصبر على العطش .

وكان لهذا الحمام في حصار المانيا لباريس بين سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧١ أكبر فصل في ربط أجزاء المملكة الفرنسية معا صحتها .

ورما كانت هذه الحكومات قد قصت أن لا يمس جنس الحمام لسوء حتى لا يكون نوع الزاجل منه عرضة لادى الصيادين وخلافهم فيؤدى مأمور بنده وهو في غاية الهدوء والطمأنينة .

ولم دكان عباس باشا الاول والى مصر رجع الى تربية هذا الحمام واسنكث من أنواعه . واكمه مات رحمه الله قبل أن يتم غرضه . وأخذ بعض دوات القاهرة عنه هذه الغية ، واكمهم اقتصر واعلى تربيته وتطيره في محيط ديارهم . وقد يعلمه بعضهم الصبر على الطيران حتى اذا التحم بحمام غريب طار معه الى أن تنفذ فواه ثم يرجع به الى صاحبه الذى يكون فرجه به لا يفدر . وللحمام عندهم أسماء مختلفة فمنها الخز غمدى - والريحانى - والمرزور - والفرازى - والا بلق - والعنبرى - والغزار - والشاقى - وغيرها ، الا أن هذه الغية لم تقف عند أفية الا غنياء بل تعدتهم الى الفقراء وهم الى الان يضيعون فيها وقتهم الذى هم وعيالهم فى حاجة اليه لعمل حيوى مفيد . ولمد شاهدت فى بستان سراى يلدز الداخلى ، بعد خلع السلطان عبد الحميد ، دارا كبيرة من السالك وفيها مالا يحصى من أنواع الحمام وهو من جمال الخلقة بمكان عظيم . وربما كان يتسلى به فى سجنه الذى قضى على نفسه به طول حياته سامحه الله .

الحج

الحج في اللغة القصد ورجل محجوج أى مقصود . وفي اصطلاح المسلمين قصد مكة لاداء المناسك في زمن مخصوص من كل سنة قمرية . و واحدته حجة ، وتطلق على السنة فيقال عمر هذا الصبي سبع حجج أى سبع سنين .

وهو سنة قديمة جدا في الاعم ، والغرض منه على كل حال أمر ديني محض ، وان كان الاجتماع فيه لا يخلو من فائدة دنيوية ، تزيد في رقي الامة أدبيا وماديا . وقد كان المصريون قبل أربعين قرنا يحججون الى هيكل معبودهم ايزيس بمدينة سايس (صا) ، وفتح في منفيس ، وأمون في طيبة .

واليونان كانوا يحججون قبل المسيح بحمسين قرنا الى هيكل ديانا في افسوس ، ثم انتقلوا في مبدأ القرن الثاني قبل المسيح الى حج معبد ميسارفا في أثينا ، وجوبيتير في اولمبيا . واليابان يحججون من عهد بعيد الى هيكل عظيم مشهور في ولاية اسجى ، وتجب زيارته عندهم على كل فرد منهم في عمره ولو مرة واحدة : فيتوجهون اليه بلباس أبيض على شكل مخصوص ، وسوادهم بمصدونه عرافة لبس عليهم الا ما يستر عورتهم ، ويقطعون اليه كل المسافة ركضاً . والصينيون يحججون الى هيكل المعبودتيان من زمن بعيد جداً . والهنود لا يزالون يحججون الى هيكل جاغرناث ، أو هيكل الورا في حيدرآباد وهو محفور في الصخر على طول فرسخين ، وكذلك يحججون الى هيكل بودا بحزيرة من اقرب سيملان . وهم يكثر من الطواف حول هياكلهم ، ولهم بحيرات مقدسة يتبركون عياها مثل بحيرة مادن قرب بحر قزوين . واليهود يحججون من القرن الرابع عشر قبل المسيح الى المكان الذي به تابوت العهد ، وكانوا يحججون اليه ثلاث مرات في السنة . وكان ذلك أكثر سبب لعمار اورشليم ، حتى أحرقها الامبراطور طيطوس الروماني وأجلى اليهود عنها سنة ٧٠ مسيحية ، وما زالوا بعيدين عن مدينة بيت المقدس حتى استولت العرب عليها سنة ٦٣٦ م (سنة ١٦ هـ) ، فأقرهم عمر رضى الله عنه مع

النصارى على ما كان لهم في بيت المقدس . ولما قامت الحروب الصليبية قطعت عليهم طريق حجهم الى أن استولت دولة نبي عثمان على أورشليم في سنة ١٥١٧م فأمنت الطرق ومهدت السبل الى بيت المقدس ، وهم يحجون الآن الى قطعة من السور القديم لهيكل سليمان في الجهة الغربية من المسجد الأقصى ويسمونها البراق .

أما النصارى فانهم يحجون الى بيت المقدس من سنة ٣٠٦ للمسيح ، أى منذ سارت هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الى أورشليم وابتنت بها كنيسة القبر المقدس المشهورة باسم كنيسة القيامة . وكانوا يخرجون اليه من غرب أوروبا باحتفال عظيم ، وكان رئيس الجهة الديني يزود كلا منهم بعضاً ورداء من الصوف الخشن فيلبسه لوقته ، وكان لهم على طول طريقهم تكايا وأديرة يأوون اليها مدة سفرهم ، وإذا وصل الحاج الى بيت المقدس يتطهر في نهر الاردن الذي يبعد بنحو عشرين كيلومتراً شرق القدس ، ثم يلتحف برداء يحمله معه ليكون له كفناً عند موته . فلما استولى السلجوقيون على بيت المقدس قل حجاج الافرنج الى أورشليم وحولوا وجوههم الى كنيسة القديس بطرس وبولس في رومه ، وفي تريف (Treves) بجرمانيا . ويزعمون أن بالأخيرة فيص المسيح الذي كان يلبسه ، وقد بلغ عدد حجاجها سنة ١٨١٤ مليوناً ومائة ألف نفس من الافرنج . وهم يحجون أيضاً الى كنيسة لورده (Lourdes) في جنوب فرنسا بعد أن شاع في أوروبا أن السيدة مريم العذراء ظهرت لاثنتين من رعاها هذه المدينة . والزائرون لهذه الكنيسة يشربون من ماء ينبع قريباً منها يسمى باسمها ويعتقدون الى اليوم بأن فيه شفاء للناس ويرسلون منه الى جميع أقطار المسكونة للتبرك والاستشفاء . ولم نكثر حجاج بيت المقدس الا بعد عمل السكة الحديدية اليها من يافا .

والعرب كانت تحج الى الكعبة قبل الاسلام بنحو خمسة وعشرين قرناً ، لأنهم كانوا يعتقدون أنها بيت الله على ما كانوا عليه من اختلاف الالهة وتعدد الديانات وتغاير المذاهب . وكانوا يقصدونها سنوياً للطواف بها من غير أن يدعيها لنفسه فريق منهم دون الآخرين ، لأنها كانت عندهم بيتاً لله الذي هو إله العالمين . ورغم أن شيوخ عبادة الاوثان في سواد

فبائن العرب فانه لم يرد عنهم أنهم عبدوا هيكل الكعبة ، وليس ما ورد في أسماهم من عبد الكعبة (وكان أنوكر يسمى عبد الكعبة فلما جاء الاسلام سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله) الا لزيادة اجلالهم اياها ، كما هو الشأن في تسمية عبد المبي عبد المسلمين ، مع كراهيته في دينهم . وكذلك لم يسمع عنهم أنهم عبدوا الحجر الأسود مع احترامهم له ذلك الاحترام الذي لا يمكن تصووره . وكانوا يعتقدون أن هذا الحجر نزل من السماء ، وبه أخذ بعض الفناء ، ونحن لا ندري ان كان وصل اليهم من طريق النيارك أو من طريق آخر . وكان لهذا الحجر في العرب شأن عظيم جداً حتى انه لما حصلت الحرب بين اباد ومضرا بنى نزار ، ودارت رحاها على اباد ، فلعنت الحجر الاسود ودفعته بحبل أنى فييس فرأت ذلك امرأة من خراة فأخبرت قومه ، فاشروطوا على مضرا إن هم ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم ، فوفوا لهم بذلك فردوه ومن ثم صارت ولادة البيت في خراة .

واحترام الاحجار (١) في الناس قديم جداً : فهم من كانوا يعبدونها الدائما ، ومنهم من كان يجعلها رمزاً لآلهتهم كما كان الشأن في الدول الراقية في عمارها كدولة الرومان واليونانيين الذين كانوا يرمزونها لمعبوداتهم من الكواكب وغيرها : ولم يكن بوجهم الى الآن في نحت الاحجار وعمل التماثيل وتبرزهم في التصوير ، الا لاحترامهم اياه من قديم الزمان . واسمعنا لهم في الأزمنة الخالية تمثيلا لمعبوداتهم . والصياديون واليانان والهنود لا يملون عنهم في هذه الصناعة ، ولهم فيها دقة غريبة وخصوصاً في الاعمال الخشبية التي يمثلون فيها كثير من معبوداتهم مثل بودا وكوهوشيو وس وغيرهما .

أما العرب فمما كانت أصنامهم سادجة مثل جميع طبائع الاشياء فيهم ، وقد كانوا يعبدونها المرهم الى الله زلفى ، وفي غيبة ناب السلام الخارجية الحرم المكي ترى حجراً ضخماً أشبه شئ بدرجة سلم غير منتظمة . نازله في الارض يطئونها بانه عالم ، وأهل مكة يقولون عنه انه صنم من أصنام الجاهلية واسمه اساف .

(١) وفي باريس بحوزة الدكتور وكادروم متحف اسمه جيميه (Musée Guimet) فيه مجموعة كبيرة من الاحجار الدينية وهي أكبر مجموعة في عالمها وقد رتبها سنة ١٩٠٦م مع صديقي العاضل على بك رحمة وكيل دار الآثار العربية وسجلنا صاحبها والعائم بادارتها بكل أسس ولطف .

وكان أنبياء بني اسرائيل يقيمون الاحجار في مناسبات كثيرة : منها ما هو تذكار لحادثة من الحوادث الجسمية ، كما فعل يعقوب عند ما تراءى له ربه في يومه . فانه أقام حجراً تذكاراً لهذه الحادثة الكبرى في مكان سماه بيت إيل (بيت الله) ، كما أقام حجراً غمره تذكاراً للعهد الذي تم بينه وبين لابان (أنظر الآية الرابعة والاربعين والخامسة والاربعين من الاسحاح الحادى والثلاثين من سفر التكوين) . ومن هذاتلك الحجارة التى يصممها موسى في ديل الخبل تذكاراً لكتابة كلام الرب (أنظر الآية الرابعة من الاسحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج) ، ثم الاننا نذكر حجراً الذى يصممها يشوع تذكاراً لعبور الاسباط نهر الاردن بنا بوب العهد (أنظر الآية التاسعة من الاسحاح الرابع من سفر يشوع) ،

ومن حجاره التذكار أيضاً تلك الحجارة التى يقيمها صغار الحجاج على حافة طريقهم مع العاقلة . فتراهم اذا صادفوا فى طريقهم أحجاراً صغيرة نسا قوا اليها وأخذ كل بين يديه ما أراد منها ، ووضعها على بعضها حجراً حجراً قائلاً : هذا لى هذا لأنى هذا لأخى هذا لأختى هذا لصديقى فلان مثلاً . ويسمون كل كوم منها بطوراً ، وهم يزعمون أنه مادامت هذه الرحمة على وضعها كان أصحابها على قيد الحياة ! ! ولولم يكن فى عملهم هذا من حسنة سوى تسمية الطريق من الحجارة التى ينعمش فيها الاسان والحيوان لكفى . وقد رأيت بعضهم فى مصر يقيم هذه النواطير فى طريقهم الى الموالد وكثيراً ما ترى ذلك فى جبالات الأرياف قرب بعض الاضرحه . وجبالات النصارى بالارياف لا تخلو من ذلك .

ومن الحجارة ما كانوا يقيمونها للاستشهادها : كالخجر الذى أقامه يشوع عند ما أخذ العهد على شعبه قائلاً لهم هذا الخجر يكون شاهداً علينا (أنظر الآية السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من الاسحاح الرابع والعشرين من سفر يشوع) .

ومن حجارة الشهاده ما يستعمله الناس فى الافتراعات ^(١) السريفة فى أيامها هذه مما هو

(١) وذلك انهم اذا حافوا على حرية الشخص وابداء رأيه فى الاقتراع العلنى ، ذهبوا الى الاقتراع السرى : وهناك يدار على الاعضاء ناعبه حجارة سوداء وأخرى بيضاء ، فيأخذ المقترع حجراً من هذه الامرار على الرأى المقترع عليه أو من تلك اذا كان مخالفاً له ، ويضع هذا الحجر فى كيس يقدم اليه بحيث لا يشعر به أحد . وبعد أخذ جميع الافتراعات يقدم الكيس الى الرئيس ، وداوود أن الحجارة البيضاء أكثر من السوداء ، كالاقتراع ايجاباً بالبيبة الاصوات والا كان سلباً .

مستعمل على الخصوص في دوائر الحكومات الكبرى كمجالس النواب وغيرها .
 وكان المصريون يقيمون الاحجار الجسمية كالمسلات وغيرها نذكاراً للحوادث
 التاريخية الكبرى . وقد اقتفت آثارهم الدول المتقدمة وعلى الخصوص ما يقيمونه منها اعترافاً
 بفضل من ينبغ من أفراد الامة ، وهذه الآثار لا يكاد يخلو منها ميدان من ميادين عواصم
 أوروبا .

وجميع الحكومات من قديم الزمان تقيم الاحجار لتعبين تخومها وتحديد ممالكها . وقد
 عم هذا الاستعمال في تحديد ملكية الافراد حتى أطلق لفظ الحجارة على الحدود ،
 وأجمعت الشرائع كلها على احترامها .

واليهود الى الآن يقدسون قطعة من حائط سور المسجد الأقصى من جهة القبلة
 يسمونها البراق ، ويباغ طولها نحو ثمانية وأربعين متراً في ارتفاع مترين ، لزعمهم أنها القطعة
 الوحيدة التي بقيت من قاعدة سور الهيكل الاصلى الذي بناه سليمان عليه السلام ، وهدمه
 بختنصر وسنحاريب وغيرهما من ملوك الاشوريين والرومانيين . وهم يحجون الى هذه
 القطعة مرتين في كل سنة وخصوصاً في العيد الذي يسمونه عيد الدجاج (عيد السربان) .
 ويهود القدس يجتمعون عند هذا السور كل يوم وعلى الخصوص في عصر يوم الجمعة مع
 رؤسائهم الدينيين ، ويستلمون حجارتها باكين شاكين مستعجبين متضرعين الى الله بأن يرد عليهم
 ملكهم وأن يعيد الى اورشليم نخامتها وجلالاتها . وقد وصل بهم احترامهم للحجارة ذلك
 الهيكل الى أنهم لا يدخلون في حوش بيت المقدس أصلاً ، بل لا يدخلون من باب مطلقاً خوفاً
 من أن تطأ أقدامهم حجراً من الحجارة التي تكون ربما تحلفت من هيكلهم القديم ، وألفت بها يد
 الصدفة في أرضية هذا المكان . وهم يقدسون أيضاً جانباً من سور منارة المكفيلة التي بها
 قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب في حرون ، ويجتمعون عندها مساء كل يوم جمعة ويصلون
 ويتهللون ويستغيثون ، صارخين الى الله تعالى أن يعيد اليهم ملك بني اسرائيل .

وللنصارى احوار كثيرة يقدسونها ، ومنها شئ كثير في بيت المقدس . وقد بلغ تقدسها
 منهم الى حد لا يمكن تكيفه . ومن تلك الاحجار الحجر الذي تحت قبة الصعود : وفيه أثر صدر

قدم معنى يقولون انه أترقدم السيد المسيح عندما صعد الى السماء . وقد شاهدت بنفسى هذا الحجر الذى ملس وكاد يذهب أثره من كثرة لمسهم له وتقبيلهم اياه . وفى أسفل جبل الزيتون من الجهة الغربية مما يلي وادى سدرون (الذى يسميه العامة وادى مريم) قطعة من صخرة خارجة عن سور الكنيسة الروسية الشمالى ، فيها بعض تقعر رأسى ، يقولون ان السيد المسيح أسند ظهره اليها عندما نزل من جبل طور زيتا (جبل الزيتون) الى المدينة . ولقد اجتهدت الكنيسة الروسية فى ادخال هذا الحجر اليها ، فمامت من أجل ذلك قيامة الطوائف الاخرى ، وكادت تحصل لذلك فتنة كبيرة ، لولا أن الامر انتهى بجعلها منطقة عامة للجميع حتى لا يحرم الكل من التبرك بها . وازاء هذه الصخرة الى جهة الشمال توجد صخرة أخرى محاطة بسور للأروام ، يقولون ان السيد المسيح كان جالس عليها اذ ذاك ليشاهد منها صخرة بيت المقدس ، وباب هذا السور يفتح للزيارة فى أيام مخصوصة . وللقوم فى كنيسة القيامة أحجار كثيرة تكاد تهوق حد التمديس : منها حجر يصف الديب الذى تراه فى وسط هيكل الاروام ، وحجر المغسل الذى يزعمون أنهم غسلوا المسيح عليه ، وحجر الكأس الذى نزل به جبريل الى المسيح ووضعه عليه ، وعمود الخلد الذى كان المسيح مربوطا به عند ما جلده أعداؤه ، وحجر الاكليل الذى أجلسوا عليه المسيح وقت ما وضعوا على رأسه اكليل الشوك ، ويوجد فى بيت لحم كثير من هذه الحجارة المقدسة عند النصارى .

ومن الحجارة المقدسة المحترمة عند اليهود والنصارى والمسلمين على السواء ، صخرة بيت المقدس التى كانت محل فربات ابراهيم واسحق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء نبي اسرائيل عليهم السلام ، وكانت فملة للمسلمين قبل الكعبة ، ثم صخرة أيوب (النبي) التى فى قرية الشيخ سعد على طريق السكة الحديدية بين المزيريب والشام ، ويقصد زيارتها والتبرك بها خلق كثير من جميع الافاق على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم .

من ذلك ترى أن هذه الحجارة لم تقدر لدانتها ، ولكن لعلاقتها بشئ مقدس محترم : وعليه فالحجر الاسود الذى وضعه ابراهيم عليه السلام فى الكعبة إما أن يكون وضعه تذكاراً لصده نأمر ربه برفعه قواعده هذا البيت المعظم ، وإما أن يكون للعهد الذى أخذه ابراهيم

على نفسه وولده بجعله هذا البيت مثابة للناس، وإما أن يكون قد أقامه إبراهيم حجة عليه وعلى ولده أن هذا البيت قد استعمل من ملكيتهم إلى الله تعالى ليكون للناس متبلى ومسجداً للطائفتين والعاكفين والركع السجود . ووضع في الركن الأقرى إلى الباب ليكون أوّل حدود هذا البيت المكرم الذى يبتدى منه الطائفون ، وجعل لونه أسوداً لسهولة تعيينه وتحديد مكانه : لذلك كان هذا الحجر محترماً من إبراهيم ، محترماً من ولده ، محترماً من المسلمين إلى اليوم وإلى الغد . ولا عبرة بما ذهب إليه بعض السائحين الذين قصدوا مكة والمدينة تحت ستار شعار الدين الإسلامى ، وكتب عليهم ما كل بحسب نزعتهم سياسية كانت أو دينية ، وافترى بعضهم على المسلمين بأنهم فى حجهم يعبدون الحجر الأسود الذى هو أثر من آثار الوثنية العربية الأولى ! وإني لأدكر شيئاً أدحض به هذه الفرية سوى ما رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم ورواه ابن أبى شيبة والدارقطنى فى العلل ، من أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف عند الحجر فقال « إني لا علم لك حجراً لا تضر ولا تنفع » ثم قبّله ، ثم حجج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال « إني لا علم لك حجراً لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » ، وقال عمر « أما والله إني أعلم لك حجراً لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك » ثم دنا فقبل . على أنه لم يسمع عن عرب الجاهلية مطلقاً أنهم عبدوا هذا الحجر فيما عبدوا من الأحجار بالمرّة ، مع احترامهم له كل الاحترام واجلالهم له كل الاجلال . وعلى كل حال فإن الحجر الأسود عند المسلمين محترم مكرم معظم لا لذاته ولكن لكونه شعاراً لربوبية تعالى ورمزاً لسلطانه . يعرض عليه المسلمون فيستلمونه ونفسلونه ، أو يسلمون عليه من بعد بكل احترام واحتشام : وعليه فهو فى ذلك كالعلام الدول التى لا تحترم لكونها قطعة بسبطة من القماش مرفوعة على قطعة من الخشب أسط منها ، بل لأنها تمثل سلطان الملوك وعظمة الممالك : وهى لا حضرت استعراض جيش من جيوش الدول العظام ورأيت القوم إذا حاذوا علمهم أحوا أمامه رؤوسهم وسيوفهم علامة على الخضوع والاحترام ؟

وما زال الحج عند عرب الجاهلية على ملذات ابراهيم واسماعيل ، ومشاعره^(١) كلها محترمة
عندهم ، حتى اذا عظمت قر يش بعد واقعة الفيل ، وقال الناس فيهم ايهم أهل الله يدافع عنهم ،
نمخوا بأنوفهم على العرب ، وقالوا نحن ولادة البيت ، وليس لاحد من العرب مثل منزلتنا ،

(١) ولابن طالع عم النبي صلى الله عليه وسلم قصيده مشهورة ببلاغتها وهي لامية التي تبلغ
واحداً وثمانين بيتاً ذكر لك منها هنا بعض قسمه الذي تعرف منه المشاعر التي كانت تعف
من العرب في الجاهلية . قال رحمه الله :

وَوَرَّ^(١) وَمَنْ أَرْسَى شِيراً^(٢) مَكَاهِ * وَرَاقَ لِيرَقِي فِي حِرَاءِ^(٣) وَنَازِلِ
وَبِالْبَيْتِ حَقَّ الْبَيْتِ مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ * وَبِاللَّهِ إِنْ اللَّهُ لَيْسَ نِعَافِلِ
وَبِالْحِجْرِ الْمُسَوَّدِ إِذَا يَمْسُجُونَهُ * إِذَا اكْتَمَوْهُ بِالصَّحَى وَالْأَصَائِلِ
وَمَوْطِئِ إِبْرَاهِيمَ بِالصَّخْرِ رَطْبَةٍ * عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِئاً غَيْرَ نَاعِلِ
وَأَشْوَاطِ بَيْنَ الْمَرُوتَيْنِ إِلَى الصَّفَا * وَمَا فِيهِمَا مِنْ صُورَةٍ وَتَمَائِلِ^(٤)
وَمَنْ حَجَّ بَبْتَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ رَاكِبٍ * وَمَنْ كُلُّ دِي نَذَرٍ وَمَنْ كُلُّ رَاجِلِ
وَبِالْمَشْعَرِ^(٥) الْأَقْصَى إِذَا عَمِدُوا لَهُ * أَلَالِ^(٦) إِلَى مَقْضَى الشَّرَاحِ^(٧) الْعَوَائِلِ
وَتَوَقَّاهُمْ فَوْقَ الْحِمَالِ عَشِيَّةَ * يَمِيمُونَ بِالْأَيْدِي صُدُورَ الرَّوَاحِلِ
وَلَيْلَةَ تَجْمَعُ^(٨) وَالْمَنَازِلَ مِنْ مَنَى * وَهَلْ فَوْقَهَا مِنْ حَرَمَةٍ وَمَنَازِلِ
وَجَمْعٍ إِذَا مَا الْمُقَرَّبَاتِ^(٩) أَجْزَنَهُ * سَرَاعاً كَمَا يَخْرُجُ مِنْ وَقْعٍ وَابِلِ
وَبِالْحَرَمِ الْكَرَى إِذَا صَمِدُوا^(١٠) لَهَا * يَوْمُونَ قَدْ رَأَسَهَا بِالْجُمَادِلِ^(١١)

والقصيدة موجودة برمتها في الجزء الأول من سيرة ابن هشام

(١) و (٢) و (٣) حال نحوار مكة (٤) التمايل التمايل وهي الاصنام (٥) واحد المشاعر الحرم
وهي المواضع التي بها لباسك الحج ، والمشعر الاقصى هو عرفة لانه أمدها . (٦) نفع الهمة
وكسرهما حمل عرفه . (٧) مرده شرح وهو مسيل المساء ، وهو حتى الشراح تجمعها في بحري واحد
وفي هذا ما فيه من تلاوة التعبير إشارة الى اجتماع الناس في مكان واحد وهو عرفه . (٨) هي
ليلة المردفة . (٩) هي الحمل الى صمر لاركو والابل الى عليها رحاها . (١٠) تصدوا .
(١١) الحجارة .

وانفقوا على أن لا يعظموا شيئاً من الحل : فتركوا الوقوف بعرفة والا فاضة منها ، مع علمهم بأنها من المشاعر الحرام وأنهم كان الحج من زمن ابراهيم ، وأفاضوا من جُمع (المزدلفة) ، وقالوا لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاء وابه معهم من الحل في الحرم اذا جاءوا حجاجاً أو عماراً ، وأن لا يطوفوا بالبيت الا في ثياب الحمس (وهم قریش وسموا بذلك لتحمسهم في دينهم أى تشدهم) ، فان لم يجدوا طافوا بالبيت عراً . فدأت لهم العرب بذلك ، وكانت المرأة في طوافها تضع عنها ثيابها الا درعها .

وقد كان السعى بين الصفا والمروة من لوازم الحج في الجاهلية ، وكان لهم صنم على الصفا يسمى (أساف) وآخر على المروة يسمى (بائله) ، وكان للعرب فيهما اعتماد سخيف كغيره من الاعتقادات الوثنية ، وكانوا ينحرون عندهما هديهم . فلما جاء الاسلام امتنع المسلمون عن السعى كيلاً يكونوا مثل أهل الجاهلية في وثنيته ، فنزل قوله تعالى « ان الصفا والمروة من شعائر الله » : ومن هذا ترى ان الشكل في العبادات لا يعول عليه وإنما المدار فيها على النية . وبالجملة فالشعائر التي كانت مستعملة في الحج من زمن ابراهيم واسماعيل ، واتخذها الناس بمدحهم للمعبوداتهم على تمايزهم في العقائد ، قد أقرها الاسلام وجعلها كلها لله تعالى وحده ، (وإنما الاعمال بالنيات) ، وجعل الحج من فواعد الاسلام : قال عليه الصلاة والسلام « نبي الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً » . وقد وقف صلى الله عليه وسلم بالناس في عرفة وقال « الحج عرفة » وأفاض منها ، ونزل في ذلك قوله تعالى « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » (يعنى قبل الحمس) ، وطاف المحاج بالثياب التي معهم من الحل ، وأكلوا من طعام الحل في الحرم ، ولا يزال المسلمون يحججون على ما شرع لهم من هذه السك الى اليوم . ولكن يظهر للمتأمل في طواف البدو الآن وعلى الخصوص أهل الشروق من عتابة ومطير ، أن حجهم الصق بالبيت منه بعرفة : ذلك لان هؤلاء القوم يفسدون على مكة في الخمس الاول من شهر دى الحجة ، فيرتبون مساكنهم شرق المدينة من خارجها ، ثم يدخلون المسجد الحرام جماعات جماعات ، ويطوفون حول البيت طواف القدوم ماسكين بأيدي

بعضهم ، لا يوقفهم في طوافهم زحام المطاف بغيرهم ، بل يأخذون في طريقهم كل من صادفهم فيه وهم يقولون « الله محمد ، لبيك لبيك ، حجيت ، تقبل أولاً تقبل حجيت ، إلا تقبل » . وإذا كان معهم نسوة (ولا يكن في الغالب إلا من المتدمات في السن) ، تراهن في مؤخرتهم ماسكات باكتافهم ، ولا يظهر منهن سوى أعينهن وفي أيديهن القفازات ، حتى إذا وصل الكل إلى الحجر الأسود تعلق المتقدم منهم بكسوة الكعبة ، وأمسك بها بقوة بحيث لا يزحزحه عنها أحد ، وتبعه اخوانه وأزاحوا غيرهم من المستلمين بقوة وصبر لا يعتورهم ملل ، محتملين في ذلك ضرب الضارب وانهيار النهار ، حتى إذا كشفوا الناس عنه واستلموه جميعاً وقبلوه ، أنت نساؤهم لتقبيله ، فيضرب الزوج رأس امرأته لتصطدم جبهتها في الحجر ، فيحصل فيها أثر يكون عندهم علامة الحج (كالوشم عند حجاج بعض النصارى إلى بيت المقدس) ، وعندها يصرخ الرجل قائلاً لزوجته « حجيت يا حاجة » ؟ فتصيح قائلة « حجيت حجيت » ثم تلتفت إلى الحجر الأسود قائلة « حجيت ، خير ربك ^(١) اني حجيت » ثم ترفع رأسها إلى السماء قائلة « تقبل أولاً تقبل حجيت إلا تقبل غصباً تقبل » . هذا كله قبل وقوفهم بعرفة ، ومنه ترى أن اعتبارهم أنفسهم أنهم حجوا بمجرد الطواف والاستلام قبل الوقوف إنما هو بعض ما كانت سنته قرى بش بعد واقعة الفيل ومحاة الاسلام .

وأخلاق هؤلاء الأعراب في الحرم الشريف بخلاف ما هو معروف عنهم من شدتها فالك تراهم فيه على غاية ما يكون من السكينة واللين والتسامح ، لا يقابلون الإهانة الشخصية إلا بالسكوت المطلق عن الإجابة عليها ، وما ذلك إلا لشدة احترامهم حرم الله واجلالهم لبيته المعظم .

ولا شك أن قصد الشارع من الوقوف بعرفة إنما هو وحدة الوجود في مكان واحد ، تجمع أطرافه جميع أولئك الذين وفدوا من الأقطار المختلفة ، وهم وإن اختلفت أجناسهم وتغايرت لغاتهم فقد توحدت وجهتهم وتفردت غايتهم . نعم تجمعهم صحراء عرفة وتضمهم

(١) من تأمل في هذه العبارة ير ولا شك أنها من آثار الحاملية وهي بالحكم قطعياً أن القوم قبل الاسلام ما كانوا يبدون الحجر الأسود .

الى فؤاد ذلك الحبل حتى اذا اجتمع الشخص بالآخر، عرف كل واحد ما به من أمر صاحبه، فميسران وقد اهتم كلاهما بأمر أخيه مما تنصلح به أحوال الافراد وتستقيم به أمور الامم . وكيف لا وقد كان هذا الاجتماع بين يدي الله تعالى وفي حضرته، في يوم يكون الا لسان فيه نكايته عاطمة شريفة : هي الا خلاص بحيمته، لا يشوبه رياء ولا يتطرق اليه مرء .

وكان موسم الحج موعدا بين الناس يعضون به أشغالهم ويعضون فيه أمورهم وذلك لصعوبة المواصلة التي كانت بينهم قال بعضهم :

ما أحسن الموسم من موعد * وأحسن الكعبة من مشهد

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بالحج من مبدأ الاسلام . وقد خرج من المدينة غير مرة حاجا أو معتبرا الى مكة ، وهي في أيدي أعدائه من المشركين ، غير حاسب أي حساب للخطر الذي ربما كان يصيبه منهم . فمنعوه من دخول البلد الحرام . وفي عام الحديبية أناب عنه أبانكر بان يحج بالمسلمين . وفي السنة العاشرة من الهجرة حج بهم صلى الله عليه وسلم حجة الوداع . وفي خلافة أبي بكر أناب عنه في الحج عمر لا شغاله بحروب الردة . وحج عمر بالمسلمين في خلافته سبع أو عشر مرات وهكذا كانت الخلفاء في الغالب عمومون شريضة الحج في صدر الاسلام حتى يفتوا أنفسهم على حال رعاياهم ، وقد أفادهم هذا الأمر في سياسة ملكهم داخله وخارجه سياسة عظيمة . ومن كانت مشاغل الملك تحول بينه وبين هذه الفريضة ، أناب عنه على أمانة الحج رجلا من فرائه أو من عظماء أمته . وما زالوا ينرا حو في القيام بهذا الأمر ، حتى صار من المأدر أن سمع خليفة أو ملك أو أمراء أو زير اسلامي يوم ناداء هذه الفريضة . ولعل أمراء المسلمين يعودون الى ما كان عليه سلفهم الصالح من احياء هذه الفريضة ، لتحياها ، وسهم ومما السهم . نعم تحياها حياة طيبة : لا هم اذا تثاروا لحظة الى مرلة الناس في جميع طبقاتهم ، واختلطوا مع العامة منهم فربهم وبعيدهم ، وسمعوا نداء الفقير و نكاء الضرير ، وشاهدوا حاجة البائس ومدارم ، تعمل القافة في احشاء هؤلاء المساكين الذين تحول سياج الملك بينهم وبين معرفتهم بحسينهم ، هنالك يشعرون بما يحب عليهم لرعاياهم ويعملون على اعانه الضعيف واعانه اللهيء . ويتلذذون في ذلك الكراء والعظماء مسوفين بطبيعة تقليد الصغير للكبير

(والناس على دين ملوكهم) : فيصبحون وأممهم في أهنا بال، وأحسن حال، وهذه هي سعادة الراعى والرعية على السواء . نعم يجب على الامراء والعظماء والاغنياء أن يحجوا، حتى اذا وقفوا لحظة في صف هؤلاء التمساء والبؤساء، ترفقت فلوبهم وتحننت أفئدتهم وأصبحوا بعيدين عن عوامل الظلم والاستبداد، قريبين من مؤثرات الرأفة والرحمة . نعم نعم اذا وقف أولئك الملوك في سلك هؤلاء الناس والكل مفلوك بعرش إله واحد عادل، وهو القادر الفاهر، مالوا الى الاشتراكية الحققة واهتموا بحال المفلوكين والمظلومين : فيردون عن هذا ظلامته، ويخففون عن ذلك محتته، ويحولون بين برائن القوى ومهجة الضعيف : وذلك تستقيم أمور الرعية، وتعود الى ما كانت عليه في خلافة الراشدين من الحياة الصحيحة .

ولقد شهدنا في ذلك برهاناً محسوساً : فان الحجاب العالى الخديوى عند ما وقف هذا الموقف أخذ يذكر حال البؤساء من حجاج بيت الله الحرام عموماً والمصريين منهم خصوصاً، مهتماً بأمرهم كل الاهتمام، مفكراً في الوسائل التي تخفف من مصائبهم وتسهل من مصاعبهم . فكنت أسمع منه على الدوام، ووجهه حفظه الله محتقن بدماء الانفعال بعامل الرحمة والحنان، عبارات الاسف على ما يقاسيه البؤساء من حجاج بيت الله الحرام، وبحث على الطريق التي يكون من ورائها راحتهم وطمأنينتهم . وهذه الفكرة لا تزال تشغل فكره الشريف الى الآن . كذلك كان الخلفاء والامراء في صدر الاسلام، وكثيراً ما كانوا يحجون . حتى ان الرشيد كان يغزو عاماً ويحج عاماً (وقيل انه حج ماشياً غير مرة)، ولذلك كانت حكومته من أحسن الحكومات نظاماً وأمتناً احكاماً . فلما تاعد الخلفاء عن تأدية هذا الواجب المومى وأهملوا شؤون رعاياهم، استهان الناس بهم، وما زالوا كذلك حتى غلبوا على أمرهم !! نسأل الله أن يعيد الى الاسلام عظمته ومجده .

على ان الحج له تأثير كبير في الاخلاق : فترى الحاج يتوب الى الله في حجه، ولا يتم مناسكه الا وهو على اعتقاد تام بمغفرة الله له وتفضله بمحودنوبه من صحيفة أعماله . فاذا عاد الى بلاده سار في طريق الفضيلة ويصعب عليه أن يتركه الى غيره مهما كان شاباً : فان تمثل له شيطان غوايته، جرد له وازعاً من نفسه يحول فيما بينهما، وفي الغالب يكون هذا الوازع أقوى

من خصمه الذي يهزم أمامه . وإذا فليس من مذهب حقيقى للنفس أحسن من تربية الحج ، فهو يعم المربى للنفوس الشريرة و يعم المذهب لها . ولقد قرر علماء التربية أخيراً أن الإنسان لا بدله من شخص يسهل له طريق عمله ، حتى إذا اطلق في سبيله فلاشى يردده عنه : لذلك تراهم يستعملون كل الوسائل في تحسينهم الى الصبي البليد أو الكسلان الاندفاع في طريق العمل ولومرة واحدة ، فإذا ذاق حلاوة الاجتهاد صعب عليه رجوعه الى الكسل والبلادة . على أن الحاج ان لم تردعه نفسه عن اقتراف الرذيلة فإنه لا يحرم من الناس مؤنبا عليها ، أو معيرا على اقترافها ، فيرجع اذ ذاك عن غيه طوعا أو كرها . وهذا أظنه حسبك في فضيلة الحج التى لا تماثلها فضيلة ، والتى لو فطنت لها الحكومات الاسلامية لسهلت طريقه على رعاياهم ، حتى اذا كثر سواد الحاجين منهم كثرت فيهم الفضيلة التى تؤدى الى الخير العام والسعادة الحقيقية . ولقد كانت الحكومة المصرية فى الزمن الغابر تُخرج الى الشوارع والحارات فى أشهر الحج اناسا يتغنون باناشيد (يعمونها تحايين) تحرك عواطف الناس الى أداء هذه الفريضة ، كما كانت خطباء المساجد تحث عليها وترغب الناس فيها (ولا يزالون كذلك الى الآن) .

المسجد الأقصى

هو ثالث المساجد المقدسة عند المسلمين لقوله عليه الصلاة والسلام (لا تُشَدُّ الرحال الا الى ثلاث : المسجد الحرام - ومسجدى هذا - والمسجد الأقصى) . وهو مسجد الصخرة ببيت المقدس . وكثير من المسلمين يزورونه بعد زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقولون لمن زاره فلان قدس (بصيغة الماضى) . وليس لزيارتهم له وقت مخصوص ولا شروط مخصوصة مثل ما فى الحج . ولكنها زيارة بسيطة يؤدونها فى أى زمن شاءوا ، واختيارها فى موسم شمس النسيم انما هو للحاق مولد سيدنا موسى عليه السلام . وأهل تلك الجهة يحتفلون بهذا المولد احتفالا عظيما جدا : ذلك أنهم بعد صلاة الجمعة التى قبل سبت النور

يذهب المتصرف والقاضي والمفتي ومشايخ الحرم الشريف وأرباب الطرق وأرباب الدولة من ملكيين وعسكريين في آلاف من الناس من عرب وأهلين وحاجين ، ويجمعون حول شجرة الزيتون التي في حوش الحرم بين مصطبة الصخرة والمسجد الاقصى . وهذه الشجرة ^(١) يسبونها الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقولون انه هو الذي غرسها مكانها هذا ؟ وهناك ينشرون جملة أعلام يسمون بعضها بعلم النبي ، وبعضها بعلم داود ، وبعضها بعلم موسى ، وبعضها باعلام الصخرة ، ويسير الموكب من الحرم الشريف الى مشهد موسى عليه السلام ، وهو على مسافة ست ساعات من بيت المقدس في الجهة الشرقية الجنوبية . وهناك ينتهي الاحتفال الذي يبدأ به المولد ويستمر خمسة عشر يوما في الجبل وتقام فيه الاسواق لبيع ما يلزم للأعراب الفاطنيين بتلك الجهات .

أما الصخرة الشريفة فقد كانت قبلة للمسلمين بعدما فرضت الصلاة مدة ستة عشر شهرا حتى أمرهم الله تعالى بتوجيه وجوههم الى السكبة المكرمة في السنة الثانية للهجرة . وهي صخرة كبيرة ضربت عليها قبة عظيمة جدا ، فيها من أعمال القيشاني والفسيفساء (الموزاييك) والنقوش الذهبية وغيرها ما يدهش الفكر ويحارله العقل . وهذه الاعمال من عهد عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد . وللمأمون فيها أثر عمارة تشكر . وقد أصلح الحاكم بامر الله قبعتها وضرب عليها قبة أخرى من الخشب لتحفظها من عبث الامطار وتأثير الاجواء . وارتفاع

(١) ويوجد في الوادي الداهب من المزيريب الى حرش شجرة برعم أهالي تلك البلاد ان عليا ابن أبي طالب عرسها هناك ؟ ولها عدهم مقام كبير ويأتون لزيارتها من جميع الجهات . وكذلك يوجد قرب المزربية بولاية سيواس صخرة في رأس جبل يبلغ ارتفاعه ٢٠٠ متر تقريبا يسمونها طاش ديل (تام الحجر) ويرعمون ان سيدنا عليا كان مارا بهذا الوادي وكان راكبا قرسا متأخر فلزمه البرعي ولما تواري في منطف الوادي بطرت العرس فلم ترفلوا ففصل فسمع فلوها صوتها فقفر من مكانه فوق الجبل فوق في الصخرة فجرتها ومات وهناك له قبر معروف ، وفي طريق السالك في هذا الوادي الى قيصرية صخرة عظيمة يزعمون ان عليا ألقي بها علي حاكم قيصرية الذي كان يقصد ان يسد عليه الطريق ، وفي جوار قرية القنيطرة (من أعمال الشام) حوابعيل على ويرعمون ان عليا لما وفي وصوه على جبل وأطلقوه فسار به الى هذا الجبل وله مسجد يقصد الناس لزيارته خصوصا الشيعة .

الاولى منهما وهي السفلى ١١,٥٠ مترا وقطرها عشرون مترا، أما الثانية (العليا) فارتفاعها ثلاثون مترا . ولقد عمرها صلاح الدين الايوبي بعد أن عبث الصليبيون بها وحولوها الى كنيسة وجعلوا هيكلها فوق الصخرة . ثم عمرها السلطان سليمان القانوني . وهذه القبة الآن آية من آيات الصناعة الرومية والعربية القديمة ، مما يستعصى على عمال زمننا الحاضر اصلاح ما اعتل منها . وهي قائمة على قاعدة مثمنة الشكل ، طول كل ضلع منها ٢٠,٤٠ مترا وحوائطها مكسوة بألواح كبيرة من المرمر فيها نقوش طبيعية جميلة جدا ومتناسبة مع بعضها تناسباً غريباً : حتى ليتخيل للسانها مرسومة بيد الرسامين الماهرين لا يد هذه الطبيعة المتواضعة التي لا تريد أن تعلن عن نفسها بأى حال من الاحوال !!! وأرضية القبة من الداخل مفروشة بالرخام المحزق ، وحوله أعمال الموزايك المرمرية من ألوان مختلفة . أما حوائطها من الخارج فكما بالفيشاني الغريب في بابها ، والفديم منه ثمين جداً ، حتى أن القيشاني الذي رمت به مدة عمارة السلطان سليمان القانوني أقل منه في قيمته . وعلى كل حال فهذا وذاك لا يمكننا أن نعوض ما تعبت به يد الضياع منهما . ولو فقه ذلك حماها وحادموها لما تجرعوا على اغتيالها وبيعها من العرجة السائحين بثمن بحس لا يسمن ولا يغني من جوع !! وفي وسط هذه القبة ترى الصخرة الشريفة : وهي من الجرايت الاسود ، وحولها درزين من الحشب على شكل مربع طولها من الشرق الى الغرب ١٧,٧٠ مترا ، وعرضه ١٣,٥٠ مترا ويبلغ ارتفاعه نحو مترين . وفي زواياها جمل محاريب الى القبلة ، يسمون واحدا منها بحراب ابراهيم ، وآخر بحراب داود ، وآخر بحراب على رضى الله عنه ، ولا أدري معنى لهذه التسمية الاخير لانه لم يعرف عن على رضى الله عنه انه قدم بيت المقدس .

ويبرز من الصخرة لسان الى جهة القبلة يميل الى الشرق ، لهم فيه أقوال كثيرة : منها انه سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء ، وسلم على عمر رضى الله عنه عند قدومه لفتح المقدس !!! وتحت هذا اللسان مغارة صغيرة ، يزل اليها بنحو ١٥ درجة ضيقة . وهي لا تزيد عن أربعة أمتار طولاً في ثلاثه أمتار عرضاً ، والحوائط التي بنيت في محيطها تجعل شكلها مربعاً تقريباً . وفي سقف هذه المغارة فوهة تنفذ الى ظهر الصخرة ، كانت مكان الفرايين التي كان

يقدمها ابراهيم وخلفاؤه الى الله تعالى ، ومنها أنى تقديس هذه الصخرة . وفي قبالة هذه الفوهة بلاطة من أرضية المغارة تغطى بثراب سمونها جُلب الا رواح ، وللقوم فيها حكايات كثيرة أشبه شئ بالخرافات ! ولعل لهذه التسمية أصلاً أخذوه من دماء القرايين التى كانت تنزل اليها ، وربما كان القوم يلقون فيها الهدايا النفيسة التى كانوا يقدمونها الى الصخرة ، كما كان الشأن فى البئر التى كانت فى جوف الكعبة . وعلى ظهر الصخرة من جهة الشرق آثار اثني عشر قدماً : كان النصارى فى الفرون الوسطى ينسبونها الى عيسى عليه السلام ، فلما تغلب المسلمون على بيت المقدس قالوا انها آثار قدس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين سار عليها ليلة الاسراء . ومع ما هى عليه من عدم النظام ، وانها على خط مستقيم تقريباً ، وهو مالا يمكن السير عليه لفتحة ما بين الرجلين ، فانها تكاد يكون شكلها واحداً ، وهو مالا ينطبق على شكل القدمين ، خصوصاً وانها أصغر بكثير من الاقدام المنسوبة له صلى الله عليه وسلم مما ذكرناه فى صفحة ١٢٥ من هذا الكتاب . ومن هذا وذاك ترى انها كلها موضوعة لا أثرها من الصحة : يؤيد ذلك أنه لم يرد فى ديننا الحنيف ما يشير الى شئ من ذلك بالمرّة . وبحجوار هذه الاقدام أثر قدم آخر ينسبونه الى ادريس عليه السلام . ويوجد بجانب الصخرة من الجهة الغربية بحجوار الدريز خزانة من الفضة فيها قطعة من الحجر عليها أثر قدم ينسونه أيضاً الى بيتنا صلوات الله عليه ، وفيها أيضاً بعض شعرات من لحية الشريفة .

ويزعمون أن هذه الصخرة معلقة فى الهواء ، وانما بنيت تحتها هذه الحوائط حتى لا يفتق الناس بها . واطن أن فكرة تعليق الصخرة مأخوذة عن اليهود ، وربما كان لهم شبه حق فى ذلك لكثرة الفضاء الذى حولها ، كالصهاريج وغيرها من السرايب والمغائر . على أنه لا يبعد أن الصخرة الشريفة لا تتصل نقطتها المركزية بالجبل الا فى النقطة الصخرية التى تشاهد فى الجهة الغربية الشمالية من أرضية حوش الحرم . وعلى ذلك تكون كأنها امتدة فى الفضاء على مسافة ستين أو سبعين متراً ما بين رأسها وقاعدتها . وكأن بناء هذه المصطبة حولها انما كان دعامة لها من جهة ويسهولة الوصول الى رأسها الذى كان مكان القرايين من جهة أخرى .

ولقبه الصخرة أربعة أبواب : واحد في شمالها ، والثاني في جنوبها ، والثالث في شرقيها ، والرابع في غربها . والاول منها يسمى باب الجنة . وفي الاضلاع التي ليست بها أبواب توجد شبابيك كبيرة ، فيها أشكال كثيرة من الزجاج الملون ، غاية في حسن الصناعة ، وخصوصاً في تنسيق الالوان المختلفة التي بانعكاسها على جذر القبة تعطى أشكالاً بدعية جداً تزيد في رونقها ، لاسيما اذا كانت الابواب مقفلة !!

ويحيط بالقبة من الخارج فناء كبير أرضه مفروشة بالرخام يسمونه مصطبة الصخرة . وطول هذه المصطبة من الشرق الى الغرب لا يقل عن مائة وثمانين متراً ، وعرضها يزيد عن مائة متر . وترى بها هنا وهناك حول قبة الصخرة جملة قباب صغيرة ، يسمون واحدة منها بقبة المعراج ، يعني أنها ضربت على المكان الذي عرج منه النبي صلى الله عليه وسلم . والثانية يسمونها قبة الخضر . والثالثة قبة الارواح الخ . وعاليتها في الجهة الغربية من قبة الصخرة . أما الشرقية ففيها قبة السلسلة ، وهو شكل مصغر لراقبة الصخرة لأنها قامت على عمود من المرمر : ويؤمنون أنها كانت محل حكومة داود عليه السلام ، ويقولون انه كان بجوارها سلسلة تنزل من السماء اذا أمسك الشخص بها وحلف عليها كذبا انفصلت عنها حلقة فتصعقه لوقته ؟ ؟ ؟

وهذه المصطبة ترتفع عن أرضية الحرم بنحو ثلاثة أمتار ونصف ، و يصعد إليها بثمانية سلالم في كل جهاتها : منها ثلاثة في الغرب ، وستمان في الشمال ، وستمان في الجنوب ، وسلم واحد في جهة الشرق . وسعة الدرجة الواحدة من هذه السلالم لا تقل عن عشرين متراً . ويقوم على طول الدرجة العليا من جميعها خمسة أعمدة قامت عليها أربعة أقواس لا يقل ارتفاعها عن عشرة أمتار ، وهي أشبه شئ بمدخل المعابد الرومانية . وربما كانت من أعمال هيرودوس ملك اليهود ، حين بنائه للهيكل سنة ١٩ قبل المسيح . ويسمون هذه الاقواس بالموازين : يعني التي تزن أعمال الخلق يوم القيامة ؟؟ كما يؤمنون أن الصخرة تكون عرش الله في ذلك اليوم ؟؟؟ ومسلمو القدس يشتركون في هذه الافكار مع اليهود واذا فأصلها يهودي صرف .

وحول مصطبة الصخرة يوجد حوش الحرم القدسي ، وهو على هيئة مستطيل غير منتظم من الشمال الى الجنوب : وطول ضلعه الغربي ٤٩٠ متر ، والشرقي ٤٧٤ متر ، والشمالى ٣٢١ متر ، والجنوبى ٢٨٣ متر . وفي الجهة الشرقية وبعض القبليّة سور به من اغل ارتفاعه ٨ أمتار تقريباً ، وهو قديم جداً رُممه السلطان صلاح الدين الايوبي ، والسلطان سليمان القانوني . وهاتان الجهتان تشرقان على وادي سدرون (وادي مريم) ، وبعضهم يسميه وادي جهنم ، واليهود يسمونه وادي يوسفات ، وقد ورد ذكره في التوراة بلفظ يوشافاط ، و يزعمون أن به يحشر الناس يوم القيامة ، وهناك يتسع فناءؤه وتنفسح أرجاؤه ؟ ؟ وهذا الوادي يفصل بين جبل الزيتون وجبل صهيون الذي بنيت عليه مدينة بيت المقدس . أما الجهتان الاخريان (الغربية والشمالية) ففيهما جملة مدارس على محيط الحرم ، أشهرها مدرسة قايتباي في الجهة الغربية ويسكنها الناس الان ، وأما التي في الجهة الشمالية ففيها قشلاق للعسكر .

وفي حوش الحرم جملة مصاطب صغيرة يصلون فيها ، وفي كل واحدة محراب الى القبلة . وفي الجهة الغربية قبة جميلة جداً أقيمت على سبيل للاشرف قايتباي . أما الجهة القبليّة ففيها مسجد كبير نفيم يسمونه بالمسجد الاقصى : وليس هو المراد بما ذكر في القرآن الكريم : لانه كان كنيسة بناها الامبراطور جوستنيان في منتصف القرن السادس للمسيح ، وحوّلت الى مسجد اسلامي بعد الفتح . وانما كان المراد به المسجد الذي حول الصخرة نفسها كما تقدم . ولما حضر سيدنا عمر رضي الله عنه الى بيت المقدس ، صلى في الجانب الشرقي الجنوبي للمسجد الاقصى ، وترى مصلاه الى الآن على بساطة تامة في بنائه بجوار الفخامة التي عليها باقي المسجد . وباب هذا المسجد الى الشمال فيما يقابل مسجد الصخرة ، وطوله من الشمال الى الجنوب ٨٠ متراً ، ومن الشرق الى الغرب ٥٥ متراً ، من غير الزيادات التي أضيفت عليه شرقاً وغرباً . وجميعه مسقوف ، ويحمل سقفه أعمدة عظيمة من الرخام المرمر الجليل : ومن ضمنها عمودان بجوار بعضهما الى جهة القبلة من الشرق ، عليهما دريزين من الحديد لمنع الناس من الولوج بينهما ، بدعوى أن من يمر من بينهما يكون سعيداً والا كان شقيماً



BOULEVARD JACQUES KALIN

البار الذبي للمجد الأقصى



BOULEVARD JACQUES KALIN

اليهودية في الجليل

(كما يقال عن العمودين اللذين بمسجد عمرو بن العاص نسطاط مصر) !!
وفي هذا المسجد من رجميل جداً من خشب الأبنوس المطعم بالسن والصدف أهداه إليه
نور الدين الشهيد محمود بن زكي . وإلى جواره من الغرب محراب صغير في أرضيته حجر به أثر
قدم ينسبونه إلى عيسى عليه السلام .

و يوجد في حوش الحرم وخصوصاً في الجهة الغربية والقبليّة صهاريج كثيرة ، وأبواب
توصل إلى كهوف تحت الأرض : واحد منها بجوار المسجد الأقصى من جهة الشرق :
وينزل إليه بجملة درجات من الحجر ، توصل إلى مكان واسع مربع الشكل ، في وسطه
عمودان كبيران من الحجر الصلد ، يحملان قباباً يستند عليهما سقف المكان ، وفي جوانبه
حوائط بها فتحات مسدودة .

وأهم هذه الكهوف ما يسمونه بالصطبلات سليمان : وتوجد في الزاوية القبليّة الشرقية
للحرم . وينزل إليها بواسطة سلم صغيرة بجوار السور الشرقي ، وترى في وسطها صدفة كبيرة
بجانبها دخلة فيها أناء كبير من الرخام ، ويؤمنون أنه مهد مريم أو محراب مريم ويقولون أن
زكرياء كان يأسيها بالطعام هناك ، وهذه السلم توصل إلى فناء رحيب ، يحمل عرشه
اثنا عشر صفاً من العمد الكبيرة ، يكون مجموعها ٨٨ عموداً ، ارتفاع متوسطها ثمانية أمتار
أو أكثر . وكل هذه العمد تحمل أقواساً عليها قباب تدعم أرضية الحرم . وحول هذا الفناء
حوائط من البناء العتيق ، وفي الجهة القبليّة منه باب مسدود ينفذ على وادي سدرون .
وفي الجهة الشماليّة والغربيّة فتحات مسدودة بعضها صغير وبعضها كبير ، ربما كانت توصل
إلى مثل هذا المكان : مما جعل بعضه فيما بعد صهاريج لخزن مياه الأمطار معروفة بأسماء
من اتخذها لهذا الغرض ، وقد رأيت في زيارتي للقدس سنة ١٩١٠ م أمام بعض هذه
الفتحات آثار حفر قديم .

ومن هذا يتضح لك أن أرضية الحرم كلها معلقة على مثل هذه العمد : مما يدل على أن هذا
كله إعمار هائل وكل الذي بناه سليمان أو خلفاؤه وسماه الصليبيون بالصطبلات سليمان .
ولا يبعد أن اليهود استعملت جانباً من هذا المكان وقت الكوارث التي حلت بهم زمن

سنحار يب و بختنصر و طيطوس ، و دفنوا فيه دفائنهم الثمينة ، التي أ كثر الجرائد أخيرا من ذكر العثور عليها أو على بعضها ، و خببت في شأنها و وصفها كثيرا سواء بحق أو بغير حق ، و اهتمت الدولة بها اهتماما عظيما .

و للحرم الشريف عشرة أبواب : سبعة منها في الجهة الغربية ، أهمها باب السلسلة في الوسط ، ثم باب المغاربة إلى جنوبه ، و باب القطارين إلى شماله . و في الجهة الشمالية باب شرف الانبياء وهو الذي دخل منه عمر إلى المسجد ، ثم باب الاسباط و يسمونه باب حطة ، و يزعمون أنه هو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة البقرة « و ادخلوا الباب سجدا و قولوا حطة » . و يوجد في جهة الشرق باب الظاهرية و ينزل إليه بسلا لم تصل إلى دهليز يحيط ببناء مربع ، فيه أعمدة من الرخام من جواربه الغربي و الشمالي و الجنوبي يقوم عليها سقف المسكن . و قد أحيطت هذه الأعمدة بدرز من الحديد عليه قطع كثيرة من الخرق البالية ، يضعها العامة تذكارا لريارتهم له . و يقولون ان هذا المسكن كان محل حكومة سليمان عليه السلام ؛ و به إلى الآن عمودان من السماق (نوع جميل جدا من المرمر يتدر وجوده الآن) ، يمولون انهما أرسلتا إلى سليمان هدية من بلقيس ملكة سبأ . و بجوار هذا المسكن باب له منفذان مغلقان على وادي سدرون : القبلي منهما يسمى باب التوبة ، و الشمالي باب الرحمة ، و هذا الباب كان يسمى مدة العماراة التي قام بها هيرودوس في الهيكل باب سوزان ، وهو الذي دخل منه هرقل إلى بيت المقدس سنة ٦٣٩ ميلادية ، و من ثم سمي بالباب الذهبي . و مفاتيح المسجد الاقصى و الصخرة من مدة مديدة في يد عائلة الخالدي الشهيرة ، و كذلك في يدهم مفاتيح كنيسة القيامة لعدم اتفاق طوائف النصارى عليها .

أما المدينة فهي واقعة في درجة ٣١ و ٢٧ دقيقة من خطوط العرض الشمالي ، و درجة ٣٢ و ٥٤ دقيقة و ٤ ثانية من خطوط الطول الشرقي ، و متوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٧٧٠ متر . و هي مبنية على هضبتين عاليتين احدهما على جبل صهيون و الثانية على جبل عكره ، و تنحدر مبانها نحو الشرق إلى وادي سدرون ، و نحو الجنوب الغربي إلى وادي هنوم . و عدد سكانها الآن ٧٠ ألفا : منهم عشرة من المسلمين ، و خمسة و أربعون من اليهود ،

وخمسة عشر من النصارى من أجناس مختلفة وأغلبهم من الاروام .
 ولمدينة القدس طريق حديدى ضيق من يافاطوله نحو ٨٠ كيلومترا ، وهو لشركة
 فرنساوية قامت بعمله فى منتصف القرن الماضى .
 ولقد كانت هذه المدينة فى منتصف القرن الخامس عشر قبل المسيح عامرة ، وكانت
 تسمى يَبُوس وكان سكانها يُسَمُّونَ اليوسيين .
 وفى مبدأ القرن العاشر قبل الميلاد استولى عليها داود ملك بنى اسرائيل ، وكان ملكه فى
 حبرون ، وأتى إليها بتابوت العهد وعمر فيها كثيرا وسماها أو رشلیم ، وبنى فى غربها الجنوبى
 مدينته التى سماها باسمه ، وقبره موجود فيها على جبل موريا ، وخلقه ابنه سليمان فزاد فى عمارتها
 وبنى على الصخرة الهيكل المقدس . ولما تسعت مملكة فلسطين بين أسباط بنى اسرائيل ،
 وقعت مدينة أو رشلیم فى نصيب يهودا . وفى مدة بنيه حاصرها اسنحارب ملك بابل سنة
 ٧١٢ ق م ورجع عنها بعد أن هدم جانباً منها ونهب شيئاً من أمتعة هيكلها . ثم استولى عليها
 بختنصر ثلاث دفعات : سنة ٦٠٦ و ٥٩٦ و ٥٨٨ قبل الميلاد . وبعد أن نهبها واستولى
 على كل ما عثر عليه من ذخائرها ، أمر بها فهدمت ولم يتركها الا بعد أن جعل عاليها سافلها .
 وفى سنة ٥٣٦ ق م استولى عليها قير وش ملك العجم ، وأمر بها فبنيت وجدد بناء هيكلها
 سنة ٥١٦ ق م ، وأعاد اليه جميع ذخائره التى نهبها الاشوريون . وما زالت أو رشلیم عامرة حتى
 استولى عليها الرومانيون مدة الملك بومبيوس سنة ٦٤ ق م . وفى مدة حكم الرومان ظهر
 فيها المسيح عليه السلام . ولما استولى عليها الملك طيطوس سنة ٧٠ م ، أحرق هيكلها
 وهدم المدينة بعد أن طرد اليهود منها . وما زالت حتى عمرها الملك ادریان وسماها ايلىا . ومنع
 اليهود من أن يطئوا أرضها ، وجعل الديانة الرسمية فيها المسيحية ، وبنى فيها كنيسة القيامة
 سنة ١٣٨ م . وما زالت مدينة القدس فى يد الرومانيين حتى استولى عليها العرب فى سنة
 ٦٣٦ م ، وكانوا يسمونها بيت القدس ، وأتى إليها سيدنا عمر بن الخطاب بنفسه لفتحها
 وأطلق الحرية المطلقة للنصارى واليهود فى مزاوله دياناتهم والتصرف فى أموالهم ، ومنحهم
 كثيراً من فضله فى عهده الذى كتبه لهم !!! مما يدل على منتهى التسامح الاسلامى الذى

كثيرا ما ينسأه أو يتناسأه أعداؤه خصوصا في هذه الايام . وفي سنة ٩٦٩ م تغلب الفاطميون على هذه المدينة ، ثم استولى عليها السلجوقيون في سنة ١٠٨٦ م ، ثم أخذها الصليبيون في سنة ١٠٩٩ م ، وأقاموا فيها مملكة سموها مملكة القدس ، مكثت في أيديهم - م كل مدة الحروب الصليبية الاولى ، وأحسن ملوكها هو الذي كانت تسميه العرب الردوبيل (Bauduin) ، وما زالت هذه المملكة في يد الصليبيين حتى غلبهم عليها صلاح الدين الايوبي في سنة ١١٨٦ م ، و بقيت في حكم ملوك مصر حتى استولى عليها الاتراك سنة ١٥١٧ م ، وهي باقية بأيديهم الى الآن . وللسلطان سليمان القانوني في هذه البلاد آثار كثيرة تذكره بالشكر ، ولكن أهلها اختلط عليهم الامر فينسبون كل اصلاح له الى سليمان بن داود عليه السلام . ولتمة الكلام على بيت المقدس نقول لك : انه يوجد فيه مزارات كثيرة : منها وراء سور المدينة في الجهة الغربية القبليية في قمة جبل صهيون ، مسجد فيه قبر سيد ناداود عليه السلام ، ويقول بعضهم ان سليمان ولده مدفون معه ، ويقول آخرون بل هو مدفون في مصطبة الصخرة . وبعضهم يقول انه داخلها تحت البلاطة السوداء . ويوجد تحت سور المدينة من جهة الشرق قبر سيدنا عباد بن الصامت وسيدنا شداد بن اويس الانصاري . والى ناحية من هنالك المغارة التي فيها قبر السيدة مريم . وفي جبل طور زيتا قبر سيدنا سلمان الفارسي الصحابي ، والسيدة رابعة العدوية ، وقبة صعود سيدنا عيسى عليه السلام ، وقبر الشيخ حسن الراعي وقبر العزير عليه السلام . وعلى بعد ست ساعات بالعربة من جنوب بيت المقدس مدينة الخليل ، ويسمونها اليهود حبرون . وفيها مسجد مرتفع عن الارض بنحو عشرة أمتار ، وبه قبر ابراهيم وسارة واسحق ويعقوب ويوسف عليهم السلام ، وهذه القبور كلها في مغارة تحت أرضية المسجد ، وهي مغارة المكفيلة التي اشتراها ابراهيم ليدفن بها ، ولها مزارات على سطحها في أرض المسجد . وعدد سكان هذه المدينة عشرون ألفا منهم ١٥ من اليهود والباقي من المسلمين . وفي الطريق بين الخليل وبيت المقدس مدينة بيت لحم ، وفيها كنيسة نفيسة أقيمت على المكان الذي ولد فيه المسيح . ترى في داخلها على الدوام عسكرا من الجند العثماني لحفظ النظام الذي كثيرا ما يعيث به تشاحن بعض الطوائف المسيحية مع بعضهم .

كيف تحج أيها المسلم

اعلم وفقك الله لطاعته، أن الحج فَرَضَ على المسلمين في أواخر سنة تسع من الهجرة، مرة واحدة في العمر على كل مسلم، حر، مكف، صحيح البدن، ميسور الزاد والراحلة، قادر على نفقة عياله مدة سفره في حجه، مع أمن الطريق إليه. ويحرم الحج على حرام، ويكره بدون إذن من له الولاية على من يريده. وتجوز الانابة فيه عند العجز عن أدائه بحبس أو مرض، فإن زال وجب أدائه بالذات.

فإذا تيسر لك ذلك كله فسافر على بركة الله لاداء هذه الفريضة. فادأ وصلت الى ميقات الاحرام فأحرم بنية الحج (أو العمرة^(١) ان شئت أوهما معا) قائلا: اللهم اني نويت الاحرام لحج بيتك المعظم فيسره لي وتقبله مني (وكيفية الاحرام ان يتجرد الرجل من مخيط الثياب، ويلبس ازارا معه رداء وعلان ان تيسر له ذلك. أما المرأة فتلبس ملباسها وتكشف كفيها ووجهها ان لم تخش الفتنة. ويسن تقليم الاظافر وحلق ما شعث تحت البطن «العانة» وتسريح الشعر والغسل قبل الاحرام وصلا ذكركتين بيدوه بهما). ثم تلي قائلا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. ولا تزال تكرر التلبية من وقت الى آخر، حتى اذا دخلت مكة قلت: اللهم ان هذا الحرم حرمك والامن أمنك والعبد عبدك، اللهم اني جئتكم من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة راجياً أن تستقبلني بمحض عفوك وكرمك وأن تحرم جسدي على النار، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

(١) العمرة في اصطلاح الجميع زيارة البيت الحرام. وهي سنة عند المسلمين وأركانها احرام، وطواف، وسعى. وحلق أو تقصير، واس هار من مخصوص، وكثير من الحجاج اذا وصلوا الى مكة يذهبون الى التنعيم، وهو أقرب مكان في الحل على طريق المدينة قبل وادي فاطمة، ويبوصثون من ماء هناك ثم يحرمون بنية الاعتكاف ويصلون ركعتين سنة احرام العمرة، ثم يمدون الى مكة فيطوفون ويسعون ثم يحلقون أو يقصرون ثم يتحللون.

وصحبه وسلم . فاذا جئت الى الحرم فادخل من باب السلام قائلا : أعوذ بالله من الشيطان
الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا بالسلام وأدخلنا الجنة دار
السلام بفضلِكَ يا ذا الجلال والاكرام . ثم سر نحو البيت من جهة الشرق قائلا : اللهم ان هذا
الحرم حرمك وهذا الامن أمنك ، اللهم حرّم جسمي على النار . فاذا وقع بصرك على الكعبة
فقل : بسم الله والله أكبر (ثلاثا) لا إله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل
شيء قدير . وادخل من باب شيبة قائلا : رَبِّ اَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَاَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ
صِدْقٍ وَاَجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ، وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل
كان زهوقا ، ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا . فاذا
أتيت الحجر الاسود فاستقبله وقل : بسم الله الله أكبر والله الحمد ، اللهم اغفر لي ذنبي وطهر لي
قلبي واشرح لي صدري وعافني برحمتك فيمنّ عافى . ثم استلمه بيمينك وقبله (ان أمكنك)
وانوالطواف قائلا : اللهم اني نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط لوجهك الكريم ، اللهم
يسر هالي وتقبلها مني ، ثم اطلق في طوافك قائلا : اللهم ايماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء
بعهدك واتباع السنة ببيك محمد صلى الله عليه وسلم ، اشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأن
محمد عبده ورسوله ، اللهم ان هذا البيت بيتك والحرم حرمك والامن أمنك وهذا مقام العائذ
بك من النار فاعذني منها يا عزيز يا غفار ، اللهم اني أعوذ بك من الكفر والفقر وضيق
الصدر وعذاب القبر ومن فتنة الحيا والممات ، اللهم اني أسألك العفو والعافية والمعافة
الدائمة في الدين والديار والآخرة ، اللهم أظنني تحت عرشك يوم لا ظل الا ظلك واسقني
بكأس نديك محمد صلى الله عليه وسلم شراباً هنيئاً مريئاً لا أظمأ بعدها أبداً ، اللهم اجعله حجاً
مبروراً وسعيّاً مشكوراً وذنوباً مغفوراً أو تجارة لن تبور ، اللهم اني أعوذ بك من الشك والشرك
والنفاق وسوء الاخلاق وسوء المنقلب وسوء المنظر في المال والاهل والولد ، اللهم اني
عبدك وابن عبدك قد أتيتك بذنوب كثيرة ، اللهم ما كان لك منها فاغفره لي وما كان منها
لعبادك فاحمله عني . وكلما قرأت من الحجر الاسود قل : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي
الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، فاذا حاذيته فقل مستلماً ان أمكنك أو مسلماً عليه بيمينك

من بُعد : بسم الله الله أكر ، ثم ادع الله تعالى بما تشاء من الادعية السابقة أو بما يحضرك من غيرها ، والاحسبك الذكر والتوحيد والاستغفار ويجمعها قولك : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ويسن الاضطباع في طواف القدوم : وهو اخراج الذراع الايمن فوق الرداء الذي تشتمل به ، وكذلك يسن فيه الرمل (أى الجرى بخطى ضيقة اشارة الى أن الجسم ممتلى قوة وشهامة ، ولم تؤثر فيه عوامل مشقة السفر في سبيل الله) .

و بعد طوافك سبعة أشواط على هذا النظام توجه خلف منام ابراهيم وصل ركعتين سنة الطواف ، ثم قل : اللهم انك دعوت عبادك الى يتسك الحرام وقد جئت طائما لا سرك فاغفرلى وارحمنى ، اللهم اغفرلى ولوالدى وارحمهما كما ربيانى صغيرا ، اللهم اغفرلى ولجميع المؤمنين والمؤمنات الاحياء منهم والاموات . ثم اقصد المأتم وقل اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقابا ورقاب آثانا وأمهاتنا واخواننا وأولادنا من النار ، اللهم أحسن عاقبتنا فى الامور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم انى عبدك وابن عبدك واقف تحت بابك ملتزم لا عتاك متذل بين يديك أرجو رحمتك وأخشى عذابك ، اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واغفر لى دنبنى . ثم اذهب الى بئر زمزم فاشرب منها هنيئا مريئا . ثم توجه الى المسعى فاذا خرجت من باب الصفا فقل : بسم الله الرحمن الرحيم ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ثم اصعد على درجات الصفا وتوجه الى الكعبة فاذا شاهدتها قل : بسم الله الله أكبر والله الحمد ، ثم اسع الى المروة قائلا : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، لا اله الا الله ولا نعبد الاياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، اللهم انى أعودك من عضال الداء وخيبة الرجاء وشماتة الاعداء وزوال النعمة ونزول النقمة ، ونهرول بين الميلىن الاخضرين (وهما عمودان مبنيان فى جدار الحرم : واحد بجوار باب البغلة ، والاخر بجوار باب على ، ومسافة ما بينهما سبعون مترا) قائلا : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم انك أنت الاعز الاكرم ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار يا عزيز يا غفار

يأرحم الراحمين ثم ادع الله بما شئت، حتى إذا أتيت المروة فاصعد على سلمها وتوجه إلى المسمى^(١) وادع بما شئت . وبعده هذا شوطاً من السعى . وهكذا تسمى في الاشواط السبعة . وتستحضر أثناء سعيك ذلك الجهد الذي أصاب هاجر في هرولتها طلباً للماء عند قدومها بولدها إلى هذه القفلة ورحمة الله بها بعثورها على عين زمزم، فكان عليها استعمار مكة التي أصبحت قبلة للمسلمين في جميع أطراف الأرض . وإذا كنت مقتنعاً (محرم بالعمرة) حلقت أو قصرت وتحللت (فككت إحرامك) ، حتى إذا كان يوم التروية (اليوم الذي قبل يوم عرفة) ، أحرمت للحج . أما إن كنت قارناً (أعني محرم بالحج والعمرة معاً) أو مفرداً (محرم بالحج فقط) ، بقيت بإحرامك في مكة إلى يوم التروية ، ثم توجه إلى عرفة فتبيت فيها إن لم تكن أردت المبيت بمنى . وتقضى عرفة^(٢) يوم التاسع من ذي الحجة وجزاً من ليلة العاشر في الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل والتلبية والصلاة على النبي والآل كثار من تلاوة سورة الاخلاص ومن قولك لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وتكثر من الدعاء والتضرع إلى الله بقبول حجك وغفران ذنبك خصوصاً بعد العصر . ويسن الجمع (تقديم العصر مع الظهر) مع الإمام عرفة . فإذا أفاض الإمام أو نائبه

(١) المسمى هو ما بين الصفا والمروة وطوله نحو أربع مائة وعشرين متراً، وهو شارع عمومي محاط بالبيوت والمحارن والدكاكين، مما يجعله مزدحماً بالناس زمن الموسم لاسيما عند دخول القوافل بالحجيج إلى مكة، وهناك يكثُر الساعون وبصافون في سعيهم مشقات كثيرة . وعلى طاري المسمى وخصوصاً من حمة المروة دكاكين للحلاقين يحلق أو يقصر فيها من أراد أن يتحلل من إحرامه .

(٢) يكفي في الوقوف بعرفة لحظة من يوم التاسع وليلة العاشر . ولو فاتك الوقوف فقد فاتك الحج من عامك ، فتحلل بعمرة ، وعليك قصاؤه في العام القابل ولو كان حجك قفلاً . هذا عند أهل السنة ، أما عند الشيعة من الاعجام فحاجهم لو فاتته الوقوف فانه لا يتحلل حتى يقضى حجه في عام قابل : لذلك تراهم يبالغون في الاحتياط لوقوفهم فيقفون في اليوم التاسع والعاشر، ولا يبرلون من عرفة الا بعد قليل من ليل العادي عشر .

ولقد فاتهم الوقوف سنة ١١٤٣ هـ فقاموا بمكة محرمين حتى أدوا الفريضة سنة ١١٤٤ هـ، ولكن أهل مكة قاموا عليهم بدعوى أنهم وضعوا نجاسة في البيت وأرغموا الشريف محمد بن عبد الله بن سعيد على اصدار أمره باخراجهم من البلد الحرام فصاروا إلى الطائف وجدة وأقاموا بها إلى الموسم التالي .

من عرفة فانفرمعه الى المزدلفة، وان كنت مالكيّاً فحسبك من اقامتك بهامقدار ماتجمع فيه
 جمارك وهي تسع وأربعون حصاة في حجم القولة تقريباً، وان كنت شافعيّاً فحسبك الاقامة
 فيها جزأ من نصف الليل الثاني، وان كنت حنفيّاً فبت بها وانزل بعد صلاة الصبح الى منى،
 وارم جمرة العقبة بسبع حصيات تقول في اثناها: بسم الله الله أكبر رجماً للشيطان وحزبه،
 اللهم تصديقاً بكتابك واتباع السنة نبيك وخيلك عليهما الصلاة والسلام. ثم اذبح ان كان
 عليك هذني، ثم اخلق أو قصر وقل: الحمد لله الذي قضى عني سكي، اللهم زدني ايماناً و يقيناً،
 وهنالكَ يحل لك كل ما حرّم عليك في الاحرام الا النساء والطيب. وفي اليوم الثاني ارم جمرة
 العقبة بعد الزوال، ثم ارم الجمرة الثانية ثم الثالثة بسبع حصيات في كل جمرة، وكذلك تفعل
 في اليوم الثالث. ثم انزل الى مكة وطف طواف الافاضة، واسع ان لم تكن سمعت بعد
 طواف المدوم. ومن الناس من ينزل في عاشر ذي الحجة الى مكة، حتى اذا طاف طواف
 الافاضة وسعى (ان كان عليه سعي) عاد من يومه الى منى، ونزل منها الى مكة بعد زوال اليوم
 الثالث عشر وهذا ينتهي الحج. و يقيم الحجاج في مكة أياماً يصلحون فيها من شؤونهم، ثم
 يصدون السفر الى الزيارة أو العودة الى بلادهم.



محرمات الاحرام

يحرم على المحرم لبس المحيط وتغطية الرأس وازالة شعره بنتف أو حلق، فان فعل شيئاً
 من ذلك متعمداً أو ناسياً فعليه الفدية (بذبح شاة): الا اذا كان الشعر الذي أزيل منه يسيراً
 لا يتجاوز اثنتي عشرة شعرة فعليه حينئذ أن يتصدق بحفنة من بر. ويحرم عليه أيضاً تقليم
 أظافره، وعليه الفدية ان فعل: الا اذا كان ظفراً أو ظفرين فعليه أن يتصدق بعد أو مدين.
 ويحرم عليه الطيب في بدنه أو ثوبه أو فراشه أو أكله أو شربه أو في عطوس أو دهان، ويجب
 عليه به الفدية. ويحرم عليه صيد الحيوان أو قتله أو تنفيره أو اذاعه كما يحرم عليه قطع حشيش

الحرم وشجره وعليه به دم . ويحرم عليه الجماع وبه يفسد الحج .
 واذا فات الحاج شئ من أركان الحج أو العمرة أو شروطهما سهوا أو عمدا بطل حجّه
 وعمرته ، وإن فاته شئ من الواجبات وجب عليه دم لكل واجب تركه : وذلك بأن يذبح شاة
 في الحرم ، فإن عجز عن الذبح صام ثلاثة أيام في الحج من وقت احرامه الى يوم النحر ، وسبعة
 إذا رجع الى بلده . هذا إذا كان ترك شيئا منها قبل الوقوف ، أما إن تركه بعده فله صوم العشرة
 الايام بعد عودته الى وطنه . وإن فاته شئ من السنن أو المندوبات فعليه أن يتصدق .



الحسنى	الشافعى	المالكى	الحنفى	
ركن	ركن	ركن	شرط *	الاحرام للعمرة
«	«	«	ركن	طواف العمرة
«	«	«	واحد	السمى في العمرة
«	«	«	شرط	الاحرام للحج وهو يبدل الدخول فيه
سنة	سنة	واحد	سنة	التيقة مع الاحرام وان ادبرها بعد السعى
واحد	واحد	«	واحد	الاحرام من المقاب
سنة	سنة	واحد	سنة	طواف القدوم
شرط	شرط	«	واحد	البدء بالحجر في الطواف
«	«	شرط	«	ستر الورة في الطواف
«	«	«	«	الطهارة في الطواف من الخدين
سنة	سنة	واحد	«	ركعتا الطواف
شرط	شرط	«	شرط	وقوع السعى بعد الطواف
سنة	سنة	«	سنة	عدم اعتدال بين السعى والطواف
شرط	شرط	شرط	واحد	البدء في السعى من الضم
سنة	سنة	«	«	التمنى في الطواف والسمى مع القدرة
شرط	«	«	سنة	موالاته الانوار في الطواف والسمى
ركن	ركن	«	ركن	اليوف عرفه بهاراً
واحد	واحد	ركن	واحد	اليوف عرفه ليلاً
سنة	سنة	«	«	الدفع من عرفه مع الامام (العمرة)
واحد	واحد	«	«	اليوف عرفه
سنة	سنة	«	«	تأخير جمع المغرب والعشاء عند ذلك
واحد	واحد	واحد	«	المذبح يسمى لماي أيام التشريق
«	«	«	واحد	رمي الجمار
سنة	سنة	«	«	عدم تأخير الرمي الى الليل
واحد	ركن	«	واحد	الحلق أو التقصير
سنة	«	«	«	التربيت بين الرمي والذبح والحلق
«	«	«	«	الحلق بالحرم وتوقيفه بأيام الحج
ركن	ركن	ركن	ركن	طواف الافصة
شرط	شرط	شرط	واحد *	طواف السعة الاثنا عشر
«	«	«	«	الطواف من وراء الحجر والتادروان
سنة	سنة	واحد	سنة	تأخير طواف الافصة عن الرمي
«	«	«	«	فعل طواف الافصة في أيام الحج
ركن	ركن	ركن	ركن	السمى في الحج
واحد	واحد	ممدود	«	طواف الوداع

* وقيل انه ركن

* الركن عده اربعة اثنا عشر فقط

* الى آخر شهر ذي الحجة

الاحرام

يجب أن يكون الاحرام من الميقات . ولكل جهة ميقات معين : فقدر روى عن عمر وابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مهل أهل الشام الجحفة ، ومهل أهل المدينة من ذى الحليفة ، ومهل أهل نجد من قرن ، ومهل أهل اليمن من اللملم » والحجفة وتسمى مهية قرية صغيرة على طريق المدينة إلى مكة ، وهي شرقي رابغ وعلى نحو ستة أميال منها (ويراد بأهل الشام هنا ما كان شمال مكة) . ودو الحليفة (آثار على) منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج من المدينة المنورة لحج أو عمرة ، وكان عليه الصلاة والسلام يحج من هذا الطريق ويهل من هذا المكان ، وإذا عاد إلى المدينة دخل من طريق المعرس وهو بطن الوادي . وكان طريقه إلى مكة على الصمراء و بدر وعسفان ، ومازله على غير منازل الحاج في أيام هذه ، ورعا تعقت في كثير منها وان اختلفت اسمائها . وأما قرن المنازل فهو مشتبك طريق نجد مع طريق العافله من الطائف إلى مكة ، وهو على مرحلة من الطائف ومرحلتين من مكة (وقد كان في قرن لعدينان مع يختصر وافعة كبيرة في القرن الثالث عشر قبل الهجرة انتصروها الاشوريون على العرب ثم رجعوا عنهم إلى بلادهم) . أما ذات عرق التي يحرم منها القادمون من نجد فهي غرب قرن ، والحد الفاصل بين نجد ونهامة ، قال الشاعر .

كأن المطايا لم تنخ نهامة * إذا صعدت عن ذات عرق صدورها

ويللم أوله وثانيه جبل على ليلتين من مكة ، وهو في طريق اليمن إليها ، وأودينه تنحدر إلى البحر .

وهذه المواقيت للخارج عن حدودها ، أما الداخل فيها فيحرم من أي نقطة من الحل . ولا بد لنا أن نلاحظ أن جعله صلى الله عليه وسلم ميقات احرام أهل المدينة من ذى الحليفة ، التي هي على نحو عشرة مراحل من مكة ، في حين أن مهل الجهات الأخرى لا يبعد عنها إلا بنحو مرحلتين ، إنما هو لزيادة عنايته صلى الله عليه وسلم بالاستعداد للدخول إلى حرم الله ،

وأراد ذلك لاهل المدينة لانهم أحب الناس اليه وأقر بهم منه : وانما الاجر على قدر المشقة .
وكثير من الناس اذا عزموا على الحج يحرمون من بيوتهم ، وترى ذلك كثيرا في أهل المغرب .
وقد ذكر أن عبد الله بن عامر والى البصرة لعثمان بن عفان ، لما أكرمه الله بفتح بلاد الفرس
من أدناها الى أقصاها ، حتى وصلت فتوحاته الى حدود الهند شرقا ونجوم سير ياشمالا والمحيط
الهندي جنوبا ، قال له أحد خاصته : لم يفتح الله لاحد ما فتح عليك : فقال لا جرم لأجعان
شكرى الله أن أخرج مُحرما من موقفي هذا وأحرم بعمره من نيسابور .

- - -

لباس الاحرام

كان الداس قديما يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة
جدا . والمصريون كانوا يستعملون في أول أمرهم المنزر ثم البرس : وهو قطعة من المماش
تلقى على الكتاف ، وتربط بحزام وترسل الى الركبتين في العامة أو الى أسفل منها في الخاصة .
حتى اذا نزلت الدولة في عمرائها أطالوا من ذلك البرس الى السكبين ، ولبسوا من تحته قميصا
لأحكامه أخذوه عن الاثيوبيين^(١) . وكانوا في مبدا أمرهم يلونون ملابسهم بلون واحد
(أخضر أو أزرق أو أحمر) ، ثم اتهموا استعمال كثير من الالوان في ثيابهم مع ما كانوا يوشون
به دوائرها بالاشربة المنقوشة .

أما الاشوريون فقد كانوا يشتغلون بقطعة كبيرة من القماش ، ويمرون بها من تحت انطهم
اليمين ويغطون بها الصدر ، ثم يرسلونها على السكف اليسر ، حيث يثبت طرفها اما بعقدة أو
بمشبك (انظر سطر عشرين من صفحة ١١٥٣ من الجزء الثاني من دائرة المعارف الفرنسية
الكبرى) . ثم غيروا هذا الزي بأن لبسوا قميصا صغيرا ومن فوقه شئ يشبه العباءة . والاعجام
كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة .

(١) هم سكان اثيوبيا : وهي مملكة قديمة كانت في حوض مصر في المنطقة الى بها الحبشة
وما والاها شرقا الى السودان الغربا الى حوض عظيم من السودان المصري .

واليونان كانوا يلبسون رداء طويلاً واسعاً ويمرون به من تحت ابطهم الايمن ، بعد أن يلقوا به وسطهم ، ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كتفهم الآخر . ثم صاروا يشعلون به الجسم جميعه : ذلك بانهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل ويربطون طرفيه ، ثم يدخلون ذراعهم الايمن مع الرأس من فتحة ما بينهما ، بحيث تكون العقدة على الكتف الايسر ، ثم يلف الجسم بباقي هذه الشملة ويسمونها شيون (Chion) ، كما تراه الى اليوم في عرب البادية المصرية خصوصاً عرب المغرب ، ولا شك في أنهم أخذوا هذا الزي من الرومانيين أو الفراعين ، ولبت فيهم على بداوته الاولى الى الآن . وهذا الشكل يوجد منه صور كثيرة على الآثار الرومانية ، وقد شاهدت شيئاً مماثلة تماماً على قاعدة المسلة التي في القسطنطينية في ميدان السلطان أحمد ، وعلى بعض النواويس الموجودة في متحف الاستانة ، وفي النقوش الموجودة في سقف جامع القهرية (القهرية) : وهو أول كنيسة بنيت في الاستانة وحولت الى مسجد بعد الفتح .

أما دار الآثار المصرية فقد شاهدت فيها أن ملابس المصريين في قديم الزمان كانت تنحصر في لبس المتر : وهو فوطة يلف بها النصف الاسفل من الجسم على هيئة ما يكون الرجل في أيامنا هذه داخل الحمامات العمومية ^(١) ، وأخص بالذكر مما رأيته على هذه الصورة تمثال كفرين المشهور بشيخ البلد في القاعة حرف (D) ، وهو ناي هرمل الجيزة الثاني ، ومن ملوك العائلة الرابعة المصرية التي كانت توجد في القرن الخامس قبل المسيح ، ثم تمثال (رعنفر) من العائلة الخامسة في القاعة حرف (I) ، ثم تمثال أمور وأمون وهما من معبودات المصريين ، ثم صورة للمسيح بالدخلة الصغيرة للطريقة التي تمثلها بمتر بسيط . ويوجد غير ذلك كثير من التماثيل البرنزية والنحاسية التي في دواليب المتحف لا بسة شبه احرام كامل ، وقد شاهدت من بينهما تمثالاً من الفخار للعدراء وهي ملتحفة بشملة تغطي جميع جسمها وانها على يدها .

أما القاعات الرومانية واليونانية التي على يمين صحن المتحف من الدور الاول ، ففيها تماثيل

(١) هذا اللباس شائع الآن في أغلب بلاد السودان وغيرها من البلاد التي لا يزال على فطرتها الاولى ، وشاهده على كثير من أعراب البادية في احرامهم وفي غير احرامهم .

الاحرام باشكاله التامة : وترى في وسط القاعة حرف (T)، امرأة رومانية من الرخام الابيض الو ردى بهيئة احرام كامل : أعنى أنها مملوكة برداء أبيض يغطي كل جسمها ما عدا رأسها . ويهرب منها مثال رجل من الجرايت الاسود ملتحف برداء قد انحسر عن ذراعيه الايمن : وهو ما يسمونه في الاحرام بالاضطباع، وفي رجله بعلان لا يغطيان ظاهر القدم، اللهم الاعرودة يدخل فيها الابهام، ويخرج منها سيران رقيقان يتصالبان على مادون الكعبين، ويربطان فيما دون العقب : وهي ما يسمونها في الحجاز بالنعال الشرقية، التي أجمعت المذاهب الاربع على تحية الاحرام بها . وهذه النعل تراها أيضاً في قدم منفصلة عن جسمها، موضوعة على يسار الداخل في القاعة حرف (R) .

ومتاحف القصور الجميلة في جميع احواء الدنيا غاصة بصور الناس في العهد القديم وهم في لباسهم البسيط الذي عاين لباس الاحرام بل هو بعينه . والآن يمثلون هذا اللباس تمام في شحيص الروايات التي تشخص الزمن القديم الروماني أو اليوناني، وخصوصاً في تمثيل صور الانبياء والحكماء .

و يقال ان اليهود كانوا يستعملون في معابدهم لبس غير الخيط ، أما الآن فيكفون بوضع رداء على أكتافهم من الصوف بسهولة تليق أو تيسوت، ليتشبهوا بموسى عليه السلام في ساطة لباسه .

ومن هذا ترى أن ملابس الناس في الزمن القديم، بل في جميع أدوار الانعم الحالية حتى في ابان حضارتها، كانت على هذه الساطة . وليس هذا بغريب، فان آلة الخياطة ما كانت معروفة في تلك الارمان : ولقد كان الناس يستعملون أولاً في خياطة ملابسهم شوك الاسماك وسل النحل ، ثم توصلوا الى استعمال البر الحديدي، أما البراني من الصلب فانها لم تخرج الا في القرن الرابع عشر لله سبعم، ولم يذع استعمالها في أوروبا الا في القرن السادس عشر .

وكان أسقط تلك الملابس شكلاً ونوعاً ملابس الاشور بين الذين هم اخوان الكلدانيين، الذين خرج منهم ابراهيم (لان كلهم ما من الجنس السامي) : وعليه فلباس الاحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذي كان يلبسه ابراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى بالحج قائلا : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

وما زالت هذه السنة قائمة في حج البيت الى الان . وأما كونه أبيض فلا ن لون البياض شعار الطهارة والنظافة ، والا فالعرض من الاحرام لبس غير المخيط مطلقا : اشارة الى أن الانسان خرج الى ربه من زخارف الدنيا وما فيها الى بساطة الوجود وبدأوته ، خرج الى ربه من أهة الحياة ورفهها ، وتمثل بين يديه تعالى بحال رجع فيها الى طبيعة الوجود البشري من حيث البساطة التامة ، التي كان مظهرها ذاك الزي الذي يمثل الاشتراكية الحقة بكل معانيها ، فيستوى فيه الصعلوك والملوك ، هذا الزي الذي يستقبل الانسان في مهده ويشيعه الى لحدده ، حتى كأنه يقول لربه : اللهم انى قد نزعمت عن نفسى ظاهرها وباطنها رداء قد وشته الاناطيل وموهته الاضاليل ، وخرجت اليك وقد جردت نفسى لك مما أملك طامعا في بيل . الا أملك من نعم ان عشت أعود بها الى حياة جديدة كلها فضيلة وخير وركة ، وان مت أقضى بها في سبيلك ومحبتك وطاعتك ، وأنقل بها الى دار السعادة الحقيقية فأحشر في زمرة المهبولين والصديقين ، زمرة الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . وهلا رأيت ذلك اللباس الاكثير وسى البسيط (لباس الرهبان) الذى رسم عليه كل من تمثال غليوم الثانى أمبراطور المانيا والامراطورة فريته ، وأرسل بهما فوضعا في الملجأ الالماني الذى نى في بيت المقدس ؟ وسافر الرس ايتل لافتتاحه رسمياً باليابا عن والده الامراطور في شهرا بريل الماضى سنة ١٩١٠ .

على أنه لا يعزب عن فطنتك وينبوع فكرتك أن الاطباء وجدوا أخيراً أن الانسان لا بدله من تعرض جسمه الى الهواء المطلق ومؤثرات الجو ونحو شهر من كل سنة ، يسترجع فيه الجسم قوته ويستعيد نشاطه ، بفضل ملاصقة أو كسجين الهواء لجميع مسام جسمانه : وهذه العملية يحترق ما في الدم من السكر بون الذى تشبع به أثناء دورته من العصابات الى تخلفت في الجسم ، فيعود الى القلب دماً نقياً زكياً صالحاً لتغذية الحياة بمادة القوة ، التي تكون بها العافية التامة والصحة العامة ، التي هي فوام الوجود بل الحياة بمجمع معانيها .

لذلك ترى الاور وپاويين ، وعلى الخصوص الانجليز (لا اعتنائهم بصحتهم أكثر من غيرهم) يعمدون كل سنة الى الحبال ، أو الى شواطئ البحار ، فيخاضون نياهم الا ما يستر عورتهم

و يقعون على هذه الحال شهراً أو أكثر يستعيدون فيه ما فقدوه من قواهم في سبيل العمل طول سنتهم . وكثيرا ما رأيت الفرنجة في هذه الأماكن الصحية على شاطئ البحر ، حفاة عراة معرضين بكل جسمهم للهواء وبرودة الجو وحرارة الشمس جملة ساعات ، وليس عليهم إلا تلك العانة المستعمارة التي يغطون بها السبيلين ، ويسمون ذلك بعلاج الطبيعة أو علاج الهواء ('Cured' air) . ولا غرابة إذا رجعت بنا المدنية الحديثة الى كثير من العوائد التي كان عليها القدماء في بداوتهم مما يسميه الجهلاء خشونة وتوحشاً .

وإذا فلا عرة بما يقوله المخرفون أو المتحاملون على الدين الاسلامي المتعصبون عليه ، من أن الاحرام هو سبب كثير من الامراض التي تعترى الحاج بمكة وعرفة ! ولو أنصفوا لسيروا كل ما يقع لبعض المحرمين من البرودة شتاء والاحتقانات الدماغية صيفاً الى علته الحقيقية وهو الفقر ، الذي يموت منه يومياً آلاف من الناس على قوارع الطرق في عواصم الدنيا المتقدمة . ولقد شاهدت في بعض أسفارى معاصمة من عواصم أوروبا يمشون يموت من البرد والناس حوله ينظرون الى ما يعترى جسمه من انفعالات الموت ، بين ضاحك منه وساخط عليه !! وإذا فالمحرم الذي يحرم بثوب واحد يكون من عادته لبس ثوب واحد ، والافلا حجر عليه أن يلبس ما شاء من غير محيط ، أو يضع على رأسه مظلة ، أو يلبس ما شاء من محيط و يقدي عنه بما يساعد على حياة البأس والفقير .

خروج الحجيج الى عرفة وافاضته منها

في السابع والثامن من شهر ذي الحجة يتبدى الناس في الخروج من مكة الى عرفة على جمالهم أو حميرهم أو أقدامهم ، ويتجهون الى طريق الشرق مارين بالمعل ، ثم يسرون نحو الشرق بميل خفيف الى الجنوب بين جبلين في واد عرضه يختلف من مائة متر الى خمسمائة ، وحركة الناس فيه لا تنقطع في هذين اليومين . وفي نهاية مكة من هذه الجهة « البياضية » وفيها قصر الشريف عبد المطلب على عين السالك الى عرفة ، يحيط به بستان أغلب أشجاره

من شجر السدر . و بعد نحو ثلاثة كيلومترات منه تجد جبل النور على يسارك ، وقمته عالية جداً أقامت عليها قبة بيضاء ضاربة بنورها الى السماء : وكان هذا المكان يتعبد الناس فيه قبل الاسلام ، وتعبد به النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وابتدأ نزول الوحي عليه فيه . ثم ترفع قليلاً نحو الجنوب ، و بعد نحو خمسة كيلومترات تصل الى منى ، فترى في مبدأ دخولك في طريقها العمومى على اليسار جمة العقبة : وهى حائط من الحجرات تفاعه نحو ثلاثة أمتار فى عرض نحو مترين ، قد أقيم على قطعة من صخرة مرتفعة عن الارض بنحو متر ونصف ومن أسفل هذا الحائط حوض من البناء تسقط اليه حجارة الرجم (الجمار) الذى يقوم الحاج بعمليته عند الافاضة من عرفة . ولقد كانت منى ^(١) مكاناً مقدساً عند عرب الجاهلية وكان بها لهم بيت لا صنماهم . وهى الآن مكان متسع طوله من الغرب الى الشرق ، قد أقامت فيه بيوت أغلبها لاشراف مكة وأغنيائهم ، يسكن بعض الحجاج فيها بالاجرة عند ذهابهم الى عرفة أو عودتهم منها ، أما غالب الحجيج فانه يكون محيياً بالفضاء الذى يحيط بها ، وفى غير الموسم لا يكون فيها أحد فى الغالب . وفى هذه المدينة شارعان متوازيان على طول الوادى . وفى شارعها العمومى ترى الحمرتين الاخرين فى وسط الطريق واحدة بعد الاخرى . و بعد هذه المساكن الى الشرق ترى الوادى يتسع من الجنوب على مسافة اثنين كيلومتر ، وتشاهد به تلى يمينك مسجد الخيف ، ثم المصطبة التى تنصب فيها خيم الشريف والوالى مدة اقامتهما فى منى زمن الحج . ومن ثم يضيق الوادى ويسمى بوادى محسر ، حتى اذا وصل الى المزدلفة وهى على مسافة ساعتين من منى أخذ فى الاتساع مرة أخرى . وهالك ترى على يمينك المشعر الحرام الذى يحجب الوقوف عنده فى النزول من عرفة ، وفى هذه الجهة ^(٢) مسجد على جبل قزح عمّره السلطان قايتباى ، ومن هالك يضيق الوادى ثانياً ويسمى بوادى عُرنة (بضم العين وفتح الراء والنون) حتى اذا قرب من مسجد نمرّة (ويسمى مسجد عرفة أو مسجد ابراهيم) انفتحت أرجاؤه الى الشمال والجنوب . وهذا المسجد كبير قد أحاطت به

(١) لا يبعد أن يكون العرب أخذوا هذا الاسم من جزيرة ما الى فيها هيكل بودا قرب جزيرة سيلان .

(٢) الموحود من هذا المسجد الحائط العربى (الذى هو جهة القلة) فقط .

البواكي في جهاته الأربع من داخله، وعمّره قايّتاى عمارة تشكره ونصفه الغربى (الذى الى مكة) فى الحرم والنصف الآخر فى الحِلّ، وبوسطه مجرى ماء يُسَيَّر اليه زمن الحج من محرى عين زبدة. وفى شمال هذا المسجد نخل الى الشرق ترى العالمين: وهما عمودان من المناء بعيدان عن بعضهما، بارتفاع نحو خمسة أمتار فى عرض نحو ثلاثة، قد أقبها فى فضاء الوادى للدلالة على حدود عرفة من الغرب، وهنالك تحدد الجبل قد حلق على الوادى وقفله أمامك من الشرق بشكل فوس كبير وهو ما يسمونه جبل عرفة. وعلى طرف القوس من جهة الجنوب الطريق الى الطائف على كرا. وفى طرفه من جهة الشمال لسان يبرز الى الغرب يسمونه جبل الرحمة، وسفحه الخنوى هو حد عرفة من الشمال، وفيه صخرة عالية كان ينف عليها الرسول صلوات الله عليه فى حجه ليخطب فى فومه: وهى مكان وقوف الخطيب الى الآن. وفى أعلى جبل الرحمة مناره يعلو فيها ليلدة عرفة مصابيح لارشاد السالكين اليه، وفى أسفله مصلى تسمى مسجد الصجرات لان فى أرضيتها صخور كبيرة الى جانب بعضها يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيها، وبحوارها ترى محرى عين زبدة الذى سيّره الى مكة.

الوقوف بعرفة

عدو وصول الحجاج الى هذا الوادى ينزل ركب الحاملين بحيامهم قريبا من جبل الرحمة يليهم مضارب الحجاج على اختلاف أجناسهم. وعلى سفح عرفة من عاليه الى جبل الرحمة يرى جميع الاعراب محتشدين الى جوف الجبل بعضهم فوق بعض كالحجر المرصوص، أما ناقى الحجيج فنه ينصب الخيام فى بطن الوادى الذى يزدحم اليه الناس حتى لا تكاد يرى فيه مكاأا حاليأا من واقف أوقاعد، وجمالهم وحميرهم مربوطة بحوارهم، وترى الكل فى صعيد واحد، حتى يتمذرعلى الاسان السير الى أى جهة أراد ولولضرورة فى نفسه. ولو كان مولانا الشريف يأمر بتقسيم وادى عرفة الى أحذية أفقية يتسمها شارع رأسى، ويخصص

كل حذاء لسكنى جماعة من الحجيج ، وجعلهم من ورائهم ، وتوضع لذلك علامات من البناء لا يتجاوزها الحجاج في وضع مضاربهم ، ولا الحمتالة في ربط حمالهم ، ويعين لهذا النظام من يحفظه مع الدقة ، لكان له شكر الله والملائكة والناس أجمعين . وفي سعة الوادي ما يضمن لدولته اقامة الكل على الراحة التامة ، لان هذا التراحم انما سببه التقرب من مجرى الماء ، ومن السوق الذي تراه بجوار مسجد الصخرات (ويباع فيه بعض الاغذية الضرورية) . وربما كان لتراحمهم سبب آخر وهو خوفهم من الاعراب ، الذين يكون لهم من سعة هذا الرحاب عون على النهب والسلب . وبسبب هذا التراحم يضل الناس عن أمكتهم اذا تركوها لأمري ما ، ولذلك تراهم ينادون على بعضهم إماناً سائهم ، أو تألفاظ اصطلاح عليها أهل كل جهة ، حتى اذا سمعها واحد منهم أجابه بصوت عال وقصد مصدر الصوت . وهذه الحركة لا تكاد تنقطع مدة اقامة بعرفة .

ويحذر بدولة مولانا الشريفة إصدار أمر بالكريم بالعناية التامة بملاحظة فتحات محرمي عين زبيدة ، وتعيين خدمة مخصوصين لها لا يدعون أحدًا من الحجاج بعثها أو يغتسل فيها ، خصوصاً أولئك المحذومين الذين يغتسلون في الحوض الذي يسمونه بحوض المحذومين زاعمين أن فيه شفاءهم ، وهم بعملهم هذا انما يضررون اخوانهم المسلمين بنقل العدوى اليهم . ولا يعزب عن فكره السامي أن علماء البكتريولوجيا ذهبوا الى أن الماء هو أكثر موصل للعدوى وخصوصاً في وباء الكوليرا : سأل الله تعالى السلامة لعاده .

ويوم الوقوف هو التاسع من ذي الحجة مع قليل من ليلة العاشر اتفاق المسلمين . فادانت هذا اليوم عند القاضي بالصفة الشرعية وقف جميع المسلمين على اختلافهم في الجدييات والمذاهب من غير أن يكون للشك تأثر عليهم ، الا الشيعة من الاعجام فانهم لو حصل عندهم أدنى شك في رؤية هلال ذي الحجة ، بمعنى أنهم لم يشاهدوا منهم الجم الغفير ، وهو يوم التاسع والعاشر احتياطاً . وفي عرفة ترى الناس مشتغلين كل شأنه ، وهم وان انفصلوا في هياكلهم ، فان قلوبهم مرتبطة ارتباط ذرات الجسم الواحد ببعضها . وبعد صلاة العصر يتحرك الحاملان بحرسهما الى منحدر جبل الرحمة وينهض خطيب عرفة (وهو في الغالب قاضي مكة

انجمن علی حبیب الرحمن برفايت



الذى يتعين من قبل السلطان) ، فيصعد بناقته من طريق حلزوني الى صخرة في صدر هذا الجبل ، ويخطب بيابة عن خليفة رسول الله خطبة يعلم الناس فيها مناسك الحج ويكثر فيها من الدعاء والتلبية ، ومن دونه مبالغون بأيديهم مناديل يشيرون بها في كل تلبية الى الواقفين دون الصخرة فيقول الكل « لبيك اللهم لبيك » ، بصوت يكاد يصعد بالا حشاء الى عنان السماء ، ويألهام من ساعة ترى الناس فيها قد تجردوا بالمرّة عن أنفسهم ، فلا يكادون يشعرون بما يحيط بهم من معالم الحياة ، وقد تغلب وجدانهم على وجودهم وظهرت روحانيتهم على جسمانياتهم ، حتى كأنهم في لباسهم الابيض الطاهر النقي ملائكة لله في هذا الوادي الذي يردد أصواتهم وانتهالانهم الى واجب الوجود ، الى الملك المعبود ، الى الواحد الا حد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فادارتاجع اليهم صدى هذا الصوت احدث في نفوسهم هزة تدق لها قلوبهم واضطرب منها أفئدتهم خشية من رب الارباب ومالك الرقاب ، هنالك تسوح النفوس في ظروفيها وبتكش الحسوم على هياكلها من رهبوت هذا الملكوت ، وحشاشات القلوب تنصب من آفاق عيونهم أسفا على ما اقترفوه من ذنوب وعيوب !! وتتلاحق الارواح الى التعلق بأستار رحمت رحمانها ، تائبة مستغفرة ضارعة اليه تعالى تقبلها في ساحه عفراته ، مؤملة في عظيم كرمه واحسانه ، ولا تلبث أن تتراجع وهي على يقين من قبولها في ساحة الرحيم الرحمن ، وقد وقر في نفوس ذويها حب الفضيلة و بغض الرذيلة ، وحسب الانسان من فضيلة الحج هذه الحسنة الجميلة . ويستقر الناس على هذه الحال حتى اذا غابت الشمس في الافق ، أطلق صاروخ من قبل الخطيب اعلانياً بتمام الموقف . عندها تهجرك الحامل بين ضروب المدافع وعزف الموسيقى ، وأصوات الالبتهالات ، وكثرة الدعوات ، وانهمال العسرات ، ويكون كل حاج قبل ذلك قد حمل حوله واستعد للافاضة ، فتتفر الناس مرة واحدة من عرفات مسرورين هاتفين بهتاف الفرح والحبور حتى اذا وصلوا الى ذينك العلمين خرجوا من بينهما . وهناك ترى الزحام لا يوصف والناس في حركة هائلة الى المزدلفة . فاذا وصلوها نزلوا بها ، وأقامها الحنفية الى ما بعد صلاة الصبح ، والشافعية الى ما بعد نصف الليل ، أما المالكية فحسبهم من الاقامة بها قد رساعة يجمعون

فيها جمارهم من الحصى الموجود في أرضية واديها : وهي تسع وأربعون حصاة في قدر القولة يتناولها الحاج من رمال تلك الصحراء الواسعة ، ليرجم بها في منى التي ينزل إليها من ليلته . وأغلب الحجاج يقدون مالكا ويسرعون في النزول إليها حتى يجذوا لهم فيها مكاناً يقيمون به على راحتهم . وفي صباح النحر وهو يوم العيد لا كرم يكون عموم الحجاج وصلوا إلى منى . ويخيم الحمل المصري في شمال المصطبة التي فيها نخيم الشريف ، والحمل الشامي إلى جوار مسجد الخيف : وهو مسجد كبير ذو فضاء واسع مربع يحيط به سور متسع ، وإلى حائطه الغربي رواق على طوله ، قام سقفه على أعمدة من البناء . وباب هذا المسجد إلى الشمال ، وفي وسط صحنه تجاه الباب قبة كبيرة أقيمت على مكان يصلي الناس فيه ، وهو المكان الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبحوار هذه القبة مأذنة صغيرة بناها السلطان قايتباي سنة ٨٨٤ ، وبنى بجانب هذا المسجد داراً كان ينزل إليها أمير الحاج المصري فاندثرت ، ولكن المسجد باق على حاله ، إلا أنه يحتاج من داخل سورده وخارجه إلى عناية ذوي الشأن ، حتى يكون نظيفاً بعيداً عن عبث العابثين ، ان لم يكن لموجبات الدين فلموجبات الصحة العمومية ، وخصوصاً في منى التي تكتب فيها صحيفة الحاج الصحية وأساق على أجنحة الترق إلى جميع أقطار المسكونة .

وبمجرد وصول الحجاج إلى منى يقصدون من فورهم حمرة العقبة فيرمونها وينحرون ويحلقون أو يقصرون ثم يلبسون ملابسهم : وعندها يحل لهم كل شيء ما عدا النساء والطيب . ودبائح القران تدبج في شرقى منى وتلقى في حفرة تحفر هناك لهذا الغرض وكلما امتلأت حفرة بجثث القرابين ردمت وحفرت غيرها وهكذا ، ويكون لها بعد الحج رائحة كريهة جداً ، ولو كانت الحكومة تعنى بجمع ما يتراكم فيها من العظام مع ما يتخلف منها حول مكة ، وتبيعه لأحدى الشركات بمجدة ، وتصرف ثمنه في تحسين طرق الحجاج ونظافة شوارع مكة لكان فيه فائدة كبيرة . وقد طلبت شركات كثيرة التزام ذلك من الحكومة السابقة فلم يقبل طلبها . أما الحكومة الحالية فاظن أنها لا ترى مانعاً في ذلك مادام في مصلحة البلاد

و يفيم الحجاج معنى الى عصر اليوم الثالث عشر من ذى الحجة ، ثم ينزلون الى مكة لاداء
الركن الباقي من أركان الحج وهو طواف الافصة والسعى لمن لم يكونوا سعيوا بعد طواف القدوم ،
ومن الناس من ينزل الى مكة أوّل يوم بعد رمى جمرة العقبة لاستكمال جميع مناسك الحج ، ثم
يرجعون من يومهم الى مدينتهم فيقيمون فيها مع اخوانهم نائى وبالك أيام التسريى ، ويرجعون فى
كل يوم منهما الجمرات الثلاث ، وفى عصر اليوم الثالث ينزلون الى مكة .

الرجم

الرجم فى اصطلاح الحجيج رى غرض مخصوص فى منى بسبع حصيات فى حجم
العولة، وهذا الغرض يسمى جمرة . والجمرات ثلاث : جمرة العقبة ، والجمرة الوسطى ، والجمرة
الصغرى (ويسمىها العامة ابليس الكبير والوسطاى والصغير) . ولكل جمرة مكان
مخصوص (مد كورق وصف الطريق الى عرفة) ، ورمىها واجب باطلاق المذاهب : فيرمى
الحاج فى أوّل أيامه معنى (يوم الاحية) جمرة العقبة وحدها ، ثم يرمى ثلاثتها فى كل يوم من
اليومين التالين ، فيكون جملة ما يرميه سبع حصيات فى سبع (٤٩ حصاة) . ومكان
الجمرات تراه على الدوام عاصاً بالرامين فلا تصل اليه الا بمشقة عظيمة ، وكثيراً ما تشاهد بين
هؤلاء الرماة ناساً يجمرون بتشقى شديد ، ومهم من يغفلو فى ذلك فيرمى هذا الغرض
برصاص طينجته كأنما يرمى عدواً ألد ، والكل يتخيل أنه انما يرمى ذلك الشيطان الرجيم
الذى لا تحفى عداوته لبني الانسان ، فكأنما هم بهذا الرى يشهرون عليه حر باعوا بالما
سبق من إغوائه لهم ، و يقطعون كل صلة بينهم وبينه .

والعرب كانوا يرجمون هذه الجمرات الثلاث فى حجهم قبل الاسلام ، لانهم كانوا يعتقدون
ان الله تعالى أوحى الى ابراهيم وهو فى تلك الجهة بذبح ولده اسماعيل . فأخذوه وساروا ليصدع
بامر ربه فوسوس له الشيطان بأن لا يفعل ، فأخذ حصيات ورماه بها ، وكان ذلك فى
المكان الذى به الجرة الاولى ، فتركه وسار الى هاجر وأخذ يقبح لها عمل ابراهيم ، فأخذت

حجارة ورمته بها، وكان ذلك في مكان الحجرة الثانية . فذهب الى اسماعيل يشنع له عمل أبيه، وأخذ قبضة من الحصى ورماه بها، وكان ذلك في مكان الحجرة الثالثة . لذلك كانت ترجم العرب هذه الامكنة مشخصين ذلك الشيطان، وتابعهم عليه الاسلام، ولا غرابة في ذلك : لان الناموس الطبيعي يقضى بأن يكون كل معنى من المعاني مصدره المادة . وعليه فهذا الرمي المادى يوصل بلا شك لمعنى دقيق جليل في ذاته : هو تربية مملكة جديدة في شخص الرامي وهي مخالفة شيطان النفس والاتعاد عن مسالك الشرور .

والرجم أمر قديم في الامم : قال الله تعالى في سورة الشعراء في احابه قوم نوح على اصنامهم لهم « لئن لم ينته يانوح لتكون من المرجومين » . وقال تعالى في سورة هود في جواب أهل مدين على بصيحة نبيهم شعيب لهم « قالوا يا شعيب ما نعنه كثيراً مما تقول وانا لنراك فيما ضعيناً ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزير » .

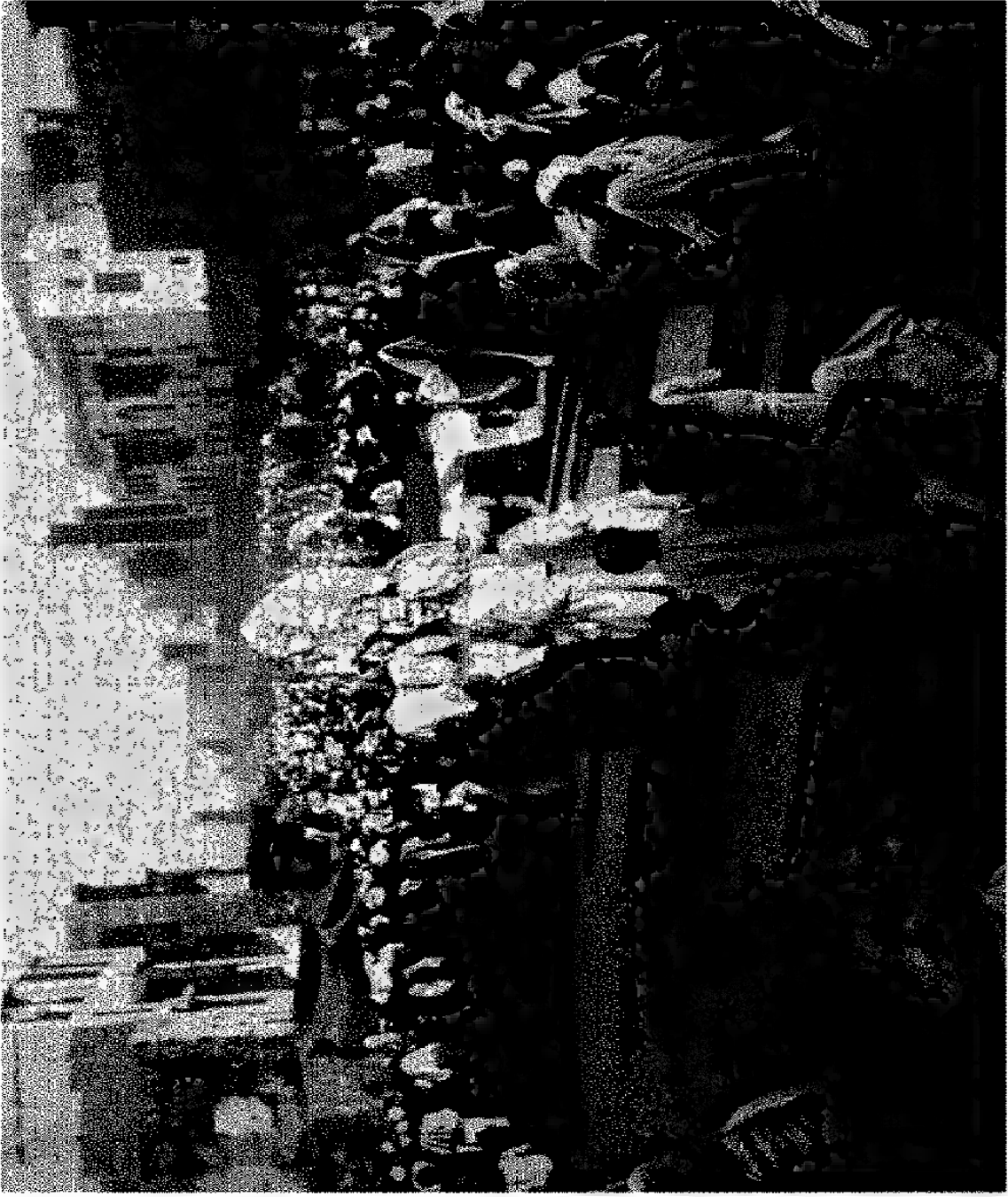
وكان الرجم في بني اسرائيل ، وقد ورد في الآية ٢٤ و ٢٥ من الاسحاح السابع لسفر يشوع مانصه : « فأخذ يشوع عمخان بن زارح والمصة والرداء ولسان الذهب وبيده وبناته وبنوه وحميره وغممه وخميته وكل ماله وجميع اسرائيل معه، وصعدوا بهم الى وادي عحور، فقال يشوع كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم ، فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة » .

والنصارى يرجمون مكان شجرة التين التي لعنها المسيح حينما أراد أن يأكل منها ولم يجد فيها ثمراً ، أنظر آية ١٩ من الاسحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى . ومكان هذه الشجرة على طريق الذهاب من بيت المقدس الى نهر الاردن في الوادى الذى ينزل على يسار جبل الزيتون .

والعرب كانوا يرجمون في الحاهلية من سخطوا عليه حياً وميتاً . فكانوا يرجمون الزانى المحصن حياً لشناعة عمله، وتاعتهم عليه الشريرة الغراء ، كما كانوا يرجمون قبور من يفهمون عليهم : وهم يرجمون من القرن الاول قبل الهجرة الى الآن قرأى رجال في المعسكر بن مكة والطائف، لانه كان يقود جيشاً أبرهه الى مكة، فسات في هذا المكان قبل وصوله اليها .

الحجاج يزعمون ايجرات باجرة الوهطى

BOEHME & ANDERER CAIRO



قال جرير يهجو الفرزدق :

اذا مات الفرزدق فارجموه * كما يرمون قبر أبي رغال

والمسلمون يرمون قبر أبي لهب خارج مكة لانه عدو نبينهم صلى الله عليه وسلم ، ويرمون قبر أبي جهينة في طريق العمرة لانه كان من حكام مكة الظالمين ، ويرمون قبر يزيد بن معاوية ^(١) لسوء سيرته وشناعة فعلته مع آل البيت رضوان الله عليهم ، ويرجمون قبر مسلم ابن عوف ^(٢) في ثنية المشلل بين مكة والمدينة ، لانه فتن باهل المدينة ولم يراع حرمة رسول الله في صحابته وجيرته . وقد ذكر المسعودي في سروج الذهب عند ذكر اليمن وملوكها ، انه يوجد في طريق العراق الى مكة نحو النظامية ، موضع يعرف بقبر العبادي ^(٣) ترجمه المارة ؟

(١) قبر يزيد بن معاوية بدمشق الشام في حارة الحالية شرق مقبرة الباب الصغير يفصل بينهما طريق . وهو مكان مسور يبلغ طوله نحو ثمانية أمار في عرض أربعة وعليه تل من حجارة الرحم يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمار ، وأهل دمشق يعصونه . وهذه المناسبة أذكر لك اني ررت في هذه المقبرة قبر معاوية بن أبي سفيان وهو في قمة بيطة وقد دفن الى حوار بهمن الناميين ، وقبر عبد الله بن مروان نحو حواره يحيط به سور مهند من الطوب الي ولاسقفه !! وهما لك سرخيالي عظم ملكهم وقجامة سلطانهم وكبير اجبتهم وحليل مطهرهم في حياتهم وهو مالا يطق عني ما نراه من حقارة ممارهم الحالية التي لم تقم لها من مدأ حكم العباسيين قئمة ! سبحان من ييده الملك نمر من يشاء ويدل من يشاء .

(٢) مسلم بن عقبة هو أعور بني مرة سيرة يزيد بن معاوية الى مكة لقتال عبد الله بن الزبير وأمره أن يحمل طريقه على المدينة ، وكان أهلها قد سدوا طاعته ، وهول له ان هم أطاعوك اتركهم الى مكة والا حاربهم وأوقع بهم . فلما وصل اليها أقبلوا أنوارها في وجهه وكانوا قد خندقوا عليها لما بلغهم تحركه اليهم . فدخلها عدوة في يوم الثلاثاء ٢٧ دي الحجة سنة ٦٣ وأحد بقل في صحابة رسول الله وثانيه حتى قتل منهم يماً وأحد عشر ألأا وهب المدينة ثلاثه أيام : ويسمون ذلك اليوم المشثوم بيوم الحرة . ثم ارتحل عن المدينة فاضد مكة ثبات في الطريق ودفن في ثنية المشلل . فأتت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن رمة ، وكان قد قتل ولدها مسلم فيمن قتل ، فبش قبره وصلبه على المشلل ورحمه ولا يزال قبره يرحم للآن .

(٣) لعله أبو منصور العبادي المشهور بالامير والمولود بماد احدى قري مرو سنة ٤٩١ هـ وقد ورد في دائرة المعارف « انه مات في طريقه الى خورسان من سداد وكان غير موثوق به في دينه وله رسالة يبيع فيها شرب الخمر » . وربما كان له في الحصة التي مات بها ما أسخط أهلها عليه فرجموه ولا يزالون يرحمونه

القربان

القربان شئٌ كان يتقرب به الناس من قديم الزمان الى الله تعالى، وكان يختلف نوعه باختلاف الازمنة والامكنة. وأول ما وصلنا من أمر القرايين أن قابيل بن آدم قرب الى الله شيئا من ثمرات أرضه، وقرب أخوه هابيل ذبيحة من أبقار غنمه: قال الله تعالى «واتل عليهم نبأ ابنتي آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر»، وبعد الطوفان بنى نوح مذبحا لله قرب اليه فيه كثير من الحيوانات وكان يحرقها على المذبح. وكان ابراهيم يتقرب الى الله تعالى بالخبز والحمر، وقد أمره الله أن يذبح له عجلة وعزا وكبشا وحمامة وبعرة (انظر سفر التكوين آية ١٧ و ٩)، كما أمره أن يقتدى ولده الذبيح ككباش يذبحه قربانا، وذهبت على سنته العرب قبل الاسلام، ثم المسلمون من بعدهم في أخصيتهم. وكان بنو ابراهيم يقربون الى الله الذبائح ويحرقونها، حتى أتى موسى فقسم الذبائح الى دُموى وغير دُموى: وهذا القسم الاخير كان ينحصر في الماشية التي كانوا يطلقونها في البرية لله تعالى، ومنها أتت السائبة (١) والبحيرة (٢) والحامى (٣) عند العرب: وهي التي كانوا يطلقونها لاصنامهم، وما زالت فيهم حتى حرّمها الاسلام. ولا يزال شئ من هذه العادة عند بعض خدمة الاضرحة في أرياف مصر: فانهم يرسلون عجلا صغيرا في حقول بلادهم معلنين أنه عجل هذا الولي، ولا يزال سائبا على حرّيته في حقول البلد وما جاورها يأكل مما يشتهي منها، وأربابها لا يجسرون على طرده أو اهانتة خوفا من الولي الذي هو في حمايته،

(١) السائبة الناقة اذا ولدت عشر اناث ليس بينها ذكر سبت فم يرك طهرها ولم يحز وبرها ولم يشرب لبنها الا صيف وتحمّل لآلهتهم.

(٢) البحيرة هي بذ السائبة يحلى سيلها مع أمها بعد أن تشق أدنها.

(٣) الحامى هو الفحل اذا نتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهما ذكر حي طهره وخلى

في ابله يضرب فيها فلا ينفع به بغير ذلك، والعرب يلحقونها الوصيلة: وهي الشاة التي تأمت عشر اناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهما ذكر.

حتى يأتي مولده فيأخذه الخدمة سميئاً معلوفاً و يذبحونه و ينتفعون به (وعجل السيد أشهر من أن يذكر ، كما أن فحل العزب لا ينكره أحد) . أما الذبائح الدموية فكانت تنقسم الى ثلاثة أقسام : الذبيحة المحرقة ، و ذبيحة التكفير عن الخطايا ، و ذبيحة السلامة . وكانوا يحرقون الاولى ولا يبقون منها شيئاً الا جلد هافياً أخذه الكاهن . والثانية كانوا يحرقون منها جاساً والباقي يأكله الكهنة . أما الثالثة فكانت اختيارية ولحمها حل لهم . وكانوا يشترطون في هذه الذبائح أن تكون خالية من العيوب . و اذا عجز الانسان عن تقديم ذبيحة من ذوات الاربع كان يكفي بتقديم ذبيحة من الطيور .

أما الذبيحة عند المسيحيين فهي محصورة في لحم المسيح ودمه اللذين يقدمهما الكاهن في صورة خبز وحمير للمتناولين منهما .

فلما فشت عبادة الاوثان والكواكب في الناس كانوا يقدمون اليها شيئاً من نباتات حقولهم ، و يحرقونها على هياكلهم ، ثم آلى أمرهم الى استعمال النباتات العطرية كاللند والعود وأمثالهما من الاصماغ ذات الرائحة الحسنة . و فشا استعمالها بعد ذلك في الحفلات الدينية على اختلاف أنواعها .

وكان قدماء اليونان يذبحون الملح في قرايينهم لانه كان عندهم رمزاً للصداقة ، كما كان رمزاً لحسن القرى . وكانوا يضعونه مع حب الشعير في سلة و يقدمون منه شيئاً الى الحاضرين : و يظهر أن عادة بعض المصريين من رش الملح في مجتمعاتهم على رؤوس الناس محتطاً في الغالب مع حب القمح ، وكذلك ما يرشونه منه في أسبوع المولود ، انما هي مستمدة من هذا الاصل . أما الرومان فكانوا يقدمون الذبائح الى آلهتهم بكثرة ، وكان الحاضرون يأخذون من لحومها تركاً . و يفرقون منه جاساً على من لم يكن حاضراً من ذويهم وأهلهم : وهي عادة باقية في حجاج الهند والجاوه المسلمين الى الآن . وكانت كهنتهم وقت تقديم ذبائحهم يرشون على الحاضرين بواسطة غصن من شجر الغار عسلاً وماء . وترقى الناس في ذلك حتى صاروا يرشون ماء الورد في اجتماعاتهم ، ولا تزال هذه العادة مستعملة في الحفلات الدينية على اختلاف مذاهبها الى الآن .

ولم تقتصر ذبائح القربان على الحيوانات ، بل بالغ كثير من الامم فيها ، حتى كانوا يقدمون ذبائحهم من البشر كالغنيقيين والكنعانيين والصوريين والفرس والرومان والمصريين وغيرهم ، وما زالت هذه العادة الشنيعة فاشية ، وعلى الخصوص في أور وپا حتى صدر قرار من مجلس الاعيان الرومانى بمنعها سنة ٦٥٧ ميلادية . ومع ذلك فقد استقرت في بلاد الغال و بلاد الجرمان الى ما بعد هذا التاريخ بمدة طويلة .

وكان المنذر بن امرى القيس بن ماء السماء ملك الحيرة يقدم الى معبوده العزى الذبائح من البشر ، ولا شك أنه أخذ هذه العادة عن وثنى الفرس .

وقد كان قدماء المصريين يقدمون الى النيل (وكان من معبوداتهم) في يوم ١١ بؤونه من كل سنة عادة من فتياتهم ، و بعد أن يزنيوها باحسن زينة يغرقونها فيه استمطارا لرحمته بهم . وما زالت هذه العادة السخيفة حتى أبطلها عمرو بن العاص و وافقه عليها ابن الخطاب رضى الله عنهما ، كما هو مبسوط في المفريزى في الكلام على مقاييس النيل وزيادته . وكثير من المعجائز المصرية الى الان يعملان عروسة من الطين و يغرقها في اناء من الماء في هاته الليلة التى يسمونها ليلة النمطة ، و يزعمن أن ماء الااء اذا زاد ثانى يوم عما كان عليه ، كان النيل عاليا في سنته والا فلا . ولا شك أن هذه العادة صورة بسيطة من التى أبطلها عمرو . ومن هذا ترى أن المسلمين كانوا أسبق الامم في تحريم الذبائح البشرية . وهم يسوقون ذبائحهم الى البيت الحرام بمكة في حجهم و يسمونها هديا ومعناه الهدية . وهو اما من البدن (الا بل) ، أو البقر ، أو الغنم ، والا بل أحسنها ، و يشترط ألا يكون عمرها أقل من خمس سنوات ، وألا يكون عمر البقر أقل من سنتين ، والغنم أقل من سنة . وقد قسموا الهدى الى واجب في دم الكفارات ، ومنسوب في دم الشكر . واشترطوا أن يكون دبح الهدى بمنى في أيام النحر وهو الا فضل أو بمكة في غير أيام التشريق ، وأن يفرق لحمه على الفقراء من عباد الله .



DOCKING & ANCHORAGE, CANAL

منظر عمومی لمبنی و آبجکاج میمون قیما

الآثار في منى

يوجد في منى غير مسجد الخيف غار قريب في الجبل الجنوبي يسمى بغار المرسلات، كان يتعبد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، ونزلت فيه سورة المرسلات، ويقصده الناس للزيارة والتترك به. وفي الجبل الشمالى منها مغارة يقولون ان ابراهيم عليه السلام سكن فيها مع هاجر، ويبلغ طولها ٤ متر وعرضها متران ونصف، وعلى يمين الداخل فيها كهف تقرر في جوف الجبل. ومن خارجها مصلى في مكان يقولون عنه انه مذبح اسماعيل، وبجوارها صخرة كبيرة في جوف الجبل فيها فلح كبير، يزعمون أن تلك السكين التي أراد أن يذبح بها ابراهيم ولده فلتت من يده رحمة بالذبيح فعاصت في هذا الصخر ففعلته على ما ترى، وهذا الاعتقاد باق بمكة الى يومنا هذا ! ولو ادعوا أن هذا الفلح انما هو ناشئ عن حادث طبعى، واختاره ابراهيم مذبحاً ليسيل فيه دم ولده حتى يسمع صوته في عالم السموات اعلانا بصدقه بامر الله وكمال طاعته له، لكان أولى. وبقرب هذه المغارة يقيم حجاج الهند ولهم فيها اعتقاد هائل : فتراهم هناك وقد فرشوا على الحصباء خارج خيامهم وداخلها شطرات نيشة من لحم الاضحية، وبعد جفافها في الشمس يحتفظون عليها و يأخذونها معهم الى بلادهم هدية مباركة مقدسة لمن كان عزيزا عليهم. وأظن أن هذه عادة قديمة للعرب كانوا يقومون بها في أيام منى ومنها سميت بإيام التشريق أى التفديد. وهى الثلاثة الايام التي تعقب يوم النحر، وقد مررت في باب القربان مثل ذلك في عوائد الرومان ولعلمهم أخذوها من اليونان، وهؤلاء أخذوها ضمن العوائد الكثيرة التي أخذوها عن الهندو أنفسهم فيكون أصلها منهم ومرجعها اليهم. ولو علموا أن أجرهم من ذلك انما هو ما يصيبهم من الامراض التي تنشأ عما يحدث من مكروبانها الضارة لكانوا ألقتوا بها الى بطونهم من يومها، خصوصاً وسوادهم في حاجة اليها لكثرة الفقراء فيهم. وعلى كل حال فقراء حجاج الهند في غاية من الوساخة، ومن وسطهم تظهر الامراض والاوشة وفتك بهم فتكاذر يعبأ ولا قدرة لهم على مقاومتها لان غالبهم في سن الشيخوخة.

خروج الجناب العالى الى عرفة

وافاضته منها

فى صباح يوم التروية خرج الجناب العالى من مكة الى عرفة ، راكباً جواداً كريماً وهو بملايس احرامه . وسار فى موكب رهيب ، ومن خلفه رجال معيته الكريمة من ملكيين وعسكريين ، يتقدمهم دولة البرنس كمال الدين والكل محرمون . وكان فى رفقة سموه سعادة عبدالله بك نجل الشريف . ومعه كثيرون من عليّة الاشراف وحضرة مكتوب بجى الولاية وياوران دولة الشريف ، وفى مقدمة هذا الركب الميمون فصيلة من عساكر الحرس الخديوى السوارى بجزاريهم تحفّق عليها البنود ، ومن ورائها فرقة من جند البيشة على هجنهم وهم يضربون نوتهم ويوقعون عليها أناشيدهم ، ويحيط بالركب جميعه فرقة أخرى من الحرس الخديوى . ولما تجاوز حفظه الله المعلى ، مر على جنود الدولة وهى واقفة وقفة الاحتشام لتقديم واجب السلام والاعظام ، وطلقات المدافع تدوى فى فضاء هذا الوادى احتفاء بمقدمه الشريف فحياهم سموه تحية الشاكر ، وسار حتى اذا حاذى جبل النور ، وقف برهة مستقبلاً فيها هذا الانزال النبوى الكريم ، قرأ فيها الفاتحة ودعا الله تعالى بما شاء . وما زال حتى وافى صيوان الشريف الخصوصى بمنى ، وقد كان خصص لجنابه العالى ، والى يمينه الصيوان الخديوى يتلوه صيوان دولة البرنس ، ثم صواوين دولة الشريف والوالى وحاشيتهم . وكانت خيم المعية السنية ، وباقي الحاشية قد نصبت فى الجانب الآخر من الطريق على يسار السالك الى عرفة . وبعد ما استراح حفظه الله فى صيوانه ركب قبل الزوال وسار فى حاشيته الكريمة الى مسجد الخيف فصلى به الظهر ، ثم سار لزيارة دولة الوالدة بمنزل دولة الشريف الذى جهز لاقامتها فيه بمنى ، وعاد سموه الى مقره بعد صلاة العصر ، وما زال هناك والمحمل وجيوش الجميع تمر بين يديه الكرى عتتين الى عرفات ، حتى ركب حفظه الله بعد صلاة الصبح يوم ٩ ذى الحجة فى موكبه الحافل قاصداً عرفة ، وسار تحذوه العظمة والفخامة ، وفرقة الأعراب من

أمامه تضرب نوبتها ويوقعون عليها بنشيدهم الرخيم ، وأصوات الخلق فيما بين ذلك تملو بالتلبية وراء التلبية . وقد عرج جنابه العالى فى طريقته على مسجد نمره ، وبعد زيارته سار الى عرفة ، فوصلها فى الساعة الرابعة العربيه نهرا ، ونزل الى الصيوان الذى أعده لسموه دولة الشريف فى الجهة الجنوبيه من هذا الوادى . وكان الى جواره صيوان دولة الوالده وخيم حاشيتها ، يتلوها خيم المعية السنيه ، والى جانبها غراب صيوان مولا بالشريف وخيم حاشيته ، وأمضى الجنب الخديوى يومه معتكفاً فى صيوانه ، وبعد صلاة العصر بنحو ساعة ركب جواده وسار الى يساره دولة الشريف ، ومن خلفهما دولة الراس وعطوفة وكيل الولاية وجم غفير من كبار الاشراف ورجال الدولة ، حتى وقفوا حذاء جبل الرحمة ، ومازالوا واقفين هناك حتى أفاض الناس فافاضوا معهم .

وكانت افاضة الجنب العالى حفظه الله من عرفات من الفحامة بالم شاهده لمثل بالمره : فانه بمجرد ما تحرك الحملان سار حفظه الله والى جانبه حضرة الشريف ، ثم من فى معيتهما من الامراء والعظماء يحيط بالجميع سياج من الحرس الخديوى يتلوه آخر من حرس الشريف . ثم انتظم الموكب فسار وفى مقدمة الركب كوكبة من عسكر البيشة بهمجنهم ، وفى وسطهم فرقة منهم تدق نوبتهم ، والباقيون يتغنون بنغمات تدخل رنائها فى القلوب فتملؤها سرورا وحبورا . ومن ورائهم شزيمة من عسكر الحرس ، يتلوها الجنب العالى وحضرة الشريف يتلوها حاشيتهما ، ومن ورائها فرقة الموسيقى العربيه تعرف بنغماتها الشجية ، ثم رجال الاشراف من حضر وبدو . وسار الجميع فى هذا الموكب الرهيب حتى وصلوا الى المزدلفة ونحن على غاية ما يكون من الراحة .

وكان موكب دات الجلال والعظمة والذ الجنب الخديوى ، وصاحبات الدولة الرئيسيات يسير بعد ركب الجنب العالى . وكان مما يأخذ بالالباب بهاء وسناء : فكانت جنود الحرس المشاة والخيالة تحيط بعرباتهم ، يتقدم الجميع فرقة من عسكر الدولة وجند البيشة بموسيقاها ، يتبعها هودج الحاشية ، وآلاف المشاعل فى جوانب الركب تملأ الجو نورا ، وغناء الضوية والخدم وزغردة نساء الجميع تزيد الافئدة سرورا .

وقد قطعنا المسافة من عرفة الى المزدلفة فى ساعتين ، كان الجناح العالى فى انائها محل أنظار الناس على اختلاف أجناسهم . والمصريون منهم يرفعون له كلما مر عليهم أصوات الدعاء وعبارات الولاء . وكانت قد أعدت هناك الخيام ونصبت الصواوين لنزوله حفظه الله اليها مع دولة الوالد وحاشيتهما ، فقضوا فيها ليلة النحر فى صفاء وهناء . وبعد صلاة الصبح نزل جنابه العالى فى موكبه الى منى ، فرمى جمره العقبة ، وذبحت الضحايا الكثيرة بحضوره حفظه الله ، وتحلل من احرامه (لبس ملابسه العادية) ، ثم نزل الى مكة بموكب حافل ومعه دولة الشريف ، فصليا العيد فى الحرم الشريف بالمقام المالكى ، وطاقا طواف الاقضية ، ثم تناول سموه طعام الغداء فى دار الامارة ، وعاد بعد صلاة العصر الى منى فى موكبه الفخيم .

أيام الجناح الحديوى بمنى

— والاحتفال بتلاوة فرمان الشريف بها —

ما برغت شمس يوم الجمعة ١١ ذى الحجة الموافق ٢٤ ديسمبر حتى التفت الجنود التركية والمصرية حول المصطبة الكبرى التى كانت عليها سرادقات سمو خديوينا المعظم ودولة الشريف وسعادة وكيل الولاية ، يتقدم كل فرقة موسيقاها استعدادا للتشريفات بحفلة تلاوة فرمان دولة الشريف . وفى الساعة الثانية العربية تنهارا اصطفت رجال المعية السنية فى الجهة اليمنى من الصيوان الكبير المعد للجناح العالى الحديوى . وكان دولة الشريف أرسل بعض حاشيته لما لالة الوفد الحامل للفرمان والحلعة السنية ، ثم سار الى صيوان الجناح العالى وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث ، حتى اذا وصل الوفد الى سلم المصطبة ، خف الجناح العالى ومعه مولانا الشريف نحو السلم ، واستقبلا الفرمان بتقبيله ، ثم قصد الكل الصيوان الحديوى وجنابه العالى فى مقدمتهم . ولا يخفاك ما فى هذا الترتيب من المعنى الدقيق اللطيف الذى يشير الى علو مكانة جنابه الرفيع ، وأن مقامه هنا هو المقام الاول ، ومنزله هو المنزل

الاجل . فجلس حفظه الله فى صدر المكان ، وعن يساره دولة الشريف ثم نائب الوالى ثم أنجال الشريف ثم عليه الاشراف ، ومن خلفهم مشايخ القبائل العربية وصاحب الفضيلة مفتى وقاضى مكة وكثير من علمائها وأعيانها ، ثم رجال العسكرية العثمانية وفى مقدمتهم سعادة ناظم باشا قومندان قوة الحجاز . وجلس على يمين الجنب العالى دولة البرنس كمال الدين باشا ، ثم أصحاب السعادة شفيق باشا وعزت باشا وخيرى باشا ثم موظفو المعية السنية ، يليهم مستخدمو قوة الحمل الشريف المصرى . وهناك توسط ساحة الصيوان عزتو مكتوب بحجى الولاية وأخذ فى تلاوة فرمان الذى كان يمسك بطرفيه اثنان من التشرىفاتية فتلاه بالتركية ، وعند ما أتى على لفظة الخلافة السنية التى قدمها جلاله السلطان (محمد الخامس) الى دولة الشريف فكها أحد المهمندارين من غلافها الاطلسى وألبسه اياها . وبعد تلاوة فرمان قام كاتب يد الشريف وتلا ترجمته المرسله معه بالعربية : وخوها أن مولانا السلطان حفظه الله لما يعلمه فى دولة الشريف من أصله الرأى ، وعناو الكعب فى حسن الادارة ، وكمال الدراية ، ومحاسن الاخلاق ، وواسع المعرفة وكرم السجايا ، ومحامد الخصال ، ومعالى الفضائل ، ووجه دولته مركز الشرافة العظمى ، وهو يرجوه على الدوام مساعدة حجاج بيت الله الحرام ، والقيام بكل ما فيه راحتهم وصحتهم ، مع تأمين الطرق وتسهيل المواصلات والضرب على أيدي الخارجين من الاعراب عن الصراط السوى المستقيم . ولقت نظره الى الدقة فى صرف المرتبات وتوزيع الصدقات على أربابها بكل ضبط ، مع مساعدته لما مورى الدولة من عسكريين ومالكين على أداء وظائفهم . وكان كلما ذكر اسم واحد منهم ألبسوه كركا ، حتى اذا تمت الحفلة أمر الجنب العالى فاديرت أكواب الشربات على الجميع ، وبعد شرب القهوة اصرف الشريف مودعا من الجنب السامى بكل تحلة واحترام .

ومما يجمل بنا ذكره تلك الالهاب التى وردت فى هذا فرمان موجهة من قبل صاحب الخلافة العظمى الى دولة الشريف حتى تعرف مكانته السامية : « جناب الامين الامجد ، الاجل الاوحد ، المقتنى آثار أسلافه الاشراف ، من آبائه الغر صناديد آل عبد مناف ، وأجداده الحميدى السير الجميلى الاوصاف ، فرع الشجرة الزكية النبوية ، طراز

العصبة العلوية المصطفوية، المنتمى الى أشرف جرنومة علا عنصرها ، والمنتسب الى أنفـس أرومة غلا جوهرها ، زبدة سلالـة الزهراء البتول ، عمدة آل بيت الرسول ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى من أعظم وزراء سلطنتنا السنية، الحامل لنشأنى الافتخار المرصع العثمانى والمجيدى ، وزيرى سمير القفانة أمير مكة المكرمة الخ »

وعلى هذا يجدر بنا أن نسوق اليك شيئاً من الالاقاب التى كان يكتب بها الى أمير مكة فى عهد الدولة البحر كسية : فقد ورد فى صبح الاعشى فى رسم المكاتبـة الى أميرها هذه العبارة : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الاميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، العضدى ، النصيرى ، الذخرى ، العونى ، المقدمى ، الاوحدى ، الظهيرى ، الزعيمى ، الكافى ، الشريفى ، الحسينى ، النسيبى ، الاصيلى ، العلانى (الحسينى مثلاً) ، عز الاسلام والمسلمين ، سـعد الامراء فى العالمين ، جلال العترة الطاهرة ، كوكب الاسرة الزاهرة ، فرع الشجرة الزكية ، طراز العصبة العلوية ، ظهير الملوك والسلاطين ، سيب أمير المؤمنين ، لازال حرمة أميناً ، ومكانه مكينا ، وشرفه يبيض له بمجاورة الحجر الاسود عند الله وجهاً ويضئ جبيناً ، صدرت هذه المكاتبـة من المجلس العالى تحمل اليه سلاما تميل اليه الركائب الخ » .

ومنـه ترى ما كان وما يكون لمركز الشرافة العظمى من جليل المقام وعظيم الاحترام لدى الملوك والسلاطين . وليس هذا بغير فى بابـه فحسب هذه الاسرة فخراً أن عائلـة اشرف اف مكتـة اقدم اسرة^(١) شـى يفتـى فى العالم

(١) لان هذه الاسرة الشريفة تصعد حلقات سلسلها من عرشك الى نبيا محمد صلى الله عليه وسلم : وكل فرع من فروع هذه الشجرة الكريمة النبوية ، يترك الوالد لله الى ولده من مـدا الاسلام الى يومنا هذا ، نسبته الى هذه العترة المباركة ، ارتناميا لا يصاحبه عنده فى منزله شىء بالمره . ويوجد كثير من هذه الفروع فى بلاد الاسلام وعلى الخصوص عصر التى كانت محط رحال آل البيت رضى الله عنهم ، ولكل فرع سـلسلة نسب توصلهم الى أحد سبطى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : السادة الحسينيون ، أو الحسينيون مثلاً . وهذه النسب مسجلة فى دوائر مخصوصة عند قـب الاشراف ، ولاربابها مرتبات تصرف اليهم سنويا فى مواعيد يعلن عنها فى الحرائد اليومية . ومن هذا تعلم من غير شك أن نسب هذه العائلة نوصوله الى النبي صلى الله عليه وسلم يصعد الى أربعة عشر قرناً تقريباً .



BOEHME & ANDERER, CARO

الاحتجاب العالی الخدیوی و ہومتوجہ لدرزیراۃ الدیپلوماسیہ کی کانٹا انتفاہ امام خدیو

وبعد تلاوة فرمان خرج سمو أفندينا الخديو حفظه الله مع دولة الشريف الى رصيف المصطبة ، وفي أثرهما جميع رجال المعية السنية و رجال الشريف والدولة وموظفو المحمل الشامى ، حيث استعرضت جنود القوة الحجازية يتبعها حرس المحمل الشامى ، ثم الحرس الخديوى يتبعه حرس المحمل المصرى . أما الترتيب والنظام فى القوتين الاخيرتين فقد كانا مما دهش له جميع المتفرجين من ملكيين وعسكريين وخصوصاً رجال الدولة : حتى أن رئيس قوة الحجاز رأى أنه لا يحسن سكوته عن الاعتراف بذلك ، وأبدى اندهاشه من النظام العسكرى المصرى . وكان دولة الشريف وسعادة وكيل الولاية يبدیان اعجابهما مما شاهداه ، وشكر اللجناب العالی الخديوى عنايته الكبرى برقى حكومته السنية . ومما يذكر بالمناسبة

وحيث ان السايين والمؤرخين قد حققوا بالاجماع أن نسبه عليه الصلاة والسلام يصعد الى عدنان فلا يكون هناك أى شك في تحقيقهم نسه اليه . لان الانتساب كان من الحصصات التى امتازت بها العرب على سائر الامم ، وهو من خصائصهم الى الآن . وكلما كان انتسابهم الى جد أعلى (أعى كلما كانت حلقات سلسلة نسبهم أكثر) كان محدهم أعظم ، وأصلهم أكرم . وقد أجمع المسلمون من مبدا الاسلام الى يومنا هذا على صحة هذا النسب العالی ، وهم يحفظونه عن طهر قلب من نمومة أظفارهم وهاك هو : محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وحيث انه من الثابت فى التاريخ أنه كاب لعدنان واقعة مع بحصر في مبدا القرن السابع قبل المسيح ، فتكون المسافة بين حلقة السلسلة الحالية (أى الموحودة فى يومنا هذا) والحلقة العدنانية نحو ٢٦ قرناً . واد ا حاربنا السايين الدين أوصلوا نسب عدنان لاسماعيل بن ابراهيم ، وقالوا ان عدنان بن اده بن ادد بن الهيمس بن سلامان بن بنت بن حمل بن قيدر (ثابت) بن اسماعيل ، كانت المسافة بين الحلقة الحالية من هذا النسب الكريم والحلقة الاسماعيلية أكثر من سبعة وثلاثين قرناً .

على أنالو وفقاً بنسب هذه الاسرة الشريفة عند الحلقة النبوية ، فانها تكون أعرق الاسر (العائلات) الموجودة على طهر البسيطة حسباً ، وأقدمهم نسباً : لان الاسر التى يحترمها التاريخ فى أوربا ويجلها المرجح عامة ، ويعظمون شأنها المحرد اصالتها حسبها ، وعراقاتها نسبها ، لم تطهر الا بعد أسرة الاشراف بمكة بقرون عديدة : اذ لا يخفى ان أسرة التربون (Bourbon) التى هي أقدم أسرة أوربية ، والتى تشتمل حكمها فى فرنسا وإيطاليا واسبانيا ، لم يبدئ تاريخها الا فى سنة ٩١٣ بميلاد . ويلو ها أسرة هابسبورج (Habsbourg) التى لها الحكم الآن فى النمسا ، ويسدى تاريخها من سنة ٩٥٤ ميلاديه . ثم أسرة السعواى (Savoie) التى منها ملوك إيطاليا الحاليون وتبدي من سنة ١٠٢٧ . ثم أسرة ملوك آل عثمان وتبدي من سنة ١٢٧٧ . ثم أسرة قيصرية روسيا وهى أسرة رومانوف (Romanov) وتبدي من سنة ١٥٤٧ ميلاديه .

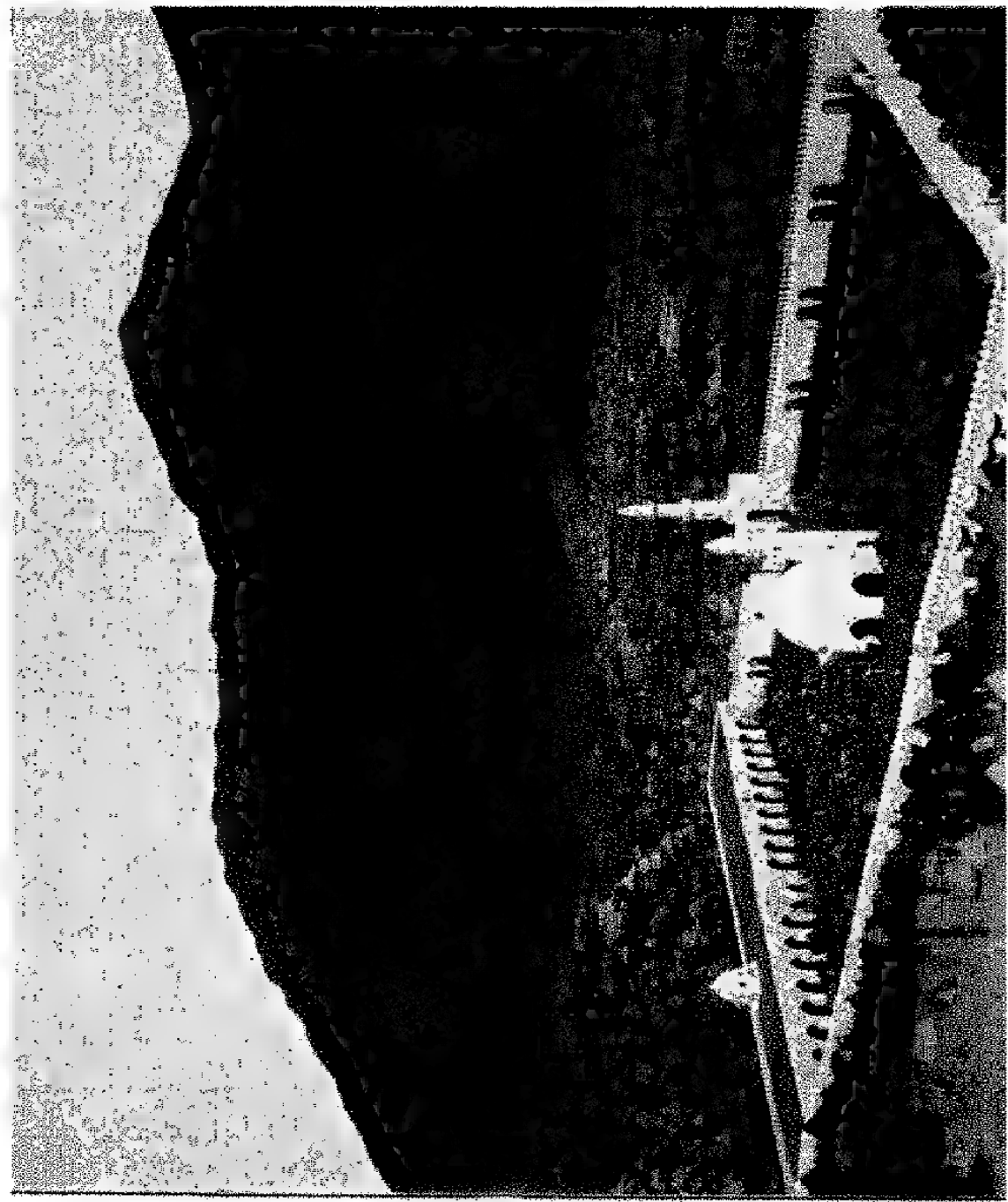
للجناح العالى أثناء ذلك ، أنه لاحظ منه التفاتة فرأى عسكر على بن دينار (سلطان دارفور) ، مع رئيسهم الذى أتى بحملهم ، وراء صفوف الناس من بعد ، فارس فاستحضر رئيسهم ، وبعد أن لطفه وحياء بما يليق بكرمه ، أمره بحفظه الله بان يسير بجنده فى هذا الاستعراض ، فسار يتقدم رجاله الذين كانوا يحركون حراهم على نغمة الموسيقى بحماسة كأنهم يتحركون الى حرب أو طعان .

وفى نهاية الاستعراض قصد الجناح العالى صيوانه ، وبعد ما استراح قليلا ابتدأت التشرىفات العديدة للجناح الرفيع : فتقدم العسكرون يتلوهم الملكيون من رجال المعية السنية وغيرهم ممن حضر لاداء هذا الواجب من وجهاء المصريين ، ثم موظفو الحمل المصرى ، وتشرف الكل بلثم راحته الكريمة ، داعين له بطول العمر وكمال السعود والرفاهية ، وهنئين نفر بضعة الحجج الشريف . ثم تلا ذلك العدد الكثير من الاشراف وعظماء مكة وغيرهم من كبار الحجيج ، وكانوا يقدون على سموه بواسطة دولة الشريف ، فيقدمهم الى جناحه العالى تارة أحد أبحاله الكرام وأخرى أحد رجال تشرىفاتة أو ياورانه . وكان حفظه الله يقابل الجميع بصدر رحب ، وثغر باسم ، ووجه باش ، مما جعل الكل يخرج من حضرته داعياً شاكرام . وفى أثناء هذه المقابلات كانت تعزف فى أطراف المصطبة موسيقات الحرس الخديوى ، والحمل المصرى ، والشامى ، وموسيقى القوة العسكرية الموجودة بمكة ، والى جانبها المزمار البلدى ، تتخلل نعماتها طلقات المدافع وهتاف الحجيج بصوات السرور والخبور من كل جانب بما لا يمكن وصفه .

وبعد تمام التشرىفات قصد الجناح العالى صيوان الشريف لرد الزيارة وتقديم واجب التهانى ، فاستقبله دولته من خارج الخيمة بكل ما يمكن من واجبات التبجيل والتعظيم وأجلسه فى صدر المكان وجلس عن يسار سموه . وهناك دخل رؤساء الديوان الخديوى يتبعهم جميع الموظفين المصريين وعسكريين وملكسين لتهنئة دولته ، وكان الجناح العالى حفظه الله يقدمهم لسيادته واحداً واحداً كلاً باسمه ، وبعد شرب الشرابات انصرفوا الى أماكنهم ، وتوجه الجناح العالى محاطاً برؤساء معيته الكريمة الى خيمة وكيل الوالى ، فاستقبله بغاية

مستجد الحرف ومحمد الحجازي

BOHME & ANDERER, CAIRO



الاجلال والاحترام ، و بعد تناول المرطبات وشرب القهوة توجه حفظه الله الى صيوانه ومكث فيه يستقبل وفود المهنيين الذين كانوا يتقدمون اليه بواسطة دولة الشريف أو بعض حاشيته .

و بعد الظهر زار دولة الشريف ومعه عطوفة وكيل الوالى معسكر المحمل المصرى ، فقو بلا بما يليق بمقامهما من الاحترام بين اطلاق المدافع وعزف الموسيقى بالسلام الشاهانى . و بعد صلاة العصر ركب الجنب العالى ومعه دولة الشريف فى موكبهما الفخم لرمى الجمرات ، ثم عادا الى مقرهما . وفى المساء كان الجنب العالى الخديوى قد أعد وليمة فاخرة لسيادة الشريف ومعه ثلاثون من عظماء قومه ، و بعد صلاة العشاء حضر المدعوون يتقدمهم سيادة الشريف فاستقبلهم الجنب العالى بما جبل عليه من الاليناس ، وكان رجال التشريفات الخديوية يقومون بالخدمة اللازمة ، و بعد مأكلوا مالذ وطاب هنيئا مريئا رفعت الموائد ، وجلس القوم للسمر ساعة من الزمان ثم خرجوا شاكرين للجنب العالى كرمه ، ذاكرين فضله وآدابه ، داعين مبتهلين الى الله بان يكثر من أمثاله فى أمراء المسلمين وملوكهم . وكانت فى أثناء هذه الحفلة موسيقى الحرس الخديوى تشف أسماع الحاضرين ، وسهام الالاب النارية تشق كبد السماء فتزيد دراريها زينة على زينتها ، وسواقىها النارية تنثر فى فضاء الارض تبراها المتلهب فيريدها نورا على نورها . وكان آلاف المتفرجين من عرب وعجم ومغاربة ومصريين وسودانيين وأتراك وجاوه وهنود وغيرهم ، فرحين مبتهجين مهللين مندهشين لهذه المظاهر البديعة التى لم يسبق لها نظير فى منى بل ولا فى جميع هذه الديار . وكان أكثرهم دهشة من سبق له الحج قبل هذه السنة : وحقيقة فان هؤلاء هم الذين كانوا يحسون بالفارق بين الحج فى السنين الماضية ومظاهره فى هذه السنة المباركة . وما زال الناس فى سرور وحبور الى نصف الليل ، ثم انصرفوا وكلهم داع بعزة الاسلام ونصرة أمراءه وتوفيقهم .

وقد أمضى الجنب العالى يوم ١٣ ذى الحجة فى زاور مع دولة الشريف ووكيل الولاية واستقبال بعض الزائرين ، و بعد صلاة العصر نزل الى مكة فى موكبه الفخم . وبالجملة فقد كان سموه بمضى محطاً للرجال ، ومكانا لتحقيق الآمال ، ومنهالا للخيرات ،

ومصدر اللحنات ، وكان صيوانه على الدوام غاصاً بالزائر من عظماء الحجيج على اختلاف أجناسهم .

مواكب الشريف

يركب دولة الشريف في مواكبه الرسمية على النظام الاتي :

تتقدم فرقة من الخيالة والقرابة ، ثم جماعة من المهجانة من عرب البيشة ، ثم بعض السياس تتلوهم الجنائب : وهي جملة أفراس عربية يتلو بعضها بعضاً ، يقود كلا منها سائسان : واحد الى اليمين والآخر الى اليسار ، ومن وراء الافراس بعض البغال ، وعلى السكل الرخوت الذهبية . ويعقب ذلك عربة يحرها زوج من الجياد ، ومن خلف العربة بمسافة خمسين مترأدولة الشريف على فرس مرخوت ، يحيط به الخدم والحشم وغيرهم من الخزنحية (الخزندارية) ، ومن على يساره مائلا الى الورا قليلا حامل الشمسية على حصانه : وهي شمسية كبيرة من الحرير المزركش بالقصب ، والكثير المذهب ، وقطع التبر المثقّب (الثرثر) ، يتخلل ذلك كثير من القصوص الكريمة الجميلة . ولهذه المظلة وضع خاص بها : تكاد تكون نصف كرة منتظمة ، قطرها نحو متر ونصف ، وقائمها من المعدن الابيض ويطول حتى يرتكز في ركاب حامله أثناء السير ، ويثبت في الارض أمام صيوان الشريف اشارة الى وجوده في محله ، وهذا يغني عن رفع العلم عليه وان كان للشريف علم أحمر خاص به .

ويسير من وراء الشريف الجم الفقير من السادة الاشراف ، يتلوهم أعيان مكة على خيلهم أو حميرهم ، والسكل على بسهم الرسمية ونياشينهم ، يتخلل ركابهم الخدم والحشم والعبيد ، ومن خلفهم ضاربو النوبة : وهم موسيقيون عربيون راكبون على خيلهم يضربون بالزمار البلدي والنقرزان ، يحيط بهم عرب البيشة على هجنهم وهم يتغنون من وقت الى آخر باغنية حماسية

على نعمة الموسيقى ، ولا يزال الموكب سائراً على هذا النظام حتى يصل الى المكان الذي يقصده دولة الشريف .

ونظام هذه المواكب عادة قديمة في ملوك الشرق : وقد كانت تركب فيها على المثال المتقدم الخلفاء من العباسيين والفواطم وملوك الجراكسة وغيرهم مما تراه مبسوطاً في المقرئ وغيره . وكانت هذه الشمسية تسمى عند الفاطميين بالمظلة وحاملها كان من كبار القوم وله مكانة مخصوصة ، ويسمى بحامل المظلة ، وبعضهم يسميه حامل القبة . وقد رأيت في تاريخ السودان لشقير بك في الكلام على دارفور ، أن أميرها علي بن دينار يركب في احتفالاته الرسمية بما يقرب من هاته المواكب . وهاك نص عبارته تحت عنوان ركوب السلطان » وقبل الظهر بساعتين يركب السلطان جواداً مزركش العدة ، وأمامه العساكر الحاملون الاسلحة المارية مشاة ، ومن ورائه الخصيان راكبين الخيول ، وبينه وبين الخصيان بعض الحياض بسروج الرهط كاملة العدة يقودها السياس خلفهم صفافاً واحداً ، وعن جاني السلطان نفر من المشاة يتناوبون حمل مظلة واسعة تظله وتظلل جواده ، وهي مصنوعة من أنسيج متين مطرز بالقصب ومبطن باطلس مختلف الالوان كل شقة بلون ، تتدلى من أطرافها شرار يبقصب ، ولها يد طويلة من خشب متين مغشاة بنسيج ملون كل شر بلون « اه .

سفر الحجيج من مكة

بعد النزول من عرفة ينتظر الحاج في مكة صدور أمر الشريف بسفر الحاج منها ، ولا يكون ذلك في الغالب الا في الاسبوع التالي لنزولهم من حجه . والفرض من هذا التأخير رواج تجارة هذا البلد . فاذا جهز الانسان نفسه سافر الى المدينة المنورة ، أو الى بلده ان كان سبق بالزيارة قبل الحج أو شغله عنها شاغل : فينزل مع القافلة الى جدة ومنها الى حيث يريد .

وعلى كل حال فالك ترى مكة اذ ذالك في حركة هائلة بالجمالة وجمالهم وهي مجهزة للحمل غادية رائحة ليلًا ونهارا في طرق مكة وعليها شقادفها ^(١) ومحفاتا وسحلياتها : لان هذا هو الموسم الوحيد الذي يستقدمه هؤلاء الاعراب حياتهم بواسطة هذه الابل التي هي رأس مالهم الوحيد، بل هي حياتهم بجميع معانيها : فهم من البانها ولحومها يأكلون، ومن أوبارها وجلودها يلبسون، وبرونها وبعرها يدقثون، وهي مركبهم ومحملهم في هذه المسافات الواسعة الشاسعة، التي لا يمكن غيرهما من جنس الحيوان أن يقوم بالمأمورية التي تقوم هي بها في وسطهم : ذلك لان الحمل سفينة الاسفار في القفار، وله قدرة على احتمال مشقات الحياة الصحراوية، خلقه الله مقوس الظهر لا احتمال الاثقال، وجعل خفقه واسعا مدورا طريا حتى لا ينزلق على الاحجار ولا يسوخ في الرمال، يحتمل العطش أياماً (وزعم بعضهم أنه يحتمله شهرين) : لان القدرة الالهية جعلت له أربع معدات لهضم الغذاء، يعقبها تجويف كبير يخزن به الماء، فاذا نفذ ما فيه رجعت اليه عصارة مائية من الاوعية الكثيرة التي حوله مما يأتي اليها من رشح البدن (وتقدر بعشرين لتراً) . ويساعده على احتمال العطش انه كغيره من المجترات، له خاصة اخراج الغذاء من معدته الى فيه، بواسطة ضغط عضلات المعدة على بعضها، فتقلص وتطرد الغذاء الى فيه فيلوكه : ومن هذه العملية تتنبه غدد القم واللسان والزور فتفرز من اللعاب ما يلطف من غلته ويخفف من عطشه . والحمل يحتمل الجوع أيضاً

(١) الشدوف عبارة عن سريرين من الحشب وقاعدتهما من الحبال على مثال العجرب، وعلى حافة كل سرير من الحشب الخارجي والحلبي شبكة من عيدان اشجار السنط بحيث اذا ضم السريران الي بعضهما على ظهر الحمل بحال متينة يكونان قبة يغطونها بشيء من الحشيش وركابها يصعدون عليها في العال بعض الاكلة المعرية أو التركية فيراك من الشمس والمطر . ولو كانوا يعطونها في الشتاء بشيء من المشمع كانت الفائدة أكبر وأعظم . والشدوف يسع غريبن وبمكتهما أن ياما فيه كما يمكن أن يجلس فيه الراك على راحته بواسطة مخدات صغيرة خفيفة يصمها على ما يحب . والحمة هي كرسيان من الحشب اذا ضما الي ظهر الحمل جلس فيهما راكبان على مثال حلوتهما على الكراسي ووجههما الى رأس الحمل، وأغلب ما ترى المحمات في الرك الشامي . أما السحلية فهي سرير من أسرة الشدوف شد على ظهر الحمل مستعرضاً ويجلس فيه مران وهي في العال من غير مظلة ويرك فيها الفقراء من الناس وخصوصاً من اليهود الذين يحملون حرارة الشمس .

أياماً متعددة بتغذيته من الدهن الذي في سنامه ، ولهذه المزية الكبرى استُخدم في الحروب من زمن بعيد جداً ، ولِفرق الهجّانة المصرية في فتوحات السودان شأن يذكّر فيشكر . وغذاء الجمل في بلاد الحجاز أمان الحشيش أونوى البلح أو اللبن ، وقد رأيت بعضهم يلقمه الثريد المصنوع بمرق اللحم ، وبلغني أن عرب السواحل تلقمه السمك نيئاً . والعرب يقولون أن أنثى الجمل تعرق من جميع جسمها ، أما الذكّر فانه لا يعرق إلا من دوماته وهي شعر بين أذنيه ، والبدو يشبعون فتيلة قد يحترقهم بعرق جماهم فتصير سريعة الاشتعال بمجرد ضرب الزناد عليها . وجمال الحجاز صغيرة ضئيلة في الغالب ، والتي اقابلت حرب منها هي المتعودة على الحمل . أما التي لغيرها من القبائل وخصوصاً البعيدة عن مكة والمدينة فانهما غير معتادة على الاحمال وبعاني ركابها مشقة جسمية وخصوصاً ركاب الشقّادف . ويوجد غير الحمل في مدن الحجاز وعلى الخصوص في مكة والمدينة كثير من الحمير الحساوية (الحصاوية) المتينة ، ويؤتى بها من بلاد الحسا في شرق بلاد العرب . ومع ما هي عليه من السرعة في السير . فانها تحتمل المشي في هذه الصحراء ثلاثة أو أربعة أيام متتالية . ويمكنها أن تمشي في اليوم نحو مائة كيلو متر من غير أن ترى عليها أثراً كبيراً من التعب . وغالب هذه الحمير لا يخلو جلدّها من الرص . ويوجد هناك أيضاً بغال متينة يؤتى بها على الخصوص من بلاد الشام أو العجم . والخيول في هذه المدن قليلة ، وهي تتحمل أيضاً مشقة السفر هناك أياماً متوالية ، وجسدها ليس بالجيد لان الجنس الطيب محصور في جهة نجد ولا يهرطون فيه إلا بأثمان غالية ، وعلى كل حال فإن الجنس الطيب من الخيل في نجد قليل الآن جداً : لان الانكليز بالهند يشترون منه كل سنة عدداً كبيراً يستعملونه في الغالب في المسابقات و يأخذون من نسله من أفراسهم نسلاً مختلطاً قوياً متيناً .

الطريق الى المدينة

تقوم قوافل الحجاج من مكة الى المدينة المنورة : فيسيرون في واحد من أربع طرق على حسب تبعية المقوم والجمالة اليها . وهذه الطرق هي : السلطاني — والفرعي — والغاير — والشرقي .

والطريق السلطاني هو أحسنها سيراً وأكثرها ماء . فاذا قامت القافلة منه خرجت من باب العمرة وسارت الى الشمال الغربي وتمر على المحطات الآتية :

وادي فاطمة — ويجري فيه ماء عذب يأتي من السيول التي تنزل من جبال الطائف ، وبه مزارع كثيرة ، ويسكن فيه عرب الاشراف من ذوى حسين وذوى غالب ، ويسكن في المنطقة التي بينه وبين مكة الى بحرة بنو لحيان .

عسفان — مأوها قليل وفي طريقها عجمة لا تسع الا جملاً حملاً ، والعرب التي تسكن في هذه الجهة بشور (بشر) وحران .

خليص — بها بئر التفلة ومأوها غزير ويسكنها قبائل زبيد ، ويقرب منها واحة بها مياه جارية وفيها بساتين ونخيل .

القديمة — (القضية) قرية على البحر ومساكنها كواح صغيرة ومأوها من الحفر التي يخزنون فيها ماء الامطار ، وأهلها من زبيدو يشتغلون في الغالب بصيد البحر ومنها يتجه الطريق نحو الشمال .

رابع — وهي قرية على البحر الاحمر وفيها قلعة بها بعض الجند العثماني ، ومأوها من الحفر والآبار وأهلها من زبيد . ويأتي الى مياهها بعض السفن الصغيرة لمشتري ما يصيده أهلها من الاصداف وغيرها ، ويزلون اليها خفية كثيراً من الدخان وغيره من الاشياء الممنوعة وعلى الخصوص الاسلحة وما يلزمها من زخيرتها . ويبيعونها بأثمان رخيصة جداً .

مستورة — مأوها غرض (ومنها طريق الى بدر، الى الصفراء بسمونه الملف) ، ويسكن هذا الطريق قبائل صبح في بدر ، والاحامدة في الصفراء .

بئر الشيخ — وتسكنها قبائل صبح . والمياه على طول هذا الساحل لا ترغى الصابون .
ديار بنى حصاني — مأوها غرض ويسكنها صبح ، والحوازم .

الحسراء — وهي قرية بها نهر عذب وفيها بساتين ونخيل ويكثر فيها البرتقال والليمون والموز والحناء ، ويزرع بها كثير من الخضر كالقثاء والبطيخ وغير ذلك ، ويسكنها الحوازم ، ومنها ينثنى الطريق الى الشمال الشرق .

الجديدة — وهي قرية مأوها عذب وبها قبر ولي الله سيدي عبدالرحيم^(١) البرعي المصري ويسكنها قبائل الحوازم والاحامدة . ومنها يميل الطريق قليلا نحو الشرق .
بئر عباس — ويسكنها جاب من الحوازم وصبوح والاحامدة ومأوها قليل ، ومنها يميل الطريق الى الشرق قليلا .

بئر ویش — ويسكن هذه الجهة قبائل الاحامدة والرت حلة (بكسر الراء وفتح الحاء) .
آبار على — ويسكنها قبائل عوف وعمر و ومأوها عذب وهي على مسافة نحو خمسة كيلومتر من المدينة المنورة ، ويترك فيها القوافل شقادهم وسحاليهم حتى لا يدفعوا عليها قوشانات في دخولها المدينة . ومن يريد أن يدخلها بحمله دفع عليه الرسوم المعتادة من جيبه . وربما طلب منه الجمال أكثر من اللازم فليتبدر .

الطريق الفرعي

والطريق الفرعي يتسدى من رابع متجها الى الشمال الشرق ويمر على المحطات الآتية :
وادي حرشان .

نقر الفار — وهو محجر ضيق منحدر تمر منه الجمال جملا جملا ويسكنه بنو سالم .

(١) وهو المقصود بقول بعض الشاذيين في أغنياتهم «ياسد قل للنبي عبدالرحيم . نحاش» ولعل المرض دهمه في طريق المدينة فمات ودفن بهذا المكان وله ديوان شعر مطبوع كله مدائح الرسول

- بئر رضوان - وماؤها عذب .
 أبو ضباع أو أم ضباع - وماؤها عذب ويسكن فيها بنو عوف .
 الرياض أو وادي الريان - وماؤها عذب وشجرها كثير ويسكنها بنو عمرو .
 القدير - وفيه مجرى ماء .
 وادي المعظم - ماؤه عذب .
 بئر الماشي - ماؤها حلو ويسكنها عوف .
 آبار على .
 المدينة .

طريق الغاير

وطريق الغاير يتبدى من رابع أو من مستورة ويقطع جبل الغاير إلى الشمال وهو أقل هذه الطرق مسافة . فاذا وصل المسافر إلى الغاير صعد من عقبة عالية أشرف على هاوية عميقة طريقها ضيق جداً بحيث لا يسع إلا دابة . وهذا الطريق خطر في صعوده وهبوطه وخصوصاً على الركاب ، ومع ذلك تسير فيه الدواب بسهولة لأنها تعود عليه ، ومسافة الصعود إلى ظهر هذه العقبة لا تقل عن ست ساعات . ويسكن الغاير ومنحدراته ^(١) قبائل اللّهبة ومسروح وهم أشرك العرب على الحجاج . وهذا الطريق يسمونه الطريق المدني ، لأن أهل المدينة يستسهلونه في حجهم لقربه : فيركبون هجنهم أو حيرهم أو خيلهم ويسرون فيه قوافل ، قوافل . ولهم منازل ينزلون فيها حيث يكون الماء ويقبضون بها ريثماً يأكلون ويصلون ثم يستأنفون السير إلى مكة . وكثير من الحجاج الأقوياء الخفاف الانتقال وخصوصاً من المصريين كانوا يصحبونهم من المدينة إلى مكة ، أو من مكة إلى المدينة عقب أيام التشريق مباشرة وينتظرون بالمدينة حتى إذا جاءت القوافل إليها انصرفوا معها إلى ينبع .

وكل حارة من المدينة تكون قافلة تسير تحت زعامة شيخ هذه الحارة ويسمون ذلك

(١) جل القبائل الموجودة في هذه الطرق الثلاثة بطون من حرب .

ركباً فيقولون «ركب فلان حضر الى مكة أو قام منها في يوم كذا» . وكذلك الحال في زيارة أهل مكة للمدينة المنورة قبيل شهر رجب .

﴿ الطريق الشرقى ﴾

والطريق الشرقى يخرج من مكة من باب المعلى ويتجه الى البياضية ثم يسير في طريق شمال طريق منى ويتجه الى الشرق ويمر على المحطات الآتية :

بئر البارود - مأوها عذب .

وادي اللبىون - ويكثر فيه شجر اللبىون والمارخ واللبيون الحلو ، ويزرع فيه البطيخ والخضر . وفيه ماء جار ينزل اليه من جبال الهدى ويسير في مجرى مبنى الى بساينته وغياضه . ومنه يتجه الطريق نحو الشمال .

الحفار - (الضريبة) مياهها عذبة وقرية من سطح الارض .

بركة سمرة - لا ماء فيها مدة الصيف .

بركة المسلح - (حارة) مأوها غزير وعذب وبساينتها كثيرة .

الحبيط - (الضيعة) .

سُقَيْنَة - (صفيحة) وبها نخل وآبار عذبة .

السويرة جية - (السويرية) قرية يسكنها سادات من بني حسين وبها آبار ومزارع كثيرة .

الحجرية - ويبعد الماء عنها بنحو ربع ساعة .

غُرَابَة - أو غراب وفيها مياه كثيرة على عمق ذراع أو ذراعين من سطح الارض .

الغدير - أو الحنك وبعضهم يكتبها الحنق وفيها بركة كبيرة تملأ من مياه الامطار .

سيدنا حمزة -

المدينة المنورة .

وعربان هذا الطريق من الزيود^(١) واللّهبة^(٢) وعُتَيْبَة^(٣) ومَطِير^(٤) والرَّحْلَة^(٥) وهم أبعد الأعراب عن الحضارة .



نظام القوافل

قلنا ان الحجاج لا يخرجون من مكة الى المدينة الا في ركب القافلة التي تكون جَمَاطَها من أهل الطريق الذي يسرون فيه . وغالبا ما تكون جمال الحاج تابعة لجمال واحد وهو الاحسن ، أما لو كانت تابعة لجمالين فتكون مشغوليته أكبر وتعبه بينهما أعظم . وعلى كل حال فعلى الحاج أن يجتهد في تخفيف أحماله وأنقاله . فإذا اكملت شحنة القافلة نهضت الجمالة بحمالهم وأخذوا يقطرونها في بعضها قطارا واحدا أو قطارين بجوار بعضهما ، وفي المقدمة يكون غالبا أكبر الركب وجاهة وعصبية . وجمال كل رجل تسير من خلفه مقطورة في جماله ، ومنهم من يرى تقدمها على جماله حتى تكون على الدوام تحت نظره خوفا عليها من عبث العاشين . والجمال عندهم ينقسم الى قسمين جمال الشقذف : ويركبه اثنان ومعهما اللازم من فراشهما ومؤتتهما اليومية ، وجمال الحمل ويقال له العصم يحمل المتاع ويركب فوقه رجل واحد أو رجلان ان كان المتاع قليلا . وأجرة العصم في الغالب ثلثا أجرة جمال الشقذف الذي يكون من الجمال المتينة القوية حتى

(١) الزيود شيعة يفسون الى سيدنا ريديس على ريب العابدين . ومن عوائدهم أنهم لا يحسنون بل يسلحون حلدعاتهم وقصيدهم ، ويموت من جراء ذلك منهم خلق كثير ، وأطفال مكة يعيرونهم بذلك .
(٢) اللّهبة مشهورون بالعدو والحياة .

(٣ و ٤) هما من أكثر قبائل بلاد العرب قوة ومعة وأكثرها عددا وأمسها شجاعة ، وأغلبهم لا يلبسون الا المنزعة ، وساؤهم على حارب عظيم من الشجاعة . وقد بلغ من المرأة العيبية أو المطيرية أنها تمسك بيدل الفرس وهو يمدو وتجري معه ثم تصمط على ديله بيدها وتقذف بنفسها فوق ظهره ، وهي كذلك ترك الحمل في عدوه .

(٥) وعرب الرحلة لا يقيمون في محل واحد بل تراهم كما يشير اليه اسمهم منقلبين وراء الكلا من مكان الى آخر .

يتمسكه حمل ما فوقه . وليس لهذه الاجرة من رابطة بل يقدرها الشريف كل سنة باتفاقه مع الوالى ، على حسب أهوائهم ما وتحت رحمتهم بضيق الله ، ثم ينادى بها المنادى فى الاسواق ، ولذلك تراها كالترمو متر ترتفع وتنخفض على نسبة مطامع ولالة الامور بحكمة . ولقد كانت اجرة حمل الشغدف فى سنة ١٣٢٨ ست ليرات عثمانية من مكة الى المدينة الى ينبع ، أما قبل الدستور فقد بلغت ١٣ جنيتها مصر يا ونصفاً ، كانت تؤخذ من الحاج فى مكة بواسطة المطوف ، وهذا عما كان يصيبه من الجمل فى طريقه من طلبه زيادة على الاجرة المذكورة مدعياً بأنه لم يصله شئ من أجرته .

وعليه فاذا كان الحاكمان فى بلاد العرب من الاخير البعيدين عن المطامع ، كانت الجمالة على اخلاقهم ، والعكس بالعكس (والناس على دين ملوكهم) .

والمطوفون بعد أن يتفقوا مع الجمالة على حمل حجاجهم يسافرون غالباً الى المدينة فى قافلتهم بحجة المحافظة عليهم ، وكثيراً ما يفر الجمالة بضعاف الحجاج فيأخذون الاجرة منهم ويخبرونهم بان الجمال خارج البلد ، ويرجونهم فى أخذها من هناك حتى يوفروا عليهم دفع القوشان (كلمة تركية معناها المكس ، وهو عوائد تأخذها الحكومة على الجمال الخارجة من مكة أو جدة أو المدينة أو يدع ، وليست لها قيمة مخصوصة بل ترتفع وتنخفض على نسبة مطامع ذوى الكلمة هناك . وربما بلغت ريالين أو أكثر قبل الدستور مع أن الذى يرد لخزينة الدولة منها ستة فروش عثمانية فقط) . فاذا خرج الحجاج المساكين من مكة لا يجدون الا جمالا ضعيفة ضئيلة ينالهم منها مشقات جسمية ، وكثيراً ما يتركونها ويسرون على اقدامهم جل مسافة الطريق أو كلها .

والقافلة لا تنتظم عادة الا بعد أول محطة حيث ينظم الجمالة جمالهم ويرتبون قطاراتهم التى لا يخالفونها طول سفرهم .

والجمالة فى الغالب نحيفوا الجسم رقيقوا الساقين قصار القامة يكاد أن لا يكون فى جسمهم عضل بالمرّة ، أما عظمهم فهو الحديد أو أشد صلابة ، ولهم قدرة على العدو بحيث لا يلحقهم فيه أحد : ولقد رأيت رجلاً منهم يعدو وراء جمل شارده حتى تعلق بذيله فعاقه عن الجرى ثم أمسك

بزمامه . أما ملا بسهم فهي قيص عليه حزام من الجلد به عادة سكين طويلة أو سيف صغير ، وفي يدهم عصا غليظة قصيرة يسمونها المطرقة وعلى رؤوسهم تلك الصمادة (الكوفية) ^(١) التي يلقونها عليها بأشكال مختلفة . وبعض عرب الشروق واليمن يستعملون غير الطاقية شيئاً من الخوص يشبه البرنيطة الواسعة أن لم يكن هوى و يسمونها الظلة .

وبعض الجمالة يلبس بعلا في رجلاه فيها من حرارة الأرض وحصبائها . أما نظافة ملا بسهم فلا يمكنني أن أقول لك عنها غير أنها إذا اتصلت بجسومهم لا يخلعونها مطلقاً حتى تنخلع هي عنها ، وهذا لا يكون إلا إذا أكل عليها الدهر وشرب . والمترفون منهم يغيرون ملا بسهم كل سنة مرة في موسم الحج ، وبعضهم يلبس عليها عباءة من الصوف أيام الشتاء تقيهم شدة البرد يسمونها مشلحاً . ولون هذه الملابس كلون الجبال أو الرمال : فتراها صفراء قائمة أو حمراء طوبية ، وربما كان اختيارهم لهذه الألوان حتى لا تثرى بسهولة من بعد بل يشكل فيها الأمر على الرائي . وفي ذلك ما لا يخفك من الفكرة التي أساسها الخبث والغدر !! وربما أخذ من هذا الغطية الاستحكامات الجديدة في أوروبا وبابطة ترابية تشبه أرض المنطقة المحيطة بها . وبعض كبراء الحجيج يعطون جمالتهم عباءة من الجوح الأحمر فيفرون بها فرحاً عظيماً ويقع في نفوسهم موقعاً حسناً ويتباهون بها على أقرانهم .

والجمالة بعد ألا تعاد عن مكة يلحفون للحجاج في السؤال ، ويغلظون لهم في الأقوال : فترى أصواتهم هنا وهناك قائلين لركابهم « جرجوش - هله - سكر - جرش » . فيجيبه هذا الحاج أنت أخذت ، ويقول الآخر ما بقي شيء أو ما في معنى ذلك . وهناك يكثر بينهم الأخذ والرد الذي ينتهي بأخذ الجمالة ما يريدون . وكثيراً ما ترى في الطريق بعض أعراب من غير جمالة القافلة ومعهم جمال ضئيلة وهم ينادون (يارو يكب يارو يكب) ويكون ذلك غالباً في المحطات الإلهة بالسكان : وتصغيرهم للركاب في ندائهم لا يخلو من معنى ينطبق على حقيقة من يركب معهم من هؤلاء الذين لم تسمح لهم ذات يدهم بالاستعداد على ركائبهم قبل سفرهم ، ولهذا فانهم يتساهلون في أجرتها كثيراً . وترى ذلك على الخصوص في طريق عرفة .

(١) أظن أن لفظ الكوفية : نسبة إلى الجملة التي كانت تحمل فيها وهي الكوفة .

وعلى طول طرق القافلة ترى كثير من حجاج القور (التكرور) مشاة باطنافهم ، وكثيرا ماترى الام حاملة طفلها في شبه كيس ملتصق نظرها بحيث لا يظهر منه غير رأسه ، وعلى رؤوسهم بعض أمتعتهم ، وفي أيديهم صفيحة أشبه بالسكشكول يضعون فيها غذاءهم . وإذا كانت لهم حاجة الى السؤال سألو اركاب القوافل اللطف وأدب ، ومارأيتهم يطلبون غير الماء لانه يصعب عليهم حمله ، وخصوصا في مدة الصيف الذي تحجب فيه القرب وتنشف الركايا . فاذا مرت القافلة قرب بيوت قبيلة من القبائل وجدت كثيرا من الاعراب ينادون على البطيخ الكبير تقولهم برطيخ ، وعلى صغيره بقولهم الخربز (وأصلها قاربوز بالتركية) ، وينادى بعضهم الما الما ، خُبْزُ خُبْز . الثمر ، الله جل الخ الخ ، فاذا قربت من ديارهم وجدت شردمة من أولادهم يحيطون بك وأيديهم ممدودة للعطاء وهم يتغنون بقولهم : يا حاج سلامات ، يا فندى سلامات ، يا بوى سلامات ، ان شاء الله سلامات ، ان شاء الله عرفات ، ان شاء الله بركات و بعضهم يقول : حجج حجيج (حجج الحجيج) بيت الله : والكعبة ورسول الله الخ . وكأني بالحالة واللفظة تهضم في أكفهم والحسنة تضيع بين أصابعهم لا يعرفون الكرامة الا وقت امتداد يدك بها اليهم ، فاذا انقضت حركتها صارت كماها ما كانت !! وهذا امر لا ينطبق على ما هو مشهور في الطبع العربي من ذكره للنعمة وحفظه للجميل . ولهم أغنية يتغنون بها في طريقهم ، وهي في الغالب على النعمة العراقية والرومية التي أخذوها عن حجاج الاتراك والشوام . وجمالهم ترناح اليها وتسمع لها فتسببها لحظة ما هي فيه من التعب والعناء . وهذه الاغنية لا يكاد يعرفها من يسمعها لانها أقرب الى الرطانة منها الى العربية ، على أنها لا تحلو من معان دفيقة لطيفة وأغلبها غرامية تمثل حكاية محب ومحبوب أو عاشق ومعشوق ومنها ما هو مدح في المطايا ودونك شيئا منها :

« يا حبيبي لو ترى حالي واللى جرى لى بعد فراقك

والله ما غبت عن بالى ولا نسيت الحصافه ذاك »

« ياسيدوايش غر بك في دايرة الحفا والشوك ، يارهيف ، يامرود العين ، ياريت خدى

ينقسم نعلين ، الله يحاسبهم كما حاسبونى ، كما رمونى بحوف الوقيدة وانا حى » .

« لو اهنى بالحج واوفى جماره ، واقف على العيرات ساجدين مع الربيع ، (الجبل المرتفع) صبح أربع تسمى شعيب الخضارة ، مع مثلهن يمسى بوادى الربيع ، مع مثلهن كل تهنى بداره ، وادى النعيم الى عذوقه مهابيع . »

« يا الله ياراد كل غريب بلاده والذوق (النوم) بعد القسا (القسوة)

(يعنى التعب الشديد) ، حمت اللّمن (اليمين) والشام وكل دايره جيت من وراها ، لى فى اللمن سيدولى فى الشام باشا ، ان جيت عند اللى فى اللمن ببقى السيد يملكنى ، وان جيت عند اللى فى الشام يبجى الباشا يحكىنى . وينطقون بالقاف جيا غير معطشة وصغار الججاج من المصريين لهم أغنية يتغنون بها فى طريقهم وعلى الخصوص سائهم . وهى لا تخرج عن ذكر الطريق للحج و ذكر البيت وعرفة وزمزم ، وخصوصاً ذكر النبى عليه الصلاة والسلام . وكلها عبارات بسيطة ليس فيها شئ من المعانى العالیه نذكر لك شيئاً منها :

« أنا ممدح محمد ، والحسن والحسين والقاسم أحمد ، بلغ العاشقين يارب زيارة محمد ، مديح باشتياق أنا ممدح الا النبى ، ياهنا الى ان وعد .
يا ليلة ان برزوا و باتوا ليبره ، و بات قلبي فى حنين ، و يطلب من الله يرجعوا سالمين ، بنصره من الله ، ياهنا الى ان وعد .

وان جيت حبيبي يا وور وان جيت حبيبي ، لا كنسك وأرشدك وبالشمع أقيدك ، مروق بنحوخه يا بحر ، يا بحر مروق بنحوخه ، لا يمك عكار ، ولا ريج بدوخه ، تحت ظل القلوع أبوشال وجوخه ، فى رابع نوى الاحرام ولبس احترامه ، يانهار الهايوم خلوه يفك احترامه ، يافرح قلبي يوم طلوع الجبل ، والخطيب على الجبل ، والمبلغ يرقى ، يافرح قلبي ساعة النفرة ، وفرحت عيوننا ونزلنا بفرحه ، وفوتنا من بين العالمين كان الفجر لايج ، يوم دخولنا منى ونصبنا الخيم وذبحنا الذبايح ، وافكرنا العيال وبقى الدمع سايل ، و بعد

ثلاث أيام حملنا مكة، وطفنا طواف الوداع وبرزنا، والجمال حملنا، وعلى أبواب إبراهيم سرنا، وصلنا قبّة المصطفى والاعتاب زمرّد، حول مقام النبي، قال الطواشي منين يا جماعة، زوروا النبي زوروا وأطلبوا الشفاعة .

والخداء قديم جدّ في العرب . والمؤرخون يقولون أن أول من حدّ الجبال مضر بن ربيعة وكان حسن الصوت ويملك كثير من الابل، وذهب بعضهم الى أن توقيع الجبال في سيرها هو الباعث الأول على وزن الشعر فيهم . ولهم لكل سير من سير الجبال بحر مخصوص : فإذا سارت الهويّنا فالرّجز وإذا أسرع فالتّخبّ . وقد كان الخلفاء يأمرون شعراءهم فيحدون لجمالهم . ومن ذلك أن عبد الملك بن مروان كان راكباً جملاً في سفره (ولعله في حجة) وجعله يحدو بقوله :

يأيها البكر الذي أراك * عليك سهل الأرض في ممشاكا

وبحك هل تعلم من علاكا * أن ابن مروان علاذراكا

خليفة الله الذي امتطاك * لم يعمل بكر مثل ما علاكا

ووقت تحميل القافلة وتنزلها تكثر السرقات من الجمالة أنفسهم . وقد يتفق جمالك مع جمال آخر فيحضر في هذا الوقت الذي يلبيك فيه بصريخه وصياحه في حين ما الآخر ينقض على غفشك ويسرق منه ما تصل اليه يده ، حتى اذا هدار وعك شعرت بما نقص من متاعك . وهنالك يكثّر الصياح فيقول هذا : خرجي ، ويقول الآخر : ملابسي ، وغيره يصيح : لحافي وهكذا ، وبعد هرج ومرج من غير فائدة يسكت الصائحون شاكين أمرهم الى الله ، ويشغلون بتجهيز شؤونهم . وليست الجليلة قاصرة على هؤلاء بل ترى الصراخ من انحاء القافلة بتمامها فهذا يصيح قائلاً : يا حاج فلان ، وذلك ينادي : يا حاجة فلانة ، وآخر يقول : اندر ، وغيره يومئ به يشاهد الحرامي فيقول : شايفك ، وآخرون يشغلون بنصب خيامهم فيدق هذا بمطرقة ، ويتصارع الآخرون مع جاره الذي زحزحه عن مكانه، وهو في أثناء ذلك يزعم مع الذي من وراءه لأنه يزاحمه على محله . وتسمع فيما بين ذلك أصوات الاعراب هذا يقول : الخطب الخطب ، وآخر يقول : الما الما

وهكذا ، ومأمم الاسارقون ما تصل اليه أيديهم ، ويفرون من حيث لا يشعرون بهم أحد .
 وبالجملة فتستقر هذه الجليلة صاعدة في هذا الفضاء الى عنان السماء نحو ساعة من الزمان ، أعني
 ريثما ينزل الحجاج حمولهم ، وينصبون خيامهم ، ويمهدون فراشهم بين رحالهم ،
 ويحيطونها بشقادفهم التي تلتف بها جملهم وجمالهم . وهناك يبدأ هذا في جلب الماء
 بنفسه أو بواسطة جماله ، وآخر يستقضي الخشب ، وغيره ينصب القدر لطبخ بعض الاغذية
 الجافة كالعدس والارز واللحم المجفف ، وذلك في المحطات الصغيرة التي لا تطول
 الاقامة فيها ، أما المحطات الكبيرة فيشترون منها اللحم الطري الذي يذبحه بعض أعرابها ،
 و بعد العشاء يشربون قهوتهم وينامون بعد أن يعطوا الجمالة عشاءهم . والرفقاء من الحجاج
 يتناوبون السهر على حراسة غفشهم ، ومن يسهر منهم تراه على الدوام يصرخ بكلمات
 الاضطراب والانزعاج كقولهم ، « شايك ، ابعده ، لا تقرب » وهكذا . والحجاج يقضون
 حاجتهم بين رحالهم في الغالب ، ومن ابتعد عنها لا بد أن يكون معه أنيس يحرسه عند اشتغاله
 بنفسه ، والا فانه لا يحرم واحدا من الأعراب ينقض عليه ويضربه في رأسه بعصا يابسة
 قصيرة تخدم معها أنفاسه !! وهناك يشلحه من ملابسه أو يكتفى بقطع كمره من حزامه أو
 من ذراع له . فاذا استغيبه صحابته قاموا للبحث عنه فيجدونه إما فاقد للحياة فيوارونه التراب
 على حاله !! وإما فاقد للشعور فيأخذونه ويقومون بشأنه ، وقليل ما ينجو من هذه الضربة .
 وعلى كل حال فالناس في القافلة تراهم جلوسا أقياما ميامع ماشيتهم وخدمهم وجمالهم وتبعهم
 بلا فارق بين الجميع ، بل ترى السيد على الدوام يبالغ في السؤال عن خدمه والاهتمام بشأنهم
 حتى لكانه يتقرب بذلك منهم : وهناك تحقق مسألة السادة الصوفية (سيد القوم خادمهم) .
 وقد يقطع الجمالة بعض الجمال من القافلة أثناء سيرها ، ويتظاهرون باصلاح حمولها حتى اذا
 ابتعدت القافلة عنهم أوقعوا بركابها وهم يستغيثون ولا يفتأون ، وسلبوهم متاعهم ، وكثيرا
 ما يجهزون عليهم ، ويفرون بجمالهم الى حيث أرادوا . والادعي من ذلك كله ما يهدد القافلة من
 خطر هجوم بعض القبائل التي في طريقها عليها ، أو على الأقل وقوفهم في وجهها فلا يدعونها تمر
 الا بعد أن يأخذوا منها ما يرضيهم باسم أجره المرور في أرضهم ، وربما كانت لهم مع المقوم

وكبار الجمالة مناقشات حقيقية أو ظاهرة تنتهي على الدوام باقناع المقوم لحججه باعطائهم ما يطلبون .

وبالجملة فركب القوافل لاضمانة له بالمرّة ، وهو بين أيدي المقومين والمطوفين كالطيرة الضعيفة في يد الطفل ان شاء أكرمها وان شاء أهال عليها المصائب والمتاعب من كل جهة ، لانهم طبعاً في هذا القضاء ، أرباب الحكومة والقضاء . وهم الذين يفضلون فيما عسى أن يقع من الحجاج من الشغار أو الصغار الذي هو شأن الطبقة السافلة منهم على الدوام ، لاسيما صغار الحجاج المصر بين الذين لا تسمع منهم على طول الطريق الا عبارات تافهة أو مشاجرات أساسها شئ لا قيمة له بالمرّة بما أدت الى أخذ البعض بخناق الآخر ، وذو والعصبية منهم هم الغالبون . أما اذا كان الشجار بين بعض الحجاج والجمالة ، فان كان الحاج ضعيفاً احتمل الالهانة لأول مرة ، والادافع برفع لسانه ويده بسرعة يعتبره دافعاً بالاعتذار اليهم والاستكانة لهم ، ولا يعدم الحاج المتشاحن في هذه الحال من اخوانه من يعنفه على شجاره مع الجمالة المنتصرة اليهم لا بلسان الحق ولكن بعبارات الملق والمداينة الذين أساسهما الجبن والنفاق والعياذ بالله ، مما يحجب روح ذوى الاحساس الرقيق تردد بين حناجرهم وخناصرهم !! واذا آمن يريد بنفسه خيراً فعليه أن يصم أذنيه ويربط لسانه عن أمثال هذه المهاترة ، فترتاح روحه ويطمئن قلبه وان كان ضميره في ألم مستمر .

وعلى كل حال فيجب أن يكون الناس في طريق القافلة كلهم عيوناً تحافظ على حياتهم ومتاعهم . وعندى أنه يجب على حجاج كل قافلة أن تكون لهم بصيرة على أنفسهم : فيرتبون أمورهم وينتخبون لما فلتهم رئيساً منهم قبل قيامهم من مكة . وهذا الرئيس يرتبهم في خارجها فيعين منهم خفراء بالنوبة يقومون بحراسة القافلة في أثناء سيرها وفي اقامتها . واذا حدث حادث في القافلة أثناء المشى أوقف سيرها ونظر فيما فيه صالحها : وهذا أظنه أولى من تسليم زمام أمرهم الى مقومهم . وما على حكومة الحجاز اذا رتبت لكل قافلة خفراء من العسكر تقوم بحراستها في ظير رسوم مخصوصة تتقاضاها من ركاب القوافل ؛ فذلك يكون فيه شئ من الضمان للحجاج ، اللهم الا اذا صادفوا منه ضعفاً على اباله .

من غص داوى بشرب الماء غصته * فكيف يصنع من قد غص بالماء
على أناس معنا ونحن نكتب هذه الكلمات أن حكومة الحجاز مهتمة بتسيير السكة
الحديدية بين مكة وجدة . فإذا تحققت هذه الامنية سهل على الحجاج الطريق الى الحرمين
الشرعيين بواسطتها . وهنا نرجو من حكومة الحجاز أن لا تجعل هذه السكة ضيقة مثل السكة
التي بين الشام والمدينة ، حتى لا تصادف شيئاً يعوق سرعة سير القطارات عليها ، والله تعالى
يوفقها بجنه وكرمه الى ما فيه الخير العام .

سفر الجناب العالى

من مكة الى الوجه

أمضى الجناب العالى بمكة يوم ٤ ذى الحجة وهو يستقبل زواره ، ويفيض نضاره ،
على البائسين والمحتاجين ، بعضهم بواسطة رجال المعية السنية ، وبعضهم بواسطة حضرة
مأمور التكية الذى أحيل عليه البحث فى الالتماسات الخاصة بالمرتبات اليومية أو الشهرية .
وفى ظهر ذلك اليوم أمر حفظه الله فسارت حملة الحاشية الكريمة الى بحرة تحت قيادة حضرة
الامير الالى على بك اسماعيل ومعها كثير من فقراء الحجاج المتقطعين مصريين وغير مصريين
ممن صدرت الارادة السنية بتسفيرهم الى بلادهم بناء عن التماسهم على نفقة الخاصة
الخدوية . ثم قامت فى عفتها حملة دولة الوالدة فوصلت حفظها الله بحرة فى منتصف الساعة
الثالثة بعد الغروب .

وبعد صلاة العشاء طاف الجناب العالى طواف الوداع ، وركب سعوه وفى ركابه
المخيم من بقى فى خدمته من رجال معيته ، وبمجرد ما خرج من باب مكة وجد دولة الشريف
وحضرة وكيل الوالى وكثيرا من الاشراف والكبراء قد اجتمعوا لوداعه ، وساروا فى
موكب ساعة شاكرين له همته السامية ، وآدابه العاليسة ، مكررين آيات الثناء على فضائله

وفواضله . فشكرهم جنابه العالى مودعا . وسار وفي خدمته أصحاب السيادة أنجال الشريف وسعادة مكتوب بجى الولاية والشريف ناصر الذى تعين من قبل الشرافة العظمى مهندارا لجنابه السامى مدة وجوده فى أرض الحجاز ، ووصل ركابه العالى بسلامة الله الى بحرة فى منتصف الليل . وأمضى فيها يوم ٢٧ ديسمبر ، وبعد صلاة العشاء ركب الى جدة .

وكان حفظه الله كلما مر فى طول الطريق على طابية ، وجد عسكرها نزلوا من طوابيهم لأداء واجب التعظيم ، وضرب ثيهم منبثا الطابية التى بعدها بقرب تشریفه اليها . ولما اقترب من جدة وجد سعادة قائم مقامها وحضرة قومندان عساكرها مع كثير من أعيانها فى انتظار تشریف جنابه العالى ، وسار الكل فى ركابه حتى وصل الى سلم الكورنتينة فى نحو منتصف الليل . وهناك سلم عليهم سموه شاكرهم عنايتهم وآدابهم ، وركب الزورق البخارى الى وابور المحروسة مع بعض رجال معيته . وكانت دولة الوالدة قد سبقت اليه مع حاشيتها ، أما باقى رجال الحرس والمعينة السنية فقد نزلوا الى وابور الرحمانية الذى كان فى انتظارهم .

وفى صباح يوم ٢٨ ديسمبر قابل الجناب الخديوى فى يخته أصحاب السيادة أنجال الشريف وسعادة قائم مقام جدة وحضرة قومندان عساكرها ، ثم قناصل الدول الموجودين فى هذا الثغر ، وكانوا قد أتوا بصفة رسمية لتوديع جنابه العالى ، فشكرهم سموه على آدابهم ، وأرسل تفرقات الامتنان والشكر الى جلالة السلطان ، ومقام الصدارة العظمى ، ودولة الشريف ، وحكومة الحجاز ، على ما لاقاه حفظه الله من كمال العناية منذ حضوره الى هذه الاراضى المقدسة . وفى هذه الاثناء كان ينظر حفظه الله فى أوراق حكومته التى أتت الى جدة مع آخر بريد . وبعد ان أصدر أوامره السنية فى الشؤون الهامة ، أمر حفظه الله فسارت مركب المحروسة وقت الظهر تماما قاصدة الوجه : وهى ميناء فى ساحل بلاد الحجاز على البحر الاحمر ، وتبعد عن جدة شمالا بمسافة ٢٤ ميلا فوصلها ركابه العالى ظهر يوم ٢٩ ديسمبر ، وفى يوم ٣٠ وصلت مركب الرحمانية ، وهناك أخذ فى اجراء الاستعداد اللازم لسفر سموه برا من الوجه الى محطة البدايع للسفر منها الى المدينة المنورة بطريق السكة الحديد الحجازية .

الوجه والسفر من الى المدينه المنورة

الوجه قرية على عرض ٢٦ درجة و ١٤ دقيقة وطول ٣٦ درجة و ٢٧ دقيقة ، وفيها نحو أربعين بيتاً صغيراً . وعدد أهلها لا يزيد عن خمسمائة نفس : كلهم تقريباً عائلة واحدة تسمى عائلة البديوى ، ويشرف على القرية تلة من ورائها ، عليها قلعة حصينة ، وفي هذه القرية على صغرها ثلاثة مساجد يقصدها في أيام الجمعة كثير من العربان التي في ضواحيها من قبيلة بلي . وكانت لقرية الوجه أهمية عندما كان يمر عليها ركب الحمل مدة سفره على البر : فقد كانت تنصب فيها الاسواق وتفرق فيها العوائد على العربان . أما الآن فحياة أهلها من صيد الاسماك وتجارة السمك والاصواف التي تأتي اليها من وراء الساحل والفحم الخشبي الذي يؤتى به من داخل البلاد . وأغلب تجارتها مع السويس ، ومنها تقوم اليه في كل خمسة عشر يوماً بواسطة على إحدى مراكب الشركة الخديوية . ولما كانت الوجه محطاً لرحال الحمل المصري وممرًا للحجاج المصريين كانت ادارتها وماوليتها شمالاً من المويلح وضبا والعقبة في يد الخديوية المصرية ، وكان يعين عليها محافظ من طرف حكومة مصر مع قاض للنظر في الاحكام الشرعية ، وكان لها جند يحرسون الطرق ، حتى اذا انقطع الحج من هذا الطريق عادت ادارة هذه البلاد الى الدولة العلية .

ولقد كانت هذه القرية مدة وجود الجناح العالي بياها على أكمل ما يكون من معالم الافراح : فكنت ترى الرايات الحمراء على بيوتها وعلى سوارى فلايكها ، والعلم العثماني كان يخفق طول هذه المدة فوق قلعتها . وفي الليل كانت القرية تلوح كأنها الثريا زهاء وبهاء لمصابيح الزينة التي كانت على دورها ، وخصوصاً دار القا مقام والقاعة ، وبالجملة فقد كانت البلد في حركة هائلة لم ترها طول عمرها .

ومن سنة ١٣٢٧ رجع الحمل المصري الى الوجه من جدة لتأدية واجب الزيارة بالطريق الحديدي من محطة الملا . وسبب ذلك تعرض عربان الدرب الطويل ودرب ينبع له

بغير حق . ولعلمهم يرجعون عن غيهم فيعود الى مجراه الاصلى .

وفي يوم السبت الموافق آخر شهر ديسمبر نزل الجنب الخديوى الى البر ، وكان فى انتظاره حضرة قائم مقام الوجه وسليمان باشا بورفادة شيخ قبائل بلى والمتعهد بحملة الركاب العالمى ، فركب حفظه الله المهنج مع حاشيته وسار الى جهة الشرق فى ركب حافل من عليسة عربان هذه الجهة ، وفى مقدمتهم نحو خمسين نفر آمن عرب عقيل على هجنهم (وهم جنود للدولة من العرب مثل جنود البيشه) وفى أيديهم مزاريق مرفوع عليها العلم العثمانى ، وعلى رأسهم ضابط برتبة صاغ قول أغاسى ، وأمامهم فرقة منهم تضرب نوتهم بالنقرزان (النتره زان) على طول الطريق . وما زال حفظه الله سائرا بموكبه وفى خدمته حضرة قائم مقام الوجه وبعض مأمورى الدولة هناك فى وادى قال له أبو عرايش ، حتى وصلوا بعد مسيرة أربع ساعات ونصف الى ماء يسمى رأس حرامل ، وفيه مكان يسمى الرحبة . وقد كانت حملة الخيام سبقت اليه واستعدت فيه لقدومه الشريف ، فتصد سموه سرادقه ونزل من فى معيته كل الى خيمته .

أما دولة والدة حفظها الله فنذكر بكت مع صاحبات السمو والعصمة كريمة الجنب العالمى ، ودولة الرئيس فاطمة هانم أفندى ، ودولة والدة الرئيس نازلة هانم أفندى حلیم و بعض حاشيتها ، عربات صنعت بصفة خصوصية للسير فى طرق الجبال بحركل واحدة منها ثمانية من الجمال ، ومن ورائها نختر وانات تحملها البغال ، على جملة اشكال ، حتى اذا تبين من هذه استرحن فى تلك . وكان خلفهن هوادج لمن كان فى معيتهن من القلقوات ، يتلوهن باقى حملة الركاب الخديوى من حرس وخدم وحشم ، يتقدمهم رجال المعية السنية . وما زالت هذه الحملة سائرة حتى وصلت الى المسكان الذى فيه المخيم الخديوى فى مسافة عشر ساعات .

وفي يوم أول يناير ركب سمو الجنب العالمى بعد صلاة الفجر وسار بركبه فى وادى السيرير حتى نزل فى مخيمه بوادى أبى الفزاز ، وبه ماء يسمى باسمه ، ومسافة السير اليه على نحو اليوم السابق .

وفي هذا الوادى يكثر شجر العِشار والشرّاة (نوع من السنط) والقَرْبُظَة (نوع من الحلفة يرتفع عنها وتأكّله الابل) والدوم والاراك (السواك) ، وكذلك يكثر فيه نبات العوسج والخروع والضُرْمَة (تشبه الحلفة الا انها قصيرة) والرمث (نبات كالشيع) والخِرْمَة (مثل البتونيا) والسيال والحنظل وله عندهم فوائد كثيرة وخصوصاً في قطرانه الذى يستخرجونه منه . والعرب يدقون خشب السيال مع الحنظل ويعملون به شريطاً يضرّون عليه بزبادهم فيورى ناراً ، وهم في غنى به عن السكرت .

وفي يوم ٢ يناير ركب الجناح العالى بعد صلاة الفجر وسار بموكبه الى مكان يقال له مسيل النجد ، وفيه ماء اسمه البداء، ومنه تبدى الارض في الارتناع نحو الشرق ، فنزل فيه حفظه الله وفتح اليه المسافة مع ركبته في مثل الايام السابقة . وقد وجدنا هناك أورطة من سوارى الجيش العثمانى كانت قد أتت لحراسة جنابه الرفيع من قبل الدولة العلية، وكانت تريد السفر الى الوجه لانظار سموهدها والسير في ركابه العالى فلم تتمكن، لانها كانت تظن أن سموه يشرفها بعد هذا التاريخ .

وفي يوم ٣ ييار سار ركب الجناح العالى في وادى النجد ، ومعه فرقة من خيالة الدولة حتى وصل الى خشم سلع ، فنزل به وبات فيه مع باقى ركابه ، والمسافة اليه كالمسافات السابقة . ويكثر في هذا الوادى شجر العِشار والطلح (نوع من السنط) والماء فيه قليل .

وفي صباح اليوم الرابع من يناير ركب حفظه الله بعد صلاة الصبح وسار صاعداً من عقبة سلع (ويسمونها البوق لانها على شكلها) الى شرفة المعجد في أرض صخرية يكثر مدرها ، ويضخم حجرها ، ويصعب السير فيها على الخيل والبغال ، والحمر والجمال ، بل وعلى النساء والرجال ، حتى ان أحدهم سوارى الترك كان يسرع فيها بجواده فاهلب به وارطم رأسه بحجر فاكسر وأخذ الدم يتدفق من أم ناصيته ومن وجهه وأذنه، بما فقد معه شعوره وكاد يموت حتف أنفه ، لولا أن الدكتور الحسنى طيب الحرس الخديوى كان قريباً منه ، فقاذف بنفسه عن راحلته ، وتبعته باجزخاتى الخصوصية فضممنا

جراحه ، واشممناه بعض المنعشات التي أفاقته لوقته ، فركب جواده بين اخوانه الذين
بلاحقوا اليه ، وهم شاكرون لرجال الجناح العالي عنايتهم به واستعدادهم لمثل هذه
الطوارئ ، ذاكرون لهم حسن خبرتهم وعالي همهم .

ولم نشاهد في الحبل الذي كان على يسارنا عدم دخل البوق أثر كتابه بالخط الكوفي
محموره حبرا بسيطا في صحرة مشرفة على الطريق ، فرأب منها هذه الكلمات : « اسم
الله م شاء الله باسم الله . . . المستنصر بالله » واني لا أدري اذا كان ذلك كتب في مدة
المستنصر بالله الفاطمي في مبدا العصر الثاني من القرن الخامس للهجرة ، وقما وقع عصر
ذلك الغلاء الفاحش الذي بلغ فيه ثمن الارزب المصممة وعشرين ديناراً والذي أكل
الناس فيه بعضهم بعضاً . ادلا يبعد أن يكون هجرها في ذلك الوقت جماعة الى المدينة المورة
وساروا من هذا الطريق وفيدوا تاريخ مرورهم والاشاره لعلة هجرتهم ، تذكر اسم الخليفة
لذلك العهد . كما يصح ان يكون ذلك حصل في مدة المستنصر بالله العباسي الخليفة بغداد في
سنة ثمانمائة وثلاثين هجرية . على مدة الملك الكامل صاحب مصر . والذي حلف
صلاح الدين الايوبي في عذارته للصليبيين : ان لا سعد أنه سب في هذا الطريق فرقه من
عساكره ليرود الطريق من الشام الى بيت الله الحرام . ويتنبه عليه الصلابة والسلام ،
خصوصاً بعدما كان الافرنج قد ملكوا أقاليمه (العقبة) ، واجلاهم عنها صلاح الدين في
سنة ٥٦٦ هـ وربما كانت هذه المنعشات هي التي سهلت طريق البر لحج شجره الدر .

و بعد ذلك أخذ الوادي في الانحراج ورسم أمامنا فوسا حتى نجعلها انه أوفعل امامنا . ولم
نزل سائرنا فيه الى الشرق حتى وصلنا الى مدخل بين جبلين شاهدين أحمرين (لون كروان
الحديد) ، تتخللها طمبات قائمة سوداء أو صفراء عتابل بعضها مع بعض في موزاة واحدة في
الجبلين مما يحكم معه الرائي لاول وهلة انها جبل واحد قد تفرق عن بعضه بمحادث طبيعي ،
و يسمون سلسلة هذه الجبال حرّ العوير قال الشاعر :

واشرق أنجال العوير هاعل * اذا خبت النيران بالليل أوفدا

﴿ وقال أيضا ﴾

حتى وردن رَكِيَّات العوير وقد * كاد الملاء من السكتان تشتعل
والعوير احدى لاتي المدينة اللتين حرم عليه الصلاة والسلام ما بينهما فقال « حرام
ما بين لاتيها » . وفي الصحاح « انها حرنان بكتنفها » . ويظهر أن يران هذا الخبل
البركاني كانت تظهر أحبا نامن قبل وبعد الاسلام . والعرب تعرف ذلك كما قال الفطامي
في شعره السابق من قصيدة بمدح ما يزيد بن معاوية . ويسمون بارها سارا الحجار وقد ورد
ذكرها في الحديث الشريف .

وفي الظاهر وصلنا الى رأس الخرد . وهي قمة عالية سوداء شرف على واد صغير في فرشت
أرضه حجاره صوانية حمراء وصفراء ، وفي حبه الشمالية ثمر للسول فيه بعض شجر الطراف
وسات الارطى « تأكل الابل » . ويكثر في هذا الوادي المعتزان الذي يعطره روائح
الزكية . وبارها ساريس في هذا الوادي الضيق ونحن في شدة كونه من الخرد حتى رلنا منه
الى واد متسع يسمى وادي الذهب ، وليس فيه ماء ، ولكن بكثريه شجر العصا وهو نوع
من الطراف باره شديد يصرب المثل . وصعدا منه الى وادي بولي (أي بلي) وهو واد
حصباء كثيرة . ومدراه كبيرة ، وراطه كالمطبخ في حجمه ، وفيه يكثر شجر الاشراه
والسنط . ومن ههنا أحد الطريق في لعلو ، والحمد لله في الدنو . وقد صرب لومها الاحمر
الى السواد ، وأخذت تنحزأ الى اشلاء هرمية دكرسا تنصرائي تحلت صورته الى أفئدنا
ونحن في سايانا الى الله تعالى ورسوله باحمل صورته . وأختم مثال " وهل هي الا وطننا
العز بالدي بحبته يكمل الايمان ، ويرضى الدين " نعمد كرا هذا الوطن العزيز ونحن
في ركاب ملبكه ، وفي خدمة هذا الروح الامين الذي منه حياته وفيه خبراته ، وبركانه .
نعمد كرا به في هذه القفار ، التي ترسل علمها الشمس شواطأ من نار يشوى وجوه السفار .
نعمد كرا به ، وذكرنا رياضه وغياضه ، ونحن اسير في أرض منها المدر ، وعرسها
الحجر ، وثمرها الصخر ، وزهرها الوعر ، ومساكنها الفقر ، وساكنها الفقر ، ونسجها

لهيب الحر ! نعم دكرنا مصر وذكرنا نيلها ، وظلالها ، وليس هناك ماء الا ما يتصبب
عرقاً من جسامنا ، حتى ~~لما~~ كأنها شمع باستور ، أو مرشح شوقي ، وليس من ظل
الاطل عوسجة أو طلحة يكاد يلتهب من شدة ما يحيط به من الحرارة في شهر يناير !! نعم
ذكرنا مصر هنا وذكرنا أهلها وما فيهم من أخلاق قوية ، وعواطف كريمة ، وسجايا سليمة ،
وآداب لا يصل إليها الا عراب !!

ومازلنا سائرين في هذا الوادي حتى وصلنا الى مضيق دخلناه فوجدناه كثير التماريح ،
يلتوى بعضه على بعض كطريق الثعبان ، وأرضه غير معتدلة ، وفيها ثنيات كثيرة ، صادفت
المربات فيها مشقات كبيرة . وينتهي هذا الطريق بعقبة كثود صخرية في أرضها تنوعات
جمعة يصعب السير فيها على كل من مر بها !! لذلك انتظر فيها الحناب العالي حفظه الله لمساعدة
قافلة الركاب الحديوي في المرور منها ، وبحسن نظره التاقب وهمته العليا ، مر الركاب جميعه
منها على أحسن حال ، وسار الى مخيمه الذي نصب في مكان اسمه النجوة وراء هذا العمبة
التي تدعى قبيلة بلى أن جدها مدفون فيها .

وفي صباح يوم ٦ يناير ركب الحناب العالي وتبعته عربات دوله والوالدة وبقى حملة الركاب
الحديوي ، وسار حفظه الله في هذا الوادي الذي يسمونه وادي حلاوة . ومن هنا أخذت
الحبال تتقطع أشلاء على جانبيه حتى انتهينا الى مفرق بين جبلين ، فصعدنا اليه بمنحدر رملي ميله
يبلغ ٣٠ في المائة ، ونزلنا من الحناب الآخر في واد واسع أرضه رملية خشنة ذات لون أحمر .
وما زال سائراً بهذا الوادي حتى نزل منه الى وادي العلا الذي يسير من الشمال الى
الجنوب ، ويكثر فيه شجر الطرفاء ونبات الحمض (تأكله الابل) وان كانت أرضه
مسيخة ، وفي وسطه محطة البدايع التي وصلها حفظه الله في الساعة العاشرة صباحاً .
وكان في انتظار ركابه العالي ، سمادة محاسبجي المدينة المنورة وحضرات مدير وخازن دار
الحرم الشريف ، واليكباشي فؤاد بك الذي تعين مهمندار ألقنا به الفخيم ، وأصحاب السيادة
الشریف شحات وكيل اماره مكة المنورة ، والشریف محسن والشيخ عبد الله شيخ ناحية
العوالي ، والشيخ ابراهيم أسعد شيخ خطباء الحرم المدني ، والسيد حسن أسعد ، والشيخ

يحيى الدفتردار امام الحرم الشريف ، وعزتو حضرة صالح بك وكيل ادارة السكة الحديد الحجازية ، وحضرات قائم مقام محطة العلا وشيخ عربانها وقاضيها وشيخ مشايخ عربان عنزة وشيوخها وشيخ قبيلة بنى سليم (من حرب) .

و بمجرد ما شرف الركاب العالى تقدموا جميعا نحو سموه بواجب التحية والتعظيم ، وهنثوا جنابه الفخيم ، بقدميه بسلامة الله . فشكرهم حفظه الله ، وسار معهم الى صيوانه الخصوصى . وكانت قد اصطفيت على طريقه فرقة من الجند البيادة العثمانى وأمامها حضرات ضباطها لاداء واجب السلام . و بعد أن استراح جنابه العالى قليلا استقبل وفود المهنيين بما جبل عليه من اللطف والايناس ، فخرج الكل شاكرين ذاكرين ما لقوه من آداب سموه . وأمضى حفظه الله ذلك النهار بالبدايع بين توارداى التهانى من كل جهة ، واصدار الاوامر بالا حسنات على فقراء هذه القبائل ، وخصوصاً من كان فى ركابه العالى منها ، كما أصدر أمره الكريم بتوزيع الكساوى على من كان فى خدمة الركاب الخديوى من الضاوية والسقائين والعكامة والفراشين والخميمة : وبالحملة فقد كان يوماً كله حسنات ودعوات وابتهالات بحفظ جنابه الفخيم . و بعد ظهر ذلك اليوم أمر حفظه الله بسفر الحرس السوارى الخديوى وبعض بلوكات البيادة الى محطة العلا لانتظار عودة جنابه الرفيع بها ، كما أمر تجهيز قطار مخصوص يقوم مساء ذلك اليوم الى المدينة المنورة بحاسب من الحرس والخدمة وبعض رجال المعية السنية ومعهم الخيام والنصواوين اللازمة لتصبها فيها .

أما قطار الجناب العالى ودولة الوالدة فقد تحرك من البدايع صباح يوم ٧ يناير .

وما زال القطار الاول سائراً فى وادى الحمض حتى وصل صباحاً الى محطة الجداعة وهناك استوقفه بأظرفها ، لان السيول كانت قطعت جسر السكة على بعد ٢ كيلومتر منها . وقد أخطر الجناب العالى تلغرافياً بهذا الحادث ، ولكنه حفظه الله بمجرد وصوله الى محطة هديّة (قبيل الغروب) ، أوقف قطاره هناك ، وسار بالفاطرة الى محطة الجداعة التى تبعد عنها بنحو عشرين كيلومتراً ، وبعد أن تقدم الى القطع ورآه بنفسه عاد قائلاً (ليس من الممكن انعامه قبل يومين) ، ولذا أمر سموه بتأخير القطار الاول الى

محطة هديه ليكون الكل في حماه ، حفظه الله .

وهذه مكان به محطة مبنية بالحجر الاصم الازرق على شكل قلعة صغيرة في محيطها
مزاغل لتكون مكان دفاع للعمال ، وسط هذه الجبال ، اذ الزم الحال . وبجانبها بناء كبير عليه
أحواض من الحديد لتستقي منها الطائرات ، ويصعد الماء اليها بواسطة آلة رافعة تدار
بالنرول (موبور) كما هو الشأن في جميع المحطات الرئيسة في هذا الخط . ومن خلف هذا البناء
عشتى بعضها بالحجر وبعضها بالطوب التي يسكنها عمال المحطة وبعض العساكر المحافظين على
السكة الحديد . وعلى حاشي الطريق الحديدى ، فوق درو والحسل الشرقى والغربى ، قلعتان
يصعد الى كل منهما فرد هول من عسكر الدولة لحماية المحطة ويقيم بها طول النهار ، وينزل في المساء
الى سكناهما من هذا العشتى . وهناك يصنعون الخبز لا ينسهم وودراهم يعملون بحال نظيفة .
وهو أشبه شئ مما كانوا يصنعونه بالصامولى عند العساكر المصرية .

وانقد أمصيدا جميعا لملتنا عبر باب السكة الحديدية مشمولين برعاية الحباب العالى الحديدوى
حفظه الله . وما أسفرت نسمة يوم ٨ يابى رحتى أخذنا كل يستعد لهذا العيد السعيد ، الذى
هو عيد مصر الخميقى . ولكنه حفظه الله رأى عدم تكيف عيد هذا الخالصين بمالا نسعه
حال هذه البداية ، وعندها أجمع الرأى تكيف هذا العاجر كتابه كلمة اخلاص رفعها
الى أعتابه السامية وهما هي نصها .
ولى العمه ومليك الامة ،

انا البرجوان بسمع لنا سيدنا ومولانا بان ردّنى هذا اليوم السعيد ، الذى هو عيد مصر
والمصريين أكرعيد ، صدى صوب رعينك حينما كانوا وأبنا وجدوا ، فى اسهالهم الى الله
تعالى يحفظ شحصك الخبوب ، الذى استولى بفصله وكرمه على الارواح واللوب . نعم
رفع لا عتناكم السامية ونحن ها فى هذه البعثة الطاهرة ، بين يدي الله تعالى ورسوله ، ما سكة
ضمائرنا لذاتكم العلية ، من صادق الاخلاص والعبودية . نعم رفع لسموكم ما بين جنوبا من
أفئدة كما صادق ولا لحماكم العالى ، حتى اذا شرفت بتقبيل الاعتاب الكريمة ، تضرعت
الى الله تعالى بان يحفظ هذه الطلبة العباسية تاجا على مفرق الزمان ، وأن يجعل من فضلها

ونوالها نعمة في عتق كل انسان .

مولاي ،

لقد بارحت دار ملكك ، وخرجت الى الله تعالى ورسوله ، فاني الا أن يظلك السحاب في هذه الغفار ، وأن تغسل طرفك الامطار ، وتبت مع خطاك حياة هذه الديار ، بعد أن فضت سبع سنين لا صرع فيها ولا باب : وهل هذا أبها العز يز البرهان الله الا كره قبوله لك بوردته لعباده ؟

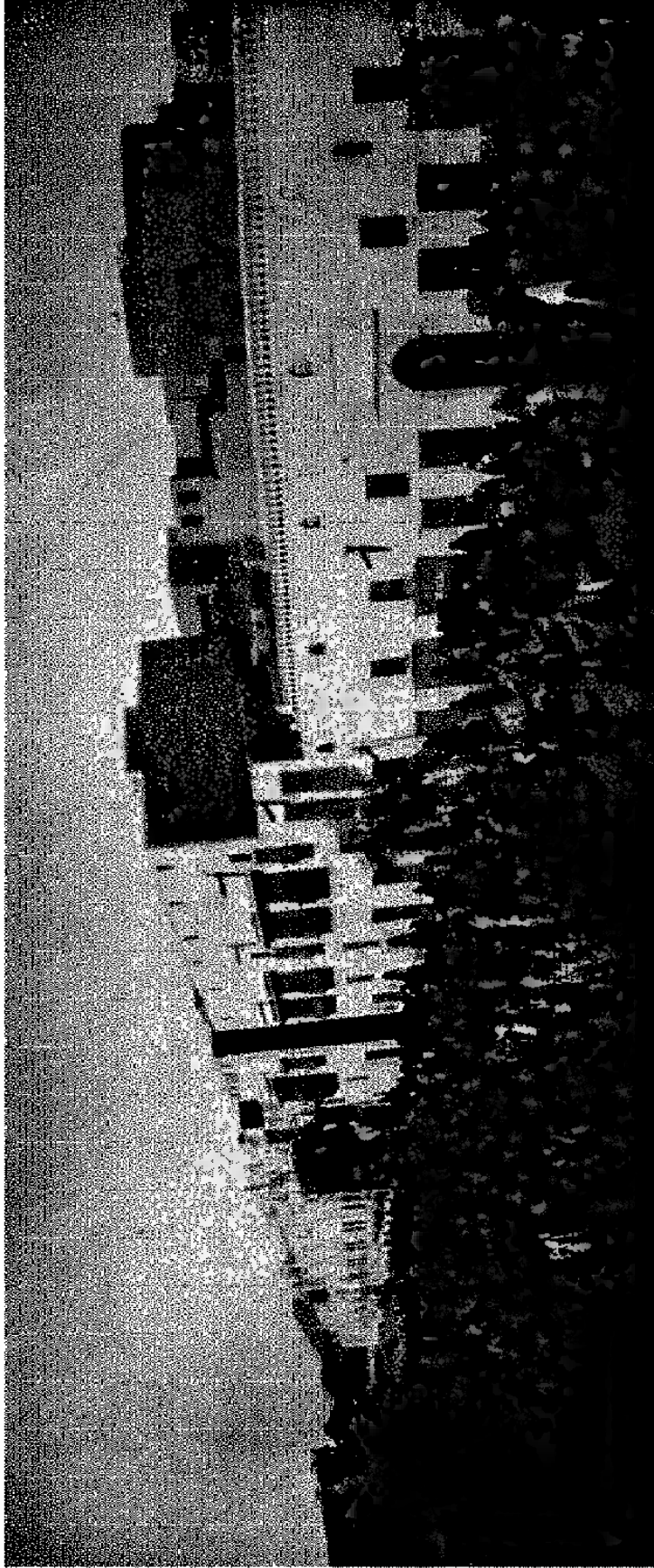
وبعد ان أتممت حجك المروور ، وسعيت سعيتك المشكور ، يمت شطر رسول الله المصطفى . فعلوت من البحار ، وامتطيت صعبات القمار ، ثم ركبت سنام المحار ، حتى اذا كنت على مرحله منته صلى الله عليه وسلم ، أراد من فصله وكرمه ، ان يقع بك في حرم حبيبه كما يقع بك في حرمه : فانزل الغيث مدرارا ، وسير البحار أمطارا ، وأسأل من سيولها أنهارا ، أوقفتك في طرفك لحظة شهت فيها يسيل اللادك يسعى بين يديك . أيروى فيضه مواطئ أقدامك ، في هذه البراري التي يشهد أهلها بانهم لم يروا مثل سنتهم هذه في خبرها ورّها . وهل تريد يا مولاي دليلا غير هذا يعبر لك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بانك قدمت عليه وعلى قومه خير مقدم ، وزات منه في المكان الاول المحترم ؟

وإنا نسأل الله تعالى بعد تمتعك بزيارة السيد المصطفى أن يردك الى بلادك ومن معك من آل بيتك الا كرمين في أكمل صحة وأتم عافية ، تكافؤكم عن الله تعالى وترعاهم عن رسول الله ، كما رجوه جل شأنه أن يشرك معك على نعمتك التي تسير في محوحتها ، وأن يحمدك على نوالك الذي سقيا في ظلاله ، وأن يحجز بك عما خيرا للجراء .

وفضينا هذا اليوم المبارك في وسط هذه الغلاة ، التي لم تر في أرضها أثرا لدى حياة ، اللهم الاعمال الطريف الحديدي . فيا الله من هذه البلاد التي لا يرى بها من جنوبها الى شمالها ، ومن غربها الى شرقها ، غير حجارة حجرية ، وجبال صحريه ، وهود رملية ، واحفاف من حجار الرمال ، تسوح فيها الاقدام كما تسوخ في الماء ، لولا أنها تتخلص من هذا بسهولة ولا يدين لها على الحركة في تلك 'ياشكر انك ربني وحمدك على نعمتك التي أعمت بها على عبادك في جميع

الكرسي المدفني ويهوذا بن الصديق في غوربتة مصرنا

DOENNE & ANDERER CAIRO



الاقطار والامصار ! فقد جعلت في طبيعة أرضهم ما يكفل لهم حياتهم : فليس من أرض حتى في منازل الثلوج ومر اقد الجليد الا وفيها فصل يثبت فيه النبات ، ويقدم لاهلها شيئا من لوازم الحياة ، الالهذه الارض التي أسكنت في جوفها من ذرية خليك ، فاقام بها بيتك وقام بنوه بشرف خدمته ، فهوت اليهم قلوب زائريه من العرب الى أن أصبح يأتيه الناس من كل فج . حتى اذا أرسلت من ذريتهم الطاهرة ، وسلالتهم العاطرة ، نبيك الامين ، ورسولك الامي الذي هجر الى هذه الديار أهله ووطنه ، ليتمكن من القيام برسالتك ، والدعوة الى طريقتك ، ضرب الكفر ضربة لم تقم له بعدها قائمة . ونشر في الناس هذا الدين القويم الذي أنقذهم من همجيتهم الاولى ، وفك ما كان في رقابهم من سلاسل المظالم وما كان في أرجلهم من قيود الذلة والهوان . وسار على أثره الشريف سخائته والقائمون بعدهم بخلافته : فنام شأن الاسلام واستولى المسلمون في أقل من ربع قرن على ملك الرومان ، واليونان ، والفرس ، وبلغوا سويداء الهند ، ومحاهل افريقيا ، وصحارى بلاد المغرب . وما زالوا كذلك حتى امتد ملكهم في القرن الثاني من بلاد الصين شرقا ، الى مدينة يواتيه (Poutier) قرب باريس غربا . وبالجملة فقد جمعت حكومتهم بين دفتيها ملك الرومان ، واليونان ، والفرس ، والمصريين ، والاشوريين ، والبابليين ، والفنيين ، والقرطاجيين ، والبربر والفرنجية ، وغيرهم ، واستمرت دولتهم الطويلة العريضة نحو سبعمائة سنة وهي كالشكة تنير دياجير المعمورة نيراس المدنية الصحيحة التي من أجل آثارها وهو ما لا ينكره عليه أعداؤها . رقى الاخلاق والاخذ بناصر الفضيلة التي انما هي عمار الكون ، ونظام الوجود .

فيالله من كان يظن أن هذه العميافى والقفار يخرج من جوفها هذا النور الذي أضاء الكائنات ، وتلك اليد القوية التي ضربت على أبدى المظالم التي كانت تسقطها الملوك على رؤوس رعاياهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا في القرون الوسطى ؟ من كان يظن أن أحقاف هذه الرمال ، وأجلاف تلك الجبال ، تنشئ هذه المدنية التي يرفل في بحبوحتها العالم أجمع ؟ هذه المدنية التي خدمت العلم خدمة تذكر فتشكر : بعم خدمت العلوم الطبية ، والكيمياء والطبيعية والفلكية والنباتية والرياضية ، حتى أن فرنسا كانت تستمد من مدرسيهم ، كما هو الحال في

الممالك الشرقية الآن مع أوروبا !! ولقد بلغ من عمران الدولة العربية في الشرق والغرب ما لا يبلغه عمران أى دولة قبلها : انظر الى الامويين في دمشق والاندلس ، والعباسيين في بغداد ، تر من رقيهم في الصناعات ومعارج العرفان ما لا يفوى الا فرنج على انكاره ، ودونك كتاب مدنية العرب (Civilisation des Arabes) تأليف « جوستاف لوبون » فانك ترى فيه المعجب والمطرب !! فهل تريد بعد ذلك كله برهاناً على صحة دين الاسلام وحجة على حقيقة من اهتدينا بهديه واتهجنا سبيله ؟

لذلك كان من اللياقة ، ان لم نفل من الواجب ، التوجه لزيارة هذا المصطفى ، الذى قضى حياته جميعها فى سبيل خدمة الانسانية العامة ، واثارة سبلها المدلهمه ، بمشكاة هذا الدين المتين ، دين الحرية ، دين الاحاء ، دين المساواة ، دين العدالة ، دين الفضيلة ، دين الحياة الصحيحة .

وفى ظهر اليوم التاسع من يناير وصل الخبر باستعداد الخط . فأمر حفظه الله بتسيير الفطار الاول فقام من محطة هدية فى الساعة الثامنة عربى نهاراً واصل محطة الجذاعة (وهى فى الكيلو ١١٥٦) سارا هوينا حتى غادر مكان القطع الذى كان طوله نحو الف متر ، والذى أملت فى اصلاحه عساكر الدولة التى استدعيت اليه من المدينة بلا عيذ كرفيشكر . ومياه هذا السيل كانت آتية من جبال الطائف ، مما يدل على كثرة الامطار التى نزلت فى تلك الجهة ، ونزل منها بحجار كثيرة الى مكة والمدينة والى الطرق التى بينهما .

واستقر القطار سائرأفى وادى النعام الذى يتدى من محرى السيل ، ويكثر فيه شجر السنط ، ومر على محطة النعام ، ثم محطة عنتر وفيها قلعة قديمة على قمة الجبل الغربى ، ولعلها كانت على طريق الحاج أيام سيره على البر . وهذا الجبل يسمونه أيضا جبل عنتر ، ولا أدري لهذه التسمية من سبب ، غير أن ديار عبس كانت شمال المدينة مع شرق ، وربما كان هذا الوادى من منازلها أو كان لها فيه واقعة باسم بطلها المشهور الذى مات قبيل الاسلام . وكان عليه الصلاة والسلام يسر بحديث الناس فى سيرته . وما زال القطار سائرأ حتى وصل الى محطة الحفيرة والى عصا التسيار للبيت بها .

باب الغزوة (الباب الرابع) في المدينة المنورة



أما الجنب العالى فقد بات فى المحطة التى قبلها وتسمى محطة البوير .
والمحطات من هدية الى المدينة المنورة لم تسكل عملية البناء بها ، وكان العمل فيها جاريا
على قدم وساق ، وكان يعمل فيها كثير من المصريين وأغلبهم من مديرية قنا وجرجا ، وهم
فى شدة الفرح بمقدم ما يملكهم الحبوب . وكانت العساكر على طول السكة الحديدية يقفون
فى كل محطة لاداء واجب التعظيم للجنب العالى الحديوى من البدايع الى المدينة . وقد كان
عدد العساكر بهذا الخط قبل تشرىف الركاب العالى ثلاث أوط عثمانية للمحافظة عليه ،
فزادوا عليها أربع أوط قبل تشرىفه أيضاً للمحافظة على ركابه الفخيم ، فكنت تراهم
منتشرين هنا وهناك وفوق الجبال على طول السكة .

ومازلنا حتى مررنا على القطع الثانى الذى كانت أحدثته السيول فى الحسكر قبل المدينة
المنورة بمحو خمسة كيلومترات . وهناك شاهدنا قبعة سيدنا حمزة رضى الله عنه ، ثم أهله
مآذن الحرم الشريف . وعندها أخذت الاعناق تتطاول ، والابصار تتجاول ، فى هاتيك
الارجاء ، مستطاعة أنوار القبعة الخضراء . حتى اذا تجملت لنا نفخاتها امتلات القلوب
افراحاً ، والصدور اشراحت ، والعيون فرت ، والافئدة مسرة ، وراوات الارواح أن تخرج
عن نظامها ، وتطير من جسومها ، الى نور الانوار ، وسيد البرار ، ومصدر سعادة العالمين فى
جميع الامصار ، لولا أن الجسوم كانت تتعاقبها ، ناهضة بركابها ، ضاربة آباط وابورها ،
مهالة ، مكرة ، داعية ، ملبية .

هم نعم كنت ترى الارواح ترفرف بظروفها ، والقلوب تزحف فى تجاويها ، لتسبق
الركاب ، الى ذلك الجنب . وهناك كنت ترى هس العجنان ، وحقيقة الوجدان ،
يتطيران ، من أطراف اللسان ، فى صورة تحيات خالصات ، وتسليمات سنيات ، الى سيد
الكائنات . وجميع الحواس متهيئة الى التمتع بهذه المنحة الكرى ، والنعمة العظمى ، والعين
تفتخر عليها بشرف سبقها الى هذه السعادة التى لانهاية لها ، ممتنة عليها بانها هى التى زفت اليها
شرى الوصول ، الى غاية المأمول .

ومازال القطار حتى دخل بين بساين المدينة ونخيل الغريبة . وأخذ يسير بنا الهوى بنا حتى
وصلنا الى محطة المدينة المنورة فى الساعة الخامسة عشرين نهاراً . وكان العدد الجم من الاهالى

ساء ورجالا على جانبي الطريق الحديدي الى المحطة التي اكتظت ساحتها بفود الناس على اختلاف طبقاتهم، وفي مقدمتهم سعادة علي رضا باشا محافظ المدينة وقومندان عموم القوة العسكرية الموجودة بها، ومعه كثير من المأمورين العسكريين والملكيين الذين كانوا يقومون بامر النظام العام استعداداً لمقدم الجناب العالي الخديوي. وكانت عالية التوم على رصيف المحطة يتقدمهم حضرات شيخ الحرم ونائبه ونيب الاشراف وصاحب الفضيلة قاضي ومفتي المدينة.

وفي الساعة السادسة تماماً صرحت المدافع ايذاً بابوصول الركاب العالي فتشارفت الاعناق، وتكدت القامات، لمشاهدة الفطار من بعد، وما زالت الابصار تلمحه حتى وقف في رحبة المحطة (لان رصيفها ما كان كمل بناؤه). وهناك صعد سعادة المحافظ الى صالون الواو رلتادية واجب الاعظام، وتبليغ جنازه العالي سلام الدولة العلية، ونهاى الحكومة المحلية. ثم صعد شيخ الحرم ونيب الاشراف، وبعد واجب السلام نزل حفظه الله من المطار، وسلم على أعيان المدينة الذين قدمهم حضرة المحافظ الى جنابه العالي واحداً بعد الآخر، وسار ومن خلفه سعادة المحافظ ودوله الرئيس كمال الدين ورجال معيته السنية يتلوهم شيخ الحرم وأعيان المدينة المنورة بين صفوف المساكر التي كانت تؤدي التعظيم، وموسيقاهات ضرب السلام الخديوي، ودخلوا من باب العصرية: وهو باب عال مشيد يبلغ ارتفاعه نحو عشرين متراً منقوش بالليقة الذهبية ويسمونه الآن بالباب الرشادي تيمناً باسم صاحب الخلافة العظمى. وما زال السكل سائراً حتى وصلوا الى الصيوان المخصوصي الخديوي الذي كان قد نصب في مقدمة خيام حاشيته الكرامة داخل سور المدينة الكبير. فاستقبلهم جنابه العالي بكرمه وابتسامه، كما استقبلوه بصفوف بحياتهم ونهايتهم. ولقد كان الصيوان الخديوي حافلاً بكراء القوم، وكانت رؤساء المعية السنية يقدمون اليهم كل ما فيه راحتهم. وهناك قام الشعراء والخطباء، هؤلاء يرتلون آي الثناء والدعاء، وأولئك يصوعون النهاى، في اسلاك المثلث والمثلثين، حتى كان يحيل الينا ننايين وفود العرب على الرشيد، في يوم عيد. ومما يذكرون آداب القوم أنهم لما فرقت عليهم السيكرات أكرروا المقام على التدخين، وبعد ساعة انصرفوا شاكرين، وبكرم الجناب الخديوي متحدثين.

استقبال الجنائب والخيبة في مجملات الحكيم بن مدينته أمورة



الجناب العالى الخديوى بالمدينة المنورة

لما استراح الجناب العالى من عناء السفر ، امتطى صهوة جواده بعد صلاة العصر ، وقصد الحرم الشريف لاداء واجب الزيارة ، ومعه دولة البرنس وفضيلة الاستاذ المفتى وسعادة محرم باشا وبعض رجال المعية السنية . فدخل حفظه الله من باب السلام ، وبعد تأدية الزيارة وصلاة المغرب بالحرم الشريف ، أدى واجب الخدمة بالمقصورة الشريفة ، ثم قصد زيارة دولة الوالدة وكانت اقامتها مدة وجودها بالمدينة فى بيت شيخ الحرم ، الذى هو دار عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، ثم عاد حفظه الله الى مقامه فى معسكره .

وقد كنت توجهت الى الحرم مع بعض اخوانى من المعية السنية ، وكان يبعد عن مخيمنا الذى كان بجوار باب العنبرية بنحو ثلث ساعة سيرا على القدم . فدخلنا كالعادة من باب السلام ، وصلينا ركعتين فى الروضة الشريفة تحية للمسجد ، ثم خرجنا الى الرواق القبلى واتجهنا الى المقصورة الشريفة ، وتمثلنا بمنتهى ما يمكن من الخضوع والاستكانة امام أول باب منها ، تجاه مسار من القضة جعل فى مقابلة الكوكب الدرى الذى وضع فيها يحاذى الوجه الشريف . هنالك وقفت النفس بالمركز الذى ينبغى لها لقاء هذا الجلال وهذه العظمة : فكنت ترى الروح بمجموعه ، والقلب بخشوعه ، والطرف بدموعه ، واللسان بخضوعه ، ترفع عبارات السلام ، الى سدة سيد الانام . وبعد أن دعونا الله بما شاء الله ، انتقلنا الى مقام سيدنا أبى بكر بالشباك الذى يليه ، فسلمنا ودعونا . ثم انتقلنا الى مقام عمر بجواره ، فسلمنا ودعونا . ثم اتجهنا الى حائط المقصورة الشرقى ووقفنا بباب فاطمة ، فسلمنا ودعونا . ولست فى حاجة لأن أردد القول بان جلالة المكين ، ونخامة المكان ، لهما على الانسان ، مهما كان تأثير يقف به فى موقف الخاضع الخاشع !! وعلى كل حال فالكل يرى نفسه فى موقعه هذا قد وصل الى غايته ، وبلغ منتهى سعادته .

وكان الجناب العالى مدة وجوده بالمدينة المنورة يكثر من الصلاة فى الحرم ، ولا اذكر أنه

انقطع عنه في صلاة الفجر والعصر والمغرب والعشاء . وكان حفظه الله يؤدي شرف (١) خدمة اسراج القناديل في الحجرة الشريفة مساء ، واطفاؤها صباحا ، طول مدة الاقامة بها . ولقد سعدنا بالدخول في معيته السنية الى هذه المأمورية الشريفة غير مرة : فكان قبل صلاة المغرب نلبس فروجيات بيضاء ، ونشد عليها أحزمة ، ونلف على رؤوسنا عمامة على نظام خدمة الحجرة ، ثم نتشرف بالدخول ، من باب البتول ، وبعد مرورنا على حرم السيدة الزهراء ندخل من باب في غربه الى الحجرة الشريفة تقدم متلهمس ، وطرف منخفض ، وقلب خافق ، وفؤاد مضطرب ، ومثال متأدب . وجدان متغلب ، وروح ينكش خضوعا ، ونفس تذوب خشوعا ، وحشاشة تتصبب دموعا ، وألباب ترفع لا عتاب ذلك الجناب ، آيات السلام ، بكل اجلال واعظام . وبعد تأدية ما يسهه الله تعالى من شرف الخدمة ، نخرج من باب في الجهة الشرقية ، الى حجرة السيدة فاطمة رضي الله عنها ، وبعد أن نقرأ ما تيسر من القرآن بارح المسكان ، والجنان واللسان ، لا يستطيعان تصوير ما كان . وغاية ما كنا نشعر به عقب هذه الزيارة ، انما هو قوة تجددت في روحنا الذي امتلأ سرورا وجورا ، وراحة تمددت في وجودنا كنا نرى فيها كل عين وسعادة .

وفي يوم الثلاثاء بعد صلاة الفجر في الحرم الشريف ، أدى الجناب العالى خدمته بالحجرة الشريفة ، ثم قصد زيارة البقيع وهو مقبرة المدينة ، فابتدأ بزيارة قببة سيدنا عثمان بن عفان وهي في الشرق ، ثم قببة سيدنا الامام مالك وهي في وسطها ، ثم قببة سيدنا ابراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قببة زوجات الرسول عليهن رضوان الله ، ثم قببة (٢) سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن علي في الزاوية القبليّة الغربية بالبقيع ، وهي أنفخ القباب الموجودة

(١) هذه الخدمة يقوم بها الامراء والعطاء وغيرهم من أعيان المسلمين في زيارتهم للرسول عليه الصلاة والسلام . ولا تكون الا بصريح من شيخ الرأفة النبوية الذي يصدر فرمانا لمن يتشرف بالانتظام في سلك هذه الخدمة . ومن عادة هؤلاء الامراء ان يبيوا عنهم ، في أثناء المدة التي يكونون بمدين فيها عن المدينة أناسا من أهلها يقومون نادائها عنهم في مقابل مرتب يرسلون به اليهم سنويا .

(٢) بجوار هذه القببة قبر نطل القوقاز الشيخ شامل الذي توفي سنة ١٢٨٨ هـ .



باب السلام باجرم المذنی

به، ومقصورة سيدنا الحسن فيها فخمة جداً : وهي من النحاس المنقوش بالكتابة الفارسية، وأظن أهم من عمل الشيعة الأعجام . ثم زار حفظه الله كثيراً من قبور الصحابة والتابعين والصالحين . وبعد الظهر زار التكية المصرية وأثنى على مأمورها لما رآه من حسن نظامها، ثم ركب حفظه الله وقصده دار الحكومة العثمانية ليرد الزيارات إلى سعادة محافظها، فاستقبل بما يليق بمقامه العالي من مظاهر الأجلال والأعظام .

وفي يوم الأربعاء بعد صلاة الفجر وأداء الخدمة في الحجر الشريف، قصد الجناب العالي زيارة مسجد قضاء مع بعض رجال معيته السنية، ثم عاد حفظه الله قبيل الظهر إلى المسجد الشريف، فصلى الظهر فيه، ثم رجع إلى مخبئه وأمضى نية النهار في استقبال زائريه من رؤساء المدينة وأعيانها .

وفي يوم الخميس أدى الخدمة على حسب عادته، ثم قصد يار دسبد أحمده، وكان السيل قد قطع طريقه على زائريه، ولكن ذلك لم يوقف همه بجماله العالي عن سبده ريته . وسدع بحواده في الماء الذي كان على ارتفاع نحو متر، فاصداً عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحظي بزيارته . ووصل إلى معيته، ولا عرو وفعزائم الملوك ملوك العرائم .

وفي يوم الجمعة بعد أداء جملة السامى خدمته بالبحر السرى صباحاً رجع إلى المعسكر الحديوى، واستمر إلى قبيل الظهر في استقبال زائريه، ثم قصد الحرم الشريف لصلاة الجمعة . وبعد هارار دولة الوالد . ثم قصد منزله الشريف وأمضى يومه في توزيع الصدقات، وإسداء الاحسانات، والغار في ترتيب المرنات، لدوى الحاجات، من أهل المدينة وأحاورين، مصريين وغرب مصريين . وكان في الساء ذلك يصدر أو امره الكريمة تتجهز حملته ركانه العالي للسفر إلى تنوك في اليوم التالي . وبالجملة وقد كان حفظه الله مدداً قامته بالمدينة محط الآمال، ومكان الأعظام والأجلال، من جميع الطبقات، وكانت موسيقى المحافظه الحربية تحضر يومياً مآراً أوليلاً أمام الصيوان الحديوى وتشرف الاسماع بنعماتها الشجية .

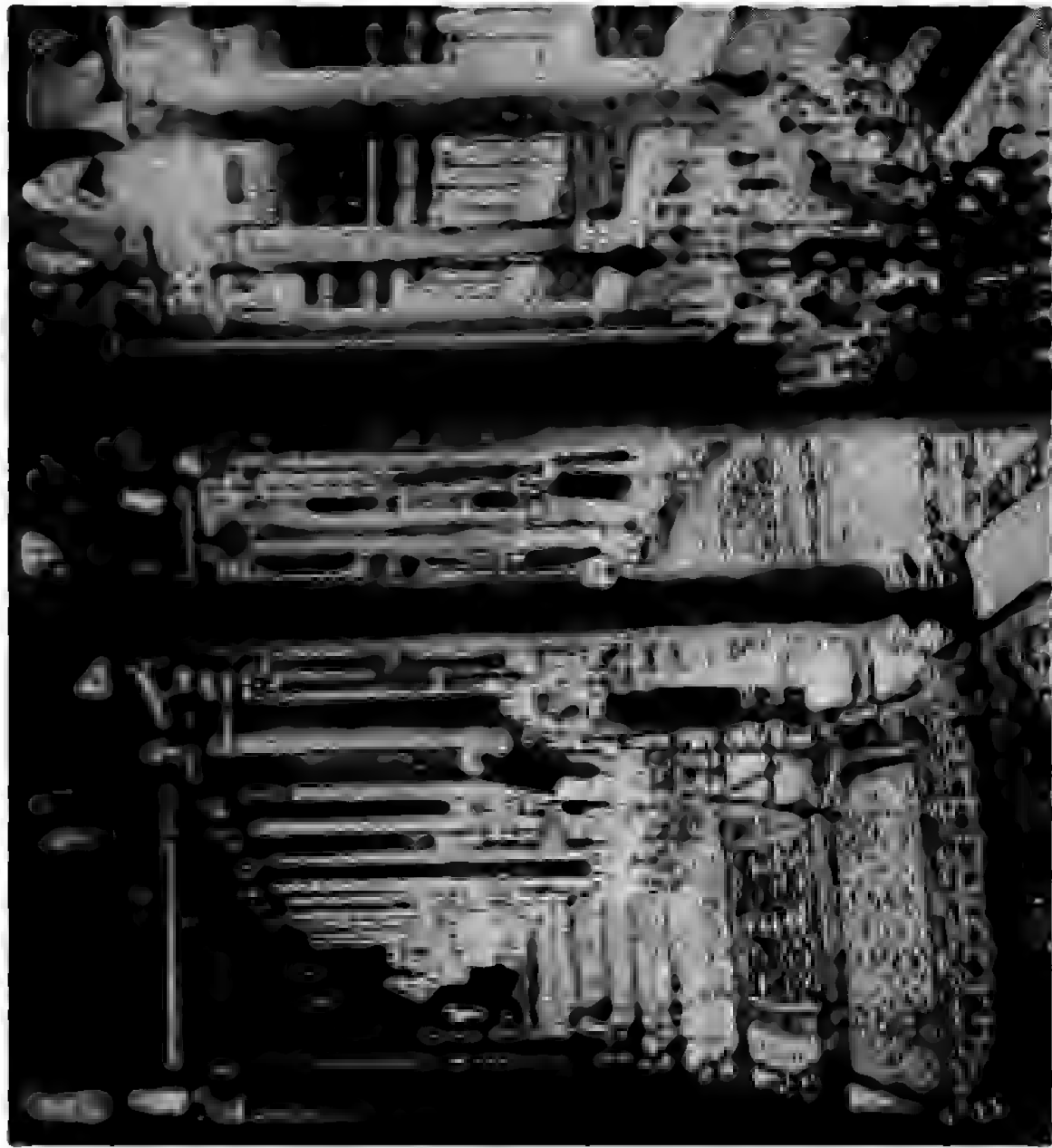
الحرم المكنى

الحرم المكنى وهو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، واقع في وسط المدينة بميل الى الشرق، وهو لطيف الشكل، جميل المنظر، على هيئة مستطيل، متوسط طوله من الشمال الى الجنوب مائة وستة عشر متراً وربع، وعرضه من الشرق الى الغرب من جهة القبلة ستة وثمانون متراً وخمسة وثلاثون سنتيمتراً، ومن جهة الباب الشامى ستة وستون متراً. وينقسم في وضعه الى قسمين المسجد والصحن: والمسجد يتدى من قبلة عثمان، أعنى من الحائط المبنى الى الصحن من جهة، وفي طول ما بين باب الرحمة وباب الساء من جهة أخرى. وهذا القسم جميعه مغطى بقباب ترتكز على أقواس قامت على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب. والقسم الثانى وهو الصحن، ويسمونه الحصوة، شكله مستطيل الى الباب الشامى ويحيط به من جهاته الثلاث، أروقة ثلاثة فيها أعمدة تحمل أقواسا رفعت عليها قباب تناطح السحاب!

وعدد جميع أعمدة الحرم الشريف بما فيها الملتصقة بجوائطه يبلغ ثلثمائة وسبعة وعشرين عموداً، منها ٢٢ داخل المعصورة الشريفة. وفي مدخل الباب الشامى للمدرسة المحمدية، وفيها كتابان لتعليم القرآن على الطريقة القديمة في ريف مصر، غير أن القرآن لا يحفظ فيها عن ظهر قلب بأجمعه^(١). ويوجد في الدور الثانى كتاب يقال انه يدرس فيه غير القرآن المحيد شئ من الحساب. ولهذا المدخل باب للحرم من الداخل يسمونه باب التوسل. والى جانبه فى جهة الغرب محل الاغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف، وفيه ميضاتهم وامكنة راحهم. والى جواره مخزن الزيت المخصص لتوفير الحرم، ثم باب للمدرسة (على

(١) لا يوجد في بلاد العالم الاسلامي من يحفظ القرآن بأجمعه عن ظهر قلب الا مسلمو مصر، وبلغهم أهل المغرب، أما باقي الجهات الاخرى فيقرءونه علاني المصاحف. وتتمار فقهاء مصر بحسن الترييل: لذلك تراهم ملحوظين من الاحرام اذا شحصوا للادعاء بلادهم، وخصوصا في الاسانة.

الزيتون الشريف وما يليها غرباً من الحرم النبوي



ما أظن)، وهذه الابواب الثلاثة في الرواق الشمالى . وفي وسط الصحن يميل الى الشرق حظيرة صغيرة سُورَت بدر بزين من الحديد ، وفيها بعض نخل صغيرة تبت حول نخلة عالية يقال انها أثر نخلة كانت في هذا المكان للسيدة فاطمة رضى الله عنها . وقبل هذه الحظيرة بئر ماؤها الذي اُسِمَها بئر النبي وبعضهم يسميها زمزم المدينة . ومن وراء هذه الحظيرة اقيمت شبكة من خشب الشيش على طول الرواق الشرقى عملت في عمارة السلطان عبد المجيد ، اشارة الى أنه محصص ^(١) للنساء ، ففيه صلاتهن واقامتهن في الحرم . وفي جنوب هذا الرواق دكة للاغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف : وهي مصطبة مسطحة نحو ١٢ متر طولاً في ٨ متر عرضاً وترتفع عن الارض بمسافة نحو أربعين سنتيمتر ، وكانت في عهده صلى الله عليه وسلم مكاناً لاهل الصفة ^(٢) وهم قوم من العفاة والمتقاعدين كان يصرف اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما كان يقوم بحياتهم من غذاء وكساء ، وكان منهم أبو هريرة وأبو ذر الغفاري رضى الله عنهما . وتحاذ هذه الدكة من الجنوب دكة أخرى أصغر منها متصلة بالمقصورة الشرقية من جهة الشمال ، وكان يتعبد في مكانها النبي صلى الله عليه وسلم . ويفصل بين الدكتين طريق يقى الى باب جبريل شرقاً ، وعلى يمين الداخل منه دكة صغيرة يجلس عليها شيخ الحرم ، والى جوارها محزن خاص بالمقصورة الشرقية التي توجد في الجهة القبليّة الشرقية من الحرم .

والروضة الشرقيّة في غرب المقصورة الشرقية : وهي مسافة ما بين القصر الشريف ودار الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقوله « ما بين قرى ^(٣) ومنرى وروضة من رياض الحنة » وهي تبلغ ٢٢ متر طولاً في نحو ١ عرضاً . ويفصل الروضة عن يادى عمر وعثمان اللتين في جنوبها ، در بزين من النحاس الاصفر ارتفاعه نحو متر .

والروضة على الدوام عاصمة بالناس لشرف مكانها . وفيها مما يلي هذا الدر بزين

(١) ربما كانت هذه الجهة محصية لصلاة النساء من صدر الاسلام يؤيده تسمية الباب الموصل اليها باب

النساء من زمن بعيد .

(٢) وكان بالمدينة غير الصفة دار تسمى دار القرى أو دار المصيف كانت توجد في الحو

العربي للمسجد وكانت محصية أيامه صلى الله عليه وسلم لمرور صيوقة اليها .

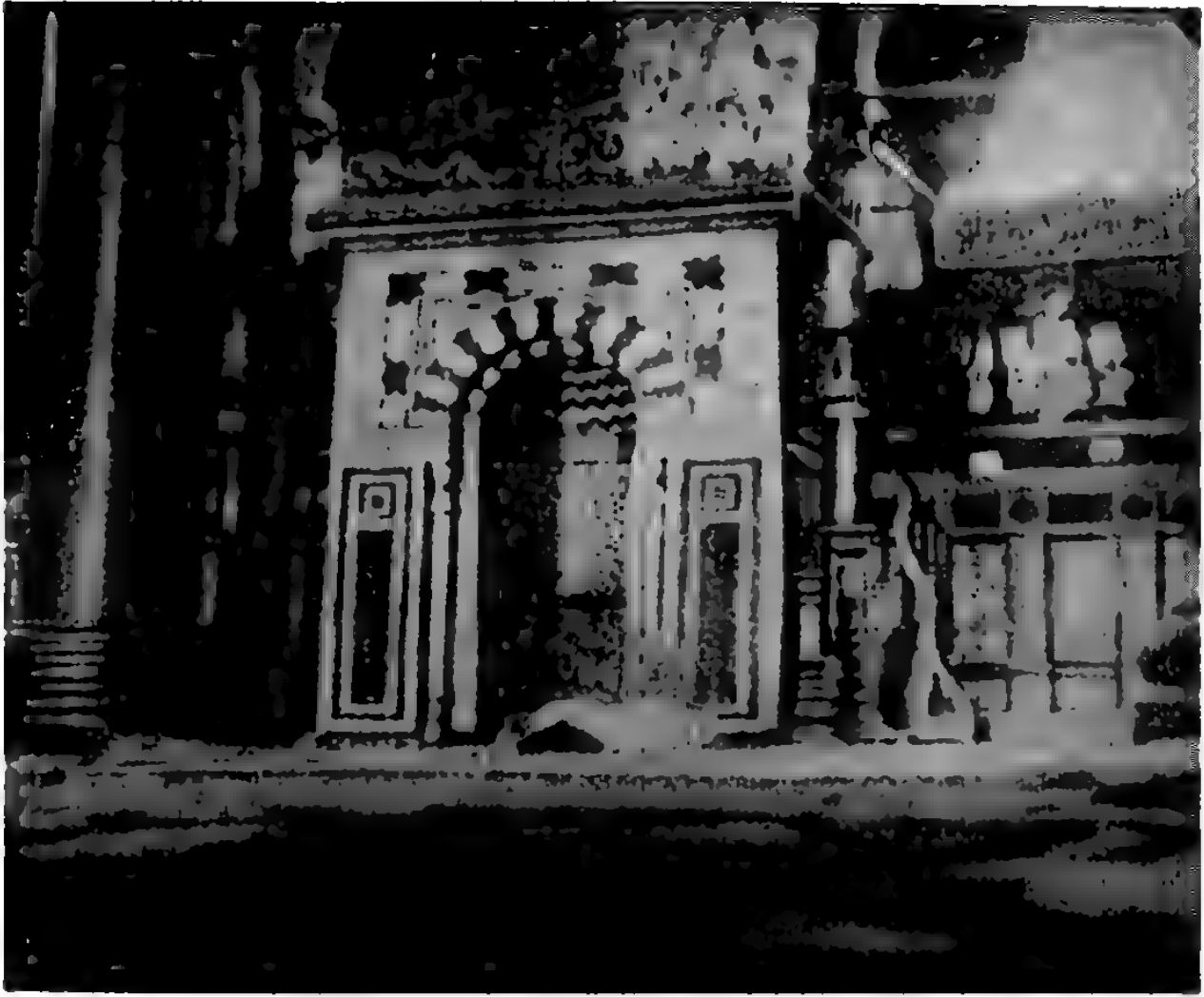
(٣) وفي رواية أخرى : ما بين يادى ومنرى الح

ربعات قرآنية كثيرة ، وعدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم ، منها ما هو بحرف الطبع ، ومنها ما هو بخط اليد الجميل ، وإلى جانبها نسخ كثيرة من دلائل الخيرات ، وكل ذلك موقوف عليها للقارئ من الزوار . وفي غرب الروضة الشريفة قبلته صلى الله عليه وسلم ، وهي آية من آيات الله في كمال بهجتها ، وجمال صنعها ، وهي على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة ، وضعها عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله تعالى بالصلاة إلى الكعبة المكرمة . وإلى غرب القبلة المنبر الشريف ^(١) وهو من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية في الجمال ودقة الصناعة ، أرسل هدية من السلطان مراد الثالث العثماني إلى الحرم سنة ثمان وتسعين وتسعمائة للهجرة ، فوضع في مكان المنبر الذي كان به لما يتباى ، وهو نفس المكان الذي كان به منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما ينبغي الإشارة إليه أساسيتنا الجمعة في المسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والتحية ، وكان الزحام شديداً ، وبعد أن زار الخطيب المتصورة الشريفة واستأذن للخطبة ، من الحضرة النبوية ، على حسب عادتهم حضراً لبساً قاووقا يسمونه كودابان ^(٢) ، تحف به الاغاوات من كل جانب ، ثم صعد المنبر ومال إلى جهة اليمين أعنى إلى المقام الاشرف الاقدس النبوي ، وبعد أن سلم بغاية الادب ، حمد الله وجعل خطبته كلها مبنية على سرد كثير من الاحاديث الشريفة في موضوع الحج والزيارة ، وضرورة

(١) وكان صلى الله عليه وسلم يخط على حذع بحلة ، ثم عمل له منبر من خشب الابل مركب من ثلاث درحات أو أربع ووضع في مكان الحذع الذي دُفن في شرق المكان الذي كان فيه حذاء عمود القبلة العربي . وكان معاوية أصاب درحتين على هذا المنبر فأحرق في حريق المسجد الاول الذي حصل في سنة ٦٥٦ هـ ، وما بقي منه وضع في صندوق ودُفن في حوار الحذع ، ووضع مكانه منبر من عمل الملك المطهر صاحب اليمن ، ثم استبدله بغيره الظاهر بدرس ، ثم غير الملك المؤيد بآخر أحرق في الحريق الثاني سنة ٨٨٦ هـ ، وعمل بدله الملك قايتباي المبر الذي نقل إلى مسجد قباء (ولا يزال به إلى الآن) بعد أن استبدلوه بالمراخالي

(٢) وقد رأيت الخطيب في المسجد الاقصي يلبس مثل هذا القاووق في الخطبة وهو من لباس القرن العاشر الهجري في الدولة التركية .



SCHWAB & SÖHN, GUTENBERG

القبلة النبوية بالرواق الشريف

توحيد القلوب ، وتقوية الوصلة والرابطة بين أفراد المسلمين . وكان يستند في نصائحه على أحاديث نبوية : فكان يقول مثلاً ورد عن فلان عن فلان عن نبيكم هذا ، ويشير بيده إلى الحجرة الشريفة ، ثم يسرد الحديث فكان لخطبته تأثير على القلوب لا يمكن تكييفه ولا توصيفه . ويوجد بالحرم النبوي للخدمة فيه نحو ألف نفس منهم ٤٦ خطيباً ، يتولى الواحد منهم خطبة الجمعة مرة واحدة في السنة ، طبقاً لترتيب مخصوص لا يتعدونه ولهم وكلاء كثيرون يتناوبون الخطبة عند غياب الخطيب ، و ٣٨ اماماً ، و ٦٢ مساعداً يتناوبون الامامة في الصلاة ، و ٥٠ مؤذناً ، و ٢٦ مساعداً مؤذن ، و ٥١ كناساً ، و ١١ بواباً ، و ٢٦ ضائعاً وحاجباً وخياطاً وخلافهم ، و ١٠ سقائين ، و ٤ ملائين ، و ٥٧٠ اغسيل ونظيف وتعبئة قناديل الحرم . أما الذين يقومون بحراسة الحجرة الشريفة والخدمة فيها فهم الاغاوات ، وأول من رتبهم للخدمة نور الدين الشهيد ، وكانوا اثني عشر ، واشترط أن يكونوا من حمالة القرآن الكريم وحفظته ، وجعل عليهم شيخاً منهم ، وزادهم يوسف صلاح الدين الابوبى اثني عشر آخرين . ومن ثم أخذت الملوك والسلاطين تزيد في عددهم إلى الآن ، وقد وصل عددهم في بعض الأزمان إلى أكثر من مائة شخص ، ولهم أوقاف مخصوصة ومراتب تأتيهم سنوياً من الاستانة وغيرها . ولهم دور بالمدينة يسكنون بها . وأغلب خدمة الحرم الشريف من غير مراتب ويعيشون من خيرات ذوي البر والاحسان . والقاعدة في خدمة الحرم الشريف : أن من يموت منهم تورع وظيفته ومرتبه على أولاده جميعاً : فاذا مات الخطيب مثلاً وكان مرتبه مائة قرش تعين بنوه في مركزه ووزع مرتبه عليهم وتولى العمل مكانه أكبرهم وهكذا في الخدمة : لذلك ترى مراتب الكل غير كافية عما يشهرون .

والحرم مهروش بأنواع السجاد المعجمي النمين ، وفيه شئ كثير من الاسطة المصنوعة بقورقة هر كه الشهيرة . وخصوصاً في الروضة الشريفة . والحمالة فهو آية من آيات الله في نظافته . ولطافته ، وحسن بهائه وروائه ، حتى أن الذي يدخله لا يود أن يبارحه مطلقاً .

وله خمسة أبواب : باب السلام ، وباب الرحمة في الغرب ، والباب المجيدي في الشمال ، وباب النساء . وباب جبريل (أو باب البقيع) في الشرق . وتقفل هذه الابواب

كلها بعد صلاة العشاء الى قبيل الفجر ، وهي سنة من عهد عمر رضى الله عنه . ويوجد بجوار باب الرحمة وباب السلام من الخارج حنفيات للوضوء من عمل السلطان عبد الحميد كما توجد أمكنة للحاجة على بعد منها .

﴿ أصل الحرم المدني وعمارتها والزيادة فيه ﴾

الحرم الشريف يحتوى الآن على مسجده صلى الله عليه وسلم ، وعلى بيت عائشة التى دخل عليها فيه فى الشهر السابع للهجرة ، وعلى حجرات زوجاته رضى الله عنهن ، مع الزيادة التى زيدت فيه . وكان يحيط بمسجده الشريف فى مدته صلى الله عليه وسلم مساكن زوجاته وأصحابه رضى الله عنهم ، فكانت مساكن أزواجه فى الجهة الجنوبية وفى بعض الشرقية من الحرم ، وكان يفصل بينه وبينها طريق عرضه خمسة أذرع .

وكانت دار أبى أيوب الانصارى ، ودار عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، جهة الشرق ، ولا تزالان موجودتان الى الآن ، وان كانت صورتها قد اختلفت عما كانت عليه فى صدر الاسلام . وفى زاوية دار عثمان المماثلة للحرم الشريف حجرة فيها شباك عليه لوحة من الخارج مكتوب فيها (مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه) ويسكن شيخ الحرم عادة فى هذه الدار .

وكانت منازل آل عمر رضى الله عنهم الى جنوب المسجد الشريف ويوجد الى الآن بستان ملاصق للحرم فى اتجاه الحجرة الشريفة من جهة القبلة جعل حرما له ، وبه باب فى خارجه مكتوب عليه (ديار آل عمر) . وكان محوارها من الغرب دار العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دار مروان بن الحكم وكانت على عين الداخل من باب السلام . وكان فى غرب المسجد دار أبى بكر رضى الله عنه ، والى جوارها شمالا مماليك باب الرحمة دار عبد الرحمن ابن عوف . وهذه الدور كانت لها فتحات على المسجد ، فرأى صلى الله عليه وسلم أن يسدها فقال (لا يبقين فى المسجد خوخة الا خوخة أبى بكر) فسدت جميعها الا خوخته رضى الله عنه : ولا يزال فى جدار المسجد شمال باب السلام باب صغير (لخزن تجاه المفصورة



الشريفة) يمثل هذه الخوخة، وموضوع عليه لوحة كبيرة مكتوب فيها الحديث المذكور بخط غاية في الجمال .

وأول من جدد في عمارة المسجد النبوي عمر رضى الله عنه ، فبنى حوائطه وغير بعض أساطينه ووسع فيه قليلا . أما عثمان فتمد زاد فيه الى قبلته الجنوبية وبناه بالجص والحجارة ، وفي سنة ثمان وثمانين أرسل الوليد بن عبد الملك لعامله على المدينة عمر بن عبد العزيز فزاد في المسجد شرقاً وغرباً وجنوباً ، وأدخل فيه حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وبنى له أربع مآذن ، وفرش أرضه بالرحام ، ووشى حوائطه بالقسيه ساء (الموزاييك) وكساسة ققه بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر ، ثم زاد فيه المهدي العباسي سنة مائة وستين ، وقام بعمارته أحسن قيام . ثم عمره الخليفة المستعصم ، ثم الظاهر بيبرس . وفي سنة ثمان وسبعين وستمائة أقام الناصر قلاوون قبة الحجر الشريفة ، ولم يكن لها قبة قبل ذلك . ثم عمره الاشرف برسباي سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة . ثم الظاهر برقوق سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة . وفي سنة ست وثمانين وثمانمائة انقضت صاعمة على المسجد وأحرقتة جميعه بحال مريعة لم ير الرءاءون مثلها ، ولم يمكن أهل المدينة أن يقوموا في وجه النار التي لم تكن تبقى على شئ في طريقها ، إلا أنهم لم تمس الحجر الشريفة بشئ بالمرّة !! و بمجرد ما بلغ هذا الخبر السلطان قايتباي ملك مصر ، أمر في الحال أن ينقل الى المدينة جميع عماله الذين كانوا يشتغلون في الحرم المكي ، وما زالوا يشتغلون بهمة فائقة في الحرم المدني حتى أتوه على أحسن هدام ، على هذا القوام الحالي ، وبنوا الحجر الشريفة على المخامة والحال اللذين تراهما عليها الى الآن ، وأقاموا على القبة الشريفة قبة أخرى أعلى منها ، وبنوا في الجهة الغربية من الحرم على شمال الداخل من باب السلام مدرسة عظيمة وأوقف عليها قايتباي الاوقاف الكثيرة وتسمى بمدرسة قايتباي الى الآن . وقد رأيت له باباً كان أرسل من مصر أثناء هذه العمارة ووضع على باب السلام ، ولما وسع هذا المدخل في عمارة السلطان عبد الحميد نقلوه الى الباب الحميدي : وهو من الخشب الثمين المغطى بالقطع النحاسية المنقوشة أو المكتوبة ، بل هو من أنحر ما يرى الناظرون من الصناعة المصرية القديمة التي قبرت من

عهد بعيد !! وفي سنة ٩٨٠ عمره السلطان سليم الثاني ، وبنى فيه بين المنبر الشريف ومدرسة قايتباى قبة جميلة وشاهها بالسيفساء المنقوشة بـ «الذهب» وكتب اسمه على ظهرها بالخط الثلث الجليل ، يشاهده السالك من باب السلام الى الحجرة الشريفة . وفي سنة ١٢٣٣ بنى السلطان محمود القبة الشريفة ، ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الاخضرى سنة ١٢٥٥ ، ومن ثم سميت بالقبة الخضراء . وفي سنة ١٢٧٠ أمر السلطان عبد المجيد خان رحمه الله بعمارتها والزيادة فيه الى الشمال ، فكان ذلك وتمت عمارته على ما هي عليه الان ، وشاه بالنقوش والزخارف التى تفوق حد الوصف ، وكتب على جداره مبتدأ من باب السلام الى الشرق ، سورة الفتح بالخط الثلث المحوِّف ، وفي السطر الذى تحتها سورة أخرى بخط أرفع منه ولكنه أكثر تعليقاً ، ومن تحته سطر آخر أصغر من الذى فوقه ، فيه أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، وقصيدة البردة مكتوبة فى محيط قباب المسجد ، وفي الزوايا التى تركز عليها هذه القباب أسماء الله ورسوله وآله وبعض صحابته . وكل ذلك مكتوب بخط غاية فى جماله وحسن تنسيقه ، وكما لوضعه : وحسبك أنه أثر ذلك الخطاط الشهير المرحوم عبد الله بك زهدى الذى أوفده السلطان عبد المجيد الى المدينة لهذه الغاية ومكث فيها بضعاً وعشرين سنة يعمل فى بيت رسول الله بما آتاه الله من إحكام فى صناعته ونبوغ فى مهنته . وقد ورد فى مرآة الحرمين أن هذه العمارة صرف عليها نحو مليون ليرة عثمانية . وليس هناك أثر^(١) يذكر لمن بعده من الملوك سوى ما أدخل اليه من أسلاك النور^(٢) الكهر باني فى زمن

(١) رأيت عند صديقى الفاضل الشيخ مصطفى الحريري الخطاط الشهير بمصر لوحة مأخوذة بالقوطى عراف من خط المرحوم عبد الله بك زهدى على باب الحرم المدني فيها هذه الايات :

معصاح باب الله طه المرجي * بحر المكارم ملجأ الطلاب
سلطاننا عبد العزيز لحابه * ليفوز بالآمال والآراب
وعدا لسان مقاله متمثلا * اذ كان خادم هذه الاعتياب
ان الوسائل للملوك بابهم * ووسيلتى العظمى بهذا الباب

(٢) ومدة يارتنا للمدينة كان الحرم الشريف مناراً بالربوت والشموع على عادته لار المهندس الكهر باني المحصن لماشرة الالة التى تنير الحرم كان أصيب منها بما أفقده الحياة فوقف عملها الى أن يسحصر لها مهندس آخر من الاستاذ^{١١}



مظفر الحقیم الشوی من افاض الصحن و باجرة الشیخ
وستان الرشید فاعلمت زنتی اند عسما

السلطان عبد الحميد ، وابتدأت الأارة به في الحرم الشريف رسمياً في يوم الاحتفال بافتتاح السكة الحديد الحجازية بالمدينة المنورة في ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٦ .

والمقصورة الشريفة من نحاس أصفر غاية في حسن الصناعة ، عملت في مدة العماراة التي قام بها قايتباي في سنة ٨٨٨ ، ولها باب على الروضة الشريفة يسمى باب الرحمة أو باب الوفود ، وإلى جانبه من جهة الجنوب شباك يفتح عليها يسميه الحجاج شباك التوبة ، وهو الذي يذكرونه في قصصهم فيقولون « وحياة النبي الذي وضعت يدي على شباك » ، ولها أيضاً منفذ إلى جهة القبلة في المواجهة الشريفة و يفتح عند الامور الهامة للدعاء والاستغاثة . ويتصل هذه المقصورة من جهة الشمال مقصورة السيدة فاطمة ، وهي على استقامتها من الغرب ، وتدخل عنها بمسافة متر ونصف من الشرق .

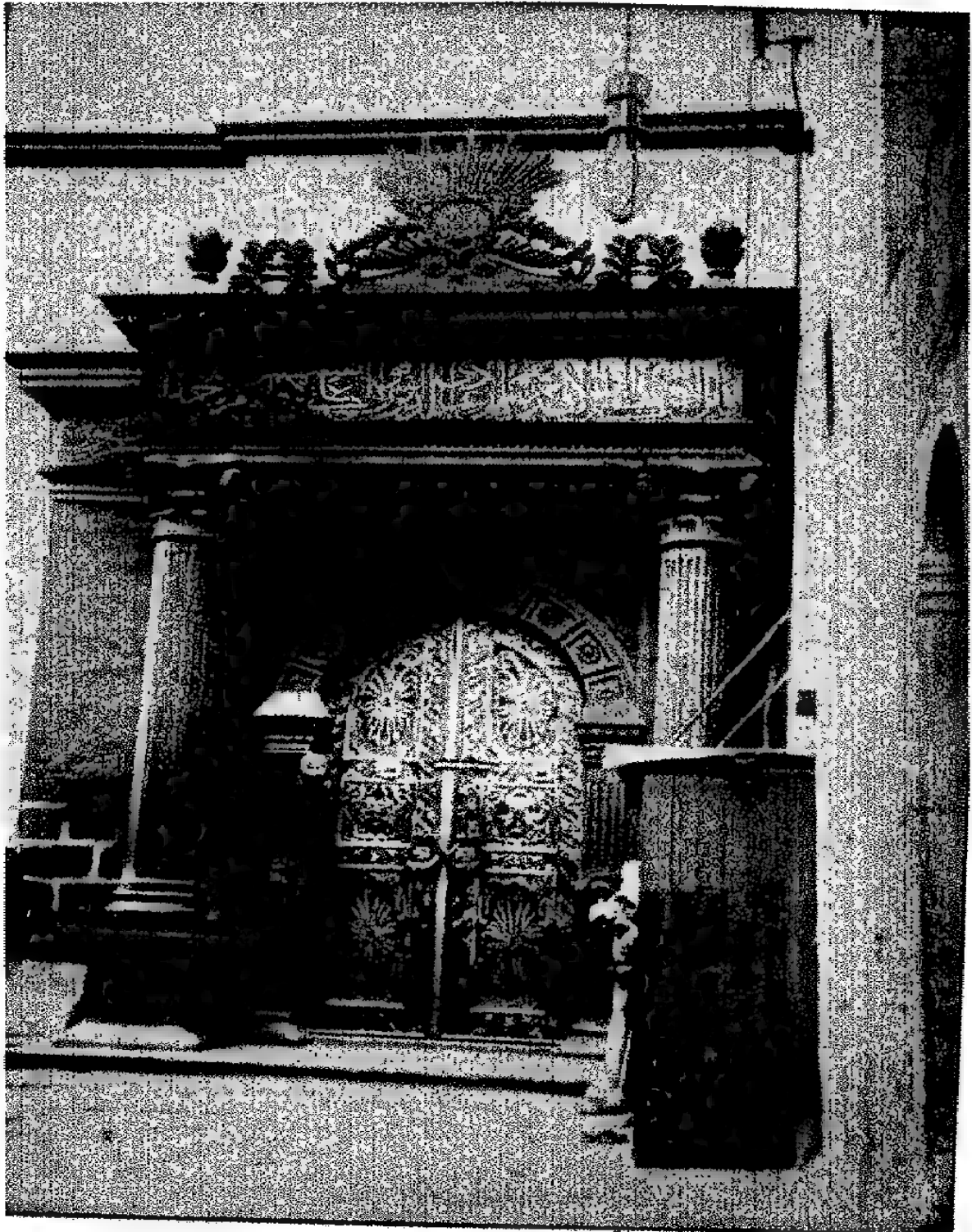
وطول المقصورة النوية الشريفة من ضلعها الجنوبي والشمالي ١٦ متراً ، ومن الشرق والغربي ١٥ متراً . وفي زواياها الأربع أعمدة مزوية عظيمة ، بنيت من الحجر الصلد على ارتفاع السقف ، وعليها ترتكز قواعد القبة الشريفة . أمام مقصورة السيدة فاطمة الزهراء فطولها من الجنوب ١٤ متراً ونصف ، ومن الشمال ١٤ متراً فقط ، ومن الشرق والغرب نحو سبعة أمتار ونصف . وهي تنصل بالمقصورة الكبرى من الداخل بابين : أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب . قد أقيم فيما بينهما ضريح على المكان الذي دفنت (١) فيه السيدة فاطمة على قول الكثيرين . وفي داخل المقصورة الكبرى الحجرة الشريفة وهي المكان الذي توفي به رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ للهجرة ودفن فيه عليه الصلاة والسلام في اليوم التالي : لقوله صلى الله عليه وسلم « ما قبض بي إلا دفن حيث قبض » ، ورأسه عليه الصلاة والسلام إلى الغرب . ولما توفي أبو بكر في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة دفن إلى جانبه من جهة الشمال ورأسه إلى قدمي الرسول عليه الصلاة والسلام . ولما طعن عمر رضي الله عنه استأذن من

(١) وكانت وفاتها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم بنحو شهرين ، وقول بعضهم أنها دفنت

بمسما المروفة إلى الآن باسمها في الراوية البرية القلية من البقيع .

عائشة أن يدفن مع صاحبيه ، فأذنت له ، فلما مات يوم الاربعاء ٢٧ ذى الحجة سنة ٢٣ للهجرة دفن الى جوارهما ، ورأسه محاذية لمنكبى أبي بكر رضى الله عنهما . وقد أقيمت على هذه القبور الثلاثة مقصورة من البناء على شكل ذى خمسة أضلاع ارتفاعه أكثر من ستة أمتار . وأوّل من بنى هذه المقصورة عمر بن عبد العزيز فى عمارته للمسجد ونزل أساسها الى غور بعيد ، وجعلها على الشكل المزوّر المتقدم حتى لا تكون مثل الكعبة فى تربيعها خوفاً من أن يتخذها الناس قبلة لهم . وكانت الحجرة الشريفة تسع قبراّ رابعاّ ويزعمون أنه مكان قبر عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء فى آخر الزمان ؟؟؟ وقد قيل فيه لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة لو أتيت المدينة وأقيمت بها فان مت دفنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضى الله عنهما . فقال والله لأن يعذبني الله عز وجل بكل عذاب الا النار أحب إلىّ من أن أعلم أنى أرى نفسى لذلك أهلا ! فانظر الى درجة أدب الرجل وتنسكه مع ما كان فيه من سعة الملك الذى خلق على أطراف المعمورة بأجمعها رضى الله عنه .

وفى سنة ٥٥٧ بلغ نور الدين زنكى أن الصليبيين الذين كان مشتغلا بمحاربتهم كانوا يعملون لسرقة الجثة الشريفة ، فأمر بإحاطة الحجرة الشريفة ببناء آخر ، نزل بأساسه الى مناسع الماء ، ثم صب الرصاص على دائره حتى صار بحيث لا يمكن أن تتناول يد الزمان وقد وضع على هذا البناء ستر من الحرير الاخضر مكتوب فيه « لا اله الا الله محمد رسول الله » يحيط بها أحجبة مكتوب فيها قوله تعالى « ما كان محمد أباً أحدهم من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحيط بهذا الستر (على ارتفاع مترين ونصف تقريباً) حزام من الحرير الاحمر عرضه نحو ثلاثين سنتيمتراً مكتوب فيه تقصّب الذهب اسم السلطان الذى أمر بعمل الستر الشريف . وهذه الكسوة ترسل من الدولة العلية عند تولية كل ملك من ملوكها ، والكسوة الحالية وصلت الى الحجرة الشريفة بعد اعلان الدستور . وأوّل من كسا الحجرة الشريفة الخيزران أم هرون الرشيد ، عندما قدمت فى حجه الزيارة النبوية عليه الصلاة والسلام .



باب الرحمة بالحرم المكي

وصارت من بعد هاسنة الملوك والسلاطين . وبين بناء المقصورة والشبكة النحاسية الخارجة طريقة متوسطة سمعتها نحو ثلاثه أمتار من جهاتها الشرقية والغربية والقبلية ، وفي زاوية هذه الطريقة من الجنوب كرسى موضوع عليه مصحف شريف كبير ، أهداه الى الحجرة الشريفة الحجاج بن يوسف الثقفي ، ويقولون انه من المصاحف الستة التي كتبها عثمان بن عفان .

وسماء هذه الطريقة مملوءة بثريات من الذهب والفضة ، وخصوصاً في الجهة الجنوبية فيما يقابل الوجه الشريف : فان فيها كثيراً من المشاكي الذهبية ، منها إحدى وثلاثون مشكاة مرصعة بالماس والزمرد والياقوت ، ومعلقة بسلاسل النضار . ومجموع مصابيح الحجرة الشريفة مائة مصباح وستة .

وفي مقابلة الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر من الماس البرلاني في حجم بيضة الحمام الصغيرة ، يحيط به إطار من الذهب المرصع . ويقدر وزن ثمنه في ذاته بثمانمائة ألف جنيه ، أما في شرف سبته الى الحجرة الشريفة فقيمته أكبر من أن تقدر بثمن ، ويسمونه بالكوكب الدرى لشدة تألقه وعظيم سنائه وبهائه . وهو مثبت في لوحة من الذهب ورصع يحيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة كبيرة من الجواهر الثمينة . وهذا الكوكب أهداه للحجرة الشريفة السلطان أحمد خان الاول ابن السلطان محمد خان من سلاطين آل عثمان في مبادئ القرن الحادى عشر الهجرى . وقد علق تحته كف من الذهب المرصع بالجواهر ، وفي وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى ، أهداه اليها السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الاول في سنة سبع وأربعين وألف للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة الماس البرلاني « لا إله الا الله محمد رسول الله » أهدته اليها صاحبة السموات والمعصمة عادلة سلطان بنت السلطان محمود سنة ألف ومائتين وأحدى وتسعين هجرية .

وفي هذه الحجرة الشريفة غير هذا ، كثير من الجواهر الفاخرة التي لا تقدر بثمن : منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس اسم السيدة فاطمة الزهراء

وهي موضوعة على مقصورتها الداخلية في الجانب الشرقى ، والى جوارها عقده من اللؤلؤ الكبير الحجم ، لا يماثله شئ في عظمه وجوهره ، وعقود أخرى من المرجان النادر المثال .
ويوجد فيها شمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ، منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين ، أهدهما اليها السلطان عبدالحيد خان في سنة أربع وسبعين ومائتين وألف ، وشمعدانان آخران أهدهما السلطان محمود . والى جانب هذه الشمعدانات مكانس من اللؤلؤ ، ومراوح مرصعة بالأحجار الكريمة ، وعصاقي ومباخر مرصعة ، وهذا عدا ما يوجد في خزائن الحجرة الشريفة من المصاحف الجوهرة والتحف الفاخرة ، وكثير من الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة التي لم تكن مشغولة ، وغير ذلك من الاساور والاقراط وخلافها . وبالجملة فقد قدر ثمن مال الحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات .

ولقد كانت الملوك والكبراء والعظماء يهدون لها في كل الا زمان كثيرا من الجواهر الفاخرة والذخائر الثمينة . وكثيرا ما كانت تتناول اليها يد الاشرار من ولادة المدينة مثل جواز ابن هبة الذي نهب في سنة احدى عشرة وثمانمائة من ذخائر الحرم المدني ما قدره السهمودي بعشرين قنطارا من الذهب . وتبعه في ذلك الشريف حسن بن زبير المنصوري سنة ٩٠١ هجرية فأخذ منه شيئا كثيرا . وفي مبدا القرن الثالث عشر الهجري كانت الحجرة الشريفة عامرة بما لا يحصى من الذخائر الثمينة ، فنهبا الوهابي سنة احدى وعشرين ومائتين وألف ، و ناع بعضها الى الشريف غالب بمبلغ خمسين ألف ريال ، و بعد تميم الصلح بين ابن سعود وطوسون باشا اشترى منه هذا الاخير بعض ما نهبه أبوه من آثارها الذهبية بمبلغ ألفي جنيه مصري ، ورد لها للحجرة الشريفة . وكذلك رد اليها محمد علي ما أعطاه اليه الوهابي من ذخائرها وأهداها هو بشمعدان كبير من الذهب الخالص وشمعدانين من الفضة مكتوب عليها « العبد المذنب محمد علي والى مصر سنة ١٢٢٨ » . وأهداها عباس باشا الاول شمعدانات من الفضة وثريتين (نجفتين) من الفضة : واحدة ذات ٣٦ شمعة معلقة في الحراب العثماني ، والاخرى ذات ثلاثين شمعة معلقة تجاه الوجه الشريف ، و ثريات

وشمعدانات أخرى من البلور . ولسميد باشا وبعض كرمات العائلة الخديوية بالحرم الشريف هدايا أخرى . وآخر ما قدم للحجرة الشريفة لهذا العهد واليب ثمينة جداً أقدمتها البهادولة والدة الجناح العالى الخديوى لتحفظ فيها هذه الآثار الكريمة جزاها الله خيراً .
وتخدم الحجرة الشريفة بغسلوها فى السنة ثلاث مرات : واحدة فى يوم ربيع الاول ،
والثانية فى أول رجب ، والثالثة فى الثامن عشر من ذى القعدة . ويكون لذلك احتفال كبير ،
وماء غسيلها يفرقونه فى قوارير على أكابر المسلمين للتبرك به .

﴿ بحث فيما كان عليه بيته صلى الله عليه وسلم بالمدينة ﴾

من ينظر الى المقصورة الشريفة الحالية ، ويعلم أنها أقيمت على مكان بيت النبي صلى الله عليه وسلم (المشهور ببيت عائشة) ، ويفكر فى أبوابها ، وتسمية كل باب باسم مخصوص ، ويضيف الى ذلك أن بيت السيدة فاطمة كان بجانب بيته صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان فيه شباك بطل على بيت أبيها ، وكان صلى الله عليه وسلم يستطلع أمرها منه حتى تسدّه محبة فى استقلال كل بيت عن الآخر ، يحكم معى أن وضع بيته مدة وجوده صلى الله عليه وسلم كان على نحو الشكل الآتى :

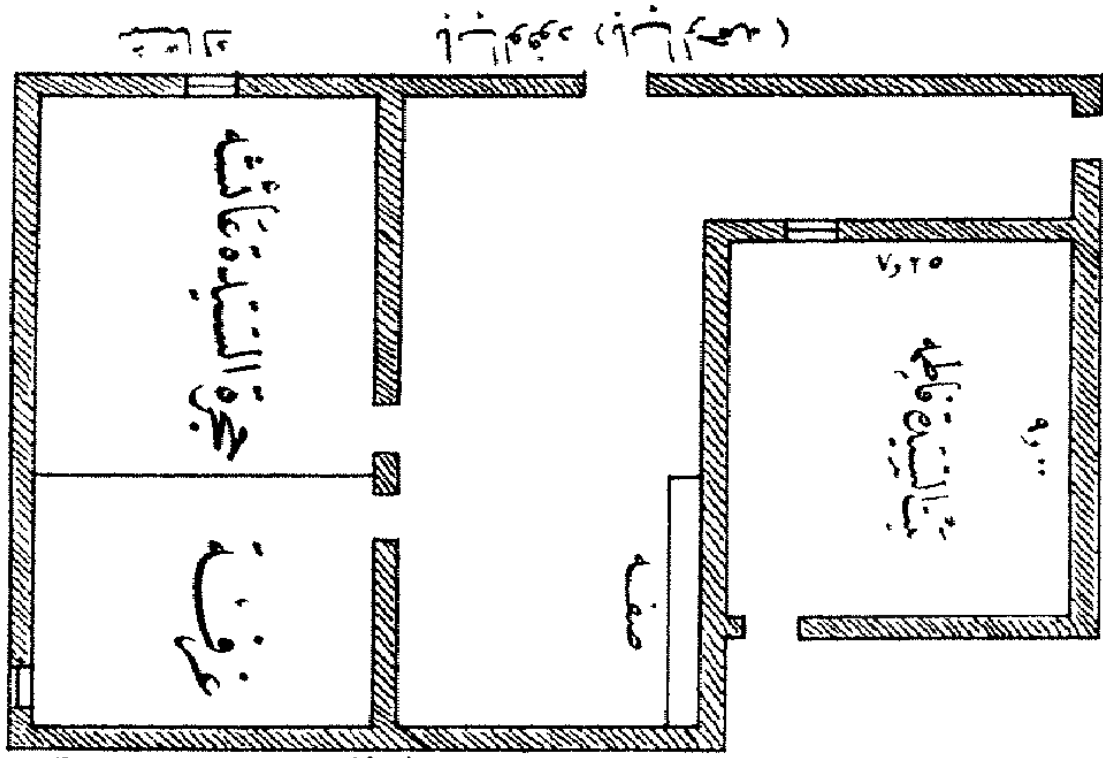
والذى ساعدنى على هذا الوضع ماورد عن مالك رضى الله عنه « قسم بيت عائشة باثنين ، قسم كان فيه القبر ، وقسم كانت تكون فيه عائشة ، وبينهما حائط ، وكانت عائشة رعا دخلت حيث القبر فضلاً (يعنى سافراً) ، فلما دفن عمر رضى الله عنه لم تدخله الا وهى جامعة^(١) عليها ثيابها » .

ومن ذلك تعلم أن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان به حجرتان . أما بابه فقد قال بعضهم انه للشام ، وقال آخرون انه للغرب ، ولكن يستنتج من رواية ابن سعد أن له بابين حيث قال : « لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا (الصحابة) كيف نصلى عليه ؟ قالوا ادخلوا من ذا الباب ارسالا ارسالا فصلوا عليه واخرجوا من الباب الآخر » ،

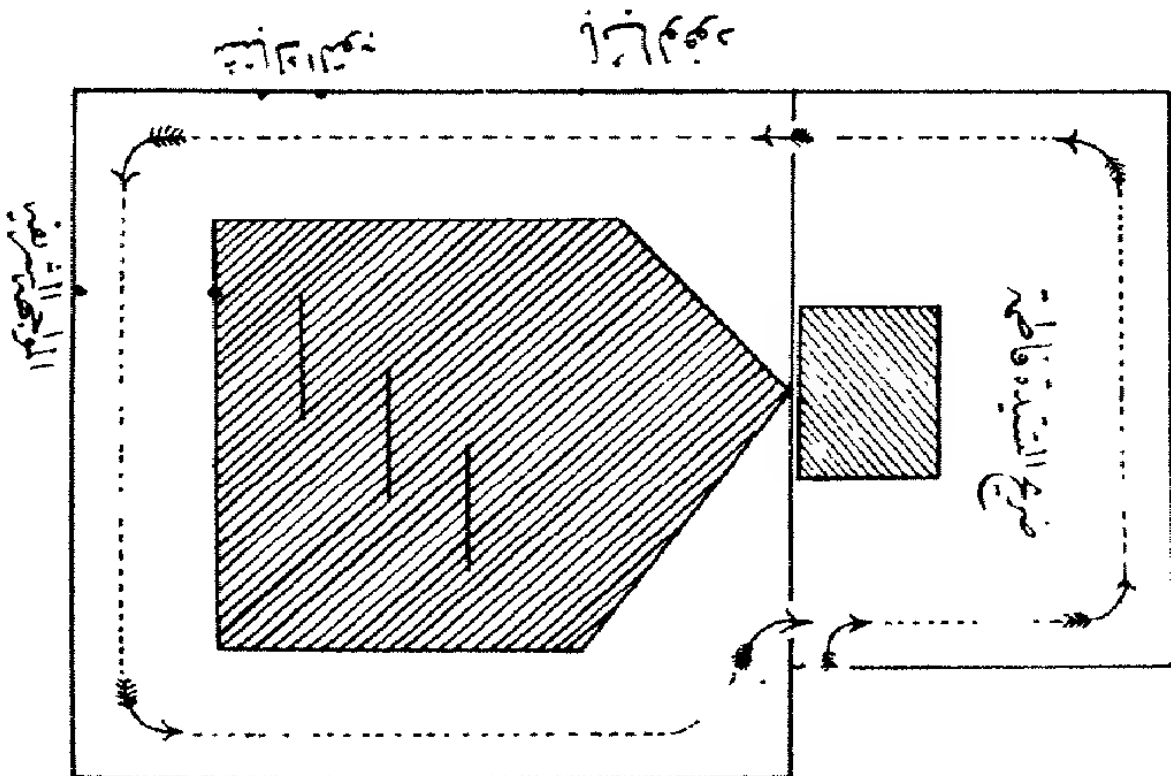
(١) أنظر حفظك الله ورعاك الى هذا الادب العالى والحياء العالى الذى بلغ بكمال القوم رسوان الله عليهم والحفاطة على الحجاب حي على الاموات وحتى مع عمر وهو ميت .

الناحية

شمال



رسم وضعي بقبر النبي لمزل النبي (ص) بالمدينة



رسم للمقصود الشريف الحالي التي بها قبره عليه الصلاة والسلام والى جواره قبر السيدة فاطمة

ومما ورد أيضاً أن بيت السيدة عائشة كان به صُفَّة الى منزل فاطمة ، وكان به فتحة الى القبلة يؤيد ذلك قول ابن ذبالة : « كان بين بيت حفصة ومنزل عائشة الذي فيه القبر الشريف طريق ، وكانت اتها ديان الكلام وهما في منزلهما من قرب ما بينهما » . وحفصة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم و بنت عمر بن الخطاب وكان بيتها كما لا يخفى على عمن خوخة آل عمر ، أى فى جنوب بيت عائشة الى الشرق .

وإني لم أجسر على هذا الوضع الا بعد تدقيق شديد فى أقوال الصحابة والتابعين الذين كانوا يتحرون كل واقعه عليه الصلاة والسلام ، وخصوصاً فى بيته الذى أجمع المسلمون على أن موضع قبره صلى الله عليه وسلم فيه أشرف بقعة على سطح الارض . وعلى كل حال فهذا استنتاج لى أو رده لك وأنت حر فى تحسينه أو توهينه ، ولو بدون دليل تقميه عليه . وعليه فيكون بيت السيد الرسول مدة حياته فى المدينة على الرسم (الموضوع فى جنوب المفصورة الشريفة) وهو أكثر بساطة من مسكنه فى مكة . وكان من دونه كما سبق منازل أزواجه رضى الله عنهم : وكان محيطها مع منزل عائشة مبدياً باللبن ، وفواطعها الداخلة من الحر يد المكسو بالطين والمُسوح الصوفية : ومن ذلك يمكنك أن تحكم على مقدار بساطته صلى الله عليه وسلم فى مسكنه . بحيث انه ما كان يتعدى فى أى حال من الاحوال الضرورى لحياته ، وحياة أزواجه . وقد ورد عن عطاء الخراسانى أنه قال : « أدركت حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فحضرت كتاب الوليد يُقرأ يا مر ناد خالها فى المسجد فما رأيت يوماً كان أكثر باً كيأ من ذلك اليوم ، فسمعت سعيد بن المسيب يقول « والله لو دذت أنهم تركوها على حالها ، ينشأ ناس من المدينة ويفدم قادم من الآفاق فترى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، ويكون ذلك مما يزهده الناس فى التكاثر والتفاخر فيها » . ومع هذا فإنا اذا أبعمت النظر فى هيئة المكان على بساطته ، وفكرت فى وضعه الصحى ، وكيف كانت منافذه منقية للهواء ، وأبوابه داعية الى السهولة فى الدخول والخروج وخفة الحركة مع وفرة الزمن والسرعة الى المقصد ، مما شرع فيه الآن فى العمارات الكمالية ، عرفت ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القناعة ، والزهد ، وحسن

الذوق . ومن يتأمل في ذلك يرّ فيه خير درس للناس يتعلمون منه كمال وضع الامور في مواضعها ، من غير زيادة عن الحاجة ولا نقص عن الضروري ، وهناك يرى الغنى في ماله فضلة يساعد بها الفقراء من عيال الله : فتبادل عاطفة الحنو والشفقة فيما بينهم ، وثبت قدم المحبة في أفئدتهم ، فيصبح الكل بين محب ومحبوب ، وشاكر ومشكور ، وحامد ومحمود ، وهناك تزول عوامل الحسد وتموت شياطين التنافر والبغضاء ، ويتحد الكل على العمل ، بل ويعمل الكل للكل ، ويكون الناس على اختلاف طبائعهم وعوائدهم كأعضاء جسم واحد تعمل كلها حياته ووجوده ، وإذا يكونون قد قاموا بالأمور التي وجدوا من أجلها وهي خدمة الانسانية .

المدينة المنورة

المدينة المنورة، أو مدينة الرسول ، واسمها طيبة ، وكانت تسمى قبل الهجرة يثرب ، ترفع عن سطح البحر بنحو ٦١٩ متر ، وهي واقعة على طول ٣٩ درجة و ٥٥ دقيقة شرقاً ، وعلى عرض ٢٤ درجة و ١٥ دقيقة من شمال خط الاستواء ، (أعني على عرض خط دراء التي توجد فيما بين اسسا واسوان) ، ودرجة حرارتها في الصيف تصعد الى ٢٨ درجة سنتجراد ، وتنزل في الشتاء الى عشر درجات فوق الصفر نهاراً ، والى خمسة تحت الصفر ليلاً ، وكثيراً ما يرى فيها الماء متجمداً في آبارته عند الصباح في زمن الشتاء ،

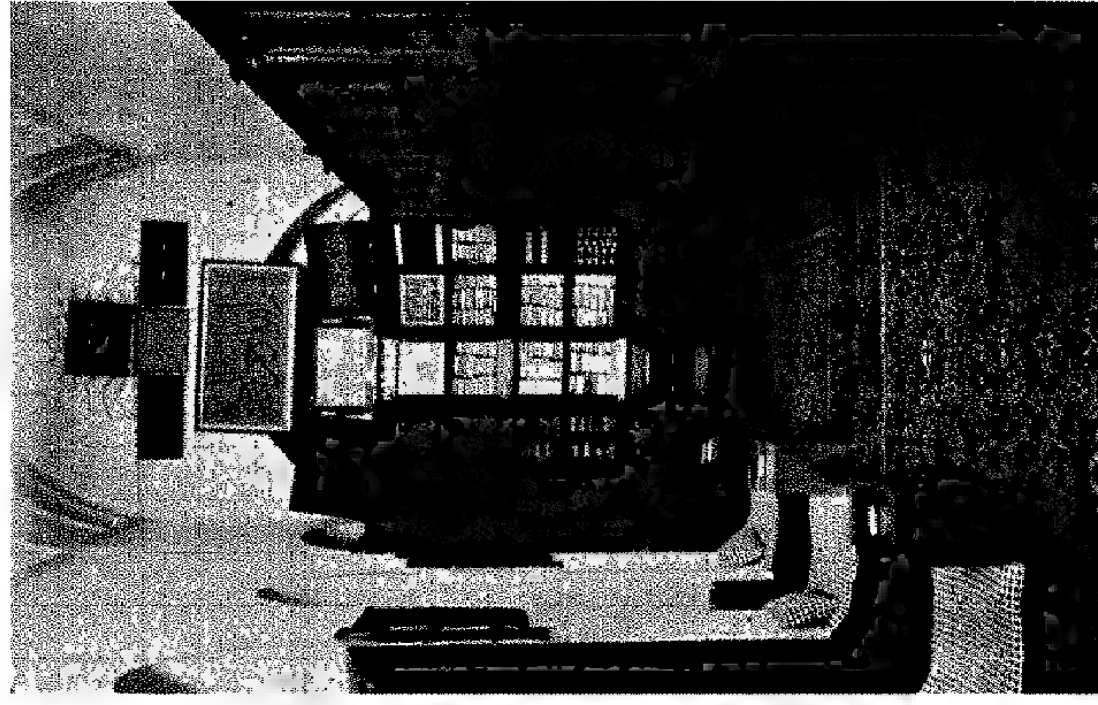
وإذا صح ما ذهب اليه بعضهم من أن كلمة يثرب محرفة عن الكلمة المصرية (إتر يس) . كان لنا أن نذكر في أن الذين بنوها انما هم العمالقة بعد خروجهم من مصر ، ولنا في يهوديتهم ما يؤيد قول من ذهب الى أن موسى في طريقه الى فلسطين ، أرسل فرقة من قومه لتكتشف له تلك الجهة ، فساروا اليها ، وبلغهم موته فبنوا مدينة اتر يس وأقاموا فيها . وعليه فعمران المدينة يبتدئ من سنة ألف وستمائة قبل المسيح أو الفين ومائتين واثنين وعشرين قبل

الهجرة : وعلى ذلك يمكننى أن أقول أن لفظ طيبة ان كان مستعملا اسمها من قبل الاسلام فلا بد أن يكون مصريا أيضاً .

والمدينة مركز لواء وكانت الى عهد قريب ملحقة بولاية الحجاز وجعلت الان متصرفية قائمة بنفسها (كما بلغنى) وفيها عاملان كبيران يقومان بإدارة شؤونها وهما : شيخ الحرم ، والمحافظ ، وهذا الاخير فى يده السلطة العسكرية التى هى الان أهم السلطات فى بلاد الدولة العلية . ويتبع المدينة قضاء الوجه ، وقضاء ينبع ، والكور ، وتيا ، ودومة الجندل ، والفرع ، ودو الرمة ، ووادى القرى ، وقرى عرينه ، والسيال ، والرهط ، وكحل ، ومدين ، وفدك ، وخير . وفى المدينة وكيل لشريف مكة ينظر فى قضايا العربان اسمه الشريف شحات .

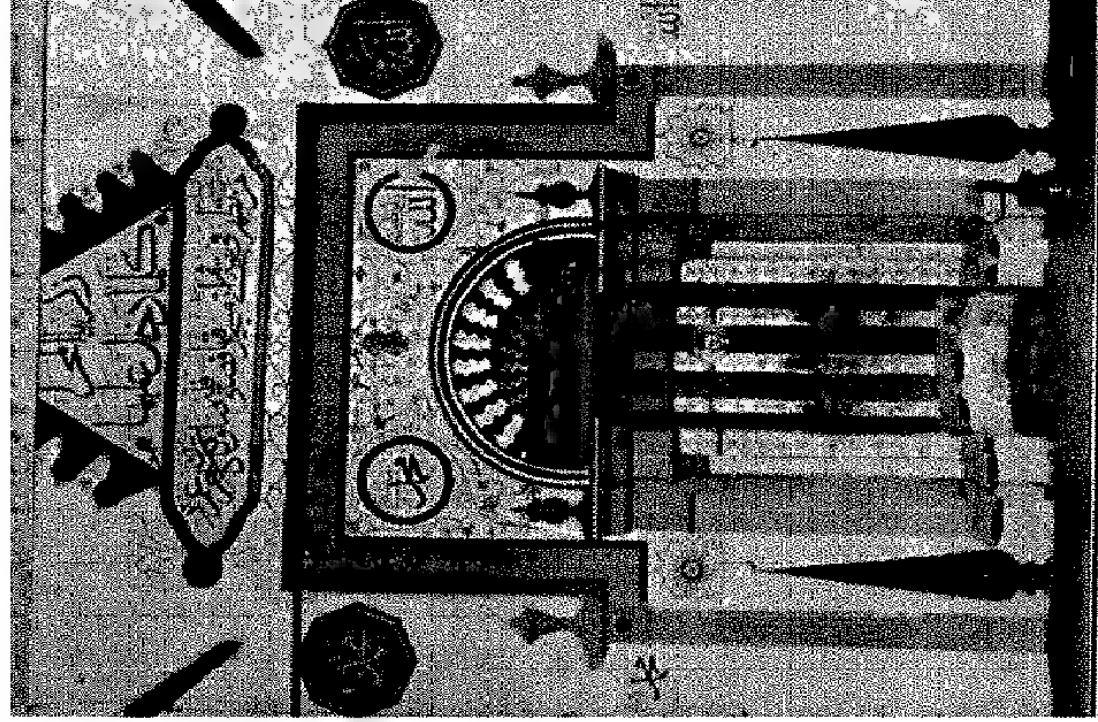
والمدينة مبنية فى وسط وادى واسع يمتد الى الجنوب ، واغلب مبانيها من الحجر المحلوب اليها من المحاجر القريبة منها . وفيها نحو ١٢ ألف بيت ، وشكل الابنية فيها هو بعينه ما رأينا به مكة وجدة ، لولا أن منازلها أصغر ، وشوارعها أضيق ، وخصوصاً ما كان منها حول الحرم الشريف ، وكان يجب أن يكون حوله ميدان متسع يساعد على تنقية جو المدينة من جهة ، وعلى سهولة الوصول الى الحرم من جهة أخرى . وأحسن شارع فى المدينة غرب الحرم ، ويسمونه بحارة الساحة وهى أطول حاراتها ، وفيها أحسن مبانيها ، وبها مكان المحافظة فى قلعة على السور الداخلى . ومما ينبغى ذكره أنى رأيت بهذه الحارة منزلاً (للسيد هاشم) مشغولاً بأعمال الاويمة بما استوقفنى أمامه باهتاً للجمال صنعته ودقتها ، وهى من صناعة جاوه ، وكل أسف أقول ان هذه الصناعة البديعة قد انقطعت عن المدينة بالمرّة . وفى هذه الحارة زقاق يدخل منه الى مقام سيدنا عبد الله والدا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان قد أتى الى المدينة قبل الاسلام لعمل له مقامات بها ، ودفن عند أخواله من بنى النجار فى بيت رجل منهم يقال له التابغة . وهذه الحارة تسمى الابواء ، أو زقاق الطوال ، وفيها ما زل آل أسعد .

وأغلب حارات المدينة يسمونها الضيقها أزقة : منها فى شمال الحرم ، زقاق البقر ، وزقاق الخياطين ، وزقاق الحبس ، وزقاق عنقبنى ، وزقاق السماهيدى ، وزقاق البدور : وزقاق الاغاوات ، وفى جنوبه زقاق ياهو ، وزقاق الكبريت ، وزقاق القماشين ، وزقاق



BOEHE & ANDERER, CAIRO

كتب رئيس لطان محمود بالمدني في المنورة



METZGER & ANDERER, CAIRO

محراب سيد جد في

حيدر ، وزقاق الحجامين ، وزقاق مالك بن أس الخ .

وعلى كل حال فخارات المدينة نظيفة وضيقة يساعد كثيرا على تلطيف الحرارة فيها
 زمن الصيف ، كما هو الشأن في أغلب بلاد الشرق . وسوق المدينة يتدى من الباب المصرى
 الى الحرم الشريف في شارع ضيق طوله . . . متر تقريبا يقطع على المارة تقابل جملين فيه
 مع بعضهما ، والحركة فيه تكاد تنحصر في مدة الحج ، والموسم الرجبي : وهو موسم الزيارة
 الرسمية في بلاد العرب . وتجارة المدينة مدارها على وارداتها الخارجية ، لاسيما واردات
 جاوه والهند والشام ، وعلى الخصوص في الاقمشة القطنية والصوفية والحريرية والسبع
 والليف الابيض والحناء والنسج والسجاجيد والحنابل (الالكلمة) العجمية والهندية
 والمغربية والافريقية ، وانماها أغلى منها في مكة بل وفي مصر ، وانما ابتاع الحجاج لها
 على سبيل البركة وسهولة الصرف في هذه الجهات . وتجارة البلع فيها هي أكر التجارات
 وأوسعها لان ضواحيها فيها كثير من البساتين وفيها نخيل كثيرة تنتج نحو سبعمين صنفا من الثمر
 وأحسنها البلع العنبري ، ثم الجلبى ، ثم السكرى وهو أكثرها حلاوة ، ثم بلح السبع ، ويكثر
 نخله في جهة الحيف بين المدينة والحراء وكيفية تجهيزه : هي أن ينظم في خيط ثم يلتقى به
 في الماء المغلى زمنا ثم يجفف في الشمس . ولقد اشترينا منه شيئا من دكاكين أقيمت خارج
 الباب المصرى بالمناخة ، وكان البائع روج تجارته باحاديث يسردها ، ويسبها الى النبي صلى
 الله عليه وسلم ، في مدح بعض أنواع البلع المتقدمة . فعجبت من أن القوم لا يستحون من
 الكذب على الرسول حتى وهم بين يديه الشريفتين ، وفلت لدها هذا ، انما اشترى منك بلحا
 لأحاديث وأوريتها أن مصيبة المسلمين أساسها الجرأة في التهور على الله ورسوله !! فاعتذر
 الرجل بجهالة قائلانه أخذ هذا عن غيره من الباعة السابقين أو بعض المتشبهين . ويبيعون
 البلع بالكيله ووزنها . ٦٠٠ درهم ، أما كيله الارز فزنتها . ٣٠٠ درهم . والسمن يبيعه بالرطل
 وهو ١١ أو ١٢ أوقية ، والرطل ٢٠٠ درهم ، والاردب ١٢٠ أقه .

وفي المدينة كتبانات كثيرة أحسنها كتب خانة شيخ الاسلام عارف حكمت ، وهي
 قريبة من باب جبريل الى جهة القبلة ، وهذه الكتب خانة آية في نظافة مكانها وحسن تنسيقها

وترتيب كتبها، وأرضها مفروشة بالسجاد العجمي الفاخر، وفي وسط حوشها نافورة من الرخام، فيها حفريات للوضوء، وفيها كتب ثمينة جداً لا يقل عددها عن ٥٤٠٠ كتاب. ولقد رأينا بها شيئاً من غرائب الصناعة النادرة في بابها: وهو كتاب أشعار فارسية مكتوب بالخط الأبيض الجميل للآشاهي، وبيننا نحن معجب من جودة الخط واتقان الصناعة وظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقتها، لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة إلى أن حروف الكتابة انما هي ملصوقة على الورق. فتأملناها فوجدنا شيئاً يبهر الطرف لرؤيته ويعجز اللسان عن نعته، خصوصاً عندما أخبرنا أنهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يفصلونها عن ورقها بظفرهم، ثم يلصقونها على ورقة أخرى!!!

وفي باب السلام كتبخانة للسلطان محمود ومقدار الكتب التي فيها ٤٥٦٩ كتاب وهي وإن كانت أصغر من كتبخانة عارف وأقل منها نظاماً إلا أنها جميلة ومرتبعة. وفيها كتبخانة للسلطان عبد الحميد الأول بها ١٦٥٩ كتاب، وفيها أيضاً كتبخانة بشير أغا. في زقاق الحياطين بها ٢٠٦٣ كتاب وقد بلغني أن هناك كتبخانات أخرى منها واحدة في رباط عثمان حافلة بنقائس كتب مذهب مالك، ويفدر مجموع هذه الكتب بثلاثين ألف كتاب من الكتب النادرة المثال. ولو جمعت كل هذه الكتب في دار واحدة وعمل لها نظام مخصوص لكان ذلك أفجع والفائدة منه أكبر.

وفي المدينة جريدة اسمها (المدينة المنورة) تصدر باللغة التركية والعربية على مطبعة بالوزد كلها كان هناك داع لصدورها، ومديرها حضرة القاضي الشيخ محمد مأمون، وكانت تصدر مدة وجود الجناح العالي بها، شارحة حركاته اليومية، وباشرة كل ما كان يقدم لذاته السنوية من المدائح نظمًا ونثرًا، ومن ضمن ما رأيت فيها قصيدة لحضرة مديرها تهنئة للجناح العالي قدومه قال في مطلعها

البدر في أفق العلياء قد طلعا * وكوكب السعد في أسعاده سطعا

وليس في المدينة من المدارس ما يستحق الذكر، إلا أن فيها ١٦ مكتبة لتعليم مبادئ

العلوم البسيطة، والذي يدرس في الحرم شيء بسيط من الفقه والتفسير.



أهدىكم و هو غياة المدينة المنورة وفيه قدسنا عثمان على أيت وافي عيسى ما فيه إلا ما ملك
 ثم قدسنا وجات بني في معية ولم تم غير سيدة بز بن بني ثم القبة الكبرى وفيها قبر
 سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما جميعين

وفي المدينة حما مان تركيان أحدهما داخل المدينة: وهو من عمل السلطان سليمان القانوني والثاني بالمناخه . وفيها تسكيا أهمها التكية المصرية، والباقي يسمونها رباطات، لها مرتبات قليلة لا تفي بحاجة من يسكن فيها من الفقراء والمعوزين وللمدينة المنورة حرم مثل حرم مكة يبلغ قطره دائرة نحو اثنين كيلومتر، ولا يجوز لأحد الصيد فيه إجلالاً له وتعظيماً.

وفي المدينة وضواحيها مزارات كثيرة أشهرها مسجد قباء، ومسجد سيدنا حمزة، والبييع: أمام مسجد قباء فيبعد عن المدينة بمسافة خمسة كيلومترات، وهو أول مسجد بني في الإسلام، ساء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنوب الغربي للمدينة عند دخوله إليها في هجرته، وقد جدد بناءه السلطان عبد الحميد الأول، وبوسط صحنه قبة أقيمت على مركز ناقته صلى الله عليه وسلم حين قدومه إليها في هجرته من مكة. وأمام مسجد سيدنا حمزة فإنه يوجد في شمال المدينة في وادي أحد: وهذا الوادي مشهور بالواقعة التي حصلت بين المسلمين والمشركين في ١٥ شوال سنة ٣ للهجرة، وأبلى فيها المسلمون بلاءً حسناً، واستشهد فيها سيدنا حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت فيها رابية النبي النبي وشج وجهه وكلمت شفته السفلى، ودخلت حلقتان من مغفره في وجنته: وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أن أبا عبيدة بن الجراح نزع إحدى الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت تتيته، ثم نزع الأخرى فسقطت ثيته الثانية، فكان ساقط الثيتين. وهناك قمة يقال لها قمة السن فيها حجر به حفرة صغيرة يزعمون أنها المكان الذي سقط فيه السن الشريف وقد كان أهل المدينة يفلوا بعد انتهاء هذه الواقعة بهض قتلهم لدفنهم فيها، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم قائلًا: «ادفنوهم حيث صرخوا». وعليه فندفن حمزة في مصرعه الذي عاينه إلى الآن قبة يقال لها قبة المصراع، شرق مسجده الحالي الذي نقلت جنته اليه فيما بعد لما عث السيل بقبره الأول. ومن حوله قبور الشهداء الذين قتلوا في هذه الواقعة وعددهم نيف وسبعون. وفي نهاية الوادي إلى الشمال جبل أحد وهو جبل صخري من الجرانيت، وهو وان كان من السلسلة الجبلية التي تخترق بلاد العرب إلا أنه يكاد يكون

منفصلاً عنها وطوله من الشرق الى الغرب نحو ستة كيلومترات .

والبقيع له عند المسلمين مكانة عظيمة ويقال له بقيع الغرقد ، لانه كان يكثرفيه هذا النوع من الشجر ، و به دفن نحو عشرة آلاف من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ، وكثير من آل بيت النبوة صلوات الله عليهم : منهم سيدنا علي زين العابدين بن سيدنا الحسين وولده محمد الباقر وولده جعفر الصادق ، والاخيران في قبة سيدنا العباس . وكان بالبقيع قباب كثيرة هدمها الوهابيون .

ومن مزارات المدينة المباركة مسجد الراية ، ومسجد الفتح ، ومسجد البلتين ، ومسجد الشقياء ، ومسجد الغمامة (بالمخاضة) ، ومسجد علي (في طريق قباء) ، ومسجد المائدة (أمام البقيع من جهة الشرق) ، ومسجد الاحزاب (وراء جبل سلع الذي هو على يسار الخارج من الباب الشامي) ، ثم مسجد عروة .

وأهل المدينة يشربون من آبار كثيرة منها : بئر الاعواف ، و بئر أس بن مالك ، و بئر رومة التي اشترها عثمان بن عفان لشرب المسلمين منها في صدر الاسلام . وفيها بئر القويم ، و بئر العباسية ، و بئر صفية ، و بئر البويرة ، و بئر فاطمة ، و بئر عروة . وكان أهل المدينة في السابق يهدون من ماء البئر بن الاخيرين للملوك وكبار المسلمين . وفي قباء بئر يسمونها بئر الحاتم ، وهي بئر اريس التي وقع فيها حاتم النبي صلى الله عليه وسلم من عثمان بن عفان وهو خليفة ، وكانوا ذلك الوقت يختمون به على مكانبائهم ، وكان نعشه (محمد رسول الله) .

وماء المدينة الذي عليه مدارس سقيها من العين الزرقاء التي توجد غرب مسجد قباء ، وماؤها عذب لذيد : وسميت بالزرقاء ، نسبة الى مروان بن الحكم الذي أجراها بأمر معاوية رضي الله عنه وقت أن كان عاملاً له على المدينة ، (وكان يسمى الاررق لزرقه عينيه) ، وهي موضع عناية كل الملوك والسلاطين الى هذا الزمان . ويمد ماء هذه العين مجرى مأخوذ من عين في قباء أيضاً يسمونها عين النبي ، وماؤها يسير الى المدينة في قناة مبنية بناء متيدا . وقد تفرع من هذا المجرى فروع كثيرة في جهات المدينة ، وبنى لها خزانات تنزل عن سطح الارض نحو عشرة أمتار عملاً منها

سید سیدنا حمزہ و جولوہ راز المہدیہ



السقاءون الماء و يوزعونه على مساكن المدينة . وقد ينزل الناس بواسطة سلام من حجر الى هذا الجرى فيملئون جرارهم من حنفيات مثبتة فيه ، وبهذا ترى أن مياه هذه العين نظيفة و بعيدة عن التلوث وهو السبب الوحيد في عدم تعرض المدينة غالباً الى الاوبئة التي تحصل في الجهات الاخرى من بلاد العرب التي لم يعتن بالماء فيها : مثل مكة و منى و جدة و ينبع .
وهذه العين كان يقوم بتعميرها امراء المسلمين . وقد تخرست في أوائل الحكم العثماني ، و مكث أهل المدينة زمناً طويلاً وهم في ضيق شديد حتى عمرها السلطان سليمان سنة ٩٣٢ . ثم جرفها السيل سنة ٩٩٠ فأمر بتعميرها السلطان مراد خان ، واشترى بئر الغربالي وألحقها بها . وفي سنة ١١١١ أمر السلطان مصطفى العثماني فاشترى بئر العقدة وألحقها بها أيضاً . وما زالت حتى بناها السلطان سليم سنة ١٢١٢ . ولما حاصر الوهابيون المدينة خربوها ، فاصلاحها محمد علي باشا ثم جددوها السلطان عبد الحميد بما صارت معه عظمة الفائدة كبيرة المنفعة جزاهم الله خيراً .

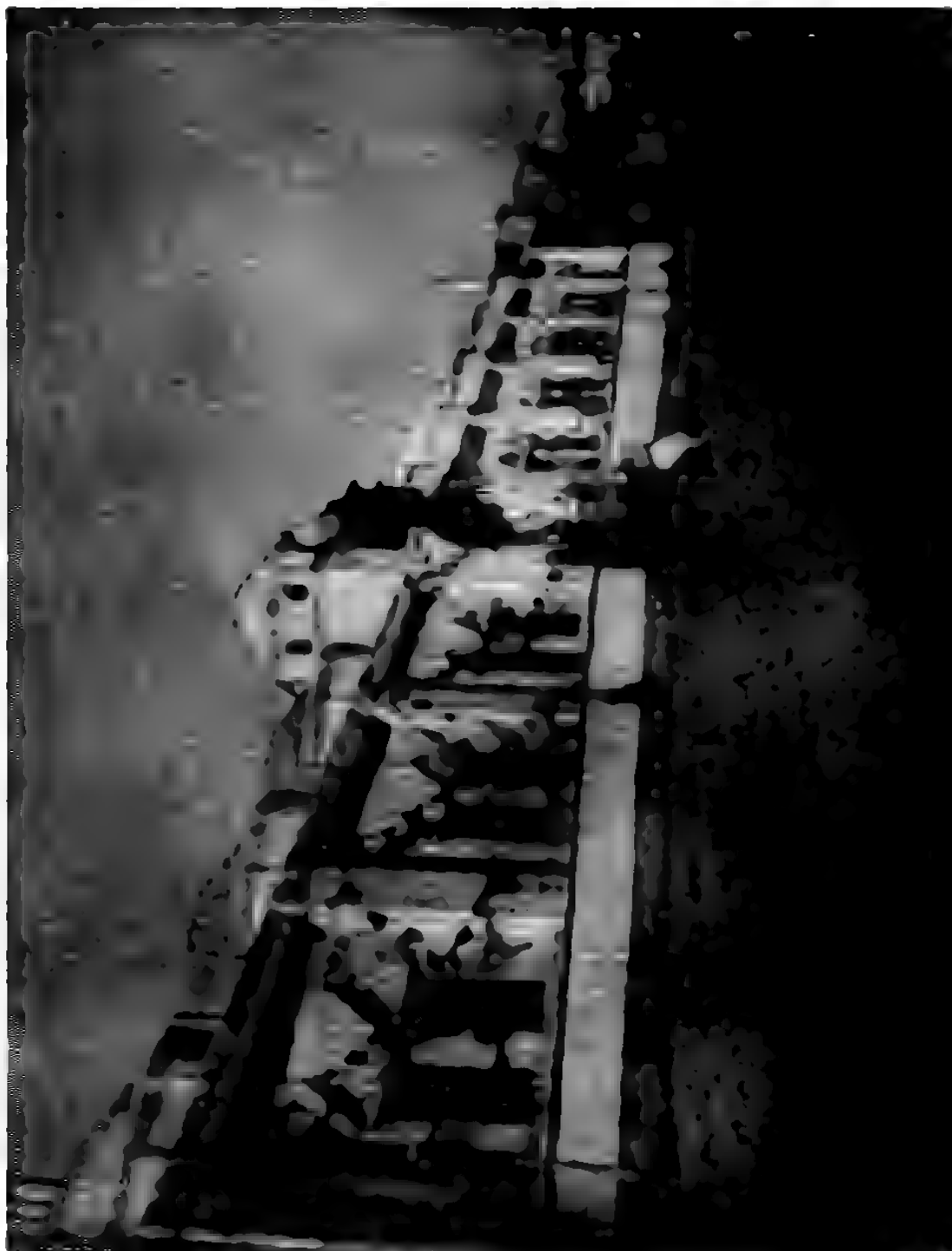
وفي ضواحي المدينة عدا العين الزرقاء عين كهف ، غربي جبل سلع ، وعين الخيف وتجري من عوالي المدينة ، وعين الوادي بجوار قمر حمزة ، ثم عين السلطان وهي مالحة وتجري من قباء الى المدينة ، فتظهر بالوعاتها ومخاربها ثم تسير الى بساتين المدينة من خارجها .
و يوجد في المدينة مالحة الشمالية حدائق كثيرة بالقرب من السور : منها حديقة الداودية ، وحديقة الزكي ، والسايل ، وبضاغة ، وبضيعة ، والطرباوية ، والفيروزية ، والزينية ، والدر وبشية ، وبئر حاء ، والتواية ، والجودية ، والكاتبة ، والسمانية . وفي داخل السور الحدائق الرومية . وفي الجهة الشرقية بساتين وكر وم كثيرة من النخيل . وفي جهة قباء وذى الحليفة والعوالي شجر كثير من المزارع والبساتين ، والاخيرة مشهورة بثمرها . ويزرع فيها كثير من الخضراوات مثل الكرنب والقمبيط (القريبط) والكرات أبوشوشة والخرشوف والبابامية والملوخية والباذنجان والنمطة والقرع واللوبيا والفاصوليا والرجلة والسبانخ والخبيزة والكرفص والبقدونس ، ومن الفاكهة البطيخ والقارون والخوخ والرمان والعنب والموز والتمر والليمون والبرتقال والليم (وهو نوع من الاترج كبير الحجم) .

وحول المدينة وديان كثيرة . وينزل فيها كثير من مجارى السيول التى تسير بها الى بساينها وخصوصاً فى الجهات المنخفضة منها . وقد ترتفع مناسب هذه السيول فى بعض السنين فتضر بالمدينة وضواحيها ضرراً بليغاً . وفى خلافة سيدنا عثمان فاض وادى مهر وزفيضاناً كاد يقوّض أركان المدينة فأمر ببناء سددين عند بئر مدرى ، وحول بذلك مجرى السيل الى وادى بطحان . وفى سنة ١٥٠ نزلت السيول بكثرة على المدينة فأزعجت أهلها وأغرقت صدقاتها ، وكان ذلك فى خلافة أبى جعفر المنصور فأمر ، فبيت السدود فى أعلى المدينة فتحولت السيول الى جهات أخرى . وفى سنة ٧٣٤ فاض وادى القناة فأغرق الجهة الشمالية من المدينة الى جبل أحد ، واقطع الناس بسببه عن زيارة سيدنا حمزة ستة شهور . وفى سنة ١٣٢٨ نزل السيل الى المدينة وتكونت مياهه عند جبل أحد وبلغ عمقها نحو نصف متر . وأهل المدينة يبلغ عددهم ستين ألفاً منهم كثير من المحاورين الاجانب ، وأكثرهم من الهنود والأتراك والشوام والمغاربة والمصريين . ومن أشهر عائلات المدينة عائلة أسعد وهم سادات ، وعائلة برى وهم مغاربة ، وعائلة السمهودى وهم مصريون . ولكبار أهل المدينة مرتبات من الدولة ، وكثير منهم مرتبات من الحضرة الخديوية . وأغلبهم يعيش من وراء خدمة الحرم وخصوصاً فى الموسم ، ومنهم كثير من المرشدين الى محال الزيارة ويسمونهم مزورين ، وهؤلاء يؤدون فى المدينة وظيفة المطوفين فى مكة . ومنهم من يعيش من التجارة البسيطة ، والمصريون يتجرون فى الحبوب كالقمح والعدس ويأتون بها من طريق القصير . وأهل المدينة يعبرون عن الجهات بالشام للشمال ، والبحرى للغرب (لأنه الى جهة البحر) والشرقى للشرق ، والفلبى للجنوب (لأنه جهة القبلة) . ومنهم أخذ المصريون هذه التسمية واستعملوها فى غير محلها فى اطلاق الفلبى على الجنوب ، لأن القبلى عندهم إنما هو الشرق الجنوبى كما لا يخفى .

ومن عادات أهل المدينة الرياضة والتنزه فى البساتين خارج المدينة ، فيخرجون اليها فى يوم الثلاثاء والجمعة بعد صلاة العصر جماعات جماعات ويعودون فى المساء ، وقد يخرجون الى هذه الرياضة من أول اليوم ومعهم غداؤهم فيمضون نهارهم فى أحد البساتين التى بضواحي المدينة

کتابتِ محمد بن یحییٰ بن خالد

QING HUIJIANWANG



في سرور وحبور: ويسمون هذه الفُسْحَة مَقِيالا .

ومن عاداتهم القديمة أن كل واحد منهم يُقدِّم كل سنة في ليلة السابع والعشرين من ذي القعدة مقداراً من الخنطة على سبيل الهدية الى الحجرة الشريفة ، و بعد أن يغسلها وينظفها جيداً يضعها في كيس جديد من القماش اللطيف الأبيض ، حتى اذا وصل الى الباب الذي في المقابلة الشريفة ، استغاث برسول الله ، ثم وضع الكيس بكل أدب داخل الحجرة الشريفة . وهذه الاكياس يأخذها خادمة الحجرة المطهرة ، ويهدون منها الى عظماء المسلمين على سبيل البركة .

ومن عاداتهم استقبال الزوار من خارج المدينة من غير سابق معرفة بهم . وكل واحد منهم يدعو الى ضيافته ما استطاع من ضيوف رسول الله ، فيأتيهم الى منزله ويمهد الفراش ويجهز الطعام اللازم لهم ، ويقضى مدة اقامتهم في المدينة وهو في خدمتهم بصدق واخلاص ، غير ملتفت الى أي أجر يصيبه منهم : وان فعلوا فليس على كل حال الا أقل مما يجب بالنسبة لهم . ومن أكل عاداتهم أن ربة المنزل مهما بلغ من شأنها هي التي تشتعل بداخليتها ، وتفوم بطهي الطعام بنفسها ولا تباشر ذلك الا وهي على وضوء تام .

ومن عاداتهم في مواليدهم ان الطفل اذا مضى عليه أربعون يوماً غسلوه ونظفوه وألبسوه ملابس جميلة بيضاء ، و بعد أن يعطروه يأخذوا أهله وهم في أحسن زينة لهم الى الحجرة الشريفة ، فيأخذوا الخدمة و يضعونه فيها و يعطونه بستارتها ثم يدعون له بخير ، و بعد ما يسلم الولد الى أمه فتأخذه فريحة هاشية باشة .

ومن عاداتهم أنهم لا ينوحون اذا مات لهم ميت ولا يبكون ، بل يأخذونه ويدخلون من باب الرحمة حتى يصلوا به الى الحجرة الشريفة ، فيصَلُّون عليه ويخرجون به من باب جبريل الى البقيع ، فيدفنونه مكبرين مصليين على الرسول ، وهذا لك يفق صاحب الميت على باب الجبانة فيميزه الناس : وهي عادة قديمة من يوم وفاة سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه ، فانه بعد دفنه وقف أخوه سيدنا الحسين رضي الله عنه على باب البقيع واستقبل تعازي المعزين .

ومن عاداتهم أنهم يخرجون يوم الخميس نساء ورجالاً بعد صلاة العصر الى البقيع ، ويلقون

على القبور رشيئاً من الرياحين وهي سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم .
ومن عاداتهم في شهر رمضان انهم يتوجهون الى الحرم قبل المغرب بنحو ساعة ويجلسون
حول الحجرة الشريفة، ويمضون بقية نهارهم في قراءة القرآن الشريف والذكر والصلاة على
الرسول . فاذا ضرب مدفع الافطار يكون حضر لكل واحد منهم صينية فيها افطار خفيف
كالقطير والجبن والزيتون والبلح والحلوى وما أشبه ذلك فيفطر كل منهم مع من يدعوه الى
طعامه من الغرباء، ثم يعطى بقية أكله الى من هنالك من الفقراء . ويقضون في هذه الفترة نحو
ربع ساعة، وبعدها تقام الصلاة فيصلون المغرب ثم يعودون الى منازلهم مع من يصادفهم من
الضيوف، فيتمشون ثم يعودون الى المسجد لصلاة العشاء، وبعدها تبتدى صلاة التراويح:
فينقسم المصلون الى خمسين أو ستين جماعة، لكل منهم امام مخصوص، يضعون في مقابلته
شمعدانين بهيئات مختلفة يدل كل واحد على ما اذا كان الامام يطول في صلاته أو يتوسط
أو يقصر، فيصلي كل انسان وراء من يريده، وبعدها ختام التراويح بحرى احتفال الشمع:
ذلك انهم في رمضان يخرجون ما في خزائن الحجرة الشريفة من الشمعدانات الذهبية
والفضية، فيعملونها امام هذه الأئمة كما بينا، وبعدها الصلاة يعيدونها الى الحجرة الشريفة
باحتيال كبير . ويتشرف بحمل هذه الشمعدانات من يحضر من الامراء والاعيان بدعوة
خصوصية ترسل اليهم من شيخ القراشة النبوية . وصلاة الصبح فيها شئ من ذلك .
أما صلاة العيد فيصليها في المسجد النبوي امامان بجماعتين واحد شافعي والثاني حنفي،
وبعد الصلاة يتشرف الجمع بزيارة السيد الرسول ثم يعودون الى منازلهم ويقضون أيام العيد
في تزاور وسرور ورجور .

وكانت المدينة في القرون الثلاثة الاولى للهجرة في غاية الرقي الادبي والمادى . وكانت
بساتينها عملاً الفضاء المحيط بها وعلى الخصوص من الشمال والشرق والجنوب . وكان للقوم
بهار يابض زاهرة، وقصور فاخرة، وفي وادي العقيق الذي كان يغز رماؤه، ويهر رواؤه،
وتزهو أرجائه، ويكثر زهره، ويفوح عطره، وبحنى نمره . وكان أغلبها لاز واج رسول
الله صلى الله عليه وسلم . ومن أما كنه المشهورة الزُغابة، وأضم، والغابة، وحصير، والخلقة

ROSEMARY A. LANGRISH, CAIRO

مسجد عز و قه المدينه المنوره



والجثجثة، وكلها كانت لعبد الله بن الزبير وبنيه . ثم حُمراء الأسد وكان بها قصور لغير واحد من القرشيين ، وحاخ وكانت للعلويين وفيها يقول الاحوص :

لها منزل بروضه خاخ * ومصيف بالقصر قصر قباء

ومن أشهر أماكنها تَبَيَّة الشريد، والغراء، والمعرّس، والبيداء . وكان في جميعها منازل الاشراف من فر يش، وخصوصاً على سفح جبل عير على يمين المفل من مكة . وكان في الجهة الاخرى مكان اسمه الجّماء، وتجاهها في ضيق حرّة الوبرة على أربع أميال من المدينة الى ضفة نيرة ، أرض عروة بن الزبير وبها قصره المشهور بقصر العميق، وبئر المشهورة باسمه والتي فيها يقول الشاعر:

كفنونى ان مت فى درع أروى * واستقوا لى من بئر عروة ماء

وكان يوجد أسفل هذا القصر، تحاه الجّماء ، مكان يقال له العرّاصة وبه كان قصر سعيد ابن العاص الذى يقول فيه أبو قطيقة :

القصر دو النحل فالجاء بهما * أشهى الى القلب من أبواب جيرون

ويقال ان آثار هذا القصر موجوده الى الآن . وكان سعيد عاملاً لمعاوية على المدينة وكان هذا القصر فى أيامه آية فى جماله ونخامته ، بل كان آية من آيات القرن الاول الهجرى ، وأعجوبة من أعاجيبه . حتى فضل الشاعر عن أبواب جيرون (دمشق) التى كانت فى ذلك العهد عاصمة الخلافة ، ومكان تخامنها وأبنتها . وهى الى اليوم آية من آيات الله فى جمالها وبهائها : لان القادم عليها من الجنوب يخترق الغوطة وما أدراك ماهيه ، جنة زاهيه . وادا قدمها من الغرب يخترق المرج وهو نزهة الزائرین ، وبهجة الناظرین .

ومن القصور التى كانت مشهورة بوادى العميق قصر عاصم ، وقصر محمد بن عيسى ، وقصر يزيد بن عبد الملك بن المغيرة ، وقصر جعفر بن سليمان ، وقصر أبى هاشم ، وقصر غنمسة بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وقصر غنمسة بن سعيد بن العاص ، وقصر عبد الله بن أبى بكر بن عثمان بن عفان ، وقصر خارجة ، وقصر عبد الله بن عامر ، وقصر مروان بن الحكم . وآثار هذه القصور يوجد منها الى الآن شئٌ كثير يدل على عظمة وادى العميق ونخامته . وفى ذلك يقول الشاعر:

ألا أيها الركب المحثون هل لكم * بأهل عقيق والمنازل من علم
فقالوا نعم تلك الطلول كمهدا * تلوح وما يغنى سؤالك عن علم
ويظهر أن أول من شيد البناء في المدينة هو عثمان بن عفان : فقد شيد داره فيها بالحجارة
واليكس وجعل أبوابها من الساج والمرعر ، وكان له بوادي القرى وحسين من الضياع
ماقدروه بعدموته بمائة ألف دينار . وفي أيامه اقتنى أصحابه بالمدينة الضياع الواسعة والدور
الفسيحة ، وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع بناءها ووسع فناءها وجعل في أعلاها
شرفات ، وابتنى المقداد داره بالجرف على أميال من المدينة وجعلها بحصص الظاهر والباطن .
ونخامة العمارة بالمدينة لم تبتدى بها إلا بعد الخلفاء الراشدين : لأن الخلافة لما آل أمرها
إلى الأمويين أخذوا يهلون العطايا على قر يش وعلى سادات الانصار والمهاجرين بالمدينة
حتى يستميلوهم اليهم أو على الأقل يشغلونهم بأنفسهم عنهم : فكثرت ثروتهم وغزرت مادتهم
وأخذوا يقلدون بني أمية في سعة العيش ورفه الحياة في المأكل والملبس والسكن : فشيدوا
العمارات الفخيمة وحفروا الآبار في تلك الصحراء وغرسوا فيها البساتين والرياض وسيروا
إليها الجماعات (جمع جماع وهي محرمي الماء العزير) ، وصيروا المدينة روضة زاهرة وجنة
باهرة ، وما زالوا في رفاهة هذا العيش حتى اذا ضعفت الخلافة في مبدأ القرن الرابع الهجري
انقطعت أعطيائهم فتغير حالهم ، وانقضت سحابة رفهم ، وسبحان من له الدوام .

وضعفت المدينة بضعف الخلافة العربية فصارت عرضة لهجمات الأعراب
وغزوات البدو ، فقام عضد الدولة أبو شجاع وزير الطائع لله و بنى سوراً حول المدينة
سنة ٣٦٠ . وبقي هذا السور حتى تداعت أركانه في منتصف القرن الخامس فبناه الأمير
جمال الدين وزير صاحب الموصل وصاحب رباط الاعجام بالمدينة . وزاد فيه نور الدين بن
زنكي سنة خمس مائة وثمان وخمسين أثناء عمارته للحجرة الشريفة . ثم بناه الملك الصالح بن
قلاوون سنة ٧٥٥ ، ثم السلطان قايتباي سنة ٨٨١ ، ثم السلطان سليم العثماني سنة ٩٣٩ .
وعمره محمد علي باشا والى مصر بعد حرب الوهاية ، وهو الذي فتح فيه الباب المصري .
وجددده السلطان عبدالعزيز سنة ١٢٨٥ وجعل ارتفاعه نحو ٢٥ متراً ، و بنى فيه ٤٠ برجاً

قصة الحجاج بالسياحة بالمدن المقدسة



تشرف على ضواحي المدينة للدفاع عنها ، وهذا السور باق للآن ، وهو في طريق باب العنبرية ، وعلى محيطه المزاغل والأبراج المشحونة بالدفاع والذخائر الحربية لصد هجمات الأعراب الذين كثيرًا ما كانوا لا يزالون يعتدون على حرم رسول الله .

وأما سورها الخارجى فليس بذى أهمية تذكر ، وهو مهديم في كثير من جهاته . وفيما بين السورين يعنى فيما بين الباب المصرى وباب العنبرية ، واد كبير متوسط عرضه ٤٠٠ متر يقال له المناخة ، وسميت بذلك لأن أغلب الحجاج ينيخون جهالهم فيها ، ويقمون بهامدة الزيارة ، وفيها مقام ركب المحمل المصرى مدة وجوده بالمدينة . وحول المناخة ، من جهتها الخارجية ، أبنية كثيرة أحسنها ما كان على الشارع العمومى : وهو شارع محطة السكة الحديدية ، ويسمى الآن بالشارع الرشادى ، وفيه التكية المصرية ، ولها مرئيات من مصر ، وتعمل بها الشورى يومية للفقراء على النظام الذى تقدم فى تكية مكة ، وفيه قشلاق العساكر الشاهانية ، وكلاهما من بناء المرحوم إبراهيم باشا جد العائلة الخديوية .

وللمدينة ثمانية أبواب وهى : الباب المحيدى ، والباب الشامى ، وباب الكوفة ، وباب العنبرية ، وباب قوبه ، وباب العوالى ، وباب الجمعة . وتقل أبواب المدينة فى وجه الزائرين من الحجاج إذا تحقق أنهم ملوثون بالوباء ، ولكنهم يفتحون لهم طريقاً من الباب المحيدى إلى باب الحرم ، فيزورن ويسافرون بعد يوم أو يومين على الأكثر ، موافق لهم التى يجب أن تكون محمية خارج البلد . وذلك ترى أهل المدينة على الدوام بعيدين عن الاوبئة بالمرّة ، ولكنهم فى هذه الحالة لا يفتحون للحجاج إلا ما واحداً من الحرم : فيستراكم بعضهم على بعض ويزدحمون فى الطريق الموصل إلى هذا الباب حتى إذا وصلوا إليه ، أخذوا يتدافعون للدخول إلى المسجد ، وهناك يجردون مئياتهم فى داخله متدافعين للخرج منه ، فتلتحم القواتان ، ولا يزالون حتى يظهر فرقتين منهم على الآخر ، فيهمجمون عليهم ويطئونهم بأقدامهم ويموت من جراء ذلك خلق كثير كما حصل فى سنة ١٣٢٦ هـ . وعليه فيجدر بمشيخة الحرم فى مثل هذه الأحوال أن تجعل باباً من الحرم للداخلين وآخر للخارجين ، وذلك يتوفر عليها وعلى الناس مثل هذه المشقة .

ومناخ المدينة صحي جدا و ربما كان ذلك من الاسباب التي ساعدت على رقة أهلها ولطافة أمر جنتهم التي اذا أضفت اليها ما هم عليه غالباً من الصلاح والورع والادب وحسن المعاشرة، حكمت لهم بانهم أحسن أهل بلاد العرب على الاطلاق في مكارم الاخلاق: وليس ذلك بعجيب فجاورتهم للسيد الرسول اكسبتهم كثير من أخلاقه الكاملة . على أن من يفكر في أن الرسول عليه الصلاة والسلام انما اختص أهل المدينة بالهجرة الى بلدهم، يحكم حكماً قطعياً بان مكارم الاخلاق فيهم من زمن بعيد ، وقد زادها الاسلام جمالا على جمالها وكمالا على كمالها . وحسبك ان السيد الرسول بعد ان أدى مأموريته من اظهار الدعوة ونشر راية الدين الاسلامي وتقوية دعائه، بحال لا يدخل معها الوهن الى أى جانب من جوانبه، أظهر في حجة الوداع أنه لا يريد الموت الا بين ظهراني الانصار الذين نرى اليوم من خلفهم على سدنهم رضى الله عنهم أجمعين .



محمد رسول الله

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم . ولد صلى الله عليه وسلم مكة ، في دار أبي يوسف المشهورة الآن بمولد النبي ، بعد قدوم أصحاب الفيل بخمسين يوماً على الاصح ، وبوافق ذلك ثمانيا خلون من شهر ربيع الاول سنة ٤ هـ قبل الهجرة . وكان أبوه عبد الله غائباً بحجة يثرب ومات ودفن فيها ولم ير ولده . أما أمه فهي آمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم بن مرة بن كعب .

وفي السنة الاولى من مولده تسلمته حليلة السعدية لترضعه ، فذهبت به الى قومها في البادية وكانت تغنيه بقولها :

الحمد لله الذي أعطانى * هذا الغلام الطيب الاردان
قد ساد في المهد على العلمان * أعينه بالبيت ذي الاركان

ومكث صلى الله عليه وسلم عند حليلة الى السنة الرابعة من عمره . فردته الى أمه وفيها ذهبت به الى أخواله بنى النجار بالمدينة . فماتت بالطريق بمكان يقال له الابواء . وقدمت به أم أيمن الى مكة . فكفله جده عبد المطلب وكان يحبه حبا جما الشدة ذكائه، وفرط نباهته، وقويم سيرته، وعظيم أدبه ، ولما كان يتوسمه فيه من رفيع المنزلة وكبير المستقبل . ولما كان عمره صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين مات عبد المطلب، فكفله عمه أبوطالب وضمه اليه، وخرج به الى الشام وهو فى الثالثة عشرة من عمره، ومن ذلك الحين أخذت تظهر للناس مواهبه وجلال صفاته، مما كان داعية الى احترامهم إياه واجلالهم لقدره . ولما بلغ الخامسة والعشرين خرج الى الشام فى تجارة لخديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة . وعاد اليها بربح عظيم كان برها ناجديداً على صدقه وأمانته . فلما رأت ذلك خديجة خطبته الى نفسها ، وكانت أعظم نساء قريش فضلاً وأكثرهن مالا وأوسطهن نسباً؛ لأنها بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن حكيم . فتزوج بها فى هذه السنة ولم يتزوج عليها فى حياتها . وماتت رضى الله عنها بعد خمس وعشرين سنة من زواجها منه، وقد ولدت له القاسم والطيب والظاهر ورقية^(١) وأم كلثوم^(٢) وزينب^(٣) وفاطمة^(٤) . ولم يكن له أولاد من غيرها الا ابراهيم^(٥) فإنه من مارية القبطية، التى دخل بها سنة سبع للهجرة .

أما صفته صلى الله عليه وسلم فقد قال على^(٦) فيها ما نصه :

لم يكن رسول الله بالطويل الممّقط^(٧)، ولا بالفصير المتردد^(٨)، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد ولا بالسبط، ولم يكن بالمطهّم^(٩)، ولا بالمكّكّشم^(١٠)، أبيض مشرب (بحمرة)، أدهج العينين^(١١)، أهدب الأشعار^(١٢)، جليل المشاش^(١٣)، والكسد^(١٤)، أجرد^(١٥)

(١ و ٢) أم كلثوم ورقية كانتا روحا عتبة وعتبة ابني أبي لهب فطلقاها . فتزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد الاخرى . أما زينب فكانت تحت أبى العاص بن الربيع . وتوفيت ورقية سنة ٢ زينب سنة ٨ وأم كلثوم سنة ٩ للهجرة . (٤) ولدت فاطمة سنة ٨ قبل الهجرة ، ودخل على بها فى السنة الاولى ، وولدت الحسن سنة ٦ ، والحسين سنة ٤ ، وتوفيت سنة ١٢ هـ .

(٥) ولد ابراهيم سنة ٥٥ . (٦) كثير الطول . (٧) المتأهلي في القصر . (٨) الكثير السم .

(٩) . ودور الوجه تدويراً تاماً . (١٠) واسع العينين مع شدة سوادها . (١١) طويل شعر الخفون .

(١٢) عظيم رؤوس العظام . (١٣) مجتمع الكعبين . (١٤) قليل الشعر .

ذو مَسْرَبَةٍ ^(١)، شثن الكفين والقدمين ^(٢)، اذا مشى تَقَلَّعَ ^(٣)، كأنما ينحط عن صَبَبٍ ^(٤)، أجود الناس صدراً ^(٥)، وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله .

وعاش صلى الله عليه وسلم بين قر يش عاقلاً حكيماً، شجاعاً كريماً، برأرحياً، كثير التقوى والزهد والورع، بعيداً عن كل ما يؤخذ على الناس في سيرتهم، صادقاً في قوله وفعله، عظيم الهمة، كبير المروءة : لذلك كان له في قومه منزلة كلها إكبار وإعظام . وكانت قر يش ترجع إليه في مشورتهم، ويرضون بحكمه فيهم، حتى أطلقوا عليه اسم الصادق الأمين .

ومع أنه كان أمياً (لا يقرأ ولا يكتب)، فقد كان ذكياً بليغاً فصيحاً جرت كلماته مجرى الأمثال، وأخذت عباراته بمقائيد الحكمة، وخصوصاً بعد الإسلام . وباللذ كذلك شيئاً منها، حتى ترى ما فيها من كبير معناها، وعظيم مغزاها، مع قلة ألفاظها، مما هو مذكور بكتب الحديث والتسير والأدب :

اليد العليا خير من اليد السفلى . ترك الشر صدقة . ارحموا من في الارض برحمتكم من في السماء . الدال على الخير كفاؤه . كل معروف صدقة . حبك الشيء يعمي ويصم . البلاء مؤكل بالمنطق . الحرب خدعة . رأس الحكمة مخافة الله . ابدأ بمن تعمل . فضل العلم خير من فضل العباد . المرء كثير بأخيه . انما الأعمال بالنيات . الغنى غنى النفس . الحياء خير كله . الناس معادن كعادن الذهب والفضة . لا خير لك في صحبة من لا يرى لك ما يرى لنفسه . ما أملك ناجر صدق . خير الامور أوسطها . ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . اقبلوا عثرات الكرام . كادت الفاقة تكون كفراً، اعمل لديالك كالك تعيش أبداً واعمل لا خرتك كالك تموت غداً، الخ الخ بجلال هذه الصفات كان عليه الصلاة والسلام مستعداً بطبعه الى ما أكرمه الله به من النبوة وهو في سن الاربعين : فأخذ ينزل عليه الوحي شيئاً فشيئاً بما تدرج معه الى احتمال هذا التاموس الأعظم .

(١) شمريين الصدر والسريرة (٢) سبين الكمين من غير قصر (٣) رفع رجليه (٤) منحدر

(٥) لا يصن بعلفه وفصله .

وكان الناس قبل الاسلام مختلفين فيما بينهم متفرقين في عصبيايتهم ودياناتهم متغايرين في شرائعهم : كثرت فيهم فروع الصابئة ، والمجوسية ، والوثنية ، والبراهمة ، والبوذية ، وتعددت الفرق في الديانات السماوية فاقسمت اليهودية الى ربايين وقرائين وسامريين وغيرهم . وافترقت النصارى الى مالا يحصى من الفرق التي منها اليعقوبية والنسطورية والاربوسية والارنؤذكسية : فكان من ذلك الانقسام العام في المسائل الاجتماعية والامور الحيوية . فادى ذلك الى انحلال أجزاء الامبراطورية الرومانية ، واختلال أعضاء المملكة الفرسية ، لكثرة ما كان يقوم في داخلتيها من المجادلات التي كانت تؤدي الى شديد المخاصمات . وبذلك استعدت النفوس الى شريعة جديدة توحد بين جميع هذه العناصر في معتقداتها ومعاملاتها : فأرسل الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة ، بدينه المتين ، وقرآنه المبين . وما زال يجاهد في سبيل بناء هيكل الاسلام بثبات جأش وصبر لا يعرف الملل ، محملا في ذلك تلكم الاهانات التي كان يلقاها من قومه ، حسداً منهم له ، وألفة من دخولهم في دائرة قيود هذا الدين الجديد : وقد كانوا يعيشون طول اوار حياتهم لا تجمعهم الا كلمة الفوضى ، ولا يحوطهم غير سياج الحرية المطلقة .

وما زال فيهم صلى الله عليه وسلم بثباته ، وحسن بصيرته ، وكبير حلمه ، مع ما كان له فيهم من حرمتهم لشخصه واجلالهم لصفاته التي لم يروا فيها من نعومة ظفره صغيرة يأخذونه بها أو يحاسبونه عليها . فامن به ثر هاجروا^(١) معه الى المدينة ووضعوا يدهم في يدا انصار ، وما برحوا ينصرونه في جميع مواقفه على أعدائه ، حتى انتهى أمرهم بتصديقه والايمان بما أتى به من عند الله وأهم هذه المواقف كانت غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة ، وأحد في الثالثة ، والخندق في الخامسة ، وخيبر في السابعة ، وفتح مكة وغزوة حنين في الثامنة ، وغزوة تبوك في التاسعة . ومن هذه المواقف تعلم المسلمون منه صلى الله عليه وسلم تعبئة الجيوش ، وسياسة الحروب ، والثبات في ساحات النزال ، والشجاعة النفسانية في جميع المواقف ، والصبر على الشدائد حتى هابهم الناس وأكبروا منزلتهم .

(١) كان عمره صلى الله عليه وسلم وقت الهجرة ٤٤ سنة وهاجروا معه صاحبه أبو بكر وحمزة الى المدينة ثم استرسل الناس في هجرتهم اليها .

وما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يناهض أهل جزيرة العرب في سيرهم، ويكافهم في تقويم أخلاقهم وتربية نفوسهم، حتى نشأت فيهم أخلاق جديدة، وآراء سديدة، وآمال بعيدة، وصلوا بها في أيام قليلة إلى ضم عروش الأكاسرة والقيصرة إلى عرشهم، الذي إنما كان حجراً بسيطاً في هيكل ملكهم وبنیان سلطانهم .

واستمر رسول الله بين المهاجرين والانصار يسلك بهم سبيل الفضائل، ويبعد بهم عن طرق الرذائل، وينفهم مما كان فيهم من العوائد الشنيعة التي تخالف نظام الانسانية : كؤاد البنات، وشرب الخمر، وقتل النفس بغير حق والاستقسام بالآلام، وعبادة الاصنام، ولعب الميسر، والكذب، والنفاق، والرياء، وغصب مال الغير، وسوء معاملته المرأة، وعدم الرفق بالرفيق، حتى فشا فيهم محبة البنات، ونبذوا المسكرات، وعرفوا معنى الحياة، ودانوا بالتوحيد، ووقرت في نفوسهم فضيلة الصدق والصراحة والرحمة . ما زال فيهم صلى الله عليه وسلم يعلمهم الشجاعة النفسانية والادبية، ويسمو بنفوسهم إلى منازل الحياة الحقيقية، حتى عظمت فيهم الآمال، ومالوا إلى جلائل الاعمال، في خدمة الانسانية، التي جاء دينهم لنصرتها والنهوض بها من وهنتها، واعلاء كلمتها، والوصول بها إلى الغاية التي خلقت من أجلها : فكثرت بينهم المعلومات التي أدت إلى وضع نظام تشريعي سماوي، كان ينزل عليه في ظروف مخصوصة كما اقتضت الحال، مما هو في القرآن المحيد . وكان عليه الصلاة والسلام يشرع للناس فيما لم يصل اليه به وحى، مما هو مجموع في كتب الحديث : فكان من ذلك شريعة قوية متينة تناسب كل زمان ومكان، لا يعتريها الباطل من أي جهة من جهاتها . وحسبنا دليلاً على ذلك أن نابليون يونايرت استقدمها القانون الفرنسي الذي هو روح التشريع الحديث في أوروبابا جمعها، وإلى كتب الشريعة الاسلامية الآن ترجع قضاة أوروباء ومشروعهم في كثير من الامور التي لم ينص عليها في قوانينهم . فكان بذلك صاحب هذه الشريعة الفراء أكبر رجل في الخليقة خدام الانسانية خدمة لا ينكرها الا كل لئيم أو كاذب . عرف صلى الله عليه وسلم انه ليس للوصول إلى هذه الخدمة سبيل الا بمحاربة أعدائها، فكتب إلى رؤوس الامم التي تحيط ببلاده منهم ملوك الروم، والفرس، ومصر، واليمن ،

والحبشة ، يدعوهم الى الاسلام ، ويطلب منهم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى تسجلت على الناس دعوته . ثم اتدأ يأخذ أهبته ضدهم لم يقبل رسالته . فدانت له بلاد العرب من أدناها الى أفصاها، وصالحه على الجزية كثير من الامم التي في شمالها شرقا وغربا . وفي السنة العاشرة من الهجرة كانت الامة العربية استعدت الى الهوض بدين الله ونشره في جميع الآفاق ، وتمت بذلك مأموريته صلى الله عليه وسلم ، فخرج حجة الوداع ، وسجل دعوته على المؤمنين في خطبته بها ^(١) في عرفة . ثم رجع الى المدينة ، وفي أواخر صفر اعتل جسمه صلى الله عليه وسلم ، وقبضه الله اليه في يوم ١٢ شهر ربيع الاول سنة احدى عشرة للهجرة ، ودفن في بيته حيث هو الآن بمسجده الشريف صلوات الله عليه وسلامه .

أبو بكر

هو عبد الله بن أبي قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب . وفي مرة يحق نسيبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد بعد عام الفيل بثلاث سنين . أما صفته فهي كما وصفته ابنته عائشة : « كان أبيض ، نحيفاً ، خفيف العارضين ، أنجناً ^(٢) ، لا يستمسك أزاره يسترخي عن حنويه ، معروق ^(٣) الوجه ، عائر العينين ، يأتي ^(٤) الجهة ، عاري الا شابع ^(٥) »

وكان تاجراً ، وعرف قبل الاسلام بزهده ، وورعه ، وتواضعه ، وسعة خلفه ، وصدقه ، واتعاده عن المنكر ، حتى أنه لم يشرب الخمر مطلقاً في حياته . فلما جاء الاسلام ورأى أنه دين الحق لم يكن لنفسه سلطان عليه ، فكان أول مصدق من الرجال برسالة صديقه محمد صلى الله عليه وسلم .

(١) كانت خطبة الوداع في يوم الجمعة ، وفي هذا اليوم نزل قوله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً . وهذا هو سبب اهتمام الناس بالحج في السنين التي يصادف الوقوف فيها يوم الجمعة . وقد ورد في فضل الحج بالحكمة أحاديث كثيرة . (٢) منحنيًا (٣) قليل اللحم (٤) بارز (٥) الا شابع أصول الاصابيع التي تتصل بظهر الكعب .

ولما أسلم أخذ ينصر رسول الله ويساعده ويدعو الناس إلى دينه، فنقمت عليه قريش وأخرجته من مكة. فأراد الهجرة إلى الحبشة، فلقية ابن الدغنة، وهو سيد القارة، وعاد به إلى قريش، وقال لهم: كيف تخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فآثر كوه يعبد الله في داره. فقبلوا منه ذلك على أنه لا يجتمع بمحمد صلى الله عليه وسلم. وأتى ابن الدغنة أبا بكر فاخبره بذلك وقال له: أما أن تقتصر في دارك وأما أن تردمتي، فاني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في عقد رجل عقدت له. فقال أبو بكر: «اني أرد عليك جوارك وأرضي بحوار الله تعالى ورسوله». ومكث رضى الله عنه بمكة، وما زال ينصر رسول الله بنفسه وماله حتى هاجر معه إلى المدينة، مع ما كان يحقق بهما من خطر أولئك الذين كانوا يناوئون الرسول، وينبذون طاعته، وينكرون رسالته ويظهرون عداوته. وما زال ابن أبي قحافة بالمدينة قائماً بنصرة صاحبه مختصاً بصداقته، حتى مرض رسول الله مرض الموت، فامر به بالصلاة بالمؤمنين. ولما توفي صلى الله عليه وسلم هلع المسلمون وهالهم الأمر، فقام فيهم خطيباً وقال في كلام له: «من كان يعبد محمداً فمحمد قد مات ومن كان يعبد الله فالله حي لا يموت». ثم تلا قوله تعالى: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً». فسكن روح الناس وتابوا إلى رشدهم واحتلموا مصيبتهم في نبيهم. ثم بايعه الناس في سقيفة بني ساعدة فخطب فيهم قائلاً: «قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فاعينوني، وإن أسأت فقوموني».

وقام أبو بكر في حكمه بامر المسلمين خير قيام. وكان رضى الله عنه في خلافته أزهد الناس وأورعهم وأتقاهم. وكان يلبس الشملة والعباءة حتى انه لما وفد عليه زعماء العرب وملوك اليمن ومنهم ذوالكلاع الحميري، وعليهم الحلل المقصبة والبرود المذهبة أكبروه وهاجوه وذهبوا مذهبه. وارتدت العرب في أول خلافته عن الاسلام فراراً من قيوده التي ساوت بين الكبير والصغير، والسوقة والامير. فجرد لهم عزيمته واستنفر الناس عليهم وحاربهم بثبات متين وجأش رابط، حتى أرجعهم إلى دين الله ورسوله. وبعد ما فرغ من حرب أهل الردة سير

خالد بن الوليد الى العراق من أدناه، وعياض بن غنم من أعلاه، وأمرهما أن لا يضرا بسواده ولا بفلاحيه : فسار خالد ووقعت له واقعة الحفيرة المشهورة قرب البصرة، وانتصر فيها على جيوش الفرس بعد ان قتل رئيسهم هر مز، ثم قصد الحيرة فصالحه أهلها على الجزية، ثم سار الى الانبار وصالح أهلها على ما صالح به أهل الحيرة، واستخلف عليها الزبير بن بدر. وسار الى عين التمر فالتفت به جيوش المعجم فهزمهم وسبي من كان به، وفي جملةهم نصير أبو موسى فاتح الابدلس. ثم سار الى دومة الجندل وأخذها عنوة. وما زال ينتقل فاتحاً منصوراً من بلد الى بلد حتى وصل الى تخوم الشام، فاجتمعت عليه الروم وعرب باديتها، فنصره الله عليهم ثم رجع الى الحيرة ومنها الى مكة لا داء فر بضعة الحج .

أما عياض فانه اخترق نفق حانه بلاد كردستان وارمينية ثم انضم بأمر عمر الى جيوش أبي عبيدة في حصاره لدمشق لاهميتها وحصانة موقعها .

ولما كثرت الفتن على المسلمين انشأ أبو بكر بيت المال وجعل عليه أبا عبيدة، وجعل على القضاء عمر بن الخطاب، وعلى الحرب خالد بن الوليد، وكان يكتب له على بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت .

وفي سنة ١٣ هـ جريّة بعث أبو بكر البعث الى الشام فمقدلوا الى يزيد بن أبي سفيان وكان يحمله له أخو دمعاً وية، ثم عقد لواء آخر الى أبي عبيدة بن الجراح، ولواء لشرحبيل بن حسنّة، ولواء لعمر بن العاص. فاجتمعوا في اليرموك ووقعت لهم فيها واقعة كبيرة مع جنود الروم الذين أحاطوا بهم من كل جانب. وكان أبو بكر أمدهم بخالد بن الوليد ونصرهم الله في هذه الواقعة نصراً مبيناً. ثم سار كل لواء الى جهة من جهات الشام، وسار خالد وأبو عبيدة الى دمشق وحاصروها. وفي أثناء حصارها وصلهم كتاب عمر بموت أبي بكر، وفيه عزل خالد عن الجيش وتأمير أبي عبيدة عليه .

وكان أبو بكر رضى الله عنه جليل الصفات، قدوة في مكارم الاخلاق، كثير الزهد، وكان يعيش بالكفاف : وحسبك ما ورد من ان امرأته اقتصدت من قوت عائلتها ما كان منه في عدة أيام قدر يسير من الدقيق، وأرادت أن تشتري به شيئاً من الحلوى .

فلما علم به أبو بكر أمر فاعيد الى بيت المال لانه فضل عن قوت عائلته، وأسقط من ثقته بمقدار ما نفقت كل يوم . وكانت هذه الفقة تصرف اليه من بيت مال المسلمين ، لانه ترك تجارته لتفرغه للاشغال بامرهم . وكان مرتبه ٢٥٠ ديناراً في السنة وشاة غير كاملة كل يوم . فلما وجد المسلمون أن ذلك لا يكفي عائلته أكملوه الى ٣٠٠ دينار في السنة مع شاة تأكلها كل يوم . أما سيرته مع المسلمين ورفعهم وحسن سياسته فيهم وتعهده لأصحابهم، فما لا يفضل فيه راع مع رعيته . وكان رضى الله عنه كثير الصبح لعماله بالاناقة في أعمالهم، والا تعاد بالناس عن مواقف العن، والتعفف عما في أيديهم . وأفضل ما يذكر في تاريخه اهتمامه بجمع القرآن من صدور الخطاط، ومن بعض الصحف قبل أن يدخل عليه تغيير أو تبديل : والسبب في ذلك أن عمر ذهب اليه وقال له « ان القتل قد استحر يوم الائمة بالناس، واني لا خشي أن يستحر العمل بالفراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعه، واني لا رى أن يجمع القرآن » . ورأى أبو بكر رأى عمر فقال لريدان ثابت : قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه . فجمعه زيد من الرقاع وصدور الرجال، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى قابل ربه ، ثم حفظت عند حفصة بنت عمر .

وما زال أبو بكر رضى الله عنه قائماً بامر المسلمين حتى مرض في أوائل جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ . فامر علياً يصلى بالناس، ومات رضى الله عنه في يوم ٢٨ من الشهر المذكور، بعد أن عهد الى عمر بالخلافة من بعده ، ودفن الى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام . وكان له من البنين عبد الله وعبد الرحمن ومحمد، ومات عبد الله في خلافته خلف سبعة دنانير فاستكثرها عليه . وكان له من البنات أم كلثوم وعائشة ^(١) أم المؤمنين رضى الله عنها .

————— . —————

(١) دخل بهار رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة الاولى للهجرة ومات رضى الله عنها سنة ٥٨ هـ منها .

عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن فرط بن رباح بن عبد الله بن رداح بن عدى ابن كعب، وفيه يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم، وكنيته أبو جهص، ويلقب بالعاروق وهو أول من سمي أمير المؤمنين . وكان أعسر يسر (يعمل بكفى يديه)، طويلاً، أصلع، ولونه شديد السمرة . ولد رضى الله عنه سنة أربعين قبل الهجرة . وكان في صغره يرعى الغنم لأبيه ثم اشتغل بالتجارة وسافر حمله مرات في الجاهلية إلى الشام وغيرها في تجارته أو سفارته لقومه . وقد ذكر ابن عساکر أنه أسرى في بعض أسفاره بدمشق، فتخلص من أسره ووفر إلى مكة . وكان شجاعاً مهيئاً بعيد النظر في الأشياء مشهوراً بالصدق والامانة والشهامة الأدبية شديد أى قوله وعمله . وكان في أول الاسلام من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأسلم قبل الهجرة بأربع سنين . وكان أسلم قبله تسعة وثلاثون شهراً كانوا في أشد ما يماسونه من فريش، وقد هاجر كثير منهم إلى الخاشة وغيرها . ومن كان منهم بمكة كان يستخفى عن الناس، وكان المسلمون يجتمعون سرّاً في دار الأرقم الحزومى تحت الصفا، فقال عمر للنبي صلى الله عليه وسلم «يا رسول الله على مَ نحفى ديننا ونحى على الحق وهم على الباطل»؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنا قليل وقد رأيت ما لقينا» . فقال عمر: «والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالسكر إلا جلست فيه بالإيمان» . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين، حمزة في أحدهما وعمر في الآخر حتى دخلوا المسجد . فنظرت قریش إلى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة، ومن يومئذ ساء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعاروق؛ لأنه باظهاره للاسلام فرق بين الحق والباطل .

ومن ثم أخذ المسلمون وفي مقدمتهم عمر يبتون في الناس دينهم، وينشرون فضله علانية ويكافحون قریشا غير مباين بما كانوا يصادفونه منهم من الاهبات وسوء المعاملات، حتى أدن الله رسوله بالهجرة . فهاجر الناس مختفين إلا عمر فإنه لما هم بالهجرة وكان خامس من

هاجر الى المدينة، تقلد سيفه وتنكب قوسه وأخذ في يده اسهما ومضى الى الكعبة، ورجال قريش في فنائها، فطاف بالبيت سبعا ثم أتى المقام فصلى ثم وقف على الناس وقال «شاهت الوجوه لا يرغم الله الا هذه المعاطس . من أراد أن تشكله أمه و يؤتم ولده ويرمل زوجه فليلقني وراء هذا الوادي : فاتبه أحد الا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم، ومضى لوجهه » .

ومكث عمر مع رسول الله في المدينة صادقا في صحبته، أميناً في خدمته، متفانياً في نصرته، متشدداً في تأييد دعوته، حتى اذا بلغت وفاة رسول الله صلوات الله عليه ، وضع الناس لهول هذه المصيبة، جزع من صدمة هذه النائية جزعاً شديداً . ولكنه لم يلبث أن ثبتته الله تعالى وذهب بأبي بكر الى سقيفة بني ساعدة ، وكان قد اجتمع فيها الا بصار يريدون خليفة منهم . فدعاه الى أبي بكر وبايعه وتبعه المسلمون حتى تمت له البيعة . وما زال عمر لأبي بكر صاحباً متيناً ومشيئاً أميناً وناصراً أميناً حتى مات أبو بكر بعد أن عهد بالخلافة اليه . فلما بايعه المسلمون صعد المنبر وجلس حيث كان يضع أبو بكر قدمه تواضعاً، وخطب الناس وقال في خطابته : أيها الناس من رأى في منكم اعوجاجاً فليقوم . فقام رجل وقال والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لمؤمننا بنسبوفنا . فقال عمر الحمد لله على أن في أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

ابتدأ عمر عمله في الخلافة باهتمامه باجلاء المشركين عن جزيرة العرب بعد أن عوضهم عن أملاكهم بما يزيد عن قيمتها، لانه كان يخشى وقوع الفتنة منهم بين المسلمين . وكان قد أرسل بعزل خالد بن الوليد عن امارة الجيش في الشام لانه كان يوجس منه خيفة . وأقام بدله أبا عبيدة في امارته، وأشار عليه بالاهتمام بفتح دمشق لانها حصن الشام وبيت مملكتهم . فسار اليها مع خالد وحاصرها بعد أن أقفل طرقها في وجهه من يأتي لددها . وكان معهما عياض بن غنم وعمر وبن العاص والقعقاع بن عمرو وشرحبيل بن حسنة . وكان كل واحد منهم على جهة وألوا جميعاً في حصارها بلاء حسناً . وانتهى أمرها بأن فتحت من الجهة التي فيها ابن الوليد : لانه استغفل الحرس وتسلى السور ليلاً مع بعض رجاله وفتح الباب لجنود المسلمين ، وكان ذلك في أواخر سنة ١٣ للهجرة . ومن ثم أخذت جيوشهم تفتح ما حولها من البلاد : ففتحت بعلبك وحمص وما والاها شمالاً من بلاد السواد . ثم فتحوا بلادها غرباً الى بيروت . وسار عمرو بن

العاص جنوباً إلى بيت المقدس فاتحاً الجميع ما في طريقه من البلاد، وشدّد الحصار على أهلها فقالوا له اننا لنرضى بما نريد غير ابن الخطاب . فكتب له فخر إلى الجابية وهي قرية من أعمال دمشق ، وقابله فيها أمراء الجند منهم : أبو عبيدة و خالد و يزيد بن أبي سفيان وابن العاص . وهناك وفد عليه وفد إيلياء وقالوا له انهم نواب في الصلح عن قومهم ، فكتب لهم عهداً بذلك وجعل عليها علقمة بن محرز ، ثم سار إليها ودخلها ليلاً وبنى مسجد الصخرة وجعل قبلته إلى الكعبة بعد أن طهره مما تراكم به من القمامة التي كانت الروم تلقها عليه ، ثم عاد إلى المدينة . وكان ذلك في سنة ١٦ هـ .

واسقى أبو عبيدة في الفتح فتح حماة واللاذقية وقسرين وحلب وأطّاقية . وفي سنة ١٧ هـ دانت للمسلمين بلاد سوريا والشام وجنوب الأناضول من أقصاها إلى أدناها . فأخذوا يرتبون أمور البلاد في داخلتها ، ويضعون لها نظاماً في حكومتها . ولكن قيصر الروم لم يسمع منه وجمع جنوده وجمع قوّته وهاجمهم من جهة قسرين في جيش هائل ، إلا أنه لم يلبث أن انهزم مدحوراً وغنم المسلمون سلب جيشه ، وبهذه الموقعة قضى على حكم الروم في هذه البلاد . وسار ابن العاص إلى مصر فتم له فتحها في سنة ٢٠ هـ وأقام فيها يرتب أمورها وينظم أحوالها وسير منها نفر آمن قومه إلى برقة وبلاد النوبة فافتتحوها .

هذا ما كان من فتح الشام ومصر . أما ما كان من فتح العراق ، فإن عمر رضي الله عنه كان سير إليها بأبعبيد الثقفي . فسار حتى عبر الفرات بمن معه من المسلمين ، وهناك حصلت بينه وبين الفرس واقعة عظيمة استشهد فيها أبو عبيد في عدد كبير من قومه . فأرسل عمر سعد بن أبي وقاص في جند من المسلمين ، فسار حتى وصل إلى الفادسية : وهي مدينة في جنوب النجف بميل إلى الغرب . وكان موقعها فيما بين البادية وسواد العراق ، وكان معه عدد عظيم من لحق به من المسلمين من الشام وغيرها ، منهم النعمان بن مقرن وحنظلة بن الربيع التميمي والمغيرة بن زُرارة والاشعث بن قيس وعاصم بن عمرو وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبه .

وهناك قابلهم رستم قائد جيوش الفرس بما لا يحصى من الجنود . فحصلت بينه وبينهم جملة وقائع أبلى فيها الطرفان بلاءاً عظيماً ، وكانت نتيجة قتل رستم وانهزام الفرس ودخل سعد

القادسية سنة ١٥ هـ . ثم سار منها الى المدائن وهي عاصمة الاكاسرة وموقعها على دجلة على مرحلة من الجنوب الغربي لبغداد، ويسمى بالافرنج اكنيزيفون (Ktésiphon) ويسمى بالفرس (بهرسير) ، فحاصرها وافتتحها بعد شهرين ، وهرب كسرى الى حلوان ثم الى اصفهان . وغنم المسلمون من خزائنه مالا يحصى ، وجعلوا ايوانه مسجداً وكان ذلك في سنة ١٦ هـ . وأقام سعد بالمداين الى سنة ١٧ هـ ، وفي غضون ذلك فتحت جنوده تكريت والموصل ، ثم تحول الى الكوفة بعد أن اختطها بأمر عمر .

وجمع كسرى فل الفرس وشتاتهم الى نهاوند ، فلما بلغ عمر ذلك سيرا النعمان بن مقرن في جيش من المسلمين ، فأتى اليها وحصر الفرس فيها وقطع عليهم خط رجعتهم ، وحصلت بينه وبينهم معركة تشيب لها الولدان ، كانت دماء الناس فيها تجري في ساحة الوغى كأنها الابهار : فزلق جواد النعمان فصرعه ، فكتم أمره من عرف ذلك من المسلمين وثبتوا في قتالهم الى الليل ، فانهزمت جيوش الفرس وتشتت شملهم . وسار المسلمون في أثرهم حتى وصلوا همذان ، فصالحهم أهلها على أن يكفوهم شر الفرس من جهةهم ، وهرب يزدجرد ملك الفرس الى بلاد التار ولا زال فيها حتى مات في خلافة عثمان . وفي واقعة نهاوند قتل كثير من عظماء المسلمين : منهم طليحة الاسدي وعمر بن معد يكرب الزبيدي .

بعد ما استقر أمر المسلمين في بلاد الفرس أرسل سعد بعمياض بن غم الى الجزيرة ، وكانت جنود الروم قد اجتمعت في أعلاها ، فافتتح بلادها الى حدود كردستان وأرمينية شرقاً وبلاد الشام غرباً ، وكسر جنود الروم ومزقهم كل ممزق ، ثم عاد الى حمص فمات بها رضى الله عنه .

وكان عمر قد سير عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي سنة ١٨ الى فتح أرمينية وعززه بسلطان أخيه من جهة ، وبجبيب بن مسلمة القهري من جهة أخرى . فساروا حتى وصلوا بالفتح الى شمال جبال القوقاز : وبعد أن ضربوا الجزية على أهل هذه البلاد انجلوا عنها الى الجنوب ، خوفاً مما كانت تستلزمه سعة أطرافها ونغورها من كثرة الجند والمرابطة وما كانوا يخشونه من تجمع جيوش الروم عليهم في هذه النواحي القاصية .

ولمادانت للمسلمين بلاد الفرس والعراق والجزيرة والشام وسوريا ومصر وبرقة والنوبة،
أخذ عمر في تقوية ثغورها، وتنظيم داخليتها، وترتيب ماليتها، وربط خراجها، ووضع
جزيتها: فدوّن الدواوين، ووضع السجلات لضبط حسابات كل مصر وأعطياتها، وقيد
محركاتها. وجعل للحسبة ديوانا يفتش على أعمال التجار حتى تكون الناس في أمن من غشهم،
وضرب النقة ومن الدراهم^(١) الفرسية وعلى نقشها (سنة ١٨ هـ) وزاد على بعضها الحمد لله
وعلى الآخر محمد رسول الله. وكان رضى الله عنه ينتخب للولايات العمال من أحسن
الرجال، ورتب البريد بينهم وبينه يوافونه بأموالهم ويوافيهم برأيه فيها. وكان قبل قيام البريد
من الجهات ينادى المنادون فيها « من كانت له إلى أمير المؤمنين شكوى فليرفعها إليه فان البريد
قائم من غده » وكان رضى الله عنه لا يعين في القضاء إلا أكثر الناس ورعا وزهداً، وأعلمهم
بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وكان على قضائه أبو موسى الأشعري، ولما
ولاه القضاء كتب له الكتاب الآتى:

« بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فان القضاء فرصة محكمة، وسنة متبعة، فاقم اذا أدلى
إليك، فانه لا ينفذ تكلم بحق لا نادله. آس بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك، حتى
لا يطمع شريف في حيفك ولا يئس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى، واليمين على من
أنكر، والصلح جائز بين المسلمين: الا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً. ولا يمنعك قضاء
قضيته بالامس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فان الحق قديم
ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما يتلجج في صدرك مما يبلغك في
كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم. اعرف الامثال والشباب، وفس الامور عند
ذلك: ثم اعمد الى أجلبها الى الله وأشبهها بالحق. واجعل للمدعى حقاً عائباً أو بينة: حداً ينتهى
إليه، فان أحضر بينته أخذت له بحقه، والا وجهت عليه القضاء، فان ذلك أنفى للشك وأجلى
للعنى وأبلغ للعذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض: الا مخلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة
زور، أو ظنيماً في ولاء أو قرابة: فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات والایمان.

(١) لان الدماير لم تصرف في الاسلام الا في عهد عبد الملك بن مروان.

ايالك والقلق والضجر، والتأذى بالناس، والتذكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الاجر، ويحسن بها الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه، هنك الله ستره وأبدى فعله والسلام» .

وكتب الى معاوية وهو عامله على الشام :

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فاني لم آلك في كتابي اليك ونفسي خيراً . اياك والا حتجاب، وائذن للضعيف وأدنه حتى تبسط لسانه وتجري قلبه، وهدد الغريب فانه اذا طال حبسه وضاق ادنه ترك حقه وضعف قلبه : وانما ترك حقه من حبسه . واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستتب لك القضاء . واذا حضر كالحصان بالبيئة العادلة والايمان القاطعة فامض الحكم .

وكتب الى أحد العمال :

« اجعلوا عندكم الناس في الحق سواء، قريهم كبعيدهم، وعيدهم كقريهم . اياكم والرشاء والحكم بالهوى، وان تأخذوا الناس عند الغضب . فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار » .

وكتب الى سعد وهو يشراف يريد العراق وحرب الفرس ما نصه :

« أما بعد فسر من شراف نحو فارس عن معك من المسلمين، وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله . واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير، وعدتهم فاضلة، وبأسهم شديد . وعلى بلد منيع وان كان سهلاً كؤوده، لبحوره وفيوضه ودآئه : الا ان توافقه واغيضاً من فيض . واذا الفيتم القوم أو واحد منهم فابدءوهم الشد والضرب . واياكم والمناظرة لجوعهم . ولا يخذل عنكم فانهم خدعة مكررة أمرهم غير أمركم، الا أن تجادوهم . واذا انتهيت الى القادسية : والقادسية في باب فارس، وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصول (النواحي)، وهو منزل رغب خصيب حصين، ودونه قناطر وأهبار ممتعة فتكون مسالحك على أقبابها، ويكون الناس بين الحجر والمدرة، على حافات الحجر وحافات المدر، والجراع (الارض الرملية) بينهما . ثم الزم مكانك فلا تبرحه : فانهم اذا أحسوك انقضت بهم، رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدتهم وجدتهم . فان أتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونوئتم الامانة، رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لا يجمع لكم مثلهم أبداً، الا أن يجمعوا وليست معهم

قلوبهم . وان تكن الاخرى كان الحجج في ادباركم ، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها اجراء وبها أعلم ، وكانواعنها أجبن وبها أجهل ، حتى يأتي الله بالفتح ويريد لكم الكرة عليهم .

من الكتاب الاول ترى أن عمر رضى الله عنه كان من أكبر المشرعين ، وكتابه هذا نظام تشريعى جمع بين كلماته القليلة روح التشريع القضاى ، مما تراه مبسوطاً فى محلدات ضخمة . ومن كتابه الثانى والثالث ترى انه من أبعد الناس نظراً فى النظام الادارى . ومن الرابع ترى انه أكثر الناس معرفة بأساليب الحرب . وقلماً تحتق هذه المزايا كلها فى شخص واحد . نعم كان عمر نادرة فى بابه بل نابغة من نوابع الخليفة . ومن من الناس يجلس مكان عمر بحزيرة العرب ، ينما هو يحرك عماله فى الفرس والعراق والحزيرة والشام ومصر واليمن وغيرها : فى حروبهم ، وادارتهم ، وجباية أموالهم ، وفصائهم ، حتى لا يكلمهم على مرأى منه ومسمع .

من من الملوك يمكنه أن يصل ليله سهاره فى أصبح رعيته ، وسهره على كل ما فيه مصلحتها كما كان يعمل عمر : وهو مع ذلك يرى نفسه مقصر فى واجبه غير قائم بعمله فلا يبعك مفكر اعلى الدوام فى حساب ربه له على كل صغيرة يوههم أنه ارتكبها فى سبيل المصلحة العامة !!! اللهم ان هذا هو مقام الراعى من رعيته : فنعم الراعى عمر وعمت الرعية رعية عمر !!!

كان رضى الله عنه كثير النصيح لعماله ، شديد المراقبة عليهم ، كثير التجسس عن أحوالهم ، حتى أقام عليهم العيون يوافونه باخبارهم كيلا يأخذوا الناس بنظامهم . وجعل له عمالا من أهل الورع والصدق يهتشون على أعمال الولاة والقضاة . ومن ذلك أن فدشكا الناس بالكوفة أميرهم سعد بن أبى وقاص فى سنة احدى وعشرين ، فبعث عمر محمد بن مسلمة الا بصارى ، - نحرق عليه باب قصر الكوفة وجمع الناس فى مساجدها ، فسألهم عنه . فحمدوه بعضهم وساءه بعضهم ، فعزله عمرو وبعث عليها عمار بن ياسر . وكان عمر نابع أو امره لولاه بعدم ظلم الرعية ، ومن ذلك كتابه الى عتبة بن غزوان أمير البصرة : « أعزب الناس عن الظلم ، واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغيري ، فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه ، وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم ، فافوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً » .

وخطب عمر في الناس يوماً فقال : « أيها الناس اني والله لم أرسل عمالا اليكم ليضربوا
أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم ويفضوا بينكم
بالحق ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل به شئ عسوى ذلك فليرفعه الىّ » فوالدي نفس عمر
بده لا قصته منه » .

وكان عمر رحباً بالناس رفيماً لهم ولم يقتصر رحمته على الانسان بل كان يرفق بالحيوان ،
قال المسيب بن درام : « رأيت عمر بن الخطاب يضرب حملاً ويقول حملت جمالك
بمالاتي » .

هذه كانت حياة عمر مع عماله ورعيه لم يفرق فيهم بين كبير وصغير ، غني أو فقير ، وحسبك
ما كان لدمع جبلة بن الهم ملك غسان ، فانه أسلم في جمع من قومه وأتى الى مكة ، ففرح به
عمر وأكرمه كثيراً ، وبما هو يطوف حول الكعبة ادو طي اعرابي رداء ، فأنحسر عنه ، فلطمه
جبلة فتأذاه الا اعرابي عند عمر . فعصى بالنمصاص الا اذا انحاور صاحب الحق عن حقه . فقال
جبلة : أتعامل الملوكة عندكم معاملة السوق يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم لم يفرق الاسلام بين ملك
وسوقة . فاستمهل جبلة حتى يرى رأه ، وفر لئلا الى بلاده . وكان عمر شديد في دينه
لا تأخذه في الله لومة لائم . أقام حدوده في الداس لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم قريبهم وبعيدهم ،
وماهيك بحده لولده عبد الرحمن في الحرم حتى مات وهو يحده . وقد كان رحمه الله شديد العناية
بالفراء : ولما اتخذ لهم دار الدقيق يعين بها المتقطع منهم .

أما حياته في شخصه فقد كان رضى الله عنه كثير الورع والرهـد شديد الخوف
من الله يمتص من نفسه لغيره . وكان يعيش من عمله وتجارته الى أن صارت اليه الخلافة .
ولما ولي أمر المسلمين واشتغل بشؤونهم أرادوا أن يرتبوا له من بيت المال ما يقوم بأمره
وسألوه معدار ما يريد ، فسأل علياً رأيه فقال له : « ما يصلحك و يصلح عيالك بالمعروف ، ليس
لك من هذا الأمر غيره » . فقال عمر : الفول ما قال ابن أبي طالب .

وروى الطبري ان هذا العطاء الذي رضي به عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه
واشتدت به الحاجة : فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وطلحة والزبير وتشاوروا في

زيادة يزيدونها لعمر في رزقه من بيت المال، فها بواقة ما لته بذلك . فاتوا ابنته حفصة التي كانت زوجا للنبي صلى الله عليه وسلم وأمروها أن تحرد بالخبر وترى رأي فيه ولا تذكر له أسماءهم . فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه، وقال لها من هؤلاء؟ قالت لا سبيل الى علمهم حتى أعلم رأيك ، فقال لو علمت من هم لسؤت وجوههم، أنت بيني وبينهم أنشدك بالله ما أفضل ما اقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملابس / قالت ثوبين ممشيين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع . قال فأي الطعام ناله عندك ارفع / قالت خبزنا خبز شعير وصبنا عليها وهي حارة أسهل عكة (فر به السمن) جعلناها هشة دسمة، فاكل منها وتطعم استطابة لها . قال فأي مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ (ألين) قالت كساء لنا نحن كنا نر بعه في الصيف فجعله تحتاء فادا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدنا بنصفه، قال يا حفصة فبلغهم عني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد روض الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية (الرجاء) . واني قدرت فوالله لا ضعن الفضول مواضعها ولا تبلغ بالترجية . وانا مثلى وة مثل صاحبي كثلاثه سلكوا طر بنا فضى الاول وقد تزود زاد ابلغ . ثم اتبعه الا آخر فسلك طريقه فافضى اليه . ثم اتبعه الثالث فان لزم طر ففهموا ورضى بزادهما لحق هما وكان معهما، وان سلك غير طر ففهموا لم يجتمع بهما .

ما زال عمر رضى الله عنه على هذه الحال بين رعيته: مهمتا بأمورهم غير مفكر الا فيما يكون من رقيهم وسعادتهم . يهضى ببنهم عما أنى من عند الله ورسوله، واذا وقع له ما لم يمكنه أن يستخرج حكمه من القرآن والسنة، جمع اليه خاصة المسلمين أعقلهم وأعرفهم بكتاب الله وسنة رسوله وسألهم رأيهم وفضى ما يرويه . وبذلك تحق الحكم الشورى بين المسلمين: فعلا به سلطانهم وعظم ملكهم وانبسطت افياء اعمتهم . وما زال رضى الله عنه مشتغلا بنصرة الاسلام وتعزيز أركانه وتوطيد بنيانه الى سنة ٢٣ من الهجرة، فانا هفروز أنولوا لؤة غلام المغيرة بن شعبه وكان فارسيا، يشكو اليه كثرة ما ضربه سيده عليه من الخراج . فسأله عمر كم خراجك؟ قال: درهمان في كل يوم . قال وايش صناعتك؟ قال محاس نقاش حداد . قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال . فتوعده الغلام وانصرف . فقال عمر توعدنى العبد !!!

وتَحَنَّنَ أَبُو لَوْلُؤَةَ عَمْرَ فُجَاءَهُ فِي صَلَاةِ الْعِدَاةِ حَتَّى قَامَ وَرَأَاهُ، فَلَمَّا كَبَّرَ وَجَّاهُ أَبُو لَوْلُؤَةَ فِي كَتِفِهِ وَخَاصَرَتْهُ فَسَقَطَ عَمْرٌ وَنَادَى بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَأَمَرَهُ أَنْ يَصِلِيَ بِالنَّاسِ . وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْإِرْبَاعِ لَارْبِعَ لَيَالٍ ثَقِينٍ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ . وَفِي غَدِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَخْبَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍاهُ رَأَى أَبَا لَوْلُؤَةَ مَعَ الْهَرَمِزَانِ وَمَعَهُمَا رَجُلٌ اسْمُهُ جَفِينَةُ، وَكَانُوا يَتَنَاجُونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ تَهَرَّقُوا وَسَقَطَ مِنْهُمْ ذَلِكَ الْخَنَجَرُ . فَعَدَا عُبَيْدُ اللَّهِ عَلَى ثَلَاثَتِهِمْ فَقَتَلَهُمْ فَأَمْسَكَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ حَتَّى جَاءَهُ إِلَى عُمَانَ بَعْدَ الْبَيْعَةِ .

وَلَمَّا مَاتَ عَمْرٌ صَلَّى عَلَيْهِ صَهْبِيْبٌ . وَدُفِنَ يَوْمَ الْإِحْدَاهِلَالِ الْحَرَمِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَعَمْرُهُ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ عِشْرِينَ سَنَةً وَخَمْسَةَ أَشْهُرٍ وَأَحْدَاوَعِشْرِينَ يَوْمًا . وَقِيلَ لَمْ يَكُنْ وَفَاتَهُ فِي يَوْمِ الْإِرْبَاعِ الْمَذْكُورِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْهَدَ بِالْخِلَافَةِ إِلَى أَحَدٍ : وَلَمَّا سُئِلَ فِي ذَلِكَ قَبْلَ وَفَاتِهِ ، قَالَ إِنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَحْمَلَ تَبِعَتَهَا حَيًّا وَمَيِّتًا، وَجَعَلَهَا شُورَى إِلَى سِتَّةٍ وَهَمَّ عَلَى عُثْمَانَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ . وَكَانَ لَهُ مِنَ الْوُلَدِ : عَبْدُ اللَّهِ وَحَفْصُ وَعُبَيْدُ اللَّهِ وَعَاصِمٌ وَفَاطِمَةُ وَزَيْدٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ . أَمَّا عَمَلُهُ فِي السَّنَةِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا فَكَانَ عَلَى مَكَّةَ : نَافِعُ بْنُ عَبْدِ الْحَارِثِ الْخَزَاعِيُّ، وَعَلَى الطَّائِفِ سَفْيَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيُّ، وَعَلَى الْكُوفَةِ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَعَلَى الْبَصْرَةِ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَعَلَى مِصْرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَعَلَى دِمَشْقَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ، وَعَلَى حَمَصَ عَمِيرُ بْنُ سَعْدٍ، وَعَلَى الْبَحْرِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ، وَكَانَ كَاتِبَهُ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَعَلَى بَيْتِ الْمَالِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَرْقَمٍ .

عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ

هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَيَكْنَى بِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ . وَلِدَرَضَى اللَّهُ عَنْهُ سَنَةَ ٢٨ قَبْلَ الْهِجْرَةِ . وَكَانَ رُبْعًا لَيْسَ بِالْفَصِيرِ وَلَا بِالطَّوِيلِ ، حَسَنَ الْوَجْهِ، بِوَجْنَتَيْهِ نَكَّتَاتُ جَدْرِي ، أَقْنَى مَشْرِفِ الْأَنْفِ ، مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ ، رَقِيقٌ

البشرة، عظيم اللحية طويلها، اسمر اللون، كثير الشعر، لهجمة أسفل أذنيه، ضخيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، أصلع الرأس، وكان يصفر لحيته . وكان بزازا وتاجرا وله ثروة واسعة في قومه وكان شديد الكرم فيهم كثير البذل هياألينا كثير الحياء حسن الخلق، لين العريكة: وكان له بذلك منزلة من قلوب الناس يحبونه ويهشون اليه ويحترمونه . وهو رضى الله عنه من السابقين الاولين في الاسلام : أسلم بدعوة من أبي بكر فاضطهدته قريش ونالت منه، فهاجر الى الحبشة . وكان العرب يتعاهدونها قبل الاسلام بالتجارة . وهاجرت معه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كان تزوجها قبل الاسلام أو بعده على خلاف بين المؤرخين: وهو رضى الله عنه أول من هاجر في الاسلام ، وهاجر معه أحد عشر رجلا من المسلمين منهم أنوخذيفة بن عتبة بن ربيعة، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، ثم لحق بهم جعفر بن أبي طالب وآخرون . وأرسلت قريش بعمر بن العاص الى النجاشي يطلبون منه رددهم اليهم فلم يعمل . وماراوا اسلادا الحبشة حتى بلغهم كدنا أن فر يشا قد أسلمت كلها ، فعاد عثمان ومعه ثمرتهم الى بنو العوام الى مكة ، وكان ذلك عام ثلاث أو أربع قبل الهجرة، فوجدوا المسلمين على حالهم من الهوان وسوء معاملهم قريش لهم فاقاموا معهم على أذى قريش حتى أمر الله بنبيه بالهجرة الى المدينة فهاجر عثمان اليها ومكث في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات رقية زوجه، فوجه صلى الله عليه وسلم بام كلثوم أختها، فكانوا لذلك يسمونه دالمورين . وأقام عثمان في تحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يساعده بنفسه وماله ، ولما أراد رسول الله صلوات الله عليه تجهيز جيش العسرة ، أتى اليه عثمان بالف دينار وألماها في حجره اعانه للمسلمين ، فعمل رسول الله يقليبها ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » .

ما زال عثمان رضى الله عنه في تحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحبة صاحبيه يعمل معهم في توطيد أركان الاسلام وتشديد سياانه ، وكان آية من آيات الله في مكارم أخلاقه وحمل صفاته وسد يد آرائه ، حتى مات عمر رضى الله عنه . ولما دفن عمر بن الخطاب جمع المقتاد أهل الشورى في بيت المسور بن مخزومة فبايعوا العثمان بن عفان يوم الاثنين ، لليلة بقيت من

ذى الحجة سنة ٢٣ ، أو ثلاث مضمين من المحرم سنة ٢٤ على رواية أخرى .
 وأول عمل له في خلافته أنه جمع الناس الى ناحية في المسجد وشاورهم في أمر عبيد الله بن
 عمر ا قتله من قتل فاشار على قتله . وقال عمرو بن العاص : لا يقتل عمر بالامس ويقتل ابنه
 اليوم ، وقد حصل هذا الحدث وليس لك على المسلمين سلطان . فجعلها عثمان دية واحتملها
 وقال أنا وليه . ثم كتب عثمان الى الولاة وعمال الخراج وعامة الناس كتباً بلغت النصح
 والارشاد ، وطلب الى عماله فيها السير في طريق العدل والابصاف والمساواة بين الناس
 كبيرهم وصغيرهم ، مسلميهم وأهل ذمتهم ، وزاد في اعطيات جيشه . وفي سنة ٢٦ سير عثمان
 حبيب بن مسلمة الفهرى ومعه سلمان بن ربيعة الى فتح أرمينية والفوقار ، وكانا قد تقضتا
 الصلح بعد وفاه عمر فافتتحوهما ، وأقاموا على تغورهما من يحفظهما من جند المسلمين .
 وبينما كانا يتساجان بحيوشهما في هذه البلاد بيما كان معاوية يغير من جهة أخرى
 على بلاد الاضول . وفي سنة ٢٧ استأذن معاوية عثمان رضى الله عنه في عزو الروم
 من جهة البحر فاذن له ، وأرسل الى عبد الله بن سرح عامله على مصر بان يسير الى الشام
 اسطولا يساعدا اسطول معاوية . وسار الاسطولان فافتتحا فرص وصالحهم أهلها على
 سبعة آلاف دينار يدومونها سنويا . وفي سنة ٢٩ فتح معاوية جزيرة افریطش (كيريد) ،
 وقد كان عثمان أصدر أمره في سنة ٢٥ الى عبد الله بن سرح بغزو افرريقية ^(١) ، فامر
 عقبة بن نافع على جند وأمر عبد الله بن نافع على جند آخر وسيرهما الى بلاد المغرب فصالحهم
 أهلها على مال يؤدون له اليهم ولم يمكنهم التوغل فيها لكثرة أهلها .

وفي سنة ٢٦ جهز عثمان من المدينة جيشاً لفتح افرريقية وفيه ابن عباس وابن عمر وابن
 العاص وابن جعفر والحسن والحسين وعبد الله بن الزبير ، فساروا مع عبد الله بن سعد بن
 أبي سرح حتى وصلوا برقة فلفيهم بها عقبة بن نافع فحين كان معه من المسلمين ، وساروا الى
 طرابلس فقابلهم جيوش الروم وعليهم جريجوار (جرجير) فحصلت بينهم موقعة
 هائلة انهزمت فيها جيوش الروم بعد أن قتل عبد الله بن الزبير قائدهم جريجوار . وبذلك

(١) كانت العرب تطلق اسم افرريقية على بلاد تونس .

صارت البلاد الى المسلمين فولى عثمان على افر يقية عبد الله بن نافع، وعادا بن سعد الى مصر. فلما باغ قسطنطين بن هرقل امبراطور الروم خراس تيلاء العرب على بلاده في افر يقية جهز اسطولاً كبيراً مؤلفاً من ٦٠٠ مركب وسافر به من القسطنطينية الى تونس. فعلم به عبد الله بن سعد بن أبي سريح فخرج اليه من مصر في اسطوله، وخرج معاوية في اسطوله أيضاً من سورية والتقوا بمراكب الروم وأنخنوهم، فانهزم قسطنطين السابق من مراكبه الى صفلية فقتله أهلها. والمسلمون يسمون هذه الواقعة بواقعة ذات الصواري.

وكانت بلاد فارس قد انتفضت أطرافها فعزل عثمان في سنة ٢٦ أبا موسى الأشعري عن البصرة بناء على طلب أهلها لشدة رفايته، وولى بدله عبد الله بن عامر القرشي وهو ابن خال عثمان وعمره اذذاك ٢٥ سنة، فبلغت جنوده الى أقاصى بلاد الاكاسرة. ثم انتفضت فارس فبلغ ابن عامر الخبر وهو بالبصرة فاستنفر الناس اليهم وسار وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاصي وعلى خيله عمران بن حصين فلفيه اثنا ورون على اصطخر وحصل بينهم مواقع هائلة وافتتح اصطخر عنوة وفنى في تلك المواقع أغلب بيوتات الاساورة لانهم كانوا جعلوا هذه المدينة مركزاً لهم ثم وطئ ابن عامر بلاد فارس وطأه قضى فيها على ما كان تقى فيهم من عرة الملك وخيلاء السلطان. ثم سار الى خراسان وكانت قد انتفضت وسير على مقدمته الاحنف بن قيس وتقدم الى بيسانور فافتتحها الى هرات ثم سير الاحنف الى طخارستان فافتتحها الى مرو وسار منها الى بلخ فافتتحها أيضاً. وسير عامر بن الربيع بن زياد الحارثي الى سجستان فافتتحها ثم انقض أهلها فأرسل اليها عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس فافتتح بلادها الى حدود الهند.

وفي سنة ٣٠ سار سعيد بن العاصي أمير الكوفة الى طرستان وكان في جيشه الحسن والحسين وحذيفة اليماني وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص فأوغلوا فيها بالفتح لكنها بعد ذلك كانت تنفض فيغروها المسلمون حتى استخضعها يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان.

ولما عاد بعض الناس من غزواتهم سألهم عثمان عن حال المسلمين فأخبروه بتعدد

قراءات القرآن فيهم، وقالوا له ان هؤلاء يقولون قرأنا خير من قرآن الآخرين وأولئك يقولون بل قرأنا خير من قرآنهم فطلب عثمان المصحف التي كان جمعها أبو بكر من حفصة بنت عمر واستكتب عشرة مصاحف منها وأرسلها إلى الجهات، وأمرهم أن يحرقوا كل ما عداها وبذلك كان حفظ القرآن الكريم على ما هو عليه اليوم من غير اختلاف ولا تغيير ولا تبديل بين أهل جميع الاقطار والامصار، وهو ما لم يتيسر لكتاب غيره بالمرّة.

ويقال ان أحدهم المصاحف موجود بكتبخانة موسقوبالر وسيا، وله صورة أخذت بالهوطوغراف موجودة بكتبخانة المصرية التي بها مصحف آخر يزعمون أنه من مصاحف عثمان، ويوجد في الاستانة بحرينة الآ نارة النبوية مصحف يقولون انه منها . ويقولون ان المصحف الشريف الموجود بالحجرة الشريفة الآن منها أيضا

وفي مدة عثمان رضي الله عنه اتسع ملك المسلمين كثيرا وثبت قدمه بتلك الفتوحات التي ساحت فيها جيوشهم في أملاك الروم والعجم .

الا أن عثمان كان يكثر من ولايه فرائسه على الامصار، وكان يقرب اليه نبي أمية ويستشيرهم في أموره حتى ظهر وافي خلافته على قریش كلها، وصارت لهم بالمدينة أملاك واسعة وثروة طائلة وكان مشيريه ووزيره وكاتب سره مروان بن الحكم وكان كثيرا ما يعمل نه كره ويغضي له رأيه حتى بالغ الناس في أن ختم عثمان كان مع مروان يغضي به ما يريد . فنفم لذلك جماعة من قریش وكثير من صحابه رسول الله، وتدمرت الولايات مما كانوا يأخذونه على ولائهم من سوء عملهم فحاطبوا في ذلك عثمان وأودوا اليه وفودا يطلبون منه عزل بعضهم فلم يقبل : فرادت الفتنة وثار الناس من مصر والبصرة، وقصدوا المدينة في جموع كثيرة وما زال على كرم الله وجهه بينه وبينهم حتى قبل عثمان بعض مطالبهم وسافروا من المدينة، ثم أعادوا الكرة اليها وفي يدهم كتاب بختم عثمان قالوا لهم وجدوه مع رسول من عثمان إلى ولائه بحبسهم وتعذيبهم، وكان منهم محمد بن أبي بكر . خلف عثمان بأنه لم يكتب ذلك ولم يأمر به ولا علم له به فنسبوه للضعف فطلب منه على أن يبعد عنه مروان فلم يقل وتركه واشتدت الفتنة وطلب الثائرون أن يعتزل عثمان العمل فلم يحجبهم وكتب إلى ولائه على الامصار بان

يوافوه بالمسدد، وكان ذلك بإشارة من مروان : وخاف الثائرون شر ذلك فجمعوا على داره وحاصروها ومنعوا الماء عنها . وأرادوا الدخول عليه فوجدوا على بابها عبد الله بن عمر وعبد الله بن سلام وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابني علي وأباهريرة ومحمد بن حاطب وزيد بن ثابت ومروان بن الحكم والمغيرة بن الاخنس يمنعونها بسيوفهم . فتسلقوها من خلفها ودخلوا على عثمان والمصحف في يده يقرأ فيه فمتلوه : وقيل ان الذي قتل رجل من مصر اسمه جبلة وكان ذلك في ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ . ودفن عثمان رحمه الله في البقيع وعمره ٨٦ سنة تفريبا وكان له من الولد عبد الله الاكبر وعبد الله الاصغر وهو من رقية بنت رسول الله توفى صغيرا، وعمرو وأبان وحالد وعمر وسعيد والوليد وأم سعيد والمغيرة وعبد الملك وأم عمرو وعائشة .

أما عماله في السنة التي توفى فيها، وهم عبد الله بن الحضر م على مكة، والفاطم بن ربيعة الثقفي على الطائف ، وبعلي بن منبه على صنعاء، وعبد الله بن عامر على البصرة، ومعاوية بن أنى سفيان على الشام، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد على حمص (من طرف معاوية)، وحبيب بن مسلمة القهري على قيسرين، وأبو الاعداء السلمي على الاردن ، وعائشة بن حكيم الكندي على فلسطين، وأبو موسى الاشعري على الكوفة، وعلى خراجها جابر المزني ، وعلى حربها الفعاف بن عمرو، وجريير بن عبد الله المجلي على فرفسيا، والاشعث بن قيس الكندي على اذربيجان وعتبة بن النهاس على حلوان ، ومالك بن حبيب على الماء، والنيسر على همدان، وسعيد بن قيس على الري، والسائب بن الافر ع على اصبهان، وكان على مصر عبد الله بن سعيد ثم تغلب عليها محمد بن أنى حذيفة، وكان له على بيت المال عتبة بن عامر . وعلى الفضلاء زيد بن ثابت

عليّ

هو عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب . ولد كرم الله وجهه سنة ٢٥ قبل الهجرة ، وحصل بمكة قحط في نحو السادسة من عمره فكفله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذه الى بيته وكان يحبه حباً جماً . ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان عليّ أوّل من آمن به بعد خديجة وأوّل من صلى معه من المسلمين : وكان يخرج مع رسول الله الى الصحراء فيصلي معه خفية ثم يعودان الى مكة . وكان الصق الناس برسول الله : فتعلم من علمه وتأدب بأدبه . وكان أشبه الناس به في صورته : فكان رضى الله عنه : ربعة أدعج العينين عظيمهما ، حسن الوجه كأنه قمر ليلة البدر ، عظيم البطن ، عريض المنكبين ، له مشاش كشاش السبع الضاري ، لا يبين عضده من ساعده ، قد أدلج دلاجا ، شثن الكفين ، عظيم الكراديس ، أغيد كأن عتقه ابريق فضة ، أصلع ليس في رأسه شعرا الا من خلفه ، أبيض اللحية ، قريب الى السمن ، ثبت الجنان ، اذا مشى الى الحرب هروا ، واذا أمسك بذراع رجل أمسك نفسه فلم يستطع أن يتنفس . وكان رضى الله عنه كثير الصبر ، شجاعا ، مهيبا ، ورعا ، زاهدا ، أعلم الناس بدين الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وكان كرم الله وجهه شديد آفي دينه ، لا يرأى فيه ولا تأخذه في الله لومة لائم . وسئل مرة : لم نرمعاًوية أسوس منك يا أمير المؤمنين فقال والله مامعاًوية بأسوس مني ولكن السياسة تميل الى الغدر ولست أميل اليه .

وكان رضى الله عنه ، فصيح اللسان ، قوى الجنان ، أكرام العرب بلاغة ، وأكثرهم حكمة . ودونك بعض خطبه وحكمه بكتاب نهج البلاغة . مازال عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أراد الهجرة فعلم بأن قر يشأ أجمعوا أمرهم على قتله فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بأن يلبس رداءه وينام في فراشه من ليلته وقال له اني مهاجر الى يثرب ، وأمره أن يلحق به بعد أن يؤدي عنه دينه ، ويرد ما كان عنده من الامانات الى أربابها . وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجر عليّ بعد هجرته بثلاثة أيام بعد

أن أدى عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس : وهو ثالث من هاجر . وبعد الهجرة زوجته النبي صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة ، وكانت أحب الناس إليه فكان ألصق الناس رسول الله قبل الهجرة وبعدها . وجعل الله ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام في نبيه .

ومكث على يكتب لرسول الله وينصره على أعدائه ويقوم بخدمته خير قيام ، حتى إذا مات عليه الصلاة والسلام كان لصاحبيه أميناً معيناً مرشداً مبيّناً للناس ما غمض عنهم من كلام الله وسنة رسوله . حتى إذا كانت خلافة عثمان كان في عونه ونصحه ، ثم اعتزله في آخر أيامه لما كان يحيط بابن عفان من بطائمه التي كانت لا تنظر إلى المصلحة العامة ، بجوار مصالحتهم الخاصة . فكان ما كان وقتل عثمان ، فاجتمع الناس على عليّ وأرادوا بيعته فأبى وقال : لا أن أكون وزيراً لكم أحب إليّ من أن أكون أميراً . وكان الناس قد افترقوا فرقا وأحزابا : فال أهل الكوفة إلى الزبير وأهل البصرة إلى طلحة ، وغيرهم إلى سعد وابن عمر ، وذهب الناس إلى عليّ وألحوا عليه فخرج إلى المسجد فبايعه الناس ثم بايعه طلحة والزبير . وكان ذلك في ٢٥ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ . وجاءه طلحة والزبير وطلبوا إقامة الحدود على قاتلي عثمان : فقال لا قدرة لي على شيء مما تريدون حتى يهدأ الناس ، وننظر في الأمور ، فتؤخذ الحقوق . فافترقوا عنه وأكثرت الناس الممال في قتل عثمان ، وفر شوامية إلى الشام مع مروان . وفي اليوم الثالث نادى عليّ بـ رجوع الأعراب إلى بلادهم ، فتذمروا وأبوا . وأخذ عليّ يفرق عماله على الأماصار فولى ابن عباس على الشام فلم يقبل ، وأشار عليه بأن يقر عمال عثمان حتى يهدأ الحال كيلا يحملوه شيئا من دمه فلم يسمع له عليّ لشدة في الحق . وبعث عليّ البصرة عثمان بن حنيف ، وعلى الكوفة عمار بن شهاب من المهاجرين ، وعلى اليمن عبد الله بن عباس ، وعلى مصر قيس بن سعد ، وعلى الشام سهل بن حنيف . ومضى عثمان إلى البصرة فاختلفوا عليه وأطاعته فرقة منهم . ومضى عمار إلى الكوفة فلما بلغ زباله لقيه طلحة وقال له ارجع فان القوم لا يستبدلون بأبي موسى . ومضى ابن عباس إلى اليمن . ومضى قيس إلى مصر فافترقوا عليه ، فرقة كانت معه وأخرى امتنعت عنه حتى ترى فعل عليّ في قاتلي عثمان . ومضى سهل إلى الشام

فلقيه خيل عند تبوك فقال لهم انه أمير على الشام، فقالوا لاندان كان بعثك غير عثمان فارجع فرجع وجاءت أخبار الآخرين بمثل ذلك ، فجمع على طلحة والزبير وقال لهما قد وقع ما كنت أحذركم منه فسألاه الاذن في الخروج الى مكة للاعتقار فأذن لهما . وكتب الى أبي موسى فكتب اليه بطاعة أهل الكوفة وبيعهم . وكتب الى معاوية فلم يجبه الى ثلاثة أشهر من مقتل عثمان ، ثم أرسل اليه كتابا مختوما عنوانه من معاوية الى عليّ ففضه عليّ فلم يجد فيه شيئاً ، فقال للرسول ما وراءك ، فقال تركت قوما لا يرضون الا بالنود : قال ممن ، قال منك : وتركته ستين ألف شيخ يكون تحت قيص عثمان منصوباً على منبر دمشق ، فقال عليّ اللهم اني أبرأ اليك من دم عثمان ، قد نجا والله قتلة عثمان الا أن يشاء الله . ودعا أهل المدينة الى قتال أهل الشام وكتب الى ولاته على الامصار أن يندبوا الناس اليه . وكانت عائشة خرجت الى الحج وعثمان محصور ، فلما قصدت الرجوع الى المدينة بعد الحج بلغها في الطريق قتل عثمان ومبايعة الناس لعليّ ، فعادت الى مكة . ولما وصل الزبير وطلحة الى مكة اتفقا مع عائشة على المطالبة بدم عثمان وساروا بألف رجل ممن كان على رأيهم من أهل مكة الى البصرة ومعهم كثير من بني أمية منهم أبان بن عثمان وسعيد بن العاص والوليد بن عتبة وعبد الله بن عامر الحضرمي وكان والياً على مكة لعثمان وساعدهم عيال كثير ، وساعدهم كذلك يعلى بن منبه الذي اشترى جملاً بمائة دينار لم ير مثله في العرب ، وأركب عليه عائشة . فلما وصلوا البصرة دعوا أهلها لتصرتهم فلم يقبل منهم عثمان بن حنيف عامل عليّ عليها ، فنتفوا لحيته وهشموا وجهه وقتلوا من كان معه وحصلت لهم موقعة مع من قام في وجههم من البصريين ، وكانت الغلبة لعرب البصرة . وبلغ ذلك علياً فندب الناس اليهم وسار من المدينة بعد أن أقام عليها سهل بن حنيف وعلى مكة فثم بن العباس . وأرسل محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر الى الكوفة لاستنفار أبي موسى الاشعري وأهلها فلم يقبل منهما أبو موسى كلاماً ورد أهل الكوفة عن الخروج معهم فرجما الى عليّ بالخبر وهو بذى قار ، فأرسل الاشتر وابن العباس الى أبي موسى فلم يجب لهما فأرسل ولده الحسن وعمار بن ياسر الى الكوفة فنفر معهما منها تسعة آلاف نفس منهم القعقاع ، وسعد بن مالك ،

وهذبن عمرو ، والهيثم ، وزيد بن صوصان ، وعدى بن حاتم ، وغيرهم . وقد موا على "على"
نذى قارف فرح بهم وأكرمهم وأرسل الفعقاع الى البصرة ليدعوا عائشة وطلحة والزبير الى الالة
والجماعة فقدم الى البصرة واجتمع بهم .

وما زال يقيم عليهم الحجة في خروجهم حتى مالوا الى الصلح . فعاد الى على "وأخبره بذلك
ففرح بحقن دماء المسلمين وسار في الناس حتى قدم البصرة ، وتردد عقلاء الناس
بين الطرفين ، وتمايل على "مع طلحة والزبير وكادت عرى الصلح تتوطد فيما بينهم ،
ولكن الذين أثاروا هذه الفتنة من الامويين أحزنهم هذا الامر وما توايتشاورون وصمموا
على اشعال نار الحرب ، وهجموا على جهة من جيش على "وهم لا يشعرون ، وكثر صياح الناس
وتساءل على "عن الخبر ، فقالوا له ان جيش طلحة والزبير هاجم جيشه ، فركب فيمن معه
واستحضر القتال . وكانت عائشة راكبة حملا ومتنحية عن ساحة الحرب لتشرف على
قومها وهي تشجعهم وأمرهم بالصبر ومخرضهم على الكفاح واجتلد الناس أمام الحمل وقتل
تحتة خلو كثير فأمر على "بعقر الحمل قبل أن تصاب عائشة فضرب ساق البعير فوقع الى
الارض وقطع المعقاع مع زفر بطان البعير وحملوا الهودج من بين القتلى وأمر محمداً بن أبي بكر أن
يضرب عليها قبة ، وفر أصحاب الحمل فأمر على بعدم اتباع القارين وعدم الاجهاز على الجرحى
وسرح عائشة مع نفر من قومها رجال وساء الى مكة من بعد أن ودعها أميالا فسافرت
اليها وحجت ثم عادت الى المدينة . أما بنو أمية فانهم انهزموا الى الشام وقتل في واقعة الجمل عبد
الرحمن أخو طلحة والحرز بن حارثه ومحاشع ومحمد بن عبد الله وعبد الرحمن
ابن عتاب وغيرهم وجرح عبد الله بن الزبير .

وبعد الواقعة دخل على "البصرة فبايعه أهلها وولى عليها ابن عباس . ثم رجع الى
الكوفة ، وبعث الى جرير بن عبيد الله البجلي بهمدان والى الاشعث بن قيس بأذر بيجان
وكانا من ولادة عثمان عليهما فحضرا اليه بعد أن أخذ الالبية من أهل البلدين فأرسل
جريرا الى معاوية يعلمه بمبايعة الناس له ويدعوه الى رأى الجماعة فاستبقاه معاوية عنده
زمتا ، ثم اعتذر له بأن أهل الشام يطالبون بدم عثمان ، ورجع جرير بالخبر الى على

فاستنفر الناس لحرب الشام، وقدم عليه ابن عباس برجال من البصرة وساروا الى المدائن ومنها الى الرقة والتقوا برجال معاوية على الفرات وقد ملكوا عليهم شريعة الماء وبادر وهم القتال، فشكا الناس الى علي العطش فبعث الى معاوية يقول له اناسرنا ونحن عازمون على الكف عنكم حتى نعدز اليكم فسا بقنا جندكم بالقتال ونحن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك وقد منعنا الماء، والناس غير متهيئين فابعث الى أصحابك يخلون عن الماء للناس حتى ننظر بيننا وبينكم، وان ازدت القتال حتى يشرب الغالب فعلنا، فلم يقبل معاوية، وكان ذلك أول ذي الحجة سنة ٣٦ وأرسل علي الى معاوية رسلا ينصحونه و يطلبونه الى الصلح: فقال لهم ليس بيني وبينكم الا السيف فرجعوا الى علي بالخبر، واقتتل العسكران أيام ذي الحجة كلها، واستأنف علي ارسال رسله الى معاوية في حقن دم المسلمين فلم يقبل: وابتدأ القتال بين العسكرين، وكان قواد معاوية حبيب بن مسلمة، ودو السكلاع، وأبو الاعداء، وعمرو بن العاص، ومسلم بن عتبة، والضحاك بن قيس. أما قواد علي فكانوا: الاشتر النخعي، وعبد الله بن عباس، وسهيل ابن حنيف، وفيس بن سعد، وعمار بن ياسر، وهاشم بن عتبة، وعدى بن حاتم، ومسرر بن فدي. واستعر القتال فاستماتت الناس من الطرفين جملة أيام، وأبلى الاشتر وعمار بلاء عظيما، وكانا كلما هجما فراجع معاوية وشتا رجاله وهجم عمار فموم كانوا معه فدخل في صفوف جيش الشام وما زال يهرق كتائبهم حتى تكاثروا عليه وقتلوه، فلما بلغ ذلك عليا حمل بالناس وهجم على جيش الشام فازالهم عن موافقهم، ورأى عمرو بن العاص الغلبة في جيش العراق فقال لمعاوية مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح ففعلوا ذلك، فقال جيش العراق نحيب الى كتاب الله، فقال علي لهم امضوا في حركم والله ما دفعوها الا مكيدة، فلم يقبلوا وطلبوا اليه أن يمنع الاشتر ويزيد بن هاني من استمرارهما في قتال معاوية، وحضر اليهم الاشتر وعنفهم وقال امهلوني ففدأ حسست بالفتح فابوا وكثرت الملاحة فيما بينهم خاف علي وقوع الفتنة وأرسل الاشعث بن قيس الى معاوية يسأله سبب رفع المصاحف على الرماح، فقال له لنرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله به من كتابه، تبعثون رجلا ترضونه ونحن نبعث رجلا مسا وبأخذ عليهما العهد بان يعملوا في كتاب الله ثم يتبع ما اتفقا عليه، فقبل الطرفان ذلك وقالت القراء من أهل العراق رضيانا بان يكون أبو موسى الاشعري فلم يرض به علي لعدم ثقته به واختار الاشتر، فابى

قوم من العراق إلا أن يكون أباموسى، واختار معاوية عمرو بن العاص فحضر عند على ليكتب العهد بيده وبين معاوية بالحكيم وأخذ عليه المواثيق من رؤساء العسكرين وكان ذلك فى ١٣ صفر وأجلا الحكم الى رمضان فانصرف الناس الى بلادهم من صيفين ورجع على الى الكوفة وبعض رجاله ينكرون عليه التحكيم . ولما جاء معاد التحكيم حضر الحكمان فى رجال من قومهما الى دومة الجندل ، فخدع عمرو وأباموسى وقال له الا حسن بنا أن يخلع كل منا صاحبه حقنا لدماء المسلمين وهناك يبايع الناس من أرادوا ، فقبل أبوموسى رأيه وصعد المنبر وخلع صاحبه ، ثم صعد عمرو وقال ألا ان أباموسى خلع صاحبه وأنا أثبت صاحى معاوية فهو ولى ابن عفان . وتفرق الناس بعد أن كادوا يقتتلون ولحق أبوموسى بمكة .

ولما أرسل على أباموسى الى التحكيم عارضه بعض الناس من أهل البصرة والكوفة ، وطلبوا اليه أن يرسل غيره ، فلم يقبل لسابقة عهده مع معاوية بذلك ، فتركوا البصرة وخرجوا عليه وأمروا عليهم عبدالله بن وهب فى ١٠ شوال وقصدوا النهر وان ، ولما بلغ عليا خبر الحكيمين أنكر عليهما ، وقال ان هذين الحكيمين بهذا حكم القرآن واتبع كل واحد هواه واختلعا فى الحكم فاستعدوا للسير الى الشام وأخذ يجرض الناس على حرب معاوية فاجتمع لديه ثمانية وستون مقاتلا ، وكانت الخوارج التفتت بعبد الله بن خباب الصحابى قريبا من النهر وان فلما عرفوه سألوه عن الشيخين (أبى بكر وعمر) فأنى عليهما وعلى عثمان ، فسألوه عن حال على قبل التحكيم وبعده : فقال انه أعلم الناس بكتاب الله فماتوه وقتلوا امرأته ، فلما بلغ عليا ذلك ندب الناس اليهم وسار الى النهر وان وأرسل الى الخوارج وكانوا أربعة آلاف يقول لهم ان من رجع الى الكوفة أو الى البصرة فهو آمن فرجع قوم منهم الى بلادهم وآخرون انضموا الى جيش على ولم يبق منهم إلا ألف وثمانمائة فحمل عليهم على بن معمر وقتلهم عن آخرهم فى ساعة واحدة ، وقد قتل منهم عبدالله بن وهب ، وحر قوص بن زهير ، وأراد النهوض الى الشام فشكا اليه الناس التعب وعدم وفرة الدخيرة وطلبوا اليه أن يرجعوا الى الكوفة ليستعدوا للقتال وبعد وصولهم الى الكوفة بأيام أخذ على يستحثهم على الخروج معه الى الشام وهم يتناقلون ولم ينشط معه أحد ، وكان عبدالله بن ملجم لحق بالحجاز مع البرك بن عبدالله التميمي ، وعمرو بن بكر التميمي

وثلاثتهم من الخوارج، وتذاكروا فيما فيه الناس من الحروب، وانفتحا على قتل عليٍّ ومعاوية وعمر بن العاص في ليلة واحدة، وأخذ ابن ملجم على نفسه قتل عليٍّ وسافر إلى الكوفة، وسار البرك إلى الشام لقتل معاوية، ومضى عمرو بن بكر إلى مصر لقتل ابن العاص وكان ولده معاوية عليها بعد التحكيم. وأتى ابن ملجم إلى الكوفة، ولما كانت الليلة التي عاهد صاحبها عليها أتى المسجد. وجاء عليٌّ ونادى بالصلاة، فضربه ابن ملجم بسيفه على رأسه فوقع واستخلف على الصلاة جمعة بن هبيرة، وقبض الناس على ابن ملجم فاوثقوه وأتوا به عليا، فنادى بالحسن ابنه، وقال إن هلك فاقبلوه كما قبلوني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي. وكان ذلك فجر يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٤٠ هـ. ومات عليٌّ بعد يومين قضاهما في صبح المسلمين ووصية أولاده. وبعد دفنه أحضر الحسنُ ابن ملجم وقتله بسيفه الذي قتل به أباه.

وقد اختلف الناس في المكان الذي دفن فيه عليٌّ: فمنهم من يقول أنه دفن في قصر الكوفة، وبعضهم ذهب إلى أنه وراء سورها، وبعضهم يقول أنه دفن بمقامه الحالي في النجف. وكان عمره خمسا وستين سنة.

وكان له من الولد ١٤ ذكرًا و ١٨ بنتًا. والذكور هم: الحسن. والحسين. ومحسن: من فاطمة. ومحمد الأكبر المشهور بابن الحنفية. وأبو بكر. والعباس الأكبر. وعثمان. وعبد الله. ومحمد الأصغر. ويحيى. وعون: وقد قتلوا مع الحسين. وعمر الأكبر. ومحمد الأوسط. وجعفر. وعقبه من الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعمر والعباس.

وبناته هن: أم كلثوم الكبرى وزينب الكبرى من فاطمة. ورقية. وأم الحسن. ورملة الكبرى. وأم هانيء. وميمونة. ورملة الصغرى. وزينب الصغرى. وأم كلثوم الصغرى وفاطمة. وإمامة. وخديجة. وأم الكرم. وأم سلمة. وأم جعفر. وجمانة. وتقية. وبعد موت علي كرم الله وجهه بايع أهل الكوفة ابنه الحسن، وعاهده أربعون ألقامهم على الموت دونه. وجدداهل الشام البيعة لمعاوية وكانوا قد بايعوه بعد الحكمين فسار الحسن بجيشه قاصدا معاوية وعلى مقدمته قيس بن سعد، فأرسل معاوية من دس في جيش الحسن خسر قيس، فهاج الناس لهذا الأمر وهجموا على سرادق الحسن ونهبوا ما فيه. ورأى الحسن

ان أهل الكوفة لا ينصرونه فقال الى حقن دماء المسلمين ، وكتب الى معاوية يذكر له النزول عن الامر بشرط أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة ومبلغه خمسة آلاف ألف ، وخراج دارا يجرد من فارس . وأخير بذلك أحاه الحسين وعبد الله بن جعفر فعذلاه فتركهما . وكان معاوية أرسل اليه عبد الله بن عامر يفاضه في النزول عن الامر ومعه ورقة بيضاء مختومة بختم معاوية ليشترط فيها ما يشاء . فكتب فيها أضعاف ما في الصحيفة الاولى . فلما سلم له وطالبه بالشرط أعطاه ما في الصحيفة الاولى وقال هو الذي طلبت . وبهذا تم الأمر الى معاوية . وكان ذلك في منتصف عام ٤١ ، وسمونه عام الجماعة لان الناس رجعت فيه الى الاجتماع على خليفة واحد .

﴿ الانصار ﴾

الانصار وهم الاوس والخزرج بطنان من الازد ، وكانت ديارهم مأرب باليمن ، فهاجروا مع من رحل عنها بعد سيل العرم في القرن الثاني عشر قبل الاسلام ، ومروا على يثرب وكانت قرية فيها أسواق يفصدها أهل الجهات المحاورة ، وأهلها كانوا يهودا ، وكانوا من بني النضير ، وقرية ، وبنى قينفاع وغيرهم . وكان لهم بها حصون ياجئون اليها عند الشدة . فنزل عليهم الاوس والخزرج على أن يكونوا تحت حكمهم ، وما زالوا كذلك حتى كان ما كان من سوء سيرة العيطون أحد ملوك اليهود يثرب وظلمه وغشمه . فاستغاث الاوس والخزرج بملوك غسان ، فساروا لصرتهم ، وأوقعوا يهود يثرب . ومن ثم صار الحكم فيها للاوس والخزرج وشاركوا اليهود في أملاكهم ، وأصبحت لهم عصبية عظيمة . ولهم حروب مشهورة لها أيام معدودة من أيام الجاهلية : منها يوم سمير ، ويوم كعب ، ويوم الربيع ، ويوم البقيع . وكانت الاوس والخزرج أصحاب بحدة وهمة وشجاعة وأمانة . وقد كان أتى مكة بعض منهم للحج في مبدأ ظهور الدعوة الاسلامية ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة على يسار الصاعد الى منى قبيل المدرج الذي في أسفلها ودعاهم للاسلام ، وفرأ عليهم شيئا من القرآن ، فاجابوه وقالوا له ان بين قومنا شرأوعسى الله أن يجمعهم بك ، فان اجتمعوا عليك فلا رجل أعز منك . فلما قدموا المدينة ذكروا لهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم . وفي العام التالي وافى الموسم من الاوس والخزرج اثنا عشر رجلا ،

فلقوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعقبة الاولى ، فبايعوه البيعة الاولى ، وكان من ضمنهم رافع بن عجلان وعبادة بن الصامت ، ثم انصرفوا الى المدينة . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم قواعد الاسلام . فوصل المدينة واجتمع عليه رجال ممن أسلموا ، وسمع بدسعين معاذ وأسيد بن حضير وهما سيدا بني الاشهل ، فذهب أسيد للايقاع به ، فقال له مصعب أوتحاس فتسمع ؟ فان رضيت أمرا قبلته ، وان كرهته كف عنك ما تكرهه . فقال أنصفت ثم جلس ، فكلّمه مصعب في الاسلام وقرأ له شيئا من القرآن . فقال ما أحسن هذا ! وأسلم ، وانصرف واحتال على سعد حتى خذه الى مصعب . فمال له مقاتله الى أسيد ، وقرأ عليه قرآنا فأسلم سعد ، وباسلامهم ما أسلم القوم ، الا عددا قليلا أسلم بعد الهجرة . وعندها اتفق جماعة منهم على المسير الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فساروا الى مكة واجتمعوا عليه ليلا دون أن يعلم بهم أحد بعقبة الحديبية تحت شجرة كانت هالك وبمكائها الآن مسجد يسمى بمسجد الشجرة ، وعاهدوه على أن ينصروه : فسامهم الانصار . وهالك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى المدينة ، وكان أول من قدمها مهاجرا أبو سلمة بن عبد الاسد . وفي شهر ربيع الاول من هذه السنة هاجر الرسول الى المدينة ، وقدمها لاثنتي عشرة ليلة خلت منه ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، وقدم هما دليلهما على قباء ، فنزل صلى الله عليه وسلم على كثوم بن الهمد ، وأقام بينهم أياما ، نبي فيها مسجدها ، ودعا الناس فيه لصلاة يوم الجمعة ، وهي أول جمعة في الاسلام ، خطب فيها عليه الصلاة والسلام . ثم سار الى المدينة فلما وصل الى مكان مسجده وكان مر بدأبى النجار وكانت منهم أم أيه عبد الله ، قال تامنوني به . قالوا لا نبغى به الا ما عند الله . فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجدا ، وأقام هو في دار أئى^(١) أيوب الانصارى حتى بنى مسجده وبيته (بيت عائشة) . وكان يبنى فيه بيد الشريفة هو والمهاجرون والانصار . ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين الانصار إحدى عشرة سنة ، كان فيها لهم

(١) ابوايوب الانصارى مات في حصار القسطنطينية سنة ٦٨٨ ميسحية ، أي في نحو السنة السابعة والاربعين للهجرة ، وكان سار اليها مع الجيش الذي سيره معاوية لفتحها ، وله فيها مسجد شهر في نهاية خليج قرطالذهب ، وهو محترم جدا لدى المسلمين والنصارى واليهود على السواء في عموم الاساسة . وأهلها يسمونه السلطان أيوب .

وللمهاجرين كلية كمالية علمية وعملية : تعلموا فيها الاخلاق الفاضلة ، والمزايا العالية ،
والسيرة الحميدة ، والتربية القويمة ، والبلاغة في الاقوال ، والمبالغة في محاسن الاعمال ،
فبعد صيتهم في جلائل الصفات ، ومكارم الاخلاق ، والشجاعة ، والقوة ، والمنعة ،
وشدة البأس ، التي ظهر واثبها في جميع المواقف التي أمرهم رسول الله بها ، أو شهدها هو معهم
رضى الله عنهم . فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وصار الامر بعده للمهاجرين واشتغل
الناس بالفتح أخذ الا نصار ينساحون في أطراف البلاد الاسلامية بعد اتساع دائرتهم بتلك
الفتوحات المباركة حتى أصبح يسلمهم في المدينة الآن يكاد لا يكون له أثر . وسبحان من يرث
الارض ومن عليها .

وكان أمر المدينة المنورة في صدر الاسلام موكولا الى الخلفاء الراشدين أنفسهم حتى
اذا خرج على رضي الله عنه الى الكوفة بعد سير أهل مكة اليها للخروج عليه باهلها ، ولما على
المدينة سهل بن حنيف الانصاري وهو أول ولاية المدينة في الاسلام .
ومن هذا الوقت صار مركز الخلافة بعيداً عن المدينة وصارت ولايتهم منفصلة عن ولاية
مكة وكلتا همتا تابعة لمركز الخلافة مباشرة . وكان الخلفاء يعينون في العناية بهما وينتخبون
لهما ولاية من رجال الفضل والاصلاح ، حتى اذا داخل الضعف الخلافة العباسية وأخذت
عمال النواحي تتغلب على أطرافها وتغلب على مكة بنو الاخضر في نحو منتصف القرن الثالث ،
أخذت يدهم تتطاول الى المدينة المنورة . وما زال الحكم في المدينة مرتبكاً حتى استولت
القرامطة على مكة فزاد ارتباكاً . ولما استولت الاشراف الحسنيون^(١) على أم القرى في
منتصف القرن الرابع جعلت ولاية المدينة للاشراف الحسنيين ومارالت في أيديهم الى
سنة ١٠٩٩ ، وفيها صدر أمر الدولة العلية بتبعيتها لولاية الحجاز الى الان .

وهالك جد ولا بولاية المدينة أخذنا أغلب أسماءهم من كتاب مرآة الحرمين واستخرجنا من
ابن الاثير وغيره تواريحهم الى آخر زمنه ولم نوفق لوضع تواريح كثير ممن بقي بعده .

(١) كان أبو الحسن وبنو الحسن يلقون بالاشراف حتى جاء الشريف أبو عمى فحس الحسينيون
بلقب اشراف وخس الحسينيون بلقب سادة : فيقولون الاشراف الحسينيون ، والسادة الحسينيون .

﴿ جدول أمرء المدينة المنورة (عن كتاب مرآة الحرمين) ﴾

سنة هـ	سنة هـ	سنة هـ	سنة هـ
٢٦	سهم بن حنيف الانصاري	١٢٥	يوسف بن محمد
٤٠	خالد بن زيد أبي أيوب الانصاري	١٢٧	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز
٤١	مروان بن الحكم	١٣٠	محمد بن عبد الملك بن مروان
٤٩	سعيد بن العاص	١٣٢	داود بن علي
٥٤	مروان بن العاص	١٣٣	يزيد بن عبيد الله بن عبد المطلب الحارثي
٥٧	الوليد بن عتبة بن أبي سفيان	١٣٤	زياد بن عبيد الله
٦٠	عمرو بن سعيد بن العاص	١٤١	محمد بن خالد بن عبد الله القسري
٦١	الوليد بن عتبة (ثانيا)	١٤٤	ربيع بن عثمان المري
٦٢	عثمان بن محمد بن أبي سفيان	١٤٥	عبد الله بن الربيع الحارثي
٦٣	عبد الله بن الزبير بن العوام	١٤٦	جعفر بن سليمان بن علي
٦٥	مصعب بن الزبير	١٥٠	الحسن بن زيد بن الحسن بن علي
٦٧	جابر بن الاسود	١٥٥	عبد الصمد بن علي بن عبد الله
	عمر بن عبد العزيز	١٦٠	محمد بن عبد الله الكشي
	عثمان بن حبان		زفر بن عبد الله
	أبو بكر بن محمد بن عمرو	١٦٦	ابراهيم بن يحيى
٧٠	طلحة بن عبد الله		اسحاق بن عيسى
٧٣	طارق بن عمرو	١٦٩	عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر
٧٤	الحجاج بن يوسف الثقفي	١٧٠	اسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله
٧٦	أبان بن عثمان		عبد الملك بن صالح
٨٢	هشام بن اسماعيل		محمد بن عبد الله
١٠١	عبد الرحمن بن الضحاك	١٧٨	محمد بن ابراهيم
١٠٤	عبد الواحد النضري	١٨٠	موسى بن عيسى بن موسى بن محمد
١٠٦	ابراهيم بن هشام المخزومي		ابراهيم بن محمد
١١٤	خالد بن عبد الملك		علي بن عيسى
١١٥	محمد بن هشام		عبيد الله بن مصعب

رقم التورث	الاسم	رقم التورث	الاسم
٥٩٥	نكار بن عبد الله	٥٩٥	هاشم بن أبي عبد الله الاعرج
	محمد بن علي		جماز بن قاسم
	أبو البحتري	٦٣٥	شيحة بن هاشم
	وهب بن منبه	٦٦٨	أبوسند بن جماز
	داود بن يحيى		منيف بن شيحة
٢٠٤	عبد الله بن الحسين بن عبد الله		مهيل بن شيحة
٢٠٩	صالح بن العباس بن محمد بن علي		كش بن المنصور الحسيني
٢٢١	محمد بن داود بن عيسى بن موسى		فضيل بن المنصور الحسيني
٢٣٧	علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور		عطية » » »
٢٣٩	عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى	٧٨٣	محمد بن عطية » »
٢٤٣	عبد الصمد بن موسى	٣٨٨	عمير بن قاسم الحماري
٢٤٥	محمد بن سليمان الزبيدي بن عبد الله		ثابت بن نصير الحمازي
٢٤٩	عبد الصمد بن موسى (ثانيا)		عجلان بن نصير الحمازي
٢٥٠	جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى		عزيز بن منار ع
٣٣٣	مسلم بن عتبة بن محمد الميلي	٨٢٥	حسن الحمازي الحسيني
	أبو القاسم مسلم بن أحمد		إيسان » »
	اسحاق بن محمد بن يوسف بن جعفر		منايع بن علي بن عطية بن منصور
	حسن بن طاهر الحسيني		ويتان بن مانع
	أبو علي طاهر الحسيني	٨٣٩	قايتهاي بن مانع الحمازي
	مهنا بن أبي هاشم وداود بن قاسم		سليمان بن عزيز بن منار ع الحمازي
	أبو عمارة الحسيني		إيسان الحمازي (ثانيا)
	حسين بن محييط بن أحمد بن حسين		سليمان »
	شهاب الدين بن أبي عمارة بن مهنا		زهير بن ايسان
	مهنا الاعرج الحسيني بن حسين		فسيطل بن زهير بن ايسان
	حسين بن مهنا الاعرج الحسيني		زهير بن ايسان (ثانيا)
	أبو عبد الله بن مهنا الاعرج الحسيني	١٠٩٩	حسين بن زهير
٥١٨	أبو فليته قاسم بن مهنا		

سفر الحجيج من المدينة الى مصر

الطريق من المدينة ينقسم بالنسبة للحجاج الى أربعة طرق ، طريق نجد ولا يسلكه الآن الا عرب تلك الجهات غالباً ، وطريق الوجه : وهو الذى سلكه المرحوم سعيد باشا الى مصر سنة ١٢٧٧ هجرية حينما قصد زيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام . ومحطات هذا الطريق هي : المدينة المنورة ، ثم آبار عثمان . (وفيها ماء ومزارع وساتين) ، ثم محطة الضعيني (وماؤها قليل) ، ثم محطة المليح (وماؤها حلو) ، ثم محطة الشجوى (وماؤها كثير) وكانت محقق ومفترق الحمالين الشامى والمصرى في سفرهما معاً ، ثم محطة أبى الحلو (لحلاوة مائها) ، ثم محطة الفهارات (ولا ماء فيها) ، ثم محطة الفقير (وماؤها عذب) ثم محطة مطر (ولا ماء فيها) ، ثم محطة الخوثة (وماؤها عذب) ، ثم محطة أم حرز (ولا ماء فيها) ، ثم قرية الوجه . ومنها كانوا يسرون الى السويس براً أو بحراً .

وطريق ينبع : وهو الطريق الاكثر استعمالاً ، ومنه يرجع سواد الحجيج المصرى والروسى والمغربى ، والسودانى ، والبنى والجاوى ، والهندي ، وغيرهم . وهذا الطريق ينقسم الى شعبتين : شعبة قبيل الحمراء تمر على ينبع النخل ومنها الى ينبع البحر ، وعربان هذا الطريق من جهينة ، وأرضه رملية ناعمة . والشعبة الاخرى بعد الحمراء تمر على نفق القار (نقب على) وهو مرصع بين جبلين شاهمين في طريقه كثير من الاحجار الضخمة على طول نحو ٢ كيلومتر ولا تمر منه الجبال الا جملاً ، وفي الغالب ينزل عنها ركابها لتعسر السير عليها فيه ، ويسمون هذا النقب قلعة حرب لنعمة الجبال التى تشرف عليه ، ومنه يخرج المسافر الى الصحراء التى توصله الى ينبع البحر .

وهذا الطريق من الحمراء نصفه الشرقى للحوازم ، ونصفه الغربى للاحامدة . ومتوسط المسافة بين المدينة المنورة وينبع ٢٣٠ كيلومتراً ، فاذا أضفنا اليها ٤٥٠ كيلومتراً ما بين المدينة ومكة ، و ٤٠ من مكة الى عرفة ذهاباً وإياباً ، و ٨٠ من جدة الى مكة ، يكون مجموعها ثمانمائة كيلومتر ، وهى كل ما يركبه الآن الحاج المصرى براً .

فاذا وصل الحجاج الى ينبع انتظروا بها المراكب التي تنقلهم الى بلادهم ، وغالباً ينتظرون فيها أياماً كثيرة لعدم انتظام حركة نقلهم الناشئة عن قلة المراكب . وهناك يكثر عناؤهم ويسوء حالهم وتشدد فاقتهم ، وتفتك فيهم الامراض لكثرة الاقذار التي تحيطهم من فضلاتهم ، وخصوصاً من عدم صلاحية مياه الشرب .

وقد ربت الحكومة المصرية لهم كونداسه في زمن الموسم ترشح لهم ماء البحر ولكن عمالها غير منتظم وماؤها لا يصرف الا باذن خصوصي لا يصل اليه فقراء الحجيج . ولا أظن الا أن هذا من تعنت العمال الذين يجدر بحكومةتنا السنية أن تشدد عليهم كل التشديد في القيام بواجبهم .

وياحبذا لو انتهت الى ذلك الحكومة العثمانية الجديدة ، وأسعفتها شركات السفن وخصوصاً الشركة الخديوية ، فانهم يخففون عن الحجاج المساكين كثيراً من عنائهم مما يشكرهم عليه الانسانية .

ومن ينبع يصل حجاج مصر الى الطور لتمضية أيام الكورنتينان كان هناك حجر صخري : وهو مكان فسيح على طول ٣٣ درجة و ٣٧ دقيقة وعرض ٢٨ درجة و ١٤ دقيقة و بينه وبين السويس ١٢٥ ميل ، ومن هناك تأتي بشائر الحجاج بوصولهم الى مصر بالسلامة على لسان البرق أو البريد ، وكانت قبلهما تصل عن يد بعض الافراد الذين كانوا يحضرون من مصر لهذا الخصوص و يعودون من الطور أو الوجه بما يبشرون أهل الحجاج بسلامتهم بظير البعاشيش التي كانوا يأخذونها .

والطور قرية صغيرة على شاطئ خليج السويس الشرقى ، وأغلب سكانها من الاقباط والاروام ، وفي ضواحيها كثير من البدو ، ويقرب منها عين ماء ساخن عليها بناء لعباس باشا الاول يسمونه حمام موسى ، ويقولون انه نافع للامراض الروماتيزمية . وعلى مسافة يومين بالجمال من هذه القرية دير الطور المشهور ، وفيه بساكنة كثيرة من الفاكهة ، وفي شماله بشرق جبل المناجاة الذي كلم الله عليه موسى وذكره في القرآن الكريم في غير موضع ، ويقصد هذا الدير حجاج الروس بعد نزولهم من بيت المقدس فيزورونه ثم يرجعون الى بلادهم . وفي شرق هذه القرية محجر الطور ، وهو في نقطة صحية جداً وفيه مباحر وافيسة بالغرض ، وأخذية

مرتبة، وبنائها نظيف، وفيه اسبتياليات على غاية من النظام، ولكل مرض قسم مخصوص منها. ولقد أصبح هذا الحجر بعناية الحكومة المصرية أحسن حجر صحي في العالم. ولا شك أن بعض الصعوبات التي يلاقها فيه الحجاج لا بد وأن تزول قريباً بحسن عناية الحكومة واستمرارها على الاهتمام براحة الحجاج.

أما الطريق الرابع فهو طريق السكة الحديدية الى الشام وهو الذي افتتحتته الدولة العلية رسمياً بأول قطار للمدعوين الى هذا الاحتفال وصل الى المدينة المنورة في ثالث شعبان سنة ١٣٢٦ الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٨. وتسافر عليه الآن حجاج الشام والترك والروسيا وكثير من المصريين وخصوصاً برسم الزيارة.

وإلتحقاً للفائدة نقول لك ان المسافة بين المدينة المنورة ودمشق الشام تبلغ ١٣٠٢ كيلو متر، والى حيفا ١٣٣٣ كيلو تقطعها الواورات في أربعة أيام تقريباً، ومتوسط سيرها في ٨٠ ساعة. وسير القطارات من الشام الى معان على متوسط ٣٠ كيلو في الساعة، ومن معان الى المدينة على متوسط ١٥ كيلو في الساعة. وأجرتها في الدرجة الاولى من حيفا الى المدينة دهايا وإياباً أربعة عشر جنياً، وفي الدرجة الثالثة نصف هذا القدر، وليس فيها درجة ثانية إلا أن عربات الدرجة الاولى ضيقة وفي كل عين منها ستة مقاعد منفصلة بحواجز (مساند) ثابتة، والمسافر فيها الى المدينة يعاني مشقات كبيرة، وخصوصاً في الليل الذي يقضيه كما يقضى النهار جالساً. وكان الاولى بها أن تكون ذات أربع مقاعد يمكن تجهيزها ليلاً الى أربعة أسرة لنوم المسافرين فيها. لذلك ترى كثير أمن الركاب يفضلون ركوب الدرجة الثالثة وخصوصاً عربات البضاعة حيث يمكنهم أن يفرشوا بها فراشهم ويامون ويجلسون على راحتهم. وأملنا في رجال الدولة حرسها الله أن يفكروا في ذلك حتى تكون عربات الدرجة الاولى وافية براحة المسافرين في هذه المسافة الطويلة.

﴿وهالك جدولاً بمحطات الطريق الحديدى من دمشق الى المدينة﴾

جدول أسماء المحطات

٣٠٤

أسماء المحطات	المسافة بالكيلو	نقطة (م)	نقطة (م)	المحطات التي فيها ماء	أسماء المحطات	المسافة بالكيلو	نقطة (م)	نقطة (م)	المحطات التي فيها ماء
قدم شريف	٠٠	٦٨٦	٧٦١	☆	حالات عمار	٥٩٥	٧٦١	☆	المحطات التي فيها ماء
كسوة	٢١	٧٣٥	٦٩١	☆	دات الحج	٦٠٨	٦٩١	☆	
دير على	٣١	٧٠٠	٧٤٧	☆	بهرماس	٦٣٢	٧٤٧	☆	
مسجد	٥٠	٦٢٠	٧٥٤	☆	الهضم	٦٥٤	٧٥٤	☆	
جانب	٦٣	٦٤٣	٧٥٠	☆	المحيط	٦٧٧	٧٥٠	☆	
خب	٦٩	٦٢٤	٧٧٥	☆	توك	٦٩٢	٧٧٥	☆	
محجة	٧٨	٦٠١	٨٤٤	☆	وادي الاتيل	٧٢٠	٨٤٤	☆	
شجرة	٨٥	٥٩٩	٩٠٤	☆	دار الحج	٧٤٤	٩٠٤	☆	
أدرع	٩١	٥٨٧	٩٥٠	☆	مستنق	٧٥٥	٩٥٠	☆	
خرقة العرالة	١٠٦	٥٧٥	٨٨٢	☆	الاخير	٧٦٠	٨٨٢	☆	
الدرع	١٢٣	٥٢٩	٩٠٨	☆	جنس	٧٨٢	٩٠٨	☆	
نصيب	١٣٦	٥٨٦	٩٦٤	☆	دي يسعد	٨٠٥	٩٦٤	☆	
المفرق	١٦٢	٧١١	٩٨١	☆	المعظم	٨٢٢	٩٨١	☆	
خرقة السمراء	١٨٥	٥٥٨	١٠٣٣	☆	خشم صماء	٨٥٣	١٠٣٣	☆	
الرداء	٢٠٣	٦١٧	١١٠٣	☆	الدار الحمراء	٨٨٠	١١٠٣	☆	
عمان	٢٢٢	٧٣٧	١١٥١	☆	المطل	٩٠٤	١١٥١	☆	
القصر	٢٣٤	٩٤١	٩٦٦	☆	أبو طاقه	٩١٨	٩٦٦	☆	
لوي	٢٤٩	٧٧٢	٩١٤	☆	المرحم	٩٣٠	٩١٤	☆	
الحيرة	٢٦٠	٧٢١	٧٨١	☆	مدابن صالح	٩٥٥	٧٨١	☆	
الصنعة	٢٧٩	٧٥٢	٦٨٤	☆	العلا	٩٨٠	٦٨٤	☆	
حار ريب	٢٩٥	٧٨٢	٦٠٣	☆	الندايح	٩٩٩	٦٠٣	☆	
سواق	٣٠٩	٧٥٨	٦٧٠	☆	مشهد	١٠١٢	٦٧٠	☆	
قطرانة	٣٢٦	٧٨٣	٦٠٠	☆	سهل المطران	١٠٣٤	٦٠٠	☆	
ميرل	٣٠٨	٨٤٠	٧١٤	☆	رمرد	١٠٤٩	٧١٤	☆	
قريرة	٣٦٧	٨٩٣	٧٣٩	☆	البرالحديد	١٠٧٢	٧٣٩	☆	
الحسا	٣٧٨	٨٢٢	٦٧٠	☆	الطوبيرة	١٠٩٠	٦٧٠	☆	
حروق الدراويش	٣٩٧	٩٥٨	٤٦٠	☆	المدوح	١١١٦	٤٦٠	☆	
عرة	٤٢٣	١٠٥١	٣٨٥	☆	هديه	١١٣٣	٣٨٥	☆	
وادي الخردون	٤٤٠	١٠٨٠	٤٥٧	☆	حداعة	١١٥٥	٤٥٧	☆	
معان	٤٥٩	١٠٨٤	٤١٨	☆	ابوالنعم	١١٤٣	٤١٨	☆	
عدير الحج	٤٧٥	١٠٠٠	٥٣٠	☆	اصطبل عنتر	١١٨٩	٥٣٠	☆	
بر الشيدية	٤٨٧	٩٩٦	٤٧٢	☆	بور	١٢٠٨	٤٧٢	☆	
عقة	٥١٤	١١٥٢	٤٨٩	☆	ديار ناصف	١٢٢٨	٤٨٩	☆	
بطن العول	٥٢٠	١١٢٥	٥٣١	☆	بواط	١٢٤٧	٥٣١	☆	
وادي الرنم	٥٣٠	٩٩٤	٥٤٠	☆	الخميصة	١٢٦٨	٥٤٠	☆	
تل الشحم	٥٤٦	٨٥٠	٧٥٠	☆	الحيط	١٢٨٧	٧٥٠	☆	
الرملة	٥٥٥	٨٠٦	٦١٩	☆	المدينة المنورة	١٣٠٢	٦١٩	☆	
المدورة	٥٧٢	٧٣٤		☆					

رسم محطة للبرج فخرج فخرج حديد الى الجيب ومحطاته هي : البرج و تال شهاب و اريزون و وادي كلب و القارون و شعرة و صراح و اله و حبر الحامد و بيسان و العوالة و النبال و جفاه

المحاجر والكورنتينات

لفظ كورنتينه أو كارانتينه أصله فرنساوى (Quarantaine) ومعناه الشئ الذى يبلغ عدده تقيباً الى أربعين . والفرنج يقولون ان جمهورية فينسيا (البندقية) لما رأت أن الاوبئة كانت تأتى الى أوروبا من طريق الشرق ومن بلاد المغرب بشمال افريقية، اهتمت لهذا الامر، لان مراقبتها هى التى كانت تصل الشرق بالغرب، وعيدت لأول مرة سنة ١٣٤٨ مسيحية ضباطاً صحيين كانوا يقومون بتفتيش السفن التى كانت تأتى من الخارج الى ثغورها البحرية . وفى سنة ١٤٠٣ أقامت أول محجر صحى سمته لازاريت (Lazarette) وجعلته فى جزيرة صغيرة قريبة منها بالبحر الادرياتيقي اسمها سانت مارى دونا زاريه (Sainte Marie de Nazareth) وكانت تحجر فيها على البضائع والاشخاص القادمين على بلادها من الشرق . ومشى على أثرها فى القرن الرابع عشر والخامس عشر ثغور البحر الابيض المتوسط العظمى ، فاقامت جنوه محجر احياً سنة ١٤٦٧، وأقامت مرسلية محجر فى سنة ١٥٢٦ . وأول من اتخذ الاحتياطات الصحية ضد الطاعون فى بلاده هو الملك رينيه (René) ملك نابلى (نابولى) فى سنة ١٤٧٦ م وزادت العناية بها فى سنة ١٦٥٦ م التى فشا الطاعون فيها ببلاد ايطاليا كلها حتى أنهم كانوا يحرقون الموتى لعدم استطاعتهم دفنهم .

ولما ظهر الوباء الاصفى فى كاتالونيا (مقاطعة باسبانيا عاصمتها برشلونه) اهتمت أوروبا لهذا الامر وعملت فرنسا قانوناً للكورنتينات فى ٣ مارس سنة ١٨٢٢ وهو أساس النظمات الصحية للمحاجر . وقد أدخل على هذا القانون تعديلات مهمة فى ١٧ اغسطس سنة ١٨٤٧ ثم فى ١٠ اغسطس سنة ١٨٤٩ ثم فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٥٠

هذا ما كان فى أوروبا بخصوص الكورنتينات، أما مصر فان (محمد على) ذلك المصلح الكبير فكر فى ضرورة إنشاء مجلس صحى بها وشكل فى سنة ١٨٢٠ ميلادية مجلساً كانت أعضاؤه من حكماء الجيش وصيدليته . وفى سنة ١٨٢٥ أدخل كلوت بك على هذا المجلس

نظامات جمعة وسماه مجلس الصحة العمومي . ولما دخلت الكوليرا في مصر سنة ١٨٣١ زادت عناية محمد علي بهذا المجلس وادخل اليه نظامات الكورتينات باورو باخدمة للاموور الصحية والتجارية في جميع البلاد الواقعة على البحر الابيض المتوسط، فجمع قناصل الدول وشكل منهم لجنة للنظر في الامور الخاصة بالكورتينات وأصدر بذلك ذكر يتو في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٣١، وفي سنة ١٨٣٢ بنى بالاسكندرية أول محجر صحي (Lazarette) في الشاطبي، ولا يزال الاسكندريون يسمونها مظهر يطه أو الاطار يطه الى الآن .

وكان من ضمن هذا المجلس عضو مصري اسمه طاهر بك، وكانت له الكلمة العليا في أعمال المجلس لتأقب فكره وكبير همته والعناية التي كان يبذلها في مصادمة ذلك الوباء الذي ذهب بأغلب السكان في الوجه البحري . وفي أواخر سنة ١٨٣٩ التي محمد علي هذا المجلس القنصلية ولم يحفل باحتجاجات الدول عليه في هذا الصدد وشكل ادارة الصحة العمومية بمصر وجعل رئيسها ناظر الاشغال العمومية والتجارة وجعل لها سبعة أعضاء : منهم طاهر بك السابق ذكره، وستة انتخبهم الحكومة المصرية من أعيان التجار . وفي مدة عباس باشا الاول أهملت هذه النظامات الصحية، فطلبت منه الدول الرجوع الى النظامات الاولى القنصلية فلم يحب طلبها بل ولم يعرها أية التفاتة . فاختت فرنسا تسمى جهدها في تشكيل مؤتمر دولي يحى من الدول ذوات المصلحة في البحر الابيض المتوسط فتم لها ذلك واجتمع هذا المؤتمر في باريس وكان فيه أعضاء من فرنسا ومرسليا والنمسا واسبانيا وايطاليا واليونان والبرتغال وسردينيه والروسيا وتسكانيا وتركيا، وعملوا قانونا في ٤ يونيه سنة ١٨٥٣ راعوا فيه السهولة في الحجر خصوصا على البضائع : لان العلم كان وصل باكتشافاته المفيدة الى ان أغلب الاوشة ليست معدية . ولم توافق اسكترا على قرارات المؤتمر واتخذت احتياطات خصوصية لموانئها .

وكان من نتيجة هذا القانون أن تشكل مجلس يحى دولي في الاستانة ومجلس في الاسكندرية ووظيفتهم اعلان أمر الاوشة عند ظهورها وعمل الاحتياطات اللازمة للوقوف في وجهها حتى لاتصل الى أوروبا، ولقد تقر رأيا تعيين بعض اطباء يركبون

البحر على الدوام الى الشرق الاقصى ليرسلوا الى المجلسين بملاحظاتهم الصحية على البلاد التي يمرون عليها .

وعليه فقد اهتم سعيد باشا وشكل في سنة ١٨٥٤ مجلساً صحياً والحقه بنظارة الداخلية في ٢١ ابريل سنة ١٨٥٧، وجعل من حقه النظر في الامور الصحية من داخل البلاد، كما شكل لجنة للنظر في الامور البحرية الصحية (الكورتينية)، وكانت يد هذه المصلحة الاخيرة مغفولة عن التصرف بدون ارادة الحكومة المصرية الى سنة ١٨٨١ التي صدر في ٣ يناير منها ذكر يتو بفصل ادارة المصلحتين عن بعضهما ، وذلك بناء عن اتفاق من الدول مباشرة ، وسميت الاولى مصلحة الصحة العمومية وجعل مقرها مصر، وسميت الثانية مجلس الصحة البحرية والكورتينات المصرية وجعل مقره بالاسكندرية، ثم تغير هذا الذكر يتو بذكر يتو آخر صدر بتاريخ ١٩ يونيو سنة ١٨٩٣ بناء على قرارات مؤتمر باريس المنعقد في السنة المذكورة . وهذه الكورتينات كلها لم يكن الغرض منها الحجر على الحجاج لان سفرهم من وإلى مكة كان على طريق البر، وكانوا يفتكرون أن طول مسافة هذا السفر مطهرة لهم من الاوثنة، الا أن شدة كولي راسنة ١٨٥٨ في بلاد الحجاز جعلت أغلب الناس يفر منها الى مصر من طريق البحر على القصير . فاحتاطت الحكومة المصرية لهذا الامر وضربت الحجر على الحجاج لأول مرة في بئر عنبر في وسط المسافة بين القصير وقنا . أما الحجاج الذين سافروا مع القافلة عن طريق العقبة فامنعهم من الدخول الى السويس وضربت عليهم الحجر في عجرود .

ومن هذا العهد رأوا ضرورة اقامة معجرجي في الطور الا أن مؤتمر القسطنطينية رأى الاستعاضة عن الطور بالوجه لان سواد الحجاج كان يسافر عليه براً، واستمر الحجر فيه أو في رأس ملعب على ركاب القوافل ، وفي الطور أو عيون موسى على ركاب البحر كلما كانت تقضى بذلك الضرورة الى سنة ١٨٧٧ التي من ابتدائها كثر سفر الحجاج من طريق البحر . وهناك أخذت الحكومة المصرية في اكمال الاستعدادات في الطور حتى طارت في سنة ١٨٩٣ واقية بالقرض منها . ومن ثم أصبحت هي المكان الوحيد الذي تعمل فيه الكورتينات على الحجاج المصريين أو الذين يمرون على مصر ولا تزال الاصلاحات تدخل اليه من وقت الى آخر

ومن المعجب أنه قد ورد في مادة (Lazarette) بقاموس لاروس الكبير، ان بعض الافرنج قال ان أصل هذا اللفظ أتى من الكلمة العربية (الازهرية) وذلك لان الازهر بمصر انما هو ملجأ للعميان والشيوخ المتقاعدين، وهو كلام أساسه الجهل المطبق أو التحامل على الازهر والازهريين ولو أنصف القوم لعرفوا هذه الجامعة الاسلامية حقها في خدمة العلوم على اختلاف أنواعها . فكم لها آيات من العرفان على نبي الانسان تذكر فشكر . ولا غرو فاهتمام الجناب العالي الخديوي وحكومته السنية بالازهر الا ان لا بد وأن يجعله يوماً من الايام في مقدمة الجامعات الكبرى نظاماً واحكاماً .

أما كلمة لاراريت (Lazarette) فهي لاطينية معناها (Ladre) يعني الابرص أو المجدوم . وكانت الدولة الرومانية تبالغ في الحجر على المجدومين بل كانوا يضعونهم تحت الحجر طول حياتهم وكان عقاب من يخرج عن نطاقه منهم أن يضرب بالرصاص، وهو قانون حق لولا أنه مبالغ في شدته، وقد ورد في الحديث الشريف « فر من المجدوم فرارك من الاسد » . وقد أقام الوليد بن عبد الملك الملاجئ في انحاء دولته وجمع اليها المجدومين وأجرى عليهم الارزاق وهو أول من أقام الملاجئ من هذا القبيل .

هذا هو تاريخ الحجر الصحي عند الافرنج . ولكن يرى المطالعون على التاريخ أن المسلمين رأوا ضرورة هذا الحجر قبلهم . فقد ورد في تاريخ ابن الاثير في اخبار السنة الثامنة عشرة من الهجرة ما نصه :

وكان عمر بن الخطاب قدم الى الشام في مدة ذلك الطاعون (وهو طاعون عمواس الذي فتك باهل الشام فتكا ذريعاً) ، فلما كان يسرع وهو موضع قرب الشام بين المغيثة وتبولك لقيه أمراء الاجناد منهم أبو عبيدة بن الجراح ، فاخبروه بالوباء وشدته ، وكان معه كثير من المهاجرين والانصار لانه خرج بهم غازياً . فجمع المهاجرين الاولين والانصار فاستشارهم فاختلفوا عليه : فمنهم القائل خرجت لوجه الله فلا يصدقك عنه هذا ، ومنهم القائل انه بلاء وفناء فلا ترى ان تقدم عليه ، فقال لهم قوموا ، ثم احضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه وأشاروا بالعود ، فنادى عمر في الناس اني مصابح على ظهر ، فقال أبو عبيدة أفرار من قدر

الله ؟ فقال لو غيرك قالها يا أبا عبيدة (يعني لانتقمتم منه) نعم نفر من قدر الله الى قدر الله .
 رأيت لو كان لك ابل فهبطت وادياه عدوتان : احدهما مخضبة ، والاخرى مجذبة ، أليس
 ان رعيت المخضبة رعيتها بقدر منه ، وان رعيت المجذبة رعيتها بقدر منه ؟ وكان عبد الرحمن بن
 عوف غائباً فحضر فاخبر أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً في ذلك وهو قوله صلى الله
 عليه وسلم « اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا قراراً
 منه » فكان ذلك الحديث موافقاً لما رآه عمر رضي الله عنه فأنصرف بالناس الى المدينة .
 وقد ورد هذا الحديث بالبخاري في الجزء الرابع ككتاب الطب بهذا النص : حدثنا حمص
 ابن عمر حدثنا شعبة قال أخبرني حبيب بن أبي ثابت قال سمعت ابراهيم بن سعد قال سمعت
 أسامة بن زيد يحدث سعدا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اذا سمعتم بالطاعون بارض
 فلا تدخلوها واذا وقع بارض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » ، وقال شراح الحديث ان المنع من
 الدخول لا يتناول من كانت للمرضى مصاحبة في دخوله كالأطباء وغيرهم . وهل هذا الحديث
 الشريف الا قانون صحي وضع للناس قبل أول قانون وضعته فينسيا (البندقية) ثمانية قرون

~*~*~

الطريق الى الحرمين في غابرة وحاضرة

﴿ ولقب الحاج عند عامة المسلمين ﴾

كانت طريق الحجيج الى بيت الله الحرام كلها مشحونة وأخطاراً في الزمن السابق بما
 كانت تلقيه يد الطبيعة في سبيلهم من الشدائد الطبيعية التي كانت تقتل بسوادهم في الطريق
 من حر الصيف وقرّ الشتاء ، أو جفاف ماء الابار في هذه الصحراء المحرقة ، وما كان
 يدهمهم فيها من السيول التي أشد ما حصلت في سنة ١١٩٦ حيث اجتاحت نصف الحجيج
 المصري بين مكة والمدينة . وعدا هذه الشدائد الطبيعية فكثيراً ما كانت توقع بهم يد أشرار
 الاعراب ، وأقسى ما وقع لهم في سنة ١٢٠٠ ، وكان أمير الحاج المصري أمسك بعض لصوص
 حرب في طريق المدينة ووسمهم بالنار على خدودهم . فصرخت صرختهم وتلاحقت به

قبائل حرب وحملوا عليه فهرب مع عسكره ووقعت الحجاج بين أيديهم فأفنوهم عن آخرهم وأخذوا ما كان معهم من سلب وذخيرة . وكثيراً ما كان تجاذب السلطة بين أشراف مكة وبعضهم ، أوحربهم مع قبائل الأعراب ، أو اختلاف أهل مذهب مع أهل مذهب آخر : يقفل في وجوه الحجاج أبواب مكة أو المدينة بعد وصولهم إلى هذه أو تلك فيرتدون عن الأولى من غير تأدية المناسك وعن الثانية بدون زيارة السيد الرسول ، ويعودون إلى بلادهم وقد أضافوا على متاعهم الأولى مشقات جديدة تزيد في شدتها عليهم آلامهم المعنوية من حرمانهم من أمنيته فتضعف قواهم وتخور عزائهم ، وغالباً ما كانت نشتهم بد الفوضى وتعرض بهم حال الضعف إلى النهب والسلب !! كل ذلك كان يحصل لحجاج بيت الله الحرام والناس لا يمنعونهم عنه مانع ولم يسمع أنهم انقطعوا عنه من أنفسهم في سنة من السنين ، اللهم إلا ما قعد بعضهم من غير جزيرة العرب أيام القرمطي والوهابي لأن الطريق كانت مغلقة عليهم ، ولم يسمع بأن جميع المسلمين أهملوا هذا الواجب مطلقاً ولم يقف أحد منهم بعرفة من مبدأ الإسلام إلى الآن ، إلا في سنة ٦٥٤ التي لم ينج فيها أحد للفتنة التي كانت بين الأشراف على إمارة مكة : لذلك كانت الحجاج إذا طلعوا إلى أداء هذه القرية كانوا أول ما يستعدون على سلاحهم كأنهم سائرون إلى دار حرب لا إلى دار قد آمن الله فيها حياة الإنسان والحيوان بل وحياة الأشجار ، فإذا عادوا إلى بلادهم استقبلهم أهلهم وذوهم بالطبول والزمر فيقيمون لهم الأفراح والليالي الملاح بعد أن يعدوا لهم كل ما فيه راحتهم ورفعهم من نقش الدور وتجديد ما قدم عهدده فيها من فرش وغيره لا فرق في ذلك بين أمير أو فقير . وكانت الطبقة الصغرى ، وهي سواد الحجاج وأكثرتهم مشقة طبعاً ، تزوق لهم وجهات منازلهم : فيرسمون عليها صورة الحمل وقافلته وحرسه ويرسمون إلى جانبها نخلة قدر بط إلى جذعها سبع وضع في سلسلتين من حديد ويقرب منهما رجل قد أشهر سيفه في يده إشارة إلى أن صاحبنا حنظله الله تغلب بقوته وشجاعته على ما صادفه في طريقه هذا من المخاطر والمهلك .

لذلك كان ولا يزال لقب الحاج عند سواد المسلمين أشرف الألقاب التي يتحلى بها صدر أسماء الطبقة الصغرى ، وهو يدل على ما يمتاز به الشخص من صفات الشهامة في الشبان ، فإذا

قيل لواحد منهم يا حاج فلان يعنى يا أيها الشهم الشجاع ، أما إذا القيت به الشيوخ والكهول فأنما يكون ذلك إشارة لكمال يقينهم ومثانة دينهم الذى تحملوا فى طريقه الأهوال التى تشيب منها الأطفال .

على أن طريق الحاج أصبح اليوم أقل صعوبة منه فى أمسه ، لذلك ترى الحاج فى عودته يستقبل بأبسط مما كان يستقبل به فى الزمن السابق . و قليلا ما تراهم بمصر يرسمون شيئاً على دور الطبقة الفقيرة ، اللهم الاحملا يسير فى جنده والى جانبه مركب بخارية أو قطار سكة حديد مما لا شئ فيه من معنى المشقة التى كان يصادفها الحاج فى طريقه فى الزمن السابق . وفى الحقيقة فإن طريق الحاج اليوم أقل صعوبة وأكثر أمناً منه بالأمس ، بل لا نسبة بين الحالتين بالمرّة . ومادام طريق الحرمين أصبح محل اهتمام دولتنا المليمة فلا بد أن يأتى يوم قريب يتدلى ما بقى فيه من الصعوبات ، خصوصاً إذا تحقق خسر تسير الطريق الحديدي بين المدينة ومكة وبين هذه وجدة ، والله الهادى الى سواء السبيل .

سفر الجنب العالى

من المدينة الى مصر

فى فجر يوم السبت ١٥ يناير سنة ١٩١٠ الذى قرر الجنب العالى سفره فيه من المدينة المنورة الى تبوك ، قصد حفظه الله الحرم الشريف ، وبعد صلاة الصبح ، أدى خدمته فى الحجرة الشريفة ، وزار زيارة الوداع ، ثم قصد المحطة التى اكتظت رحباتها بمجموع الأعيان والأشراف والمأمورين والملوك والعسكريين ، وفى مقدمة السكل حضرات العلماء ونقيب الأشراف والمفتى والقاضى وخازن دار الحرم الشريف ومديره وسعادة رضا باشا محافظ المدينة المنورة . فصاحفهم حفظه الله واحداً واحداً ، وركب صالونه المخصوصى ،

شاكر لهم ما فيه من آدابهم ولطف أخلاقهم أثناء إقامته بالمدينة ، وركب في خدمة جنابه
العالى سعادة قنصل القطار المحاذية وحضرة المهنددار الخصوصى الذى تعين لسموه من قبل
حكومة الحجاز ، ثم تحرك القطار فى شروق الشمس تماماً قاصداً تبوك ، بين طلعات
المدافع وعزف الموسيقى وهتاف الأهالى .

وكان قطار المعية السنية قام إليها قبل القطار الخصوصى ساعتين ، وقد ركب فيه نحو
خمسين عائلة من مصريين وشوام وأتراك ومعاربة كان قطعهم فى المدينة ضيق ذات يدهم ،
وأمر حفظه الله بتسفيرهم الى بلادهم ساء على التماسهم .

ومر القطار فى منتصف الليل على محطة العلا ، ثم على مدائن صالح (١) التى تبعد عنها

(١) ومدائن صالح (وتسمى الحجر تكبر الحاء وسكون الحيم) نسبة الى بنى الله صالح الذى
أرسل الى قوم نمود ، وكانوا يسكنون فى هذه الجبال الى يرب . وهم قوم من العرب ذهب بعض
المؤرخين الى أنهم من اليمن ، ففروا الى شمال شبه جزيرة العرب مع من هجرها بعد سيل العرم ،
وكان مساكنهم فيها محصومة قرب مساكن عاد ، ودليلهم على ذلك ما وجدوه على بعض
آثارهم فى العلا من الخط المستند (الجدى) ، وقد ذكر المقرئى فى الكلام على أيلة ما ملخصه :
ان حمير الاكبر اسماً الاكبر أمر بطرد قوم نمود من اليمن لظلمهم لمن حاورهم ، ففروا من
أيلة الى داب الآصال (أطراف نجد) فقطعوا بالصخور ونحووا من الجبال بيوتا وتسكروا وظفوا
فبعث الله فيهم صالحاً نبياً ورسولاً فكذبوه وسألوه أن يخرج لهم ماء من صخرة هناك ، فخرجها
لهم فمقروها وملكهم الله بالصيحة فصيحوا في ديارهم حاثين (مصعوقين) .

ودهب بعضهم الى أن التهوديين من عماليق الشمال الذين أتوا من العراق وسكنوا مدينة بظرة ،
وكان لهم مهادولة واسعة فى القرن الرابع قبل المسيح ، ويستدلون على ذلك بما وجدوه على
كهوف الحجر من الخط الآرامى الذى هو كتابة الآباط .

ومن ذهب الى رأى الاول يقول ان التهوديين لم يكتبوا هذا الخط الا بعد ما ذهب دولتهم
وضعف أمرهم وصاروا تابعين لحكومة السطيين فى القرن الثانى أو الاول قبل الميلاد بحكم تلك
العة المتسوع على التابع . وعندى أنه لا يبعد أن يكون أصلهم من عرب الرعاة الذين طردهم الملك
نحوتمس فى سنة ٢٠٥٠ قبل الميلاد ، ومن المصريين تعلموا كيف ينتجون الجبال والصخور : قال
تعالى « وتمود الذين حانوا (نحتوا) الصخر بالواد » . فتوا وأفادوا فى المنطقة التى بين الحجر
والمدينة وصارت لهم بها دولة قوية . ثم كان لهم مع بنىهم صالح ما حسبك منه ما ذكره الله تعالى فى
سورة الاعراف « والى نمود (أرسل) أحاهم صالحاً قال يا قوم اعدوا الله ما لكم من اله غيره ،
قد جاءكم بينة من ربكم هده ناقة الله لكم آية ، فدروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء
فياخذكم عذاب أليم . واذكروا ادخلكم خلاء من بعداد وبوأكم فى الارض تتخذون من

بنحو خمسة وعشرين كيلومترا ، ووصل حفظه الله الى حذاءات كورنتينة تبوك في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالي (الاحد) ، ودخل الفطارا لخصوصى الى الكورنتينة ، و بقيت فيه دولة الوالدة مع حاشيتها ، أما الحناب العالى فانه نزل معيته الى الحذاء الذى ضربت فيه صواوينه لخصوصيه وخيام حاشيته من ملكيين وعسكريين . ومكث حفظه الله في الكورنتينة خمسة أيام كان يتردد في أنشائها من الصيوان لخصوصى الى صالون قطار السكة

سهولها قصورا وتنجون الحال بيوتا ، ودكروا آلاء الله ولا تشوا في الارض مفسدين . ول الملا الذين اسكروا من قومه للدين استصعبا لمن آمن . منهم أن تعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، قتلوا ابائهم أرسل به مؤمنون . قل الدين اسكروا اما بالذى آمنتم به كافرين . فمقروا الناقة وعتوا عن أمر ربه . وقلوا يا صالح انما بما مدنا ان كتب من المرسلين وخذتهم الرحمة فأصبحوا في دارهم جثثا » وفي تفسير روح المعاني ان نمود كات ديارهم من الحجر الى وادى القرى جنوبا ، وقدها فيه في تفسير قوله تعالى أخذتهم الرحمة : قل الرءاء والراح أى الرلله الشديدة ، وقل محاهد والسدي هي الصيحة ، وجمع بين القولين بأن أخذتهم الرلله من تحتهم والصيحة من فوقهم .

ولا يبعد أن هذه الحركة كانت ناشئة عن ثورة ركاية حصلت في حرة العوير (حمل ركاية تقدم ذكره في الطريق من الوجه الى المدينة) ، فكانت مهاجرات الهرة العنيفة الى خسف بالقوم في ديارهم من غير ما يشعرون : يؤيد ذلك ما حصل أخيرا في كالابريا (مخزوب ايطاليا) من الخسف الذي كانت حركته ناشئة عن ثوران ركان فيبروف . وعلى كل حال فقد كانت حادثة نمود قبل زمن موسى عليه السلام فقد ذكرهم شبيب لقومه على سبيل العبرة : ول تعالى حكايه عنه في سورة هود « وياقومي لا يحرمكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح » . وقد كان شبيب معاصرا لموسى كما لا يخفى .

والقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر في عروته لتبوك في السنة التاسعة للهجرة ومع قومه من الدخول الى ديار نمود والشرب من مياههم . وأرى أن ذلك لسببين مهمين : الاول أدنى وهو مبالغة عليه الصلاة والسلام في السخط على هؤلاء الاقوام المعصياتهم ربه ومحالته لهم لئلا يسيئوا الى ما كان من أمرهم ما كان ، والثاني صهي وذلك لان كهوفهم المتروكة من زمن سيدنا ، وهي بمثابة مقبرة لهم ، لاشك يكون هواؤها وسدا وماؤها مصرا عن يشربه .

أما القوش الى شاهدوها على ما وصل اليها من هذه الديار وعلمها باخط الارامى وهي لا تخرج عن عبارات دينيه مما ينقش عدة على قبور كثير من الامم الى الان . يذكر لك مما ترجمه عهد كسه على قبره رجل اسمه عائد بن كهيل .

« هذا القبر الذي بناه عائد بن كهيل بن العيس لنفسه وأولاده وأعقابه ولمن يكون في يده كتاب من يد عائد يبيع له ولاى واحد يحوله عائد في حياته أن يدفن فيه . في شهر ريسان السنة التاسعة للحارث ملك الاساط محب شعله (وذلك حوالى سنة ١٨ هـ الميلاد) ولبن دوا الشرى ومناة وقيس كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهقه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئا آخر أو يدفن فيه أحدا الا الذين كتب أسماؤهم أعلاه . ان القبر وما كتب عليه فهو حرم مقدس ، حسب القاعدة

الحديد ، وكان الهواء في تلك الاثناء مardاً جداً يتراوح بين ١٥ درجة سنتجراد نهراً و ٥ تحت الصفر ليلاً : أما الرياح فقد كانت شديدة جداً لانستقر معها الخيم ثابتة في أمكنتها ، بل كنت تراها متزعزعة على الدوام وخصوصاً في اليوم الاول والثاني ، وكثيراً ما كنا نشاهد خيام الكورنينة التي في الحذاءات الاخرى تطير من أما كنا فيسرع أربابها بالجري وراءها ويتعلقون بأطنابها فيوقفونها عن سيرها بعناء شديد ويرجعون بها ثم يراولون بصباوهم في عراك مع الرياح يزهاق الارواح .

وفي هذه الكورنينة اثنا عشر حذاء جوياً تحيطها وتفصلها عن بعضها شبكة من السلاك ، وهي ستة في مقالة ستة أخرى ، يسير فيها بينها شريط الطريق الحديدي ، وطول كل حذاء مائة متر في عرض ٧٥ متراً ، وليس فيها أنية أصلاً ، اللهم الا مبخرة واحدة في جوار الحذاء الاول ، أخذ اليها عسكر الحرس والخدم فتبخرت ملاسهم وظلوا في أثناء التبخير عرايا في حوش المبخرة وهم يرتعدون من شدة البرودة ، ولا شك في أن دولتنا العلمية ستزداد عنايتها بهذا الحجر (١) حتى يكون كافلاً لراحة حجاج بيت الله الحرام .

.....

التي يقدها الاساط والسلاميون الى أبد الآبدين » - (انظر صفحة ٨١ من الجزء الاول من تاريخ العرب قبل الاسلام لصديقنا المؤرخ الناضل حورحى أفندي ريدان) : ومن هنا ترى أن القوم عبروا ديارهم بوثنية النسطيين الذين كان من آلهتهم دو الثرى ومناة وقيس وهمل واللات وغيرها ، ومنهم أخذ العرب وثنتهم .

ولقد اهتم الخناز العالي الحديوي بخدمة العالم التاريخي بقش ما بقي من آثار الحجر فأوفد الى هذه الجهة البروفسور هيس أحد المستشرقين السويديين ونزيل مصر الآن ، فعاد منها بعض صور غير مهمة مما أبقه فيها بد السراق . ويوجد كثير من آثار القوم في متاحف لندن وباريس وبراين والاستانة . وقد بامي أنه يوجد منها شيء كثير في صاديق محبوطة في مدينة حيفا مد ستين على دمة محف القسطنطينية ولا أدري ماهي الحكمة في عدم ارسالها اليه الى الآن . وعلى كل حال من المشغلين بالآثار النسطية والتمودية لا بد أن يزيدوا يوماً من الايام معرفة هؤلاء الاقوام (١) هذا الحجر لا يزال حاضراً بأهل تركيا والشام ، أما أهل مصر فله لا بد لهم من تمضية الحجر

الصحي في الطور قبل دخولهم الى الثمور المصرية ، وقد حصلت محاطبات رسمية في اعتبار كورنينة تبوك كورنينة عامة بحيث اكفي الحجر فيها على المصريين وغيرهم ولكن لم يتقرر شيء بهذا الخصوص الى الآن

الحجازى، وسعادة وقابك قائمقام معان ، وعلى بك فؤاد باشكاتب المتصرفية، للسلام على الحضرة الفخيمة الخديوية ، فلم يقابلهم جنابه العالى قياما بواجب قانون الكورنتينات، فبقوا فى ضيافته بادارة المحجر، حتى انقضت مدة الحجر فى صباح يوم الجمعة ٢١ يناير، فحضروا الى المخيم الخديوى ونالوا شرف المتول بين يدى حضرته العلية . وهنالك ابتدئ فى شحن القطارات ، وتحرك الركاب الخديوى فى الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم ، فر على محطة تبوك : وهى محطة صغيرة تبعد عن الحذاءات شمالا بنحو ألف متر وفى الكيلو ٦٩٣ من الشام ، وبينها وبين البلدة نحو ثلثمائة متر . ومساكن هذه القرية على مرتفع من الارض وسط الصحراء يحيط بها النخل وبعض غيطان منزرعة ذرة ، وبعضها مبنى بالطوب النى ، وبعضها بالدبش ، وقد رأيت فيها بيتين موشيين بالجير من خارجهما ، ومن أبنيتها ما هو بالطوب المدهوك من الداخل والخارج بالشهبة (طين به مادة جيرية) . وفيها مسجد أقام على المكان الذى صلى فيه عليه الصلاة والسلام حين خروجه الى هذه الجهة ، وعلى باب هذا المسجد على يمين الداخل اليه بئر من أثر السيد الرسول نبع ماءؤها بين يديه صلى الله عليه وسلم فى وقت كان هو ومن معه فى شدة الحاجة الى الماء ، وهى التى يشيرون اليها ضمن معجزاته صلى الله عليه وسلم بأن « الماء نبع من بين أصابعه » وماء هذه البئر عذب جدا ، وقد وضع عليها أخيراً كاظم باشا الذى كان مديراً أعمال السكة الحديد الحجازية ، طلمبة تحفظ ماءها نظيفاً بعيداً عن عبث العابثين ، فجزاه الله خيراً .

وما زال القطار سائراً حتى مر على محطة ذات الحج ، وفيها قلعة قديمة كانت تخزن فيها مؤن الحمل الشامى حين سفره فى البر ، ثم وصل الى محطة معان فى نحو نصف الليل : وهى أكبر محطة بين المدينة المنورة والشام ، وعلى كيلو ٤٥٩ من دمشق : وفيها ورشة كبيرة لتصليح الواورات ، وبيوت لمستخدمى هذا الخط الحديدى ، منها منزل جميل لمنير باشا . وقرية معان تبعد عن المحطة بنحو ٢٠٠٠ متر الى الغرب بانحراف الى الشمال ، ولا تظهر للمسافر من المحطة لانها فى جوف الجبل ، وسكانها نحو ألف شخص يشتغل معظمهم فى اعمال الطريق الحديدى ، وقد كانوا قبلها يجرون للتجارة البسيطة ، ولا يشتغل بالزراعة

منهم الا القليل فيما لا يبعد عن قرينهم لخوفهم من عرب الحواريات الذين يوجدون بكثرة في تلك المنطقة ، وكثيرا ما كانوا يفضون عليهم ويهبون مزارعهم . وفي شمال هذه القرية على مسافة ثلاث ساعات خرائب كثيرة اسم أكبرها بسطة (وأظن أنها أثر مصري) ثم اذرح (اشرح) وفيها تلال قديمة تتخللها آثار عتيقة . وفي تلك الجهة مياه كثيرة عذبة وأراض زراعية مما يدل على عمراتها في قديم الزمان . وجل هذه الخرائب من آثار (١) مدينة النبطيين .

(١) والمنطقة التي في غرب السكة الحديدية بين معان وعمان إلى نهر الاردن والبحر الميت وما يليه جنوبا غنية جداً بالآثار القديمة التي بعضها للنبطيين والفلسطينيين والعرب والرومان والمصريين (البطالسة) . وأخف هذه الآثار مدينة بطره (Petra) (كلمة يونانية معناها حجر) ومنه قولهم (Arabie Petra) يعني بلاد العرب البحرية وهي تبعد عن معان غربا بمسافة ٣٥ كيلو متراً قريباً وعن العقبة جنوبا بمسافة ١٣٠ كيلو، وترى بها إلى الآن كثيراً من المبانى المحيطة بالآثار ، وهي في وادي ترشح الصحور إلى ٥٠ متراً على مدخله الذي تختلف سعته من ٣ إلى ٩ أمار ، وقد نمر فيها هيكل نحيم جداً على ارتفاع عشرين متراً ، وفيه كثير من النقوش الجميلة . ويسمونه بحزبة فرعون ، ويظن بعضهم أنه للرومان ، أقاموه بعد ملكهم المدينة لمعبودهم ايزيس .

ويوصل طريق هذا المدخل إلى واد واسع يقطعه مجرى ماء من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي كانت فيه المدينة . ولا تزال اطلالها به إلى الآن ويسمونه وادي موسى . وعلى جانبه قبور نقرت في الصخر ، والتي على عيني الوادي منها يعنى إلى جهة الشرق كانت لأشراف القوم : لما شاهدوا عليها من النقوش والرسوم التي تزيد في خامتها ، أما التي على يساره (في الجهة الغربية) فهي لعامة الناس . وعدد هذه القبور لا ينسل عن ٧٥٠ قبراً ، وكلها منقورة في الصخر . ويقرب منها تيار وقد تفرق في الجبل بمسححه ومقاعده ، وفيه ٣٣ مدرجا على هيئة أنصاف دوائر تسع ٣٠٠٠ شخص .

ويتنصرون طرديا في فصل الربيع فوافل السياح من الأفرنج وعلى الخصوص من الأمر بكان . ولا بد لزيارتها من إذن مخصوص من ولاية الشام وهو ما (كان) لا يسهل على كل إنسان الحصول عليه .

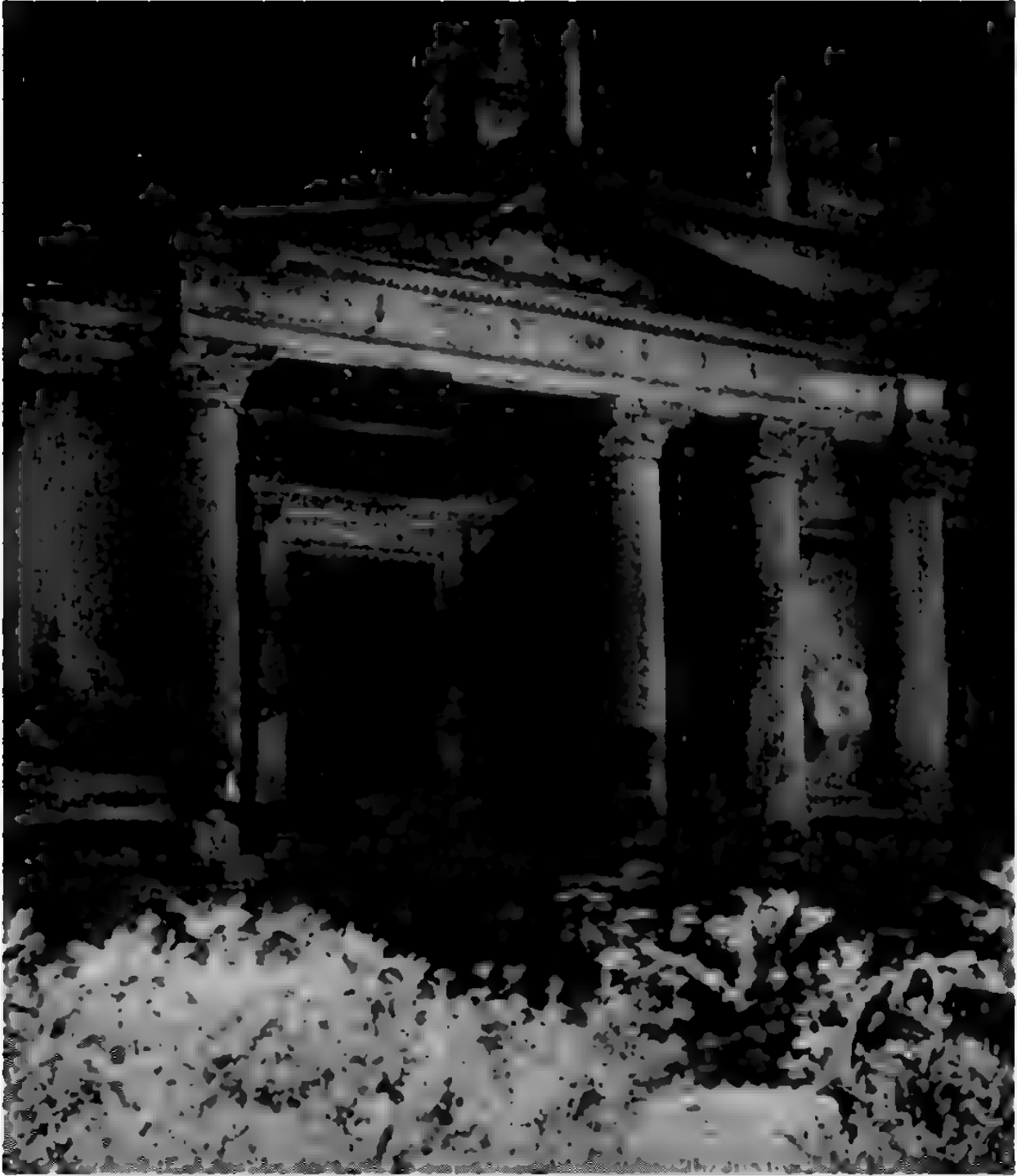
وفي صباح يوم السبت ٢٢ يناير أمر الجناح العالى حفظه الله فسارت حملة الجمال والهجن التي كانت في ركابه السامى ومعها بعض الحرس الخديوى تحت قومندانية حضرة البكباشى ابراهيم افندى أدهم من معان الى العقبة، ومسافة ما بينهما ١٣٠ كيلومترا، واستمرت في سيرها الى السويس من طريق البر .

وكانت هذه المدينة عاصمة لحكومة الانباط : وهى حكومة عربية كبيرة كانت توجد مدة القرن الرابع قبل المسيح . وكانت لها مدنية عالية ، وجيوش قوية ، ساعدت الاسكندر الاكبر في استيلائه على بلاد الفرس وعلى مصر . ولقد حاربها انطيفونوس (Antegon) خليفة الاسكندر في سنة ٣١٢ قبل الميلاد ، فانهزم أمام جندها الباسل ، وقال انه لم يمارس في حروبه في الشرق والغرب رجالا مثل رجالهم . ثم حاصرها ديمتريوس وانقلب عنها خائبا .

وكانت مملكة النبطيين في القرن الثانى قبل المسيح قوية جداً وصرت ملوكهم السكة باسمهم، ومن اكرم ملوكهم الحارث الذى ملك في سنة ١٦٩ م ، وامتد ملكه الى وادى القرى جنوبا ، ودخل في حكمه العملا والحجروما والاهما شرقا الى حدود العراق ، وغرباً الى بحيث جزيرة سيناء . وكانت مدينة بطره المركز التجارى بين الشرق والغرب والشمال والجنوب الى مبدأ القرن الثانى بعد المسيح ، حيث ساق عليهم الامبراطور تراجان الرومانى جيوشه فهدم مدينتهم ، واكتسح ملكهم ، ومزقهم كل ممزق ولم تبق لهم بعدها قائمة . حتى أن مؤرخى العرب لم يذكروا عنها كلمة واحدة في فتوح العرب للشام .

والى النبطيين ينسب الرقى الذى حصل في الكتابة التدمرية حتى كانت الحروف النبطية امهات للحروف العربية ، وحسبهم بذلك فخارا .

والعرب تسمى هذه المدينة من زمن بعيد الرقيم . واخرج ابن جرير وابن ابى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس « ان الرقيم واددون فلسطين قسرب من ايله ، والكهف في ذلك الوادى ، فهو من رقمة الوادى اى جانبه » . واظن ان الرقيم بمعنى مرقوم ، لما هو مكتوب ومنقوش على كهوفها وربما كانت هذه الكهوف هى المعنية بقوله تعالى في سورة الكهف « وترى الشمس اذا طلعت تزاور (تميل) عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم (تبعد عنهم) ذات الشمال » وإلى شمال هذه المدينة على الجبل قبر هارون



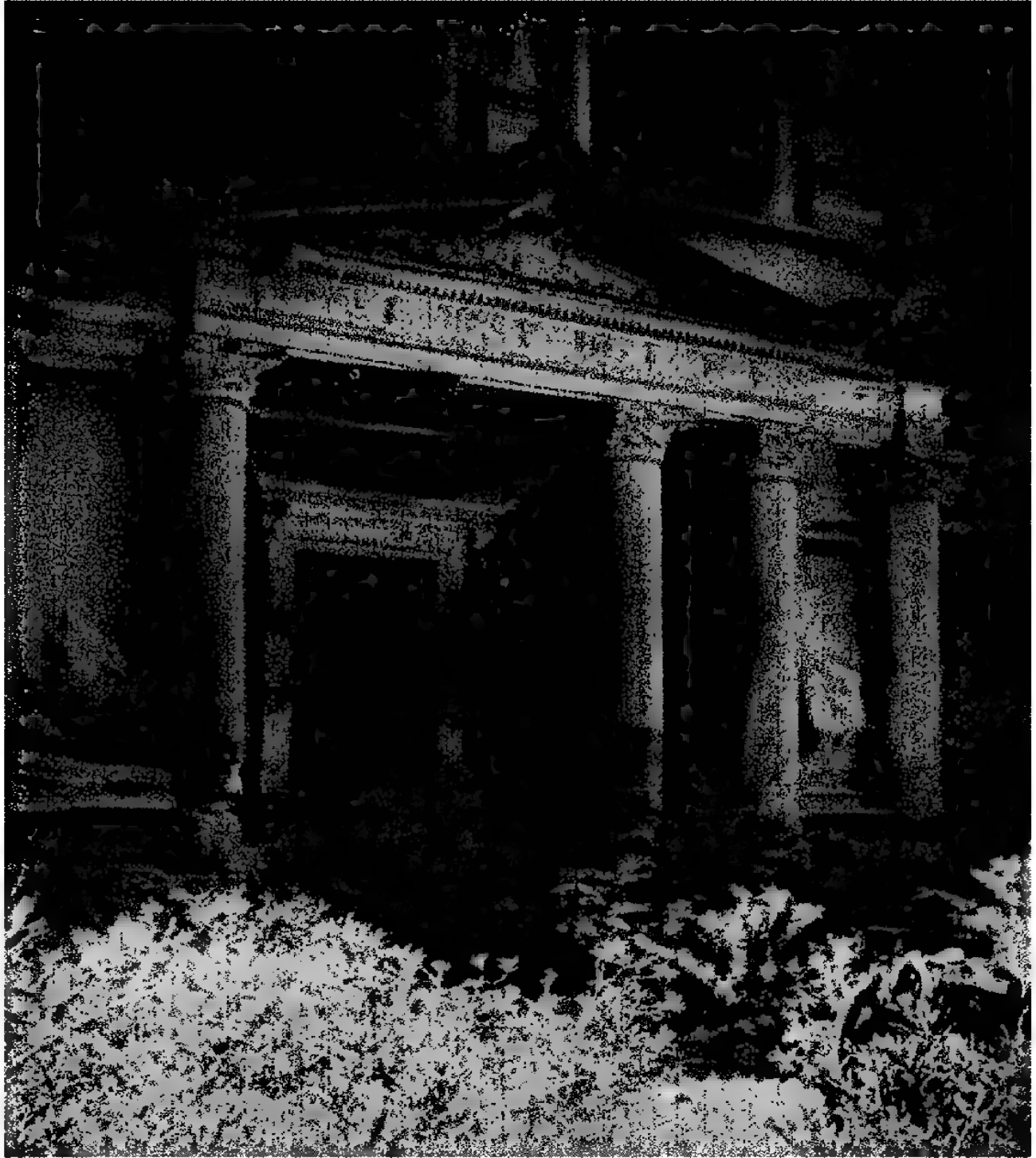
BOERNS & ANDERSON, CALIF.

خزنة فرعون في طيبة

وفي الظهر تناول سموه الغداء في دار منيسر باشا . وفي مبدأ الساعة الثالثة تحرك قطاره قاصدا حيفا ، فسار في صحراء واسعة ترى فيها الجبال على أفق البصر من الجانبين الشرق والغربي ، والارض في هذه المنطقة رملية تكثر فيها الحجارة الصوانية السوداء ، وكانت رؤوس الجبال الغربية التي يسمونها جبال الشيخ (وهي حلقة من حلقات السلسلة الجبلية التي تصل جبال لبنان بجبال السراة التي تقطع بلاد العرب من جنوبها الى شمالها) تلوح لنا بيضاء من الثلوج كأنها قد شابت ناصيتها من وحشة الوحدة في هذه البيداء الجافة .

أما الجهة الشرقية فكان يلوح لنا فيها من آن الى آخر ، بعد ميل الشمس عن خط الزوال ، بحيرات كبيرة من الماء ، على دائرة أفق هذه الصحراء . وكنا كلما اقتربنا منها زاد صفاؤها وتحرك ماؤها على بعضه بتموجاته البلورية ، وكانت تظهر في وسط هذه البحيرات أخى موسى ، ويقصده العرب من قديم الزمان لزيارته ، وقد ابنت الصليبيون قلعة إلى جواره .

وتحت جبال الشيخ أثر يقال له قلعة ناياس ، ويظنون أنه من أعمال الغسانية . وفي الكرك هيكل الشمس . وفي عرك الأمير هيكل من هياكل الامونيين ، يقال له هيكل العبد ، وفي عمان آثار رومانية تدهش العنل ، وفي ميدبة التي تبعد عن عمان بنحو عشرة كيلو متر ، آثار جميلة يسمونها خربة الفال . وفي حصبان (حسبان) التي تبعد عنها إلى الشمال الغربي بنحو خمسة عشر كيلو متراً آثار من آثار مملكة يهوذا ، ولم يحفظ منها إلا صهاريج جميلة منقورة في جوف الجبل ، ولها فتحات من أعلاها يدخل منها الماء ، وفي جرش التي تبعد عن عمان بنحو خمس ساعات آثار نفخية جداً ، ويقرب منها قبر يزعمون أنه لهود عليه السلام ويوجد في محطة القصر قلعة طيظا . وكان بمحطة مشانا آثار جميلة ، ومن ضمنها قصر من القرن السابع قبل المسيح وكانت له وجهة من الفخامة بمكان أخذها الالمان هدية من السلطان عبد الحميد ونقلوها الى برلين سنة ١٩٠٤ . وفي عمان آثار جميلة جداً . وأهم ما فيها القلعة التي هي من هياكل الامونيين ، وفيها كثير من المغائر والقبور المنحوتة في الصخور ، وعلى كل حال فهذه البلاد ملاءى بآثار الاقدمين التي يهتم بها الاجانب ولا يكاد يعرفها أهل البلاد أنفسهم واكبرها نخامة قلعة بعلبك الشهيرة ، اما آثار تدمر (بالير) في الشمال الشرقي لدمشق فحدث عنها ولا حرج والطريق اليها من حمص .



DEHN & ACHER, CA/OU

خزنة فرعون في طبره

أحيانا جزر قامت عليها غابات من الاشجار تزيد في جمالها ، حتى اذا تاقت لها النفس ، وصارت منك على تناول اللبس ، وجدتها احدى القيعان ، سكن فيها الشيطان ، فاذا وصلت الى جنبه للحظوة بشرا به ، وجدته كان لم يكن !!

ومع أنى بمجرد ما وقع بصري على هذه البحيرات كشفت مستورها ، وعرفت ضميرها ، ولكن كان يلفتني اليها على الدوام حسن منظرها ، والتفكر في مخبرها : فكنت أنا أفكر ان هناك منخفضاً من الارض مليء بالهواء ، وقد انعكست في مرآته قطعة من السماء الصافية وانكسرت على سطحه ظلال ما في دائرته من الاعشاب ، وأخذت تتحرك بحركة تماوجاته فتعددت صورها بما تكونت معه هذه الغابات الناضرة ، وسط تلكم البحيرات الباهرة !! وزد على ذلك ان العين التي لم تعثر في الصحراء الا على مناظر جافة ، تعظم ما تراد فيها من الصور اللطيفة ، وتنقله الى الوهم حقيقة مجسمة .

وكنت أحيانا أتخيل انها شيء من البحر تسرب ، ومنا اقترب ، حتى اذا خلب اللب بسنائه ، وجذب القلب بلا لائه ، واشتفت أن تنال من مائه ، فتح فاه ، وابتلع مياهه ، ضاحكاً من سذاجتك وبساطتك ' وكنت أتوهم آونة ان الصحراء ، أرادت أن تخفف عن أنصارنا منظر ذلك الجفاء ، فلبست لباس البحار ، وسط هذه القفار ، وأخذت تتلون تلون الحرباء ، وهل يبعد على شيطان الطبيعة أن يتشكل بما شاء ' حتى اذا اقتربت منه ضرب في الهواء ، وطار طير العنقاء .

للا بل هو السراب الذي « يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً » ، أخبرنا به القرآن قبل ثلاثة عشر قرناً ، ولم نعرفه أو ربا الا في القرن السابع عشر ، بل لم تتحقق من أمره الا تلك الحملة العلمية التي دخلت مصر مع نابليون بونابارت في رأس القرن التاسع عشر . ولا غرابة في ذلك فان السراب لا يوجد الا في صحارى البلاد الحارة : ذلك أن الشمس اذا ارتفعت حرارتها سخنت الرمال التي على سطح الارض فتسخن به طبقة الهواء التي تلامسها ، وهذه الطبقة تسخن التي فوقها ، وهذه تسخن التي تتلوها ، وبذلك يمتد الهواء في جميع هذه الطبقات بنسبة حرارة كل واحدة منها ، ويحدث من انتقال الطبقة الساخنة منه

الى أعلى ، ومن نزول الكتلة الباردة لتشغل محلها ، توجات تنعكس في صفاتها صور الاشباح القريبة منها ، وهذه الصور تنعكس بمجموعها في منخفض من هذه الرمال المتبلورة فتراها من بعد كأنها حقيقة مجسمة .

أمامونج^(١) (Nonge) وهو أول من شرح نظرية السراب ، وكان من أعضاء الحملة العلمية الفرنسية السابقة الذكر ، فقد ذهب الى أن السراب انما هو صورة أشباح حقيقية يشاهدها الرائي من بعد ، فيخترق شعاعه البصرى الذى يتقل صورتها اليه طبقات الجو التى تختلف في حرارتها وكثافتها كلما اقتربت من أرض الصحراء التى سخنتها حرارة الشمس ، يأخذ فيها سيرا طبيعياً على خط منحني تتصل دائرة بالارض في نقطة تنطبع في رمالها اللامعة صورة الشبح المرئى ، وهناك يتخيل للرأى انه يشاهد الشبح من هذه النقطة وليس كذلك .

والطريق الحديدى في هذه الجهة كثير المنحنيات ، بل تراه في حالات كثيرة مثل حرف (S) ، أى على شبه قوسين متضادين أخذاً بطرقى بعضهما ، وذلك يكون في حال صعوده على الجبال ، أو قطعه لها من جهة الى جهة أخرى . وما زال السير على هذا المثال حتى وصلنا الى محطة قطرانة ، وهى الثغر الحديدى لتصرفية الكرك التى تبعد عنها غرباً بنحو ٣٠ كيلومتراً ، وكان حضرة متصرفها قد حضر مع بعض رجاله لاستقبال الجنب الخديوى . وبعد تأديتهم الى مقامه الفخيم واجب التسليم والتعظيم استأنف القطار مسيره حتى وصل الى محطة الدرا فى منتصف الليل ، ومنها يتفرع الطريق الحديدى الى شعبتين : شعبة تسير نحو الشمال الى دمشق الشام ، والاخرى تسير نحو الغرب الى حيفا . وكانت في هذه المحطة زينة لطيفة لمقدم سمو الخديو المعظم وكان كثير من أهل الدرا (التى تبعد عن المحطة بنحو ألفى متر) قد حضروا للتمتع بمشاهدة طاعة الجنب العالى . ولهدم كثنافى هذه

(١) يرى صدقاً كمال بك ان الجيم التى تحتها ثلاث نقط أصلها أعجمى ونطقها يقرب من الثين المعطشة فلا يصح وضعها للدلالة على حرف (Q) الرساوية ، وحيث ان حرف الزاى الفارسية التى تكس بثلاث نقط تؤدى بالنطق بها هذا الحرف تماماً فالاولى استعمالها بدله فتقول مونج (Monge) مثلاً .

المحطة الى فجر اليوم التالى ، ثم سرنا فى أرض زراعية من عيونا وشمالنا حتى وصلنا محطة تل شهاب ، ومنها يتبدى الطريق الحديدى يسير فى جوف الجبل ، فكنت ترى القطار صاعداً ، نازلاً ، منجداً ، متهماً ، داخل فى نفق ، مشرفاً على هاوية ، قاطعاً قنطرة الى الشرق ، ليمر على كوبرى الى الغرب ، ذاهباً ، آيماً ، مقبلاً ، مدبراً ، كأنه الغزال فى لغتاته ، أو الثعلب فى روغاته ، متخطياً محارى الماء ، متباعداً عن مساقط السيول ! وبالجملة فهذا الطريق صورة صغرى من طريق السميرنج فيما بين ترستاوفينا . ومازلنا سائرين بين هذه الهضاب ، وهاتيك الشعاب ، التى تحيرت فى جمالها الالباب ، مندهشين من جلال طبيعة هذه الجبال ، ونخامة ما صنعتها بها يد الدولة من عظيم الاعمال ، متمتعين بما على سفوحها من الحضرة التى يكثُر فيها بصل النرجس فيه طرا لرجاء بعبيره ، والتى يرعى فى كلأها آلاف من قطعان الاقار والاعنام ، حتى نزل الوابور الى الوادى فشهدنا بعض الفلاحين يشق الارض بمحراثه (وهو أصغر من المحراث المصرى كثيراً) . وبعد كيلو ١٣٥ كثرت الخيام فى جوف الوادى الذى ابتدأ يعمر بالسكان . وفى الكيلو ١٠٠ غزت المراعى : فكنت ترى معالى الجبال ومواطنيها مفروشة ببساط أخضر سندسى يتلوّن منظره فى ارتفاعاته وانخفاضاته ، وشمسها وظله ، بألوان مختلفة ذكرتنى بتغيرات مناظر البوسفور الجميلة . وهذا الوادى يسمى وادى بيسان ، وبعضهم يسميه وادى الساسابان ، ويتبدى من محطة صماخ^(١) التى يتبدى منها جفلك السلطان عبد الحميد ، وفيه خمسون قرية ، وأرضه غاية فى الجودة يشقها الطريق الحديدى ومياهه غزيرة جداً . وكان القمح فيه على ارتفاع شبر من سطح الارض ، ويستقر هذا الجفلك الى محطة العقولة ، التى بمجرد ما تركناها شاهدنا بكل فرح وسرور مبانى حيفا . وقبل الوصول اليها ببضعة كيلومترات شاهدنا على

(١) ويقرب منها قرية حطين المشهورة بوقعتها الكرى التى حصلت في سنة ٥٨٣ هجرية بين صلاح الدين الايوبي والصليبيين وانصر صلاح الدين عليهم بهراً ميباً كان فاتحة لانتصاراته المتوالية عليهم . ويقرب من حطين قرية يقال لها خياره بها قرية شيب السى . وصماخ تشرف على بحيرة طرية وتسمى في البوراة بحر الحليل ، وهو أعظم بحيرات سوريا . وطولها من الشمال الى الجنوب ١٤ ميلاً ، وأعظم عرض لها ثمانية أميال .

يسارنا طر يقاً بالمكدام لمسحة القوم، وقد خرج اليه بعض الناس في عرباتهم لاستقبال أميرنا المعظم، وعلى حافته قهاوٍ قد اكنتت بالمتفرجين على مقدم هذا المليك الاكرم. وما زال القطار حتى وصل الى رصيف المحطة التي رفعت فيها أعلام الزينة، واحتشد الى رصيفها صنوف المستقبلين من علية القوم، وفي مقدمتهم مأمورو الدولة بين عسكريين، وملكيين، وقناصل الدول، والعلماء، يتقدمهم فضيلة القاضي والمفتي وأمين الاشراف. وكان جناب المتصرف ووكيله وقومندان عموم القوة العسكرية قائمين بحفظ النظام. ولما وقف القطار الخصوصي ضربت المدافع، وعزفت الموسيقى العسكرية بالسلام الخديوي، وصعد سعادة المتصرف الى الصالون مسلماً على الجناب العالي بالنيابة عن الدولة العلية، ودعا الى بهو المحطة الذي أعد لاستقبال سموه بصفة رسمية. فنزل حفظه الله وسار في وسط هذه الجموع التي لا يحصى عددها حتى دخل قاعة الاستقبال. وهناك ابتدأت التشريفات: فحضر الكبراء والعظماء للسلام على جنابه العالي، وكان يقدمهم الى سموه سعادة القائم مقام. وبعد ذلك قدمت المتصرفية الى جنابه الشامي ثم القهوة، وعندها قام باشكاتب المحكمة الشرعية وألقى خطابة طويلة مرحباً فيها بمقدمه السعيد، مهنئاً تلك الديار بشرف حلوله في ربوعها، ثم تلا قصيدة غراء في مدح فضائل الحضرة الفخيمة الخديوية، فشكره الجناب العالي. وقد كان حفظه الله مدة وجوده في هذه الحفلة يتكلم مع هذا بالتركية ومع ذلك بالعربية ثم مع كل قنصل بلغنه، منتقلاً من موضوع الى آخر بعبارات كلها بلاغة وحكمة حتى أدهش الحاضرين عمومًا من كمال معارفه، وواسع مداركه، وعظيم آدابه. وبعد نحو نصف ساعة ركب القطار الى الاسكندرية، وركب معه رجال الدولة مهنيين، مودعين، شاكرين لجنابه، مثنيين على آدابه، فشكرهم حفظه الله ثم سلم عليهم ونزل في الزورق البخاري لوابور المحروسة، فبلغها بسلامة الله الساعة خمسة بعد الظهر من يوم الاحد ٢٣ يناير سنة ١٩١٠ ونزل في ركابه العالي من كان في خدمته من رجال المعية السنية. أما بؤساء الحجاج المصريين الذين سافروا على نفقة الجناب العالي فقد أمر حفظه الله بتسفيرهم الى بورسعيد مع بعض رجال الحرس الخديوي على أحد ابورات الشركة الخديوية الذي كان منتظرًا بالميناء.

• وفي منتصف الساعة العاشرة مساءً تحركت سفينة المحروسة باسم الله مجراها الى ثغر الاسكندرية الذي ابتدأت تظهر معالمه في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الاثنين ٢٤ يناير سنة ١٩١٠ ، وهناك ابتدأ يتأثر وجودنا بعامل السرور والخبور ، ومازلنا حتى تجلى لنا شاطئ الثغر ، يتعاق مع ماء البحر ، وأخذت تأتينامنه سمات تترى ، حاملة روائح ذكية ، أحيت النفس ، وأنعشت الحس ، فكان ريحها منا كريج يوسف من يعقوب : نعم كانت تحمل إلينا ريح الاوطان ، والبنين والاهل والخلان ، فضعمناه لانه أحاط بجسوم الاحباب ، ونقل اليامن عواطفهم ما حرك فينا الاشجان ، وأهاج عبرة الوهان .

وما زالت المحروسة سائرة بنا حتى ألفت مرساها داخل الميناء في الساعة الخامسة مساء .

وعندها أطلقت المدافع من طوابى المدينة بين هتاف الآلاف من المصريين الذين كانوا قد ركبوا الزوارق وساروا بها الى ظهر البحر للتمتع برؤية مليكهم المحبوب . وهناك حضر دولة الامير محمد على باشا مع حضرات النظارات ومحبتهم السير ألدن غورست على زورق بخارى واستأذنوا في الصعود الى الركاب الخديوى . ولما تشرفوا بالثول بين يديه السكرى عتبن أخذوا يرتلون آى حمد الله على وصول مليكهم العزيز بكال الصحة والعافية . فأبدى لهم حفظه الله شكره وامتنانه ، ثم نزل وهم فى ركابه العالى الى زورق المحروسة ويم سراى رأس التين العامرة ، وتبعته دولة والدة وحاشيتها ، ثم رجال المعية السنية فى زوارق أخرى .

وكانت السراى الخديوية غاصة بكبار الموظفين ، وعظماء الاجانب ، وأعيان البلاد من أدناها الى أقصاها . وهناك جرت التشریفات على غير موعده ، وتشرف الكل بحضرة الجنب العالى ، واستلموا يدها هذا الاب البار الكريم ، مهنئين أنفسهم بسلامته ، وانصرفوا شاكرين مالا قوه من كرم سموه وعظيم إيناسه . وقد استقرت التشریفات الى مبدأ الساعة التاسعة ، وبعدها تناول الجنب العالى طعام العشاء بالسراى العامرة .

وكانت المدينة كلها كأنها قطعة من نور : للزينات التى أقامها الاسكندريون فى أطرافها ، والتى أقامها المجلس البلدى من سراى رأس التين الى آخر شارع عرشيد ، محترقة المدينة من طرف الى آخر . وكانت ثريات الكهرباء فى طول هذا الطريق على شكل أقواس نصر

تجمع أطرافها أوتار تتعاقق أشعتها ، وتتعاكس في مرآة صفاء هذا الجو ، حتى كان يتخيل لك أن الدراري قد نزلت من أفلا كما تساعد الاسكندريين على معالم الزينة احتفالاً بمقدم أميرهم المحبوب . وعداد ذلك فكنت ترى الدكاكين والمنازل على طول الطريق وخصوصاً في مساحة المنشية ، وشارع شريف ورشيد ، قد قامت عليها معالم الزينة بأشكال بديعة تختلف في مناظرها ، وتتفق في حسن تنسيقها . وكنت ترى بين تلكم الأنوار ، الاعلام على اختلاف جنسياتها ترفرف بين هذه الاضواء ، فتكسيها رواء على رواء .

وكان الناس على جانبي الطريق كالبيان المرصوص ، تتقدمهم رجال البوليس ، ويتخللهم عمال المجلس البلدى حاملين في أيديهم ثريات الشوارع انتظاراً لتشريف الجناب العالى الذى تفضل فوعده بزيارة دار البلدية بناءً على التماس المجلس البلدى .

وفي مهابه الساعة التاسعه ركب حفظه الله عربته خديوية والى يساره سعادة محمد سعيد باشا رئيس النظار (وكان باظراً للداخلية) ، ومر على زينة العروة الوثقى التى كانت في مبدأ شارع رأس السنين . وكان أعضاؤها مجتمعين في سرادق عايه في البهجة والجمال انتظاراً للركاب العالى . فتنازل جنابه الفخيم ووقف لحظة شكر فيها أعضاء الجمعيه ، ثم سار بين دعاء الاهلين وهتافهم الى ميدان المنشية ، فشارع شريف ، فشارع رشيد . وكان كلما مر هتف الناس له بأصوات السرور والخبور ، بما كان يتردد في جميع الأرجاء ، ويرتفع الى عالم السماء . ولما وصل حفظه الله الى سراى المجلس البلدى استقبل بما يليق بمقامه الكريم ، من الاجلال والتعظيم . وبمجرد ما استقر بالصالون الذى أعد لجنابه الفخيم ، قام رئيس المجلس وتلا بين يديه الكر يمين خطبة رحب فيها نيايه عن الاسكندريين بمقدم سموه من حجه المبرور ، وسعيه المشكور ، وهو على ما يرجو الكل له من الصحة والعافية . فشكره الجنا ب العالى ، ثم قام حفظه الله الى البوفيه فأخذ شيئاً منه وبارح المكان بين مظاهر الاجلال والاعظام ، وعاد الى سراى رأس التين العامرة من الطريق الذى حضر منه وكان احتفال الاهالى به في إيايه لا يقل عن احتفائهم به في ذهابه .

وفي صباح يوم الثلاثاء ٢٥ يناير قصد الجانب الخديوى محطة الباب الجديد فى كوكبة من حرسه ، وكانت المحطة غاصة بأعيان الاسكندريين ، وكبار الموظفين ، وكثير من سراة البلاد ، فلموايده الشريفة ، وركب حفظه الله يحف به حضرات المطار ، وسار القطار على بركة الله الى مصر . وكانت زينات المحطات على طول الطريق الحديدى مما لم يسبق لها مثيل خصوصاً فى دمنهور ، وطنطا ، وبركة السبع ، ومنها ، التى احتشد على أرصفتها عمد وأعيان البحيرة والغربية ، والدقهلية ، والمنوفية ، والشرقية ، والمليوية ، يتقدمهم حضرات المديرين ، وكبار المستخدمين . وشرف القطار الخديوى محطة مصر فى مبدأ الساعة الثانية بعد الظهر : وكانت المحطة غاصة بأعيان القاهرة ، والعدد الجم من أعيان الوجه القبلى ، وفناصل الدول وكلائها ، وكبار مستخدمي الحكومة السنية ، وفى مقدمتهم العلماء والأعلام ، والامراء الكرام ، والذوات الفخام ، وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية يتقدمهم دولة البرنس حسين كامل باشا (وكان رئيساً لهما) . والحلمة فقد كان هناك كل ذى حثية كرمى ، وكان كل من صاحب السعادة محافظ مصر وحكدارها يقوم بالنظام العام . ولما وقف القطار نزل الجانب العالى الى الرصيف المحطة التى كانت كالعروس فى زينتها ، وسلم على الخاضعين واحداً واحداً ، ثم سار تحف به رجال حكومته حتى ركب عربته والى جانبه سعادة رئيس المطار ، بين دى طلقات المدافع وعزف موسيقات فرق الجيش المصرى ، وجيش الاحتلال ، التى كانت فى رحبة المحطة لاداء واجب التعظيم . وقصد حفظه الله سراى عابدين بين جموع الخلق الدين لا يحصى عددهم والذين وقفوا صفوفاً يتلو بعضهم بعضاً فى عرض الطريق وطوله الى السراى العامرة ، ورجال البوليس أمامهم لحفظ النظام .

وكانت كلما مرت عربة الجانب الخديوى هتف الناس هتاف السرور لمشاهدة مليكهم المحبوب ، بما كانت ترتج له أطراف مدينة القاهرة ، بحال لم يسبق لها مثيل بالمرّة . وكانت الدكاكين والمساكن التى على جانبي الطريق رافعة أعلامها على اختلاف جنسياتها حتى اذا وصلت العربة الى ميدان الأوبرا كان الناس فيها على بعضهم : هذا واقف على

الارض وذلك واقف في أوتوميله ، وآخر على عربته ، والبل كونات والشبابيك قد ملئت بعلى المتفرجين من الجانب والاهلين نساء ورجالا ، والكل يهتف بأصوات الفرح . ولم يصل الركاب العالى الى السراى العامرة الا فى منتصف الساعة الثانية تماما .

وفى المساء لبست المدينة حلة من الانوار ، وبدت زينة لجنة الاحتفال بعيد الجلوس المأنوس فى أبهى مظاهرها ، كما تجلت الزينات الخصوصية التى أقامها الاهلون والجانب من جميع أنحاء القاهرة . وبالجملة فقد كانت المدينة فى زينة باهرة ، وكانت كلها من ثريات الكهرباء على شكل أقواس نصرمتالية من السراى العامرة الى المحطة ، وكان اتصال هذه الاقواس بحيث كنت ترى الطريق قد تغطت بخيمة صيغت من قباب من نور .

وقد أقامت لجنة الاحتفال فى ميدان عابدين سرادقا فخيا جذا كانت تتلأأ أنواره ، وتتألق أزهاره ، وتتصل أشعة أضوائه الى منافذ السراى العامرة حاملة عواطف الرعية الصادقة الى هذا الملك المحبوب . وتنازل حفظه الله بتشريفه صيوان اللجنة فى منتصف الساعة العاشرة مساء . فاستقبله حضرات أعضائها بكل ما يمكن من مظاهر الاجلال والاعظام ، وتلا حضرة رئيسها عثمان بك مرتضى المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية خطا با بليغا بالنيابة عن اللجنة ، حمد الله فيه على وصول هذا الملك الكريم بسلامة الله من رحلته المباركة ، ثم رفع الى مقامه السامى عبارات الشكران والامتنان على تنازله بتشريف الاحتفال . فشكره الجنب العالى وأثنى على همه اللجنة التى تمثل هذه الامة المخلصة بخطاب كله درر وغرر . وعندها قدمت المرطبات لجنبه السامى فتناول منها شيئا ، وأمر حفظه الله فأديرت على عموم الحاضرين ، وعند ذلك قام حضرة الشاعر المصرى النابغة حافظ افندى ابراهيم وتلا عن ظهر قلبه فى هذا المكان الرهيب قصيدة آية فى البلاغة يهنئ فيها مصر بوصول الجنب العالى بسلامة الله . فشكره سموه ، ثم كرر شكره لحضرة رئيس لجنة الاحتفال وأعضائها ، وركب حفظه الله عربته وسار مخترقا طريق هذه الزينات الباهرة ، وآلاف الناس على جانبيه مكررين آيات الهناء والدعاء ، حتى وصل بسلامة الله تعالى الى سراى القبة العامرة فى مبدأ الساعة الثانية عشرة مساء .

وفي يوم الخميس ٢٧ يناير كانت المقابلات الخديوية : فكنت ترى السراى العامة قد ضاقت رحباتها عن جموع المهنيين من الاجناس المختلفة، والآلاف من وفود الارياف من أصوان الى الاسكندرية يردون الى عابدين أفواجاً أفواجاً لتقديم واجبات التهاني الى الاعتاب الخديوية ، والسراى الخديوية تموج بهم بحال لم يسبق لها نظير، وكان الجناب العالى حفظه الله يقابل الكل بلطفه وإيناسه . وفي مبدأ الساعة الثانية بعد الظهر تمت التشریفات وانصرف الناس وكلهم ألسنة ثناء ودعاء لحفظ هذه الذات العباسية المأنوسة المحروسة درة فى جبين الدهر ، وتاجاً على مفرق هذا العصر .



تقريظ صاحب الفضيلة شيخ المشايخ الاعلام مولانا الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

نحمدك اللهم حمد الشاكرين، ونصلي وسلم على صفوة خلقك أجمعين، وآله الطيبين، وصحابة الطاهرين. وبعد فإن أسمى ما حطه يراع، وسما به ابداع، وعمقه بنان، وأظهره بيان، من ضروب النول وبنوف الكلام، ما كان متصلاً بحج بيت الله الحرام، وزيارة حضرة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وقد اطلمت في هذا الباب على السفر الجليل الموسوم بالرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خدوم مصر، الذي وضعه حضرة الكاتب الماهر، والمثني البليغ، سعادة محمد لبيب بك البتنوني، فوجدته من أحسن ما كتب الكبار في هذا الموضوع البديل، والمنصف الخليل، ومن خير أدوار في وصف ملك الباع الطاهرة والمعاهد المباركة. وإذا كان قد سبق هذا المؤلف كثير من حول العلماء والمؤرخين في الكلام عليها، والكتابة فيها، فكاتبوا أو وسعوا، وأطالوا أو شبعوا، فإن كتبهم لم يتناول جميع الاعراض التي انفسح لها هذا الكتاب، وطرقها من أحسن الابواب: فتمد قصر بعضهم كتابه على جغرافية البلاد. وغيره على تاريخها العمراني، والبعض لم يتجاوز كتابته مواضع العبادة ومناسك الحج. وأنت بمرور بطرك على عنوانات هذا الكتاب ترى أن واضعه بارك الله فيه، قد بلغ إلى انغابة من كل ما يريد العاري أن يتعرفه في جزيرة العرب، مما يتعلق بامر دينه أو أمر دنياه، بيان يسحر الالباب، واسلوب يعجز الكتاب، فهو وان جاء متأخراً عن تقديمه في مثل هذا التصنيف، فندسبته في أن جمع إلى حسن الاختيار سبك التأليف. وجملة القول أن هذا السفر جاء برهانا واضحاً، وحجة ناطقة، بما مؤلفه الفاضل من سعة الاطلاع وغزارة المادة. هذا واذن صبحه التوفيق، واهد لنعم الرفيق، فحري قلبي بما جرى تسطيراً لرحلة الداوري الانخم، والاميرالمعظم، ولى النعم، محيي الهمم، عزيز مصر، فليواصل معنا الدعاء الى الله تعالى أن يديم ذاته السنية، ملحوظة بعين العناية الربانية، وأن يحفظ ملكه،

وينخذ أيامه ما دارت الافلاك، واستنارت الاملاك، آمين. خادم العلم بالازهر

سليم البشرى

تقريظ صاحب الفضيلة وشيخ الادباء والكتاب الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ليبك اللهم ليبيك ، نحمدك على ما أنعمت وأعطيت ، ونشكرك على ما تفضلت وأوليت ، ونصلي وسلم على المبعوث لتكميل مكارم الاخلاق ، وكانت نعمته عامة لكل الناس في كل الآفاق ، سيدنا محمد وآله وصحابة التابعين اءالعاملين على سنته ما طلع النيران ، وتعاقب الجديدان ،

وبعد من المعلوم للعموم أن تفاضل العلوم في المرتبة والشرف اعما هو بشرف موضوعاتها ، وتفاوت غاياتها ، وكلما كان موضوع العلم أعلى وغايته أسمى كالتوحيد ، كان هو بالنسبة لغيره في المرتبة الاولى ، وعلى هذا أيضاً تتفاضل الاعمال الصادرة من خبرة الرجال ، وكلما كان العمل أعم ، وغايته أعم ، وموضوعه أرفع ، ونمرته أجمع ، ونتيجته أرفع ، كان هو بالنسبة لغيره من الاعمال أرقى وأعظم ، وأعلى وأشرف ، كما هو مشاهد للعيان .

اسعدني الحد ففتحت هذه الرحلة الحجازية التي كتبها الفاضل محمد بك ليب البتنوني وقرأتها كلمة كلمة وتتبع غايتها خطوة خطوة ، فاذا مرضوعها حج مولانا وموئلنا عباس حلمي باشا الثاني ، خديم مصر الحالي ، أدام الله أيامه ، وأعلى أعلامه ، ومن الواضح الجلي أن هذا المضاف وهو الحج هو في ذاته عمل ديني بدني منيف ، وركن من أركان الدين الحنيف ، فهو في حد ذاته عمل شريف . وأن هذا المضاف اليه وهو الجنا ب الحديوي الاعظم هو ذلك الذات الاكرم ، أشرف ذات في الاقطار والامصار ، وليس من يدانيه أو يضاهيه في شرف المحتد والعنصر والاصول ، ولا من يشبهه في حسبه ونسبه أو في مركزه وعلوم مقامه ، فالعمل الذي قام به الجنا ب العالي في هذه الرحلة المباركة من أشرف الاعمال (خصوصاً أنه فضله على ما أوتيته وقتاً مامن أبهة الملك وجلال السلطان) ، والعامل وهو جنا ب الفخيم هو أشرف الرجال ، فموضوع هذه الرسالة من أشرف الموضوعات ، ولذلك نحكم بان تأليفها عمل من أنحر الاعمال ، يبقى حجة على ان حج مولانا العباس ، خير كله للناس ، ببقاء الدهور والازمان .

ربما ساعد على قبول العمل وتعميم النفع به ما يكون لعامله من المنزلة بين أهل فنه ومعرفة فهمه بانه كفؤ للعمل ومخلص فيه والحمد لله قد استجمع الكاتب لهذه الرسالة هذه المزايا فمزنته بين أفاضل الكتاب منزلة المجيد، وكفاءته كفاءة القادر المجتهد، وأخلاصه في عمله هذا لا يحتاج الى برهان .

لا يعترى واحد ولا يختلف اثنان في ان الغاية من هذا السفر الواجب الذي انشأه مولانا العباس، هي من أشرف الغايات وأكمل المقاصد، لانه أدى به واجبا من واجبات الدين المفروضة على كل مستطيع من المؤمنين، وتحبب فيه بالزيارة لسيد المرسلين، وفوق هذا القصد قد ضمن سفره المبارك فوائد اجتماعية عامة النفع، فجمعت رحلته الميمونة بين المفروض والمسنون ومصالح العباد، وأهمها ان تقتدى بعمله هذا عامة أمراء المسلمين، وكبار السراة والمثريين، في قصده هذه المنازل المقدسة، وأسداء المبرات، وارسال الحسنات والخيرات، فتعمر بها هاتيك البلدان .

ولان ذكر للاستدلال على ان للجناب العالي حفظه الله مقاصد عاليات غايات، أكثر مما جاء في ارادته السنية التي أصدرها قبيل سفره الى رئيس نظاره اذ ذاك فقد جاء فيها مانصه (وانا لارجو أن يكون توجهنا الى تلك الاقطار المباركة ووقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم باعنا في المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم) ، وقد حقق الله رجاء جنابه الفخيم، واتخذت الاحتياطات الكافلة لراحة الحجاج في هذا العام أكثر مما كانت في غيره من الاعوام . وما تغير خطة السفر وتبدل الطريق الا احدى هذه النتائج المباركة التي تعود على الحجاج بالخير والبركات ان شاء الله . وليست هذه وحدها بل قد علمنا أنه عقب عود سموه من السفر السعيد أرسل وفدا من خيرة الرجال لينظروا في حال الطريق من جهة الوجه، فذهبوا ورسموا واشتغلوا وحكموا وعادوا الى مصر فمرضوا عملهم على أنظاره السامية وسيكون من وراء ذلك كله الخير الجزيل، فيكون الحجاج في أسفارهم على أحسن ما يكون من الامن والاطمئنان .

ربما عددنا تأليف هذه الرسالة من خير نتائج هذه الرحلة المباركة فانها جاءت في بابها

حكمة الوضع، متقنة الصنع، مفيدة لمن يقصدون الحج بمعرفة مسالكه ومناسكه على المذاهب الاربع، ولمن لم يسافر بمعرفة هذه المواطن وما فيها من عجائب القدرة وما كان لها من شرف في الجاهلية والاسلام، وهذا من أشرف ما يقصده القاصد، ويطلبه الرواد، ويعمله ذوو الفضل والعرفان .

اشتملت هذه الرسالة أولا وبالذات على وصف تنقلات الركب الخديوي من مصر الى السويس فحديقة المكرومة فالوجه فالمدينة المنورة ومنها الى حيفا الى الاسكندرية في العود، وما بين هذه المواطن الكبرى من المنازل الصغرى، فقد وصف الكاتب في كل من هذه الامكنة وصفات تفصيليا ما كان للجناب العالي من الحفاوة بمقدمه المبارك رسمياً وغير رسمي حتى لكانى بالقارى* لهذه الاوصاف يعد نفسه حاضرا مشاهدا بنفسه هذه الاختفاءات في تلك الاستقبالات فيعظم من قدرها كما عظمها الحاضرون، ويتمنى أن لو كان له فيها خدمة شخصية حتى يشارك أهلها في أداء الواجب لهذه الذات الجليلة المستحقة لكل اعظام واحترام، ولكنه يعود فيكتفى بما شاهد في الرسالة ويلتزم التعظيم القلبي الوجداني والدعاء بظهر الغيب بان يحرس الله هذا الجناب للبر والمعونة والفضل والاحسان .

وصف هذا الكاتب البليغ هذه المشاهد ووصفاً حقيقياً ولم تفته دقيقة في تبيان الزينات والاستقبالات والاستعداد للملاقة على أكمل الهيئات، وما كان للخاصة من الحفاوة اللائقة بمقامه الكريم، وما كان للعامة من الاجتماعات حول ركبته المهيبة، وضجيجهم بصالح الدعوات، وقد تنقل الكاتب في ذلك من أسلوب الى أسلوب ومن تعبير الى تعبير، ولا غرو فالجبال فسيح، والقائل فصيح، وما هي الا كتابة ما عليه الواقع وتصوره المشاهدة، فما على الكاتب الا نقل ما شاهدت العينان الى العيان . وتفاوت الكتاب في هذا الباب انما هو في القدرة على التصوير، وما أقدر كاتبنا على تصوير هذه المناظر حتى جلاها للقارى* بحسمة المعاني تكاد تلمسها اليدين .

وكما أبدع الكاتب في وصف هذه الهيئات الدنيوية، أغرب في وصف ما كان للجناب العالي حين تأديته للمناسك المفروضة من عظيم التواضع وكبير الخشوع، حتى ان جنابه لم يبال

بالمظاهر الدنيوية وأدى مناسكه كلها من احرام وطواف واستلام وسمى ووقوف بمرفة ورمى للجمرات كما يؤديها من عاش عمره في شطف العيش وخشونة البدن، ولم يحفل بتعب الجسم فادى السمي ما شياً على انعمين مع حجة أدائه راكبا حتى لا تقوته مشوبة المشقة ولا أجر التعب، وكذلك أدى المسنوبات على وجهها الاكمل كما يؤديها عامة الناس، ثم بعد هذا تقع الفقراء والمساكين من أهل هذين الحرمين الشريفين بما تفحهم به من الصدقات، وأعان الحجاج الملهين بتسعيرهم على نفقته الخصوصية، فجزاه الله عن دينه وفقراء عبيده أفضل ما يجزى به إنسان .

ولقد اشتملت هذه الرسالة بعبارة على فوائد تاريخية لا شهر البلدان ولا شهر الرجال ولا شهر الاعمال، ففي كل بلد من البلاد الكبيرة كجدة ومكة والمدينة تكلم عن أوصافها أوصافاً جغرافية من جهة تجارتها وعمرانها وعلومها وسكانها ومعاربها ومزارعها وآثارها، وبين على الخصوص تاريخ مكة القديم والحديث ومن له اليد الطولى في عمارتها ثم تاريخ الكعبة ومن بناها والازمان التي بنيت فيها وكسوها ومن كساها واحلا وحار جاوعين زينة ومنافعها، وما للأسرة الحديثية من منافع مادية وأدبية في تلك البلاد، وحروب الوهابيين وانقاذ المدينة ومكة منهم . وأحسن شيء استأملت النظر ما تكلم به عن قرامنا حواء في جدة فإنه لا يبقى معه للشك مجال في أن هذا التاريخ هو على اسمها فقط كما يوجد كثير من الاضرحة في بلادنا باسم البعض من الصالحين وليسوا فيها على التحقيق . وألطف من هذا أنه نبه على ما يعتمد في مكة من جهة الامور الصحية (خصوصاً في عين زينة و بئر زمزم وجهة المسعى) وغبر الصحية بادق عبارة، وطالب الاصلاح باشارات مؤدبة للغاية وهذا هو اللائق برسالة الفت لغرض شريف هو بيان رحلة أكرم امير اسلامي فإنه لا يليق بها الا الكمال في التأديب والتلطف في البيان .

ثم انه وصف الطريق بين القديم والحديث بين الحرمين وبين مصر فاجاد وأفاد، وذكر تاريخ الاسفار ومعدار ما كانوا يفاسون منه وعورة الطريق وطول الزمان، ثم وصف الحرمين الشريفين وصفا مدققا من جهة الحدود والسعة والتاريخ وما تجدد في كل منهما من العمارات، كل ذلك بعبارات في نفسها واضحة ومؤيدة بالنقل والنصوص من الكتب المعتمدة

مما لم يسبق اليه هذا الكاتب المجيد، وما على من وصلت اليه هذه الرحلة الا تتبعها واستيعابها
يتضح له صدق ما قلناه ويثني على كاتبها بكل لسان .

لقد حمدناه عندما بين سنة الطواف وأصلها، وعندما أوضح احترام بعض الاحجار للناس
من قديم الزمان حين الكلام على استلام الحجر الاسود، وعندما تكلم عن احترام الحمام في
كل صوب وناحية قديما وحديثا حين الكلام على حمام الحمى وهو الحمام الذي يأوى الى
بيت الله الحرام فيكون آمنا، وعندما تكلم عن لباس الاحرام وأصل استعماله قديما بين أمم
كثيرة من البدو والحضر، الى غير ذلك من القوائد التاريخية التي تناسب كتابا مثل هذا
الكتاب ، ولقد أعجبنى كثيراً بآبار الحدود والمسافات وتعداد الحجاج ط من مدينة الى أخرى
كما بين مكة والمدينة أو بين المدينة وحيفا مما يحتاج اليه في مثل هذه الاسفار الطوال ، كل
هذا أفوله بعبارة مجمل تنوّه عما تضمنته هذه الرسالة من نضرة العلم ونور العرفان .

ومن المباحث التي تعجب كل قارئ ما استظهره المؤلف في أصل وضع الروضة
الشريفة والحجرة النبوية المنيفة من أنها هي بذاتها ما كان داراله في حياته عليه الصلاة والسلام
وان ما استدلل به على ذلك من الاحاديث الواردة فيه منتج لما استظهره فيما أعلم ، وكذلك
كلامه على الكورنتينة وقوم صالح وما حققه المحققون في بثهم وتاريخهم وكيفية مجيئهم الى
وادي مدائن صالح، فكله مقبول ومعقول، يؤيده ما أورده من النصوص والنقول، فلا نطيل
فيه القول ولا نؤيده بغير ما أيده به من البرهان .

ولقد اطلعت على الخرائط الكروكية والرسوم القوتوغرافية التي وضعها للحرمين
الشريفين (خصوصاً ما كان عليه الحرم المدني في عابره وحاضره) ليحلى بها جيد هذه الرسالة
من مناظر المواقع ومناظر الحفلات الرسمية في كثير من الاستقبالات وكلها رسوم جلية
واخفة تمثل تلك المشاهد للعيان .

ظهر من هذا المختصر الذي ذكرناه ان هذه الرسالة قد شرف موضوعها حج الجنب
العالي الخديوي الشرف الذي لا يضاهيه شرف، وشرفت غايتها كما سلف، وارتفعت منزلة

کاتبہا عند کل من ذاق وعرف ، فلم یبق الا ان نصفہا حقاً بانہا اشرف رسالۃ ألقت فی هذا العهد لهذا القصد ، فلیدم اللہ سبب تألیفہا (الجناب العالی) فینا نوراً ساطعاً ، ولیق مؤلفہا فی ظلہ الظلیل عاملاً نافعاً ، ولتکن ہی لقراءہا دواءً ناجعاً ، ولینتفع بہا طلاب الفضل والفضیلۃ فی کل زمان وفی کل مکان .

کاتبہ

« عبد الکریم سلمان »

